سليمان سليم علم الدين

التصوُّف الإسلامي

تاريخ - عقائد - طُرُق - أَعلام

التصوُّف الإسلامي

التصوُّف الإسلامي

تاريخ - عقائد - طُرُق - أَعلام

سليمان سَليم عَلَم الدين

نوفل

الطبعة الاولى ١٩٩٩

نوفل
٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١) ٣٥٣٥٠٨ (٠٣)

مقدّمة

اضع بين يدي القارئ هذه الدراسة عن التصوف الاسلامي، نشأته وانتشاره في البلاد الاسلامية، عقائده، احواله مقاماته، طرقه، زواياه، علمائه واهله وما قالوه وما قيل فيهم.

انا لا اشاطر اهل التصوف رأيهم في العقل. انا اقدس العقل الذي ابدعه الله تعالى من نوره، وهو ثاني الله وارادته على الارض. العقل خالق كل الاشياء، ومدبّر كل الاشياء وعاقل كل الاشياء، والنور الاول قبل الكائنات وهو مصدرها، لانه اصل الوجود.

الصوفية يتجاهلون العقل ويعتبرونه للاستدلال على خالق الكون، والبحث عن كنه الله تعالى، فالعقل عندهم وسيلة واستعداد لتحصيل العلم، لذلك لا يجوز حصر نطاق المعرفة فيه، فهو لا يحد الالهيات ولا يدرك معرفتها.

إنّ المغالاة في الجوع والسهر لقهر واذلال النفس، كأنها اثم يجب الخلاص منه، تتنافى مع مشيئة الله تعالى الذي خلق جسم الانسان، المعجزة الباهرة، وابتدعه منة منه ونعمة على خلقه، فعلى العبد الاعتناء به والحفاظ على هذه النعمة الالهية لا العمل على تعذيبها واذلالها بالجوع والضنك. فالله، عزّ وجل، لم يحبذ التقشف والجوع. يقول تعالى في كتابه الكريم «يا ايها الذين

آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض»[1]. وقال الرسول الكريم، «صلعم» «اذا انعم الله على عبد احب ان يرى النعمة عليه». والنعمة ليست ضنكًا وهزال الجسم وقهر النفس ولبس رث الثياب العفنة.

السيطرة على النفس تكون بواسطة العقل مدبّر الكون، وبمشيئة المولى وهو على كل شيء قدير. تحكّم الاقوى بالقوي خير من التحكم بالضعيف ومحقه.

اوافق اهل التصوف على عبادة الله تعالى مباشرة من دون وسيط. فالمخلوق لا يحتاج الى وسيط لعبادة خالقه، فهو يعبده في كل مكان وزمان، لا هياكل شامخة او معابد مزخرفة، لا ائمة او كهنة او احبار، والخلق عند خالقهم سواسية كأسنان المشط، فلا ميّزة لمخلوق على مخلوق عند ربه، إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

علماء ومشايخ الدين هم من خيرة الناس. اغناهم الله تعالى بالعلم والمعرفة والحكمة، يفسرون لعباده ما غاب عنهم من مبدعاته او اشكل عليهم من حكمته، يهدونهم الى الاعمال المحمودة وينهونهم عن الافعال المذمومة. يرشدون المريد الى سلوك طريق الحق، لكن لا وساطة لهم، ولا وكالة لديهم ولا شفاعة عندهم، وطريق العبد الى الحق دليلها عبادة الله وتوحيده.

امتدّ التصوف الاسلامي على قرون عديدة، اعتنقته الملايين من الناس[2]؛ فبُنيت للصوفيين الوف الزوايا واغدقت عليهم الاموال الطائلة،

١– سورة البقرة آية ٢٦٧.

٢– في عهد السلطان مراد الثاني العثماني بلغ عدد الصوفية البكتاشية ما يزيد عن سبعة ملايين صوفي.

واوقفت لهم القرى والمزارع، وكان جل ما قدموه بالمقابل للفكر الاسلامي، لا يتناسب مع هذا الاسراف من الجهد الروحي والثروة المادية التي اهدرت عليهم. اذا استثنينا ابن عربي والسهروردي وبعض المطالعات الفلسفية الروحانية للغزالي، الفيلسوف الذي تصوف، واشعار ابن الرومي والعطار المشبعة بالعشق الالهي والحكمة الصوفية، ثم اراء بعض الحكماء الاوائل كالترمذي، والتستري، والجنيد والمحاسبي وغيرهم، يكون ما قدموه للفكر الاسلامي نزرًا يسيرًا.

يعتبر معظم المفكرين ان التصوف فيض من السكينة والاطمئنان الروحي والنفسي للصوفي. الواقع ان هذه الحالات النفسية التي تغشى الصوفي، هي انفعالات فردية لا يستفيد منها المجتمع او يغنى بها الفكر، بل تعود فائدتها على صاحبها دون غيره.

بالرغم من عدم وجود التبشير الديني في الاسلام، كما هو الحال في المسيحية، فلا شك في انه كان للطرق الصوفية الفضل في ادخال الاسلام ونشره في بعض بلدان افريقيا والشرق الاقصى. اما في الهند، فيختلف المؤرخون؛ منهم من قال ان التصوف ادخل الاسلام الى الهند، كما قال آخرون ان التجار المسلمين هم الذين ادخلوا الاسلام الى الهند، الذي اعتنقه، فيما بعد الزهاد الهنود.

وللتصوف الاسلامي انصار ومؤيدون اوفياء علماء عندهم الحكمة الوافية والمعرفة الكافية، ونحن نجّل اراءهم واقوالهم ونحترم حقهم المقدس في اعلان وتأكيد ايمانهم بما يعتقدون، والايمان ركن الدين واساس العبادة والتوحيد. قال الامام الاول علي بن ابي طالب: «اذا تعذرت عليك الحقيقة فعليك بالايمان فهو طاعة الله تعالى».

جلُّ ما ابتغيه من هذه الدراسة هو عرض كامل، وإنْ موجزًا، للتصوف الاسلامي ولنشأته وعقيدته ومسلكه، وليس انتقادًا او تبريرًا لاهله. فهو

موضوع ذو جوانب عديدة مختلفة، اعتنقه البعض وكفّره البعض الاخر، وعلى الانسان الاختيار، ونحن، بحمده تعالى، مخيّرون في اعمالنا ومعتقداتنا، فمن اصاب فله الثواب ومن اخطأ فله العقاب وسبحان من لا يخطئ.

سليمان سليم علم الدين

الصوفية

الاسلام قوة هذه الامة، هو الذي جمع شعوبها وحدةً تامة بالرغم من تفاوت اعراقهم واختلاف السنتهم. القرآن لواؤها ومنه ومن السيرة النبوية الشريفة، انبثقت جذور الصوفية الاسلامية ولكنها اعتمدت على الاشارات والرموز والدلالات مبنية على انفعالات نفسية غامضة، وبذلك تختلف عن القرآن، وهو هداية لكل البشر على اختلاف ميولهم، الذي نزل بلغة عربية[١] لا غموض فيها ولا رموز.

يقول الامام موسى الصدر: «الآيات القرآنية انزلت على الطريقة المألوفة للتفاهم، وهي الطريقة التي تعتمد على الدلالة الوضعية التي يتكلم بها جميع الناس، ولا تعتمد اصلاً على الطريقة الرمزية والدلالات العقلية الغامضة، ولا على علم الاعداد وحروف الجمل ومقاطع الابجدية.» ثم يقول: «ان كلام الله هو كالحقيقة العينية، او هو الحقيقة بعينها، له جوانب من الدلالة ومراحل من التفسير، كل واحد منه مقصود للقائل حجة على المستمع وطريق للمؤمن[٢].»

١- سورة طه اية ١١٣

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» هنري كوربان. المقدمة ص ١٠

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي[١]: «وآفة التصوف هي آفة كل علم انساني اعني: الانحراف عن روحه والابتعاد عن الغاية منه، واساءة فهم مقاصده. فكما ان آفة الفقه والقانون هي التزام الشكل واطراح المقصود، وآفة العلوم الطبيعية اساءة استخدامها من اجل التدمير والاستطلاع الزائف، وآفة التاريخ توهم امكان عودة الماضي وتكراره، كذلك آفة التصوف هي اتخاذ المظهر في اللباس والبوادر بدلاً من السلوك المطابق في روحه لمبادئ التصوف والتعلق بالمجاهدات الخارجية بينما الباطن خَرِب يتردى في هاوية الرذائل والتبطل وعدم السعي وابتغاء العيش والتنعم على حساب الآخرين ومن ثمار جهودهم».[٢]

ويصف الدكتور بدوي التصوف بقوله: «التصوف جانب من اخصب جوانب الحياة الروحية في الاسلام لانه تعميق لمعاني العقيدة واستبطان لظواهر الشريعة، وتأمل لأحوال الانسان في الدنيا، وتأويل للرموز والشعائر يهبها قيمًا موغلة في الاسرار وانتصار للروح على الحرف ومعلوم ان «الروح تحيي والحرف يميت»[٣]

ليس التصوف الزهد والتقشف فقط والاعراض عن مباهج وزخارف الدنيا والانقطاع الى عبادة الله تعالى والفناء في حبه، والاتصال المباشر به دون وسيط، فلا كهنة، ولا أئمة او احبار او رموز تمثلها لوحات وتماثيل وطقوس خلقها الماضي ولا زالت معنا حتى يومنا هذا. بل التصوف هو التعمق في العلم

١- الدكتور عبد الرحمن بدوي مفكر مصري معاصر يعتبر من أعظم مَن كتب في الفكر الشيعي والتاريخ الإسلامي. له مؤلفات عدّة قيّمة أغنت المكتبة العربية منها: مذاهب الإسلاميين، تاريخ التصوّف الاسلامي، شخصيات قلقة في الاسلام وغيرها. بلغ عدد مؤلفاته، حتى عام ١٩٧٨، ٣٢ كتابًا تعتبر مصادر دقيقة وصادقة.

٢- «تاريخ التصوف الاسلامي». تصدير عام ص ١.

٣- المصدر نفسه ص ١٩.

الفكري الروحاني والارشاد الروحي لتوضيح العوامل التي يتألف منها كيان الانسان ومعرفة وجوده ومسلكه العقلي [illegible] التي تشكل استمرارية وجوده في هذا الكون.

الدكتور بدوي يقول: «التصوف يقوم في توكيد المطلق، او الوجود الحق، او الموجود الواحد الأحد الذي يضم في حضنه كل الموجودات، وفي الامكان الاتصال به اتصالاً متفاوتًا في المراتب حتى يصل المرء الى مرتبة الاتحاد التام بحيث لا يبقى إلاّ «هو».»

يقول هنري كوربان*: «والتصوف باعتباره شاهدًا للدين الصوفي في الاسلام، هو ظاهرة روحية لا تقدر. فهو اولاً وقبل كل شيء، إثمار لرسالة النبي الروحانية وجهد مستمر لعيش انماط الوحي القرآني عيشًا شخصيًا عن طريق الاستبطان. فالمعراج النبوي، الذي تعرف به الرسول على الاسرار الالهية، يظل النموذج الاول الذي حاول بلوغه جميع المتصوفيين واحدًا بعد الآخر. فالتصوف هو شهادة لا تنكر، واعتراض ساطع من الاسلام الروحاني ضد كل نزعة حاولت حصر الاسلام بالشريعة وظاهر النص. ولقد توصل في تفاصيله الى تنمية تقنية – Ascèse – روحانية خلقت بتقدمها ودرجاتها وحاصلها ميتافيزيقيا كاملة عرفت باسم العرفان. واذن فان ثنائية الشريعة والحقيقة، هي امر أساسي لحياة وعقيدة الصوفية، او قل، ليكون الكلام ادق واتم، تلك الثلاثية (بدلاً من الثنائية) المكونة من الشريعة (النص الظاهر للوحي، والطريقة (السبيل الصوفي)، والحقيقة (الحقيقة الروحية) كانجاز – تحقيق شخصي»[1].

---

*– المستشرق الفرنسي هنري كوربان أعظم مَن كتب عن المذهب الشيعي، فقد عمل استاذًا في جامعة «طهران» وجامعة «قم»، ثم انتقل الى جامعة السوربون في باريس وعمل استاذًا في الفلسفة الاسلامية. كان خبيرًا باللغتين العربية والفارسية وله مؤلفات عدّة في المذهب الشيعي.

١– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٢٨٣

يقول ابن خلدون عن التصوف: «هذا العلم من الشريعة الحادثة في الملّة، وأصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف.

فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.(*)

التصوف هو تطهير النفس بالمجاهدة والجهاد الروحي والصعود الى الله تعالى عن طريق المقامات والمشاهدة واساسها التقشف والزهد ويقوم على ذكر الله والاتصال به مباشرة دون وسيط. اعترض بعض المفكرين على هذه المقولة فقالوا: الاتصال المباشر من دون وسيط يتنافى بقوله تعالى «ليس كمثله شيء[١]» ويتعارض مع عقيدة التوحيد بنفي الصفات عن الله تعالى التي اطلقتها المعتزلة، اصحاب العدل والتوحيد، اذ كيف يمكن اتصال الموجود، المحدود وجوده بزمن، باللا نهاية.

---

* الفرق بين المتصوف والصوفي. قال الامام عبد القادر الجيلاني: «المتصوف المبتدي والصوفي المنتهي. المتصوف الشارع في طريق الوصل. والصوفي من قطع الطريق ووصل الى من اليه القطع والوصل. المتصوف متحمل والصوفي محمول. حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف، فحمل حتى ذابت نفسه وزال هواه وتلاشت ارادته فصار صافيًا فسمّي صوفي» (كتاب الغنية لطالبي الحق) مجلد ٢ ص ١٦٠

١- سورة الشورى اية ١١

يقول الجنيد ابن محمد: «التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع»[١].

يقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون «ان التصوف هو ثورة على ما يصيب الانسان من مظالم، وتقترن هذه الثورة برغبة في الكشف عن الله بأي وسيلة[٢]». ويرد نيكلسون المستشرق الانجليزي على ماسينيون بقوله «هذا القول لا يثبت عند التحليل العلمي، ليس لانه يسلب التصوف ايجابيته الحيوية فحسب، ولكن يحول بينه وبين مصدره الاصيل وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة، ذلك لانه منذ ظهور الاسلام والانظار التي اختص بها متصوفة المسلمين نشأت في قلب الجماعة الاسلامية نفسها اثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث واقرائهما.[٣]

التصوف في مفهومه الفكري والممارسة العملية والمسالك الروحية التي اعتنقها الصوفيون ليس وجهة نظر فلسفية او علمية او هوسًا دينيًا او هروبًا من مسؤوليات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، بل هو ايمان راسخ في الحب الالهي والفناء به نتيجة قمع النفس ومنعها من الانغماس في الملذات الجسمانية، وجعلها طاهرة نقية لتحقيق مشاهدة او لقاء الخالق عزّ وجل.

يقول بعض المفكرين المسلمين، ان التصوف الصحيح المستقيم، هو مرتبة «الاحسان» التي تلي مرتبة الاسلام والايمان والاحسان في اصول التصوف. وفي الحديث النبوي «الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك»[٤]. وهذه الاحوال الثلاث، الاسلام والاحسان والايمان، مراتب للسلوك الصوفي للتقرّب من الله تعالى.

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». الدكتور عبد الرحمن بدوي. ص ١٥

٢- «دائرة المعارف الاسلامية» مجلده ص ٢٦٩.

٣- «الغزالي والتصوف الاسلامي». احمد الشرباصي. ص ١٦٩

٤- دائرة المعارف الاسلامية. مجلده ص ٢٧٣.

وعليه ان الوصول الى الله تعالى يكون: اسلام، وايمان واحسان. فمن اعتمد العبادة وحدها، فهو في مقام الاسلام او الشريعة، والشريعة هي الدين. واذا انتقلت العبادة الى القلب وتحققت باليقين والاخلاص فهو في مقام الايمان. واذا وصل العابد مرتبة الشعور بوجود الله، اي المشاهدة الروحية، فهو في مقام الاحسان، ولذلك يقولون «الشريعة ان تعبده، والطريقة ان تقصده والحقيقة ان تشهده»[١].

لا تعني المشاهدة عند الصوفية النظر الحسي الجسماني بالعين، بل يكون حاضرًا في قلب الانسان، «فيقولون فلان يشاهد الحال او يشهد الوجد والحب وهو ما كان الغالب ذكره وان كان غائبًا عنه، اي ما يستولي على قلب صاحبه[٢]. وعندما يقول الصوفيون بمشاهدة الله تعالى، يعنون معرفته في قلوبهم والشعور بوجوده، عزّ وجل، اما المشاهدة الحسية البصرية فهي غير ممكنة بعد نفي الصفات عن الله تعالى.»

لا بد من تصحيح خطأ يقع فيه، حتى كبار علماء التاريخ، وهو لقب متصوف وصوفي. المتصوف هو التلميذ عند سلوكه الطريق عن يد مرشده، اي بدء رحلته الى الوصول الى الحق. أما الصوفي فهو المريد بعد ان انهى رحلته واخذ الخرقة الصوفية، واصبح صوفيًا مستقلاً قد يرجع الى شيخه للاستشارة فقط.

المعرفة في القلب، اي المشاهدة، هي معرفة مباشرة من دون براهين وهي تدرك بالعقل وليس بالحس وتسمى عند الصوفيين «كشفًا» وهي لذلك تعرف «بالعرفان»، وعند المسيحيين «بالغنوص» اي رؤية الحق مباشرة عن طريق القلب لا عن طريق البحث والبرهان، او العقل والحس.

١- «الغزالي والتصوف الاسلامي» ص ١٦٤.
٢- «تاريخ التصوف الاسلامي» الدكتور عبد الرحمن بدوي. ص ٢١ (بتصرف).

يقول الدكتور بدوي: «والغنوص يقوم على اساس أنّ الانسان لا يستطيع بقواه العادية الوصول الى المعرفة العليا، ولهذا يحتاج الى مصدر عال لايصالها اليه. ولا يستطيع المرء تحصيل الاستعداد للاتصال بهذا المصدر إلاّ اذا تطهر قلبه. يقول «فالنتيوس» وهو اكبر الغنوصيين: من له قلب مطهر يشع بالنور، هو الذي يظفر برؤية الله».(١)

ويقول الدكتور بدوي أيضًا: «والحق ان التصوف يقوم في جوهره على اساسين:

١- التجربة الباطنية المباشرة للاتصال بين العبد والرب.

٢- امكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله.

اما الاساس الاول، وهو التجربة الصوفية، فتقتضي القول بملَكة خاصة غير العقل المنطقي، وهي ان يتم بها هذا الاتصال وفيها تتحد الذات والاحكام وتقوم فيها اللوائح واللوامع مقام التصورات والاحكام والقضايا في المنطق العقلي. والمعرفة فيها مُعاشة، لا متألقة، ويغمر صاحبها شعور عارم بقوى تضطرم تغمره كفيض من النور الباهر، ويبدو له ايضًا، ان قوى عالية قد غزته وشاعت في كيانه الروحي، وهو لهذا يسميها واردات ونفحات علوية، وفي مرتبة ادنى تدعى خواطر. ومن هنا يشعر صاحب هذه التجربة، بإثراء في كيانه الروحي، وتحرر في افكاره وخواطره، وانطلاق لطاقات حبيسة عميقة الغور في نفسه.

١- «الغزالي والتصوف الاسلامي». ص ١٦٣.

اما الاساس الثاني فضروري جدًا في مفهوم التصوف، وإلاّ كان مجرد اخلاق دينية، يقوم في توكيد المطلق او الوجود الحق، او الموجود الواحد الأحد الذي يضم في حضنه كل الموجودات، وفي الامكان الاتصال به اتصالاً متفاوتًا في المراتب حتى يصل المرء الى مرتبة الاتحاد التام بحيث لا يبقى إلاّ «هو». ومن هذا كان طريق التصوف سلمًا صاعدًا ذا درجات نهايتها عند الذات العُليا، وكان سفرًا يرقى في معارج حتى ذروة الاتحاد.»[١]

ذلك ان التصوف الاسلامي منذ رابعة العدوية في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة، قد قام على اساس منهج استبطان كامل للنفس في علاقتها بالله، وعلى اساس محاولة اتحاد بالمطلق، او على الاقل، ايجاد صلة خُلّة به وعشق له تسمح، اذا ما تعالت، بالاتحاد مع الذات. والتطور في هذا السبيل واضح مستقيم صُعدًا في فكرة العشق الالهي عند رابعة العدوية في النصف الثاني من القرن الثاني حتى قولة الحلاّج المشهورة «انا الحق» في نهاية القرن الثالث. وتحليل احوال النفس كان منذ البداية مطلبًا اساسيًا لهذا التصوف، نجده عند رابعة وعند المحاسبي والكرخي والبسطامي والجنيد والحلاّج.[٢]

بالرغم من ان معظم المؤرخين المسلمين وبعض المستشرقين قالوا ان الصوفية حصروا نشاطهم في عبادة الله والتسليم المطلق لمشيئته، ولكن الواقع ان بعض اهل التصوف ترك اثارًا مهمة على الفكر الاسلامي منهم: الحكيم الترمذي[٣]. ابو القاسم الجنيد بن محمد[٤]. الحارث بن اسد المحاسبي[٥]. ابو عبد الرحمن السلمي[٦] سهل بن عبدالله التستري[٧] عبد القادر الجيلاني[٨]

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ١٨ - ١٩.

٢- «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ١٩ - ٢٠.

٣- «الرد على المعطلة». معهد المخطوطات في القاهرة رقم ٢/٢٨٥. العقل والهدى مخطوطة رقم ٢/٢٨٧.

٤- «رسائل الجنيد في الوهية التوحيد». معهد المخطوطات. مخطوطة رقم ١/٢٢٦.

٥- «شرح المعرفة وبذل النصيحة». معهد المخطوطات رقم ١/٢٨٠ ومخطوط العقل وفهم القرآن.

٦- كتاب «حقائق التفسير وطبقات الصوفية».

٧- كتاب «التفسير».

٨- كتاب «الغنية لطالبي طريق الحق».

الحسين بن منصور الحلاج[١]، شهاب الدين ابي حفص عمر السهروردي[٢]، محيي الدين بن عربي[٣]. أبو حامد الغزالي[٤] وغيرهم تناولوا بعلم ومعرفة واسعة الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامي والدين، وحاولوا تفسير الافكار الفلسفية والمناهج الاخلاقية والروحية التي اعتمدها اهل التصوف في فلسفتهم ومسلكهم الدنيوي والديني.

ويعتبر ابو حامد الغزالي الدين الاسلامي والسنة الشريفة من اسس التصوف والكيان الاول في منهجه وقاعدة مسلكه فيقول في كتابه «ميزان العمل»: «اعلم ان سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له. العلامة الاولى، ان تكون جميع افعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، ايرادًا واصدارًا، اقدامًا واحجامًا. اذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلاّ التلبس بمكارم الشريعة كلها، ولا يصل فيه الاّ من واظب على جملة النوافل. فكيف يصل اليه من اهمل الفرائض؟ والسالك لسبيل الله، يعرض عن الدنيا اعراضًا ولو ساواه الناس كلهم لخرب العالم»[٥].

يعتقد بعض المفكرين، كالدكتور بدوي، ان التصوف الاسلامي قد وجد بدايته وبذوره في روح القرآن الكريم، كما وجدها في حياة واقوال النبي والصحابة. يقول الدكتور الشرقاوي «ان تحنث محمد «صلعم» في غار حراء، انما هو البذرة الاولى التي نبت منها زهد الزهاد، وعبادة العباد، وعلى الجملة، تصوف الصوفية[٦]».

١- «الطواسين» وديوان شعر.
٢- كتاب «عوارف المعارف».
٣- «الفتوحات المكّية» و«فصوص الحكم».
٤- «احياء علوم الدين». «المنقذ من الضلال».
٥- «الغزالي والتصوّف الاسلامي»، أحمد الشرباصي ص ١٦٦.
٦- «الصوفية والعقل» محمد الشرقاوي ص ٢٣.

واما المفكر سيد حسين نصر فيعتبر أن التصوف الاسلامي اساسه ومصدر حكمته تنبع من الاسلام فيقول: «التصوف كطريق للتحقيق الروحاني وبلوغ مقام الولاية والعرفان، جانب جوهري في الوحي الاسلامي، وهو في الواقع قلبه او بعده الداخلي او الباطني». ثم يقول «إلاّ ان حقيقة التصوف وعقائده ومناهجه الاساسية، ترجع الى مصادر الوحي وترتبط ارتباطًا وثيقًا بروح الاسلام وصورته كما يردان في القرآن الكريم الذي يعتبر التجسد الاكمل له. ان الصوفي الاول والأكمل من عرف ان يندمج في التصوف ويعيش حياة «سالك الطريقة» هو النبي محمد عليه السلام»(١)

ثم يطالعنا الدكتور بدوي في ان المستشرق الفرنسي ماسينيون*، اعظم باحث في التصوف الاسلامي، يؤكد ان التصوف الاسلامي منبعه واساسه القرآن فيقول: «ان هذه الدراسات تمكن من ان نؤكد ان التصوف الاسلامي في اصله وتطوره، صدر عن ادامة تلاوة القرآن والتأمل فيه وممارسته. لقد قام التصوف الاسلامي على اساس التلاوة المستمدة والقراءة الشاملة لهذا النص المعتبر مقدسًا ومنه استمد خصائصه المميّزة. التلاوة المشتركة وبصوت مرتفع واقامة مجالس الذكر المنظمة التي تتلى فيها آيات القرآن.»(٢)

اما الصوفي والمؤرخ المعروف عبد الكريم القشيري فيقول: «ان التصوف ليس شيئًا زائدًا على ما في القرآن او سنة رسول الله صلعم؛ بل هو تجسيد لجانب عظيم من الاسلام أهمل نتيجة توغل الفقهاء بعد السلف الصالح في فروع الفقه واهمال الجانب السلوكي الذي كان عليه اصحاب رسول الله والسلف الصالح» ثم قال: «ان الصوفية اعتمدوا الآيات القرآنية لشرح المقامات الصوفية تدليلاً على ان القرآن الكريم والحديث اساس معتقداتهم ومصادر فلسفتهم.(٣)»

١- «ثلاثة حكماء مسلمين». ص ١١٣.

* وُلد المستشرق لويس ماسينيون عام ١٨٨٣ في بلدة Nogent Sur Marne في ضواحي باريس، ودرس في المدرسة الوطنية للغات الشرقية، ثم درس في جامعة السوربون. ثم عام ١٩٠٦ ذهب الى القاهرة حيث التحق بالمعهد الفرنسي. في عام ١٩٠٧ توجه الى العراق. وخلال الحرب العالمية الاولى، التحق بجيش اللنبي في فلسطين. بعد الحرب انضم الى المجمع العربي في باريس. توفي عام ١٩٦٢. كان من كبار العلماء وخصوصًا في الصوفية الاسلامية.

٢- «تاريخ التصوف الاسلامي»، ص ٤٧.

٣- «الرسالة القشيرية»، ص ٢٠.

كان القشيري يبدأ شرحه لكل مقام ببيان الآيات القرآنية التي يستند اليها هذا المقام الصوفي، وان لم يجد آيةً صريحةً ذكر احاديث.[1]

سنورد بعض هذه الآيات فقط:

– مقام التوبة: «وتوبوا الى الله جميعًا أيّها المؤمنون.»[2]

– مقام المجاهدة: «والذين جاهدوا فينا، لنهدينّهم سبلنا.»[3]

– مقام التقوى: «ان اكرمكم عند الله اتقاكم.»[4]

– مقام الزهد: «قل متاع الدنيا قليل والاخرة خيرٌ لمن اتقى.»[5].

– مقام الرجاء: «من كان يرجو لقاء الله، فان اجل الله لآت.»[6]

– مقام الخلق: «وانك لعلى خُلُقٍ عظيم.»[7]

الدكتور ماجد فخري وهو مفكر لبناني معاصر، يشير الى اختلافات كثيرة ومهمة بين الدين الاسلامي والصوفية، فيقول من دون مواربة او ابهام: «ان التصوف من حيث هو محاولة لبلوغ اللامتناهي والاندماج به، اما عن طريق تجانس الطبيعة – كما في المسيحية – او عن طريق الفناء الذاتي والرجوع

١– «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي. ص ٥٥.

٢– سورة النور. اية ٣١. «الرسالة القشيرية». ص ٩١.

٣– سورة العنكبوت. آية ٦٩. المصدر نفسه ص ٩٧.

٤– سورة الحجرات. آية ١٣. المصدر نفسه ص ١٠٤.

٥– سورة النساء آية ٧٧ المصدر نفسه ص ١١٥.

٦– سورة العنكبوت آية ٥ المصدر نفسه ص ١٣١.

٧– سورة القلم، آية ٤، المصدر نفسه ص ٢٤١.

إلى حال الوحدانية البدائية الخالصة – كما في البرهمية البوذية[1] يتنافى مع العديد من التعاليم الدينية في الاسلام. فهنالك اولاً: مفهوم التسامي الالهي المطلق الذي عبّر عنه القرآن الكريم في الآية «ليس كمثله شيء[2]». فهذا المفهوم يتعارض مع فكرة الاتصال الحميم بالله. وهنالك ثانيًا الشعائر الدينية بقيودها واشكالها الصارمة التي لا تترك مجالاً لاحتمال وصول سهل غير مشروط الى الحقيقة القصوى. ثم هنالك ثالثًا، المفهوم الاسلامي للوحدة، او الاستمرار في حياة الانسان بين هذا العالم والعالم الآخر، مما يصعب معه الفصل الحاسم بين الوجود المتناهي والوجود غير المتناهي، عن طريق التخلي عن هذا العالم. فالمسلم المؤمن مدعو لان يتقبل هذا العالم الذي هو «دار فناء» وان يتعلق به، بمقدار ما هو مدعو الى نشدان العالم الآخر الذي هو «دار بقاء» والى التعلق به.[3]

ثم يتابع الدكتور فخري قوله: «على ان القرآن والحديث يرسمان لصلة الله بالانسان، وللحياة الآخرة، صورة اخرى تختلف عن الصورة التي مرّ ذكرها اختلافًا شديدًا. فههنا يوصَف الله بانه اقرب الى المؤمن «من حبل الوريد» وبانه كلي الوجود وكلي العلم، بحيث يعلم كل اعمال الانسان، ويقرأ جميع افكاره. اما الخيرات الزائلة في هذه الحياة، فتوصف بأنها لا تعد شيئًا بالنسبة الى الخيرات الدائمة في الحياة الآخرة.[4]».

من المهم والمفيد توضيح نظرة الشيعة الى التصوف ونفورهم منه؛ فالصوفي يطلب الاتصال المباشر بالله تعالى من دون وسيط، وهذا لا يعني التنكر او التغاضي عن اركان الاسلام والتخلي عن فروضه، بل الاعتراف بالاحوال والتجربة الشخصية التي اعتنقها الصوفي في سبيل معرفة الله، منها

١– R.C. Zachner. Hindu and Muslim Mysticism p. 67
٢– سورة الشورى الآية ١١.
٣– راجع القرآن. سورة الاعراف آية ٣٠، سورة البقرة الآية ١٨١ وسورة الحج الآية ٧٧.
٤– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص. ٣٢٣.

الشوق والفناء في حب المولى للبقاء معه دون مفارقة او غياب. والشيعي، باخلاصه للأئمة المعصومين، وهم من آل البيت الذي يقدسه، يتلقى منهم التوجيه والتعليم اللّذين يربطانه بالعالم الروحاني. لأنّه لا يمكنه الاتصال باللّه إلاّ بواسطة الإمام ولهذا يرفض الاتصال المباشر بالله عزّ وجل.

فليس مستغربًا ان يطالعنا الدكتور ابراهيم هلال الشيعي بقوله انه لا يوجد تصوف اسلامي، بل صوفية ادخلت على الاسلام فيقول: «لا يفوتنا ان ننبه الى ان الاسلام ليس له تصوف بمعنى انه دين غير مستعد للتصوف، وما لصق به من هذا التصوف، الذي يدعى انه اسلامي، انما هو تشويه لصق بالاسلام على شاكلة ما لصق بالاديان الاخرى من الثقافات الاجنبية. فالتصوف في اصله وفي معناه، متقدمه ومتأخره، استيراد اجنبي وليس من الاسلام في شيء.[١]

اما المفكر اللبناني الشيعي، سميح عاطف الزين فيهاجم الصوفية بقسوة متناهية فيقول: «ايها الصوفيون لا يحق لكم ان تعتبروا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مصادر لتصوفكم، ونعلن ان مصادر تصوفكم هي غريبة عن الاسلام وتعاليمه، وان تعاليمكم ومعتقداتكم قد كانت دخيلة على الاسلام وعلى بلاد المسلمين لاسباب عديدة ومتنوعة، وكان وسيبقى اهمها على الاطلاق، الدس على الاسلام والنيل من المسلمين لاضعاف شوكتهم وابعادهم عن عقيدتهم.[٢]»

ينكر علماء وفقهاء السنة على الصوفية الحلول والاتحاد بالله ويصفونهم بالالحاد والكفر، ثم يأخذون عليهم لباسهم الخاص كرهبان النصارى وانهم انصرفوا عن علم القرآن والحديث الى المواعظ واقامة الذكر والغناء والرقص، ويقولون انهم تعلقوا بترك طيب الطعام ولذيذ الشراب وانهم ينظرون الى الدنيا ولذاتها نظر العدو وكلما تباعدوا عنها تقربوا الى الجنة والله.

١- «التصوف الاسلامي بين الدين والفلسفة» ص ٢٩.

٢- «الصوفية في نظر الاسلام» ص ٣٣.

البيئة الاجتماعية والاقتصادية
التي نشأ فيها التصوف الاسلامي.

تمكينًا لنا من درس التصوف الاسلامي بعمق والبحث في جميع اغواره كي نعرف اسباب نشأته والعوامل التي ساعدت على انتشاره، علينا اذًا معرفة البيئة التي نشأ فيها والتي كونت الظروف الاجتماعية والسياسية في ذلك الوقت.

قبل الاسلام كانت حياة الاعراب من اهل البداوة مهددة ابدًا بالفقر والخوف وعدم الاستقرار. اما الفقر فسببه اعتمادهم على غزارة الامطار تمدهم بالمراعي، فاذا احتبس المطر ندر العشب ونضبت الينابيع. واذا اقبل القيظ جفت المراعي وهلكت القطعان، واما الخوف فلأنه لم يكن في هذه الاحوال سوى الانقياد الى ناموس تنازع البقاء باللجوء الى الغزو وشن الغارات وما تبعها من نهب وسلب وسبي واسر فقلَّ الامن. قال ابن خلدون «رزق البدو في ظلال رماحهم.»

الحقبة من الزمن التي نشأ وانتشر فيها التصوف الاسلامي، كان النزاع الفكري والسياسي على اشده في الامة الاسلامية الفتية، حيث كثر التمرد والانتفاضات والثورات كالحركة القرمطيّة، وثورة الزنج والنزاع الدموي المتواصل بين اهل الحكم الامويين والعباسيين ثم مع آل البيت العلويين، ثم تغلغل الدعوة الاسماعيلية في طبقة العمّال والفلاحين. ثورات سياسية وفكرية كادت، في مراحل عديدة، ان تزعزع كيان الامة الاسلامية وتقضي عليها.

يقول محمد تقي المدرّسي: «ان الحروب الطويلة والخلافات السياسية والتطرف في الاحزاب السياسية وما عاناه المسلمون من تعسّف الحكام والمستبدين، عوامل حرّكت في نفوسهم رغبة في الابتعاد عن متاع الدنيا وحوّلت انظارهم نحو الاخرة ووضعت امالهم فيها.» ويقول الدكتور ابو العلا عفيفي: «نشبت داخل نفوس المسلمين ثورة داخلية هي نزاع بين نفس لا تزال على ايمان غض قوي ودنيا مقبلة عليهم بشهواتها ومباهجها. وكان الطريق الوحيد للتخلص من هذا المأزق هو الفرار من الحياة وما فيها من ملذّات، ورياضة النفس على الطاعات والمجاهدات»(١)

في العهد العباسي، تغلغلت وطغت روح الترف والفساد والتهافت على المتع والملذات، كشرب المسكرات واقتناء الجواري والغلمان مما كان يرد من جميع البلدان المجاورة ويباع في اسواق النخاسة كالسلع الاستهلاكية الى الخلفاء والامراء وقادة الجيوش واصحاب الرتب المتنفذين في الدولة. قيل كان في قصر الخليفة الامين محمد ابن الرشيد (١٩٣ – ١٩٨) ما يزيد عن الف جارية وغلام.

الصوفي حارث بن اسد المحاسبي يصف الوضع الاجتماعي والفكري الذي كان سائدًا في ذلك الوقت بقوله: «رأيت زمانًا مستصعبًا قد تبدلت فيه شرائع الايمان وانتقضت فيه عرى الاسلام وتغيرت فيه معالم الدين واندرست فيه الحدود وذهب الحق وباد اهله، وعلا الباطل وكثر اتباعه، ورأيت فتنًا متراكمة يحار فيها اللبيب، ورأيت هوى غالبًا وعدوًا مستكلبًا، وانفسًا والهة عن التفكير محجوبة، قد جللها الرياء، فعميت عن الاخرة، فالضمائر والاحوال في عصرنا، بخلاف احوال السلف وضمائرهم.(٢)»

١– «العرفان الاسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي» ص ١٣٥.

٢– «الوصايا والنصائح» ص ٤٦.

يقول ماسينيون: «ان الاستعداد للتصوف ينشأ في العادة من ثورة باطنية تخامر النفوس فيثور اصحابها على المظالم الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهاد نفسه واصلاح خطيّاته(١)»

اما المستشرق نيكلسون فيقول: «فالحروب الاهلية الطويلة الدامية، التي وقعت في عهد الصحابة وبني امية، والتطرف العنيف في الاحزاب السياسية، وازدياد التراخي والاستهانة في المسائل الخلقية، وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون اراداتهم واراءهم الدينية على غيرهم ممن اخلصوا في إسلامهم، ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التي حاول المسلمون ارجاعها، كل ذلك عوامل حركت في نفوس الناس الزهد في الدنيا ومتاعها، وحولت انظارهم نحو الاخرة ووضعت امالهم فيها.(٢)

في هذا الجو المضطرب اجتماعيًا المشحون بالفساد وانعدام الاخلاق والقيم الروحية، انقسم المجتمع الاسلامي الى فئة الاثرياء، يسكنون القصور ويملكون العشرات من الجواري والغلمان، والى غالبية من الفقراء لم يكن الفرد منهم يحصل على لقمة العيش إلاّ بشق النفس. فنتج عن هذا التفاوت في المعيشة صراعٌ اجتماعيٌّ، كان من الطبيعي ان يتحول الى صراع سياسي وصدام عسكري، فكانت الثورات بين افراد الشعب الواحد.

الظلم والجور والفقر الذي كان مستشريًا في جنوب العراق، لاسيّما الكوفة وسوادها، ومن نتائجها كانت ثورة الزنج وانطلاق الفرقة القرمطية، شجّع، بالاضافة للتصوف، على انتشار العقيدة الاسماعيلية وهي رجوع الامام الغائب محمد بن اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق، وقالوا انه: «يملأ الأرض

---

١ - «الإسلام والحضارة العربية»، محمد كرد علي.

٢ - «في التصوّف الإسلامي وتاريخه» ص ٤٦.

قسطًا وعدلاً ويستتب السلام والامن فيشرب الثور والاسد من وعاء واحد والذئب يرعى والغنم، وبظهوره ينتهي دور الامامة ويأتي بشريعة جديدة تعم العالم وتنسخ ما قبلها من شرائع، وهو صاحب الكشف والقيامة.» انتشرت هذه العقيدة انتشارًا واسعًا بواسطة الدعاة الاسماعيلية،[1] كي يستجلبوا الفقراء والمظلومين لاعتناق العقيدة الاسماعيلية والعمل في صفوفها، وذلك باعطائهم املاً بانتهاء دور الجور والظلم وحلول دور الامن والعدل.

في القرن الثالث هجري انتشر التصوف في العراق وفارس، خصوصًا في خراسان، اما في البلاد الاسلامية الاخرى، كبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية، فكان انتشاره غير ملحوظ إلاّ في المغرب العربي والاندلس حيث قامت بعض الرُّبَط الصوفية التي استعملت كحصون للدفاع عن الثغور.

اما في مصر وبعض بلدان شمال افريقيا، حيث ساد الحكم الفاطمي الاسماعيلي الشيعي الذي يرفض التصوف بسبب عقيدتهم في عبادة الله المباشر من دون وسيط، الذي يتخطّى مفهوم الامامة وهو الركن الاساسي في المذهب الشيعي، اذ الامام هو نائب الله على الارض وحلقة اتصال المؤمن بالله تعالى؛ فالتصوف لم ينتشر إلاّ كفرق صغيرة تجوب الشوارع همها الرقص والغناء.

١- قيل ان في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله (٣٨٦ - ٤١١هـ) وكان داعي الدعاة ختكين الضيف بلغ عدد الدعاة الاسماعيلية في البلاد الاسلامية ما يزيد عن الالف واربعمائة داعيًا كانوا يتلقون علمهم في دار الحكمة في القاهرة.

الاسم الصوفي

اول مشكلة تثار بالنسبة الى التصوف الاسلامي، هي مشكلة اسمه ومن اين اشتق، وهي مشكلة قديمة تناولها معظم كتب التصوف الاسلامي، مثل كتاب اللُّمَع في التصوف للسراج الطوسي، وكتاب الطبقات الصوفية لابي عبد الرحمن السلمي، ثم كانت «الرسالة القشيرية» لعبد الكريم القشيري النيسابوري التي كتبها عام ٤٣٧هـ[١]. ومن المفكرين المعاصرين، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ابو العلا عفيفي، عبد الكريم الاعسم وغيرهم. اما المستشرقون فمنهم، نولدكه، فون هامر، ماسينيون ونيكلسون.

يقول ابو نصر السرّاج الطوسي: «ان اسم الصوفية محدث و لم يوصف به احد من اصحاب رسول الله ولا من بعدهم. وما يعرف الناس إلاّ العبّاد والزهاد والسياحين والفقراء.[٢] وما قيل لاحد من اصحاب الرسول «صلعم» صوفي، فنقول، وبالله التوفيق، الصحبة مع رسول الله حرمة وتخصيص، فلا يجوز ان يغلب عليها اسم او علم، على انه اشرف من الصحبة التي هي اجل الاحوال لشرف رسول الله وحرمته.[٣]»

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي. ص ٥.

٢- اطلق اهل الشام اسم الفقراء على الصوفيين استنادًا لقوله تعالى «يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد.» فاطر الآية ١٥. في معظم كتب التصوف والتاريخ يشيرون الى المتصوفة سكان الزوايا والخوانق باسم الفقراء.

٣- «اللمع في التصوف». ص ٤٢.

والمؤرخ العراقي جواد علي يشير الى قبائل في محلة اطلق عليها اسم «الصوفة» بالقرب من بلدة بصرى الشام ودرعا، وكانت لغتهم خليطًا من العربية والارامية، وذلك في القرن الاول قبل الميلاد، وكانوا قبائل متنقلة خاضعة لحكم الروم.[1].

واذا تقدمنا في التاريخ نجد ابن اسحاق يقول: «انه قبل الاسلام قد خلت مكة، في وقت من الاوقات حتى كان لا يطوف بالبيت احد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف»[2].

يقول بعض المؤرخين: «قبل الاسلام كان «صوفة» هو اخزم بن العاص بن عمرو بن مازن بن الاسد تصدق بابن له على الكعبة يخدمها، وكانت له الافاضة بالناس على الموقف حيث يصطف الناس فيقول صوفة : اجيزوا ايها الناس فيجوزون.[3]»

وعبد الرحمن بن الجوزي يقول: «كانت الاجازة بالحج للناس، من عرفة الى منى، الى الغوث بن مرة ثم صارت له في ولده ويقال له «صوفة» لان امه علّقت برأسه صوفة لانها لم تلد إلاّ البنات... فهؤلاء انقطعوا الى الله تعالى وقطنوا الكعبة، فمن تشبه بهم، فهم الصوفية، وهم من ولد الغوث بن مرة اخي تميم بن مرة.»[4].

١- «مفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام». مجلد ٣ ص ١٤٢.

٢- «التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي. ص ٦.

٣- «اخبار مكة» ص ١٨٦.

٤- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين. ص ١٨. (بتصرّف)

قال ابن الكلبي: «والغوث بن مرة – وهو الربيط – هو صوفة، كانت امه نذرت، وكان لا يعيش لها ولد، لئن عاش لتربطن برأسه صوفة ولتجعله ربيط الكعبة، ففعلت وجعلته خادمًا للبيت حتى بلغ ثم نزعته فسمي الربيط»(١). هذه المرأة كانت من قبيلة «جرم» تزوجها اخزم بن العاص بن عمرو بن الاسد، فنذرت ان ولدت غلامًا ان تصدق به على الكعبة عبدًا يخدمها»(٢).

ويفهم ان كلمة «صوفة» لم يكن اسم علم انماهي لفظة اطلقت على من كان يتولى البيت – الكعبة – اوقام بشيء في خدمته، او بشيء من امر المناسك، فهم من رجال الدين تخصصوا بالاجازة بالناس في مواسم الحج، ولعلهم كانوا يضعون على رأسهم صوفة على هيأة عمامة او عصابة او عطر ليكون علامة على انهم من اهل بيت دين وشرف، فعرفوا بآل الصوفة والصوفية.(٣).

ويُقال، عندما استولى ابو القاسم بن فرج الصناديقي على اليمن، وكان قرمطيًا وأحد دعاة عبدان الذي ارسله داعيا الى اليمن، بنى دارًا سمّاها «دار الصفوة» وكان يتخذ من الاولاد ويسكنهم هذه الدار ويسميهم اولاد الصوفة او المتصوفة.

الدكتور عبد الرحمن بدوي ينهي هذه المقولات التي تبدو اساطير بعيدة عن الحقيقة والوقائع التاريخية بقوله: «ولعل اقدم ما وصلنا من مؤلفات ذكرت اسم الصوفي والصوفية، كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ المتوفى عام ٢٥٠ هـ او ٢٥٥ هـ اذ يذكر الصوفية من النسّاك ويورد اسماء من عرف بالفصاحة منهم.»(٤).

١– «جمهرة النسب» ص ١٨٩.
٢– «اخبار مكة». ص ١٨٧.
٣– «الروض الآنف». مجلدا ص ٨٢.
٤. «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ٨.

وقال فريق من المؤرخين، ان الصوفية تعني الصفة، وهي زاوية اقامها رسول الله الكريم، خارج مسجد الصفاء في المدينة، وكان بعض المهاجرين، الذين لم تؤمن لهم البيوت في المدينة مثل، ابو ذر الغفاري، سلمان الفارسي، عمّار بن ياسر، صهيب الرومي، بلال بن رباح الحبشي، عبد الله بن الاسد المخزومي، حذيفة بن اليمان، عكاشة بن محسن الاسدي، خباب بن الارث وابو لبابة الانصاري وغيرهم يأوون اليها اتقاء للبرد والحر، وهؤلاء هم الذين نزلت فيهم الاية الكريمة «للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الارض، يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفّف تعرفهم بسيمَهم لا يسئلُون الناس الحافًا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم»(١).

ثم ينفي المفكر سميح الزين هذا الوصف للصوفية فيقول: «التصوف لا يمكن ارجاع اصله الى الصفة، وابسط الامور الدالة على ذلك هو الدليل اللغوي، ان النسبة الى الصُفَّة صُفِّي وليس «صوفي»(٢).

وقيل ان اسم الصوفية اطلق على من كان عند الصلاة في المسجد، يجلس في الصف الاول بعد الرسول الكريم، كما قيل انها منسوبة الى كلمة صوفيا اليونانية ومعناها الحكمة، وذلك لأن الصوفية يطلبون الحكمة الالهية(٣).

ويفند ابن تيمية هذه الاقوال فيقول: «انه لا يصح بالنسبة الى «اهل الصفة» لانه لو كان كذلك لقيل «صفي»، ولا يصح بالنسبة الى «الصف المقدم بين يدي الله» لانه لو كان كذلك لقيل «صفي» ولا يصح الى «الصفوة» من خلق الله لان هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند اكثر النسّاك، لانه لو نسب النسّاك الى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة وتابعيهم اولى»(٤).

١- سورة البقرة الآية ٢٧٣.
٢- «الصوفية في نظر الاسلام»، سميح عاطف الزين، ص ١٧.
٣- «الغزالي والتصوّف» ص ١٤٩.
٤- المصدر نفسه ص ١٤٨.

ويزعم بعض المفكرين ان الصوفية منسوبة الى «الصفاء» لان المتصوفة يطهّرون نفوسهم حتى تصفو وتنقى. قال في ذلك ابو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مأخوذًا مـــــن الصوف

لست انحل هذا الاسم غير فتـــى صافي فصفى حتى سمي الصوفي[1]

في دائرة المعارف الاسلامية قيل «ان لفظ صوفي مشتق من الصفاء او الصفو، والمراد صفو قلوب المتصوفة وانشراح صدرهم ورضاهم بما يجيز به الله عليهم، ثم انهم مع الله في صفاء لا يشوبه شاغل».

وفي كتابه «اللّمع في التصوف» يطلق ابو نصر السرّاج على المتصوفة اسم الصوفية نسبة الى لبس الصوف، لان الصوف هو الغالب عليهم وهو لبس الانبياء والاصفياء والصديقين وشعار المتنسكين. ولكن عبد الكريم القشيري، طعن في هذا القول على اساس ان المتصوفة لم يختصوا بلباس الصوف دون غيره من الاقمشة مختلفة الاشكال والانواع والالوان.

وقال بعض الرواة. «ان الصحابة أبا ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان كانوا يلبسون الصوف، اتقياء وزاهدين في الدنيا وهم من اوائل الصوفية وروّاد التصوف. الواقع ان هؤلاء الاتقياء، لم يكونوا الوحيدين الزاهدين في الدنيا ويلبسون الصوف بين اصحاب الرسول الكريم، فقد قال الحسن البصري. «ادركت سبعين بدريًا كان لباسهم الصوف.» البدريون هم المسلمون الذين حاربوا مع النبي في موقعة بدر وكلهم يمثلون الصفوة الماجدة الرائدة من صحابة الرسول الكريم.

١- «الغزالي والتصوّف الإسلامي» أحمد الشرباصي، ص ١٤٨.

الزاهدون المتقشفون الاوائل في الاسلام الذين اطلق على بعضهم اسم الصحابة، اختلفوا عن المتصوفة في امور كثيرة منها حبهم لله تعالى الذي كان مرتبطًا مع حبهم للرسول الكريم، وليس كحب المتصوفة المباشر لله تعالى دون مرشد او وسيط. هذه رابعة العدوية في حبها لله المباشر لم تتخط الائمة والكهنة والأحبار فقط، بل تخطت الرسول الكريم، فقالت عندما سألها النبي في المنام، «أتحبيني يا رابعة؟» فكان جوابها. «ومن لا يحبك يا رسول الله، ولكن قلبي مليء بحب الله فلا مكان لك فيه.»

ويقول المستشرق (رينولد نكلسون) «ولكن مهما اختلفت الاراء في تسمية الصوفية، منشأها او تاريخها، او الصفات التي تجعل الانسان ينتمي الى هذه الفئة من المؤمنين، فالصوفية ليست لبس الصوف والزهد والتقشف والعبادة فقط بل هي، قوم صفيت قلوبهم من كدرات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الاول والدرجة العليا مع الحق. فلما تركوا كل شيء، ما سوى الله، صاروا لا مالكين ولا مملوكين. الصوفية كراهية الدنيا ومحبة المولى»[١]

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: «ان اسم الصوفي يقال بالفارسية يشمينة بوش» ومعناه لابس الصوف. والزهاد والمسلمون القدماء، الذين كانوا يلبسون الصوف قد استمدوا هذه العادة من الرهبان النصارى»[٢] وقيل عندما قدم حمّاد بن سلمة (توفي عام ١٦٨هـ) الى البصرة قال لفرقد السبخي الذي تبدى امامه في ثوب من الصوف. «دع عنك هذه «الشارة» النصرانية.»[٣]. يقول الدكتور بدوي: «وهذه الثياب من الصوف كان يطلق عليها اسم زيّ الرهبان.»[٤].

١- «التصوف الاسلامي وتاريخه» ص ٣٢. ترجمة ابي العلاء عفيفي.
٢- «دائرة المعارف الاسلامية» الطبعة ٤ ص ٦٨٠.
٣- «العقد الفريد» لابن عبد ربه مجلد ٣ ص ٣٤٨.
٤- «تاريخ التصوّف الاسلامي» ص ١١.

يعترض الدكتور بدوي على الربط بين لبس الصوف وبين التأثر بالرهبان النصارى فيقول: «يجب ان يلاحظ اولاً، كما قال القشيري[1] ان الصوفية المسلمين لم يختصوا بلبس الصوف، بل كان الاغلب عليهم لبس المرقعات، وهي ثياب مؤلفة من قطع مختلفة الاشكال وانواع الاقمشة والالوان، كما كان البعض يلبس الجلود بفرائها، وخصوصًا جلود الاغنام والماعز[2].

ويقول السرّاج الطوسي: « ان الصوفي يحيى بن معاذ الرازي (توفي عام ٢٥٨هـ) كان يلبس الصوف والخُلقان في ابتداء امره، ثم كان، في آخر عمره يلبس الخز واللين .»[3]. ثم يقول الطوسي «آداب الفقراء في اللباس ان يكونوا مع الوقت، اذا وجدوا الصوف او اللبد او المرقعة لبسوا، واذا وجدوا غير ذلك لبسوا.» ومن هذا نرى انه لا محل للربط بين ثياب الرهبان وبين فكرة تأثير الصوفية المسلمين بها.»[4].

وقيل «ان اسم الصوفية مشتق من الصفا بمعنى انهم صفوا من الشرور واكدار الدنيا وشهواتها. كما نسبوهم الى «الصفوانة» وهي نوع من البقل.»[5].

ويقول القشيري: «التصوف، هذه التسمية، غلبت على هذه الطائفة فيقال: رجل صوفي، وللجماعة صوفية، ومن يتوصل الى ذلك يقال له متصوف، وللجماعة المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والاظهر فيه انه كاللقب»[6].

١- «الرسالة القشيرية» ص ١٢٦.
٢- «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ١٢.
٣- «اللمع في التصوف» ص ١٨٨.
٤- «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ١٣.
٥- المصدر نفسه ص ٩.
٦- «الرسالة القشيرية». ص ١٢٦.

اما المستشرق الالماني تيودور نولدكه (Th. Noldeke) في مقال له في مجلة الجمعية المشرقية الالمانية عام ١٨٩١[١] فيبيّن ان كلمة سوفوس Sophos اليونانية غير معروفة في الآرامية، ولهذا يصعب العثور عليها في العربية نقلاً عن الآرامية. ومن ناحية اخرى، نجد في الآرامية وفي العربية الكلمات «سوفسطائي» «وفيلوسوفس» والحرف اليوناني(O) قد عرّب الى (س)، كما هي الحال في معظم، او في كل الاحوال التي عُرّبت فيها كلمات يونانية، تحتوي على حرف (س) ولا نعثر عليها معرّبة الى حرف (ص)، فلو كانت كلمة صوفي مشتقة من كلمة يونانية، لكانت «الصاد» التي في اولها شاذة تمامًا. ومن ناحية اخرى، ليس ثم دليل حقيقي على ان كلمة «صوفي» مشتقة من «سوفوس Sophos» اليونانية، بينما اشتقاقها من كلمة صوف العربية تقرّه اللغة العربية والمصادر العربية.»

«ويشير الجاحظ إلى فرقة صغيرة شبه شيعية من الصوفية الذين اصلهم من الكوفة، كان آخر رؤسائها هو عبدك الصوفي، المتوفى في بغداد حوالي سنة ٢١٠هـ، واقتصر اسم الصوفي آنذاك على من في الكوفة. ولكن بعد مرور ٥٠ سنة، كان يطلق على كل صوفية العراق (في مقابل ملامتية خراسان). وبعد ذلك بقرنين اطلق اسم الصوفية على كل الصوفية المسلمين.»[٢].

١- مجلة الجمعية المشرقية الالمانية عام ١٨٩١ مجلد ٤٨ ص ٤٥.
٢- «البيان والتبيين». مجلد ١. ص ١٤٩.

المدارس الفكرية الخارجية التي اثرت على التصوّف الاسلامي

تقول المستشرقة A. Schimmel «انه في القرن التاسع عشر، أصبحت المصادر التاريخية والنصوص الصوفية مطبوعة ومتاحة في الشرق واوروبا، لذلك فان العلماء قد أمكنهم ان يكوّنوا افكارهم الخاصة عن مصدر التصوف الاسلامي وتطوره المبكر. غير ان معظم هذه المصادر المتاحة كانت مصادر متأخرة جدًا، ونادرًا ما كانت تحتوي على معلومات موثقة تتعلّق بالمراحل الأولى للحركة الصوفية في الاسلام، وهذا هو السبب في ان الدارسين قد أقروا عادة بانه يجب ان يكون التصوف نبتًا أجنبيًا في صحراء الاسلام القاحلة. هذا الدين الاسلامي الذي كانت معرفتهم به معرفة يسيرة، كما انهم لم يكنّوا له اي تقدير، ولم يكن – في نظرهم – جديرًا بأن تنبثق عنه أية حركة روحية سامية وفائقة».(١)

ويقول المستشرق «نورمان دانيال» Norman Daniel : «انه رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين الغربيين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتّاب المسيحيين من الاسلام، فانهم لم يتمكّنوا من ان يتجردوا كليًا عنها كما قد يتوهمون».(٢)

١– Mystical Dimensions of Islam. p. 12.
«التصوف الاسلامي». محمد الشرقاوي ص ١٩.

٢– The Arabs and Medieval Europe p. 13.

أما المفكّر الانجليزي «برنارد لويس» فيقول: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء تلك الحواشي المرصوصة في ابحاثهم العلمية».(١)

والمستشرق الانجليزي A. Arberry يقول: «وتلك التصحيحات التي تطلق على التصوف الاسلامي في الغرب امر لا قيمة له. من ناحيتي اود ان اطلب هدنة لمدة جيل، على الأقل، نتوقف خلالها عن مثل هذه الافتراضات.»(٢)

اذا رجعنا في بحثنا الى عهد الخلفاء الراشدين، الذي دام اربعين سنة بعد الهجرة، نجد ان الخلفاء الاربعة بذلوا جهدهم في جمع القبائل المتعددة المشارب، تحت مظلة الاسلام، كما وجّهوا عنايتهم في نشر علوم تلاوة القرآن وتفسيره، وتنظيم دراسة الشريعة على اساس ما انزل بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، ثم جهدوا على ارساء قواعد اللغة العربية التي اعتمدت في ذلك الوقت «لهجة مضر»، لأن بها نزل القرآن، وقال سبحانه وتعالى «إنّا انزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون(٣)». وكان ذلك قبل ان ترد الأفكار والعقائد الغربية كاليونانية والمسيحية الى الفكر الاسلامي.

ولكن في العهد الاموي العربي، استعادت المدارس اليونانية والمؤسسات المسيحية نشاطها العلمي، بعد ان كان تقلّص خلال الفتوحات الاسلامية، فكان تجمع التيارات الثقافية والفكرية اليونانية واليهودية والبابليةوالمصرية في مدرسة الاسكندرية، ومنها انطلقت الى مدارس انطاكية، ونصيبين، ودير قنسرين، والرّها حيث ترجمت الى السريانية وانتشرت في بلاد الشام ومصر وفارس.(٤)

١- «العرب والتاريخ». ص ١٣.

٢- An Introduction to the History of Sufism p. 56.

٣- سورة يوسف آية ٢.

٤- المصدر نفسه ص ١٥ (بتصرف).

ثم انضّمت الى هذه التيارات العقائدية والفكرية، العقائد النسطورية واليعقوبية[1] المسيحية الشرقية، اذًا انفصل النسطوريون واليعاقبة عن الارثوذكس الناطقين باليونانية، وانتشروا في الامبراطورية الفارسية بفضل تشجيع الفرس، حيث احتفظوا بلغتهم السريانية وأسسوا الكنائس والمدارس العديدة ونشروا العلوم الفلسفية واللاهوتية المسيحية.[2]

ثم كانت مدينة «حرّان» موطن الصابئة اتباع يوحنا المعمدان الذين نادوا بالهرمسية وعبدوا الافلاك. واما في الشرق فكانت مدرسة جندياسبور الشهيرة التي اسسها كسرى انوشروان وجمع فيها العديد من الفلاسفة اليونان والفرس والمسيحيين.

في خضم هذه التيارات الفكرية والعقائد المختلفة المصادر والاتجاهات والغايات، انطلقت العقيدة الصوفية تنهل من جذور التقشف والزهد التقليدي الاسلامي، فكان من الطبيعي ان تتأثر هذه العقيدة بهذه الحضارات والافكار السابقة.

عُرف الدكتور عبد الرحمن بدوي بخبرته الواسعة بالدراسات الغربية، وخصوصًا آراء ونزعات المستشرقين، فقال عنهم: «فمنهم من بدأ بحكم سابق، هو ان العقلية السامية عاجزة عن الفنون والعلوم اولاً: لفقرها في الخيال. وثانيًا: لافتقارها الى الترقيقات الروحية والمرونة العقلية واللغوية. ومنهم من تأثر باصوله ونزعاته الدينية، يهودية كانت ام مسيحية، فراح يلتمس المشابهة الظاهرة او الخفية ليثبت وجود تأثير أو تأثر.[3]

١- انتشرت الفرقة النسطورية في الحيرة، والفرقة اليعقوبية انتشرت في غسان وسائر قبائل الشام.

٢- «ثلاثة حكماء مسلمين». سيد حسين نصر ص ١٥ (بتصرف).

٣- «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ٤٠ - ٤١.

التأثير اليوناني

يقول المستشرق الانجليزي «رينولد نيكلسون»: «ان كتاب «اثولوجيا» وهو ملخص لمذهب «الأفلاطونية المحدثة» الذي انتشر انتشارًا واسعًا في بلاد الشام ومصر التي كانت مركزًا مهمًا من مراكز التصوف كما ان المذهب الافلاطوني المستحدث وصل الى الاسلام عن طريق «حرّان» في بلاد ما بين النهرين التي كانت مركزًا مهمًا للوثنيين المعروفين باسم الصابئة».*(١)

الدكتور مصطفى حلمي يقـــول: «يبيّن لنـــا كتـــاب «اثولوجيا ارسطوطاليس» وهو كتاب الافلاطونية المحدثة ان الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر انما تدرك بالمشاهدة في الغيبة عن النفس من جهة، وعن العالم المحسوس من جهة اخرى، وهذا بعينه ما ذهبت اليه الصوفية من ان المعرفة الحقيقية لا تحصل عن طريق الحس والعقل، بل تحصل بنور يقذفه الله في قلب العبد بعد ان يكون خلص من شوائب نفسه. ومن عرف ربه واستغرق في الذات الالهية استغراقًا تزول معه التفرقة ويحصل فيه الاتحاد والجمع، فالتشابه واضح في طريق المعرفة بينهما».(٢)

ويستطرد الدكتور حلمي قائلاً: «تناولت الصوفية من الفلسفة اليونانية، خصوصًا من افلاطون وارسطو (الافلاطونية المحدثة) معاني الازلية والحقيقة، وحقيقة الحقائق، والحكمة، والعلة والمعلول، والفيض، ووحدة الوجود، والكثرة، والعقل الاول والعقل الكلي والمعرفة وعبّرت عنها بلسان الذوق عن الذات الالهية ومعرفة العالم بالله، وصدور الموجودات فيه عن ذات واحدة هي عينه وهو عينها»(٣)

١- Studies in Islamic Mysticism. Cambridge 1921

* الصابئة من اتباع يوحنا المعمدان قدموا، بعد اختلافهم مع اليهود، الى مدينة حرّان الواقعة بين النهرين في العراق واسسوا فيها مدرسة كبيرة كان يدرس فيها الفلسفة اليونانية وفلسفة «هرمس» الفيلسوف البابلي، وكانوا يعبدون الافلاك. راجع كتاب اصول الصابئة (المندائيين) للمفكر الصابئي عزيز سباهي، وكتاب تاريخ الصابئة المندائيين، لمحمد عمر حماده.

٢- «ابن الفارض والحب الالهي» ص. ٧١.

٣- «ابن الفارض والحب الالهي». ص .٨٥

وكتاب «اثولوجيا ارسطوطاليس» يحوي، بالاضافة الى مقتطفات من التاسوعات الافلوطينية نظرية تسلسل مراتب الوجود الكوني وهي ابداع الله تعالى للعقل من نوره، والعقل فاض على النفس الكلية، والنفس فاضت على الهيولى وهي المادة والصورة، اي جميع ما اوجده المولى في الكون.

فلسفة الفيض نجدها في فلسفة ابن عربي في نظريته في وحدة الوجود والحقيقة المحمّدية التي كانت اول تعين للنبي محمد صلعم فاضت منه التعينات الأخرى من الذات الالهية. كذلك نجد فلسفة في الحكمة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردي الذي جعل من الله نورًا للأنوار فاض بالانوار القاهرة، وهي العقول والنفوس والاجسام. هذه النظريات في الفيض تؤكد تأثير الفلسفة اليونانية المحدثة على التصوف الاسلامي.

يقول الدكتور ماجد فخري: «ان مذهب الصدور او الفيض يتعارض تعارضا تامًا مع العقيدة الاسلامية القائلة بآله متعال ليس كمثله شيء يصرف شؤونه باستقلال وجبروت[1] ولا يخضع في افعاله لاضطرار او الزام. وعليه قاس العقول بأزلية العالم الذي ينطوي على ضرب من الالزام، إن من حيث قياس العالم الذي يفيض عن الله على مصدره، او من حيث استحالة تنكب الله عن خلق العالم، ما دام هذا العالم ازليًا، حتى لو أراد.[2]

وتختلف العقيدة الصوفية اختلافًا جذريًا عن الفلسفة اليونانية في تعريف العقل، حتى قال بعض المفكرين، ان الصوفية اعداء العقل. أما المعتزلة، اصحاب العدل والتوحيد فكانوا اول من اعتنق من المسلمين الفلسفة اليونانية، وقالوا بالتوحيد، بنفي الصفات عن الله تعالى، ونادوا بان الانسان مخيّر في اعماله وليس مجبرًا، قالوا بالعقل المطلق وانهم يرفضون الايمان، الركن الأول والأساسي في الاسلام، اذا لم يقبله العقل، وان العقل هو ثاني الله وارادته على الأرض وهذا يتعارض مع تجاهل الصوفية للعقل.

---

١ – قال الامام الأول علي بن ابي طالب: الجبروت هو علم العظمة.

٢ – «دراسات في الفكر العربي». ص. ٣٧.

ومن المستغرب ان الصوفي حارث المحاسبي يقول عن العقل: «ما ذلك إلاّ لأنه نور وضعه الله طبعًا وغريزة، فالعقل نور في القلب»[١]. كان على المحاسبي الصوفي ان يقول العرفان بدلاً من العقل، لأن من اسباب تجاهل الصوفية للعقل انه لا يدرك الالوهية. أما الحكيم الترمذي فيقول عن العقل: «وهو عام في جميع الآدميين ويتمايزون فيه بتمايزهم في الخلقة البدنية»[٢]. أما الصوفي سهل التستري فيصف العقل: «انه عقل في عقل الى عقل، وهو يزيد بالتجارب والاختبار»[٣] ثم يقول: «وهو الذي يعرف ما لم يكن بدليل ما قد كان ويصير حكيمًا بالتجارب[٤]

ويقول الدكتور محمد الشرقاوي: «اذن يثبت الصوفية ان العقل غريزة واستعداد او وسيلة لتحصيل العلم ولا يذهبون مذهب المتكلمين او الفلاسفة عن العقل وأن العقل معرفة».[٥]

ثم يسترسل حارث المحاسبي الصوفي في وصف العقل فيقول: «وقد زعم قوم ان العقل معرفة خلقها الله ووضعها في عباده، يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار، والذي عندنا – اي العقل – غريزة والمعرفة عنه تكون»[٦]

١- «العقل وفهم القرآن»، تحقيق حسين القوتلي. ص. ١٠٤.

٢- «نوادر الاصول» ص ٢٥٦.

٣- «التراث الصوفي» مجلد ٢. ص ٣٧٦

٤- «نوادر الأصول».

٥- «الصوفية والعقل». ص ١٦٠.

٦- «العقل وفهم القرآن». تحقيق القوتلي. ص ٢٠٥.

وأما الدكتور الشرقاوي فيضيف على قوله السابق: «ويتعرض الصوفية لظاهرة ضرورية من ظواهر العقل الغريزي هي ظاهرة الاستدلال، فلولا الاستدلال، وهو حركة عقلية، لما عرفنا بان هناك عقلاً، وان الانسان يتعلم اسماء الأشياء ثم نراه بعد ذلك يفرّق بين هذه الأشياء تفرقة يستدل فيها بما كان قد تعلم، فعملية الاستدلال عملية عقلية ظاهرية تدل على ان وراءها عقلاً غريزيًا باطنًا.» ويقول الحارث المحاسبي: «لولا الاستدلال بالعلم الذي سمعه من اسماء الأشياء ثم رأى الأشياء لعرفها برؤية و لم يعرفها باسم ولا تفصيل بين معانيها، فلم يعرف العاقل اسماء الاشياء إلاّ بالتعلم، فعرف بعقله الاشياء وفصل بين معانيها».(١)

اذن، من الواضح، ان العقل عند الصوفية غريزة لا يُعرف إلاّ بفعاله وهو الدال على المنافع والمضار، ويعقل بقصد غاية وهي الاستدلال على الاشياء حسب مظاهرها، لذلك فهو لا يحوط علمًا بالالهيات والمعرفة اللدنية، التي هي نور الله يقذفه في قلب عبده، ولهذا نجد اختلافًا كبيرًا بين تحديد العقل عند الصوفية باعمال ظاهرية واستدلالات عملية تظهر الحواس، وبين كونه ثاني الله وابداعه وارادته على الارض كما تقول الفلسفة اليونانية والمعتزلة.

من الواضح بما تقدم انه، بالرغم من التباعد والاختلاف بين الصوفية والفلسفة اليونانية، بالنسبة للعقل، لا ريب في أن الفلسفة اليونانية تركت آثارًا كبيرة على التصوف الاسلامي. يقول الدكتور الشرقاوي: «ان المعرفة في كتاب «اثولوجيا» اليوناني لا تدرك بالفكر، انما تدرك بالمشاهدة في حال الغيبة عن النفس من جهة، وعن العالم المحسوس من جهة اخرى، وهذا ما ذهب اليه الصوفية من ان المعرفة الحقيقية لا تحصل عن طريق الحس او العقل، بل تحصل بنور يقذفه الله في قلب العبد بعد ان يكون خلص من شوائب نفسه عما سوَّى ربه واستغرق في الذات الالهية استغراقًا تزول معه التفرقة ويحصل فيه الاتحاد والجمع».(٢)

١- «الصوفية والعقل» ص ١٦٠ - ١٦١ (بتصرف).

٢- «التصوف الاسلامي». ص ٦٧.

الدكتور مصطفى حلمي يحدد القرن السادس هجري لتأثير الفلسفة اليونانية على التصوف الاسلامي فيقول: «اذا أريد أن يتخذ من الفلسفة اليونانية مصدرًا لبعض العناصر والمذاهب الصوفية فان ذلك لا يكون إلاّ منذ القرن السادس للهجرة، وهو القرن الذي تقع فيه حياة ابن عربي وامثاله[1].

ان حلول اللاهوت في الناسوت، اي الاتحاد بالله، له اصول في فلسفة ارسطوطاليس الذي يتحدث عن اتحاد الصورة بالمادة. يقول الدكتور الحفني: «يزعم بعض المتصوفة ان الحق اصطفى أجسامًا حلّ بها بمعنى الربوبية، وأزال عنها معاني البشرية، وهذه الاجسام اصطفاها الله تعالى اجسام اوليائه واصفيائه، اصطفاها لطاعته وخدمته وزيّنها بهدايته وبيّن فضلها على خلقه».[2]

ويقول المفكر اللبناني سميح عاطف الزين: «على انه مهما كان الحال، فإن الحلول، او الاتحاد، أو وحدة الوجود، بالاضافة الى التناسخ والتقمص، أفكار جميعها نوع من الأوهام والافتراضات التي لا تقوم لا على اساس علمي ثابت ولا على قواعد دينية معروفة».[3]

١- «الحياة الروحية في الاسلام». ص. ٧٢.

٢- »معجم المصطلحات الصوفية» ص . ٨٢.

٣- «الصوفية في نظر الاسلام». ص. ١٢٠.

التأثير المسيحي.

اما التأثير المسيحي على التصوف الاسلامي فقد كان محدودًا وانحصر في علاقة النسّاك والرهبان النصارى بالاسلام، ولكن هذه العلاقة لم تترك اثرًا ملحوظًا في الفكر الصوفي الاسلامي لانزواء النسَّاك في صوامعهم والرهبان في اديرتهم وانقطاعهم عن الحياة العامة والفكرية.

وفي الجاهلية انتشرت مناسك واديرة للنصارى في بلاد العرب، خصوصًا في بلاد الشام ونجران واليمن وكان يقطنها نسّاكٌ متقشفون زاهدون يعبدون الله، وعُرف عنهم العلم في الطب ومعالجتهم للفقراء وأطلق اليونانيون على هذه المناسك والاديرة اسم «المحلَّة»، وكانت هذه الاديرة بيوت خلوة وعبادة وكان بعضها مدارسَ لتعليم اصول الدين المسيحي.

اما الناسك، فابتعد عن الناس متخذًا صوامِعَ، والصومعة كلمة من اصل حبشي (صومعت)، في الكهوف والمواضع النائية في رؤوس الجبال اماكن للتأمل والتعبد ولبس الخشن من الثياب يعيشون حياة زهد وتقشف.

اما الراهب فكان يدعى «الابيل» وهي كلمة سريانية (Abilo) ومعناها الزاهد المتقشف، ويسكن الاديرة، والدير كذلك لفظة من اصل سرياني (Dayr) وتعني مسكن الرهبان. كان الراهب يلبس جبة من الصوف سوداء ويشد على خصره حزامًا من الجلد. اشتهر في الحيرة في العراق «دير السوا» حيث كانت تجتمع النصارى ليعقدوا الأحلاف ويقسمون الايمان على التعاضد والاخلاص للمسيحية.

كانت هذه الاديرة قبلة للنصارى الذين انتشروا بصورة واسعة في البلاد الاسلامية حيث انتشرت المسيحية التي كانت تعتنقها قبائل عدّة كبيرة مثل، غسان وطي وتنوخ وفي العراق تغلب وبكر ولخم، ولكن تأثيرها على الفكر الاسلامي بقي محدودًا، فيما خلا ترجمة كتب الفلسفة اليونانية في مدارس

حرّان، ودير قنسرين والرها وانطاكية وثم الاسكندرية. وهذه الترجمة كان لها اثر كبير في ادخال الفلسفة اليونانية الى الفكر الاسلامي.

من المسلم به والطبيعي ان الصوفيين اطلعوا على احوال الرهبان وطرق معيشتهم وافكارهم اللاهوتية وتصرفهم الحياتي في الصوامع والاديرة، ولكن الرسول الكريم قال «لا رهبانية في الاسلام» وذلك لان الرهبانية تعد من البدع اليهودية فاراد الرسول الابتعاد عنها.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات عن الرهبان والرهبانية لم يعن الله بها الذم والتقريع، بل انتقادًا للذين اتبعوا ومارسوا الرهبانية على انهم ما رعوها حق رعايتها، وادخلوا عليها بدعًا كالتثليث والقول ان المسيح ابن الله والسجود امام الصلبان والصور.

من الآيات التي نزلت في القرآن الكريم عن الرهبانية هي: «يا ايها الذين آمنوا ان كثيرًا من الاحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم»[١]. «لتجدنَّ اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدنَّ اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهبانًا وانهم لا يستكبرون»[٢] «ثم قفَّينا على آثارهم برسلنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتينه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون»[٣].

١- سورة التوبة الآية ٣٤.

٢- سورة المائدة الآية ٨٢.

٣- سورة الحديد الآية ٢٧.

اما قول الرسول الكريم «لا رهبانية في الاسلام عليكم بالجهاد» فقد اورد هذه المقالة ابن الاثير فيقول: «هي رهبنة النصارى واصلها من الرهبة، الخوف. كانوا يرهبون بالتخلي عن اشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن اهلها وتعمد مشاقها، فنفاها النبي عن الاسلام ونهى المسلمين عنها حين قال: «عليكم بالجهاد فانه رهبانية امتي.»[١]

الواقع ان المسلمين اطلقوا اللقب راهب على من اشتهر بشدة التقوى. واويس القرني، الصحابي الكبير كان يطلق عليه لقب «راهب الامة» والمرداد، احد كبار شيوخ الاعتزال كان يسمى «راهب المعتزلة» وابو بكر المخزومي كان يلقب «راهب قريش» والدارامي كان لقبه «راهب الكوفة.»[٢].

والمستشرق الانجليزي «رينولد نيكلسون» يقول عن الرهبان المسيحيين وعلاقتهم بالتصوف: «والرهبان المسيحيون كثيرًا ما يظهرون في مقام المعلمين ويولون النصح والتسديد لزهّاد المسلمين المتَّقين، وقد رأينا ان ثوب الصوف – الذي منه جاء الصوفي – مسيحي الاصل، ونذر الصوم عن الكلام، والذكر، رياضات الزهد لعلها ترد الى هذا الاصل نفسه. وكذلك في ما يتصل بمذهب الحب الالهي.» ثم يقول: «من الجلي أنَّ ميول الزهد والتأمل، التي اشرت اليها، كانت على وفاق مع الفكرة المسيحية ومنها استمدت اسباب قوتها. فكثير من نصوص الانجيل ومن أقوالٍ منسوبة للمسيح مقتبس من اقدم تراجم الصوفية.»[٣].

١– «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي. ص ١٠٥.

٢– المصدر نفسه، ص ١٠٤.

٣– ترجمة مشربية. The Mystics of Islam p. 12

والمستشرق «غولدتسيهر»[١] يقول: «لا رهبانية في الاسلام بالمعنى المسيحي، وان النبي نهى عن المبالغة والتجاوز في الزهد وترك الدنيا.» ثم يقول: «ومن الحق ان كثيرًا ما يصادفنا في وثائق الفكر الديني دلائل الاستنكار الصريح غير الخفي للزهد المتجاوز للحد المألوف كما تتطلبه احكام الشريعة.» ثم اشار الى الحديث الشريف. «لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله.»[٢].

«يأتي في مقدمة المؤثرات المسيحية في التصوف الاسلامي نظام الرهبنة عند المسيحيين وهو يقوم على احتقار البدن وهجر الدنيا واعتزال الناس في الاديرة والصوامع المقامة في مناطق نائية، والامتناع عن الزواج والرضا بالقليل من لباس وطعام.»[٣].

يقول الدكتور السحمراني: «والمسألة المهمة هي ما عرف بالحلولية، اي بحلول اللاهوت في الناسوت، فالمسيح، هو كلمة وعقل حلّ في عيسى الانسان، وبهذا المعنى يكون المسيح قد بدأ وظهر او تجلى في شخص عيسى، وفكرة الحلول تفيد ان عيسى انسان الهي وصورته الخارجية صورة انسان، وطبيعته الداخلية مما ينتمي للاله، فهو من طبيعتين امتزجتا وصارتا طبيعة واحدة، انه مركب من الناسوت واللاّهوت برزت هذه الحلولية عند الحلاّج وابي يزيد البسطامي مما حمل علماء المسلمين على رميهم بالكفر.»[٤].

١- جولدتسيهر مفكر مجري الجنسية يهودي. درس علوم الدين في الازهر الشريف ثم التحق لمدة طويلة بالامام محمد عبده.

I. Goldziher, «le dogme et la loi de l'islam». Paris 1930 Leipzig 1884.

٢- «العقيدة والشريعة في الاسلام». ص ١٢٩.

٣- «التصوف». اسعد السحمراني ص ٥٣ (بتصرف).

٤- المصدر نفسه ص ٥٤.

كان جواب العلماء المسلمين على عقيدة الحلول: «ان الله تعالى لا يحل في القلوب، انّما يحل في القلوب الايمان به والتصديق له، والمعرفة والتوحيد، وهذه اوصاف مصنوعاته من جهة صنع له بهم، لا هو بصفاته او ذاته يحل فيهم.»[1].

ولكن بعض المستشرقين مثل «فون كريمر» «نولد كه»، «جب»، «غولدتسيهر» «وجوليان بالدك» اجتهدوا في التدليل واثبات نظرية المصدر المسيحي في نشأة التصوف الاسلامي*. ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي «ان هؤلاء المستشرقين استمدوا الدلائل التي يستندون اليها من:

---

١ – «معجم مصطلحات الصوفية» الدكتور عبد المنعم الحفني ص ٨٢.

* طبيعة المسيح في المذاهب المسيحية الثلاثة، الملكانية، النسطورية واليعقوبية تتلخص بما يلي:

١ – المذهب الملكاني: يعتقد هؤلاء ان الله ثالث ثلاثة، اي ان الصورة الالهية هي الاب والابن والروح والقدس. يقوم هذا المذهب بعملية المزج بين الثلاثة معتقدًا بان الجوهر هو الله والملكوت هو جسد المسيح والكلمة العنصر الثالث. اتحد الجوهر (الله) والكلمة بجسد المسيح وتعلقا بناسوته، فمريم اذن ولدت جسدًا إلهيًا.»

٢ – المذهب النسطوري: ان المسيح انسان وان مريم انسان جزئي، ولا يلد الانسان الجزئي إلاّ انسانًا جزئيًا مثله. وحدثت النعمة الالهية فاتصل اللاهوت بهذا الانسان الجزئي، كما اتصل من قبل بسائر الانبياء، ولكن صلته بالمسيح كانت اكثر دوامًا واستقرارًا.

٣ – المذهب اليعقوبي. ان المسيح جوهر واحد منه الانسان والاله، اي الناسوت واللاهوت. اتّحدا اتحادًا كاملاً في شخص المسيح.

المراجع: المذهب الملكاني. «المذاهب الصوفية في الاسلام ومدارسها». عبد الكريم قاسم. ص ٣٧.

المذهب النسطوري، «الفلسفة الصوفية في الاسلام». عبد القادر محمد ص ٣٤.

المذهب اليعقوبي. «المذاهب الصوفية في الاسلام ومدارسها» عبد الكريم قاسم ص ٣٨.

١ . التشابه في بعض المظاهر، مثل استعمال الخرقة في ما يستعمله رهبان النصارى.

٢ . التشابه في استعمال بعض الكلمات السريانية والارامية مثل: لاهوت، ناسوت، رحموت، رهبوت، رباني وروحاني ونحوها.

٣ . التشابه في بعض الافكار والمواضيع مثل محاسبة النفس.

٤ . اختلاط المسلمين بالنصارى العرب في مناطق عديدة قبل الاسلام: في الحيرة، الكوفة، دمشق ونجران. وبعد الدعوة الاسلامية في مناطق عديدة.

٥ . ما يرويه الصوفية الاوائل من اقوال ينسبونها الى المسيح عليه السلام.»[١]

يقول (فون كريمر): «في التصوف الاسلامي عنصران مختلفان: الاول مسيحي رهباني، والثاني هندي بوذي وهو ظاهر في الحارث المحاسبي، وذو النون المصري، والجنيد ابن محمد.»[٢].

اما «غولدتسيهر» فيقول: «توجد ناحيتان للتصوف، هما الزهد والتقشف، والزهد وثيق الصلة بروح الاسلام ومذهب اهل السنة، وان كان متأثرًا الى حد كبير بالرهبانية المسيحية، وان محمدًا والزهاد قد استمدوه من المسيحية او من العهد الجديد.»[٣]

ثم يضيف «غولدتسيهر» الى قوله السابق: «ان المبادئ الخاصة بالتوكل في احاديث النبي توافق ما في الانجيل – متى ٦/٢٥ – ٢٤. ولوقا ١٢/٢٢ – ٣٠ ثم يقول: ان الزهاد المسلمين حاكوا نسّاك النصارى ورهبانهم فارتدوا الصوف الخشن.»[٤]

١– «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ٣٣ و ٣٤.

٢– «التصوف الاسلامي» محمد الشرقاوي ص ٧٤.

٣– «العقيدة والشريعة في الاسلام». ص ١٣٤.

٤– المصدر السابق ص ١٣٥.

والمستشرق المعروف «جب» (H.A.Gibb) يرى ان التصوف الاسلامي تأثر بالتصوف المسيحي والغنوصية، خصوصًا بأوضاع الرهبنة الصوفية للكنيسة الشرقية»[١].

اما المستشرق نيكلسون فيقول: «من الجلي ان ميول الزهد والتأمل كانت على وفاق مع الفكرة المسيحية ومنها استمدت قوتها. فكثير من نصوص الانجيل ومن اقوال منسوبة للمسيح مقتبس من اقدم تراجم الصوفية الاسلامية.»[٢]

والمستشرق جوليان بلدك (J. Baldick) يشير بقوة الى ان التصوف الاسلامي قد انبثق، بشكل خاص، من الروحية المسيحية؛ فكلمة صوفي، والفكر والتأمل في الله، والاذكار والاوراد، ومبدأ الولاية بدلاً من القدسية (Sainthood) والتوكل جميعها اقتبسها المتصوفة المسلمون من المسيحية.»[٣].

رد بعض المفكرين على هذا الادعاء عن تأثير المسيحية في نشأة التصوف الاسلامي فقال الدكتور قاسم غني: «ان الصوفية يرون ان من الاهانة والاحتقار لانفسهم ان تكون اقوالهم ومعتقداتهم وافعالهم مقتبسة من الوثنيات اليونانية، او الهندوسية، او البوذية، او ان تكون تقليدًا للمسيحية.»[٤].

من المسلم به ان التأثير المسيحي على التصوف الاسلامي يبرز واضحًا في الدعوة الى المحبة التي اخذها الصوفيون عن المسيحية، فقد كانت ابرز التعاليم التي قال بها السيد المسيح الحب الالهي، وهو مذهب رابعة العدوية الذي عُرف باسم «العشق الالهي.»

١- Studies on the civilization of Islam p. 208.

٢- The Mystics of Islam p. 12.

٣- An Introduction to Islam p. 9-15.

٤- «تاريخ التصوف الاسلامي». مجلدا ص ١٤.

اما المستشرق «ديلاسي اوليري» «De lacy O'leary» فينهي هذا الجدل بقوله: «انه مملوء باوهام ملفقة وادعاءات لا تمت الى الحقيقة بصلة. وان احد الامور الذي يبرهن على التحيّز في دراسة المستشرقين، والذي اخشى ان يكون قد فعله عدد غير قليل منهم، هو ان كل ما يتصورونه امرًا حسنًا في الاسلام يرجعونه الى مصدر اجنبي، ويجب عندهم ان يلتمسوا له اصلاً او آخر غير اسلامي. وليست توجد صورة غير امينة للبحث العلمي اكثر سوءًا من هذا التعصب الطائفي الاعمى.»[١].

التأثير اليهودي.

لا يظهر في التصوف تأثير يهودي بارز إلاّ في القول بالاتحاد اذ اعطى اليهود لله تعالى اوصافًا حسية تجعله، عزّ وجل، شبيهًا مع الانسان، وهذا ما سمّوه بفكرة الاتحاد ويتجلى ذلك في تصورهم لله تعالى على نحو بشري. وقالوا: «ان الله فرغ من عمله في خلق العالم في اليوم السادس فاستراح في اليوم السابع، وان الرب بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه. ومن هذا التشبيه اليهودي لله بالانسان يصلون الى القول باتحاد المخلوق بالخالق.»[٢].

يقول الدكتور طلعت غنام. «فاذا فحصنا الاسرائيليات في علم الحديث، فاننا نجد ان ما وضعوه كان يمس التشبيه والتجسيم حتى قرن مسائل ونظريات الاتحاد من المسلمين»[٣].

١- «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» ص ٣٣.

٢- «التصوف». اسعد السحمراني ص ٥٦ (بتصرف).

٣- «اضواء على التصوف». ص ١١٦.

يقول الشهرستاني: «ان الاسلام وجد التوراة ملأى بالمشابهات، مثل الصورة والمشافهة، والتكلم جهرًا، والنزول من طورسينا انتقالاً، والاستواء على العرش استقرارًا، وجواز الرؤية فوقًا.»[١] وقالوا ان للتوراة ظاهرًا وباطنًا. أكدوا ذلك على اساس المنهج الصوفي.

ويؤكد «غولدتسيهر» وهو يهودي، نظرية «ان اليهود وضعوا الكثير من الاحاديث التي تسمى بالاسرائيليات وان نظرية التشبيه والتجسيم لدى اليهود تشابه نظرية الاتحاد والحلول لدى الفلسفة الاسلامية. يعترض اهل التصوف على هذه الادلة بانها ليست كافية وان التشبيه والتجسيم والتكلم جهرًا انما هذه دخلت على الصوفية حتى يعتقد الناس ان الصوفية خرجت عن المنهج الاسلامي»[٢].

التأثير الفارسي.

تأثير الفكر الفارسي على الفلسفة الاسلامية، ولا سيّما العقيدة الصوفية، كان قليل الاهمية، ولكن لم يمنع بعض المستشرقين، مثل الالماني «ثولك» والهولندي «دوزي»، و«فردريك داتش»، «ورينان» من القول ان التصوف الاسلامي ظهر في فارس منذ احقاب بعيدة. اذ يقول «دوزي»، ان التصوف قد جاء الى المسلمين من فارس القديمة حيث كان موجودًا قبل البعثة المحمدية وانه جاء الى هذه البلاد من الهند. فقد ظهرت في فارس منذ احقاب بعيدة فكرة صدور كل شيء عن الخالق، ورجوع كل شيء الى الله، والقول بان العالم لا وجود له في ذاته، وان الموجود بحق هو الله. وكل هذه معان يفيض بها التصوف الاسلامي.»[٣].

١- «الملل والنحل» مجلدا ص ٢١٢

٢- «المذاهب الصوفية ومدارسها». عبد الكريم قاسم ص ٢٦ (بتصرف).

٣- «مقدمة في التصوف الاسلامي وتاريخه» ص ٩. التصوف الاسلامي الشرقاوي ص ٥٢.

ويؤكد نظرية تأثير الفكر الفارسي على الصوفية ابن الفارض اذ يقول: «والمتأمل بظاهر النظر يدرك، لاول وهلة، ان مذهب الصوفية في الحقيقة المحمدية، وإنّه اول مخلوق خلقه الله ومنه تفرعت كل المخلوقات الاخرى علوية وسفلية، تشبه الى حد بعيد ما ورد في الكتاب الزرادشتي المعروف باسم «زندا افستا»، وهو ان هرمن، إله الخير في ديانة زرادشت، لم يخلق الكون بما فيه من كائنات روحية ومادية خلقًا مباشرًا، بل خلقه بواسطة الكلمة الالهية.»[١].

اما الدكتور عبد الرحمن بدوي فيقول: «نظرة هؤلاء الى العقلية السامية عمومًا – والعربية خصوصًا – على انها فقيرة في الخيال وفي ادراك الحقائق والدقائق الروحية، ومن ثم كانت عاجزة عن ابداع فكر روحي ومنهج تنسكي مثل هذا التصوف، فقاموا بارجاع التصوف الاسلامي الى رد فعل عنصري ولغوي وقومي من جانب الشعوب الآرية المقهورة التي غلب عليها سلطان العرب المسلمين وكلهم يعتنقون فكرة سمو الآرية على السامية ويفسرون بالعقلية الآرية، كما تصوروها، كثيرًا من الظواهر الحضارية والفكرية والعقائدية في تاريخ الاسلام.»[٢].

والدكتور طلعت غنام يشير الى بعض التوافق بين النزعات الفارسية القديمة والتصوف الاسلامي فيقول: «على ان هناك شبهًا قويًا بين بعض العقائد والنزعات الفارسية القديمة وبعض التعاليم والمذاهب الصوفية الاسلامية، يشبه الى حد كبير، الزهد والرهبنة في الديانة «المانوية»، كما يشبه الزهد والقناعة والنهي عن ذبح الحيوان في الديانة «المزدكية» ويشبه عقائد الشيعة في حق الملك الالهي وفي حلول الله في الامام.»[٣].

١– «ابن الفارض والحب الالهي». مصطفى حلمي ص ٨٢.

٢– «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ٢١ و٣٢.

٣– «اضواء على التصوف» ص ٧٩.

«شاعت هذه العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم على يد من اسلم من الفرس بعد ان تفتحت الدولة الاسلامية وامتدت اطرافها في كل مكان، وكان من اهم اطرافها تلك البلاد الفارسية.»[١].

وبعض المستشرقين يقول ان معظم مشايخ التصوف الكبار كانوا من الفرس، كابراهيم بن الادهم، أبي يزيد البسطامي، معروف الكرخي، شقيق البلخي، حاتم الاصم، سهل التستري،أبي القاسم الجنيد، الحكيم الترمذي، ابي عبد الله الحلاّج،أبي حامد الغزالي وشهاب الدين السهروردي. ولم يكن من العرب إلاّ ذو النون المصري وهو نوبي من صعيد مصر، رابعة العدوية، محيي الدين ابن عربي، سليمان الداراني الدمشقي، ابن الفارض والفضل بن عياض بن بشر التميمي. بالرغم من ان معظم مشايخ المتصوفة كان من اصل فارسي، فان تأثير الفكر الفارسيّ لم يتعد النهج المسلكي الحياتي للمتصوف.

والمؤرخ احمد الشرباصي يقول: «كما ان هناك من يقول ان البيئة الفارسية كان لها تأثير في التصوف الاسلامي، ويستدل على ذلك بوجود الفاظ فارسية في المصطلحات الصوفية مثل «قلندر» بمعنى الفاني بالله تعالى، او غير المهتم بالدنيا، «وصاجندان» بمعنى المتيقن، «وخرق بوشان» بمعنى لابس الثوب الخاص بالدراويش، والكشكول بمعنى المتسول.»[٢].

ان مصدر التصوف الاسلامي الاول لم يكن فارسيًا كله بالرغم ما لصوفية الفرس من اثر واضح في الحياة الروحية الاسلامية، خصوصًا بعد الاسلام حين نشطت حركة الترجمة في العصر العباسي، وكان معظم من اشتغل في ذلك الوقت، بالعلوم والفلسفة والتفسير، من الفرس الذين عاشوا في ظل الاسلام، بالاضافة الى قوة الصلات الاجتماعية والسياسية بين الفرس والمسلمين العرب التي كانت سائدة في اوائل العصر العباسي.

١- «القيم الروحية». مصطفى حلمي ص ٤٣.

٢- «الغزالي»، ص ١٥١.

اول من قال من المستشرقين بان التصوف الاسلامي مستمد من اصل مجوسي كان الالماني (تولوك) F.A.D Thuluck في كتابه «Theologia Panthelstica Sufism Sire» الذي نشر سنة ١٨٢١م[١].

يقول الدكتور ابو العلا عفيفي: «وقد دلّل «ثولك» على رأيه بان عددًا كبيرًا من المجوس ظلوا على مجوسيتهم في شمال ايران بعد الفتح الاسلامي. وان كثيرين من كبار مشايخ الصوفية المسلمين ظهروا في الشمال من اقليم خراسان، وان الافكار الهندية، التي نسمع صداها، من اقوال بعض متصوفة المسلمين، قد تسربت اليه عن طريق هذا الجزء من ايران. وقد عزز «ثولك» رأيه هذا بقوله ان مؤسسي فرق الصوفية الاوائل كانوا من اصل مجوسي او على علمٍ بالمجوسية. وهذه دعاوى قد برهن البحث العلمي على تهافتها وبطلانها.[٢]»

واما المستشرق اربري (Arberry) فيعلق على رأي ثولك (Thuluck) بقوله: «انه في نظر المعايير العلمية الحديثة بالغ التفاهة، وان نظريته لم تلق دعمًا او تأييدًا ما، وبالتالي فانه نفسه قد تخلى عنها لافتقارها الى البرهان وتبنى نظرية اخرى مؤداها، ان التصوف الاسلامي مستمد من حياة العزلة العربية (Monasticism)، ثم ادعى ان التصوف الاسلامي قد انبثق وتطور عن حياة محمد الروحية الخاصة، وان المادة التي اعتمد عليها هذا الرجل كانت مستقاة من المصادر الفارسية اساسًا.[٣].»

١- «التصوف الاسلامي». محمد الشرقاوي ص ٥١.

٢- «التصوف الاسلامي وتاريخه،» المقدمة.

٣- Arberry «An Introduction to the History of Sufism» p. 32.

اما المستشرق الانجليزي نيكلسون فيقول: «كان معروف الكرخي من اصل فارسي، ولكن الكلام في الاحوال والمقامات وما الى ذلك من المسائل التي هي في صميم التصوف، لم يظهر إلاّ عند رجال اتوا بعده امثال، ابي سليمان الداراني وذي النون المصري اللذين عاشا في الشام ومصر و لم يجر في عروقهما نقطة واحدة من الدم الفارسي على الارجح.»[١] كما يؤكد نيكلسون، ان البناء الذي قام عليه التصوف كان القرآن والحديث والسنة، ثم استمد التصوف، مثله مثل غيره، من نواحي التفكير الاسلامي، في تطوره، من الديانات والمذاهب والفلسفات الاخرى»[٢]

من العوامل التي قد تكون أثرت على بعض المستشرقين الذين قالوا بالتأثير الفارسي على التصوف الاسلامي، هو التوافق بين «الحقيقة المحمدية» التي تنص بانها اول مخلوق خلق الله ومنه تفرعت كل المعلومات الاخرى علوية وسفلية، تشبه الى حد بعيد ما ورد في كتاب الزرادشتيين المعروف باسم «زندا

١- «نظرة تاريخية في اصل التصوف وتطوره» ص ١٣.

٢- The Idea of Personality in Sufism p. 8-9

افستا» وهو ان هرمن إله الخير في ديانة زرادشت* لم يخلق الكون بما فيه من كائنات روحية ومادية خلقًا مباشرًا، بل خلقه بواسطة الكلمة الالهية.»(١).

*** الزردشتية.**

اتباع الحكيم زرادشت بن يورشب المولود في أذربيجان وكان مقر الطائفة في اصطخر من فارس. يقولون ان النور والظلمة اصلان متضادان وكذلك «نيردان وهرمن». وهما مبدأ موجودات العالم، خلقهما الله الذي لا شريك له، وهو خالق النور والظلمة ومنهما الخير والشر والصلاح والفساد. له كتاب هو «زندا اوستا» يقسم العالم الى روحاني وجسماني وليقول انه سيظهر اخر الزمن رجل اسمه «اشير رلكا» اي الرجل العالم، ينشر الدين والعدل وتنقاد له الملوك وينتصر الدين والحق ويحصل في زمانه الامن والعدل وتزول المحن وتسكن الفتن.

***. المانوية.**

اتباع الحكيم ماني بن فاتك. ولد ماني في مدينة حرّان العراقية عند الصابئة المندائيين، واخذ العلم عن شيوخها، ثم غادرها الى خراسان حيث اسس مذهب المانوية وهو يعتمد القول ان العالم مصنوع من اصلين ازليين، النور والظلمة يقتسمان الخير والشر والصلاح والفساد.ظهر ماني في عهد الملك سابور الاول (٢٤١ – ٢٧٣م) وقتله الملك بهرام الذي خلف سابور عام ٢٧٣م. تأثرت المانوية بالمسيحية وعقائد الصابئة، ومن فروضها الدعاء للحق وترك الكذب والسرقة وعبادة الاوثان.

***. المزدكية.**

اتباع مزدك الذي ظهر عام ٤٨٤ م في ايام الملك قباذ والد كسرى انو شروان، باني مدرسة جنديا سبور. وانو شروان لقب اطلقه عليه الكهنة، ويعني « الروح الخالدة» الذي جعل دين الدولة الزرادشتية واباح الاشتراكية في الزوجات والمال. تقول المانوية ان اركان الكون ثلاثة: الماء والارض والنار، كما انهم واصلوا تعاليم ماني.

***. المرقونية.**

كذلك اثبتوا اصلين النور والظلمة، ثم ثالثًا، المعدل الجامع وهو دون النور في الرتبة وفوق الظلمة. النور هو الله تعالى. وقالوا ان الزواج هو لانتاج الاولاد اي الذرية فقط، وعدا ذلك يكون حرامًا.

***. الديصانية.**

اتباع ديصان، قالوا كذلك باصلين، النور يفعل الخير قصدًا واختيارًا والظلام يفعل الشر طبعًا واضطرارًا. النور حيّ عالم قادر منه الخير والحسن والظلام ميت وعاجز.

١ – «التصوف الاسلامي». الدكتور محمد الشرقاوي. ص ٥٦ (بتصرف).

التأثير الصيني.

يرجع بعض المؤرخين بالصوفية الى الصين زمن الفيلسوف الصيني «كونفوشيوس» الذي عرف عنه قوله: «كل شيء يخسره الانسان يمكن تعويضه إلاّ الوقت. البارحة مضى وحذف من عمره والمستقبل امل يرجوه، ولا يوجد حاضر.»

يقول المفكر اللبناني سميح عاطف الزين: «عاش في الصين بلاد «كونفوشيوس» اي في القرن السابع قبل الميلاد، رجل... يقال له «لاؤتسة» وكان من ذوي الاتجاه الصوفي البارز، يرفض متع البشر ويريد الاصلاح في بني قومه. فلما يئس منهم، ارتحل عنهم فصادف في طريقه رجلاً كتب اليه كتابًا اودع فيه تعاليمه الصوفية التي تقوم على ترك العمل وشؤون الحياة والتخلي عن الشهوات وحاجات الجسم كي يستطيع الانسان الاتصال «بالتآوي» – القدرة الغيبية التي يجب الايمان بها – ولكي يحقق «التآوي» هذا الاتصال، عليه... تزكية النفس وتطهيرها من شهوات الدنيا وملذات الجسد ويستغني عن التكلف في اتيان الفضائل وعند ذلك يحصل الاتحاد بالتآوي».(١)

والدكتور عمر فروخ يؤكد هذه النظرية بقوله: «ان هنالك صلة وثيقة بين التصوف الاسلامي وبين فلسفة الحياة الصينية، فقد اشترك العرب والصينيون في تسمية هذا المذهب طريقًا او طريقة، ونظروا جميعهم إلى الحياة على انها سفر. ويرى متصوفة الاسلام ان الله علّة الوجود واليه يتوق الوجود وانه ليتجلّى للمتصوف في ما خلق. وهكذا رأى الصينيون في «تآوي» واتفقوا جميعهم على ان العلة الأولى لا تدرك بالحواس ولا توصف بالتشبيه.

١– «الصوفية في نظر الاسلام». ص ٣٤ (بتصرف).

والطرفان، لبلوغ العلة الاولى، لهما رياضة خاصة ذات مراتب هي عبارة عن المقامات، فتزكية النفس وتطهيرها عند الصينيين يشبه مقام التوبة والورع عند المسلمين، الاشراق الصيني يُشبه الكشف عند صوفية المسلمين، والاتحاد والاتصال يشبه الفناء».[1]

التوافق بين التعاليم الصوفية الاسلامية ومذهب «التآوي» الصيني، هو تطهير النفس من شهوات الدنيا ثم اتحادها «بالتآوي» حيث يدرك الانسان الموجودات بمفهومها الروحي فيتحرر من القوانين الطبيعية ومن تسلط النفس الشهوانية التي تدفعه الى الانغماس في ملذات الجسد والبعد عن الله تعالى.

الفلسفة الصينية تعود الى قرون عديدة قبل الاسلام، فهي ليست من الاسلام بل دخلت الى البلاد الاسلامية في ازمان لاحقة، ولهذا لا يمكن القول ان المسلمين اخذوا عن اهل الصين تعاليم وفلسفة يمكن ان تؤثر على دينهم او معتقداتهم وخصوصًا التصوّف.

١- «التصوف الاسلامي»، عمر فرّوخ.

التأثير الهندي

التصوف الهندي الذي مازال معنا حتى وقتنا الحاضر في جميع نزعاته واتجاهاته التي، لسوء الحظ، يسودها بعض الممارسات الغريبة التي تبدو بعيدة عن الدين والتصوف، برز في معتقدات فرق البراهمة والبوذية الهندية وذلك نتيجة عدم استقرار الاحوال السياسية في الهند والمتاعب الاقتصادية والفقر الذي كان ولا يزال يعم تلك البلاد، والأصح، تلك القارة الكبيرة.

المتاعب الاقتصادية والعوز والفقر الدائم، والاضطرابات السياسية، كل ذلك جعل الهنود يميلون الى حياة التقشف والزهد والابتعاد قسرًا عن الملذّات الجسدية مما جعلهم، من هذه الناحية، يتوافقون مع التصرف الصوفي الاسلامي.

عقيدة البراهمة الهندية، كعقيدة التصوف الاسلامية، تدعو الى تخليص النفس من سيطرة الجسد ثم السعي للاتحاد بالروح الكلية اي «براهما» وهو الله.

تتفق البراهمة الهندية والصوفية الاسلامية في عقيدة وحدة الوجود والهداية وفي تخليص النفس من ملذات الجسد ثم الترقي بها الى الله، عزّ وجل، للمشاهدة، والمشاهدة هي بالروح والشعور بوجود الله تعالى وليس بالبصر الجسماني، او الاتحاد والكشف.

فأما عن وحدة الوجود، يقول ابو الريحان البيروني[١]: «ان عقيدة البراهمة تذهب في الوجود الى انه شيء واحد». وأما الهداية فيقول البراهمة: «ان الهداية لا يصل اليها العقل بمنطقه، وان الوصول الى الحقائق لا يتأتى إلاّ بمحض البصيرة».

١- ابو الريحان محمد بن احمد البيروني وُلد عام ٣٥١هـ في خوزستان وتوفي عام ٤٤٠هـ. ذهب مع السلطان محمود الغزنوي الى الهند حيث تعلم اللغة السنسكريتية وكتب كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة.» عرض لعقائد ومذاهب الهند، وكان لكتابه تأثير كبير في ادخال الحكمة الهندية في التصوف الاسلامي.

يقول المفكر الهندي «Radha Krishna» نقلاً عن المؤرخ «Stutfield»:
«ان الفكر الصوفي الهندي قد عبر الى افريقيا واوروبا الغربية، وازدهر في الافلاطونية اليونانية، ثم انتقل الى الفكر المسيحي عبر الراهب المتنسك والعرفاني المتمسك «بوحدة الوجود» المدعو «Dionysus the Areopagitc».[1]»

«يقول المفكرون الهنود، ان اصل كل شيء هو «Brahman» وهو نفسه الذي يحفظها وهي تنتهي اليه في النهاية . وان «Hiranya Garbha» هو الروح العالمية او (Logos). هو العقل الالهي حلّ في العالم بامر من (Brahman) الذي جاءت كل الاشياء بواسطته. وان «Brahman» هو أيضًا «Atman» اي النفس التي في داخل كل حي واذا عرف الانسان حقيقتها يجد السعادة ويتوحد مع المطلق. وانهم يعيشون حياة التقشف والزَّهادة لتتخلص نفوسهم من الاجساد»[2]

والهنود يؤمنون كذلك بمذهب «مفهوم Rta» او النظام في الكون، وان على الانسان ان يعيش حسب هذا الناموس. معروف انهم يؤمنون «بوحدة الوجود»، وان كل الأشياء مظاهر للمطلق الواحد، كما انهم يؤمنون بالمسير الدوراني للكون حيث يدمر في نهاية كل دورة ويخلق من جديد.[3]

١- Mysticism and Catholicism page 54.

٢- «التصوف الاسلامي». محمد الشرقاوي. ص ٩٥.

٣- Eastern Religion and Western Thought. Radha Krishna.

يختلف المفكرون والمؤرخون، خصوصاً المستشرقون، في مدى تأثير الفلسفة الهندية على التصوف الاسلامي. فالمستشرقون «هورتن»، «بلوشيه»، «غولدتسيهر» و «برون» يقولون ان التصوف الاسلامي تأثر كثيراً بالفلسفة الهندية، ويقيمون في تأييد وجهة نظرهم على تشابهات بين بعض مظاهر التصوف في الاسلام وفي ديانات الهند مثل الزهد، والعبادة، والذكر والفناء ووحدة الوجود. اما المستشرقان «ماسينيون» و«اوليري» فيقولان ان الفلسفة الهندية تلاقت مع التصوف الاسلامي في الوقائع المسلكية وبعض المقامات ولكن ليس في فكر وجوهر العقيدة.

ويقارن المستشرق السرّ وليام جونز[1] (Sir W. Johnes) بين مذهب وحدة الوجود في التصوف الاسلامي وبين مذهب الڤيدانتا»[2] على الأخصّ قصائد جلال الدين الرومي الذي كان شغوفًا بها. أما «Arberry» فيرفض وجهة نظر «وليام جونز» على ان «جونز» بنى نظريته على معرفته بالشعراء المتصوفة من الفرس فحسب وليس على دراسة النصوص الصوفية الأساسية باللغة العربية، وهذه النصوص هي التي يمكن ان تقدم اساسًا موثوقًا لبناء معرفتنا بمصدر التصوف»[3].

١- السرّ وليام جونز ترجم شعر حافظ، الشاعر الصوفي الفارسي لأول مرة وقد اثرت اشعار حافظ على الكثير من المستشرقين الناطقين بالانجليزية.

٢- كلمة Vedanta كلمة سنسكريتية تعني ذروة كتب الفيدا «Vedas» المقدّسة عند الهندس. وكلمة فيدا تعني، المعرفة المقدسة. أما الفيدانتا، فهي واحدة من ستة مذاهب فلسفية تعني بالخلاص. والمذهب الفيدانتي يقول بنوع من «وحدة الوجود»، ويرى ان المعرفة هي طريق الخلاص والسعادة ومعرفة ان Brahman او الذات الالهية المطلقة في كل شيء وكل شيء فيه.

٣- An Introduction to history of sufism. p. 14.

من الأوائل الذين قالوا بالأصل الهندي كان (هورتن) Max Horten الذي لاقى اعتراضًا قويًا من المستشرق (Arberry) الذي قال ان الاساليب التي اصطنعها ماكس هورتن للبرهنة على نظريته اثارت موجة من النقد ضده، «فعندما يقول هورتن، ان الحلاّج كان مفكرًا «براهمانيًا»، هذا يثبت انه لم يقرأ ما كتب ماسينيون عن الحلاّج على انه كان موحدًا. ولكن يثبت ان الغرض من كتابات هورتن كان غرضاً جدليًا.[١]

يقول الدكتور ابو العلاء عفيفي «ان هورتن حاول ان يثبت، بعد تحليل تصوف الحلاّج والبسطامي والجنيد، ان التصوف الاسلامي في القرن الثالث الهجري كان مشبعًا بالأفكار الهندية، وان الاثر الهندي اظهر ما يكون في حالة الحلاّج. وينتهي الى ان التصوف الاسلامي هو بعينه مذهب «الفيدانتا» الهندية[٢]

ويقول، Arberry عن نظرية المصدر الهندي وتأثير المصادر الاجنبية بشكل عام: «ليس كافيًا ان نصرح بان مبدأ الفناء الصوفي مأخوذ من «دايانا باتنجلي» (Dhyana of Patanjli) وينتهي الأمر. وقبل ان تكون مثل هذه النظرية مقبولة، علينا ان نبرهن على صحة بعض الأمور المهمة التي من اهمها: أن الانتقال الفعلي لهذه الافكار كان ممكنًا ومتحققًا في تلك الفترة من التاريخ بين الهند والاسلام[٣]

أما المستشرق ديلاسي اوليري (O'Leary) فيقول: «ان ثمة نقطة خلاف جوهرية بين الصوفية والبوذية، ويوجد شبه سطحي بين النرفانا (Nirvana) البوذية وبين الفناء الصوفي الذي يقصد به استغراق النفس في الروح الالهي.

١- An Introduction to History of Sufism. p. 31.

٢- «في التصوف الاسلامي».

٣- An Introduction to the History of Sufism. p. 52.

ان المذهب البوذي ليمثِّل النفس كأنها فقدت فرديتها في الطمأنينة التي في السكينة المطلقة، على حين نجد المذهب الصوفي، على الرغم من قوله بفقدان الفردية، يعتبر الحياة الباقية في جوهرها تأملاً وجديًا للجمال الالهي. وثمة شبيه هندي للفناء ولكن ليس في البوذية، وانما في ما تقول به الفيدانتا عن وحدة الوجود». [1]

البوذية هي مذهب ديني هندي نشأ على يد «بوذا» أحد ابناء الملوك الذي تخلي عن العرش واعتزل زخارف الدنيا حتى يتحقق له الفناء الروحي المطلق اي «النيرڤانا»، ولذلك يجب على الانسان ان يطهّر نفسه من دنس البدن حتى ترقى في الكمال وصولاً الى الانفصال للروح عن عالم الابدان واتحادها بالروح الكلية للعالم بما سمّوه «النرڤانا». (٢) «النرڤانا» تعتمد على فناء الافعال السيئة بالتعبد والابتعاد عن الحياة الدنيوية حتى تصل الى فناء الشخصية وانعدام الوجود بالوجود الذاتي.

ويقول ابو الفتح الشهرستاني عن البوذية: «وسنتهم: الحث على الاخلاق الحسنة، والمنع من اضدادها، وهي الكذب، والحسد والحقد، واللجاج، والبغي والحرص والبطر. [3]

ويقول ابو الريحان البيروني«ان المذهب البوذي الهندي قوامه الخلوة والانفراد عن كل شيء، والزهد في كل شيء، والرياضة الروحية، فيستشعر من هذا كله سعادة لا تتجاوزها سعادة وطمأنينة لا تعادلها طمأنينة».

ان الاتصال المؤثر للفلسفة الهندية على الفكر الاسلامي لم ينشأ إلاّ بعد

١- «الفكر العربي ومكانه في التاريخ». ترجمة تمام حسان. ص ١٩٩ - ٢٠٠.

٢- «التصوف» اسعد السحمراني. ص ٤٨.

٣- «الملل والنحل» مجلد ٢ ص ٢٦٢.

كتاب ابي الريحان البيروني الذي تخطى حد الوصف ونقل النصوص الى تحليل وتفسير الفلسفة الهندية وعلاقتها مع الفلسفة اليونانية التي تشكل القاعدة الاساسية للفلسفة الاسلامية، والاختلاف بينها وبين فلسفة التصوف الاسلامية.

المعروف ان البيروني وضع كتابه في اوائل القرن الخامس هجري بعد ان كان التصوف الاسلامي نشأ وانتشر في البلاد الاسلامية لمدة تزيد عن مئتي سنة وبعد موت معظم الصوفية الأوائل.

توفي البيروني عام ٤٤٠هـ، في حين أنّ ابي يزيد البسطامي توفي عام ٢٣٤هـ، والجنيد عام ٢٩٧هـ، والحلاّج عام ٢٤٤هـ، واحمد الغزالي عام ٢٩٧هـ. أما الصوفية المعروفة الذين عاشوا بعد وفاة ابي الريحان البيروني فكانوا: شهاب الدين السهروردي توفي عام ٥٨٧هـ، وابن عربي توفي عام ٦٣٨هـ، وابو نصر ابن الفارض توفي عام ٦٣٣هـ، وجلال الدين الرومي توفي عام ٦٧٢هـ وعبد الكريم الجيلي توفي عام ٨٣٢هـ وعبد القادر الجيلاني توفي عام ٥٦١هـ. اذن جميع الصوفية الأوائل، الذين ذكرناهم سابقًا، لم يطّلعوا على كتاب ابي ريحان البيروني، «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل ومرذولة».

من المعقول ان تتوافق المظاهر النظرية والعملية من التصوف الاسلامي مع العقيدة البوذية، مثل طرائق الزهد والمعرفة والذكر والفناء ووحدة الوجود، ولكن هذا لا يعني التأثير الكبير الذي يقول به بعض المستشرقين، وقلة من فلاسفة المسلمين، ويؤيد هذه النظرية المستشرق «اوليري» اذ يقول: «ان التشابه الذي يوجد بين «النرڤانا» البوذية والفناء الصوفي الاسلامي تشابه سطحي يجب ان لا يؤخذ به. فالمذهب البوذي في «النرڤانا»، هو الذي يصوّر النفس الانسانية وقد فقدت فرديتها في طمأنينتها المطلقة التي لا تشوبها شائبة من حس او شهوة. أمّا المذهب الصوفي الاسلامي في الفناء، وإن كان يدعو

كذلك الى فقدان الفردية، إلاّ انه ينظر الى البقاء الدائم على انه يوجد من المشاهدة الذوقية للجمال الالهي».[1]

ابو الريحان البيروني استشهد كثيرًا بكتاب «باتنجلي» (Patanjali) الشهير فنراه يقول «ان النفس مرتبطة في العالم، وان لرباطها سببًا، وسبب الوثاق هو الجهل، وخلاص النفس اذًا بالعلم» ثم يقول «أفراد الفكرة من وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشيء غير ما اشتغل به. ومن اراد الله اراد الخير، ومن بلغ هذه الغاية علت قوته النفسية على قوته البدنية»[2]

ثم يستطرد البيروني بالقول «والى طريق «باتنجلي» ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق» فقالوا: «ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على اشارتك بافنائها عنك، فلا يبقى مشير ولا اشارة. ويوجد في كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد، كجواب احدهم عن الحق: وكيف لا اتحقق من هو انا بالأنية ولا أنا بالأينية؟ ان عدت فبالعودة فُرّقت، وان اهملت بالاهمال خففت والاتحاد ألفت. كقول ابي بكر الشبلي: اخلع الكل تصل الينا بالكلية، فتكون ولا تكون اخبارك عنا وفعلك فعلنا. وكجواب ابي يزيد البسطامي، وقد سُئل: بمَ نلت ما نلت؟ فقال اني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت الى ذاتي فإذا انا «هو».[3]

١- «اضواء على التصوف» . طلعت غنام ص ٧٤.

٢- «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة من العقل ومرذولة» ص ٢٤ .

٣- المصدر نفسه.

ويقول عبد الرحمن بدوي: «ان البيروني كان يعلم علم اليقين ان الصوفية المسلمين، وبخاصة الحلاّج والشبلي والبسطامي لم يكونوا على علم بمذاهب الهنود الصوفية ولا على اتصال حيّ بها، بل يرى انه اول من تحدث من المسلمين عن هذه المذاهب وكتب عنها.[1]»

الدكتور مصطفى حلمي يقول عن طريق «باتنجلي» ان صاحبه لم يكن يرى ان اقامة الشعائر الدينية واداء فرائض العبادة هما سبيل الانسان الى السعادة، بل السعادة عنده هو الذكر الدائم لاسم الله والتأمل المتصل في الله». ثم يقول «ان اتحاده بالله وبالكون اللذين ليسا إلاّ حقيقة واحدة. انه مذهب تصوفي خالص قوامه الخلوة والانفراد عن كل شيء، والرياضة الروحية التي يفنى فيها الانسان عن كل شيء، وحتى عن نفسه»[2]

«أما عقيدة التناسخ الموجودة في المذاهب الهندية اي، ان الارواح لا تموت بل تنتقل من كائن حيّ الى كائن حيّ آخر، فالأرواح الخيرة تنتقل من حسن الى أحسن، والشريرة تنتقل من بدن الانسان الى الحيوان. هذه العقيدة الهندية مرفوضة بالشريعة الاسلامية، والمذهب الصوفي لا يعترف بها مطلقًا».

لا بد من الاشارة، ولو باقتضاب، وللمعرفة فقط اذ لا علاقة له بالتصوف الاسلامي، الى مذهب «اليوغا» الذي يمارسه قلة من المسلمين، فيقول الاستاذ محمد الهبلي النيال «ان مذهب «اليوغا» تصوف هندي واتباعه يعذبون انفسهم في ان يظفروا بسكينة المعرفة، ولطريقتهم مقامات منها:

– موت الشهوة وتحرير النفس من رغباتها وتمني الخير للكائنات جميعًا.

١– «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ٣٨.

٢– «محاضرات في الفلسفة العامة والشرقية». ص ١٤٩.

- القناعة والنظافة والتقوى.
- ايقاف كل حس لدى الانسان عن طريق تعويد الجسد على وضع معيّن كي يتفرغ العقل للتأمل.
- تأمل الغيوبة بحيث يمحى من الذهن كل تفكير.
- تكرار المقطع «اوم» وهو مثل الذكر عند الصوفية.

الواقع، كما يبدو، ان مذهب «اليوغا» هو طريقة صوفية هندية غايتها التسلط على النفس وتحريرها من رغباتها، وذلك لا يكون إلاّ بتسلط الارادة المطلق على النفس، والارادة وليدة العقل.

قد يستغرب القارئ ان بعض المفكرين، خصوصًا الهنود، يقولون ان التصوف الاسلامي هو الذي أثر على ديانة الهند الكبرى وعلى التصوف الهندي، وليس العكس، كما يقول معظم المفكرين المسلمين والمستشرقين.

يقول المفكّر الهندي Tara Chand: «على عكس ما انقدح في اذهان بعض المستشرقين، ان التصوف الاسلامي هو الذي أثّر على تصوّف الهنود منذ القرن الهجري الأول، وهو القرن الذي وصل فيه المسلمون العرب الى شواطئ الهند الجنوبية، كتجار ورعاة، وسكنوا في المدن الساحلية الجنوبية في جماعات كبيرة، وقد رحّب بهم مواطنو تلك الموانئ حيث كانت سمعتهم في الفتح والمجد قد سبقتهم وهيأت لهم مكانًا لائقًا في نفوسهم»(١)

ثم يقول: «انه بما ان الاسلام دين دعوة، وكل مسلم داعية، فقد بدأ المسلمون يدعون، من ذلك الوقت، الى دينهم. ومنذ ذلك الحين نما التأثير الاسلامي بسرعة متزايدة».(٢)

كان شمال الهند في القرن الثامن ميلادي حتى القرن الخامس عشر، المنطقة المتقدمة التي نشرت الديانات الهندية الكبرى مثل «البوذية» و«الحينية» (Jainism) والمدارس الفلسفية والنحل والمذاهب المختلفة. ثم في القرن الثامن

١- Influence of Islam on Indian Culture. Lahore 1922.

٢- المصدر نفسه ص ٣٢ – ٣٣.

عشر انتقلت هذه الفاعليات الى الجنوب حيث برزت مـــذاهب «Visnu» و«Siva» فعمت المدارس الصوفية الجنوب كافة واشتهر من شيوخها (مرشدون) ولقبهم «Guru»، كشانكرا (Sankara) ورامنوجا (Ramanuja) وغيرهما، من العقائد التي انتشرت وكانت تدعو الى ان بين الله والعبد يجب ان تتكثف من الحب المتبادل، وانه بالحب فقط وحده يصل الانسان الى الله ويشهد جمال ذاته، وان الزهد والعبادة والصوم، دون محبة، غير مثمرة او موصلة الى شيء. لذلك تعرف هذه المدارس الصوفية بديانة الحب والمحبة[1]

يقول Tara Chand: «ان خصائص اخرى مؤكدة في الفكر الهندي منذ القرن التاسع ميلادي فصاعدًا، تشير بقوة الى التأثير الاسلامي، كما ان هذه التأكيدات المتزايدة على التوحيد، والعبادات المشبوبة بالعاطفة، والتسليم الذاتي لله، وتوقير الشيخ المربي (Guru bakfi)، علاوة على انحلال نظام الطبقات الصارم، وعدم التمييز في العبادة بين الناس، كل هذه آيات على مدى التأثير الاسلامي المبكر والعميق على التدين والتصوف الهندي»[2]

ويقول المفكر الهندي Tara Chand: «لذلك فان المصلح رامانوجا (Ramanuja) قد جاء في الوقت الذي كانت الجماعات الاسلامية قد استقرت بالفعل على شاطئ «كورومندل» في جنوب الهند وكان صوفيتهم واولياؤهم مثل «Nisr Wali» يبشرون بالاسلام بين الهندوس وقد دخل عدد كبير منهم في الاسلام.[3]

أما القواعد التي تربط المرشد «Guru» بالتلميذ، فمنها أنّ على التلميذ ان يعتبر المرشد اكثر من والد له ويمنحه الطاعة التامة ويحرص على توقيره طوال حياته، حتى ان المعلم يقارن بالله تعالى.

١- كتاب Hindu Reformers of the south.

٢- Influence of Islam on Indian Culture. p. 112

٣- المصدر نفسه ص ١١٤.

هذه القواعد مستعارة من التصوف الاسلامي في نظرة المريد الى شيخه.

ثم برز مرشدان تركا بصمات كبيرة على التصوف الهندي هما رامندا (Ramanda) رئيس المدرسة الصوفية المحافظة، وكبير (Kabir) رئيس المدرسة الصوفية المتحررة. ثم يجب ان نشير الى «Guru Nank» الذي اسس طائفة «السيخ» وهي تقف في وسط الطريق بين الاسلام والهندوسية. ويقول المفكر «Tara Chand» ان «Nank» كان من غلاة الصوفية أخذ معظم تعاليمه من القرآن واتخذ من النبي محمد مثلاً له وكان يقول، «لا اله، إلاّ الله و«نانك» خليفته الذي نطق بالحق.»

من الواضح، الذي لا ريب فيه، ان الدين الاسلامي، ولاحقًا، التصوف الاسلامي، كان لهما تأثير كبير وقويّ على التصوف الهندي، ولكن في الوقت نفسه، لا ننكر ان الحكمة الهندية التي تغلغلت في التصوف الاسلامي، تركت بصمات واضحة على التصوف الاسلامي، ويكفي ان نشير الى عقيدة «وحدة الوجود» التي نادى بها ابن عربي، والفناء والاستغراق في السعادة القصوى وغيرها من العقائد والعبادات والسلوك التي اعتنقتها ومارستها الصوفية الاسلامية.

التصوف والتشيّع

السؤال، ما هي علاقة التصوف بالمذهب الشيعي؟ وهل يوجد توافق بينهما؟ وهل يلتقيان في اصولهما العقائدية، او حتى في الممارسات الدينية؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة تلزم الباحث الخوض في عقائد الشيعة وتفكيرهم الفلسفي، ثم درس تاريخ نشأة التصوف الاسلامي والعقائد التي اعتنقوها والممارسات التي رفضتها الشيعة، خصوصًا عبادة الله تعالى من دون وسيط التي اعتبرتها الشيعة محاولة لالغاء دور الامامة، والامامة هي الركن الاول والاساسي عند الشيعة.

يقول الدكتور طه حسين: «ان الشيعة الذين لا يعدلون بعلي ابن ابي طالب حدًا، يستمسكون بمعتقدهم ويذودون عنه ويتفانون في سبيله، لانهم يفكرون بذلك تفكيرًا دينيًا يصدر عن ايمان يبتغون به رضوان الله».[1]

ويقول المستشرق هنري كوربان «كلمة تشيع (من شيعة) تعني مجموعة تآلفت على فكرة الامامة في شخص علي بن ابي طالب وفي خلفائه من بعده، كمفتتح لدور الولاية الذي يلي دور الامامة.»[2]

١- «الفتنة الكبرى».

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». ص ٧٤.

الشيعة هي تشيع الانسان لشخص او مذهب فيصبح من اتباعه وأنصاره، وان دعت الحاجة يذود عنه بكل ما يملك من قدرة مادية او روحانية. غلب اسم الشيعة على اتباع الامام الاول علي بن ابي طالب حتى صار لهم اسمًا خاصًا، فهم شيعة علي او الشيعة.

عندما شعر النبي بدنو المنية منه كان عليه، لحفظ مستقبل الدين الجديد والمسلمين، اختيار شخصية لها الصفات الحميدة الكاملة التي ابرزها وارساها الاسلام، لتتمثل فيها القيادة الروحية والسياسية والمرجعية الفكرية، وكان بين هذه الشخصيات المرشحة لهذا الدور علي ابن ابي طالب، ولكن شاءت الاقدار ان تكون البيعة لابي بكر الصديق. فكان ان استلم ابو بكر قيادة المسلمين والتف حول علي بن ابي طالب اتباعه ومريدوه، فكانوا اقلية ضمن الاطار الاسلامي، تطالب بحقها في تولية الحكم وتدفع ثمنًا باهظًا لاستعادة هذا الحق.

لا لزوم لبحث نشأة وعقائد التصوف والاسباب التي ساهمت في ظهوره، لان ذلك تناولناه سابقًا في هذه الدراسة، وجل ما يهمنا الان بحث علاقة التصوف الاسلامي بالمذهب الشيعي.

يقول الدكتور كامل مصطفى الشيبي[١]: «من الامور التي لم يلتفت اليها الباحثون، توافق المتصوفة والشيعة[٢].»

من دون ريب، ان ابو نصر السرّاج الطوسي في كتابه «اللمع في التصوّف» هو اول من قال بهذا التوافق. قال الطوسي: «ان الامام علي، ابن عم النبي، عليه السلام، وصهره رأس الاسناد الصوفي والاخذ المباشر يعلم الباطن عنه وسيد الفتوة الصوفية.[٣] وان الصوفية اخذوا عن علي، عليه السلام، فيربط

١- باحث عراقي ولد في الكاظمية ثم نال شهادة الدكتورا من جامعة كمبردج في بريطانيا ومن ابرز مؤلفاته «الصلة بين التصوف والشيعة.»

٢- «الصلة بين التصوف والشيعة». مجلد ٢ ص ٣٣٩.

٣- الفتوة هي ان تؤثر الخلق على نفسك في الدنيا والاخرة وان لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك.

مصدر العلم الصوفي بمصدر علم الامام علي.» ثم يقول: «وله خصوصية، اي الامام علي، من بين جميع اصحاب رسول الله «صلعم» بمعانٍ جليلة واشارات لطيفة، والفاظ متفردة وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والايمان والعلم وغير ذلك، وخصال شريفة تعلق بها اهل الحقائق في الصوفية.»(١).

يقول الامام موسى الصدر: «ثنائية الشريعة والحقيقة غير واردة عند المسلمين بمختلف فرقهم المعروفة. فالشريعة في الاسلام هي الحقيقة المطلقة الالهية، ومن يتبع غير الاسلام دينًا فلن يقبل منه. اما اتصال كبار الصوفية في سلسلة اقطابهم، الى بعض ائمة الشيعة، واعتبار البعض الاخر، كالامام محمد التقي الجواد، قادة الشريعة دون ائمة الحقيقة واقطابها، فلا يحمل مسؤولية هذه الاراء إلاّ القائلون بها.»(٢).

«وما ثنوية الشريعة والحقيقة، إلاّ نتيجة لثنوية الجسم والروح التي هي قاعدة اساسية للتصوف، ومن نتائجها ان تضعيف الجسم والرياضات الجسدية هي اسباب لتقوية الروح وتكاملها. اما الاسلام فيكرم الجسد ويعتبره نعمة من الله، ويمنع الرهبنة ويعتمد على اتحاد الجسد والروح وتفاعلهما ومقارنة الدنيا والاخرة.»(٣).

ويقول هنري كوربان: «والحاجات الجسدية، والرغبات الطبيعية آثار نعمة الله ومن لطائف خلق الله، تكرّم بالصيانة عن الوقوع في المحرّم، وتقدس بالشكر على النعمة. والاداب الاسلامية تأمر باقران الاكل والشرب والتمتع الجسدي بالشكر لله. ان هذه الاداب والاحكام، لا تنطبق على التصوف الذي ينبع من معارضة الجسم للروح ويتكامل بالمجاهدة ومحاربة النفس والامتناع عن رغبات الجسد مهما أمكن.»(٤).

١- «اللمع في التصوف». ص ١٧٩.
٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». هنري كوربان. مقدمة ص ٢٤.
٣- «المصدر نفسه». ص ٢٤.
٤- «المصدر نفسه» ص ٢٥.

وعن الامام عند الشيعة والقطب عند الصوفية يقول الامام موسى الصدر: «مفهوم الامام والولي عند الشيعة الاثني عشرية، يناقض كليًا مفهوم القطب عند الصوفية. الامام مثل كامل والوالي هو الحاكم بما للكلمتين من معنى واثار ونتائج واهمية. اما القطب، بمعناه الظاهري عند الصوفية، فهو المربي الذي يأخذ بيد السالك خطوةً في طريقه الوعر الشائك المحدق بالاخطار والانحرافات كي يوصله الى الكمالات الانسانية. ويباشر القطب، وهو الانسان الكامل، هذه العملية بواسطة انصاره ومعاونيه ويسلك هو معهم ويسير معهم في نفس الطريق.[١].»

ويضيف الامام الصدر الى ما قاله سابقًا: «اما المعاني العميقة للقطب فهي انه الانسان الكامل وامام الزمان ومظهر النبي ومجلى ذات الله، يقصده السالك ويراه في حال مخاطبة الله حينما يقول «اياك نعبد واياك نستعين»، حيث انه مرآة صادقة لذات الله. وهذان المعنيان يختلفان عن معنى الامام والولي ودورهما طريقًا وغاية. فلا حقيقة مغايرة للشريعة، خفية عن اذهان الناس ولا طرق خاصة بكل سالك، ولا عملية قيادة مباشرة ولا مظاهر وتجليات.»[٢].

وعن علاقة الشيعة بالتصوف، موضوع هذا الفصل، يختم هنري كوربان هذا البحث بقوله: «ان طرح هذا السؤال صراحة هو على الاقل تجنب الاساءة. فليس وجود التصوف الشيعي هو ما يوفر، بوصفه تصوفًا شيعيًا، الجواب، ليس اكثر. ليس يكفي ان يفصح احد لاهوتيي الشيعة عن تحفظات واحيانا اكثر تجاه التصوف لكي يصنف في عداد الفقهاء المعادين للتصوف، وبعكس ذلك، ان كثيرًا من الروحانيين الشيعة يتكلمون تمامًا لغة الصوفيين، ومع ذلك فانهم ليسوا صوفيين، انهم لا ينتمون الى اية طريقة. بل ان «مُلاً سادرا شيرازي» احد كبار الاسماء بين «النيوصوفيين» في ايران كان قد دفع الى كتابة كتاب ضد تصوفي زمانه، في حين انه كان هو نفسه يرى بعض زملائه يعيبون عليه تصوفه.»[٣]

١- «المصدر نفسه» ص ٢٥.
٢- «المصدر نفسه» ص ٢٥.
١- «الشيعة الاثناعشرية». ص ٩٧.

ثم يوجد اختلاف ملحوظ بين عقيدة الامام الغائب، اي المنتظر، وهو عند الشيعة الاثناعشرية محمد ابن الامام حسن العسكري، والقطب الصوفي. فعقيدة الامام الغائب هي ظهور المصلح الكامل الذي يأتي بالنظام الاكمل، ويعمم العدالة ويملأ الارض امنًا وعدلاً بعد ان ملئت ظلمًا وجورًا. ويقول الامام موسى الصدر: «والامام المنتظر في المذهب الشيعي شخص واحد غير كلي فلا ينطبق على قطب في كل زمان ولا علاقة له بالدور الذي يقوم به القطب ولا بانتظار كشف الحقائق وبواطن الاحكام بواسطته وإنما تنفيذ الاحكام الاسلامية على يد الذي استخلفه الله في الارض.»[١].

ويقول ابن خلدون: «كما قالته الشيعة في النقباء، حتى انهم لما اسندوا لبس خرقة التصوف[٢] ليجلوها اصلاً طريقتهم ونحلتهم، وقفوه على الامام علي، عليه السلام، وهو من هذا المعنى وإلاّ «رضي الله عنه» لم يختص من بين الصحابة بنحلة ولا طريقة ولا لبوس ولا حال»[٣].

يقول الدكتور الشيبي «ومن الامور التي لم يلتفت اليها الباحثون توافق المتصوفة والشيعة في اسباغ العصمة على الانبياء والائمة، فيأتي الربط واضحًا بين عقائد الشيعة بالامامة وعقيدة المتصوفة بالاولياء وبين الشفاعة الامامية وشفاعة اولياء الصوفية.[٤].

١- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». هنري كوربان ص ٢٨.

٢- لبس الخرقة: عبارة عن ارتباط يعقد بين الشيخ، اي المرشد، وبين المريد، كما انه عبارة عن تحكيم من المريد للشيخ في نفسه وفيها معنى المبايعة، وهي عتبة الدخول في الصحبة بحيث يأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة او يعرفه بحقوقها. «كتاب التشيع والتصوف». انعام احمد قدوم. الحاشية ص ٨٨.

٣- «المقدمة». ابن خلدون ص ٣٢٣.

٤- «الصلة بين التصوف والشيعة» مجلد ٢ ص ٣٢٥.

الاختلاف الجذري بين التشيع والتصوف هو في الامامة التي تعتبر الركن الاساسي والرئيسي في التشيع. الامام نائب الله على الارض، له العصمة والتأويل، وهو صلة الشيعي مع الله تعالى. اما القطب الصوفي فهو يساعد السالك في اجتياز المصاعب والمخاطر الى الوصول الى الحق ولكن لا عصمة له ولا يحق له التأويل.

ويقول المؤرخ انعام احمد قدوم عن العلم اللدني كما تراه الشيعة: «العلم اللدني هو العلم الذي يأتي من علاّم الغيوب (الله تعالى) على نحو الالهام او الوحي، فيحصل للنفس من لدن النفس لا من خارجها، واكتساب وجد واجتهاد، فهو علم من لدنه تعالى، وهو، بخصائصه ووجوهه، تعتقد الشيعة انه من خاصة ائمتها المعصومين.» ثم يقول: «ان الرسول، صلى الله عليه وآله» كان يستقي علمه من الله تعالى بالوحي، وقد ترك اهل بيته خلفاء له على الامة، والخليفة المنصوب يجب ان يكون مثالاً لمن خلفه للهداية والإصلاح، وحاكيًا لخصاله وفعاله لا سيما والخلف حكيم بصير مأربه في التخليف صلاح الامة، وانما اشار الى الخليفة بأمر من فاطر الخليفة[1] والعالم بضمائرهم وسرائرهم، فلا بُدَّ، والحالة هذه، من ان يكون علمه من نوع علم النبي (صلعم) لدينا واذا دل الدليل على ان الوحي منحصر بالنبي (صلعم) فلا بدان يكون هذا العلم الهاميًا، فلو كان اهل بيت الرسول صلعم على غير شاكلة الرسول صلعم في العلم والعرفان والتماثل والفضائل، لما صلحوا ان يخلفوا وينوبوا عنه في تعليم الامة، وتفسير الكتاب، وسياسة الناس على ما يفترضه الدين والقرآن الكريم.»[2]

١- حيث تعتقد الشيعة ان الامام منصوص عليه من المولى سبحانه وهذا الامر يرتبط بموضوع العصمة عند الامام، لان العصمة امر من القلب والنفس ولا يعلم خفايا النفس سوى الله تعالى، وعليه ينبغي ان يكون التعيين من الله الذي يعلم ان الامام معصوم من الخطأ، فالله تعالى اوحى الى الرسول (صلعم) الذي عين عليا خليفة له في الوداع عند غدير «خم». «التشيع والتصوف» حاشية ص ٩٥.

٢- «التشيع والتصوف» ص ٩٥.

وتقول الشيعة – ان الله تعالى انزل على النبي القرآن الكريم وفيه من الآيات ما يحتاج الى تفسير وتأويل فوجب ان يكون علم تأويله وتفسيره مستمدًا من الله تعالى لان علم الناس يجمع بين الخطأ والصواب.

يقول جمال الدين بن يوسف الحلي: «ان حصر الخلافة في الائمة – كما في الاعتقاد الشيعي – انبأنا عن انحصار علم القرآن الكريم فيهم، كما يدلنا على ان علمهم من يوم وفاة الرسول «صلعم» الى يوم الساعة واحد، لا يعتريه تغير ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، فلا بد، والحالة هذه، من ان نعتقد بان هذا العلم الساري على نهج واحد مستند الى علاّم الغيوب (الله) سبحانه من دون ان يتوسط في تعليمه الناس، لان مثله لا يكون علم الناس ابدًا.[١]»

لا بد من ان نوضح، ولو باقتضاب، العلم اللدني عند اهل التصوف وهو احد الاسباب الذي جعلهم يتجاهلون العقل اذ اعتبروا ان العقل لا يدرك الالوهية وهي نور يطلقه الله مباشرة في قلب الانسان. يتعلم الصوفي العلم اللدني من الله تعالى مباشرة من غير واسطة بالمشافهة والمشاهدة حتى قال بعضهم بتخطي الامام وحتى النبي. وهذه رابعة العدوية تقول لرسول الله الكريم عند رؤيته في المنام وسوأله لها: «هل تحبينني يا رابعة؟» قالت: «ومن لا يحبك يا رسول الله، ولكن قلبي مليء بحب الله فلا مكان لك فيه.»

يقول عبد المنعم الحفني: «العلم اللدني الصوفي، هو معرفة ذات الله وصفاته علمًا يقينيًا من مشاهدة وذوق ببصائر القلوب، كما في قوله تعالى. «وآتيناه من لدنّا علمًا.[٢]»[٣]

١– «الالفين في امامة علي بن ابي طالب امير المؤمنين». ص ٥٢.

٢– سورة الكهف.

٣– معجم المصطلحات الصوفية ص ١٨٨.

واما السرّاج الطوسي فيقول: «ان هذا العلم، العلم اللدني الصوفي، ليس له نهاية، لانه اشارات وكوادر وخواطر وعطايا وهبات يغرفها اهلها من بحر العطاء وسائر العلوم لها حدود، وجميع العلوم تؤدي الى التصوف، وعلم التصوف لا يؤدي إلاّ الى نوع من التصوف وليس له نهاية لان المقصود ليس له نهاية.»(١)

ويقول احمد توفيق: «نلاحظ ان التصوف في رأي الغزالي والسرّاج الطوسي جمع بين الدين والعلم، لا بل دمج العلم بالدين، وربط بين الايمان والعقل والحياة، اذ الانسان بفطرته قادر على كشف اسرار الحياة ومكنونات العلم، ما ظهر منها في عالم الشهادة بالبحث والعقل، وما خفي عنها في عالم الغيب بالدلالة والالهام.»(٢)

نلاحظ مما تقدم، ان العلم اللدني الصوفي يحصل للمتصوف مباشرة وبغير واسطة، وذلك معرفة الله، عزّ وجل، معرفة يقينية تتم بالذوق والعبادة والرياضة الروحية.

ان الفرق واضح بين علم الصوفية اللدني غير المحصور بعدد معيّن من المشايخ والاولياء، وبين العلم اللدني الشيعي الذي ينحصر في اثني عشر امامًا من آل البيت. الائمة اعطوا هذا العلم لاختصاصهم بخلافة النبي الكريم في قيادة وارشاد المسلمين. اما الصوفية، فهم كبقية الناس، يحصلون علومهم بالاجتهاد والكسب فالله تعالى لم ينصحهم بهذا العلم. اما الامامة باعتقاد الشيعة، فهي منصب الالهي يختاره الله تعالى ويأمر النبي ان يأمر الناس باتباعه والعمل بمشورته والخضوع لامره.

١- «اللمع في التصوف» ص ١٤٠.

٢- «التصوف الاسلامي تاريخه ومدارسه» ص ١٧٠.

العصمة في الاعتقاد الشيعي واهميتها في مسلكهم الروحي، لا تقابلها العصمة عند الصوفية التي يصفها المؤرخ عبد المنعم الحفني بقوله: «انها اثبات الحفظ لشيوخهم فيكون محفوظًا وليس معصومًا. والمحفوظ هو الذي حفظه الله من المخالفات في القول والفعل والارادة، فلا يقول ولا يفعل، إلاّ ما يرضي الله، ولا يريد إلاّ ما يريده الله. ولا يقصد إلاّ ما امر الله به.»(١)

«مما لا يقبل الجدل ان العصمة في الاعتقاد الشيعي، وهي غائبة في التصوف الاسلامي، مرتبطة ارتباطًا كاملاً بمهمة الامام التي اعطيت له في خلافة النبي واتمام رسالته بتفسيرها وتأويل ما اشكل على المسلمين فهمها ولهذا يجب ان يكون معصومًا مدركًا لليقين لان مصدر المعاصي التي تصدر عن الانسان سببها النقص في اليقين الذي يحظى به الائمة والانبياء والذي يعصمهم عن الاثام.»(٢)

التشيع في فارس جاء من تأثير عربي وانتشر بين الحرفيين من سكان المدن وطبقة الفلاحين التي كانت في حالة دائمة من القلق والعصيان والثورات طوال عهود كثيرة في فارس، وفي العهد الصفوي اعلن رسميا المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة.

اعلنت الدولة الصفوية في عهد الشاه اسماعيل لواء التصوف الشيعي املاً باحتواء هذه الجماعات القلقة ذات الاصل الفارسي التي وجدت في تصوف الدولة املاً في القضاء على الفساد والاوضاع الرديئة التي كانت تسود البلاد.

١- «معجم المصطلحات الصوفية» ص ٢٤٩.

٢- مقتطفات من اقوال الامام الخميني في الاربعين حديثًا.

نشأ صراع بين الفقهاء الذين وجدوا في التصوف ما يناقض مذهب الامامية عقيدةً وسلوكًا وكان يتزعمهم الامام الحرّ العاملي الذي نشر رسالته «الإثناعشرية» في الرد على الصوفية واظهر فساد عقيدتهم وتناقضها مع الفكر الشيعي والامامية.

وكانت الضربة القاضية حين تمكن شيخ الاسلام محمد باقر بن تقي من اصدار امر من الشاه بطرد جميع الصوفية من اصفهان ثم اصدر فتواه الشهيرة بتكفير الصوفية ووضع كتابه «عين الحياة» الذي اظهر فيه رأيه بالتصوف واصحابه واسباب حملته عليهم[1]

ثم اصدر آية الله شهاب الدين النجفي المرعشي في مدينة «قمّ»(٢) كتابه «احقاق الحق» الذي اعتبر فيه: «ان مصيبة الصوفية من اعظم المصائب التي تهدمت بها اركان الاسلام.»[3]

ويهاجم المفكر الفارسي ملاّ صدرا شيرازي (توفي عام ١٠٥٠هـ) الصوفية بقوله: «تركوا العلم والعرفان ورفضوا العمل بمقتضى الحديث والقرآن، وعطّلوا ما اعطاهم الله تعالى من المشاعر والمدارك عن اعمالها في سبيل الهداية والارشاد، مستغرقون في بحار اللذات، واسارى في ايدي الظلمات، ومع ذلك ادعى فيهم جمع من السفهاء والحمقاء علم المعرفة ومشاهدة الحق والوصول الى القرب ومعاينة الجمال السرمدي وحصول البقاء والفناء»[4]. ثم يقول: «انهم البطّالون الذين يشتغلون بالشهوات واكل الحرام والشبهات، وهم مفلسون من العقل والرشاد.»[5]

١- «الصلة بين التشيع والتصوف». كامل مصطفى الشيبي. ص ٢٤٤ - ٢٤٦.
٢. «قمّ» مدينة جنوبي طهران تعتبر اكبر مركز ديني وثقافي في ايران وفيها مدارس تحوي الالاف من الطلبة المسلمين، معظمهم من الشيعة، يدرسون الشريعة الاسلامية خصوصًا المذهب الشيعي.
٣- «العرفان الاسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي». محمد تقي المدرسي.
٤- «كسر اصنام الجاهلية» ص ٣.
٥- المصدر نفسه ص ١٦.

لا بد من ان نشير الى انتشار التصوف في شمال فارس بعد اجتياح المغول عام ٦٥٤هـ لخراسان بما فيها «قلعة الموت» مركز الاسماعيلية النزارية. يقول هنري كوربان: «ولقد دمرت قلعة الموت شأنها شأن بقية المعاقل الاسماعيلية في ايران بواسطة المغول – سنة ٦٥٤هـ – ولكن هذا الحدث لا يعني ابدًا نهاية الاسماعيلية المتطورة في «الموت» اذ انها لم تفعل اكثر من الدخول في العمل السري لابسة خرقة الصوفية.» ثم يقول: «وهكذا فان الاسماعيلين ينظرون الى عدد كبير من اساتذة الصوفية على انهم جماعتهم مبتدئين بالسناني (توفي عام ٥٤٥هـ) والعطار (توفي عام ٦٣٧هـ) وجلال الدين الرومي (توفي عام ٦٧٢هـ) الذي كان شمس الدين التبريزي حجة له، وعزيز النسفي (القرن السابع) وقاسم انواري (توفي عام ٨٣٧هـ). وغالبًا ما يتردد المرء امام نص من النصوص، اهو صوفي ذو صبغة اسماعيلية، ام اسماعيلي ذو صبغة صوفية.»[١]

من المعروف ان اي بلد عرف الوجود الشيعي، عدا ايران وذلك لمدة محدودة، لم ينتشر فيه التصوف ودليلاً على ذلك، الدولة الفاطمية في مصر وشمال افريقيا، بلاد الشام عندما كانت تحت النفوذ الفاطمي، التي لم يعرف فيها التصوف إلاّ بعد الاحتلال الايوبي عندما طغى المذهب السني الشافعي على المذهب الاسماعيلي الشيعي.

عندما استقر المذهب الشيعي في ايران وانتهى عهد الدولة الصفوية، غادرت بقايا اهل التصوف ايران الى الهند مع مشايخهم ليعودوا صوفيين يمارسون معقتداتهم بحرية تامة.

رفض التشيع بائمته وعلمائه وجمهوره عقيدة التصوف وذلك لعدم دلالة شرعية او روحية لقبولها كعقيدة دينية، فلم يشر اليها الكتاب الكريم و لم يحبذها الرسول أو الصحابة.

---

١ – «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ١٥٨ – ١٥٩.

وكما قلنا سابقًا، كان الاعتقاد الشيعي في وجوب الاعتماد الكلي والرجوع الى الائمة في جميع الاحكام والمهمّات اعتبار الامام، الذي نص عليه الله تعالى بواسطة النبي، واسطتهم الى الله وهو نائبه على الارض مما يتناقض مع عقيدة الصوفية بالاتصال بالله دون وسيط حتى الانبياء.

قال المستشرق نيكلسون عن عبد الله الانصاري: «كان من الفي شيخ صوفي عرفتهم شيعيان اثنان لا اكثر»[١]

يقول المؤرخ المصري احمد امين: «ان الصوفية اتصلت بالتشيع اتصالاً وثيقًا واخذت فيما بعد عنه فكرة المهدي (الامام المهدي المنتظر) وصاغتها صياغة جديدة وسمته قطبًا، وكونت مملكة الارواح على نمط مملكة الاشباح، وعلى رأس هذه المملكة القطب وهو الذي يدير الامر في كل عصر، وهو عماد السماء ولولاه لوقعت على الارض. ويلي القطب النجباء وهم اثنا عشر نقيبًا.»

يرفض المفكر سميح عاطف الزين ما قاله احمد امين جملة وتفصيلاً ويقول: «ان المتصوفة، ومعظمهم كان على مذهب السنة، لا يمكن ان ينسبوا القطب، وهو شيخهم الاكبر، الى «الامام المهدي المنتظر» الذي هو عقيدة شيعية تقول برجوع الامام المهدي المنتظر من غيبته ليحل السلام، والعدل في العالم بعد ان مُلئَ ظلمًا وجورًا. فالمؤرخ احمد امين لم يوفق بهذه النظرية الغريبة الغير منطقية.»

والمفكر اللبناني سميح عاطف الزين يهاجم الصوفية بقسوة وشدة ويرميهم بالكفر والزندقة ومن اقواله: «وهاتان الناحيتان – الناحية الفكرية والناحية العملية من التصوف[٢] – ينكرهما الاسلام جملة وتفصيلاً. لان

١– «معالم الفلسفة الاسلامية» محمد جواد مغنية. ص ١٨٩.

٢– الناحية الفكرية تهدف الى الاتصال بالله، والناحية العملية تقوم على المجاهدات والرياضات وما تنطوي عليه من اساليب ووسائل متنوعة يقوم بها الصوفية.

التفكير الذي يوصل صاحبه الى الاعتقاد بحلول الله فيه او الاتحاد بالله او بتحقيق الجمع به – سبحانه وتعالى – او بوحدة الوجود بينه وبين الله – عزّ وجل – انما هو تفكير كفر والحاد. كما وان اتباع الطرق والاساليب التي من شأنها قتل فطرة الانسان والقضاء على خصائصه كمخلوق مميّز، هي ايضًا من القبائح التي يمقتها الاسلام عقيدة ومنهجًا. لذلك كانت كلمة «صوفي» في عصور اليقظة والقوة الاسلامية تعتبر مرادفة لكلمة «زنديق» وعنوانًا على الالحاد والبعد عن الحق والايغال في الباطل[١]»

ويمكننا ان ننهي هذا الفصل عن انكار الشيعة للعقيدة الصوفية بقول المستشرق هنري كوربان، الذي يعتبر اعظم من كتب في المذهب الشيعي: «ولكن واقع الامر هو ان العدد الاكبر من متصوفي القرون الطويلة ينتمون الى العالم السني، واكثر من هذا، فإنا نلاحظ في العالم الشيعي تكتمًا حول الصوفية يصل الى حد الانكار، ليس من جانب «Mollas» الرسميين الذين يمثلون الشريعة وحدهم، وانما من جانب الروحانيين الذين يستندون في عقيدتهم الى تعاليم الائمة ايضًا، فهم يتكلمون بلغة الصوفية، ويبشرون بنفس الميتافيزيقيا اللدنية، إلاّ انهم لا يقبلون الصوفية ويبدون اتجاهها تحفظًا شديدًا.»[٢]

١– «الصوفية في نظر الاسلام »ص ٢٩.
٢– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٢٨٤.

يقول ابو نصر السرّاج الطوسي عن الصوفية: «هم العلماء بالله، وباحكام الله، العاملون بما علّمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عزّ وجل، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا، لأن كل واحد يفنى بما وجد.»(١)

إنّ امنية الصوفي وهدفه الاوحد، والغاية القصوى الطاغية على عقله ونفسه التي تستأثر بمشاعره وتدفعه، دون هوادة وكلل الى جهد متواصل مضني قوامها الزهد والتقشف وعبادة المولى، سبحانه وتعالى، هي الوصول الى الله ومشاهدته والاتحاد والحلول به والفناء في حبه.

بالاضافة، يجد الصوفي نفسه محاطًا بقوى فاعلة لا يدركها الحس، تتحكم في تدبير الكون وتتسلط على مسيرة حياة الانسان الدنيوية والروحية. هذه القوى الفاعلة هي العقل والنفس والروح.

ما دام الوصول الى الله تعالى هو غاية وهدف الصوفي الاوحد فانّ التوسع في موضوع الله له فائدة على هذه الدراسة المقتضبة.

يصف الله، عزّ وجل، الصوفي عبد الكريم القشيري النيسابوري(٢) بقوله: «الحروف آياته، ووجوده اثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تصور في الخيال فهو بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأه، او يعود اليه من هو انشأه؟ لا تقابله الظنون، قربه كرامته، وبعده اهانته، علوه من غير توقّل، ومجيئه من غير تنقل، هو الاول والاخر، والظاهر والباطن، القريب والبعيد، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.»(٣)

١- «اللمع في التصوف» ص ٢٧.

٢- ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري: لقب قشيري هو نسبة الى قشير وهي بطن من سعد القشيرية القرطانية. ولد عام ٣٧٦هـ في بلدة اسوا في فارس وتوفي عام ٤٦٥ في نيسابور عاصمة خراسان. اخذ العلم عن محمد علي الطوسي والشيخ الدقاق حسن بن علي. له العديد من المؤلفات منها الرسالة القشيرية. اداب الصوفية. التوحيد النبوي وغيرها.

٣- «الرسالة القشيرية». ص ٤٣.

والفيلسوف اليوناني سقراط (٤٦٩ ق م – ٣٩٩ ق م) يقول: «للكون صانع حكيم وعقل مدبر لا يفعل جزافًا ولا يحكم بالهوى، بل كل شيء عنده بمقدار وخاضع في وجوده وفي سيره لتدبير عقل الهي في ظل العناية الالهية».

و«فيلون»، الفيلسوف اليهودي الاسكندراني (٣٥ ق م – ٤ ب م) يصف الله تعالى بقوله: «هو اله مفارق للعلم فوق الجوهر وفوق الفكر، خارج عن الزمان والمكان، لا يقبل الكيف ولا يحده العقل، على كل شيء قدير وإلاّ لم يكن إلهًا، فالاصل في الالوهية الفعل والقدرة والتأثير. هو خالق هذا العالم ومصدر الخير في الوجود لا نهاية لكماله ولا يمكن وصفه إلاّ بطريق السلب. واذا لا بد من وصفه، فكل ما يوصف به، انه موجود بلا كيف ولا صفة.»[١]

ثم يقول الفيلسوف «فيلون»: «وغاية الانسان انما هي الوصول الى الله والاتحاد به والفناء بحبه. وهذا الاتحاد يتم في اعماق الروح لدينا بنوع من التجدد الداخلي والاشراق النفسي والطمأنينة المطلقة والسكينة العظمى، وهي حالة لا يمكن تحديدها بالالفاظ اذ يضيق عنها نطاق النطق، وإنما تعرف بالذوق والكشف وفيها لا يبقى شاهد ومشهود ولا عارف ومعروف. هناك البهجة العظمى والسعادة القصوى.»[٢]

والشيخ الاسكندراني افلوطين (٢٠٥م – ٢٧٠م) الذي تركت فلسفته، خصوصا الفيض الالهي، اثارًا مهمة على الفكر الاسلامي يقول: «الوجود الحقيقي انما هو وجود الله باسمى ما له من كمال الربوبية فكل شيء انما صدر عن الله والى الله يعود لأنه مبدأ كل وجود. انه الواحد الاوحد المطلق اللامتناهي الذي لا يوصف باي وصف لتفاهة الاوصاف وقلة شأنها وهوان

١– «من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية» محمد عبد الرحمن مرحبا. ص ٢٢٤.
٢– المصدر نفسه ص ٢٢٥.

امرها. هو اعلى من كل شيء وعلته، فانه معلول له والصفات كلها دونه وهو فوقها جميعًا ومصدرها جميعا وعلتها جميعا. هو الكائن الذي لا صفة له من صفات الحوادث، فهو لا يمكن نعته ولا يمكن ادراكه ولا تحيط به الافهام والعقول فهو الغني بذاته، المكتفي بذاته، القائم بذاته، البسيط المطلق الذي لا اول إلاّ وهو سابق عليه ولا واحد إلاّ استعاد وحدته منه. هو لا شيء لانه فوق كل شيء لانه ليس من الممكن ان يميز شيء عن شيء ولا أن يتبيّن فيه وجود معيّن، وهو كل شيء لانه مبدأ جميع الاشياء ومنه ينبثق كل شيء فهو الاشياء جميعًا لانه يحويها بالقوة دون ان يكون واحدًا منها.»[١]

يقول الامام الاول علي بن ابي طالب: «ما رأيت الله قبله»[٢] وقال: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا[٣].» وقال أحد المؤمنين: «لم تره العيون بمشاهدة الابصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان».[٤]

ويضيف الامام الاول علي عن الله تعالى: «اول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة انها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة، فمن وصف فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد اشار اليه، ومن اشار اليه فقد حده، ومن حده فقد عده.»[٥]

١- «من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية.» محمد عبد الرحمن مرحبا. ص ٢٣٣.

٢- «نهج البلاغة »ص ٢٨٨.

٣- المصدر نفسه ص ٢٨١.

٤- «التشيع والتصوف.» احمد قدوم ص ١٦٦.

٥- «نهج البلاغة» ص ٢٣١.

واما ابو نصر الفارابي، فمن صومعته في حلب يقول: «فالاول (الله) هو الذي عنه وجد الوجود. ومتى وجد للاول الوجود، الذي هو لزم ضرورة، ان يوجد عنه سائر الموجودات على ما هي في الوجود الذي بعضه مشاهد بالحسّ وبعضه معلوم بالبرهان. ووجود ما يوجد عنه، انما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر، وعلى ان وجود غيره فائض عن وجوده هو.»(١)

ويقول ابن عربي: «الله هو حدُّ الحق، فهو الساري في مسمّى المخلوقات والمبدعات، فهو الشاهد من الشاهد والمشهود من المشهود، فالعالم صورته، وهو روح العالم المدبّر له وهو الانسان الكبير.» ثم يقول: «ما من وجود إلاّ الله، ونحن وان كنا موجودين فانما وجودنا به، فمن كان وجوده في غيره، فهو حكم العدم.(٢)»

ثم يضيف على ما قاله: «فاله المعتقدات تأخذه الحدود وهو الاله الذي وسعه قلب عبده. فان الاله المطلق لا يسعه شيء لانه عين الاشياء وعين نفسه(٣)» ثم يقول: «فلا تصح العبودية المحضة التي لا يشوبها ربوبية اصلاً إلاّ للانسان الكامل وحده. ولا تصح ربوبية لا تشوبها عبودية بوجه عن الوجوه الا الله تعالى، فهو الانسان المألوه المطلق، والله سبحانه هو الاله المطلق»(٤)

والوالي الموحّد الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي* يقول في وصف الله تعالى «الله لا يزيد في الوهيته طاعة ولا ينتقص من ربوبيته معصية من عصاه، بل هو قدرة لاهوتية ازلية، رب الارباب وغاية الغايات واله الالهة. لا معبود إلاّ هو، ولا رب إلاّ هو، ولا غاية إلاّ هو ولا آله إلاّ هو. هو كل شيء ولا يخلو منه زمان، ولا من نوره مكان حاكم الكون المعبود.»

١– «من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية» ص ٤١٧.

٢– «الفتوحات المكية.»

٣– «فصوص الحكم.» مجلدا ص ٢٢٦.

٤– «الفتوحات المكية.» مجلد ٢ ص ٦٠٣.

* الامير السيد عبد الله التنوخي ولد في قرية عبيه عام ٨٢٠هـ وتوفي عام ٨٨٤هـ. يرجع نسبه الى ملك الحيرة اللخمي النعمان بن المنذر. كان عالمًا كبيرًا في علوم الدين وله مؤلفات عدّة.

وقال الله تعالى في كتابه الكريم «قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوًا احد»(١)

يقول بعض المفكرين المسلمين. يوجد ثلاث طرق من شأنها ان تفضي الى اثبات وجود الله.

– الحشوية الذين قالوا ان معرفة وجود الله تثبت بالسمع لا بالعقل، اي ان الايمان به يكفي.

– المعتزلة الذين قالوا بامكان التدليل على وجود الله بالعقل وذلك بالحدوث او الجواز.

– المتصوفة يزعمون ان المعرفة بالله شيء يلقى من النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية واقبالها بالفكرة على المطلوب. وهذه الفكرة هي وقف على فئة قليلة من الناس. وان الله كائن بلا كيان بل كيانه منه بمعنى عدم وجود الكيان من لا شيء.

العقل ثاني الله وارادته على الارض، علة العلل، مدبر الكون وسيد المخلوقات وكل الاشياء تخضع لسلطانه، قوته لا تحد ولا يعدلها شيء في الارض او السماء، فهي كل شيء ولولاها لم يكن شيء في الكون.

يقول الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: الكون خاضع لنظام شامل ولمجموعة من القوانين لا تتخلف ولا يمكن تفسيرها إلاّ بالعقل الظاهر تبرزه الحواس.

والعقل يستوعب ويحلل ويفسر الظاهر، وهو التعبير الفلسفي عن معنى الله. يقول فلاسفة اليونان: «نقدس العقل الى حد تكذيب ما لا يتفق معه ولو ايده الحس. شاهد الحس يخطئ وشاهد العقل معصوم عن الخطأ، فما يخالف

١– سورة الاخلاص. (الصمد هو المآب وكل شيء يرجع إليه).

العقل فهو غير موجود ولو شهد الحس بوجوده. اساس المعرفة العقل لا الحس، فان الحواس تختلف باختلاف الافراد بل باختلاف الحالات في الفرد الواحد.(١)

الصوفيون لا يعتمدون العقل وسيلة للمعرفة ويعتبرون العقل عاجز عن الاحاطة بكنه الحقائق الالهية، وان وراء طور العقل سور اساسه الحدس الديني يدرك به الانسان ما لا يدركه العقل. «العقل محدود المعرفة لادراك الحق ونحن نسعى الى الوصول الى الحق.»

ثم منهج الصوفية يقوم على مقامات وجدانية وانفعالات نفسية تهدف الى عبادة الله، عزّ وجل، والفناء في حبه دون وسيط حتى انهم تخطوا الائمة والانبياء. الحب الجارف الطاغي على فكرهم واعمالهم دون قيد او حدود، واندفاعهم النفسي المطلق بحب الله، لا يخضع للعقل واحكامه، بالرغم من انه ارادة الله على الارض ونعمته على من يرضاه من عباده.

يقول الدكتور كمال جعفر: «يقول بعض المفكرين المسلمين ان التصوف الاسلامي عدو للعقل. الواقع ان الصوفية ليسوا اعداء للعقل بما هو عقل، ولكنهم اعداء حصر نطاق المعرفة الانسانية على هذا العقل الغريزي وان يصلح في تحصيل المعرفة بالله، فانه لا يصلح في تحصيل المعرفة بالله فانه لا يصلح للعلم به. العقل الغريزي ينتهي – في رأي الصوفية – عند اثبات وجود الباري وضرورة نسبة الكمال اليه بمخالفته للحوادث وسموه عن المثلية. اما استشعار حضوره والتمتع بلطفه الخفي والاملاء بقربه فليس لهذا سبيل اليه.»(٢)

١- «من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية» ص ٧٥.

٢- «من تراث الصوفي» مجلد ١ ص ١٣٧.

وهاجم الامام ابن تيمية العقل بقوله: «ان العقل بلغة المسلمين كلهم ليس ملاكًا من الملائكة، ولا جوهرًا قائمًا بنفسه، بل هو العقل الذي في الانسان. ولم يسمّ احد من المسلمين قط احدا من الملائكة عقلاً، ولا نفس الانسان الناطقة عقلاً بل هي لغة اليوناني.»[١]

ويصف الصوفية العقل بانه يمنع صاحبه من المعاصي او من التورط في المهالك او مما لا يليق به، ويدعى «الحجر» لان الانسان في منعة به مما تدعوه اليه نفسه. ثم يدعى «الناهي» لانه ينهى عن القبائح. ثم يقولون ان كل الشرور ناشئة عن الجهل، وجميع مبعثها العلم، فلا فضيلة إلاّ بالعلم، والعلم وليد المعرفة.

العقل الكلي، والكلي من كلمة الكل. تقول المعتزلة هو العقل الأعلى ابدعه اللّه من نوره، علة العلل، خالق كل شيء، مدبّر كل شيء وعاقل كل شيء، النور الالهي الذي كان قبل الكائنات والوجود. أما العقل الجزئوي، أي الأدنى، هو للاستدلال يسترشد باختبارات الحواس وما تعكسه من معقولات الفكر بالمقارنة والتمييز، والاتصال بأمور وشؤون الدنيا والتعاطي بأحوالها، اي العقل الذي يدبّر اعمال الانسان ويستنتج ما حصل او قد يحصل ويميز بين الخير والشر وبين القبيح والجميل.

اما ابو حامد الغزالي الصوفي فيقول: «ان وراء الادراك الحسي والعقلي ادراكًا اصح وآمن وادعى للثقة. فحيث ان المدارك الحسية والعقلية معًا لن تستطيع ان تكشف ما يرنو اليه المؤمن في بحثه الدائب عن اليقين، خصوصًا ان ادلة العقول متعارضة. فلأن العقل في الاصل، لن يستقل في احاطته بالمطالب جميعًا ولن يكشف الغطاء عن تلك المعضلات التي لا يمكن الاقرار بعدم جدواها من ناحية مبدئية، فهي من الاسس العقلية والحسية عند الانسان التي تمكن منه الايمان بالدرجة التي لم تعد تسمح له بالتسليم دون مناقشة[٢]

---

١ – «الرسالة السبعينية» ص ٣١.

٢ – «الفيلسوف الغزالي.» عبد الامير الاعسم. ص ١١٢.

ويقول الدكتور محمد الشرقاوي*: «مما يلفت الانتباه ان لفظ «العقل» في صيغة الاسمية لم يرد في القرآن الكريم مطلقًا، ولكن وردت مشتقاته في صيغة الفعلية مثل عقلوا ويعقلون ونعقل ويعقل قرابة الخمسين مرة.»(١)

ومن الآيات التي فيها مشتقّات العقل:

«أُفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون» سورة الانبياء اية ٦٧.

- «ام تحسب ان اكثرهم يسمعون أويعقلون إنْ هم إلاّ كالأنعام بل هم اضلُّ سبيلاً». سورة الفرقان. آية ٤٤.

- «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير». سورة الملك اية ١٠٠.

وكذلك في الحديث فقد رفض ابن الجوزي ورود لفظ العقل فيه اذ يقول: «من الاحاديث الموضوعة احاديث العقل كلها كذب.»(٢) كما رفضه البستي اذ يقول: «لست احفظ عن رسول الله خبرًا صحيحًا في العقل»(٣).

بعض اصحاب الحديث يعارض ما قاله البستي وابن الجوزي، فيقول الطبراني في حديث نسبه الى عائشة ام المؤمنين. قال رسول الله «اول ما خلق الله العقل، فقال له اقبل. فاقبل ثم قال له ادبر. فأدبر. ثم قال الله، عزّ وجل، وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا اكرم علي منك. بك اخذ، وبك اعطي، وبك اثيب وبك اعاقب.»

وفي حديث عن ابي سعيد الخدري ان الرسول قال «لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته.»

---

* محمّد الشرقاوي، استاذ الفلسفة الاسلامية في كلية دار العلوم في جامعة القاهرة.

١- «الصوفية والعقل» ص ٥٤.

٢- «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» ص ٣٨.

٣- «الفرقان». ص ٩١.

اشارة بعض مفكري الصوفية الى العقل هي اقوال شخصية فردية لا تشكل اعترافًا كمعتمد يوئمنون به، كقول الحارث المحاسبي: «جوهر الانسان العقل وجوهر العقل توفيق الله»[1]. وذو النون المصري يقول «ما خلع الله تعالى على عبد من عبيده خلعة احسن من العقل، ولا قلده قلادة اجل من العلم به. ان مفتاح العبادة الفكرة، والفكرة عن هذا العقل تكون.»[2]. والصوفي سهل التستري يقول. «لا يصلح الكون إلاّ بالعقل.»[3].

يشير الصوفية الى القلب والفؤاد واللبّ وان لهم مميزات العقل، مما يخلق تناقضًا وتداخلاً في المعنى واختلافًا في التفسير والتباسًا في تحديد معنى وهدف اقوالهم.

ويعتمد مفكرو الصوفية، في اقوالهم عن القلب، على ما ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى.

- «وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون.» سورة التوبة اية ٩٣.
- «فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.» سورة الحج آية ٤٦.
- «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» سورة الرعد اية ٢٨.

ويقول الصوفية، ان من اهم ما يتمتع به القلب من وظائف الايمان وما يتعلق به من تقوى وورع. قال تعالى «قال او لم تؤمن؟ قال بلى ولكن لَيَطمئِنَّ قلبي[4].»

ويقول الصوفي حكيم الترمذي: «واسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها وفي القلب مواضع منها»[5].

١- «طبقات الصوفية» السلمي ص ٥٩.
٢- «ذو النون المصري.» عبد الحميد محمود. ١٥٣.
٣- «من التراث الصوفي.» مجلد ٢ ص ١٧٥.
٤- سورة البقرة الآية ٢٦٠.
٥- «رسالة الفرق بين القلب والصدر واللب» ص ٣٣.

ويقول الغزالي: «القلب ليس هو العضو في داخل الجسم[1]، بل هو تلك البصيرة التي تتشبث باسمى ما وصلت اليه النبوة في اتصالها بالوحي في شخص محمد، لان العقل في الاصل غير كاشف للغطاء عن جميع المعضلات في حين ان النبوة كاشفة لكل غطاء.»[2]

«فالقلب، عند تحقق كمال معرفته، تفيض عنه السعادة التي لا وجود لتحصيلها إلاّ بالارتقاء الى اعلى عليين، حيث اللانهاية، وحيث تتساوى معرفة النبوة بمعرفة القلب، اذ ينتفي الزمان والمكان، فيصبح القصد من القرب ما ينفي البعد، اذ ذاك يتحقق المقصود بظهور الحق»[3]

يقول الدكتور كمال جعفر: «القلب عند الصوفية هو الجهاز المتكامل للانسان وهو مجموع الطاقات البشرية كلها من روحية وعقلية وارادية.»[4]

«سار الصوفية على النهج القرآني في جعل القلب محل الكشف والالهام، اداة المعرفة، المرآة التي تتجلى فيها معاني الغيب وتنزل عليها الحكم، فهو بالاختصار تلك القوة الخفية التي تدرك الحقائق الالهية ادراكًا واضحًا جليًا لا يخالطه الشك. جعل الله تعالى القلب محل الايمان والفهم والتدبير. فالقلب في القرآن هو العقل الذي يعقل عن الله.»[5]

يقول ابن عربي: «فقد ثبت ان القلب رئيس البدن، وهو المخاطب في الانسان، وهو العقل الذي يعقل عن الله، وهو الملك المطاع الذي قال فيه رسول الله «صلعم»: ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد، وان فسدت فسد الجسد، ألا وهي القلب».[6]

١- «المنقذ من الضلال» ص ١٤٤.
٢- المصدر نفسه ص ١٠٨.
٣- «ميزان العمل.» الغزالي ص ٣٠.
٤- «التراث الصوفي» مجلدا ص ٢٢١.
٥- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ٩١٧.
٦- «مواقع النجوم» ص ١٤٤ .

وكذلك اعتمد الصوفيون القرآن الكريم في ابراز «اللب» كنظر للعقل، وحتى بعضهم يضعه في مرتبة اعلى من مقام العقل.

ويقول الحكيم الترمذي: «ان اللب هو العقل ولكن بينهما فرق، كما بين نور الشمس ونور السراج. ولا ينفي ان هناك شبهًا ظاهرًا بين اللب والعقل، هو ان كليهما نور، والانوار لا يستوي سلطانها، بل يتفاعل احدها على الاخر، لأن «اللب» هو موضوع نور التوحيد، ونور التفريد هو النور الاتم والسلطان الاعظم.[١]»

والصوفي الحارث المحاسبي يقول: «إنَّ اللب والعقل وانوار الايمان والتوحيد تنتقل بالادراك الانساني من مرحلة الى مرحلة حتى تنتهي الي مقام «اللب» الذي يطلق عليه الصوفية عقل الهداية او عقل الايمان او كمال العقل عن الله»[٢]

ذكرت كلمة «اللب» مرات عدَّة إلاّ انها ذكرت في صيغة الجمع اي «اولو الالباب» ومن هذه الآيات:

- «فاتقوا الله يا اولي الالباب الذين آمنوا.»[٣]

- «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب.»[٤]

- «إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الالباب.»[٥]

١- «رسالة الفرق بين القلب والصدر واللبّ» ص ٧٢.
٢- «العقل وفهم القرآن». ص ٢١٩.
٣- سورة الطلاق. اية ١٠.
٤- سورة الزمر الآية ٩.
٥- سورة آل عمران آية ١٩٠ .

«أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولو الالباب.»[١]

من الواضح من الايات القرآنية ان «اللب» اختص «بالتذكر» كما اختص القلب بالفقه على ان يكون مؤمنًا، واولو الألباب هم المؤمنون بنص القرآن الكريم، ولهذا يفترض وجود علاقة بين القلب، في مرحلة من مراحله، وبين اللب. ويقول الحارث المحاسبي في تفسير الاية «ليدبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب»[٢] ان سبحانه قد اخبرانه انزله للتفكر فيه والتذكر، وخص بالتفكر اهل العقول وبالتذكر اولي الالباب.[٣]

قلنا سابقًا، التصوف عبادة الله المباشرة من دون وسيط، ونشدان صفاء النفس وتطهيرها من غرور الدنيا وبهرجها، ونزوات الجسد، والسعي الى الحب الالهي والفناء في حب الله تعالى. اذن، النفس الطاهرة النقية، الخالية من الادران، هي التي تسعى الى التخلص من الدنيا وشرورها وتسلك الطريق الى الاتصال بالمولى، عزّ وجل، ومشاهدته.

النفس اذن، هي العامل الاول والاساسي في التصوف وخلاص الانسان الروحي، وكما قلنا، فان كانت طاهرة نقية، تمكن الانسان من السير في الطريق الصحيح الى معرفة المولى والاتصال به، وان كانت شريرة فاسدة، قادته الى التهلكة والضياع الروحي.

١- سورة الرعد الاية ١٩.

٢- سورة ص الاية ٢٩.

٣- فهم القرآن ص ٢٧٥.

يقول الموحدون الدروز عن النفس: «ان الله تعالى ابدع من نوره العقل، وعندما كان العقل، ظهر الضد (ابليس) بغير مراده، بل ظهر كرهًا، وهو ظلمة محضة. احتار العقل وطلب المعونة من الله، فكانت النفس وصار مكانها بين نور العقل الشعشعاني وظلمة الضد أي ابليس. فاذا انحازت النفس الى نور العقل حصل الخير ومنه الحب والفرح والتسامح، واذا جذبتها ظلمة الضد، صار الغضب والبغض والحسد.

يصف الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين النفس بقوله: «أنت جوهرة في القلب ساكنة في الكون مشرقة من غير ادراك، لولاك ما خلق الرحمن من عرض، ولا تكوّنت الافلاك لولاكي، صوني عن الجسم لا تهوي فناه، ولو كان اتحادك به والقلب مثواكي، واستبدليه ولا ترضي بوحشة تحضى بقدس الهنا في انس مولاكي، فكم لك بفراق الجسم من فرج، والموت حقًا وفي الايمان محياكي.» ثم يقول: «فهذه النفس الناطقة نقطة الحياة خرجت من محكم الارادة الالهية الأزلية. دفعها سرّ التأييد الالهي في جوهر نور الابداع الذي هو العقل الكلي[١]، تحملت في سر الجوهرين، النور والظلمة. أعني نور العقل وظلمة الضد[٢]، ثمَّ برزت من بينهما مخلوقة من الطبايع الولية والضدية بحركة المادة الالهية. ثم برزت في العلل الروحانية، أعني النفس والكلمة».[٣] «الجسم حجاب النفس ومنه تظهر افعالها، ولا تدرك إلاّ منه، ولا تعرف إلاّ به، ولا غنى لها عنه، ولا تنتقل منه إلاّ اليه، ولا قيد لها عن الموت، ولا حجابًا قدّامها عن النقلة ولا مسافة لها عند الرحلة، بل هي نقطة حياة لا يعنيها زمن كان ولا يكون ولا يحدّها جسم الكون، اذا نقلت

---

١ – عقيدة الفيض اليونانية: الله ابدع من نوره العقل، والعقل فاض على النفس التي فاضت على الهيولى وهي المادة والمخلوقات.

٢ – الضدّ هو إبليس.

٣ – مخطوط النقط والدوائر ص ٣٨.

نزلت واذا فارقت اتصلت، كذا ان كان الجسم قريبًا. كذا ان كان بعيدًا، فمسافة القرب والبعد سواء، لأنها روحانية الضّيا، والعقل علة وجودها وفيه مستقرها.»[١]

ومن اقوال الشيخ زين عبد الغفار تقي الدين «النفس صورة روحانية مجرّدة بغير اجسام فهي نقطة الحياة، ولهذا نرى النفس واسطة بين حاشيتين، فترى حرارة العقل ملاصقة المعصية، وبرودة الحلم ملاصقة الجهل، وقوة النور ملاصقة الظلمة، وسكون التواضع ملاصق الاستكبار، لأن هذه صورة الابداع والامتزاج والتركيب في جوهر النفس الناطقة، وهو على ترتيب ابداعها في العقل الكلي. وصار كل طبع مذموم ملاصقًا اصله ومضادّه، لذلك، اذا قوّي طبع من طبايع العقل، بطل فعل طبايع الضد، واذا قوّيت طبايع الضد اضعف اصله من طبايع العقل. فالعقل ينبوع الخيرات والضد ينبوع الشرور والمحرّمات.[٢]

يقول سقراط: «ان النفس الناطقة لها وجود مستقل سابق على البدن، وحقائق شريفة سامية حصلت فيها على الحقائق الالهية ولن ينالها الموت عند موت البدن، بل ستبقى لتنال جزاء ما قدمت عليه يداها في الحياة الدنيا، ان خيرًا فخير او شرًا فشر. هذا هو قانون العدالة الالهية.»

يقول الدكتور السحمراني: «ومن فلسفة افلاطون – ان البدن سجن النفس – والانسان الحكيم هو من استطاع تخليص نفسه في الحياة الدنيا من قيود هذا السجن بقهر الشهوات، وتحكيم العقل والارادة مما يؤدي الى نظام قاس من الزهد والتقشف، مع العلم ان الخلاص النهائي للنفس لا يكون إلاّ بالموت حيث تعود من جديد الى عالم المثل. فمحاولة تزكية النفس ونصرتها في

١– المصدر نفسه.

٢– مخطوط النقط والدوائر.

صراعها مع البدن بالزهد، وفق المذهب الافلاطوني، هي مما يقارب الى حد بعيد ذلك التركيز عند الصوفيين على النفس واهمال البدن. لان انتصار النفس سبيل الى الفضيلة، واتباع البدن وشهواته طريق الى الرذيلة»[١]

يقول افلوطين، الشيخ الاسكندراني: «النفس ليست ذات طبيعة جسمانية، كما يقول الماديون، انما هي ذات طبيعة روحية خالصة، تختلف كل الاختلاف عن طبيعة البدن، كيف لا، وهي تنتمي الى عالم العقول، وهو عالم ابدي شريف لا يدخل في مقولة الزمان ولا يقبل التغيير والفساد.»

قلنا سابقًا ان النفس هي العامل الاول والاساسي في تكوين وتحديد امكانيات وصول المتصوف الى هدفه وهو الاتصال بالحق. فاذا فسدت النفس أُقفلت الطريق وسُدَّت المسالك على المريد. لذلك، نرى التعمق في بحث موضوع النفس واهميتها في تطوير وتوجيه التصوف.

يقول الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين: «على الانسان معرفة نفسه، وهو ان يعرف نفسه ما هي ولماذا خلقت، فهي تقبل الجهل كما تقبل العقل، وهي بين نور العقل وظلمة الضد، وخلقت للعبادة والتوحيد وفي لغتها هي نور وظلمة. وطبايع العقل قوة النور وسكون التواضع وبرودة الحلم. وطبايع الضد هي المعصية والشراسة والنزاقة، ولا يأتيها الشر إلاّ من قبل ذاتها»[٢].

بعض ما قاله الفيلسوف البابلي «هرمس» عن النفس: «واعلمي يا نفس علم اليقين، واستمعي استماع المقبلين، ولا يغبن عنك ان مهلكات الامور ثلاثة اجناس: اولها، كفر الشرك وسائر انواعه، والظلم وسائر انواعه، والتلذذ وسائر انواعه. وجامع هذه الاجناس وسائر انواعها كلها اصل واحد وهو حب الدنيا.»

١- «التصوف» ص ٤٩ - ٥٠.

٢- «كتاب النقط والدوائر.»

«يا نفس انما رتبت الدنيا على المعاني المختلفة التي هي خير وشر، ونعيم وبؤس، وشدة ورخاء تنبيهًا لك وايقاظًا ومثالات تعملين عليها لتكسبي بذلك هديًا الى العقل المضيء المنير، والعلم التام الثابت الذي هو الحكمة والمعرفة بحقائق الاشياء.»(١)

تحدث بعض المفكرين المسلمين عن الروح والنفس، وكان حديثهم نوعًا من الخلط بينهما حتى يعتبران شيئًا واحدًا ولكن ابن القيم الجوزية فرّق بينهما بقوله: «ان الروح جسم نوراني علوي يسري في اعضاء الجسد ويمنحه الحس والحركة الارادية، بينما النفس، هي مصدر المعرفة العقلية، وعلمها ينبع من ذاتها ولا تحتاج الى ادراك هذه الذات لأي شيء اخر غيرها.»(٢)

ومعظم العلماء المسلمين يقولون ان الروح تفنى وتموت مع الجسد، اما النفس فتبقى كي تحاسب على اعمالها، الخير له الثواب وللشر العقاب. الروح والمعرفة حقيقتها، خصوصًا بعثها للحياة في الجسد، لم يتمكن الانسان من ادراكها، ولم تستطع العقول من تحديدها وفهمها، ولهذا يقول الله تعالى. «ويسئلونك عن الروح، قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم إلاّ قليلاً(٣)» وبذلك صرف، عزّ وجل، الانسان عن التفكير في الروح.

ويعتبر الصوفية ان النفس تظهر في سبع احوال، لا بد من ان تتخطاها كي تتمكن من سلوك الطريق الى الحق.(٤)

١- «الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم اللطيف والبسيط والكثيف» ص ٣٣.

٢- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين. ص ١٠١.

٣- سورة الاسراء الاية ٨٥.

٤- «تعليمات القادرية والفتوحات الربانية» اسماعيل بن محمد سعيد ص ٣٤.

١. النفس الامَّارة، وهي سريعة الميل الى الشهوات.

٢. النفس اللّوامة، وهي طريقة حالة المحبة.

٣. النفس الملهمة، وهي حالة العشق.

٤. النفس المطمئنة، وهي حقيقة حالة الوصلة.

٥. النفس الراضية، وهي ولاية حالة الفناء.

٦. النفس المرضيَّة، وهي ذات الشريعة في حالة الحيرة.

٧. النفس الكاملة او الصافية، وهي ذات الكل في حالة البقاء.

وتعتبر الصوفية ان هذه الاحوال التي تمر بها النفس هي:

١. تطهيرها من الشهوات.

٢. ابدال الشهوات بالمحبة.

٣. الانغماس في العشق.

٤. الوصول الى المولى تعالى.

٥. الفناء في حب الله، عزّ وجل.

٦. الحيرة.

٧. البقاء الدائم بالتوحيد بان لا اله إلاّ الله.

ويقول احمد بن عبد الرحمن الرطبي[١] «ان واجبك يا اخي، ان تصارع النفس، وهذا هو الجهاد الاعظم حتى النهاية، علّ ان تتخلص النفس من الصفات المكروهة وتستبدلها بالصفات الحسنة وذلك حسب المراحل التالية:

١. النفس الامّارة. من صفاتها: الجهل، البخل، الطمع، الكبرياء، الغضب، الجشع، الحسد، قلة الاكتراث، سوء الخلق، الحقد، والاستهزاء والاستهتار بالغير، عليك بالكفاح كي تنتقل الى:

١- «منحة الاصحاب في الرسائل المدغانية» ص ٦٩/٩٨.

٢. النفس اللّوامة. من صفاتها: اللوم، التخمين النظري، الغرور والعبث، حب الظهور، التسلط، الرياء. هذه امراض لاشفاء لها إلاّ بالذكر المتواصل والنضال لقهرها حتى تنتقل إلى:

٣. النفس الملهمة. من صفاتها: الكرم، الرضى، القناعة، المعرفة، الصبر، التواضع، الحلم، المسامحة والعفو. وشاهد هذا لقوله تعالى «اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلاّ هو اخذ بناصيتها»[1]، ولهذا لا يلوم شيء من خلقه. عليك بالصلاة والذكر حتى الفجر حتى تنتقل الى:

٤. النفس المطمئنة. من هذه المرحلة تصبح النفس في هدوء ومن صفاتها: التحرر، التواكل، اللطف، الحب، عرفان الجميل، الاطمئنان بالاجل المحتوم، والصبر عند حلول النكبة. عندئذٍ يكون المريد وصل الى مرحلة النفس المطمئنة فينتقل الى:

٥. النفس الراضية. في هذه المرحلة تكون النفس راضية، ومن خاصية صفاتها: التخلي عن كل شيء إلاّ الله، الولاء، ومخافة الله، وجميع ما له علاقة بالدنيا بدون استنكار او اعتراض، لانه يكون اندمج في تأمل الجمال المطلق، وانغمر في بحر نعمة الله تعالى. عليك البقاء في هذه المرحلة حتى يضمحل فناؤك الانتقالي وتصبح في مرحلة البقاء فتنتقل الى:

٦. النفس المرضيَّة. من صفاتها: حدة الذهن، التخلي عن كل شيء عدا الله، اللطف والحنان على كل مخلوق، الصفح عن اخطائهم وغمرهم بالحب، ثم تعظيم حب الخالق للمخلوق وبذلك تكون النفس رجعت من عالم الغيب الى عالم الشهادة لتقدم الى الناس ما انعم الله عليها من عطفه وحنانه وتنتقل الى:

١- سورة هود اية ٥٦.

٧. النفس الكاملة او الصافية. تجمع كل الصفات الحسنى الموجودة في الاحوال السابقة، وبذلك تصبح كاملة ويطلق عليها اسم القهّار وهي انقى الصفات. القهّار احد اسماء القطب الذي يزوّد الطامح بالانوار الالهية، والعطايا الروحية، والاخبار السّارة، وغبطة المعرفة التي تنير قلوب الطامحين، وهذا من معطيات القطب وليس من متابعة الذكر.

الصوفي ينظر الى النفس الكاملة على انها المؤهلة لسلوك الطريق للوصول الى الحق، على ان عليها ان تلتزم الشريعة في سيرها وسلوكها. ويقول احمد بن عبد الرحمن الرطبي: «تمسك بعزم يا اخي بالشريعة، لان لا يمكنك سلوك الطريق إلاّ من خلال الشريعة، ولا يمكنك الاقتراب من الحقيقة، إلاّ من خلال الطريقة. الشريعة هي الجذر، والطريقة هي الغصن، والحقيقة هي الثمرة التي لا يمكنك الوصول اليها إلاّ بواسطة الجذر والغصن. فكل من يتبع الطريقة بدون الايمان باحكام الشريعة فهو زنديق.»[١]

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يدعو الى الالتزام بالشريعة وبكل ما امر به الرسول الكريم واجتناب ما نهى عنه ويقول: «المسلم المتقي يأخذ الشرع بيده، يلتزم الشريعة ولا يفارقها، يعمل بقول الله عزّ وجل «وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.[٢]» طرْ الى الحق، عزّ وجل بجناحي الكتاب والسنة. ما لنا حاجة خارجة عن دائرة الشرع[٣] ثم يقول «عليكم بحفظ الصوم والصلوات الخمس في اوقاتها، وحفظ حدود الشرع جميعها، اذا اديتم الفروض فانتقلوا الى النفل».*

يقول الجنيد ابن محمد: «مذهبنا هذا مقيّد باصول الكتاب والسنة[٤] ويقول السراج الطوسي عن الصوفية: «هم العلماء بالله، وباحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم عزّ وجل[٥].»

١- «منحة الأصحاب - في الرسائل المدغانية» ص ٦٩ - ٩٨ .
٢- سورة الحشر آية ٧ .
٣- «الفتح الرباني والفيض الرحماني» ص ٤١ و٥٣.
*- النوافل هي العبادات الاضافية على فروض الشريعة.
٤- الرسالة القشيرية. ص ٢٠.
٥- «اللمع في التصوف» ص ٢٦.

اذا اردنا الخوض في اللاهوتية الصوفية، وذلك ما يدعونه «الغوثية» والغوث هو القطب، او صاحب الوقت، ويُعرف «بالمرجعية الالهية» نجد ان علماء الصوفية يضعونها في الاطار الفكري التالي: «إن كل مرحلة بين الناسوت والملكوت هي الشريعة. وكل مرحلة بين الملكوت والجبروت هي الطريقة وكل مرحلة بين الجبروت واللاّهوت هي الحقيقة[١] وتفسير هذه المراحل ما يلي:[٢]

١. عالم الناسوت.

هو الظاهرة المادية للعالم لم يدرك بواسطة الحواس، ويسمّيه ابو حامد الغزالي «عالم الملك والشهادة».

٢. عالم الملكوت.

عالم السلطة، اي سيادة الدولة وهو العالم الروحي الخفي، عالم العالم الملائكي ويدرك بالبصيرة والمقدرة الروحية.[٣]

٣. عالم الجبروت.

عالم القوة او القدرة والسيطرة والفلكي يدرك بمشاركة الطبيعة الالهية، وهو عالم الاسماء والخواص الملائكية.

٤. عالم اللاهوت.

عالم الربوبية، لم يدرك، وهو ظاهرة اندمجت بالتوحيد الابدي.

اما الشيخ عبد القادر الجيلاني، فيحدد هذه اللاهوتية الصوفية كما يلي:[٤]

١. الناسوت.

١- «الفتوحات الربانية» اسماعيل بن محمد سعيد ص ٤ .

٢- «الطرق الصوفية في الاسلام». «J.S. Trimingham» ص ١٦٠.

٣- يصفه شهاب الدين السهروردي «بباطن الكون». «عوارف المعارف» ص ٦٢.

٤- «الطرق الصوفية». «J.S. Trimingham» ص ١٦١.

الحالة الطبيعية التي يعيشها الانسان في اقتفائه احكام الشريعة.

٢. الملكوت.

طبيعة خاصة بالملائكة، للوصول اليها، على الطالب ان يسلك الطريقة وهي السبيل الى تطهير النفس.

٣. جبروت.

طبيعة القوة، حتى يدركها المريد، عليه ان يقتفي سبيل المعرفة.

٤. الفناء.

الاستغراق في حب الله تعالى وهو الحقيقة اي عالم الغيب الغير مخلوق.

مراتب الصوفية
القطب - الشيخ - المريد

الترتيب الصوفي لمراتب القوى للسير في الطريق الى الوصول الى الله، سبحانه وتعالى، يبدأ بالقطب اي الغوث وهو رأس الهرم، صاحب الوقت ومرآة الحق، «هو واحد من آدم الى يوم القيامة، لم يتلق من قطب سبقه، بل هو القطب الواحد، وهو رسول حي بجسمه في هذه الدار الدنيا.[1]

ويقول ابن عربي: «لا يكون في الزمان إلاّ واحد يسمى الغوث والقطب، وهو الذي ينفرد فيه الحق ويخلو به دون خلقه، فاذا فارق هيكله المنور، انفرد الحق بشخص آخر، لا ينفرد بشخصين في زمان واحد، وذلك العبد عين الله في كل زمان، لا ينظر الحق في زمانه، إلاّ اليه، وهو الحجاب الاعلى».[2]

القطب، هو عبد الله الجامع (الله) فهو المبعوث بجميع الاسماء تخلقًا وتحققًا. هو مرآة الحق ومجلى النعوت المقدسة، ومجلى المظاهر الالهية وصاحب الوقت».[3]

١- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ٩١٠.
٢- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٥٥٥.
٣- المصدر نفسه ص ٥٧٣.

يقول الامام موسى الصدر: «وأما القطب بمعناه الظاهري عند الصوفية، فهو المربي الذي يأخذ بيد السالك خطوة خطوة في طريقه الوعر الشائك المحدق بالاخطار وبالانحرافات لكي يوصله الى الكمالات الانسانية، ويباشر القطب، وهو الانسان الكامل، هذه العملية بواسطة انصاره ومعاونيه، ويسلك معهم نفس الطريق. اما المعاني العميقة للقطب فهي انه الانسان الكامل، وامام الزمان ومظهر النبي ومجلى ذات الله، يقصده السالك ويراه في حال مخاطبة الله حينما يقول – اياك نعبد واياك نستعين – حيث انه مرآة صادقة لذات الله.»[1]

وفي التفريق بين القطب والامام يقول الامام موسى الصدر: «هذان المعنيان يختلفان عن معنى الامام والولي ودورهما طريقًا وغاية، فلا حقيقة مغايرة للشريعة، خفية عن اذهان الناس، ولا طرق خاصة بكل سالك ولا عملية مباشرة ولا ظاهر ولا تجليات[2]. بهذا يرفض الامام موسى الصدر القول بان مقام القطب عند الصوفية هو كمقام الامام عند الشيعة.

وتعتبر الصوفية ان القطب هو «الانسان الكامل» وهو اعلى المقامات التي يمكن ان يصل اليها السالك فتكون نفسه النفس الكاملة، وصار نور الحق الذي يرى منه الله تعالى.

ويصف الدكتور ابو العلا عفيفي «الانسان الكامل» بقوله: «فالانسان الكامل» اذن، هو المرموز اليه بآدم[3] وهو الجنس البشري في اعلى مراتبه، لم تجتمع كمالات الوجود العقلي والروحي والمادي إلاّ فيه.» ثم يقول: «لا يصدق في الحقيقة إلاّ على اعلى مراتب الانسان، وهي مرتبة الانبياء والاولياء، واكمل هؤلاء على الاطلاق هو النبي محمد، لا محمد النبي المبعوث، بل الحقيقة المحمدية او الروح المحمدي، فانه هو المظهر الكامل للذات الالهية والاسماء

١– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» المقدمة هنري كوربان. ص ٢٥.
٢– المصدر نفسه. ص ٢٥.
٣– يشير أبو العلا عفيفي الى القول «ان الله خلق آدم على صورته، اي على الصورة الالهية.»

والصفات»[1] ثم يقول: «الانسان الكامل هو الحافظ للوجود والسبب في استمراره. اما سبب استمرار الوجود فلأن العلة اذا وجدت وجد معلولها واذا انعدمت انعدم معلولها الخاص، فاذا زال الانسان من العالم، وهو المقصود بالذات من خلق العالم، لزم ان يزول العالم»[2] والقطب هو الانسان الكامل.

يقول العالم الصوفي عبد الكريم الجيلي بعد ان يستند الى الحديث «خلق الله آدم على صورته»[3] «ان الانسان هو على صورة الله او هو نسخة الحق، فاذا الله تعالى قد تقدس بذاته، وتعالى عن اوصاف الخلق وما هم عليه من الذلة والنقص، فان ذلك ينسحب على مطلق إنسان. اما «الانسان الكامل» فقد وصل الى المرتبة الاخيرة والمقام الاعلى الذي يتجلى فيه الله عليه بذاته، ولذلك «فالانسان الكامل» هو صورة كمال الذات الازلي والتخليد وخليفة الله الذي اشارت اليه الآيات[4] الذي يكون له الركوع والسجود فهو مقابل الحق ونسخة الله»[5].

١– «فصوص الحكم» ابن عربي. تحقيق ابو العلا عفيفي. ص ١٣.

٢– المصدر نفسه.

٣– هو الصوفي المشهور عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم بن محمد الجيلي وكنيته قطب الدين ولد عام ٧٦٧هـ في جيلان من فارس وتوفي في بغداد عام ٨٢٠هـ. وله قبر يزار حتى اليوم. كان من متصوفة الشيعة. من مؤلفاته التي تبلغ ٣٢ كتابا: الكهن، الرقيم، المناظر الالهية، الكملان الالهية وغيرها.

٤– ذكر هذا الحديث ابن حنبل في «المستند » الجزء الثاني ص ٣٤٤. و«صحيح مسلم» ص ١١٥.

٥– يقصد الجيلي قوله تعالى. «وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة». سورة البقرة اية ٣٠. «لفكر الصوفي» عبد الكريم الجيلي ص ٨٥ – ٨٦.

وعن القطبية يقول عبد القادر الجيلاني: «القطبية هي قمة السعي للوصول الى الحق وهو طريق طويل شائك، والقطب اعلى السالكين، وهو حامل لواء العز ومنتضي سيف القدرة وحاكم دست الوقت وولي عهد التولية والعزل، فلا مرقى للاولياء فوق مرقاه».(١)

ويقول شهاب الدين بن حفص السهروردي: «فالقطب، موضع نظر الله تعالى في كل زمان، على درجته الروحية العالية، لا ينسلخ من وجوده الزماني، بل هو يعيش بين الناس، ويؤدي بظاهره ما يؤدونه من حقوق، وبهذا المعنى يكون القطب «كائن» ولكنه من بعد ذلك مخفي للحقائق التي ينفرد بها، فلا مرقى للعوام من الخلق لمعرفة حقائق باطنه وخزائن قلبه فهو بهذا «بائن» عنهم.(٢)»

وفي «الفتوحات المكية» يقول ابن عربي: «القطب هو كبير القوم، ومهبط الرحمة ومصدر الكرامات، لا يتعوّد صاحبها، حتى يخلفه غيره. وان للاولياء عند الصوفية ثلاث مراتب:

١. القطب الواحد وهو النبي محمد «صلعم».

٢. القطب الثاني. هو القطب الانساني، يعنون ان الارض لا تخلو من رسول حي، منهم ادريس وعيسى، وكلاهما من المرسلين القائمين بالدين الحنيف. والخضر وهو ركن الحجر الاسود واحد اركان بيت الدين.

٣. القطب الثالث. هو قطب الغوث، الذي لا يكون منه الزمان إلاّ واحد ويحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة الباطنة، من جهة المقام كابي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وعمر بن عبد العزيز، وهو واحد لا يتعدد.

١- «ديوان الجيلاني» مقالة: في وصف القطب. البيتان ١٤ و١٦.

٢- «عوارف المعارف» ص ٢٥٥.

ويقول الشيخ ابو علي الدقاق: «الفكر الصوفي يتحول الى الحقيقة المحمدية اي، النور المحمدي الذي انبثق منه الكون وتجلى في أدم والانبياء والرسل، وهو «الانسان الكامل»، والانسان الكامل هو القطب.»

ويقول المفكر عبد الرحمن الوكيل: «اما عن مهمة القطب، كما في الاعتقاد الصوفي، فهي الخلافة العظمى من الحق وطلقًا في جميع الوجود جملة وتفصيلاً، حينما كان الرب الهًا كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من له عليه الوهية الله تعالى، فلا يصل الى الخلق شيء كائنًا ما كان الحق الاّ بحكم القطب، فلا تكون مرتبة في الوجود للعارفين والاولياء خارجة عن ذوقه، فهو المتصرف في جميعها لاربابها، به يرحم الوجود، وبه يبقى الوجود، وفي بقاء الوجود رحمة لكل العباد، ووجوده في الوجود حياة لروحه الكلية، وتنفس نفسه يمد الله بها العلوية والسفلية، ذات مرآة مجردة يشهد منها كل قاصد مقصده. نرى ان القطب ليس ضمن مهماته، كامام الشيعة، رعاية امور المسلمين الدينية والسياسية، ولا عن اجتهاد، ولا يحق له العصمة او التأويل، ولا تعتبره الصوفية الوسيط بينها وبين الله كما تعتبر الشيعة الامام، ولم ينص عليه من قطب سابق كالامام، بل عيّن من بعض المتصوفة.[١]»

اما ابن تيمية فيختلف عن غيره من المفكرين في وصفه للقطب فيقول: «ان من قال ان القطب ينطق علمه من علم الله، وقدرته عن قدرة الله فيعلم ما يعلمه الله، ويقدر على ما يقدر عليه الله، فان هذا كفر قبيح وجهل صريح».[٢]

ويمكننا ان ننهي تعريف القطب بما قاله الدكتور الحفني: «يرى الصوفية ان القطب هو اكمل انسان متمسكًا في مقام الفردية، او الواحد الذي هو موضع نظر الله في الارض في كل زمان ومكان وعليه تدور احوال الخلق، وهو

١- «هذه هي الصوفية» ص ٢٥٩.

٢- «مختصر الفتاوى المصرية» ص ١٩٩.

يسري في الكون واعيانه الباطنية والظاهرة سريان الروح في الجسد ويفيض روح الحياة على الكون الاعلى والاسفل».[1]

الشيخ

كان اوائل الصوفية يعتمدون على التجربة الحياتية اكثر من اعتمادهم على الروحانية الفكرية. وكان شيوخهم يرشدون المريدين الى طريق الحق بدلاً من القاء المواعظ وتلقين التعاليم الدينية، فكانوا مرشدين وليس معلمين، ويقول ابو حامد الغزالي: «المعرفة عند الصوفي لا تكتسب بالعلم بل بالنشوة والخبرة والتغيير الداخلي (الروحي). اذن العلم يخلف الخبرة ولا يتقدمها.»[2]

يقول الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي في «المثنوي»: «ان الشيوخ، هم هؤلاء الذين، قبل ان يخلق هذا العالم، كانت ارواحهم غرقى في بحر الجود، وحين اعترض الملائكة على ذلك الخلق، اخذوا يسخرون في الخفاء من الملائكة. ان الشيوخ قد ابصروا الشتاء ابان الصيف اللاهب، وشاهدوا الظلال من شعاع الشمس، فالسماء نشوى بما يُدار في كأسهم من شراب، والشمس من جودهم ترفل في وشي الذهب».[3]

الشيخ يدل السالك (المريد) على طريق الوصول الى قرب الخالق، هو الدليل والعارف بمسالك الطريق، هو المرشد الروحي الى طريق الحق، يتولى تربية المريد ويرشده في طريق وصوله الى الله تعالى.

١- «معجم المصطلحات الصوفية» ص ٢١٧.

٢- «الطرق الصوفية في الاسلام» Trimingham. ص ٣.

٣- «المثنوي» ترجمة محمد كفافي. مجلد ٢ ص ٣٤.

والشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: «انه لا بد لكل مريد من شيخ، فالمشايخ هم الطريق الى الله والأدلاء عليه والباب الذي يدخل منه اليه.»[1] ويستند الشيخ عبد القادر للحديث الشريف «استعينوا على كل صنعة بصالح اهلها.» والشيخ هو صالح اهل الطريق الى الحق، فلا محالة من الاستعانة به.

علاقة الشيخ بالمريد لا تعتمد على مصالح وزخارف اقوال او نظريات شخصية هدفها الكسب والمنفعة المادية او السياسية او الاجتماعية، انما تعتمد الصدق والاخلاص في طلب العلم والتقرب الى الله للهداية واطمئنان النفس والعبادة الصادقة للمولى، عزّ وجل.

ويقول الشيخ الجيلاني: «ولا ينبغي للشيخ ان يأمل من الله عوضًا في تأديب المريد، بل يؤدبه ويربيه موافقة لله واداء لامره، وقبولاً لهديته. فالمريد الذي جاء للشيخ من غير تخير ولا استجلاب، هو هدية من الله، فعليه قبوله والاحسان اليه بتربيته.»

وابن عربي يقول: «على المرشد (الشيخ) ان يعلم ويعمل، فأنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة عن نفسها. ومن يعلم ولا يعمل فهو كالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع، او كذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق. وعلى المرشد ان يقتدي بصاحب الشرع «صلعم» فلا يطلب على افادة العلم اجرًا، ولا يقصد به جزاء ولا شكرًا، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلبًا للتقرب اليه، ولا يرى لنفسه منّة عليهم وان كانت المنّة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم اذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب الى الله تعالى. ولا يطلب الاجر إلاّ من الله تعالى، وكما قال عزّ وجل، «ويا قوم لا اسألكم عليه مالاً ان اجري إلاّ على الله.[2]».

١- «الغنية لطالبي طريق الحق» مجلد ٣ ص ١٢٦٩.

٢- سورة هود آية ٢٩.

«على المعلم ان يكون عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار وارباب الابصار اكثر. فاذا خالف العمل العلم منع الرشد، وعلى المرشد ان يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله فينفره او يخبط عقله.»[١]

يقول الشيخ احمد زروق*: «وكما جاء علم الشريعة مترويًا عن الثقاة، ولا يتصدّر نشره إلاّ المأذون بعد اختيار، كذلك علم القوم يتسلسل من شيخ الى شيخ ولا يصح لاحد تلقين غيره إلاّ باذن من شيخه.»

وتتعدد انواع الاجازات التي تحدد مؤهلات الشيخ، فمنهم، المجاز باعطاء العهد. ومنهم شيخ البدايات الذي لا يستطيع ان يتابع مع مريد كامل المرحلة، بل يحيله الى مرشد آخر، ومنهم المجاز بتسليم زاوية، حتى نصل الى اعلى المشايخ وهو الشيخ صاحب منهج التسليك، وهذا الاخير يدخل حلقة من مشايخ السلسلة، وهي تبدأ من الرسول الى الشيخ صاحب المنهج، ثم تنتشر بين مريديه واتباعه على شكل اجازات[٢] الطريق الصعب، متشعب المسالك، كثير المنحنيات، مليء بالصعاب يتربص بسالكيه اعداء اشداء في حاجة الى جهاده. ومن هؤلاء الاعداء الشيطان والنفس والهوى، لذلك لا بد، لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد يأخذ بيده، وهو الشيخ.»[٣]

١- «الفتوحات المكية» ص ٧٥.

* ابوالعباس احمد بن محمد بن عيسى الفاسي. ولد في المغرب عام ٨٤٦هـ وتوفي في طرابلس الغرب عام ٨٩٤هـ. يزيد عدد مؤلفاته عن ٣٠ كتابًا منها البدع التي يفعلها فقراء الصوفية – وغيرهم. سمي زروق لان جده كان ازرق العينين. «الموسوعة الصوفية» ص ١٩٢.

٢- «المعجم الصوفي» سعاد الحكيم. ص ٢٢٧ (بتصرف)

٣. كتاب السيد احمد البدوي. الدكتور سعيد عاشور. ص ١٨٣.

وأما المفكر المصري محمود المنوفي فيقول: «الشيخ المسلك هذا الذي سلك الطريق على يد شيخ واصل، فرقى في المقامات من مقام التوبة الى مقام المشاهدة، ثم عاد بعد اعتلاء تلك المقامات، ليقيم الشريعة ومسلك الناس في مراحل الطريقة، يفتح لهم، باذن الله، ابوابًا ومنافذ يشرفون منها على اضواء الحقيقة.»[١]

وواجب الشيخ ان يتعرف على احوال مريديه ويتفقدهم، ويتابع ظروفهم. ومن ناحية اخرى، ينبغي عليه إلاّ يتفاخر بالمشيخة او لقب شيخ، فقد لا يكون شيخًا ولا سيدًا عند الله تعالى فيقع الفاعل في الكذب. اما التلميذ، فهو مأمور بالادب معه، فلا يناديه باسمه فقط من غير لفظ سيادة او مشيخة او نحوهما.»[٢]

على الشيخ ان يكون على معرفة بالعلوم الشرعية والارشادات والمعاني الصوفية، بحيث يجمع بين الشريعة والحقيقة، كما قال الجنيد ابن محمد «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الحديث ويكتبه، ويحفظ الكتاب العزيز، ويتفقه في الدين ومصطلح الصوفية، وإلاّ لا يقتدى به.»[٣]

وعن الصفات المطلوبة في الشيخ (المرشد) يقول الجنيد ابن محمد. «لا يستحق ان يكون شيخًا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي، وان يتورع عن جميع المحارم، وان يزهد في الدنيا، وألاّ يشرع في مداواة غيره إلاّ بعد فراغه من مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدي به العباد، فاذا مرض مريده، بسبب شبهة في علم التوحيد داواه، واذا تحيّر من مسألة في مسائل الفقه افتاه، ويشترط ان يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وان يخاف ويخشى من المعاصي والادناس، وان يلازم العمل بالكتاب والسنة. يزن اقواله وافعاله بميزان الشريعة والطريقة، فإن رأيت منه شيئًا مخالفًا للشرع فاتركه، حتى وان كان ذا حال صحيح، فما عليك من رده بحكم الشرع عن بأس ولا تتخذه مرشدًا.[٤]

١- «المدخل الى التصوف الاسلامي» ص ١٦١ .

٢- «الانوار القدسية في اداب العبودية» عبد الوهاب الشعراني.

٣- «قلائد الجواهر» عبد القادر الجيلاني ص ١٧.

٤- «الرسالة القشيرية» ص ٩٠ .

يقول الدكتور عرفان فتاح: «والمعروف ان اوائل الصوفية، لم يرتبطوا في رياضتهم الروحية بهدي شيخ واحد بعينه بل كانوا يسترشدون في ارتياد مقامات السلوك باكثر من واحد، فيروى عن ابي يزيد البسطامي انه تتلمذ واخذ عن اكثر من ١١٣ شيخًا في سوريا وحدها، ويروى عن الجنيد البغدادي انه اخذ عن ٢٠٠ شيخ، إلاّ انه اكتشف ان من بين هذا الجمع الكبير، سبعة فقط يستحقون ان يكونوا ائمة يقلدون ويتبعون[١]. ثم استقر الرأي في دوائر الصوفيّة على وجوب تبعية السالك او المريد لشيخ مخصوص بعينه، يقلده ويخضع لامره ويسترشد بهديه في سفره الى الله تعالى.[٢] ثم يقول «تبعية المريد لشيخ مخصوص بعينه امر اجمعت عليه الصوفية المتأخرون، ومن ثم لم يجوزوا التقلب بمعنى تغيير الشيخ وتبديله.»[٣]

ويقول الله تعالى: «ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون.»[٤]. وكان لكل شيخ خليفة او خلفاء يساعدونه في ادارة الزاوية والاوقاف ويجمعون الهبات ويشرفون على اقامة حفلات المولد والاعياد. ثم عند وفاة الشيخ يخلفونه في منصبه، فتكون لهم السجادة، وهي دليل مشيختهم، ومراقبة المريدين وتعليمهم ورأسة حلقات الذكر. وظائف يحرمون منها خلال حياة الشيخ ولكن يرثونها بعد وفاته.

لقب خليفة كان يطلق على نواب الشيخ في مصر وبلاد الشام وايران. اما في بلاد المغرب فعرفوا بلقب مقدم، وفي تركيا شلبي ملاّ او دهـ دهـ وعند المولوية لقبهم المحب او العشيق.

١- «مسألة العروج في الكتابات الصوفية» قاسم السامرائي. ص ٢٢٠ .
٢- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطوّرها» ص ١٤٦.
٣- المصدر نفسه. الحاشية ص ١٤٧.
٤- سورة يونس آية ١٤ .

المريد.

قال الله، عزّ وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدوات والعَشي، يريدون وجهه.»[١]

المريد اسم فاعل من «اراد»، والارادة هي الصفة التي تطلق على هذا الفعل، وهي بدء طريق السالكين وهي اول منزلة للقاصدين الى الله عزّ وجل.[٢] والمريد هو من اراد الوصول الى معرفة الحق.

ويطلق على المريد اسم «السالك» لانه يسير في الطريقة حسب ارشادات شيخه، فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتى يصل الى غايته»[٣]. غايته الوصول الى الحق.

المريدون، يصفهم اهل الشام بالفقراء، استنادًا الى قوله تعالى «يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله، والله هو الغني الحميد»[٤]. وفي الحديث «يدخل فقراء امتي الجنة قبل الاغنياء بخمسماية عام.»

يقول القشيري: «المريد، على موجب الاشتقاق من له ارادة، كما ان العالم من له علم، لانه من الاسماء المشتقة. ولكن المريد، في عرف هذه الطائفة (الصوفية)، من لا ارادة له، فمن لم يتجرد عن ارادته، لا يكون مريدًا، كما ان الارادة هي التجرد لله في السلوك الى كمال التوحيد.»[٥]

١- سورة الانعام آية ٥٢.
٢- «الرسالة القشيرية» ص ٢٠١.
٣- «الطرق الصوفية في مصر» عامر النجار. ص ٢٦.
٤- سورة فاطر آية ١٥.
٥- «الرسالة القشيرية» ص ٢٠١.

المريد هو من اراد الوصول الى معرفة الحق او الى الله تعالى.

الوصول الى معرفة الحق في المنهج الصوفي، قائم على سلوك معيّن يبدأ بالارادة الذاتية للفرد الذي يريد الوصول مرورًا بتقنية معيـــنة على مستوى الارادة (تحرير الارادة من النفس وسلطانها بتسليمها الى الغير - المجاهدات والـريـاضـات) وصـولاً الى ادب الحضـرة الالـهـيـة، ويصـبـح المريـد مـؤهـلاً للتلقي.»[1]

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: ويمكن ان نلخص خطوات المريد نحو الطريق في خطوات ثلاث تبدأ بالتوبة «وتوبوا الى الله جميعًا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون.»[2]

والخطوة الثانية، هي اخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير في الطريق.

والخطوة الثالثة، هي التلقين، وهو تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر، نطقًا وبدءًا، اي مرحلته الاولى. ويتجدد التلقين كلما قطع المريد مرحلة من مراحل القرب من الله سبحانه وتعالى.[3]

يقول القشيري: «لا ينبغي للمريد ان يعتقد في المشايخ العصمة، بل الواجب ان يذرهم واحوالهم، فيحسن لهم ويراعي الله تعالى وحده فيما عليه من الامر، والعلم كافيه في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول(٤).»

١- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم ص ٧٢٣ .

٢- سورة النور آية ٣١ .

٣- كتاب السيد البدوي. ص ١٨.

٤- الرسالة القشيرية مجلد ٢ ص ٧٣٤.

واما الصوفي الشيخ حداد فيقول: «اذا اردت ايها المريد امرًا، وبدا لك ان تسأله عن شيء، فلا يمنعك اجلاله والتأدب معه عن طلبه منك وسؤاله عنه، وتسأله المرة والمرتين والثلاث، فليس السكوت عن السؤال والطلب من حسن الادب.»(١)

وعن صفات المريد يقول القشيري: «من صفات المريد التحبب اليه بالنوافل، والخلوص من نصيحة الامة، والانس بالخلوة، والصبر على مقاساة الاحكام، والايثار لامره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والتعرض لكل سبب يوصل اليه، والقناعة بالخمول(٢) وعدم القرار بالقلب الى ان يصل الى الرب.»(٣)

من اهم الاخلاقيات التي يجب على المريد ان يتحلى بها هي ادابه مع شيخه ويمكن ان نعددها بالآتي:(٤)

١. الطاعة المطلقة الظاهرة والباطنة، اي يمتثل المريد لرأي شيخه في الظاهر ولا يعترض عليه في الباطن.

٢. الجلوس بين يدي الشيخ بادب، وانتباه واحترام.

٣. اطلاع الشيخ على جميع احواله وما يشعر به من شك في بعض الامور التي لا يفهمها حتى يتسنى للمرشد هديه الى الصواب، وارشاده الى ما فيه الخير والابتعاد عن الشر.

٤. خدمة الشيخ الدائمة. فلا يردّ له طلبًا، بل يسارع الى ما يطلبه منه ليس للمريد الصادق همّ ولا ذهب ولا مال بالاضافة الى شيخه.

١- «الرسالة القشيرية» مجلد ص ٧٣٤ .
٢- «قوت القلوب» محمد بن علي ابن ابي طالب المكّي. مجّد ١ ص ١٩٤ .
٣- «الرسالة القشيرية» ص ٢٠٢ .
٤- «الفتح الرباني والفيض الرحماني» عبد القادر الجيلاني. ص ١٠٨ و١٠٩ . كتاب عبد القادر كيلاني، محمّد درنيقه.

٥. حسن الظن والثقة التامة في المرشد. اذا رأى المريد من تصرفات ينفر منها، قال في نفسه، ربما كان ذلك لجهلي وعدم ادراكي ما حدث.

عندما يصل المريد الى حال يمكنه مواصلة الطريق الى الحق، آن له عندئذ ان يفارق الشيخ وينقطع عنه حتى لا يكون في قلبه ما يشغله غير العبادة والفناء في حب الله، دون الاشتغال بمراعاة احد من الخلق ولو كان شيخ الطريق ومرشده. عند ذلك يبدأ المريد في التقرب الى الله بمجاهدات خاصة فيهديه الله الى السبيل الخاص اليه. وقال سبحانه وتعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا.(١)»(٢).

بعد وصول السالك الى الغاية ونهاية الطريق، عليه ان يتخلى من آثار النفس، خصوصًا الامّارة بالسوء لانها الخطر الكامن والمخفي على البقاء الالهي الذي ينشد، بعد الطريق الشائك المنهك الذي سلكه للوصول الى الحق.

قال الله عن النفس الامّارة بالسوء:

- «ما اصابك من سيئة فمن نفسك»(٣).
- «وما أُبرِّئ نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء»(٤).
- «ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بانفسهم»(٥).

١- سورة العنكبوت آية ٦٩
٢- «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان ص ١٥٥ (بتصرف).
٣- سورةالنساء آية ٧٩
٤- سورة يوسف آية ٥٣ .
٥- سورة الرعد. آية ١١ .

يقول الحكيم الترمذي عن النفس الامّارة بالسوء: «النفس السيئة طبعت على الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب فهي نافرة ناشزة كارهة»[١] ثم يقول: «وتركن الى الشهوات، وتفرح بالمطالب والراحات فرحًا يظل يجري في العروق كما يجري السم حتى يميت القلب.»[٢]

انتساب المريد الى الطريقة

في انتساب المريد الى الطريق الصوفي، يقول الشيخ ضياء الدين الكمشخانوي، صاحب كتاب جامع الاصول: «اعلم ان الاخذ والانتساب الى الطرق على اربعة اقسام: احدها، أخذ المصافحة والتلقين للذكر، ولبس الخرقة والعذبة للتبرك او للنسبة ايضًا فقط. وثانيها، اخذ رواية وهو قراءة كتبهم من غير حل لمعانيها وهو يكون للتبرك او للنسبة ايضا فقط، وثالثها، اخذ دراية وهو حل كتبهم لادراك معانيها كذلك فقط، ورابعها اخذ تدريب وتهذيب وترق في الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة والغناء في التوحيد والبقاء، وهو المراد العزيز وجوده، وعلى هذا المعول اكثر الطرق. ويصح الانتساب ايضًا بالاتباع والمشاركة، ولو في شيء يسير مع المحبة لهم، كتلاوة حزب من احزابهم».[٣]

انتساب المريد الى الطريقة يختلف بين طريقة واخرى، ليس بالجوهر، بل في طرق وقواعد الانتساب. وبما ان الطرق الصوفية كثيرة، ومعظمها فروع عن الطرق الرئيسية كالقادرية والشاذلية، فساحصر شرح طريقة الانتساب والطقوس التي كانت متّبعة في الطرق الرئيسية فقط:

١- «أدب النفس» ص ٢١٢.

٢- «آداب المريدين» ص ٣٨ .

٣- «عن الطرق الصوفية في مصر» التفتازي. مجلد ٢٥ ص ٦٩ .

البكتاشية

تبدأ بادخال المريد بواسطة شيخ الطريقة او خليفته بمراسم تدعى «اقرار عيني» وعندها يطلق لقب «محب» على المريد ويلقن المبادئ الاولية كالاوراد والاذكار. ثم بعد تقدمه في الدراسة والتلقين يلبس عمامة الطريقة، وبعد ان يكتمل علمه، تقام الحفلة النهائية حيث يرتدي الخرقة عن يد شيخه، ويعطى سجادة الصلاة، «والطبل والقدومي» والحزام، والعمامة والعصا.(١)

الشاذلية

انضمام المريد الى الطريقة يحصل بواسطة الشيخ او خليفته ويدعى «بالاخذ عنهم». تبدأ بالمصافحة ثم تلقينه الاوراد والذكر، وارتدائه الخرقة، والذؤابة وهي عمامة يتدلى طرفها فوق الاذن، وذلك دليل على انضمامه الى الطريقة. ثم تتلى عليه «الرواية» وهي تلقين مبادئ العلوم الصوفية، ويدرب على «الدراية» وهي درس المحارسات والقواعد الصوفية. والمرحلة الاخيرة هي «التهذيب» بواسطة المجاهدة التي تقود الى المشاهدة وتنتهي بالفناء بالتوحيد والبقاء به.»(٢)

المولوية

لهم طريقة خاصة ومختلفة لانتساب المريد الى طريقتهم، اذ تبدأ بارساله الى مطبخ الزاوية حيث يعمل تحت اشراف رئيس الطباخين لمدة الف يوم، وفي الوقت نفسه يلقن الاوراد والاذكار، وبعد انصرام مدة خدمته في المطبخ، يمتثل الى امتحان امام لجنة من الصوفية، يرأسها الشلبي فتقرر اهليته للانتماء الى الطريقة.

١- «الطرق الصوفية في الاسلام» Trimingham ص ١٨٨.

٢- «المفاخر الاولية من ذخائر الشاذلية» أحمد محمد عيّاد. ص ١١٦ .

الخلواتية

للخلواتية كذلك طريقة خاصة لانضمام المريد الى الطريق التي يريدها، حيث تبدأ بالتلقين فيهمس الشيخ في اذن المريد كلمة «لا اله الا الله» ويطلب منه اعادتها ١٠١ و١٥١ و٣٠١ مرة في اليوم، ثم يرسل المريد الى الخلوة ولكن عليه ان يبقى على اتصال بشيخه الذي يراقب تقدمه في علوم الصوفية. ثم في المرحلة الثانية يهمس الشيخ باذن مريده «يا الله، يا هو، يا حق، يا حي، يا قيوم ويا قهّار ثم يرسله الى الخلوة لمدة ستة اشهر او اكثر، وبعد ذلك يعتبر انه جاز ما يدعونه «تكميل السلوك» ويطلق عليه لقب «السالك».

القادرية

التقليد المتبع عند القادرية يبدأ بان يجلس المريد ملاصقًا ركبتيه ركبتي الشيخ واضعًا يده اليمنى بيد شيخه، ثم يقرأ الفاتحة، ويقول الشيخ لمريده، استغفر الله العظيم الذي لا اله الا هو، الحي القيوم. واتوب اليه واشهد ان الطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا، وان العهد عهد الله ورسوله، وان اليد يد شيخنا، الشيخ عبد القادر الجيلاني، وعلى ذلك، باني احل الحلال واحرم الحرام، والازم الذكر والطاعة بقدر المستطاعة، ورضيت شيخنا المشار اليه شيخًا لي، وطريقته طريقة لي، والله على ما نقول وكيل.

ثم يردد الشيخ ثلاث مرات، يا واحد، يا ماجد، انفحنا بنفحة منك، ثم يقرأ آية المبايعة، وهي قوله تعالى «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله، يد الله فوق ايديهم[١]».

١- سورة الفتح، آية ١٠.

ثم يتلو الشيخ على مريده كلمة التوحيد، لا اله إلاّ الله، ويوصيه بالوصايا اللازمة من تقوى الله وطاعته، ثم يقدم الشيخ للمريد كأسًا من الماء ويقرأ «سلام قولا من رب رحيم»[١] «وتنزل من القرآن «ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»[٢] ثم يقرأ الفاتحة وسورة الخلاص ثلاث مرات، ويشرب المريد الكأس، ومن وقت ذاك يُعَدّ قادريًا[٣].

الخرقة والمرقعة

من انتساب المريد الى الطريقة انبثق العهد والبيعة. فالعهد هو رباط بين رجلين تحابا في الله وتعاهدا على طاعته «انها لبيعة الله وفي الله وبالله»[٤]. ومن اقواله، عزّ وجل «لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم.»[٥]. ثم قال سبحانه وتعالى. «إن الذي يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق ايديهم»[٦]

الخرقة* دليل المبايعة، والدخول في الطريقة والارتباط بين الشيخ (المرشد) والمريد، والدليل على تسليم المريد نفسه لشيخه كي يرشده ويهديه ويعرفه الطريق الى الحق فيستسلم لرأيه في جميع تصرفاته ومسلكه، فيكون لبس الخرقة دليلاً للتسليم والاقرار من المريد بدخوله في حكم الشيخ ومبايعته التامة.

١- سورة يس، آية ٥٨ .
٢- سورة الاسراء آية ٨٢.
٣- الفيوضات الربانية في المآثر والاوراد القادرية، الحاج سعيد القادري، ص ٢٩ (بتصرف)
٤- «الطرق الصوفية في مصر» عامر نجّار، ص ٢٨.
٥- سورة الفتح، آية ١٨.
٦- سورة الفتح، آية ١٠.
* رداء من الصوف يغلب عليه اللون الأزرق.

يقول الدكتور عامر النجار: «والبيعة اشد واوثق من الايمان.» ويستند بقوله تعالى «واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً.[١]

يقول بعض المفكرين المسلمين، ان الصوفية تعتمد في لبس الخرقة على حديث نبوي، ويؤكد ذلك ابو الحسن الهويجري بقوله: «ان لبس المرقعة شعار المتصوف، ولبس المرقعات سنّة، ومن هنا قال الرسول «صلعم» «عليكم بلبس الصوف تجدوا حلاوة الايمان في قلوبكم.» ثم يستطرد بقوله: «فاذا لم يكن المريد يملك الايمان الحقيقي، فانه لن يشعر قط بحلاوة، وتكون خرقة الصوف مجرد خرقة الصوف لا غير، لا معنى ولا جوهر لها. ولهذا يقول الصوفية: - وشروط لبس المرقعة كلبس الكفن، لانهم يقطعون الامل من لذة الدنيا، ويطهرون قلوبهم من راحتها، ويبقون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله»[٢].

اما ابن زروق فيقول: «لباس المرقعة اعذر على دفع الكلف، واذهب للكبر، واقرب للحق، مع الاقتداء بعمر، رضي الله عنه، اذ لبسها مع وجود غيرها، لصلاح قلبه، ألا تراه حين أُلبس غيرها قال - انكرت نفسي - [٣].»

عندما يخلع الشيخ الخرقة على المريد يعتبر ذلك رمزًا على ان المريد قد انخلع من ارادة نفسه وفني في الشيخ و لم يعد له في نفسه اختيار.[٤]

١- سورة النحل، آية ٩٢ .

٢- «كشف المحجوب». ص ٢٥٢ .

٣- «قواعد التصوف» ص ٨٨.

٤- «نشأة الفلسفة الصوفية»، عبد الحميد فتاح، ص ١٤٧ .

ويقول نيكلسون: «وللصوفية في إلباس المريد الخرقة فلسفة معينة، ولبسها يرمز الى جملة امور: منها الانسلاخ من الارادة الذاتية بالفناء في ارادة الشيخ[١].

ويقول شهاب الدين السهروردي عن لبس الخرقة: «ولا يكون هذا إلاّ لمريد حصر نفسه مع الشيخ وانسلخ من ارادة نفسه وفني في الشيخ بترك اختيار نفسه. فالتآلف الالهي يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بترك الاختيار.[٢]»

ويقول ابن عربي عن الخرقة الصوفية: «فلم نزل نلبسها للمريد كما لبسناها، فننزع عن المريد جميع الاخلاق الردية مع الخرقة التي نلبسها له.»[٣]

بعض شيوخ الطرق يرجعون بسلسلة خرقتهم الى الامام الاول علي بن ابي طالب. ويقول ابن خلدون في مقدمته: «ان الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع، حتى ان الصوفية، لما اسندوا الناس خرقة التصوف ليجعلوه اصلاً لطريقتهم ونحلتهم، رفعوه الى علي رضي الله عنه.»[٤]

كلام ابن خلدون والهويجري وغيرهما من المؤرخين في اسنادهم الخرقة الصوفية الى الرسول الكريم وبعض صحابته به مبالغة شديدة وبعيد عن الواقع التاريخي ومنافٍ للحقيقة. فالرسول الكريم «صلعم» لم يكن، بالرغم من زهده وتعففه عن المادة، متقشفًا ومن اقواله «اذا من الله عليك بنعمة، يريد ان يراها عليك.» والمرقعة ليست نعمة، والرسول لا يحتاج الى التقشف وقهر النفس لكسب رضى الله تعالى. اما عمر بن الخطاب، فقد كان زاهدًا متقشفًا ويُعد من الزهاد التقليدين المسلمين أبو عبيدة عامر بن الجرّاح، سلمان الفارسي، وابو ذر

---

١ – «الفلسفة الاسلامية» منهج وتطبيق ص ٧٨.

٢ – «عوارف المعارف»، ص ٧٠.

٣ – «النور المظهر» ص ٤٠.

٤ – «مقدمة ابن خلدون» ص ٤١٣ .

الغفاري وغيرهم، ولكن الزهد والتقشف لا يعنيان التصوف، الذي من فروضه الرئيسية، عبادة الله المباشرة من دون وسيط، وعمر كان يعبد الله بواسطة القرآن الكريم وحبه لرسول الله. اما الامام علي، الذي يرجعون معظم سلاسل الشيوخ اليه، فلم يعرف عنه الزهد والتقشف وشيعته لا تحبذ التصوف بل ينهون عنه وبعضهم يعده بدعة كفر.

الخرقة ليست عقيدة، بل دليل حسي على انضمام المريد الى الطريقة، كما ان لبس العمامة دليل على علماء الدين المسلمين، ولبس الصليب يدل على النصارى، والقلنسوة على اليهودية. فالخرقة دليل وليست عقيدة.

في القرن الحادي عشر ميلادي اخذت المرقعة في الانتشار بدلا من الخرقة،خصوصًا في مصر وبلاد الشام، وذلك في العهد الايوبي بعد ان حل المذهب الشافعي السني محل العقيدة الاسماعيلية الشيعية. شجع الايوبيون الصوفية على الاستيطان في البلاد التي كانت تحت حكمهم، كما بنوا لهم الخوانق والزوايا.

يقول الهويجري (توفي عام ٤٦٥هـ): عندما ينضم المريد الى الطريقة، يفرض عليه اداب علمية وممارسات واوراد لمدة ثلاث سنين. السنة الاولى تكرس لخدمة الناس، والثانية لخدمة الله، والثالثة لمراقبة نفسه. بعد تخطيه هذه السنوات بنجاح تخلع عليه الخرقة، وهي كناية عن خرقة من الصوف تشبه الكفن، وبذلك يكون المريد استعفى عن ملذات ومتع الدنيا وكرس حياته لخدمة الله.»(١)

يوجد ثلاثة عناصر جوهرية في تأهيل المريد للانضمام الى الطريقة. تلقين الذكر، اخذ العهد ولبس الخرقة.

١- «كشف الحقائق»، ص ٥٤ (بتصرّف)

التلقين هو ترديد الكلمة للمريد، وهو ممارسة اولية للاوراد واساس الذكر. واخذ العهد، هو الميثاق لعقد البيعة التي تمثل قسمًا بالطاعة للشيخ الذي يعتبر القدوة التي سيعتنق منهجها والمبايعة تكون بالمصافحة باليد.

اما اخذ الخرقة، موضوع هذا الفصل، فقد اسند الى قوله تعالى «ولباس التقوى ذلك خيرٌ ذلك من آيات الله لعلهم يذكَّرون.»[١]

والخرقة كان يشار اليها. خرقة «الارادة» عُرفت بالمشرق وليس في المغرب، حيث كانت الخرقة تمثل لبس الفقراء المتسولين، وليس رمزًا للتصوف، الاّ عند قلة معظمهم من الخلواتية. وخرقة «التبرك» التي تشير الى سلسلة البركة، وهي تسلسل الشيوخ من مؤسس الطريقة حتى رسول الله الكريم او احد الصحابة المقربين، كابي بكر، وعمر وعلي. بالاضافة الى الخرق الرئيسية، برزت طرق ثنوية، كخرقة الصحبة، والخدمة، والتعليم والتربية.[٢]

زيادة عن الخرقة، كان صوفية فارس وتركيا يرتدون الحزام يشدون به خصرهم ويسمونه «ربط الاحزمة». اما الصوفية العرب فلم يُعرف عنهم ارتداء الاحزمة.

كانت عمائم الصوفية تختلف بالشكل واللون. فالعمامة البكتاشية كانت باثني عشر طية، والقادرية بستّ طيات، اما المولوية فكانت من اللبّاد مخروطة الشكل. اما اللون، فعرفت القادرية في تركيا باللون الاسود وفي مصر كان اللون الاخضر سائدًا. «وكانت السبحة، على اختلاف انواعها وعدد حباتها، تعتبر بركة ورمزًا لاهمية مقام شيخ الطائفة، الذي يرثها عن سلفه، وتحفظ بصندوق عند «شيخ السبحة.»[٣]

١- سورة الأعراف، آية ٢٦ .

٢- «الطرق الصوفية في الاسلام»، Trimingham، ص ١٩٣ (بتصرف)

٣- «مدخل الشرع»، محمد العبدري مجلد ٢ ص ٨٣

واجبات الصوفي في سلوكه الى الحق

المجاهدة

للقضاء على شرور النفس وآفاتها ونزعتها الى السوء ومحاولاتها اقفال الطريق وانهاك السالك، فقد وجب على السالك العمل على مجاهدتها ليخلص من صفاتها المذمومة والقضاء على شرورها وفسادها ويرتفع عن مرتبة الامر بالسوء. قال سبحانه وتعالى «واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى»[١]، فالمجاهدة بالنسبة الى السالك الذي يريد الوصول الى الحق فرض وسنة.

يقول ابو حامد الغزالي: «تقوم المجاهدة على اساس معرفة النفس كوسيلة مؤدية الى معرفة الله، فبعد ان يتكشف للمرء ان زمانه يقسره على الانشغال بامور الدنيا، لا بد له من التزام العزلة والتفرد وذكر الله، هنا يستطيع ان يهتدي لمثل اعلى في هذه المجاهدة وبحقيقة لا مفرّ منها. ان من عرف نفسه فقد عرف ربه.[٢]»

يقول عبد القادر الجيلاني: «من اراد سلوك طريق الحق فليهذب نفسه قبل سلوكه، فبدوام المجاهدات تنفتح عيناها وينطبق لسانها.[٣] ويقول سبحانه

١- سورة النازعات، الآيتان ٤٠ و٤١ .
٢- «كتاب الغزالي»، عبد الامير الأعسم مجلد ٢ ص ٩٧ .
٣- «الفتح الرباني» ص ١٦٦ .

وتعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»(١) فالسالك عليه ان يطرق ابواب الحق بمجاهداته حتى يلجه بهدي الله تعالى واعانته على الدخول الى الحضرة الالهية. ويقول الشيخ الجيلاني: «من لم يكن من بدايته صاحب مجاهدة فلن يجد في الطريقة شيئًا.(٢)»

هناك سبل عدّة للمجاهدة منها: قطع العادات المتمكنة من النفس حين يكون صاحبها اسيرًا «للعادة» ذليلاً لها لا يملك من السيطرة على ما الفته نفسه، كالانغماس في الملذات الجسدية، والنهم في الاكل، ومخالفة الشرائع. ثم الدوام على الرياضة واصولها، الجوع – الصمت – السهر – والخلوة. ويقول سهل التستري: «ما صار الابدال ابدالاً إلاّ باربع خصال: بأخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس.»(٣)

اما الشيخ الجيلاني، فيميز بين نوعين من المجاهدة. جهاد الظاهر، فهو جهاد الكفار المعاندين لله تعالى ورسوله وفيه قتال وحروب. وجهاد الباطن، وهو جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان والتوبة عن الزلاّت والثبات عليها، وترك الشهوات المحرمات. والجهاد الباطن اصعب، لان قطع مألوفات النفس ودفعها الى امتثال الاوامر واجتناب النواهي اشد وقعًا والمًا من جراحات الشهيد.(٤)

ويقول ابو علي الدقاق: «من زيّن ظاهره بالمجاهدة، حسّن الله سرائره بالمشاهدة، واعلم ان من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد هذه الطريقة شمعة تنير له الطريق».(٥)

١– سورة العنكبوت، آية ٦٩ .
٢– «الغنية لطالبي طريق الحق»، مجلد ٣ ص ١٣٢١ .
٣– «احياء علوم الدين». الغزالي مجلد ٣ ص ٧٥ . «قوت القلوب» المكي ص ٩٥ .
٤– «الفتح الرباني والفيض الروحاني» ص ٨٤ .
٥. الرسالة القشيرية. ص ٩٨.

وطريق المجاهدات طويل شاق، فالسالك كلما جاهد نفسه وكسر حدتها وقتلها بسيف المخالفة، احياها الله مرة اخرى، فتعود لتنازعه وتجنح لامانيها، فيعود هو الى المجاهدة مرة بعد مرة، ويظل السالك في هذه المعاناة الطويلة التي وصفها النبي بالجهاد الاكبر(١) فيكتب له ثواب المجاهدين دائمًا.(٢)

وابو علي الروذباري يقول: «واعلم ان اصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الاوقات»(٣)

في نتائج التخلي عن المجاهدة وتسلط النفس الامّارة بالسوء، يقول ذو النون المصري: «انما دخل الفساد على الخلق من ستة اشياء. الاول: ضعف النية بعمل الاخرة والثاني: صارت ابدانهم رهينة لشهواتهم. والثالث: غلبهم طول الامل مع قرب الاجل. الرابع: آثروا رضا المخلوق على رضا الخالق. والخامس: اتبعوا اهواءهم وتركوا سنة نبيهم وراء ظهورهم. والسادس: جعلوا زلات اللسان حجة لانفسهم ودفنوا كثيرًا من مناقبهم.»(٤)

وفي «الغوثية»* يجعل الامام الجيلاني من المشاهدة السبيل الاوحد لانوار المشاهدة وتبشر اهل المجاهدات «طوبى لعبد مال قلبه الى المجاهدة، وويل لعبد مال قلبه الى الشهوات» ثم يقول: «من حُرم المجاهدة فلا سبيل له الى المشاهدة، فمن اراد الدخول في بحر المشاهدة، فعليه باختيار المجاهدة، لان المجاهدة بذر المشاهدة.»(٥)

١- الحديث الشريف. «رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الأكبر»، يعني، جهاد النفس.
٢- «فتوح الغيب» الجيلاني ص ١٥٠.
٣- الرسالة القشيرية، ص ٩٨.
٤- الرسالة القشيرية. ص ١٠١.
* المشاهدة هي هدف السالك من سلوك الطريق لمشاهدة الحق.
* «الغوثية» مقالة الامام الجيلاني: «هم الافراد من عباد الله مهيمون في حبّه، لا يطلع الحق تعالى على أحوالهم أحدًا من أهل الدنيا، ولا أحدًا من أهل الآخرة، لا من البشر ولا من الملائكة، خلقهم الله لنفسه لا لشيء سواه، فليس لسواه فيهم نصيب.» «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان ص ١٦٧ (بتصرّف).
٥- «مقالة الغوثية». ديوان الجيلاني.

يقول الامام الجيلاني: «وليس أشق على النفس الأمارة من أمور العبادة، فعلى السالك ان يبدد اهواء نفسه وتعلقاتها، بكل شديد من العبادات، حتى تفيق من غيّها وتلتذ بالطاعات وتسقط عنها مشقة التكاليف الشرعية حين تتذوق لحقائق الايمان»[1].

وعن ضرورة المداومة في المجاهدات يقول الامام الجيلاني: «لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم، فبدوام المجاهدات تنفتح عيناها وينطبق لسانها، ويزول خبلها وجهلها، وهذا ما يجيء بمجاهدة ساعة بل يحتاج دوام ساعة بعد ساعة، ويوم بعد يوم وسنة بعد سنة»[2].

الرياضة

الرياضة هي رياضة النفس عند الصوفية، اي منعها من الانفعالات والنزوات الفاسدة. ويقول الحكيم الترمذي: «الرياضة مشتقة في اللغة من «الرض» وهو الكسر. فالنفس اعتادت اللذة والشهوة والهوى، فاذا فُطمت عن عادتها انكسرت عن الالحاح والمنازعة والحنين الى الشهوات»[3].

١- «الغنية لطالبي طريق الحق»، ص ١٨٢ مجلد ٢.
٢- «الفتح الرباني»، ص ١٦٦ .
٣- «احياء علوم الدين»، الغزالي مجلد ٣ ص ٧٥ .

اما الامام الجيلاني فيصف السالك الصادق: «بانه لا يأكل إلاّ عند الفاقة (الجوع) ولا ينام إلاّ عند الغلبة (السهر) ولا يتكلم إلاّ عند الضرورة (الصمت)»[١] ثم يقول لهذا السالك: «عليك بالخلوة عن النفس، ثم بالخلوة عن الخلق، ثم بالخلوة عن الدنيا، ثم بالخلوة عن الاخرة ثم بالخلوة عما سوى الله، عزّ وجل.»[٢]

الكرامات والخوارق

الكرامة هي الامر الخارق لما تعود عليه البشر ان يجدوه مقبولاً عقلاً ومطابقًا لقوانين ونظم الطبيعة والحياة. غير ان هذا الامر الخارق لما تعود عليه البشر لا يقترن بدعوى النبوة ولا ايحاء لها، ولا سحر دجال وانما يخص الله اولياءه العارفين بها. وهو القادر الفعال لما يريد.[٣]

رفض المعتزلة، اهل العدل والتوحيد والمنادين بالعقل المطلق، الكرامات والخوارق وقالوا: «انها تفضي الى السفسطة لاقتضائها انقلاب الجبل ذهبًا ابريزًا والبحر دمًا غبيطًا ونحو ذلك.» كما قالوا: «انها تسد باب اثبات النبوة لاحتمال كون المعجزة اكرامًا لا تصديقًا، فيطوى بساط النبوة رأسًا، وانها لا تتميز عن السحر.»[٤]. والعقل يرفض السحر.

١- «الغيثية في الطريق الى الحق»، ص ١٨٢ .

٢- «الفتح الرباني» ص ٧٥.

٣- «الطرق الصوفية في مصر». عامر النجار ص ٤٨.

٤- «الطرق الصوفية في مصر». عامر النجار ص ٤٩ .

المعتزلة عُرفوا برفضهم الجازم ما لا يقبله العقل. وقولهم المشهور: «نرفض حتى الايمان اذا لم يقبله العقل.» اثار جدلاً كبيرًا مع اصحاب النص، خصوصًا الاشعرية والحنابلة، الذين اتهموهم بالكفر والالحاد، فالامان ركن اساسي في الاسلام. وينسبون الى الامام الاول علي بن ابي طالب قوله: «اذا اشكل عليك فهم ما انزله تعالى في كتابه، عليك بالايمان فهو طاعة المولى عزّ وجل.» وقال ابو الحسن الاشعري[١]: «العقل عند المعتزلة يؤثر على الدين ويستولي الشك على الفكر الديني فيزعزع يقين المسلمين بمعتقداتهم الدينية.»[٢]

ميّز المسلمون بين الآية والمعجزة والكرامة، وقالوا فيها: «ان الآيات لله تعالى، المعجزات للانبياء، والكرامات للأولياء وللاخيار من المؤمنين.»[٣]

يقول ابو بكر الكلاباذي: «فالذي للانبياء معجزات وللاولياء كرامات تجري عليهم من حيث لا يعلمون. والانبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون وباثباتها ناطقون، لان الاولياء يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة، والانبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها لانهم معصومون.»[٤]

أما الشوكاني فيقول: «بل الواجب عليه (الولي) ان يعرض اقواله وافعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لها فهي حق وصدق وكرامة من الله سبحانه، وان كانت مخالفة لشيء من ذلك، فليعلم انه مخدوع ممكور به، وقد طمع فيه الشيطان فليس عليه.»[٥]

---

١ – «مقالات الاسلاميين واختلاف المصلّين.» تحقيق هلموت ريتر «H. Ritter».
٢ – «تذكر يا مروان». سليمان علم الدين. ص ٣٠٩.
٣ – «التصوف». اسعد السحمراني. ص ١٤٩.
٤ – «التعرف لمذهب اهل التصوف» ص ٤٦.
٥ – «قطر الولي على حديث الولي» ص ٢٤٩.

اما زيارة القبور وطلب الشفاعة او الحوائج فهي بدعة لم يشرّعها الرسول، ولا فعلها الصحابة، لا عند قبر النبي ولا عند غيره. وفي حديث للرسول الكريم «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد.»[١]

«اعظم كرامة يهبها الله لمخلوق من مخلوقاته هي كرامة الهداية، والتوفيق في حياته واعماله.»[٢] وأمّا القشيري فيقول: «من أجل الكرامات ان يكون للاولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة عن المعاصي والمخالفات.»[٣]

اشرنا سابقًا الى ان المعتزلة يرفضون القول بحدوث الخوارق والكرامات عند الاولياء، لان العقل يرفض كل ما لا يقبله او يشك في حدوثه او صحته، فالخوارق والكرامات هي من السحر والعقل ينكر السحر ويعتبره شعوذة مارسها بعض الصوفية للتأثير على المؤمنين الصادقين سليمي الطوية للقبول بولايتهم لانهم يعتقدون ان الكرامات منّة من الله تعالى. وقيل عن معتزلي معروف انه قال: «ارفض ان تنقلب العصا الى حية حتى ولو نهشتني.»

الولاية

ظهرت كلمة الولاية بصورتها المذهبية عند الشيعة في حديث الغدير عندما قال الرسول الكريم «الست اولى منكم من انفسكم؟ قالوا: اللهمّ بلى. قال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.». كلمة المولى تشير الى قوله تعالى «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم.»

١- «التصوف»، اسعد السحمراني. ص ١٥٨.

٢- «الطرق الصوفية في مصر» عامر النجار. ص ٤٨.

٣- «بستان العارفين» الامام ابي زكريا النووي ص ٦٠.

يقول هنري كوربان: «فلما ان دور النبوة تختتم بخاتم النبيين، كذلك فإن الولاية، وهي التي تحاذي النبوة وتماشيها من حقبة لحقبة، فتختتم الولاية بشخص الامام الاول، وتختتم الولاية المحمدية التي تمثل باطن الباطنيات السابقة، بشخص الامام الثاني عشر* صاحب الزمان، وامام هذا الزمان.»(١).

ان لعلم النبوة متممًا هو علم الامامة، وله تعبير مباشر هو الولاية. ويمكننا القول ان الولاية هي باطن النبوة، فاولياء الله هم احباء الله واصحاب الحكمة الالهية. وانهم هداة روحانيون للانسانية جمعاء ويهدون من يستجيب لهم بامانة الصديق الوفي، بالمعرفة الصادقة والمحبة. «اذن دور الولاية هو دور الامام يعقب النبي، اي الحقيقة تتلو الشريعة، والباطن يعقب الظاهر»(٢).

ينفي الامام موسى الصدر القول ان الولاية هي باطن النبوة وان ابتداء الولاية، نهاية دور النبوة فيقول: «فهذا رأي خاص لا يعترف به الشيعة كمذهب ولا الاسلام كدين، وان كان القائل به بعض الصوفية او علماء الفلسفة. ان الولاية سلطة الهية وهي تحتاج الى النص، حسب رأي الشيعة، وقد ورد النص بذلك، وهي مقام عظيم لا يبلغه إلاّ من يمثل صاحب الرسالة قولاً وعملاً وفكرًا ومن امتحن الله قلبه، من ينسى نفسه في ذات الله ولصالح الاسلام، اي من عاش الاسلام بكل وجوده.»(٣)

١- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ١٢٥.

* الامام الثاني عشر هو الامام محمد ابن الامام حسن العسكري الذي اختفى عام ٢٦٠ هـ في مدينة سامّراء (سر من رأى) في يوم وفاة والده الامام حسن العسكري. يقول بعض المؤرخين: عند وفاة الامام حسن العسكري لم يكن عنده عقب الاّ محمد الذي توفي بعده، وبما ان التقاليد الشيعية تقول ان الامامة تكون بالنص من الاب الى الابن، خاف العلماء واصحاب الرأي ان تنتهي الامامة بموته فقالوا بغيبته، وانه سيرجع وانه كان موجودًا بالماضي وهو موجود في المستقبل مستورًا وهو غير منظور ولكنه دائم الحضور وبهذه الغيبة أمنوا استمرارية الامامة (كتاب تذكر يا مروان) ص ١٣٨.

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». هنري كوربان ص ٧.

٣- المصدر نفسه. ص ٢٢.

بعض مفكري الصوفية يرفض فكرة ان الولاية تعقب النبوة، وبذلك توافق مع قول الامام موسى الصدر، اذ يقولون ان النبوة اسلوب خاص محدود وسلبي لعلاقة الله بالانسان، والولاية هي استقرار فعّال وذو حيوية دائمة. بما ان كل رسول نبي، وكل نبي والٍ، إذن، كل رسول والٍ مما يطغى على الانبياء والرسل الحيوية الدائمة والنشاط[١].

في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى الولاية. قال سبحانه وتعالى:

«أمِ اتخذوا من دونه اولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.»[٢]

«وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرًا.»[٣]

«واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم المصير.»[٤]

«والله وليّ المتقين.»[٥]

«ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.»[٦]

«ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا.»[٧]

«من اطلق فكرة الولاية كان الصوفي المشهور الحكيم الترمذي في كتبه «علم الاولياء»، «وسيرة الاولياء»، «وختم الاولياء»، حتى قيل ان تصوف الترمذي ليس سوى نظرية متكاملة في الولاية.»[٨]

١- «الطرق الصوفية في الاسلام» Trimingham. ص ١٣٤.
٢- سورة الشورى. الآية ٩.
٣- سورة النساء الآية ٤٥.
٤- سورة الحج. الآية ٧٨.
٥- سورة الجاثية. الآية ١٩.
٦- سورة يونس الآية ٦٢.
٧- سورة الكهف الآية ١٧.
٨- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١٢٣٣ (بتصرف).

الولاية هي مرتبة من مراتب القرب الالهي، ليتولى فيها الحق من حيث اسمائه الحسنى، التي هي ارباب العبد. هذا القرب الالهي هو في الواقع، قرب نسبة خاصة، فالوالي يخص الحق هنا وينتسب اليه، انه للحق وليس لذاته، وكذلك الحق يتولاه.[1]

ويقول ابن عربي: «فقد يكون بشيرًا ونذيرًا، ولكن لا يكون مشرعًا. فان الرسالة والنبوة والتشريع انقطعت، فلا رسول بعد محمد ولا نبي، اي لا مشرع ولا شريعة[2] ثم يقول: «اما اليوم، فلا يصل الى درجة النبوة، نبوة التشريع احد، لان بابها مغلق والولاية لا ترتفع دنيا ولا اخرة، ومن اسمائه الولي وليس من اسمائه نبي ولا رسول، فلهذا انقطعت النبوة والرسالة لانه لا مستند لها في الاسماء الالهية، و لم تنقطع الولاية فإن الاسم الولي يحفظها.[3]»

في القرن الاول هجري كانت مفاهيم الولاية مرتبطة بالنص القرآني. وفي الحديث الشريف الذي ينسب الى مالك الاشجعي «ان الاولياء هم نفر من ابناء الناس ونزّاع القبائل، تحابوا في الله وتصافوا في الله، توضع لهم يوم القيامة منابر من نور، يفزع الناس وهم لا يفزعون فهم اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.»

يقول داود القيصري في شرحه على «التائية» الكبرى: «اعلم ان الولاية مأخوذة من الولي، وهو القرب. ولذلك يسمى الحبيب وليّا، وهي عامة وخاصة. العامة حاصلة لكل من آمن بالله وعمل صالحًا، والخاصة هي الفناء في الله ذاتًا وصفة وفعلاً. وهي عطائية وكسبية. فالعطائية تحصل بالانجذاب الى الحضرة الرحمانية قبل المجاهدة، والكسبية ما يحصل بالانجذاب اليها بعد المجاهدة.»[4]

١– «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد حكيم. ص ١٢٣٤.
٢– «الفتوحات المكيّة». مجلد ٢ ص ٣٧٦.
٣– المصدر نفسه. مجلد ٣ ص ١٠١.
٤– «شرح مقدّمة، التائية، الكبرى»، مخطوط ايا صوفيا رقم ١٨٩٨، الملحق ٤٩٤.

من حديث رواه البخاري: «من عاد لي وليًا فقد اذنته بالحرب، وما تقرب اليّ عبدي بشيء احب اليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى احبه.»(١)

يقول الدكتور سحمراني: «إن الولي هو من أدّى حقوق الله تعالى، وحقوق العباد كاملة، وزاد عليها طاعات ونوافل، وكان من كل افعاله وجوارحه مشغولاً بالعبادة فلا يصغي بسمعه إلاّ الى ما يرضي الله تعالى، ولا يرى ببصره إلاّ ما امره به.»(٢)

يقول ابن تيمية: «ليس لاولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الامور والمباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، اذا كان كلاهما مباحًا، ولا بحلق شعر او تقصيره او ضفره اذا كان مباحًا. كم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء.(٣)

يقول ابي منظور: «فالولاية في معاجم اللغة لها تعريفات لا تنتهي، اقربها الولاية هي تملك الاشياء والتصرف، فكان من اسمائه تعالى – الولي والوالي – لانه تعالى المتولي امور الخلق، المالك المتصرف في الاشياء جميعًا.(٤)

فرّق الحكيم الترمذي* بين «اولياء حق الله» «واولياء الله.» فبرغم ان كليهما داخل في دائرة الولاية لله، إلاّ ان «ولي حق الله هو القائم برعاية الحقوق وحفظ الجوارح وجهاد النفس.» اما «ولي الله» فهو الذي فتح له الطريق واشرق النور في قلبه بحكم «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.(٥)»

١– «التصوف»، أسعد السحمراني ص ٢٢.

٢– المصدر نفسه

٣– «الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان». ص ٥٧.

٤– لسان العرب مجلد ٣ ص ٦٨٤.

* هو الامام محمد بن علي بن الحسن عبد الله الترمذي الحكيم. توفي عام ٣٢٠هـ.

٥– سورة العنكبوت. آية ٦٩. «ختم الاولياء» ص ١١٧.

ويعتبر الصوفية ان من حقائق الولاية حراسة الكون. ولذلك يقول عمّار البدليسي: «ولها مقام الحراسة والحفظ فهي على اي امر سلّطوها اظهرت قوتها واتمت فعلها واتقنت حفظها وحراستها»[1]

يقول الامام الجيلاني عن الولاية «البدلية»: «البدلية مرتبة في الولاية. فان كان عموم اهل الولاية يأخذون بامر الله بشهادة الكتاب والسنة، فالخصوص عن الابدال يأخذون بفعل الله تفويضًا وتسليمًا. ومن هنا سمي الابدال ابدالاً، فهم الذين تبدلت آراؤهم بارادة الحق، عزّ وجل، فلا يختارون مع اختياره تعالى اختياراً.»[2]

وفي تفسير فضل النبوة على الولاية، يرى الامام الجيلاني ان النبوة كلام الهي ووحي فحذر على ان من يرده فهو كافر. اما الولاية فهي حديث رباني والهام لمن تولاهم فمن ردّه لم يكفر وانما يخيب ويحرم من بركة اهل الله واحبائه، كذلك فالانبياء هم مصادر الحق، او الاولياء فهم مصادر الصدق.[3]

اختلف بعض مؤرخي المسلمين في عصمة الولي. فالدكتور الشيبي في ربطه التصوف والتشيع قال: «من الامور التي لم يلتفت اليها الباحثون توافق المتصوفة والشيعة في اسباغ العصمة على الاولياء والائمة.[4]»

١- «صوم القلب»، مخطوط برلين٣١٣٣ ورقه ٢٠ أ.
٢- «الفتح الرباني» ص ٨.
٣- «الغنية لطالبي طريق الحق» مجلد ٣ ص ١٢٧٦.
٤- «الصلة بين التصوّف والتشيّع» ص ٣٨٥.

اما الامام الجيلاني، فقد فرّق بين العصمة في الارادة والهوى، والعصمة في وقوع الذنب، فقال: «بان الملائكة وحدهم هم المعصمون في الارادة، والانبياء وحدهم هم المعصمون عن الهوى وبقية الخلق لم يعصموا منهما، غير ان الاولياء يحفظون عن الهوى والابدال منهم عن الارادة[١]».

وبذلك ينكر الامام العصمة على الاولياء ويقول: «الاولياء هم ابدال الانبياء، وخلفاؤهم في الخلف وليس للابدال عصمة.[٢]»

الاحزاب والاوراد والذكر

من ابرز النشاط الصوفي كانت الاحزاب والاوراد والذكر. وكانوا يعتبرون ان اوراد واحزاب الشيخ اهم لوازم الطريق وهي المسلك الصحيح الذي يجب اتباعه للوصول الى الحق.

الاحزاب

الاحزاب عند الصوفية، هي مجموعة من الادعية التي يفرضها الشيخ لاتباعه للذكر والاستغفار لاول مقام وهو التوبة. والقصد من ترديد الحزب، دوام حضور المريد مع الله، عزّ وجل، وتتضمن الاحزاب العديد من

١- «فتوح الغيب» ص ١٥.
٢- «الفتح الرباني» ص ٦١.

الابتهالات والدعاءات صيغت بعبارات واضحة سهلة الفهم والحفظ معبّرة عن صفاء القلوب والايمان والتعلق بما جاء بالكتاب والسيرة الشريفة. «الفرق بين الحزب والورد هو، ان الورد يقرأ في اوقات منتظمة، فيقال: اوراد النهار واوراد الليل. اما الحزب فليس لقراءته وقت مخصوص.[1]»

الاوراد، الورد والوارد

يقول الشاذلي: «كل ذكر او دعاء يسمى وردًا اذا كان مربوطًا بوقت معيّن. والحزب والورد كلمتان مترادفتان في المعنى مختلفتان في اللفظ؛ واحزاب القرآن اولى للمسلم من كل ورد في الاحزاب، فيقول سبحانه وتعالى «ان لك في النهار سبحًا طويلاً واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً»[2]

ويقول جمال نصّار حسين: «الاوراد هي صلة المريد بشيخه الذي هو باب الوصول الى الحضرة الالهية. فاذا انقطع المريد عن الاوراد، انقطع عنه الامداد، اي القوة الروحية لشيخه.» ثم يقول: «الطريقة الكسنزانية تتضمن اورادا موقوتة، اي يجب اقامتها في كل وقت على ان لا تتداخل مع اوقات العبادات الموقوتة.»[3]

وفي تعريفه الورد، يقول ابو طالب المكي: «اعلم ان الورد اسم توقت من ليل ونهار يرد على العبد متكررًا، فيقطعه في قربه الى الله ويرى فيه محبوبًا يرد عليه في الاخرة. والقربة اسم لاحد معنيين: امر فرض عليه او فضل ندب اليه، فاذا فعل ذلك في وقت من ليل او نهار وداوم عليه، فهو ورد قدمه يرد عليه غدًا اذا قدم. وايسر الاوراد صلاة اربع ركعات او قراءة سورة من المثاني، او سعي في معاونة على بر او تقوى.[4]»

١- «التصوف الاسلامي»، زكي مبارك، مجلّد ٢ ص ٧٩.
٢- سورة المزمّل، الايتان ٧ و٨.
٣- «الطريق الى الطريقة» ص ١٨.
٤- «قوت القلوب». مجلد ١ ص ١٦٨.

ويقول القشيري: «الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد، وكذلك لا يكون من قبل الخواطر فهو وارد ايضًا.» ثم يقول: «فالواردات اعم من الخواطر لان الخواطر تختص بنوع الخطاب او ما يتضمن معناه. والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط الى غير ذلك من المعاني.»(١)

واما ابن عربي فيقول: «الوارد ما يرد على قلب العبد من كل اسم إلهي، والكلام عليه بما هو وارد لا بما ورد. فقد يرد بصحو وبسكر، وبقبض وبامور لا تحصى وكلها واردات. الوارد قد يرد فجأة، وقد يرد غير فجأة، بشعور، بعلامات وقرائن واحوال تدل على ورود امر معيّن يطلبه استعداد المحل.»(٢)

ثم يقول: «وكل وارد الهي لا يأتي إلاّ بفائدة والفائدة التي تعم كل وارد، وما يحصل عند الوارد عليه من العلم في ذلك الوارد، ولا يشترط فيه ما يسره ولا ما يسوءُه، فان ذلك حكم الوارد، وانما حكم الوارد ما حصل من العلم، وينصرف الوارد، لا بد عن انصرافه، ويرحل بعد اداء ما ورد به»(٣)

ثم يقول ابن عربي: «والعقلاء من كان على طريقتهم (الرسل والانبياء) من الشغل بنفسه والرياضات والمجاهدات، والخلوات والتهيؤ لواردات ما يأتيهم في قلوبهم عند صفائها من العا لم العلوي الموحى من السموات العلى»(٤)

١- «الرسالة القشيرية»، ص ٨٥.

٢- «الفتوحات المكية»، ص ٥٦٦.

٣- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٥٦٦.

٤- «فصوص الحكم» ص ٧٥.

وفي قوة الوارد، يقول ابن عربي: «فاعلم ان الناس في هذا المقام (قبول الواردات الالهية) على احدى ثلاث مراتب: منهم من يكون وارده اعظم من القوة التي يكون في نفسه عليها، فيحكم الوارد عليه فيغلب عليه الحال فيكون بحكمه. ومنهم من يكون وارده وتجليه مساويًا لقوته، فلا يرى عليه اثر من ذلك حاكم ولكن يشعر عندما يبصر ان ثم امرًا طرأ عليه وشعورًا خفيًا. ومنهم من تكون قوته اقوى من الوارد فتشعر ان باطنه متفكر في امر آخر.»(١)

الذكر.

قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

«اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله»(٢)

«وانه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسئلون»(٣)

«إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون»(٤)

«فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون»(٥)

«يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا.»(٦)

١- «الفتوحات المكّية»، سفر ٤ فقرة ٩٧ (بتصرّف).
٢- سورة الجمعة، الآية ٩.
٣- سورة زخرف الآية ٤٤.
٤- سورة الحجر الآية ٩.
٥- سورة البقرة الآية ١٥٢.
٦- سورة الاحزاب آية ٤١.

الذكر حجاب عن المذكور بمنزلة الدليل، والدليل متى اعطاك المدلول سقط عنك، فمتى كنت مع المذكور فلا ذكر».[1] وقيل: اذا كان من تهواه في القلب حاضرًا وانت تديم الذكر كنت منافقًا.

يقول ابن خلدون: «وفي الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة، فيحاولون بالمجاهدة موتًا صناعيًا باماتته جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تكونت بها النفس، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة في نشئها، ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع.»[2]

يقول ابن عربي: «الذكر ركن من اركان التصوف، هو ذكر الله تعالى بعد تلاوة كتاب الله، والدعاء بامره تعالى، وهي عبادة تؤدى باللسان، ثم يكون الذكر والدعاء بامره وهي افضل من الصلاة». قال عبد الله بن عباس: «ان ذكر الله تعالى لكم اعظم من ذكركم اياه، وذكره اعظم من كل عبادة سواه». يقول رسول الله: يقول الله عزّ وجل، انا مع عبدي فاذكرني وتحركت شفتاه بي[3].[4]»

ثم يستطرد ابن عربي في شرح الذكر فيقول: «وعارفًا بالله سبحانه، وان المحبة لا تحصل الاّ في دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وان المعرفة به لا تحصل إلاّ بدوام الفكر فيه وفي صفاته وافعاله وليس في الوجود سوى الله تعالى وافعاله.»

١- «المعجم الصوفي»، الدكتورة سعاد الحكيم، ص ٤٨٩.
٢- «المقدّمة»، مجلد ١ طبعة ١٩٦٧ ص، ١٩٠ - ١٩١.
٣- حديث ابي هريرة عن أبي الدرداء.
٤- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٣٩٣.

ثم يقول: «وكل ذكر لا يتم إلاّ باستغراق اوقات الليل والنهار في وظائف الاذكار والافكار. فالذكر والفكر ينبغي ان يستغرقا جميع الاوقات او اكثرها»[1]

يقول ابو عطاء السكندري: «للذكر عدة انواع منه ما هو ثناء على الله مثل: – سبحان الله – الحمد لله – لا اله إلاّ الله – والله اكبر. ومنه ما هو دعاء مثل: – ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا. ومنه ما هو مناجاة مثل: موقف المصلي من الصلاة، فان الصلاة مناجاة. ومنه ما هو للرعاية في الدنيا مثل: طلب حماية الله والنصر على الاعداء والشيطان. ومنه ما هو للرعاية الأخروية، كطلب زيادة الدرجات»[2] ثم يقول: «الصلاة على النبي نوع من الذكر. قال الله تعالى في كتابه العزيز «ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا.» ومن هنا نعتبر الصلاة على النبي نوعًا من الذكر[3]».

بالاضافة الى الذكر باللفظ او اللسان، والذكر الخفي اي بالقلب، يوجد عند الصوفية الذكر بالحضرة، ليس بحضرة الله تعالى، اي الربوبية، بل حضرة النبي «صلعم». الذكر بالحضرة هو ترديد الاحزاب، وهي الدعاء للمولى عزّ وجل، مع الاناشيد والموسيقى، ويفتتح بالصلاة التي يدعونها مراتب الذكر ويقوم على الدعاء لله وترديد، الله الله، هو، الحق، القيوم، والقاهر. وتختتم بالصلاة التي يدعونها المآثر القلبية ثم تلاوة المدائح.

---

١ – «الفتوحات المكية»، مجلد ٢ ص ٩.

٢ – «مفتاح الفلاح»، ص ٣.

٣ – المصدر نفسه ص ٨٤.

يقول ابن تيمية، الذي عرف عنه انكاره للصوفية واتهامهم بالكفر: «ان مجالس الذكر بدعة، اذ لم يكن على عهد الرسول او صحابته مجالس ذكر، بل مجالس تعليم القرآن، والحديث والفقه. اما مجالس الذكر فابتدعها بعض المنتسبين الى التصوف في القرن الثاني هجري، ثم لاحقًا، دخل عليها الرقص وحلقات الغناء، والاناشيد، والدف والصيحات الغريبة التي شوهت التصوف وذكر الله تعالى.»

ويقول الامام عبد الوهاب الشعراني: «فلا يزال العبد يكثر من الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده، وهناك وضح الفتح الاول لان الذكر لله حقيقة، هو استصحاب شهود العبد انه بين يدي الله، والذكر باللسان انما هو وسيلة اليه، فاذا حصل له الشهود استغنى في طلب الحضور عن ذكر اللسان، فلا يذكر باللفظ إلاّ في محل يقتدى فيه لا غير.» ثم يقول: «ان عمدة الطريق الاكثار في ذكر الله، عزّ وجل، وان الذكر منشور الولاية اي، مرسوم من الله للعبد بالولاية، ومن يسلب عن الذكر فقد عزل عن الولاية.»(١)

جاء في دائرة المعارف الاسلامية، أنّ تعريف الذكر بالقلب، معناه، احضار الشيء من الذهن. والذكر باللسان ومعناه التلفظ بالشيء وتنطق هذه الكلمة في المصطلح الديني «ذكر» وهي تمجيد الله بعبارات محددة معينة تردد بحسب ترتيب الشعائر ويكون ترديدها جهرًا او سرًّا. جعل الله فريضة الذكر، بخلاف باقي الفرائض الاسلامية، بلا تحديد، وذلك لسهولة ممارسة الذكر على العباد، فكل عمل وقول يكون في مرضاة الله وسبيله هو الذكر.(٢)

ليس الذكر ترددا باللسان فحسب، انما اصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له، وسمي الذكر باللسان ذكرًا لانه دلالة على الذكر القلبي، وما من عبد ذكر الله مخلصًا له، إلاّ ذكره الله، عزّ وجل، برحمته.(٣)

١- «الانوار القدسية»، ص ٣٤ (بتصرّف)

٢- «الصوفية»، ص ١١٩.

٣- التصوف اسعد السحمراني. ص ١٢٠.

قال ابن عباس: «ان الذكر حق على كل مكلف. ولكن من شروط الذكر ان يقترن بالاخلاص، فالذكر هو اخلاص واستدامة في القلب في كل الاحوال. الذكر بهذا المعنى هو طاعة الله، ومن لم يطع الله، لا فائدة من ذكره حتى لو اكثر بلسانه قراءة القرآن والتسبيح والتهليل.[١]»

والذين يذكرون الله عن اخلاص وعلم، يترافق ذكرهم مع تفكّر في آيات الله ومخلوقاته، فيكون الذكر سبيلاً لكي يعرفوا قدرة الله، وإحكام صنعه للعالم، وبهذا تحصل التذكرة لاولي الالباب فيزيدهم ذلك ايمانًا، فتسكن قلوبهم، وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن. فالذكر هو مفتاح الحال عند الصوفيين. هو عند كل المسلمين السبيل الى اطمئنان القلب بما تأمل وعرف الذاكر من آيات الله عن بصيرة، وفي ذلك جاء قول الله تعالى «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب.»[٢].[٣]

ومن اقوال الامام الشعراني: «السكون والسكوت ليحصل له الصدق في الذكر وذلك ان يشغل قلبه بالله، الله، الله دون اللفظ، حتى لا يبقى خاطر مع الله، الله، ثم يوافق اللسان القلب بقول «لا اله إلاّ الله» يفعل ذلك كلما اراد الذكر. والصدق في الذكر، بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه، ويختار من صيغ الذكر لفظة «لا اله إلاّ الله» فان لها اثرًا عظيمًا عند القوم لا يوجد في غيرها من سائر الاذكار.»[٤]

١– «التصوف» اسعد السحمراني، ص ١٢٠.

٢– سورة الرعد، آية ٢٨.

٣– «التصوف» السحمراني. ص ١٢١.

٤– الانوار القدسية. ص ٣٦ (بتصرف).

وكذلك يقول الامام الشعراني: «واجمع القوم على ان الذكر مفتاح الغيب، وجاذب الخير، وانيس المستوحش ومنشور الولاية فلا ينبغي تركه ولو مع الغفلة، ولو لم يكن من شرف الذكر إلاّ انه لا يتوقت بوقت، لكان ذلك كفاية من شرفه الغالي» ثم يقول: «ما ثم اسرع من فتح الذكر، وهو جامع لشتات صاحبه، اذا غلب الذكر على الذاكر، امتزج بروح الذاكر اسم المذكور.»[١]

وقال الصحابي معاذ بن جبل: «قال لي رسول الله عندما سألته، اي الاعمال احب الى الله؟ قال ان تموت ولسانك رطب في ذكر الله»[٢]

روى الامام احمد الطبراني، ان اول من قال عن ذكر الجماعة، قال كان رسول الله مجتمعًا مع اصحابه، قال هل فيكم غريب؟ قالوا لا يا رسول الله فامر بغلق الباب وقال، ارفعوا ايديكم وقولوا، «لا اله إلاّ الله»، وهذا دليل لتلقين الذكر لجماعة معًا[٣] وقال اي عبادة افضل من عبادة قوم يجتمعون على ذكر الله ويجالسونه بذكرهم»[٤]

كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يحث تلاميذه على الاكثار من لفظ «الجلالة» لله، لانه اسم الله الاعظم»[٥]

١- الانوار القدسية. ص ٤٣.
٢- المصدر نفسه ص ٤٤.
٣- المصدر نفسه ص ٢٧.
٤- المصدر نفسه ص ٤٥.
٥- «الشيخ عبد القادر الجيلاني»، محمد درنيقة، ص ٩٤.

ومن الاذكار الشائعة، بالاضافة الى «لا اله الا الله» «استغفر الله يا الله يا حي يا قيوم وثم ترديد: الله، الله، يا حي، يا واحد، يا رحيم، وحّدوه وحّدوه، كان قولهم، «يا الله يا الله الهي بعظمتك وجلالك ارزقني حبك. كذلك، يا الله يا الله اللهم اجعل قلب عبدك الضعيف مظهر لذاتك ومنبعًا لآياتك.»[١]

وافضل ذكر انما يكون بكلمة التوحيد، «لا اله الا الله»، ولقوله تعالى «فاعلم انه لا اله الاّ الله.»[٢]

يقول الشيخ ابو علي الدقاق: «الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، لا يصل احد الى الله تعالى إلاّ بدوام الذكر. والذكر على نوعين، ذكر اللسان، وذكر القلب. فذكر اللسان يصل به العبد الى استدامة ذكر القلب، والتأثير لذكر القلب، فاذا كان العبد ذاكرًا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه[٣]»

يقول ذو النون المصري: «في ذكر الله تعالى ذكرًا على الحقيقة، (الذكر الكامل والاستغراق في المذكور) نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء، وكان له عوضًا عن كل شيء»[٤]

«الذكر غير مؤقت، بل ما من وقت من الاوقات إلاّ والعبد مأمور بذكر الله تعالى، اما فرضًا او ندبًا، والصلاة وان كانت اشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الاوقات، والذكر مستدام في عموم الحالات»[٥]

١- «الفتح الرباني والفيض الروحاني»، الجيلاني ص ١٦.
٢- سورة محمد، آية ١٩.
٣- «الرسالة القشيرية» ص ٢٢١.
٤- المصدر نفسه. ص ٢٢٢.
٥- المصدر نفسه ص ٢٢٣.

وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني يحث مريديه على اقامة حلقة الذكر كل نهار جمعة بين العصر والمغرب حيث كانوا يذكرون بالصيغ التالية[1]:

- لا إله الاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير - ٢٠٠ مرة.
- سبحان الله العظيم وبحمده - ١٠٠ مرة.
- لا اله الا الله الملك الحي المبين - ١٠٠ مرة.
- اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي - ١٠٠ مرة.
- استغفر الله الحي القيوم واسأله التوبة - ١٠٠ مرة.
- ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله - ١٠٠ مرة.

الواضح ان ترديد هذه الجمل مئات المرات لم يكن بالعمل السهل المريح بل مرهق وشاق، وكان الهدف الذي يتوخاه السالك، الوصول الى الله والفناء بحبه.

السماع

يقول الله تعالى «ورتل القرآن ترتيلاً»[2]. وفي حديث رواه الصحابي ابن عازب «قال رسول الله، حسنوا القرآن باصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا.» وعن مالك بن أنس قال الرسول «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن.»

وقال الصوفي الحارث المحاسبي: «ثلاث اذا وجدن متّع بهن وقد فقدناها. حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الصوت مع الديانة، وحسن الاخاء مع الوفاء»[3]. قال الشيخ ابو علي الدقاق: «السماع طبع إلاّ عن شرح، وخرق إلاّ عن حق، وفتنة إلاّ عن عبرة.[4]».

١- «الغنية لطالبي طريق الحق» عزّ وجلّ مجلّد ٢ ص ٥٣.
٢- سورة المزمّل آية ٤.
٣-«الرسالة القشيري»ة ص ٣٤٠.
٤- المصدر نفسه ص ٣٤١.

السماع هو الغناء والطرب وانشاد الشعر، فاذا كان يهدف الى اثارة الغرائز والشهوات فهو منهي عنه، اما اذا كان تتوافر فيه الرغبة في الطاعات والتذكير بمحاسن الله فلا مانع، وذلك اذا اقترن بالخشوع وتذكر المولى وتضاعف الشوق الى الله تعالى.

الامام ابو حنيفة جعل السماع من الذنوب، وكذلك مالك بن أنَس انكره وطرد المغنين من المساجد، والشافعي جعله مكروهًا وشبهه بالباطل، والامام احمد بن حنبل ينهى عنه ويعتبره فاسدًا.

ويقول الشيخ عبد القادر الاربلي: «السماع عند الشافعية لهو مكروه ويشبه الباطل وترد شهادة محله. وعند المالكية، يجب على ولاة الامور زجرهم ومنعهم واخراجهم من المساجد ان كانوا يفعلون في المسجد. وعند الحنابلة، لا يصلي خلفهم ولا تقبل شهادتهم وعقد النكاح على يدهم فاسد»(١)

والامام العزيز عبد السلام يقول: «ان السماع ينقسم ثلاثة اقسام:

١. منها ما هو حرام محض: هو لاكثر الناس من الشباب. ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وملكهم حب الدنيا، وتكررت بواطنهم وفسدت كل مقاصدهم فلا يحرك السماع منهم الاّ ما هو الغالب عليهم وعلى قلوبهم من الصفات الذميمة.

٢. ومنها ما هو مباح لمن: لا حظ له منه إلاّ التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح، او يتذكر غائبًا او ميتًا فيثير حزنه فيروِّح بما سمعه.

٣. ومنها ما هو مندوب: وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق اليه، فلا يحرك السماع فيه إلاّ الصفات المحمودة وتضاعف الشوق الى الله سبحانه وتعالى.(٢)»

١- «حجّة الذاكرين وردّ المنكرين» ص ٥.

٢- «حل الرموز ومفاتيح الكنوز» ص ٢٨ - ٢٩.

ويقول السراج الطوسي: «واهم ما امتاز به الصوفية هو التحرز في السماع وهم يكرهون السماع، اذا تطرق الغرض منه الى الفساد والمخالفة واللهو وترك الحدود.[1]»

وعن السماع قال ذو النون المصري: «وارد حق يوصل القلوب الى الحق، فمن اصغى اليه بحق تحقق، ومن اصغى اليه لنفسه تزندق»

وقال الشبلي: «السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة. فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والاّ فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية.»[2]

يرى ابو حامد الغزالي في السماع: «ان السماع قد يكون حرامًا محضًا. وقد يكون مباحًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون مستحبًّا. اما الحرام فهو لاكثر الناس من الشبان، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا، فلا يحرك السماع منهم الا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة؛ واما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادة له في اكثر الاوقات على سبيل اللهو. وأما المباح فهو لمن لاحظ له منه إلاّ التلذذ بالصوت الحسن. واما المستحب فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى، ولم يحرك السماع منه إلاّ الصفات المحمودة.»[3]

قال سهل التستري: «كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل، فلا يصلح السماع لمثل هذا، ولا لمن قلبه ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء، ولا لمن يسمع لاجل التلذذ والاستطابة بالطبع، فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عباداته ومراعاة قلبه، وينقطع عليه طريقه، فالسماع مزلّة قدم يجب حفظ الضعفاء منه.»[4]

١- أللُمع في التصوف»، ص ٢٧٣.
٢- المصدر نفسه ص ٣٤٢.
٣- «احياء علوم الدين». ص ١٩٩ (طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية، جمعية الجهاد الاسلامي.
٤ـ «الطرق الصوفية في مصر»، عامر النجار، ص ٤٥.

قال الشيخ بن الحاج التلسماني يصف التصوف:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك ان غنّى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب لا اختباط كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف ان تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقـرآن والديــــنا
وان تُرى خاشعًا لله مكتئبًا على ذنوبك طول الدهر محزونا

نتج عن طريقة السماع تنظيم واعداد الحفلات للاحتفال بذكرى شيوخ الصوفية واولياء الله، عُرف بالمولد، التي لسوء الحظ، يتخللها الرقص والغناء ونقر الدفوف وضرب الطبول، «وعمائم حمراء او خضراء، او سوداء، او شعور طويلة وحركات حواة وقبض على الثعابين وطبول ورقص وغناء غريب؛ مما ساعد على تعداد الموالد وانتشار تلك الاضرحة الكثيرة المنتشرة في كل مكان في ارض مصر.»[1]

ويجمع معظم المؤرخين على ان حلقات الذكر اصبحت سماعًا موسيقيًا وايقاعات وغناء ورقص وعزف وتهريج، فابتعدت الطرق الصوفية وحلقات الذكر عن اصولها الحقيقية التي نادى بها اصحابها الاجلاء لاتباعهم.

١- «الطرق الصوفية في مصر» عامر النجار ص ٤٥.
٢- المصدر نفسه

الاحوال والمقامات الصوفية

الاحوال والمقامات الصوفية هي دراسات فكرية في العلم الالهي والعلم الطبيعي، تحمل التقوى وخوف الله تعالى كي يبلغ الصوفي غايتة القصوى وهدفه الاوحد، وهو الوصول الى الله والفناء في حبه.

يقول الدكتور اميل المعلوف: «المقام هو جزء من الطريق الذي يسلكه المتصوف الى ربه. ويكون بمنازلة عدد من الاداب، اهمها: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، والرضا والتوكل. هذه المحطات في الطريق النفسي الصاعد الى الحق لا يمكن للمتصوف ان ينتقل فيها من الواحدة الى الاخرى إلاّ اذا استوفى احكام كل مقام، ويقيم فيه فترة على مرأى من الله، يتوجب عليه ان يجهد وينصب ويقاسي، فالمقام لا يتحقق للعبد إلاّ بضرب تطلب وتكلف[1]»

الف الشيخ الهروي الانصاري* كتاب منازل السائرين الذي يتألف من مقدمة وعشرة اقسام، يشتمل كل قسم منها على عشرة مقامات يتدرج كل منها صاعدًا في مراتب ثلاث:

المرتبة الاولى للعوام. ثم مرتبة السالك المتصوف، ثم مرتبة المكاشفة. المنازل العشر تحتوي على المنازل الاساسية التي يجب ان يعرفها ويتدرج بها كل صوفي اثناء رحلة المجاهدة في الطريق الى الله تعالى. المقام العاشر هو مقام النهايات يصل فيه السالك الى المعرفة والفناء والبقاء، والتحقيق والتلبيس والوجود والتجريد والتفريد والجمع والتوحيد[2]

وردت لفظة «مقام» في القرآن في الآيات التالية:

١- «مقامات الصوفية»، شهاب الدين السهروردي، ص ٦٦ (الحاشية).

* الامام ابو اسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الانصاري. ولد عام ٣٩٦هـ وتوفي عام ٤٨١هـ. كان اصوليا حافظًا مفسرًا اماما باللغة شديدًا على المتكلمين. من مؤلفاته: منازل السائرين. طبقات الصوفية، تفسير القرآن وغيرها.

٢- «الفلسفة الصوفية في الاسلام». عبد القادر محمود ص ٧٩.

«وما منّا إلاّ له مقام معلوم.» سورة الصافات آية ١٦٤.

«عسى ان يبعثك ربّك مقامًا محمودًا.» سورة الاسراء آية ٧٩.

«ان المتقين في مقام أمين.» سورة الدخان آية ٥١.

«ولمن خاف مقام ربّه جنّتان.» سورة الرحمن آية ٤٦.

معظم ما سيرد في هذه الدراسة من شرح وتفسير للاحوال والمقامات الصوفية هو من اقوال مفكرين صوفيين كالسهروردي، الجيلاني والقشيري وغيرهم. وقد يبدو للقارئ الكريم ان التوسع والاكثار في التفسير والشرح مملٌّ ومحدود الفائدة كان من الافضل اختصاره، ولكن بما ان هدف هذه الدراسة، بالاضافة الى تاريخ وانتشار الصوفية، هو ابراز ما يمكن ابرازه من اقوال اهل التصوف وما قيل عنهم ثم ايماني بأنّ المعرفة الصادقة، اذا امكن الامر، يجب ان تكون واضحة وتشمل بعمق جميع الافكار والمعتقدات المطروحة، فاختصارها وتحجيمها يجعلاها كنشرة «علم وخبر» لسرد معلومات سطحية عابرة ليست ذات قيمة فكرية او علمية. فاذا طال وكثر الشرح، لكم الصبر الجميل، والصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الايمان ابتغاء للمعرفة، والمعرفة هي هدفنا الاول.

سمّي المقام مقامًا لثبوته واستقراره، وسمّي الحال حالاً لتحوله وتغيره، فما للعبد منه جهد يدخل في باب المقامات، وما يقاض عليه من لدن الله تعالى فينقله درجة بعد درجة في رحلة السفر اليه سبحانه يدخل في باب الاحوال.[1]

١– «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها.» عرفان عبد الحميد فتاح. ص ١٥٠ (الحاشية).

«الحال هو امر روحي يرد على المتصوف من غير تعمد منه ولا اجتلاب. انه نعمة يخصها الحق ببعض السالكين، ويحجبها عن بعضهم الآخر. ولمّا كان «المقام» يحصل ببذل المجهود «والحال» من غير جهد ولا مقاسات، اعتبر المقام «كسبًا» والحال «موهبة.» اهم الاحوال التي تعرض في توجهه الى الله: الطرب، الحزن، القبض، الشوق، الانزعاج، الهيبة والاحتياج.»[1]

يقول السراج الطوسي: «المقام معناه مقام العبد بين يدي الله، عزّ وجل، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع الى الله، عزّ وجل. اما معنى الاحوال، فهو ما يحل بالقلوب او تحل به القلوب من صفاء الاذكار.»[2]

واما الامام الجيلاني فيقول: «الاحوال والمقامات هي عبادة القلب. فإن كانت للعامة من العباد اعمال ظاهرة من حيث الجوارح، فإن للخواص اعمال باطنة من حيث القلوب والاسرار.[3] ثم يقول: «ان الاحوال كلها «قبض» لانها لم تنزل على المتجرد دون اجتلاب وهو حزين النفس لقنوط او لالهام، عندما لا تتحقق رغبة السالك وامانيه. اما المقامات فكلها «بسط» لانه لا شيء فيها يؤمر بحفظه سوى كونها موافقة لقدرة الله بانكشاف الحجب عن تجلياته وصفاته.[4]»

لا بد من ان نشير الى ما قاله القشيري الذي اشبع هذا الموضوع درسًا وشرحًا: «المقام هو الاقامة، كالمدخل بمعنى الادخال، والمخرج بمعنى الاخراج، ولا يصح لاحد منازلة مقام، إلاّ لشهود اقامة الله تعالى اياه بذلك المقام ليصبح

١- «مقامات الصوفية» ص ٦٦. اميل المعلوف.
٢- «اللمع في التصوف» ص ٦٥.
٣- «الفتح الرباني» ص ٢٣٢.
٤- المصدر نفسه ص ٢٣٢.

بناء امره على قاعدة صحيحة، وشرطه ان لا يرتقي من مقام الى مقام احد ما لم يستوف احكام ذلك المقام.[1]».

وفي «الحال» يقول القشيري: «الحال عند القوم معنى يرد على القلب، من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب، من طرب او حزن، او بسط او قبض، او شوق او انزعاج، او هيبة او اهتياج. فالاحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والاحوال تأتي من الوجود نفسه، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترقّ عن حاله. وقالوا: الاحوال كاسمها، يعني انها كما تحل بالقلب تزول في الوقت.[2]»

مقامات الوصول عند (الصوفية العمليين) لها صبغة سلوكية، ويتم التدرج في مراقيها تحت اشراف شيخ خبير بمسالك الطريق محنّك التجربة، عميق المعرفة تقوم كلمته المجردة في المريد السالك مقام القانون. ثم يقول: «الشيخ يدفع المريد عبر المقامات والاحوال والمواجيد المصاحبة لها نحو الغاية المنشودة، اعني الفناء في الله وبلوغ ذرى المشاهدة والمكاشفة.»[3]

اما عند (الصوفيين الفلاسفة) فيقول الدكتور مدكور: «مجرد سمو الى العالم العلوي وارتباط بين الانسان والعقل الفعّال دون ان يمتزج احدهما بالآخر»[4]

«تقوم فلسفة الاسلام على اساس التفرقة الواضحة بين عالمين: عالم الكائنات المتناهية المقيدة في وجودها بمكان وزمان معينين، وعالم اللامتناهي الذي يتعالى عن أية صفة تحدد له زمانًا ومكانًا وعلى اساس اخلاص التوحيد

١- «الرسالة القشيرية» ص ٥٦.

٢- «الرسالة القشيرية». ص ٥٧.

٣- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها» ص ٢٤.

٤- «الفلسفة الاسلامية» ص ١١٣.

لله تعالى اخلاصًا لا يسمح لأي عارض من عوارض الشرك والتعدد ان يتخلله.(١) وهذا العالم اللامتناهي هو عالم الحق الذي يسعى الصوفية للوصول اليه، والمقامات هي الطريق الى هذا العالم، اي عالم الحق.»

وبعض المفكرين المسلمين ربط عقيدة المعرفة والفناء بالله الصوفية باصول بوذية هندية فقالوا: ان في البوذية يتخلص السالك من نواقص الحياة المادية وهي عشرة: الوهم، الشك، العمل من اجل القوت، الشهوة الجنسية، الكراهية والحقد، حب الحياة الارضية، الرغبة في الحياة السماوية، الكبرياء، الغرور والجهل على أربع مراحل: المرحلة الاولى وتبدأ بهجر الحياة وقطع العلاقات بالمجتمع والامتناع عن العلاقات الجنسية حتى يمكن التخلص من الديانات الشائعة وما قد تثيره من شك في تعاليم بوذا. وفي المرحلة الثانية، يجاهد البوذي من اجل قهر شهواته الارضية واضعاف رغباته وتصفية اقواله وميول الانانية. وفي المرحلة الثالثة يقضي البوذي قضاء نهائيًا على مختلف الشهوات وكذلك على النزاعات الشريرة وميول الانانية. وفي المرحلة الرابعة يتحرر البوذي من الرغبة في الحياة بالقرب من الالهة ويتخلص من عوائق الغرور والكبرياء والجهل، وبذلك لا يوجد ما يدعو للعودة الى الارض او الى السماء، ويخرج البوذي من نطاق الألم والسرور ويصبح فوق الافراح والاحزان حيث الهدوء التام في الخير المطلق والحكمة الابدية. ويتوافق ذلك مع عقائد البراهمة اذ يقول البرهمي: في اللحظة التي تتجلى او تنبعث المعرفة فيها في نفسي حيث اصبح متحدًا مع براهما، لا اكون مكلفًا بعمل او فريضة(٢)

١- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها» ص ٢٧.

٢- «تاريخ الآراء الثيوصوفية في الهند». اولترا مارا. مجلد ١ ص ٢١٤ (بتصرف).

المقامات والاحوال عند الصوفية عديدة وقد اختلف المؤرخون في تعدادها وقالوا ان ذا النون المصري (توفي عام ٢٤٥هـ) كان اول من حدد معنى المقام والحال ويعدد سبع مقامات ثم يشير في وقت لاحق الى تسعة عشر مقامًا اولها الانابة واخرها التوكل، والجنيد ابن محمد حددها بأربعة مقامات وهي توبة تحل الاصرار، وخوف يزيل الغرّة ورجاء مزعج الى طريق الخيرات ومراقبة الله في خواطر القلوب(١)

واما السراج الطوسي فيقول: «اختلف احصاء المشايخ للمقامات والاحوال، فعند سري السقطي عشرة مقامات، وعند ابي طالب المكي سبعة، وعند الغزالي اربعة وجعل السهروردي المقامات عشرة.(٢)»

ويرجع سبب اختلاف المشايخ في عدد المقامات الى ان بعضهم لا يفرّق بين الاحوال والمقامات، كما ان بعضهم يشير الى ما عاينه هو من مقامات الطريق، او يتطرق الى حالات نفسية لا علاقة لها بالمقامات او الاحوال وقد لا تقع تحت حصر. ويقول شهاب الدين السهروردي: «وقد كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت اشارات الشيوخ في ذلك، فتراءى للبعض الشيء حالاً، وتراءى للبعض مقامًا.(٣)»

اما عبد الكريم القشيري فيبدأ بمقام التوبة حتى ينتهي بمقام الشوق فيكون العدد سبعة واربعين(٤).

١- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها» عرفان عبد الحميد فتاح. ص ١٥٢.
٢- المصدر نفسه ص ١٥٢ (بتصرف).
٣- «عوارف المعارف» ص ٢٢٥.
٤- «الرسالة القشيرية» ص ٤٧٦ الى ٤٧٨.

بالرغم من ان الموضوع الذي ساطرحه لا علاقة له بالاحوال والمقامات، ولكنه اثير مرارًا في كتب التاريخ وكان السبب في اتهامهم بالكفر والالحاد، وهو تنكر بعض غلاتهم للشريعة والفروض الاسلامية وقالوا: «ان الانسان ليس فرضًا ولا تلزمه عبادة اذا وصل الى معبوده.[١]» كما قالوا: «ان المحظور على غيرهم من المحرمات مباح لهم اذا بلغوا درجة الولاية التي سمّوها المنزلة الخاصة.»[٢]

وقال الحارث المحاسبي: «اذا وصلت الى مقام اليقين سقطت عنك العبادة. اترك الفرائض والنوافل بدعوى البصائر واستشارة القلوب.»

بالنسبة الى كثرة الاحوال والمقامات والبحث المسهب الذي اعتمده اهل الفكر في تفسيرها، يجعلني احصر بحثي في بعضها واعتمد على اقوال اصحاب المعرفة، التي لا بد منها حتى ولو كانت طويلة، كي اضع امام القارئ معظم ما قاله الصوفية وما قيل عنهم.

١ - التوبة*

يقول الله تعالى في كتابه الكريم. «وتوبوا الى الله جميعًا أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون.»[٣] ومن قوله سبحانه وتعالى «ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم.»[٤]

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «وحدّ التوبة هو ان يندم الانسان على القبيح لقبحه ويعزم على ألا يعود الى امثاله في القبح، وشروط التوبة الندم والعزم جميعًا حتى تكون التوبة صحيحة.»[٥]

١- «مقالات الاسلاميين» الأشعري ص ٣١٠.

٢- «رسالة العبودية» ابن تيمية ص ١٠. مقالات الاسلاميين، الأشعري ص ٢٨٩.

* لقد اعتمدنا في هذه الدراسة على الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري. وكتاب مقامات الصوفية للدكتور اميل المعلوف، التصوف للدكتور اسعد السحمراني. مشارق انوار القلوب ومفاتيح اسرار الغيوب، عبد الرحمن الانصاري. الطريق الصوفي، يوسف محمد زيدان. والصوفية في نظر الاسلام لسميح عاطف الزين.

٣- سورة النور الآية ٣١.

٤- سورة التوبة الآية ١١٨.

٥- «مذاهب الاسلاميين»، ص ٦٧٣.

اما عبد الكريم القشيري فيقول: «التوبة اول منزلة من منازل السالكين واول مقام من مقامات الطالبين. والتوبة الرجوع عمّا كان مذمومًا في الشرع الى ما هو محمود فيه. قال النبي «صلعم» الندم توبة.»(١)

وشهاب الدين السهروردي «القتيل» يقول: «التوبة عبارة عن تألم النفس على ما ارتكبت من الرذائل مع حزم القصد الى تركها وتدارك الفائت بحسب الطاعة.(٢)» «التوبة علم معرفة ضرر الذنوب وتلافي ما فات بالخير والندم.»

قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

- «يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحًا.»(٣)

- «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»(٤)

أما الدكتور اميل المعلوف فيقول: «التوبة لغة معناها الرجوع. والرجوع هنا يكون عن الاقوال والافعال المذمومة الى ما هو محمود منها. وتحديد التوبة، بمفهوم ارباب الاصول من اهل الدين: «شرط التوبة حتى تصح ثلاثة اشياء: ندم العبد على ما عمل من المخالفات، وتركه الزلة في الحال، والعزم على ان لا يعود الى مثل ما عمل من المعاصي.»(٥)

ويقول ابن عربي: «ان الله يحب التّوابين اليه في كل حال من خلاف وذوق، فلا تصح توبة فانها رجوع، ولا يكون رجوع إلاّ من مفارقة لامر

١- «الرسالة القشيرية» ص ٩٥.
٢- «مقامات الصوفية» اميل المعلوف ص ٦٨.
٣- سورة التحريم آية ٨.
٤- سورة البقرة آية ٢٢٢.
٥- «مقامات الصوفية»، الحاشية، ص ٦٨.

يرجع اليه والحق على خلافه. «التوبة امر لازم دائم الوجود»(١) ثم يقول: «فالتوبة المشروعة هي التوبة من المخالفات، والتوبة الحقيقية هي التبري من الحول والقوة بحول الله وقوته.»(٢)

قال الصوفي سهل التستري: «التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلاّ بالخلوة والصمت والعبادة، واشراق نور الايمان في قلب المؤمن، والاقبال بالكلية على الله في طلب المغفرة وذلك بدوام الذكر.»

يقول ابو حامد الغزالي: «من معانيها (التوبة) ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وترك ما سبق من التقصير في سابق الاحوال، وذلك لا يشك في وجوبه. اما الندم على ما سبق والتحزن فواجب، وهو روح التوبة، به تمام التلافي، فكيف لا يكون واجبًا! بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.(٣)

اما شهاب الدين السهروردي* فيقول: «التوبة عبارة عن تألم النفس على ما ارتكبت من الرذائل مع حزم القصد الى تركها وتدارك الفائت بحسب الطاعة»(٤). للتوبة ثلاثة شروط: الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والتصميم على ان لا يعود الى مثل ما عمل من المعاصي»(٥)

١- «الفتوحات المكية»، مجلد ٤ ص ١٢٧.
٢- المصدر نفسه مجلد ٤ ص ٩٤.
٣- «احياء علوم الدين» مجلد ٤ ص ٢٣٨.
* برز من عائلة السهروردي ثلاثة علماء صوفيين.
أ- ابو نجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري السهروردي. توفي في بغداد عام ٥٦٣هـ. ومن مؤلفاته كتاب، آداب المريدين.
ب- ابو حفص شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي. توفي في بغداد عام ٦٣٢هـ. ومن مؤلفاته: كتاب عوارف المعارف، وكتاب رشف النصائح الايمانية، وكتاب كشف الفضائح اليونانية.
ج- شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي ولقبه «الشيخ المقتول.» توفي في حلب عام ٥٨٧هـ قتله الملك الغازي ابن السلطان صلاح الدين الايوبي. ومن مؤلفاته: حكمة الاشراق، اصوات اجنحة جبريل والعديد من الرسائل.
٤- «مقامات الصوفية» اميل المعلوف ص ٦٨.
٥- «الرسالة القشيرية» ص ٩٢.

يقول اهل التصوف: «التوبة واجبة في الوصول الى الله تعالى للفناء بحبه، كما الطهارة واجبة في اداء الصلاة لمن يريدها؛ فان الانسان لا يتوصل اليها إلاّ بها. ان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وان لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار. اذن، التوبة كاليقين، نور من الله يطلقه في قلب الانسان»

من اقوال ابي حامد الغزالي: «اعلم ان التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء الاّ بعد معرفته. اذا كانت التوبة واجبة، فمعرفة الذنوب اذن واجبة، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لامر الله تعالى في ترك او فعل.[١]»

ويقول المعتزلي قاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني عن التوبة: «انها في اللسان وفي القلب، لانه لا يجوز في التائب الى الله سبحانه وتعالى، ان يظهر له امرًا يعرف به باطن امره لانه تعالى يعلم السر والخفيّ. ولذلك لا تعتبر في التوبة ما يظهر باللسان، كما تعتبره في الاعتذار، إلاّ ان اتجهت التهمة على القاضي فيلزمه اظهار التوبة في بعض الاحوال، لا لانها المزيلة للعقاب ولكن لدفع التهمة الموجهة. فأما المزيل للعقاب فهو الذي في القلب.»[٢] ثم يقول: «ومن شرط التوبة التخلية والتمكن من فعل القبيح، انما يصح متى قرن الى الندم والعزم على ترك معاودة امثاله، لان العزم يتعلق بالمستقبل».[٣]

١- «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤ ص ٢٥١.

٢- «المغني» مجلد ١٤ ص ٣١٨.

٣- المصدر نفسه مجلد ١٤ ص ٣٤٣.

٢- الزهد

قال الله تعالى «قل متاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً.»[١] «بل تؤثرون الحيوة الدنيا والاخرة خير وابقى»[٢]. «أرضيتم بالحيوة الدنيا من الاخرة فما متاع الحيوة الدنيا في الاخرة إلاّ قليل.»[٣] «انما الحياة الدنيا لعب ولهو.»[٤]. «فلا تغرنكم الحيوة الدنيا»[٥]

لم ترد كلمة «زهد» في القرآن إلاّ في موضع واحد «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين»[٦]

اختلف الناس في الزهد، فمنهم من قال: الزهد في الحرام لان الحلال مباح من قبل الله تعالى. فاذا الله انعم على عبده بمال من حلال وتعبده بالشكر عليه من حلال. فالزهد في الحرام واجب ولكنه في الحلال مباح. إلاّ ان الزاهد لا يبلغ كماله الاخير إلاّ اذا ترك الحلال الذي سمح به الشرع، فتركه للحلال ايثار ظاهر للاخرة في الدنيا[٧]. «والاخرة خير لمن اتقى»[٨]

يقول السهروردي (القتيل): «الزهد هو الامساك عن الاشتغال بملاذ البدن، إلاّ بحسب ضرورة تامة، وهو يزيد على القناعة بترك كثير من الكفاية العرفية[٩]»

١- سورة النساء، آية ٧٧.

٢- سورة الاعلى. الآيتان ١٦ و١٧.

٣- سورة التوبة. آية ٣٨.

٤- سورة محمد آية ٣٦.

٥- سورة لقمان آية ٣٣.

٦- سورة يوسف آية ٢٠.

٧- «مقامات الصوفية» ص ٦٩ (حاشية.)

٨- سورة النساء آية ٧٧.

٩- «مقامات الصوفية». ص ٦٩.

ومن اقوال ابن عربي: «لو رأيت الحق لم تزهد، فان الله ما زهد في الخلق، وما ثم إلاّ الله، فبمن ليخلف في الزهد، فالزاهد ليس له في العلم مرتبة وتركه عند اهل الجمع مفروض.»[١] ثم يقول: «ان صاحب الذوق لا بد من ان يرى لتركه طلب الدنيا والرغبة فيها اثرًا الهيًا في قلبه، فلو لم يكن له اثر في التجلي الالهي لصاحب هذا الحال.[٢]»

يقول الجنيد ابن محمد: «الزهد خلو اليد من الملك والقلب من التبتع، وهو خلو القلب عما خلت منه اليد. وهو استصغار الدنيا ومحو اثارها من القلب وترك ما فيها على من فيها.»

والبسطامي يقول: «ليس الزهد عندي بمقام اني كنت زاهدًا ثلاثة ايام. اول يوم زهدت في الدنيا. واليوم الثاني زهدت في الاخرة. واليوم الثالث زهدت في كل ما سوى الله. فناداني الحق. ماذا تريد؟ فقلت اريد ان لا اريد، لاني انا المراد وانت المريد.[٣]»

الزهد هو التخلي عن الشيء الى ما هو خير منه، على ان يكون المرغوب فيه افضل من المرغوب عنه. فكل من يتخلى عن الدنيا ومباهجها وما فيها من متع، ويطلب القرب من الله تعالى يكون زاهدًا. ويقول اهل التصوف: «الزهد في الدنيا والفناء في حب الله تعالى، هو جوهر الايمان الخالد والخير المطلق للزاهد.»

١- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ١٧٨.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ١٧٨.

يقول القشيري: ومنهم من قال: الزهد في الحرام واجب، وفي الحلال فضيلة، فإن اقلال المال والعبد صابر على حاله، راضٍ بما قسم الله تعالى له، قانع بما يعطيه، اتم من توسعه وتبسطه في الدنيا. وإن الله تعالى زهّد الخلق في الدنيا بقوله «قل متاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى[1] »

الزاهد لا يفرح بموجود في الدنيا ولا يتأسف على مفقود منها. الزهد ان تنظر الى الدنيا بعين الزوال لتصغر في عينك فيسهل عليك الاعراض عنها.

اما الفقيه احمد ابن حنبل صاحب الفقه الحنبلي قال: «الزهد على ثلاثة اوجه: الاول ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني ترك الفضول في الحلال وهو زهد الخواص. والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين.[2]

ويقول الدكتور المعلوف: «إلاّ ان الزاهد لا يبلغ كماله الاخير إلاّ اذا ترك الحلال الذي سمح له به الشرع. فتركه للحلال ايثار ظاهر للأخرة على الدنيا. «والاخرة خير لمن اتقى»[3]

أما الامام الجيلاني فيميّز بين نوعين من الزهد. الاول: زهد في الدنيا لنوال الاخرة. والثاني: ان يزهد المرء في الدنيا والاخرة وعندئذ يصل الى رب الدنيا والاخرة. ثم يقول «الدنيا لها بدل وهو الاخرة، والخلق لهم بدل وهو الخالق عزّ وجل»[4]

١- «الفتح الرباني». ص ١٣و٦٤.
٢- «الرسالة القشيرية»، ص ١١٩.
٣- سورة النساء. آية ٧٧.
٤- «الرسالة القشيري». ص ١١٥.

وفي رأي الامام الجيلاني «ان كل زاهد في المباح والحلال، معرض عن الاكتساب، هو مراءٍ كذّاب ظاهره عامر وباطنه خراب، وفي ذلك الخسران المبين، لأن القلب هو المعول عليه في هذه الامور. فالزاهد الحق هو الذي يكون له نية صالحة في جميع اعماله يقصد بها الاخرة.»(١)

انتقد الامام الجيلاني مدعي الزهد الذين يظهرون الزهد بأقوالهم وأفعالهم، لكن بواطنهم ملأى رغبة وحسرة على الدنيا. اما الصادق في زهده فهو الذي يصل اليه نصيبه من الدنيا فيتناوله ويتمظهر به، بينما قلبه زاهد فيه وفي غيره. ثم ينتقد بعض الجهلة الذين بانقطاعهم في الصوامع والخلوات، يزعمون انهم من الزهّاد دون ان يكون لهم علم ومعرفة بأصول الزهد وحقيقته(٢) فالزهّاد الحقيقيون هم الذين يفرغون قلوبهم من حب الدنيا وشهواتها ولذاتها وجميع ترهاتها، ويملأون قلوبهم بذكر الموت وقصر الامل: «أنت بعد قليل ميت، كل ما انت فيه زائل متغرق»(٣)

واما الفيلسوف أبو حامد الغزالي الذي تصوّف فيقول: «فالانبياء والاولياء انكشف لهم الامر وفاض على صدرهم النور، لا بالتعليم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له.» ثم يقول: «ان الطريق الى ذلك اولاً: بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والغرض وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه الى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض والروائب، ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم، لا يغرق فكره بقراءة قرآن، ولا بتأمل في تفسير، ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ان لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى»(٤)

١- المصدر نفسه.
٢- «الفتح الربّاني» ص ٩٥.
٣- المصدر نفسه ص ٣٢٧.
٤- «احياء علوم الدين». مجلد ٣ ص ١٣٣.

قال احد مشايخ الصوفية: «ان نزعة الزهد مشتركة بين مذاهب عديدة، فهي من صميم التوجيه الروحي الذي زخرت بها الرسالة المحمدية، وفي صلب النسك اليهودي والرهبنة المسيحية، كما ظهرت في التصوف الفارسي والهندي، ولكن من الصعب ان نرده الى هذه المذاهب، بالرغم من تأثره من بعضها، ولكن يمكن القول، ان مصدر هذه النزعة من الناحية الايجابية، كان من تشديد التعليم الاسلامي على التمسك بالاخلاق الفاضلة والقيم الانسانية والقدوة الصالحة في حياة النبي والتصرف الورع لاجلاء الصحابة وقيامهم بالفرائض الدينية تقربًا من الله تعالى والتماسًا لرضاه وعفوه.»

٣-التوحيد

«قل هو الله احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.»[١] وقال سبحانه وتعالى «والهكم آله واحد لا آله إلاّ هو الرحمن الرحيم.»[٢]

يقول ابو حامد الغزالي: «التوحيد هو قولك، لا آله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. ثم له الايمان الذي هو اصل التوكل، والتوكل من ابواب الايمان، واساس الايمان التوحيد.[٣]

اما الجنيد ابن محمد فيقول: «إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته، بكمال احديته، إنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الاضداد والانداد والاشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.»[٤]

١- سورة الاخلاص، (الآيات) ١ و٢ و٣ و٤.
٢- سورة البقرة. آية ١٦٣.
٣- «إحياء علوم الدين» مجلّده.
٤- «الرسالة القشيرية». ص ٢٩٩.

وقال ابو بكر الصديق: «سبحانه من لم يجعل لخلقه سبيلاً لمعرفته، إلاّ بالعجز عن معرفته»[١]

وابن عربي يقول: «التوحيد فناؤك عنك، وعنه، وعن الكون، وعن الفناء فابحث به. فإن كل ما سوى الحق، مائل لا يقيمه إلاّ هو، ولا اقامة إلاّ بالتوحيد، فمن اقام فهو صاحب التوحيد.»[٢]

عند ابن عربي التوحيد علم اي، توحيد الدليل للعلماء.

وتوحيد الحال ان يكون الحق نعتك، فيكون هو لا انت في انت – ما رميت اذ رميت بل الله رمى – وتوحيد المشاهدة اذ ترى الاشياء من حيث الوحدانية، فلا يرى إلاّ الواحد. اذن التوحيد عند ابن عربي هو وحدة الوجود، وهذا ما يعتبره العلماء شركًا بالله ان نقول لله شريكًا، لا في الالوهية بل في الوجود.

التوحيد عند المعتزلة، اهل العدل والتوحيد، هو نفي الصفات عن الله تعالى وعدم رؤيته في الدار الاخرة. والمعتزلة اول من اثار مشكلة التوحيد في العالم السني وعملوا جاهدين في سبيل تطبيق مذهبهم التوحيدي في مسائل الالهيات والاخلاقيات. اما في العالم الشيعي فكان الاسماعيلية من الاوائل الذين قالوا بالتوحيد بنفي الصفات عن الله تعالى، فيصبح وليس كمثله شيء.

ومن اقوال الصوفية في نفي الصفات عن الله الذي يتوافق مع اقوال المعتزلة: «إنه أَحدي الذات، ليس يشبه شيئًا من المصنوعات ولا يشبهه شيء من المخلوقات. ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، ولا صفاته اعراض، ولا يتصور في الخيال، ولا يقدّر في العقول، لا جهة له ولا مكان، ولا يجري عليه ولا زمان، ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان. ولا تخصه هيئة وقدّ، ولا

١– «الرسالة القشيرية» ص ٣٠٠.
٢– «التجليات» ص ٣٣.

تقطعه نهاية وحدّ، ولا يحله حادث، ولا يحمله على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كون، ولا ينصره مدد ولا عون». ويختلفون عن المعتزلة بقولهم: «انه عالم بعلم قادر بقدرة، مريد بارادة، سميع يسمع، بصير يبصر، متكلم بكلام، حي بحياة باقٍ ببقاء.[١]

يقول الدكتور عرفان فلاح نافيًا الالوهية عما سوى الله، فهو تعالى واحد بمعنى انه لا ندّ له ولا شريك ولا ضد، فهو واحد احد فرد صمد، قال تعالى «وقضى ربك ألاّ تعبدوا الاّ اياه.»[٢]

اما ابن تيمية فقال: «للتوحيد ثلاث حقائق: الاولى توحيد الالوهية، وهو الاعتراف بالوحدة الذاتية لله تعالى اي، لا آله إلاّ الله، والثانية التوحيد بالربوبية، وهو كمال الابداع والارشاد والقول: لا خالق ولا مرشد سواه تعالى. والثالثة توحيد العبودية، وهو ان يسلم المرء ذاته لله رب العالمين فلا يعبد سواه ولا يتقرب إلاّ اليه»[٣]

والصوفية الاوائل قالوا بالتوحيد الارادي، وهو ادراك الوحدة الالهية في مستوى الارادة، حيث تذوب ارادة الصوفي في ارادة الله. ثم التوحيد الشهودي، ويتحقق بالوحدة المطلقة في المشاهدة والتأمل وهو تسامي الوجود الانساني المحدود الى سماء الوجود الإلهي اللامحدود»[٤]

ويقول شهاب الدين السهروردي: «التوحيد ليس هو عبارة عما هو مشهور في معرفة الله تعالى بالوحدانية والقيومية، بل هنا عبارة عن افراد الكلمة عن علائق الاجرام بحسب الامكان على وجه ينطوي ملاحظة المبادئ، والترتيب في العظمة القيومية، وليس وراءه مقام وان كان فيه مراتب.»[٥]

١- «الرسالة القشيرية» ص ٤٨.

٢- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها» ص ٢٨.

٣- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم، حاشية ص ١١٧٨ (بتصرف)

٤- المصدر نفسه ص ١١٧٩.

٥- مقامات الصوفية. ص ٧٧.

ان معنى القول: «فليس وراءه مقام وان كان فيه مراتب. ان ليس ثمة في الوجود إلاّ الواحد، وان جميع ما في الكون من مخلوقات، هي مراتب قائمة بالواحد واجبة به. جميع الاعداد اللامتناهية، مراتب معقولة يشكل الواحد جوهرها، فهي في هذه الحيثية واحد مكرر.»[١]

ويقول القشيري: «التوحيد ثلاثة: الاول توحيد الحق للحق، وهو علمه بانه واحد. الثاني توحيد الحق سبحانه للخلق، وهو حكمه سبحانه بأن العبد موحد وخلقه توحيد العبد. والثالث توحيد الخلق للحق سبحانه، وهو علم العبد بان الله، عزّ وجل واحد، وحكمه واخباره عنه بانه واحد، فهذه الجملة من معنى التوحيد على شرط الايجاز والتحديد.[٢]»

قال الجنيد ابن محمد: «علم التوحيد مباين لوجوده، ووجوده مفارق لعلمه، وقد طوى بساطه والناس يتكلمون عن حواشيه[٣]»

ومن الاوائل، الصوفي سهل التستري الذي قال عن التوحيد، وذلك يتوافق مع اقوال المعتزلة «ذات الله تعالى موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة ولا مرئية بالابصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة ولا حلول، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه[٤]

ويفسر الدكتور اميل المعلوف التوحيد بقوله: «ان التوحيد بالنسبة الى الصوفيين، هو افراد الله عن الكثرة المقدارية في عالم الكون والفساد، ويتم هذا الافراد عن طرق ثلاث: اولاً، افراد فعل الله عن فعل غيره من مخلوقاته، وذلك باثبات العقل المطلق له لا لغيره على سبيل الحقيقة لا المجاز. ثانيًا، افراد صفات

١- «مقامات الصوفية» ص ٧٧ (بتصرف)
٢- «الرسالة القشيرية»، ص ٢٩٩.
٣- المصدر نفسه ص ٣٠١.
٤- المصدر نفسه ص ٣٠٠.

الله عن صفات غيره من مخلوقاته وذلك باثبات الصفات الحقيقية له لا لغيره عند تجليه لمخلوقاته بصفاته. ثالثا، افراد ذات الله القديمة عن ذوات غيره من مخلوقاته، وذلك باثبات الذات الحقيقية له لا لغيره عند تجليه لمخلوقاته بذاته. هكذا تتلاشى جميع الافعال والصفات والذوات في افعال الله وصفاته وذاته، ويرى المتصوف نفسه مع جميع المخلوقات مستغرقًا في الذات الواحدة مستهلكًا في عين التوحيد.»[1]

سئل ذو النون المصري عن التوحيد ما هو؟ فقال: «هو ان تعلم ان قدرة الله في الاشياء بلا مزاج، وصنعه للاشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه. وليس في السموات العلى ولا في الارضين السفلى مدبر غير الله، ومهما تصور في وهمك، فالله تعالى بخلاف ذلك.»[2]

ومن الاذكار التي يرددها الصوفي «وحدّوه... وحّدوه.. لا اله إلاّ هو، الحي القيوم، سبحانه لا شريك له.»

٤- الرجاء

من المفيد ان يكون الانسان دائمًا بين حالي الخوف والرجاء. فالخوف يردعه عن المعصية، والرجاء يدفعه الى العمل مما يضبط سلوكه ويحصنه ويجعله مما رضي عنهم الله واحبهم»[3]

١- «مقامات الصوفية» ص ٢٧٨. (الحاشية)

٢- «المعجم الصوفي»، الدكتورة سعاد الحكيم ص ١١٧٨.

٣- «التصوف»، اسعد السحمراني ص ١٤٥.

يقول ابو حامد الغزالي: «كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب، فيقسم الى موجود في الحال، والى موجود فيما مضى والى منتظر في الاستقبال.» ثم يقول: «وإخطار وجوده بالبال، لذة في القلب وارتياح، سمي الارتياح رجاء. فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده. فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، و لم يبق إلاّ ما ليس يدخل تحت اختياره، هو فضل الله تعالى بصرف المفسدات، والاخلاق الرديئة، ثم انتظار حسن الخاتمة، وهي انتظار الرجاء الحقيقي والقيام بمقتضى الايمان الصحيح في حصول ما يرغب ويشتهي»[1]

ويقول الله تعالى «ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله.»[2]

«الرجاء تعلق القلب بمحبوب يُنال من المستقبل، ثقة بسعة رحمة الله تعالى، اما بحضور نفع او بدفع ضرر. الرجاء عيش القلوب واستقلالها. والفرق بين الرجاء وبين التمني ان التمني يورث صاحبه الكسل ولا يسلك طريق الجهد والجد، بعكسه صاحب الرجاء»[3]

يقول السهروردي: «الرجاء ابتهاج النفس بملائم لها اخطرت امكان حصوله في المستقبل.»[4] وقال الدكتور اميل المعلوف: «غير ان ابتهاج النفس بحدوث نفع او دفع ضرر، يكون مصحوبًا دائمًا بالخوف، ذلك ان العابد لا ينفك في حال رجائه، خائفًا من موت الرجاء لعظم المرجو في قلبه وشدة اغتباطه به.»[5]

١- «إحياء علوم الدين» مجلد ٤ ص ٤١٢.

٢- سورة البقرة، آية ٢١٨.

٣- «المعجم الصوفي» ص ٧٣٢. والرسالة القشيرية ص ١٣١.

٤- «مقامات الصوفية»، أميل معلوف ص ٦٩.

٥- المصدر نفسه الحاشية ص ٦٩.

الرجاء محمود والتمني معلول[1]. وكما ان الخوف يقع في مستقبل الزمان، فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل في الاستقبال، وبالرجاء يكون عيش القلوب واستقلالها.[2]

الرجاء هو النظر الى سعة رحمة الله والاستبشار بوجود فضله، ولذلك كل من يتوقع الحسن في المستقبل يعتبر راجيا مؤملاً في رحمته عزّ وجل.

وقال ابو بكر الطوسي: «والرجاء على ثلاثة اقسام: رجاء في الله، ورجاء في سعة رحمة الله ورجاء في ثواب الله».[3] ثم يقول: «الخوف له ظلم يتحيّر صاحبه تحته يطلب ابدًا المخرج منه فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج الى مواضع الراحة فغلب عليه التمني ولا ينفع حسن النهار الاّ بظلمة الليل وفيهما صلاح الكون، فكذلك القلب مرة في ظلم الخوف أسير فاذا طرق طوارق الرجاء فهو امير، والمحبة والخوف والرجاء مقرون بعضها ببعض.»[4]

٥- التوكل

ومن الايات التي انزلها الله تعالى في التوكل ما يلي:

«وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين» سورة المائدة الآية ٢٣.

«وعلى الله فليتوكل المتوكلون.» سورة ابراهيم الآية ١٢.

«ومن يتوكل على الله فهو حسبه.» سورة الطلاق آية ٣.

«فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين» سورة آل عمران آية ١٥٩.

«وتوكل على الحي الذي لا يموت» سورة الفرقان آية ٥٨.

١- «الرسالة القشيرية»، ص ١٣٢.

٢- المصدر نفسه.

٣- «اللمع في التصوف» ص ٦٢.

٤- المصدر نفسه ص ٦٣.

اما ابو حامد الغزالي فيقول: «قال النبي «صلعم» توكلوا عليه، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، والصلاة على محمد قامع الاباطيل الهادي الى سواء السبيل. التوكل مقام من مقامات المؤمنين، ومن معالي درجات المقربين، ويتوافق فيه معنى التوحيد وهو في غاية الغموض، ولا يقوى على كشف معناه مع شدة الخفاء إلاّ العلماء الذين غمرهم الله تعالى بانوار الحقائق فنطقوا بالاعراب عما شاهدوه بانوار الحقائق.(١)»

«التوكل المطلق هو الايمان بالله وبقضائه وقدره، فالانسان لا يستطيع امرًا لا يريده له الله تعالى، ولا يقوى على امر لا يريده له الله، لذلك اقتضى ان تتلاشى ارادته في ارادة الله، وعليه، فباطل كل ما يحاوله الناس من وسائل الكسب والاستشفاء، ما لم يرد الله لهم ذلك.»

قال السهروردي «القتيل»: «التوكل هو دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر في جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الاسباب الطبيعية.»(٢)

الدكتور اميل المعلوف يقول: «ان التوكل بما هو علم وحال وعمل يفترض اصلاً القول بالتوحيد، لان اعتماد القلب على الوكيل وحده، وهو الله، يجعل جميع الوسائط والاسباب مسخرات. فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الباري تعالى وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض.»(٣)

ويقول القشيري: «قال ابو علي الدقاق: «التوكيل ثلاث درجات، التوكل، ثم التسليم ثم التفويض. فالمتوكل يسكن الى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه. التوكل بداية والتسليم بواسطة

١- «احياء علوم الدين» مجلد ٥ ص ١١٦.
٢- «مقامات الصوفية»، ص ٧١.
٣- «مقامات الصوفية» ص ٧١ (الحاشية)

والتفويض نهاية.[1] ثم يقول: «التوكل تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة والاسترسال مع الله على ما يريده. وانما يقوى العبد على التوكل اذا علم ان الحق، سبحانه وتعالى، يعلم ويرى ما هو فيه.»[2]

يقول ابن عربي: «التوكل اعتماد القلب على الله مع عدم الاضطراب عند فقد الاسباب الموضوعة في العالم التي من شأن النفوس ان تركن اليها، فان اضطرب فليس بمتوكل، وهو من صفات المؤمنين فما ظنك بالعلماء من المؤمنين! فان كان التوكل لا يكون للعالم إلاّ في كونه مؤمنًا لما قيده الله به، وما قيده سدى. التوكل مشروع فينال الحد المشروع منه. والتوكل الحقيقي غير واقع من الكون في حال وجوده، فما هو إلاّ للمعدوم في حال عدمه، وما ثم مقام يتصف به المعدوم ولا يصح في الموجود من جهة الحقيقة.[3]»

قال مالك بن انس: «ان رجلاً جاء على ناقة وقال للنبي: ادعها واتوكل؟ قال النبي اعقلها وتوكل.[4]»

يقول الامام الجيلاني: «ان اصل التوكل مأخوذ من الآية «ومن يتوكل على الله فهو حسبه.»[5] وان حقيقة التوكل تكمن في تفويض الامور الى الله، والتنقي عن ظلمات الاختيار والتدبير والترقي. ساحات شهود الاحكام والتقدير، فيقطع العبد ان لا تبديل للقسمة، فما قسم له لا يفوته، وما لم يقدَّر له لا يناله، فيسكن قلبه الى ذلك ويطمئن الى وعد مولاه.»[6]

١- «الرسالة القشيرية»، ص ١٦٦.
٢- المصدر نفسه، ص ١٦٤.
٣- «الفتوحات المكّية»، مجلد ٢ ص ١٩٩.
٤- رواه الترمذي في «القيامة» ص ٦٠.
٥- سورة الطلاق آية ٣.
٦- «الغنية لطالبي الحق» ص ١٦٥.

وقال الجنيد ابن محمد: «التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جميع الاحوال. لكن التوكل لا يعني بحال من الاحوال ان يقعد الانسان عن الكسب، وان يهجر العمل، ليشكل بذلك عالة على اهله ومجتمعه، فهذا السلوك مدعاة للتخاذل والهروب الذي يشل الطاقات في المجتمع. ليس في الاسلام ما يأمر بالتواكل وضعف الهمة.[١]»

قال الله تعالى «هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور.»[٢]

ومقام التوكل عند الامام الجيلاني يشتمل على ثلاث درجات هي:[٣]

١- التوكل. بداية المقام وصفة العوام من المؤمنين، حيث يكون السكون الى وعد الله مع اسقاط التدبير، فصاحب هذه الدرجة اذا أعطي شكر واذا منع صبر.

٢- التسليم. وهو الدرجة الوسطى وصفة الخواص والاولياء حيث يكتفي العبد بعلم الله فيه، ويكون المنع والعطاء عنده صنوان.

٣- التفويض. وهو نهاية درجات مقام التوكل، وصفة خصوص الخصوص من اهل التوحيد. وفي التفويض يكون المنع مع الشكر أحب الى العبد مما سواه، وذلك هو الرضا التام بحكم الله.

وان التوكل لا يتعارض مع الاكتساب، فالكسب والتوكل لا يستغني احدهما عن الاخر.

التوكل الحقيقي ليس طلبًا لتحقيق هدف معين اعتمادًا على الله، بل هو الرضا بما قد قسم الله، حتى وان كان ذلك ضد رغبة العبد. التوكل هو رؤية التصرف الالهي والرضا به.[٤]

١- «التصوّف» السحمراني، ص ١٣٠.

٢- سورة الملك، آية ١٥.

٣- «الغنية لطالبي الحق» مجلد ٣ ص ١٣٣٧.

٤- «النصوص في مصطلحات التصوّف»، محمد غازي عرابي ص ٧٢.

٦- المعرفة

ليس في القرآن الكريم لفظ للمعرفة، ولكن القشيري في كتابه «الرسالة القشيرية» يشير الى حديث نسب الى الرسول الكريم «ان دعامة البيت اساسه ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى واليقين والعقل القامع.» وسألته عائشة ما العقل القامع؟ قال «الكف عن معاصي الله، والحرص على طاعة الله، عز وجل.»[١] وروي حديث آخر عن النبي «من عرف نفسه فقد عرف ربه.»

سبق وقلنا ان لفظة «معرفة» لم تذكر في القرآن الكريم، ولكن مشتقاتها عارف، وعرف، ويعرفون وردت مرارًا بطريقة الوصول الى الحقيقة مثل «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.»[٢] ثم الآية «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون»[٣] وبذلك اطلق لقب العارف بالله على من ادعى النبوة.

العلم والمعرفة يقصد بهما المتصوفة معرفة الله والعلم به. وفي القرآن الكريم جعل وصف «العلم بالله جائزًا كما لا يصح وصفه تعالى بالمعرفة، اذ العلم ضد الجهل والمعرفة ضد الانكار، اي المعرفة هي الطريق بما يتضمنه من مجاهدات وتجارب، والعلم هو البرهان الثابت المتصل بالحقيقة.»[٤]

١- «الرسالة القشيرية» ص ٣١١.

٢- سورة البقرة، الآية ١٤٦.

٣- سورة النحل، الآية ٨٣.

٤- «التصوّف طريقًا وتجربةً ومذهبًا»، الدكتور كمال جعفر ص ١٨١.

«ان المعرفة لا تطلق على الله تعالى لانها في اسم لعلم، كان بعد ان لم يكن، وعلمه تعالى قديم»(١)

يقول القشيري: «المعرفة على لسان العلماء هي العلم، فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله تعالى عارف، وكل عارف عالم، وعند هؤلاء القوم: المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه باسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى في معاملاته ثم تنقى عن اخلاقه الرديئة وآفاته.»(٢)

يشير المتصوف سهل التستري الى الفرق بين العلم والمعرفة فيقول: «بدء الاشياء المعرفة واخرها العلم، وبدء الشيء واخره المعرفة، وآخر باب من العلم اول باب من المعرفة، واول باب من المعرفة السكون الى الله، عز وجل، وكمال الذكر هو العلم بالمشاهدة.»(٣)

المعرفة، معرفة الاشياء بصورها وسماتها والعلم علم الاشياء بحقائقها. والمعرفة الصوفية يشكل العامل النفسي والذاتي اساسًا لها وترتبط بوقته وبمجهوده وبمنّ الله وفضله ورضاه.

يقول اهل التصوف: «ان الموضوع الاساسي للمعرفة هو معرفة الله، وان الموضوع الاول هو وحدانية الله، وان الانسان يدرك حقيقة وحدانية الله بانه موجود وواحد، وانه بوحدانيته منزه عن المثيل والشبيه تنزيهًا مطلقًا.»(٤)

وروى الصوفي ذو النون المصري: «المعرفة على ثلاثة وجوه: الاول معرفة التوحيد الخاصة بالعامة المؤمنين المخلصين. والثاني معرفة الحجة والبيان، وتلك خاصة بالحكماء والبلغاء والعلماء المخلصين. والثالث معرفة صفات الوحدانية، وتلك خاصة باهل ولاية الله المخلصين الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم ما لم يظهر لأحد من العالمين.»

١- «كشاف اصطلاحات الفنون»، التهناوي مجلد ٢ ص ٩٩٦.
٢- «الرسالة القشيرية»، ص ٣١١.
٣- «التراث الصوفي»، التستري مجلد، ٢ ص١٠٤.
٤- «النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية» حسين مروّه مجلد ٢ ص ٢٠٥.

المعرفة عند الصوفية هي معرفة بغير وسائط او براهين لا يملكها إلاّ من انتهج سبل التصوف وتسمى كشفًا، وهي من نعم الله تعالى وفضله ولا تأتي الا بعد الايمان الصادق وطهارة القلب والصدق في العبادة.

الغزالي يفرّق بين المعرفة والعلم بقوله: «ان المعرفة تقوم على التجربة المباشرة بينما العلم يكون اكثر عمومية لانه يدل على كسب المعلومات نقلاً او عقلاً بالنسبة للانسان. اذًا المعرفة تتطلب تجربة مباشرة، بينما العلم لا يشترط التجربة. والمقصود بكل المعرفة، والعلم، معرفة الله.»

يقول ابو الطيب المراغي: «للعقل دلالة وللحكمة اشارة وللمعرفة شهادة. فالعقل يدل، والحكمة تشير، والمعرفة تشهد بان صفاء العبادات لا ينال إلاّ بصفاء التوحيد.»

اما علاقة الحواس: النظر، السمع، الشم، اللمس والذوق بالمعرفة فهي محدودة المدى، اذ تنحصر في توجيه معرفة الشيء كما يبدو كرؤية محسوسة الى العقل لدرسها وتقدير ماهيتها وتقرير مصيرها.

الحواس معرضة للخطأ والاوهام، يدرك منها الانسان بقدر طاقته لا لحقيقة الشيء، فهذا الادراك اذًا، محصور بالادراك الحسي الذي يجذب انتباه الانسان. اذا رأينا تفاحة حمراء، ندرك بحاسة النظر لونها وحجمها. اما العقل، معدن الحكمة ومدرك ما خفي عن الابصار، فيُحلِّل طعمها وقيمتها ومصيرها وهل هي للمحبوب او الاكل او الكسب المادي.

الواضح ان المعرفة عند اهل التصوف لا تحصل عن طريق الحس او العقل الذي يتجاهلونه بل بنور الهيّ يغرسه الله تعالى في قلب المؤمن بعد ان يكون قد تطهر قلبه من شوائب المادة واستغرق في حب الله والفناء به، وهي العرفان.

اما الاديب الكبير احمد فارس الشدياق فله طريقة ساخرة في وصف المعرفة فيقول: «في معرفة الحقائق لذة اذ ان المؤلف يعرف شيئًا جهله غيره، ولكن من المؤسف اذا عرف مثلاً حقيقة واراد ان يعرّف غيره اياها، وجد اكثر الناس قد صمّوا عن سماعها، فهو من جهة انه عارف بالحقيقة مسرور، ومن جهة انه يرى غيره في ضلال عنها محزون، وسروره لنفسه لا يوازي حزنه على غيره. وهنيئًا لمن رضي بالجهل وعزائي لمن بلي بالمعرفة.»(١)

يقول شهاب الدين السهروردي (القتيل) «المعرفة ارتسام الحقائق في النفس بمقدار ما ترتقي اليه طاقة البشر من ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى، ما يليق بصفاته وافعاله ونظام صنعه.»(٢)

والدكتور اميل المعلوف يقول: «الفرق بين العلم والعرفان، العلم ادراك للمحسوسات الجزئية بالحس ادراكًا مباشرًا، وتحصيل الاوليات العقلية بالنظر العقلي تحصيلاً واضحًا. والعرفان ادراك للحق بالاشراق والالهام. وادراك للالوهية وصفاتها وافعالها بنور يقذفه الله في قلب «من صار في الخلق اجنبيًا، ومن آفات نفسه بريّا، ومن المساكنات والملاحظات نقيًا.(٣)»

سئل البسطامي عن العارف فقال: «لا يرى في نومه غير الله تعالى. ولا في يقظته غير الله تعالى. ولا يرافق غير الله تعالى ولا يطالع غير الله تعالى.»(٤)

«الصوفية غالبًا ما يقصدون بالعلم ظاهر الحقائق، وبالمعرفة بواطنها. فالعلم ما يأتي للعقل بالتحصيل وبذل ومجهود، اما المعرفة فهي ما يتأتى للقلب من الصفاء وقبول عين الجود. والمحبة اول طور من اطوار المعرفة.»(٥)

١- «الساق على الساق»، ص ٣٥٦.
٢- «مقامات الصوفية»، ص ٧١.
٣- المصدر نفسه، ص ٧١.
٤- «الرسالة القشيرية» ص ٣١٦.
٥- «المعارف الغيبية». النابلسي. (بتصرف).

أمّا الامام الجيلاني فيقول: «فاذا وصل العبد الى اشراقات المعارف، جمع بين اطمئنان النفس، وسلامة القلب وصفاء السر، وتنعم آنذاك بانوار القرب وكان من العباد العارفين الذين خلعوا ثياب السفر ونزلوا منازل التمكين، فصاروا مهبط علوم الالهام واسرار الرحمن.»[١]

٧. اليقين

المكاشفة ورضا العبد بما قسم الله له، واليقين اصل جميع الاحوال ومنتهاها.[٢] واليقين نقيض الشك، وهو عماد الحق وأصحّه.

قال الله سبحانه وتعالى:

«ان هذا لهو حقّ اليقين» سورة الواقعة آية ٩٥.

«واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين.» سورة الحجر آية ٩٩.

«ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن وما قتلوه يقينًا.» سورة النساء ١٥٧.

«كلا لو تعلمون علم اليقين لترَوُنَّ الجحيم.» سورة التكاثر. آية ٥ و٦.

«ثم لترُونَّها عين اليقين.» سورة التكاثر آية ٧.

ويعتبر الصوفية ان اليقين لا يؤكده الانسان، الله انزله في قوله تعالى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.»[٣] وينحصر همّ الصوفي في فهم اليقين المنزل وليس في البحث عن يقين انساني، وبالتالي يبدأ «يقين» الصوفية من يقين القرآن والسنة، ثم يتدرج في مراتب هي ما اعطوه في اليقين.»[٤]

١- «الفتح الربّاني»، ص ٢٥٨.
٢- «مقامات الصوفية»، اميل المعلوف ص٦٩.
٣- سورة فُصّلت، آية ٤٢.
٤. «المعجم الصوفي» ص ١٢٤٩. الدكتورة سعاد الحكيم.

«ويشترك في علم اليقين عنصران: عنصر القلب وعنصر الفؤاد. فالقلب باستشرافه تخوم الروح رأى وعلم ووعى فأصبح قادرًا على ان يتسنم سدة العلم. أما الفؤاد فهو موضع الروح في القلب، وهو المدعو ذات الذات او عين اليقين.»[١]

وفي وصية لقمان الحكيم لابنه: «يا بني، لا يستطيع العمل إلاّ باليقين، ولا يعمل المرء إلاّ بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه.»[٢]

قال ذو النون المصري: «اليقين داع الى قصر الامل، وقصر الامل يدعو الى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب.» ثم يقول: «ثلاثة من اعلام اليقين: قلة مخالطة الناس في العشرة، وترك المدح لهم في العطية والتنزه عن ذمّهم عند المنع.»[٣]

يقول ابن عربي: «ان اليقين، عبارة عن استقرار العلم في النفس، والاستقرار ما هو على المستقر، بل الاستقرار صفة للمستقر، وهي حقيقة معنوية لا نفسية، فليست عين نفس العلم، فجازت الاضافة.»[٤] ثم يقول في كتاب الاصطلاحات(٥) «علم اليقين: ما اعطاه الدليل. عين اليقين: ما اعطاه المشاهدة. حق اليقين، ما حصل في العلم بما اريد له ذلك المشهود. ويفسر ابن عربي هذه المقولة عن اليقين بقوله: علم اليقين معرفة الله بك اذ انت عين الدليل عليه، وهو اثبات ذات غير مكيفة ولا معلومة الماهية، محكوم عليها بالالوهية سلطانًا وحجة لا ريب فيه. عين اليقين: مشاهدة هذه الذات بعينها لا بعينك، فناء كليًا لا يعقل معها نسبة الوهية اثباتًا او نفيًا. حق اليقين: نسبة الالوهية لهذه الذات بعد المشاهدة لا قبلها وهو الفرق بين العلم والحق ليس إلاّ.»[٦]

١- «النصوص في مصطلحات التصوّف»، محمد غازي عرابي، ص ٢٣٨.
٢- «عوارف المعارف». شهاب الدين السهروردي. ص ١٣٠.
٢- «المعجم الصوفي» ص ١٢٤٩. الدكتورة سعاد الحكيم.
٣- «المعجم الصوفي»، ص ١٢٤٩.
٤- «الفتوحات المكية». مجلد ٢ ص ٢٦٩.
٥- «الاصطلاحات»، ص ٢٨٩.
٦- «كتاب المسائل». ص ٣٥ طبع في حيدر آباد عام ١٩٤٨.

اما ابو حامد الغزالي فيقول: «كل علم لا شك يسمى يقينًا، واليقين نفي الشك، فلا يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع انه لا شك فيه. وفلان قوي اليقين في اتيان الرزق، مع انه قد يجوز انه لا يأتيه. انما اردنا بقولنا، ان من شأن علماء الاخرة، صرف العناية الى تقوية اليقين بالمعنيين جميعًا وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها والمتصرف بها. ثم يقول: «ان التوكل والرضا والتسليم هم ثمرة اليقين وروحه، فمن آمن الى الوجود بكامله، وان كل مخلوق من حيوان وجماد ونبات وافلاك مسخر بامر الله تعالى، وان القدرة الازلية هي المصدر للكل، صار موقنًا بريئًا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق، فهذا احد ابواب اليقين.[1]»

٨. الفناء

يعتبر بعض المفكرين ان فناء الصوفي في حب الله تعالى مقتبس عن «النرفانا» عند زهاد الهنود التي تقول في ان قهر الجسد وحرمانه من متع الدنيا يحرر النفس فتنطلق الى خالقها، الله تعالى، فتفنى فيه، وهذا منتهى السعادة ونهاية الانسان في طلب الحق.

وأما الجنيد بن محمد، الذي ربط اصول التصوف بالقرآن والسيرة الشريفة وجعلهما ركن العبادة والرياضة الروحية والايمان فقال: «ان الدنيا مصدر الفساد والجسد جرثومة الشر، فهدف الانسان الصالح المؤمن يكون نبذ الدنيا وقهر شر الجسد، كي تتحرر النفس وتنشد السعادة في التحرر من سلطان الجسد فتسمو الى الله تعالى وتفنى في ذاته، فيحقق لها المعرفة الصحيحة والاطمئنان والسعادة التامة.»

---

١. «احياء علوم الدين». ص ٩٧ و٩٨.

ويشرح الدكتور عفيفي الفناء الصوفي بقوله: «الفناء الصوفي هو الحال التي تتوارى فيها آثار الارادة والشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق، فيصبح الصوفي وهو لا يرى في الوجود غير الحق، لا يشعر بشيء في الوجود سوى الحق وفعله وارادته. فالفناء عن المعاصي يقتضي البقاء بالطاعات، والفناء عن الصفات البشرية يقتضي البقاء بصفات الالوهية، والفناء عما سوى الله يقتضي البقاء بالله. وليس المقصود بالفناء ذلك المعنى الشائع، وهو الفناء بالموت، بل المقصود ان يفنى الصوفي عن الاخلاق الذميمة ويبقى بالاخلاق الحميدة، ويفنى عن صفاته من علم وقدرة وارادة، واخيرًا يفنى عن نفسه وعن العالم حوله ويبقى بالله بمعنى انه لا يشهد في الوجود إلاّ الله.»[١]

اما المستشرق H. Ritter يعتبر ان كلمة الفناء تدور حول «الأنا» لذا فمن واجب الصوفي ألا يشعر بذاتيته لان شعوره «بالأنا» او بالذاتية فيه شعور بالاثنينية، والشعور بالاثنينية شرك، ولذا فالنتيجة المطلوبة من الفناء هي رفع الاثنينية. ثم يقول Ritter، «ان النبي يقول للسالك، اذا اردت ان تخرج عن نفسك وان تفنى، فلا بد ان تصبح لا شيء في ذات الله، كن ظلاً يضيع في الشمس، كن لا شيء، والله عالم بكل شيء.[٢]

يقول القشيري: «فمن ترك افعاله الذميمة بلسان الشريعة، فانه فني عن شهواته، فاذا فني عن شهواته بقي بنيّته واخلاصه في عبوديته، ومن زهد في دنياه بقلبه فقد فني عن رغبته، فاذا فني عن رغبته فيها بقي بصدق انابته، ومن عالج اخلاقه فنفي عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر، وأمثال هذا من رعونات النفس، فقد بقي بالفتوة والصدق.» ثم يقول: «اذا قيل لقد فني الانسان عن نفسه وعن الخلق، فنفسه موجودة والخلق موجودون،

---

١. «التصوف والثورة الروحية في الاسلام» ص ١٧٩.

٢. Das meer der seele mench wela und Gott. p. 589.

ولكن لا علم له بهم ولا به، ولا احساس ولا خبر، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودان ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق اجمعين غير حاس بنفسه وبالخلق. فاذا فني العبد بما جرى ذكره يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه»[١]. ثم يقول: «فصفات الانسان ببقائه بصفات الحق وثم فناؤه في صفات الحق، وشهوده للحق، ثم فناؤه باستهلاكه في وجود الحق.»[٢]

ويقول شهاب الدين السهروردي (القتيل): «الفناء هو انجذاب قلوب المؤمنين الى الحق وعبادته ومحبته الى درجة لا يشعرون معها بغير ما يعبدون ولا يشهدون غير ما يقصدون.[٣]»

والفناء عند الصوفي «هو من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد في الأغيار لا عينًا ولا اثرًا ولا طللاً فقد فني عن الخلق وبقي بالحق. ففناء العبد عن افعاله الذميمة واحواله الحسيّة بعدم هذه الافعال، وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال احساسه بنفسه وبهم، فاذا فني عن الافعال والاخلاق والاحوال فلا يجوز ان يكون ما فني عنه ومن ذلك موجود.»[٤]

ويشرح الدكتور اميل المعلوف الفناء بقوله: «الفناء موهبة تنزل على العبد من ربه فتصرفه عن شعوره بذاته وبصفاته البشرية وتبعده عن ملاحظة حاجات نفسه والسعي الى منافعها وتفرزه عن الخلق فلا يشاهد الاثار من الاغيار وتحصنه عن تعظيم ما سوى الله، بهذا يصبح الفناء عن النفس بقاء في الحق، وجمعًا وتوحيدًا للعبد في ذات الخالق.»[٥]

١- «الرسالة القشيرية». ص ٦٨.

٢- «الرسالة القشيرية» ص ٦٩.

٣- «مقامات الصوفية». اميل المعلوف ص ٨١ الحاشية.

٤- «الرسالة القشيرية». ص ٦٨.

٥- مقامات الصوفية، ص ٨٠ .

بعض المفكرين المسلمين، كالهجوري وابن تيمية، يعترضون على ربط الفناء بالمحو والطمس، معتبرين القول بفناء ذات العبد في ذات المعبود كفرًا والحادًا. فاوصاف الحق، بالنسبة اليهم، ليست هي الحق، وفناء ارادة في ارادة الله لا يعني مطلقًا فناء وجود العبد في وجود الله. فالله لا يحل في قلوب اوليائه، وانّ ما يحل في قلوب هؤلاء هو الايمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره. فالفناء في عرفهم اتحاد معنوي لا مادي وتشابه دون استغراق للمحب في ذات من يحب.

«لم يعرف التصوف القديم الفناء والبقاء تعريفًا ماهويًا* بل كانت تعريفاته منصبة على الاضافات مثلاً: الفناء هو فناء عن كذا وكذا. والبقاء هو بقاء بكذا وكذا. فتعريف الفناء تعداد للفاني من الصفات والبقاء تعداد للباقي منها. وهكذا كانت النظرة الى الفناء والبقاء نظرة اضافة لا اطلاق، يضاف الى ذلك انهما حالان متتاليان: بقاء بعد فناء.»[1]

يقول ابن عربي: «البقاء عندنا اشرف من نسبة الفناء، لان الفناء عن الادنى في المنزلة ابدا عند الفاني، والبقاء بالاعلى في المنزلة ابدًا عند الباقي. فإن الفناء هو الذي افناك عن كذا فله القوة والسلطان فيك، والبقاء نسبتك الى الحق واضافتك اليه، والفناء نسبتك الى الكون، ونسبتك الى الحق اعلى. فالبقاء في النسبة الاولى لانهما مرتبطان فلا يبقى إلاّ فانٍ. ولا يفنى إلاّ باق والموصوف بالفناء لا يكون إلاّ في حال البقاء. والموصوف بالبقاء لا يكون إلاّ في حال الفناء. ففي نسبة الفناء شهود وخلق، فحال البقاء اعلى من حال الفناء وان تلازما مكانا للشخص في زمان واحد. السبب الذي افناك عن كذا فهو الذي انت باق معه.»[2] ثم يقول: «ان فناء الصوفي ليس امرًا سلبيًا محضًا، وليس امرًا عدميًا بل يعقبه بقاء اي بقاء بالحق.[3]

---

* ماهويًا: الماهية من الامر او الشيء، حقيقته وطبيعته، ما يقوم به او كل ما يدخل في الجواب على من يسأل «ما هو». المنجد في اللغة والاعلام. حرف (م) ص ٢٤.

١- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم ص ٢٠٢.

٢- «الفتوحات المكية». مجلد ٢ ص ٥١٥.

٣- «فصوص الحكم»، ص ٧٢.

وأما الدكتور السحمراني فرأيه في الفناء يختلف عن معظم رأي علماء التصوف كالغزالي وغيره فيقول: «من الافضل تجنب القول بالفناء ما دام يفسح في المجال لهرطقات وشطحات تخالف الاسلام ويبرر ذلك بعض الصوفية بأن ما صدر سببه فناء العبد عن نفسه وعدم درايته بما يصدر عنه. وحتى لا نقع في هذا المحظور يجب رفض الفكرة مطلقًا خصوصًا وأن ذكر الله وعبادته مطلوب ان يقترنا بالفكر والتفكر.[١]»

ويوافق الدكتور البير نصري نادر الدكتور السحمراني في رفضه عقيدة الفناء اذ يقول: «وانقطاع الشعور بالذات عند الفناء، كما يزعم المنحرفون من الصوفيين، يقود الى حالة الجذب، وهنا يظنون أن المخلوق قد اتحد بالخالق مما يضلّهم عن جادة الصواب.» وتراهم يقولون: «إن الجذب، وهو ارقى الاحوال، إذ انه حال اتحاد الصوفي بالحق. والصوفي المجذوب وصل الى مقام الولاية واصبح في غير حاجة بعد ذلك الى برهان على ولايته. قال الصوفية: إن اهل الحق الذين تولّى الله بواطنهم لا يحكم عليهم بظواهرهم، فان علمهم بالغيب قد يحملهم على فعل ما يخالف ظاهر الشرع والادب»[٢]

واما الدكتور السحمراني فنفى نظرية الفناء بقوله: «هذا المفهوم لحال المجذوب الذي تحقق له الاتحاد والولاية، وإغفال ظاهر اعماله هو من مورثات العقائد الفاسدة لان العبادة الواعية هي المطلوبة في الاسلام، ولانه غير المقبول أن نبيح لبعض الافراد تحت شعار الجذب ان يمارسوا ما لا يرضاه الله تعالى، ولا يتناسب مع احكام الشرع الحنيف[٣]».

١- «التصوّف»، ص ٥٨.

٢- التصوف الاسلامي. ص ٣٧.

٣- «التصوّف»، ص ٥٩.

يقول المفكر المعروف الدكتور ابو العلا عفيفي: «الفناء الصوفي هو الحال التي تتوارى فيها أثار الارادة والشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق. فيصبح الصوفي وهو لا يرى في الوجود غير الحق ولا يشعر بشيء في الوجود سوى الحق وفعله وإرادته.»(١)

ولا تشير كلمة «الفناء» الى ناحية واحدة من التجربة الصوفية هي الناحية السلبية، ولكن لها ناحية ايجابية هي التي عبر عنها الصوفية بكلمة «البقاء» لأن الفناء عن شيء يقتضي البقاء بشيء آخر. فالفناء عن المعاصي يقتضي البقاء بالطاعات، والفناء عن الصفات البشرية يقتضي البقاء بصفات الالوهية، والفناء عما سوى الله يقتضي البقاء بالله وهكذا.»(٢)

وهذا الفناء في الله او الاتحاد مع الله يتخذ مظهرًا ينقسم الى عدة صور ولا يدو عند كل صوفي كما يدو عند الاخر ولا يكون له نفس الصورة في كل الحالات، وان تعبيرات الصوفية تصف هذا في الوان متباينة.»(٣)

يصل السالك بُالفناء الى هدفه بالوصول الى من يحبه ويتمنى عيشه بقربه وهو الحق وبذلك يقول الامام الجيلاني: «وهكذا يفنى المحب عن الخلق بحكم الله، وعن الهوى بامر الله. وعن الارادة بفعل الله(٤) ويظل تحت ظلال الفناء، حتى يخرجه الله الى الخلق في ثياب الربانية، ويهبه التكوين وخرق العادات، ويميته الموتة التي لا حياة فيها ويحييه الحياة التي لا موت فيها، وهي الحياة بالله الباقي.»(٥)

١- «التصوّف والثورة الروحية في الاسلام» ص ١٧٩.
٢- المرجع نفسه ص ١٨٠ - كتاب منطق الطير لفريد الدين العطار النيسابوري ص ١٠٦.
٣- «منطق الطير» لفريد الدين العطار، دراسة بديع محمد جمعة ص ١٠٧.
٤- «فتوح الغيب». ص ١٢.
٥- المصدر نفسه، ص ١٤٥.

واما الدكتور طلعت غنام المفكر المصري، في شرحه لنظرية الفناء، يعتمد كليًّا على فلسفة ابن عربي ويحاول ربطها بفلسفة «وحدة الوجود» التي تعتبر فلسفة ابن عربي الرئيسية في شرحه للتصوف. يقول: «ولبعض الخصائص المميزة للفناء الذي وصفه افلوطين ودنسيوس والقديس اوغسطين، نجدها من غير شك في المذهب الذي عرضه ابن عربي ومنه يرى ان الفناء هو الدرجة الاخيرة في المعراج العقلي للنفس التي ترتفع باستبعاد كل ما سوى الله الى مشاهدة الوجود الذي هو الوحدة المحضة، وينبغي ان لا ننسى ان اله الصوفية عند ابن عربي هو الوجود المطلق الخالي من كل علاقة وحالة واسم وصفة.»(١)

ومن دون ادنى ريب، نجد ان الغاية التي يسعى اليها الصوفي، بعد المجاهدات والرياضات، هي الفناء في الله، والبقاء بصفات الله بعد الفناء عن صفاته، وذلك بقاؤه بالاخلاق الحميدة بعد الفناء عن الصفات الذميمة، وذلك هو الهدف الاسمى عند الصوفي وهو الفناء في الله، وهو فضل وموهبة من الله يمنحهما كما يشاء ولمن شاء.

٩- الورع

الورع على وجهين:

١. ان لا تتحرك إلاّ لله تعالى.

٢. ان لا يدخل قلبك سوى عبادة الله تعالى.(٢)

الورع هو التبرؤ من مظالم الخلق بأكل حقوقهم حتى لا يكون لاحد على المرء مظلمة يقاضى عليها يوم الحساب(٣). وقال يونس بن عبيد: «الورع: الخروج عن كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة.»(٤)

١- «اضواء على التصوف»، ص ٣٢٣.

٢- «الرسالة القشيرية»، ص ١١١. من اقوال يحيى بن معاذ الصوفي.

٣- «التصوّف»، اسعد السحمراني ص ١٢٨.

٤- «الرسالة القشيرية»، ص ١١١.

الورع مقام شريف يرقى اليه من كان متصفًا بالتقوى وخشية الله تعالى مما يدفعه الى تحري كل ما يعرض له من اعراض الدنيا كي لا يقع في المعصية.

يقول المفكر يوسف محمّد طه زيدان: «للورع في الاسلام مفهوم بسيط محدد فهو: ترك الشبهات خوفًا من الوقوع في المحرمات. فاذا كانت التوبة – عند الامام الجيلاني – عرش الايمان[١] فان الورع عنده ملاك الدين[٢]، الحارس لاهل الايمان من مقاربة حمى الله وحدوده التي أخبر عنها الشرع.[٣]»

ولاهل الورع بشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة، فهم في الدنيا بمأمن من الذنوب، وفي الاخرة يخفف عنهم العذاب[٤]. ويقول الامام الجيلاني: «ان من حاسب نفسه في الدنيا واخذ من الخلق ما يستحقه، واعرض عما ليس له، وخاف من طول الحساب يوم القيامة، فعلى اي شيء يُحاسب؟[٥]»

ومن مستلزمات الورع، ومن اهمها على الاطلاق هي: ترك صاحب الشرع ما لا يعنيه وانشغاله باصلاح امر نفسه. وفي حديث شريف للرسول «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٦]

قال بشر بن الحارث: «اشد الاعمال ثلاثة. الجود من القلة، والورع في الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى.»

يقول حسن البصري: «ملاك الدين الورع، وآفة الدين الطمع. ومثقال ذرة من الورع السالم خير من الف مثقال من الصوم والصلاة»[٧]

١– «الفتح الرباني»، ص ٩٤.
٢– «فتوح الغيب». ص ٨٥.
٣– «الطريق الصوفي»، ص ٣٨.
٤– المصدر نفسه ص ٣٩.
٥– يشير هنا الى الحديث الشريف «ان الله يستحي ان يحاسب الورعين».
٦– اخرج هذا الحديث مالك في «الموطأ» ص ٣. وابن حنبل في «المستند» مجلد ١ ص ٢٠١.
٧– «الرسالة القشيرية»، ص ١١١.

قال عمر بن الخطاب: «كنا نترك تسعة اعشار الحلال مخافة ان نقع في الحرام.» قال الامام الجيلاني: «فعلوا ذلك تورعًا من مقاربة الحرام.»[١]

ومن اقوال ابراهيم بن ادهم: «الورع ورعان. ورع فرض وورع حذر. فورع الفرض، الكف عن معاصي الله، وورع الحذر الكف عن الشبهات في محارم الله»[٢]

قال الرسول الكريم لابي هريرة. «كن ورعًا تكن اعبد الناس»[٣]

١٠. الشكر

قال سبحانه وتعالى:

«فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون.» سورة البقرة آية ١٥٢.

«ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليمًا.» سورة النساء آية ١٤٧.

«وسنجزي الشاكرين.» سورة آل عمران آية ١٤٥.

وفي حديث رواه ابو هريرة عن النبي «صلعم». «الحمد رداء الرحمن»

قال الجنيد ابن محمد: «الشكر ان لا ترى نفسك اهلاً للنعمة.»[٤]

ومن اقوال الامام الجيلاني عن الشكر: «الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع له والثناء على المحسن بذكر احسانه»[٥] ثم يقول: «الاعتراف بالنعمة والشكر عليها لُمنزلها، وهو الحق، عزّ وجل»[٦]

١- المصدر نفسه ص ١١٢ (بتصرف).

٢- «فتوح الغيب». ص ٨٥.

٣- حديث رواه حسن الشيباني.

٤- «الرسالة القشيرية»، ص ١٧٤..

٥- «الغنية»، مجلد ٣ ص ١٣٤٩.

٦- «الفتح الربّاني»، ص ١٨.

يقول الامام الجيلاني: «وشكر المولى، عزّ وجل، يكون ظاهرًا وباطنًا، فهو باللسان والجوارح والقلب. فشكر اللسان، «الاعتراف بنعم الله»، وشكر الجوارح، «الحركة في طاعة الله»، أما شكر القلب فهو الاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد، بأن جميع ما بالعبد من النعم والمنافع الظاهرة والباطنة من الله، عزّ وجل، لا من غيره»[١]. ثم يشير الى الشاكر والشكور، ويفرّق بينهما بقوله: «فالشاكر من العباد من يشكر على الموجود من النعم، والشكور يشكر على المفقود. الشاكر يشكر على النفع والعطاء، والشكور يشكر على المنع والبلاء.»[٢]

وشهاب الدين السهروردي (القتيل) يقول: «الشكر هو ملاحظة النفس لما نالت ممن انعم عليها من اعطاء ما ينبغي لها او دفع ما لا ينبغي، كان من كمالات النفس او البدن وتحريك الآلة المعبّرة[٣] لإخبار النوع بذلك. ولما لم يكن الشكر من شرطه أن يكون بكمال بدني صار أفضل من الصبر لانه ملاحظة النعم كانت نفسانية او بدنية، والصبر يتعلق بالبليّات. ومن فضيلة الصبر والشكر انه خصص الاعتبار بالآيات بهما حيث قال تعالى «إن في ذلك لآياتٍ لكل صبّار شكور.»[٤]

١- «فتوح الغيب» ص ١٣٦.

٢- «الغنية»، مجلد ٣. ص ١٣٥٠.

٣- المصدر نفسه مجلد ١ ص ٤١٨.

٤- سورة لقمان، آية ٣١.

ويقول الدكتور اميل المعلوف: «الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم واظهار فضله. والاعتراف بالله للنعمة لا يتم بمشاهدة «النعمة» فحسب، بل بمشاهدة «المنعم» كذلك. وقول السهروردي «ملاحظة النعم» ربما تعني اصطلاحًا جعل الصورة الحاصلة في النفس غير ذلك الشيء؛ لذلك كان الرفد، وهو الصورة الحاصلة في نفس كاسبة، آلة لملاحظه غير ذلك الرفد. وليس غير ذلك الرفد إلاّ مانحه وواهبه هو الله تعالى. وقد ذهب الشبلي الى أبعد مما ذهب اليه السهروردي عندما حصر الملاحظة في «المنعم» دون «النعمة»، وذلك في قوله: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية «النعمة».[١]»

ثم يفسر الدكتور معلوف تفضيل السهروردي (القتيل) الشكر على الصبر بقوله: «ان السهروردي في تفضيله الشكر على الصبر يؤثر العافية على البلية. فالشكر لا يكون إلاّ على النعم النفسية والبدنية، في حين إن الصبر لا يكون إلاّ على المكاره النفسية والبدنية. وهو في ذلك، يقف موقف الرسول في قوله لعلي عندما سمعه يسأل الله الصبر في مرضه: «لقد سألت الله تعالى البلاء فسله العافية.»[٢] ويؤمن إيمان مطرق بن عبد الله القائل: «لأن اعافى فاشكر احب الي من ان ابتلي فأصبر، لان مقام العوافي اقرب الى السلامة، فلذلك اختار حال الشكر على الصبر لان الصبر حال اهل البلاء.»[٣]

ويفرّق الدكتور المعلوف بين «الشكر» «والشكور» ان مقام «شكور» هو في التقليد الصوفي اعلى من مقام «شكر». فالشكور هو على ما يصيب الانسان من تصاريف التقدير من جنسي البلايـــــا والعطايـــــا دون تفريق[٤]. وردَّ

١– يقول اميل المعلوف. «مقامات الصوفية» ص ٧٠ (الحاشية) «المقصود «بالآلة المعبّرة» اللسان والقلب. وبهما يخبر المؤمن عن شكره. فالشكر باللسان «اعتراف بالنعمة» والشكر بالقلب حفظ الحرمة.» والميل عن شكر الله باللسان الى شكره بالقلب امر يستحسنه كبراء المتصوفين، لأن الشكر باللسان فيه علة تظهر الشاكر وكأنه يطالب ربه بالمزيد. في حين ان شكره بالقلب فيه فضيلة تظهر الشاكر وكأنه قد استحيا من ربه ان يكون شكره له جراء على احسانه اليه.

٢– «قوت القلوب»، مجلد ١ ص ٤١٨.

٣– المصدر نفسه، مجلد ١ ص ٤١٨.

٤– «لطائف الإشارات»، تحقيق ابراهيم بسيوني مجلد ٥ ص ١٣٦.

القشيري[1]، نقلاً عن بعض الصوفية، من ان «الشكور» هو اقرب الى الصابر من الى «الشاكر»، لان «الشاكر» يشكر على الموجود «والشكور» يشكر على المفقود. «الشاكر» يشكر على الرفد «والشكور» يشكر على الرد. «الشاكر» يشكر على العطاء، «والشكور» يشكر على البلاء[2]. لذلك جاء ورود كلمة «شكور» لا «شاكر» في الآية الى جانب كلمة «صبار» يُظهر تخصيص الله تعالى «الشكور» بمن يصبر ويشكر على البلايا، لا بمن يصبر ويشكر على العطايا.[3]

قدم وفد على الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز، وكان فيهم شاب فاخذ يخطب، فقال عمر: الكبر الكبر، فقال الشاب يا امير المؤمنين، لو كان الامر بالسن، لكان من المسلمين من هو احق منك بالخلافة، فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة. اما الرغبة فقد اوصلنا لها فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، فقال: فمن انتم؟ فقال: وفد الشكر، جئناك نشكرك باللسان وننصرف»[4]

ويقول القشيري: «والشكر ينقسم الى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن هو اتصاف بالوفاق والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة، ويقال: شكر هو شكر العالمين يكون من جملة اقوالهم، وشكر هو نعت العابدين يكون نوعًا من افعالهم، وشكر هو شكر العارفين يكون باستقامتهم له في عموم احوالهم.»[5]

١- «الرسالة القشيرية» ص ١٣٨.

٢- «مقامات الصوفية» ص ٧٠ - ٧١.

٣- «الرسالة القشيرية» ص ١٧٥.

٤- المصدر نفسه، ص ١٧٧.

٥- المصدر نفسه، ص١٧٤.

وقال الجنيد ابن محمد: «الشكر فيه علة لانه يطلب لنفسه المزيد، فهو واقف مع الله تعالى على حظ نفسه.[١]

وقال ابو بكر الورّاق: «شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة[٢]»
وقال الشبلي: «الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.»[٣]

١١- الحسد

قال عزّ وجل «قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق.» ثم قال تعالى «ومن شر حاسد اذا حسد.»[٤]

قال معاوية بن ابي سفيان: «كل انسان استطيع ان ارضيه إلاّ الحاسد فانه لا يرضيه إلاّ زوال النعمة[٥]» قيل: «الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد، واذا رأى نعمة بهت واذا رأى عثرة شمت.[٦]»

وفي حديث للرسول رواه عبد الله بن مسعود «ان النبي قال: ثلاث هن اصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن. اياكم والكبر، واياكم والحرص واياكم والحسد فان ابني آدم انما قتل احدهما صاحبه حسدًا.[٧]»

الحسد هو ان يتمنى العبد زوال النعمة عن غيره سواء اراد رجوعها عليه ام لا.

١- «الرسالة القشيرية»، ص ١٧٤.
٢- المصدر نفسه، ص ١٧٤.
٣- المصدر نفسه، ص ١٧٥.
٤- سورة الفلق آية ١ و٢ و٥.
٥- «الرسالة القشيرية». ص ١٥٦.
٦- المصدر نفسه ص ١٥٥ وص ١٥٦.
٧- المصدر نفسه ص ١٥٥ (بتصرف).

١٢- المحبة

الحب الالهي في ان يتجه العبد بكليته الى الله تعالى فلا يصغي بسمعه إلاّ الى ما يرضي الله، ولا يسرع ببصره إلاّ بما امر به الله تعالى، ولا يسعى بقدميه إلاّ الى ما امره الله ان يسعى اليه[١]

قال ابراهيم الادهم: «ان كنت تحب ان تكون لله وليًّا، وهو لك محبًا، فدع الدنيا والاخرة ولا ترغبن فيهما، وفرّغ نفسك عنهما، واقبل بوجهك على الله يقبل الله بوجهه عليك ويلطف بك.[٢]»

المحبة جوهر العبادة الصحيحة، ذلك ان العبادة الحقيقية لا تكون رهبة من الجحيم ولا رغبة في النعيم، انما تكون خالصة لوجه الله.

على الانسان ان يحب الله، ويحب رضاه ويحب لقاءَه في الدار الاخرة، وان احب غيره كان محبًا في الله. والانسان عليه ان يحب الله، ورضا الله تعالى، لا ينال منه علمًا او عملاً، او التوصل به الى امر وراء حبه، يحب الله لله ولاجل الله ويفنى بحبه.

محبة الله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد المحبة من مقام، إلاّ وهو تابع من توابعها، كالشوق، والرضا والانس وغيرها.

جعل الله تعالى المحبة من شروط الايمان، ويقول عزّ وجل: «وسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه.»[٣] وقال سبحانه وتعالى «ومن الناس مَن يتخذ من دون الله اندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبًا لله.»[٤]

١-«التصوّف»، اسعد السحمراني. ص ١٣٦.

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية.» ماجد فخري ص ٣٢٩.

٣- سورة المائدة آية ٥٤.

٤- سورة البقرة. آية ١٦٥.

يقول الاشراقيون: ان لكلمة محبة مترادافات عديدة اهمها: السرور، والابتهاج، والرضا، والارادة والعشق والاغتباط»[١]

قال القشيري: «المحبة حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، واخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه، والمحبة على لسان العلماء هي الارادة.»[٢] ثم يقول: «فمحبة الحق، سبحانه، للعبد ارادته لانعام مخصوص عليه، كما ان رحمته له ارادة الانعام. فالرحمة خاص من الارادة، والمحبة اخص من الرحمة، فارادة الله تعالى لان يوصل الى العبد الثواب والانعام، وتسمى رحمة، وارادته لا يخصه بالقربة والاحوال العليّة وتسمى محبة.»[٣]

قيل: «المحبة ايثار المحبوب على جميع المصحوب وموافقة الحبيب في المشهد والمغيب.» وكذلك قيل: «حقيقة المحبة ان تهب كلك لمن احببت، فلا يبقى لك منك شيء.»

يقول شهاب الدين ابو حفص السهروردي: «وعلم المحبة، والفرق بين المحبة العامة المفسر بامتثال الامر، والمحبة الخاصة، وقد انكرت طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الاخرة والمحبة الخاصة، كما انكروا الرضا وقالوا ليس إلاّ الصبر وانقسام المحبة الخاصة الى: محبة الذات والى محبة الصفات والفرق بين محبة القلب ومحبة الروح، ومحبة العقل ومحبة النفس.»[٤]

١- «مقامات الصوفية»، حاشية ص ٧٢.
٢- «الرسالة القشيرية». ص ٣١٨.
٣- المصدر نفسه ص ٣١٨ و٣١٩.
٤- «عوارف المعارف» ص ١٢٢.

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: «وفي الحب الصوفي يكتمل هذا التحقق الموحد[١] وهذا النماء للشخصية من باطن: وذلك بواسطة نذر الانسان نفسه (الله) بهذا الاصطفاء الذي به تهبها «قوى النفس الثلاث» حريتها النهائية، بالممارسة لهذا الديالكتيك الدرامي الذي يجعلنا نشق نطاق العالم المكاني الزماني للرموز كيما نلحق، ونستشعر ونتذوق «حضرة» موحدة يجب ان نقيمها في ذاتها شيئًا فشيئًا قدر ما تتحقق، لان الثالث المرفوع لا ينطبق بعد في العشق، فالآخر لم يعد بعد فيه «اللاّ – انا»، خصوصًا حينما يستحيل عشق الاخر الى عشق الله.»[٢]

وقد تنوعت نظرة الصوفية الى المحبة. فمنهم من يعتبرها مقامًا لاهل التمكين كالمكّي[٣]، ومنهم من يراها حالاً من احوال المقربين، كالسرّاج[٤] ومنهم من يجعلها فاصلاً بين الظاهر والباطن كالنابلسي[٥] فينظر اليها على انها، آخر طور من اطوار المعرفة. اما السلمي[٦]، فيفوق الكل حين يجعل المحبة السبب الذي خلق الله تعالى العارفين لاجله»[٧].

اما العشق الالهي، كما نادت به رابعة العدوية، هو المحبة المفرطة بالله تعالى، الذي يعمي المحب عن كل شيء سوى محبوبه، هو احساس جياش وعشق واحد لم يبق فيه متسع لغيره، فلا عاشق ولا معشوق، إلاّ الله تعالى.

١- يشير ماسينيون الى البيت الشعري:

كانت لقلبي اهواء مفرّقة   فاستجمعت، مذ رأتك العين، اهوائي

٢- «شخصيات قلقة من الاسلام». عبد الرحمن بدوي ص ٦٢.

٣- «قوت القلوب» ص ٥.

٤- «اللمع في التصوف» ص ٨٦.

٥- «شرح غنية الجيلي». مخطوط ورقة ١١٦أ.

٦- «المقدمة في التصوف» ص ٢٨.

٧- «الطريق الصوفي». يوسف محمد طه زيدان. ص ١٠٠.

قال سبحانه وتعالى «يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبّونه.»(١)

«واحسنوا ان الله يحب المحسنين»(٢)

«واتّقى فإن الله يحب المتقين.»(٣)

«قل ان كنتم تحبون الله فاتّبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم.»(٤)

يقول ابن عربي «ما اوجد الله العالم إلاّ عن الحب، فالحب يستصحب جميع المقامات والاحوال فهو سار في الامور كلها.»(٥) ويقول: «الحب مقام الهي وصف به نفسه وتسمى بالورود ولهذا المقام اربعة القاب: الحب – الجود – العشق – والهوى.»(٦) ثم يقول: «فالحب الالهي: هو حب الله لنا، وحبنا لله ايضًا قد يطلق عليه انه الهي. والحب الروحاني هو الذي يسعى به الى مرضاة المحبوب لا ينبغي له مع محبوبه غرض ولا ارادة بل هو بحكم ما يراد به خاصة، والحب الطبيعي هو الذي يطلب به نيل جميع اغراضه، سواء سرّ ذلك المحبوب او لم يسرّه.(٧)»

١- سورة المائدة آية ٥٤.

٢- سورة البقرة آية ١٩٥.

٣- سورة آل عمران آية ٧٦.

٤- سورة عمران آية ٣١.

٥- «الفتوحات المكية». مجلد ٤ ص ١٠٤.

٦- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٣٢٣.

٧- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٣٢٧.

يرى الامام الجيلاني: «ان الذين يعبدون الله تعالى امتثالاً لأمره ومحبة له لا شيء آخر، هم افراد قلائل، لان معظم الناس مشتتون ما بين عابد للدنيا محب لدوامها، خائف من زوالها، وبين عابد للخلق، خائف منهم، راج لنوالهم، وبين عابد للجنة متطلع الى نعيمها لا يرجو خالقها، وبين عابد للنار مشفق من لظاها لا يخاف خالقها.[1]» ثم يقول: «فالوصول الى الله انما يكون باتباع الشاهدين العدلين، الكتاب والسنة، ذلك انه بالطاعة يحصل القرب فالمحبة، وبالمعصية يحصل البعد والبغض.»[2]

١٣- الخوف

وفي حديث لرسول الله قال «رأس الحكمة مخافة الله.»[3]

قال ابو علي الدقاق: «الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة. فالخوف من شروط الايمان وقضاياه. قال سبحانه وتعالى «وخافون ان كنتم مؤمنين»[4]. والخشية من شروط العلم. قال الله تعالى «انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ»[5]. والهيبة من شروط المعرفة. قال عزّ وجل «ويحذّركم الله نفسه.»[6].

قال الحكيم الترمذي: «الخوف على نوعين. رهبة وخشية. فصاحب الرهبة يلتجي الى الهرب، وصاحب الخشية يلتجي الى الرب»[7]

١- «الفتح الرباني». ص ١٣٤.
٢- «الفتح الرباني» ص ١٩٤.
٣- حديث رواه عبد الله ابن مسعود.
٤- «الرسالة القشيرية». ص ١٢٥.
٥- سورة فاطر آية. ٢٨.
٦- سورة آل عمران آية ٣٠.
٧- «الرسالة القشيرية»، ص ١٢٦.

يقول ابو حامد الغزالي: «اعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحترامه، بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومن انس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته، مشاهدًا لجمال الحق على الدوام، لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء، فانهما زمنان يمنعان النفس عن الخروج الى رعونتها.»[1] والى هذا اشار الواسطي حيث قال: «الخوف حجاب بين الله وبين العبد، اذا ظهر الحق على الرائد، لا يبق فيها فضلة لرجاء ولا خوف. والخوف من مقامات الصوفية.»

يقول الجنيد في معنى «القبض» «والبسط» يعني الخوف والرجاء «فالرجاء يبسط الى الطاعة والخوف يقبض على المعصية.»[2]

تتدرج التجربة الصوفية عن مجاهداتها ورياضاتها بين حدين، الخوف والرجاء، الخوف من الله ورجاء الله، وهما مطلوبان لتكاملهما وليس لتقابلهما، لان الخوف يقابله «الامن» والرجاء يقابله «اليأس»، فالمريد من الامن تستقر نفسه وتستكين، فتفارق المجاهدة والرياضة. فمن ناحية ثانية ضرورية يظهر الخوف كمنبه لحال «الامن» وباعث ومحرك «للمجاهدة»[3]

ومن اقوال ابو حامد الغزالي: «العلم بالخوف، هو العلم بالسبب المفضي الى المكروه، وذلك لمن جنى على ملك ثم وقع في عمله فيخاف القتل ويتألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته. من خاف شيئًا هرب منه ومن خاف اللّه هرب اليه.[4]»

١- «احياء علوم الدين» مجلده ص ٣.

٢- «اللمع في التصوف» - الطوسي. ص ٤٢٠.

٣- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ٧٢٦

٤- «احياء علوم الدين» مجلده ص ٣.

قال الصوفي يحيى بن معاذ الرازي: «ما من مؤمن يعمل سيئة إلاّ ويلحقها حسنان، خوف العقاب ورجاء العفو».

«المعرفة الربانية عند الامام الجيلاني على قسمين: جلال وجمال. فاذا كانت تجليات الجمال الالهي لقلب العارف، تورث المسامرة والحديث والالهامات والبشرى. فان كانت تجليات الجمال والعظمة تورثه الخوف المقلق والوجل المزعج والغلبة العظيمة على القلب»(١)

والخوف الناشئ عن المعرفة، اشار اليه النبي «صلعم» حين قال «انا أعرفكم بالله، وانا اشدّكم منه خوفًا.»(٢)

ويقول عزّ وجل «يدعون ربهم خوفًا وطمعًا.»(٣)

ومن اقوال الامام الجيلاني: «يبقى العارف تحت سماء التجليات مضطرب الباطن ممتلئ القلب بالخوف من هيبة الله، ولا يزال العارفون قلوبهم حزينة منكسرة بين يدي الحق، عزّ وجل، خائفين وجلين، كلما كشف لهم قناع جلاله وعظمته لقلوبهم ازداد خوفهم.»(٤)

الخوف حال متعلق في المستقبل ولا يكون لشيء حصل بل عاقبة بما قد ينتج عمّا حصل. يخاف العبد ان يعاقبه الله تعالى في الدنيا او في الاخرة. قال تعالى «يخافون ربهم من فوقهم.»(٥)

١- «فتوح الغيب» ص ٢٢.

٢- «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان. ص ١٥٥.

٣- سورة السجدة الآية ١٦.

٤- «الطريق الصوفي» يوسف محمّد طه زيدان ص ١٥٥

٥- سورة النحل، آية ٥٠.

١٤–السكر والصحو.

«الصحو رجوع الى الاحساس بعد غيبة، والسكر غيبة الاحساس اذا انكشف للعبد الجمال فهام القلب في التجليات الالهية والصفات الكمالية، بحيث لا يشهد إلاّ الحق تعالى فحينئذ يصبح العبد اسير الجمال الالهي لا يميز بين الاشياء لغلبة رؤية مناهج الحق سبحانه وتعالى عليه.»

يقول القشيري: «والعبد في حال سكره يشاهد الحال، وفي حال صحوه يشاهد العلم. إلاّ انه في حال سكره محفوظ لا بتكلفة، وفي صحوه متحفظ بتصرفه. والصحو والسكر بعد الذوق والشرب.» ثم يقول: «والسكر لا يكون إلاّ لاصحاب المواجيد، فإذا كوشف العبد بصفة الجمال حصل السكر وطربت الروح وهام القلب، اي سقط التميز بين ما يؤلم وما يلذ به.[١]»

واما ابن عربي فيقول: «السكر على مراتب. السكر الطبيعي، وهو ما تجده النفوس من الطرب والالتذاذ والسرور والابتهاج بوارد الاماني، فان له اثرًا قويًا في القوة المتخيّلة. فالواقفون من اهل الله مع الخيال، لهم هذا السكر الطبيعي. اما السكر العقلي، فهو شبيه بالسكر الطبيعي في رد الامور الى ما تقتضيه حقيقته، لا الى ما يقتضيه الامر نفسه. ويأتي الخبر الالهي عن الله لصاحب هذا المقام بنعوت المحدثات انها نعت لله، فيأتي قبولها على هذا الوجه، لانه في سكره دليله وبرهانه، فيرد ذلك الخبر لما يقتضيه نظره مع جهله بذات الحق. فاذا صحا هذا الغافل عن سكره بالايمان لم يرد الخبر الصدق فهذا سكر عقلي. فالسكر الطبيعي سكر المؤمنين والسكر العقلي سكر العارفين. وبقي سكر الكمُل في الرجال وهو السكر الالهي، الذي قال فيه رسول الله. «اللهم زدني فيك تحيرًا. فالسكر الالهي ابتهاج وسرور بالكمال.»[٢]»

١– «الرسالة القشيرية» ص ٧٢.

٢– «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٥٤٤ – ٥٤٥.

«وأما الصحو عند اهل التصوف، فرجوع الى الاحساس بعد الغيبة بوارد قوي، واعلم انه لا يكون صحو من هذا الطريق إلاّ بعد سكر، اما قبل السكر فليس الانسان بصاح ولا هو صاحب صحو، انما يقال فيه ليس بصاحب سكر بل يكون صاحب حضور او بقاء وغير ذلك»[1]

يقول السهروردي (القتيل): «السكر سانح قدسي للنفس يؤدي الى ابطال النظام عن الحركات»[2]، «والصحو هو الرجوع عن هذه الحالة.[3]»

ويفسر الدكتور المعلوف قول السهروردي: «يغلب السكر على اصحاب المواجيد عندما يطالعهم جمال الواحد وتسيطر الغيبة عليهم عندما يطالعهم داعي الخوف والرجاء والسكر والغيبة يكونان اما تامين، عندما يفقد المتصوف فيهما احساسه بنفسه وبغيره. او ناقصين، عندما لا يكون المتصوف فيهما مستوفيًا بالكلية.»[4]

١٥–الشوق

الشوق اهتياج القلب لدى ذكر المحبوب شوقًا الى لقائه، ويكون على قدر المحبة. «وشرط المشتاق ان لا يصل الى نيل المحبوب كلية، لانه اذا ملكه واستراح اليه تزايل شوقه وتلاشى[5]».

وفي حديث عن الرسول الكريم «اللهم اني اسألك الرضا بعد القضاء ولذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك.»

١– «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٥٤٦.

٢– يقصد السهروردي بابطال النظام عن الحركات، ان غلبة وجود الحق مع العبد يجعله تام السكر متحركًا بغير نظام وعلى غير هدى.

٣– «مقامات الصوفية» ص ٧٦.

٤– المصدر نفسه. الحاشية ص ٧٦.

٥– المصدر نفسه الحاشية ص ٧٢.

وابو علي الدقاق يفرق بين مقام الشوق وبين مقام الاشتياق في قوله: «ان الشوق يسكن باللقاء والرؤية، والاشتياق لا يزول باللقاء.[١]» أما ابن عربي فيؤكد «ان الشوق الذي يسكن باللقاء لا يعوّل عليه، انما التعويل يكون على الاشتياق الذي لا يكن باللقاء. فللخلق كلهم مقام الشوق، أما الاشتياق فلقلةٍ من ذوي القلوب المستوجعة التي تستغرق في من تحب حتى لا يُرى لها اثر ولا قرار.» ثم يقول: «كل محب مشتاق ولو كان موصولاً.»[٢]

قيل: «الشوق ارتياح القلوب بالوجد، ومحبة اللقاء والقرب* والشوق وليد المحبة، وقلوب المشتاقين منورة بنور الله تعالى.»

قال الرسول الكريم «اشتاقت الجنة الى ثلاثة: علي وعمّار وسلمان.»[٣]

يقول ابو حامد الغزالي: «اعلم ان من انكر حقيقة المحبة لله تعالى، فلا بد وان ينكر حقيقة الشوق، اذ لا يتصور الشوق إلاّ الى محبوب. ونحن نثبت وجود الشوق الى الله تعالى وكون العارف مضطرًا اليه بطريق الاعتبار والنظر بانوار البصائر، وبطريق الاخبار والاثار.»[٤]

يشتاق العاشق الى محبوبه في غيبته، اما الحاضر فلا يشتاق اليه، الشوق طلب وجود المحبوب والموجود لا يُطلب فهو حاضر، فان من لم ير شخصًا و لم يسمع وصفه، لا يشتاق اليه، فمن كان حاضرًا لا يكون له شوق. فمن غاب عنه معشوقه وبقي في خياله فيشتاق الى رؤيته، فلو انمحى عن قلبه ذكره، ومعرفته، وصورته حتى نسيه فصار معدومًا من الوجود، فلا يشتاق اليه؛ فالرؤية

١- «مقامات الصوفية» اميل المعلوف. الحاشية ص ٧٢.

٢- «رسائل ابن عربي» مجلد ٢ ص ٥٧.

* «الرسالة القشيرية.» ٣٣١ لابي عبد الله بن خفيف.

٣. الامام الاول علي بن ابي طالب. عمّار بن ياسر. وسلمان الفارسي.

٤- «احياء علوم الدين»، مجلد ٥ صفحة ٢١٥.

اصل المعرفة، والمعرفة تقود الانسان الى العشق، العشق يولد الشوق الى المحبوب»[١]

الشوق الى الله تعالى يتم بالمشاهدة وتمام اشراق التجلي فهو منتهى حب سالكي طريق الوصول اليه عزّ وجل. المشاهدة هي الاحساس بوجود الله وليس بالعين المجرّدة.

١٦–الصبر

قال الله تعالى «واصبروا ان الله مع الصابرين»[٢] وقال عزّ وجل «يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.»[٣] «واصبر وما صبرك إلاّ بالله.»[٤]

الصبر هو حبس النفس عن شيء مزعج تتحمله، او شيء لذيذ تفارقه، هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

قال الشريف ابو الحسن الجرجاني: الصبر هو ترك الشكوى من الم البلوى لغير الله، لا الى الله، لان الله تعالى اثنى على ايوب بالصبر بقوله «انا وجدناه صابرًا نعم العبد انه أوّاب»[٥]

وفي حديث عن ابن عباس: لما دخل رسول الله على الانصار قال لهم، «امؤمنون انتم»؟ قالوا «نعم يا رسول الله.» قال «ما علامة ايمانكم؟» قالوا، نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء. فقال «مؤمنون ورب الكعبة.»

١– «احياء علوم الدين.» ص ٢١٥ – ٢١٦.

٢– سورة الانفال آية ٤٦.

٣– سورة آل عمران آية ٢٠٠.

٤– سورة النحل آية ١٢٧.

٥– سورة ص، آية ٤٤. «التعريفات»، للجرجاني ص ١٣٦.

الصبر هوثبات الانسان في مقاومة المكروه وتحمل المصائب، وتعذيب البدن، والرضا والتسليم بما حل به من الشقاء. «اذا كان الصبر في كظم والسكوت عن الالم النفسي سمي حلمًا، واذا كان صبرًا على نوائب الزمان سمي سعة صدر، وان كان عن فضول العيش سمي زهدًا، وان كان صبرًا قدر زهيد الحظوط سمي قناعة. فالصبر يحوي على معظم اخلاق الايمان وانه اعزّها»[1]

وقال سليمان الحكيم: «يستدل على تقوى المؤمن بثلاث، حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.»

يقول شهاب الدين السهروردي: «الصبر هو ضبط القوة الغضبية عن شدة التأثر بالمكروه النازل الذي اوجب العقل احتماله وعدم الجزع عنه، او ضبطها عن حب مشتهى يوجب العقل اجتنابه.»[2]

ويرى الامام عبد القادر الجيلاني: «ان حقيقة الصبر تتمثل في الوقوف مع البلاء بحسن الادب، والثبات مع الله عزّ وجل وتلقّي مرّ قضائه بالرحب والسعة على احكام الكتاب والسنة.[3]» «والصبر رأس كل خير واساس للتوكل والاحسان والرضا والموافقة.[4]»

وقال القناد عن الصبر: «ملازمة الواجب من الاعراض عن المنهي عنه والمواظبة على المأمورية، والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولا يتمكن منه الجوع ويتوقع منه الشكوى.[5]

١- «احياء علوم الدين.» ابو حامد الغزالي مجلد ٣.

٢- «مقامات الصوفية»، ص ٦٥.

٣- «بهجة الاسرار» ص ١٢٣.

٤- «فتوح الغيب» ص ٧٥.

٥- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم، ص ٦٧٧.

وقال حارث المحاسبي: «لكل شيء جوهر وجوهر العقل الصبر[1]» ويحي بن معاذ الرازي يقول: «عند نزول البلاء تظهر حقائق الصبر، وعند مكاشفة المقدور تظهر حقائق الرضا.[2]»

الصبر هو الفناء في البلوى بلا شكوى.

١٧-الارادة

قال الله عزّ وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغدواة والعشي يريدون وجهه.»[3]

يقول شهاب الدين السهروردي (القتيل): «الارادة هي اول حركة للنفس الى الاستكمال بالفضائل»[4]

ويقول القشيري: «الارادة هي التجريد لله في السلوك الى كمال التوحيد وهي ممدوحة ومطلوبة. الارادة بدء طريق السالكين وهي اسم اول منزلة القاصدين الى الله تعالى، وانما سميت هذه الصفة ارادة، لان الارادة مقدمة كل امر، فما لم يرد العبد شيئًا لم يفعله.»[5]

واما الدكتور المعلوف فيقول: «الارادة هي بدء طريق السالكين الى الله، ولها عند المتصوفة معنيان: الاول ايجابي والاخر سلبي. فهي تعتبر بالمعنى الاول، مقدمة لكل امر وقصدًا يتجه به المريد الى غاية. فالانسان اذا لم يرد شيئًا لم يفعله. وتعتبر بالمعنى الثاني، تفريغًا لنفسها من كل قصد ذاتي «فالمريد هو من

١- «طبقات الصوفية» السلمي ص ٥٩.
٢- المصدر نفسه ص ١١٣.
٣- سورة الانعام آية ٥٢.
٤- «مقامات الصوفية»، ص ٦٢.
٥- «الرسالة القشيرية»، ص ٢٠١.

لا إرادة له» والمقصود بخلو الارادة من الارادة، ان يتجرد السالك الى وجه الحق بالكلية، حتى يملي الحق عليه مقاصده الصالحة. ثم يقول: «والمعنى الايجابي للارادة الذي يجعل اختيار العبد مراده بنفسه ولنفسه، لا بمعنى السلبي الذي يجعل أمر الاختيار وقفًا على تجريد الإرادة لمراد الله.»[1]

قال محمد الواسطي: «اول مقام للمريد ارادة الحق باسقاط ارادته.»[2]

«يستعمل ابن عربي احيانًا «المشيئة» «والارادة» على الترادف. وذلك يعود الى ان المشيئة والارادة نسبتان الهيتان تلتقيان في الذات الواحدة التي تجمع كل النسب، فعندها يستعملها على سبيل الترادف يكون قاصدًا النسبة الالهية التي صفتها الفعل.»[3]

«المشيئة (وهي مرادفة للارادة في معظم صفاتها واحوالها) هي نسبة الالهية احدية التعلق تمثل القوة الفاعلة السارية في الوجود باسره، القاضية بان يكون كل ما في الوجود مما هو بالقوة، او بالفعل، على ما هو عليه، وهي الوجود.»[4]

١٨-الخشوع

قال سبحانه وتعالى «قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون»[5]

١- «مقامات الصوفية» الحاشية ص ٦٨.

٢- «الرسالة القشيرية» ص ٢٠٣.

٣- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم ص ٦٣٨.

٤- المصدر نفسه ص ٦٣٧.

٥- سورة المؤمنون، آية ١ و٢.

الخشوع هو الانقياد للحق، والتواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم[١]

الخشوع هو قيام القلب بين يدي الحق سبحانه. من علامات الخشوع للعبد إنه اذا أغضب او خُولف او رد عليه، ان يستقبل ذلك بالقبول[٢]

قال ابو علي الدقاق: «الخشوع اطراق السريرة بشرط الادب بمشهد الحق سبحانه[٣] ورُوي عن ابن عباس: قال رسول الله «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر.»[٤]

يقول ابو حامد الغزالي: «الخشوع ثمرة الايمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله، عزّ وجل، ومن رزق ذلك فانه يكون خاشعًا في الصلاة وغير الصلاة، بل في خلوته، فان موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد. فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة[٥]»

وابن عربي يقول: «اذا كان العبد في نعت الالهي وورد التجلي عليه، وتلقاه بذلك النعت، اورده لذة ومرحًا وابتهاجًا وسرورًا و لم يجد خشوعًا ولا ذلة، فينسب ذلك الفرح للظاهر في المظهر، ليس من حيث هو ظاهر، فهو ظهور بكمال واثره في المظهر من حيث هو مظهر، فهو محجوب عن ذاته بربه في حال صحوه وظهوره واثباته وبقائه، وترك الخشوع لمن ليست هذه حالته مذموم مطرود.»[٦]

١- «الرسالة القشيرية» ص ١٤٥.

٢- «المصدر نفسه» ص ١٤٥.

٣- «المصدر نفسه» ص ١٤٦.

٤- رواه عبد الله بن مسعود.

٥- «إحياء علوم الدين»، ص ٢٢٧.

٦- «الفتوحات المكّية»، مجلد ٢ ص ١٩٤.

قال حذيفة بن اليمان: «اول ما تفقدون من دينكم الخشوع، والخشوع قيام القلب بين يدي الحق سبحانه»[1]

١٩-الرضا

قال سبحانه وتعالى «رضي الله عنهم، ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم»[2]

الرضا سكون القلب الى احكام الله تعالى وموافقته لما رضي الله به واختاره.[3]

قال عزّ وجل «ومساكن طيبة في جنّات عدن ورضوانٌ من الله اكبرُ ذلك هو الفوز العظيم.»[4]. ورضوان رب الجنة اعلى من الجنة.

قال الداراني: الرضا ان لا تسأل الله تعالى عن الجنة ولا تستعيذ به من النار. ويقول ابو علي الدقاق: ليس الرضا ان لا تحس بالبلاء. انما الرضا ان لا تعترض على الحكم والقضاء.

يقول شهاب الدين السهروردي: «الرضا في مصطلحهم تلقي النفس لما يأتي به القدر من الحوادث الجرمانية على وجه لا يتألم بوقوعه، بل مع ابتهاج لطيف نظرًا الى السابقة العجيبة.[5]» ويقول الدكتور اميل المعلوف «المقصود بالعلة السابقة العجيبة، القضاء الذي تقدر به الاحكام. اما العلم الذي يُظهر

١- «الرسالة القشيرية» ص ١٤٥.

٢-سورة المائدة آية ١١٩.

٣- «الرسالة القشيرية» ص ١٩٥. من اقوال ابو عبد الله بن خفيف.

٤- سورة التوبة، آية ٧٢.

٥- «مقامات الصوفية» ص ٧١.

اعمال هذه العلة العجيبة وحكمتها فهو سر من اسرار الربوبية، ودعاه الغزالي، بالمكاشفة.[١]»

يقول صوفية خراسان، ان الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل اي، انه مما يتوصل اليه العبد باكتسابه. اما صوفية العراق فقالوا، الرضا من جملة الاحوال وليس ذلك كسبًا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الاحوال. ويمكن الجمع بين قول الفريقين، فيقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات، ونهايته من جملة الاحوال، وليست بمكتسبة[٢]

يقول الامام الجيلاني: «الرضا ترك المنازعة للقدر وسرور القلب بمرّ القضاء وترك الاختيار للمولى عزّ وجل. فاهل مقام الرضا، هم الذين قطعوا على قلوبهم الاختيار، فلا يختارون شيئًا تريده انفسهم ولا شيئًا مما يريدون به الله، فلا يسألونه تعالى ولا يتطلعون للحكم قبل نزوله، فاذا وقع حكم من الله، من حيث لا يتشوقون اليه، رضوا به واحبوه وسرّوا به»[٣]

وقال ذو النون المصري: «للرضا ثلاث علامات، وهي ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان القلب من حشو البلاء.»[٤]

ومن الاحاديث عن الرضا «ان الله بقسطه جعل الروح والفرح من الرضا، ومن رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل. إرْضَ بما قسم لك تكن اغنى الناس. من شهد منكرًا فرضي فيه فكأنه قد فعله.»[٥]

١- «مقامات الصوفية»، ص ٧١.
٢- «الرسالة القشيرية» ص ١٩٣ (بتصرف).
٣- «الغنية لطالبي طريق الحق»، مجلد ٣ ص ١٣٦٢.
٤- المصدر نفسه ص ١٣٦٠.
٥- احاديث عن الحكيم الترمذي.

٢٠-الصدق

ومن اقواله عزّ وجل:

«ومن اصدق من الله حديثًا»(١)

«يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»(٢)

ابو الحسين احمد النوري الخراساني* كان من كبار مشايخ الصوفية. قال فيه الجنيد ابن محمد: «منذ مات النوري لم يخبر عن حقيقة الصدق احد.» «وعُرف النوري بشدة التقوى وحب الصدق، وكان يعتبر التصوف اخلاقًا لا رسومًا ولا علومًا.»(٣)

ومن اقوال اهل التصوف في الصدق:(٤)

الجنيد: الصادق ينقلب في اليوم اربعين مرة والمرائي يثبت على حالة واحدة اربعين سنة. الصدق ان تصدق في مَواطن لا ينجيك منها إلا الكذب.

ابو سليمان الداراني: لو اراد الصادق ان يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه. وصدق اليقين الخوف من الله تعالى.

سهل التستري: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه او غيره.

محمد الواسطي: الصدق صحة التوحيد مع القصد.

ذو النون المصري: الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلاّ قطعه.

١- سورة النساء الآية ٨٧.

٢- سورة التوبة الآية ١١٩.

* ابو الحسين احمد بن محمد النوري خراساني الاصل بغدادي المولد والمنشأ. صحب سري السقطي والجنيد ابن محمد، كان من كبار اهل التصوف توفي في بغداد عام ٢٩٥هـ.

٣- «مقامات الصوفية»، ص ٧٦ (الحاشية)

٤- «الرسالة القشيرية»، ص ٢١١ - ٢١٥. «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم، ص ٦٨٦ - ٦٨٧.

ابو علي الدقاق: الصدق ان تكون كما يرى من نفسك او ترى من نفسك كما تكون.

عمرو بن عثمان المكي: ومعنى الصدق الاعتدال والعدل.

حاتم الاصم: لكل قول صدق، وبكل صدق فعل، ولكل فعل صبر، ولكل صبر حسبة ولكل حسبة ارادة ولكل ارادة إثرة.

الاخلاص متفرع عن الصدق و لم يدرج في المقامات او الاحوال، ويقول ذو النون المصري: «لم ار شيئًا ابعث لطلب الاخلاص من الوحدة، لانه اذا خلا، لم ير غير الله تعالى، فاذا لم ير غيره لم يحركه الا حكم الله. ومن احب الخلوة فقد تعلّق بعمود الاخلاص، واستمسك بركن كبير من اركان الصدق[١]».

وفي حديث رواه عبد الله ابن مسعود: لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب: «عبد الله تعالى صدّيقًا.»

الصدق عند الامام الجيلاني عماد كل امر وتمامه وهو ثاني درجة بعد النبوة، وفرض الله الدائم الذي يقبل به الفرض الموقت[٢] وسيف الله في ارضه، وصحة التوحيد وعلامة المحبة التي تستهين بالموت كما قال تعالى «فتمنّوا الموت ان كنتم صادقين»[٣]

قال الامام الجيلاني: «والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصدّيق هو المبالغة منه اذا ما صار الصدق دأب العبد وسجيته، فاذا كان الصادق هو من يصدق في اقواله، فالصدّيق من صدق في اقواله وافعاله واحواله. فالصدق في

١- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ٦٨٧.

٢- «الغنية لطالبي الحق» مجلد ٣ ص ١٣٦٨.

٣- سورة البقرة آية ٩٤.

الاقوال موافقة الضمير للقول في وقته. والصدق في الافعال اقامتها للحق تعالى ونسيان رؤيتها. والصدق في الاحوال قيامها بخاطر الحق[1]»

ومن اقوال الامام الجيلاني: «الصدق شرط لسلوك الطريق، بل هو زاد السفر لهذا الطريق، فإن قيام العبد به لا يكون إلاّ عن سقوط رؤية الخلق بالكلية. فكل من اظهر اعماله للخلق فلا عمل له، وكل من اثقل قلبه بمطالب الدنيا فلا سلوك له، وكل من بقيت لنفسه عليه أثر فلا وصول له. فإن قام العبد بمقتضيات الصدق، كان في مقعد الصدق عند المليك المقتدر»[2]

يقول ابن عربي: «الحياة الروحية والنشاط يتحقق ويظهر في مجالين: مجال «الصدق» اي المجهود الانساني البحت، ومجال «المنة» اي العطاء الالهي الفائق ونعمته السامية.»[3]

نعت رسول الله الكريم ابا بكر بن ابي قحافة بالصدّيق، لانه كان كلما روى رسول الله خبرًا او قصة، كان يقول «صدقت يا رسول الله»

قال ابو سليمان الداراني «لكل شيء صدق، وصدق اليقين الخوف من الله تعالى»[4]

٢١-الصمت

قال رسول الله الكريم «الصمت ان تحفظ عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك.»

١-«بهجة الاسرار»، ص ١٢٣.

٢- « الطريق الصوفي»، يوسف محمد طه زيدان ص ٩٦.

٣- «المعجم الصوفي» ص ٦٨٥ ٤. (بتصرف) الدكتورة سعاد الحكيم.

٤-«طبقات الصوفية»، السلمي ص ٨٢.-

قال احد الشعراء:

رأيت الكلام يزيّن الفتـــــى ‌ ‌ ‌ والصمت خير لمـــن صمت
فكم من حروف تجر الحتوف ‌ ‌ ‌ ومن ناطق ودَّ لـــو سكت

اذا اعجبك الكلام فاصمت، واذا اعجبك الصمت تكلم. الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكير.

قيل للقمان الحكيم، ما اوصلك لهذه المنزلة؟ قال: صدق الحديث، واداء الامانة والصمت عما لا يعنيني. ثم قال: الستر لما عاينت احسن من اذاعة ما ظننت.

وقال ابو علي الدقاق: «من سكت عن الحق فهو شيطان اخرس.» والصمت من اداب الحضرة قال الله تعالى «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصِتوا لعلكم ترحمون.»[١]»

قال سهل التستري: «لا يصح لاحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت.[٢]

٢٢- البسط والقبض

قال سبحانه وتعالى:

- «ويقبضن ما يمسكهن إلاّ الرحمن إنه بكل شيء بصير.»[٣]
- «والله يقبض ويضبط واليه ترجعون.»[٤]
- «وقبضت قبضة من أثر الرسول.»[٥]

١- سورة الاعراف آية ٢٠٤.
٢- «الرسالة القشيرية» الصفحة ١٢٢.
٣- سورة الملك. الآية ١٩.
٤- سورة البقرة الآية ٢٤٥.
٥- سورة طه آية ٩٦.

يقول ابن عربي: «المقامات منها ما يتصف به الانسان في الدنيا والاخرة، كالمشاهدة والجلال والجمال والانس والهيبة والبسط. ومنها ما يتصف به العبد الى حين موته، الى القيامة الى اول قدم يضعه في الجنة ويزول عنه كالخوف والقبض والحزن والرجاء.(١)»

وأما القشيري فيقول عن البسط والقبض: «وهما حالتان بعد ابتعاد العبد من حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف (المستأنف المبتدئ في الطريق الى الحق)، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف.(٢)»

«الخوف انما يكون من شيء في المستقبل، فإما ان يخاف من زوال محبوب او قدوم محذور، وكذلك الرجاء، انما يكون بالأمل من محبوب في المستقبل او بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المستأنف(٣)»

«واما القبض، فالمعنى حاصل في الوقت وكذلك البسط. فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حاليته بأجله (أجله اي متأخره المقصود به الاخرة) وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله. ثم تتفاوت نعوتهم في القبض والبسط حسب تفاوتهم في احوالهم. فمن وارد يوجب قبضًا، ولكن يبقى مساغًا للأشياء الاخرى لانه غير مستوف. ومن مقبوض لامساغ لغير وارده، لانه مأخوذ عنه بالكلية بوارده(٤)»

١- «الفتوحات المكّية»، السفر الاول فقرة

٢- «الرسالة القشيرية»، ص ٥٨.

٣- المصدر نفسه، ص ٥٨.

٤- «الرسالة القشيرية»، ص ٥٨.

«ومن ادنى موجبات القبض، ان يرد على قلبه وارد موجبه اشارة الى عتاب او رمز باستحقاق تأديب فيحصل في القلب لا محالة.[1]»

يقول الجنيد ابن محمد: «الخوف من الله يقبضني، والرجاء منه يبسطني، والحقيقة تجمعني والحق يفرقني. اذا قبضني بالخوف افناني عني. واذا بسطني بالرجاء ردني علي، واذا جمعني بالحقيقة احضرني، واذا فرّقني بالحق اشهدني غيري فغطاني، فهو تعالى بذلك كله محرّكي غير ممسكي، وموحشي غير مؤنسي، فأنا بحضوري اذوق طعم وجودي، فليته افناني عني فمتعني او غيّبني فروّحني.[2]»

يقول الامام الجيلاني: ان الاحوال كلها «قبض» لانها تنزل على المتجرد دون اجتلاب ويؤمر في سره بحفظها. وكل ما يؤمر بحفظه فهو قبض. اما المقامات فكلها «بسط» لانه لا شيء فيها يؤمر بحفظه سوى كونها موافقة لقدر الله.[3]

يقول شهاب الدين السهروردي (القتيل): «البسط هو كون النفس فيما هي بسبيله على البساط وضرب (طرب) وبهجة. والقبض هو حزن النفس يكاد يبطل دواعيها فيما هي فيه، وقد يكون لكلال القوى الجرمانية او لقنوط او لالهام. ويوم محزن لم يبق في الذكر عينه، ولكن بقي اثره فيتحيّر الشخص في سببه وقد يكون لشهادة النفس بالنكبة وغير ذلك[4]»

١- المصدر نفسه، ص ٥٩.

٢- المصدر نفسه، ص ٦٠.

٣- «الطريق الصوفي»، يوسف محمد طه زيدان ص ٨١.

٤- «مقامات الصوفية» ص ٧٣.

ويفسر الدكتور المعلوف قول السهروردي: المقصود بعبارة «ما هي بسبيله على البساط» «ابتهاج النفس لشهود الحق او انكشاف الحجب عن صفاته وتجلياته او ورود اشارة الى تقريب بغية وتحقيق امل.[١]»

«ويرتبط زوال البسط من النفس وبقاؤه بالطريقة التي يتقبله بها المتلقي. فاذا استفزه البسط واثاره حتى اخرجه عن رصانته وسكوته سقط في مهاوي القطيعة، وهذا ما يحصل عادة للعوام والمريدين. اما الخواص من العرفاء فيدوم بسطهم لتلقيهم اياه بهدوء لا بطر فيه ولا خفة.» ثم يقول: «فالواردات الباعثة على البسط والقبض لا تغير العرفاء لانهم بالله ثابتون»[٢]

٢٣-الغيبة

يقول شهاب الدين السهروردي (القتيل): «الغيبة هي خلسة للنفس الى عالمها بحيث تغيب عن الحواس. والغيبة عن الحواس حضور في الغيب وحضور الحواس غيبة عن القدس[٣]

اما الدكتور المعلوف فيقول: «الغيبة حالة تطرأ على العبد يغيب فيها عن احوال الخلق واحوال نفسه لاشتغال حسه بوارد قدسي يستولي عليه. هكذا تغيّب احدهم عند رؤيته حديدة محماة لورود وارد عليه ذكره عذاب اهل النار.[٤]»

١- المصدر نفسه (حاشية) ص ٧٣.

٢- المصدر نفسه (حاشية) ص ٧٣.

٣- المصدر نفسه، ص ٧٥.

٤- «مقامات الصوفية» ص ٧٥ (الحاشية)

يقول الصوفي ابو الحسين احمد النوري الخراساني:

إذا نـأى عذبنـــــي، وإذا دنا قرّبنـــــي،

إذا تغيبت بــــدا وان بـــدا غيّبنـــــي[1]

يقول القشيري: «الغيبة هي غيبة القلب عن علم ما يجري من احوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم يغيب احساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب او تفكر عقاب[2].»

اما الحضور، فقد يكون حاضرًا بالحق لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق على معنى، ان يكون كأنه حاضر، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه تعالى، فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق، فإن غاب كليًا كان الحضور حسب الغيبة.[3]

وقد يقال لرجوع العبد الى احساسه بأحوال نفسه، واحوال الخلق انه رجع عن غيبته، فهذا يكون حضورًا بخلق، والاول يكون حضورًا بحق، وقد تختلف احوالهم في الغيبة، فمنهم من لا تطول غيبته، ومنهم من تدوم غيبته.[4]

ويقول ابن عربي: «منهم من يُنفّس الرحمن عنه تلك الضيَق بمشاهدته عالم الخيال يستصحبه ذلك دائمًا، ولا تكليف عليه ما دام في تلك لِغيبته عن احساسه في الشاهد.»[5] ثم يقول: «الا اني في احوال غيبتي اشاهد ذاتي في النور الاعم، والتجلي الاعظم، بالعرش العظيم يُصلى بها وانا عريّ عن الحركة بمعزل عن نفسي.[6]»

١- «اللمع في التصوف»، الطوسي ص ٤١٦.
٢- «الرسالة القشيرية»، ص ٦٩.
٣- المصدر نفسه، ص٧٠.
٤- المصدر نفسه، ص ٧٠.
٥- «الفتوحات المكّية»، السفر الرابع فقرة ٣١٨. «المعجم الصوفي» ص ٨٥٧.
٦- المصدر نفسه، السفر الرابع فقرة ١١٤. «المعجم الصوفي» ص ٨٥٨.

يقول الكمشخانوي: «واما الحضور فهو حضور العبد بالحق بعد غيبته عن الخلق، وذلك بسبب استيلاء ذكر الحق على قلبه ودوامه فيه، وقدر حضوره بالحق بقدر غيبته عن الخلق، فان كان بالكلية كان حضوره كذلك. ثم يكون مكاشفًا في حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحق بها وقد يقال: حضر العبد بمعنى، عاد من غيبته وعدم احساسه باحوال نفسه واحوال الخلق.[١]»

٢٤-الفقر

قال سبحانه وتعالى «ربِّ اني لما أنزلتَ اليَّ من خير فقير.»[٢] وقال عزّ وجل «يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنيّ الحميد.»[٣]

ينظر ابن عربي الى الفقير من وجهتين مختلفتين. الفقر الوجودي والفقر السلوكي. الفقر الوجودي صفة ذاتية للممكن من جميع احواله، وهو يفتقر في حال ثبوته الى مرجّح لاستمرار وجوده وحفظه. والفقر السلوكي، هو فقر الى الله، وهذا ما يكتسبه السالك فلا يفتقر إلاّ الى الله. هو سلوك نفسي ومجاهدة اي، ثمن القرب الالهي.[٤] وقال: «مما خلق الله العالم على قدم واحدة إلاّ في شيء واحد، وهو الافتقار، فالفقر له ذاتي والغنى له امر عرضي»[٥] ثم يقول: «فالفقير يفتقر الى كل شيء ولا يفتقر اليه شيء، وهذا هو العبد المحض، فتكون حاله في شيئية وجوده، كحاله في شيئية عدمه.»[٦]

١- «جامع الاصول» ص ١٨١.
٢- سورة القصص، آية ٢٤.
٣- سورة فاطر، آية ١٥.
٤- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم ص ٨٨٥ (بتصرّف)
٥- «الفتوحات المكيّة»، مجلّد ٢ ص ٣٧٣.
٦- المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

يقول الامام الجيلاني: «والفقر ظاهر وباطن، فظاهره الفقر وباطنه الغنى التام. فالفقير جوال الفكر، جوهري الذكر جميل المنازعة، قريب المراجعة، لا يطلب من الحق إلاّ الحق، ولا يتمذهب إلاّ بالصدق، وهو اوسع الناس صدرًا واذل الناس نفسًا، ضحكه تبسّم واستفهامه تعلم، وينهي كلامه بقوله «له لسان مخزون وقلب محزون وقول موزون، وفكر يجول فيما كان وما يكون.»[1]

وعن الرسول الكريم قال: «لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين، والفقراء الصَّبر هم جلساء الله تعالى يوم القيامة.[2]»

٢٥-السكينة

قال شهاب الدين السهروردي (القتيل): «السكينة خلسة لذيذة تثبت زمانًا، او خلسات متتابعة لا تنقطع حينًا من الزمان، وهي حالة شريفة. ومن اللوائح والسكينة تشتق جميع الاحوال الشريفة. والسكينة هي السبحات (نور وجه الله وجلاله وعظمته وهي تحجب العباد عنه)» قال الله تعالى «هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانًا مع ايمانهم».[3] «فاذا حصلت ملكة السكينة سهل الامر.»[4]

٢٦-المكاشفة

يقول شهاب الدين السهروردي (القتيل): «المكاشفة هي حصول علم للنفس إما بفكر او حدس او لسانح غيبي متعلق بأمر جزئي واقع في الماضي او المستقبل.[5]».

١- «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان ص ١٠٨ - ١٠٩.
٢- «الرسالة القشيرية» ص ٢٧٢. حديث رواه عبد الله بن عمر بن الخطاب.
٣- سورة الفتح آية ٤.
٤- «مقامات الصوفية» ص ٧٤.
٥- «مقامات الصوفية»، ص ٥٦٧.

يفسر الدكتور المعلوف المكاشفة بقوله: «المكاشفة هي مطالعة القلب لتجليات الاسماء الالهية والقوى النفسانية المؤيدة بمعاني هذه الاسماء، إما بواسطة الفكر او الحدس او سانح غيبي. إلاّ ان تحقيق الإبانة بالسانح الغيبي لا يتم لمن أراد بلوغ أنوار التجلي من طريق البحث وحده. إنه وقف على الاشراقيين الذين «لا ينتظم امرهم دون سوانح نورية.» والكشف مرادف لمعنى الاشراق. يؤيد هذه النظرية قطب الدين الشيرازي بقوله: «حكمة هي الحكمة المؤسسة على الاشراق الذي هو الكشف، والاشراق هو ظهور الانوار العقلية ولمعانها وفيضانها بالاشراقات على الانفس عند تجردها. اذن، فالاشراق لا يختلف عن الكشف الذي هو حصول الانوار الالهية في الذات العارفة المهيأة لاقتبال نعوت الغيب بلا حجب ولا ريب(1)».

يقول الجنيد ابن محمد: «صاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة(*) ملقى بذاته. صاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته.»(2)

يقول ابو حامد الغزالي: «علم المكاشفة هو العلم الذي اختص باصول معرفة الله وادراك صفاته، لان معرفة الله هي التي تثمر المحبة له ولمخلوقاته، وجوهر هذا العلم ضبط لموازين علم المعاملة، وعلاقة علم المعاملة بعلم المكاشفة، وهي العبادة.»(3)

١- المصدر نفسه (الحاشية) ص ٧٨.

* المشاهدة عند الصوفية ليست بالنظر الجسماني بل بالشعور الروحاني بوجود الله تعالى.

٢- «الرسالة القشيرية» ص ٧٥.

٣- « الفيلسوف الغزالي»، عبد الامير الاعسم، ص ١١٣.

ثم يقول الغزالي: «من الدرجات التي يصل اليها العارف في استقصائه للحق في مكاشفاته، اولهما «الخشية والهيبة»، وهما وسيلتان يلجأ اليهما العارف لادراك اسرار المخلوقات التي يتجلى فيها الحق للعارف، فيمضي في تأمل باطني لادراك نفسه. كل ذلك، قد يتم والمرء مليء بالذنوب، وذنوب قد تكون مستورة باطنية في قرار النفس، وباطن النفس القلب.»[1] بهذا التجلي تتحقق انقلابية عنيفة في بواطن العارف، ذلك لان الايمان يصل ذروته فاذا بالعارف يصبح «سمع الله وبصره ولسانه ويده ورجله ليتأكد معنى القرب من الله.»[2]

ويقول ابو حامد: «علم المكاشفة هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة. وينكشف من ذلك النور امور كثيرة كان يسمع من قبل اسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة. فتتضح اذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات بافعاله وبحكمه في خلق الدنيا والاخرة[3]».

ثم يقول : «المكاشفة هي لقاء الله، عزّ وجل، والنظر الى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الاعلى ومقارنة الملائكة والنبيين.» ثم يقول: «وكذا يرى بعضهم ان منتهى معرفة الله، عزّ وجل، الاعتراف بالعجز عن معرفته. وبعضهم يقول، حد معرفة الله ما انتهى اليه اعتقاد العوام، وهو انه موجود عالم قدير سميع بصير متكلم. فنعني بعلم المكاشفة ان يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الامور»[4]

١- «منهاج العابدين» ص ٤٣ (بتصرف)
٢- «بداية الهداية» ص ٢٢٧.
٣- «احياء علوم الدين» ص ٣٠.
٤- «إحياء علوم الدين»، ص ٣١.

ثم يتطرق الغزالي في تفسير المكاشفة لاستقصاء الحق الى الاخلاص، وهو ان العارف لا يصل الى درجة القرب الى الله إلاّ بالثبات على عبادته الباطنية المستديمة(١)

والاخلاص الذي استودعه قلب من احب من عباده، وعليه كشف الحجب واولها، بين العبد وربه، نفسه، فانه أمر رباني عظيم، وهو نور من انوار الله، اعني سرّ القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق، كما هي، حتى انه ليشحّ بحمله العالم كله، ويحيط به صور الكل. فعنده، يشرق نوره اشراقًا عظيمًا، اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في اول الامر محجوب بمشكاة هي الساترة له، فاذا تجلى نوره، وانكشف جمال القلب، بعد اشراق نور الله عليه، ربما التفت صاحب القلب الى القلب فرأى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما صرّح وقال: «انا الحق.»(٢)

يقول ابن عربي: «والمكاشفة طريق الى العلم والكشف غاية ذلك الطريق، وهو حصول العلم في النفس، وكذلك اذا خاطبك فقد اسمعك خطابه وهو شهود سمعي، فإن المشاهدة ابدًا للقوى الحسية والكشف للقوى المعنوية(٣)»

ثم يقول ابن عربي: «المكاشفة عندنا اتم من المشاهدة إلاّ لو صحت مشاهدة ذات الحق لكانت المشاهدة اتم، وهي لا تصح، فلذلك قلنا المكاشفة اتم لانها الطف، فالمكاشفة تلطف الكثيف والمشاهدة تكثف اللطيف، فالمكاشفة ادراك معنوي فهي مختصة بالمعاني.(٤)»

١- «منهاج العابدين» ص ١٤٥.

٢- «الكشف والتبيين» ص ٢٢٣.

٣- «الفتوحات المكّية» مجلد ٢ ص ٤٥٧.

٤- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٤٩٦.

٢٧-المشاهدة

المحاضرة والمداناة، هي وصل بين رؤية العيان ورؤية القلوب والمشاهدة رؤية الحق ونهاية الطريق.

«المشاهدة رؤية في الاصل، إلاّ انها رؤية يسبقها علم بالمرئي. لذلك يحكمها الاقرار والنفي على حين ان الرؤية لا انكار فيها. كما ان الرؤية لا تفني بل توفر للرائي العلم واللذة، على عكس المشاهدة تفني لا لذة فيها ولا علم. الرؤية لا شاهد لها، والمشاهدة لا قيمة لها دون شاهد.»(١)

ويقول ابن عربي: «ولما كان الشاهد حصول صورة المشهود في النفس عند الشهود، فيعطي خلاف ما تعطيه الرؤية. فان الرؤية لا يتقدمها علم بالمرئي، والشهود يتقدمه علم بالمشهود وهو المسمى بالعقائد، ولهذا يقع الاقرار والانكار في الشهود ولا يكون في الرؤية إلاّ الاقرار ليس فيها انكار. سمي شاهدًا لانه يشهد له ما رآه بصحة ما اعتقده، فكل مشاهدة رؤية وما كل رؤية مشاهدة»(٢)

ولا تغتر بقول عارف حين قال: «لا يشغله عن ربه ولا يشغله ربه عن شيء، انما اراد قوة الحضور لا المشاهدة، فما اشهدك قط إلاّ افناك وابقاك له وما ابقاك لك فخذ مالك واترك ما له.»(٣)

ثم يقول ابن عربي: «المشاهدة، اما رؤية للاشياء بدلائل التوحيد، اي رؤية الواحد من خلال الموجود المتكثر، فأشياء الوجود متكثرة في الظاهر واحدة في الباطن، ولو لم تكن في الحقيقة واحدة لما ثبتت الواحدية، وان جميع ما في الكون مظاهر لتجليات الخالق.»(٤)

١- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم، ص ٢٦٢.
٢- «الفتوحات المكية». مجلد ٢ ص ٥٦٧.
٣- «التجلّيات» ابن عربي ص ٥٣.
٤- «الرسائل» كتاب اصلاح الصوفية، مجلّد ٢ ص ٩.

وللشهود عند الصوفية مفهوم محدد فهو رؤية الحق بالحق، تلك الرؤية التي يجعل اهل الطريق لها ثلاث درجات. فالدرجة الأولى تعرف باسم المحاضرة، وهي حضور القلب لتلقي انوار الحق تعالى وبراهين ألوهيته من وراء الحجاب. ثم تأتي الدرجة الثانية – المكاشفة – وهي تلي المحاضرة لانها تكشف القلب لحقائق الالوهية دون افتقار لدليل وبرهان. والدرجة الثالثة الاخيرة هي المشاهدة حيث يشهد العارف ببصيرته سطعات انوار الغيب، ويسمع خطاب الحق تعالى في الكون.(١)

ومن اقوال السهروردي (القتيل): «المشاهدة هي شروق الانوار على النفس بحيث ينقطع منازعة الوهم وقد خصه ببعض الناس والصادقين*. بما يرسم من الصور الغيبية في الحس المشترك، فيرى ظاهرًا محسوسًا.(٢)»

وعمرو بن عثمان المكي قال: «المشاهدة توالي انوار التجلي على قلبه من غير ان يتخللها ستر وانقطاع.(٣)»

ويقول الدكتور المعلوف: «ومشاهدة الحق تفترض الرؤية اصلاً، إلاّ انها ليست رؤية بالعين، بل ببصر القلب من غير شبهة ولا وهم»(٤)

ويقول احمد الكمشخانوي: «فالمشاهدة شهود الذات بارتفاع الحجب مطلقًا وصورتها في البدايات: اعتقاد حضور الحق بذاته لكل شيء والايمان بذلك لقوله «أو لم يكف بربِّك انه على كل شيء شهيد»(٥). «وفي الابواب:

١– «الفاظ صوفية ومعانيها»، الدكتور الشرقاوي. ص ٢٧٩.

* يقصد السهروردي «ببعض الناس والصادقين»: الانبياء والحكماء، أمثال زرادشت، كيخسرو، هرمس، سقراط وافلاطون وغيرهم، وكلهم شاهدوا «الأنوار القاهرة». كتاب «حكمة الاشراق» ص ١٥٦.

٢– «مقامات الصوفية» ص ٧٩.
٣– «الرسالة القشيرية». ص ٧٥.
٤– «مقامات الصوفية» (حاشية) ص ٧٨
٥– سورة فصِّلت، آية ٥٣.

الايمان بانه موجود بالحق وهو القيوم بذاته له. وفي المعاملات: ايقان كون الاعمال كلها لوجه الله. وفي الاخلاق: تيقن ان الكمالات الخليقة لله وفي الله وبالله ووجهه مسلم لله الى الله. وفي الادوية: ادراك الحق بنور البصيرة المكحلة بنوره. وفي الاحوال: شهود تجليات انوار الجمال وخلوص الحب للجميل. وفي الولايات: كشف سبحات الجلال عن جمال الذات ودرجتها. وفي النهايات: شهود الحق ذاته بذاته لفناء العبد بكليته في عين الجمع»[١]

لم يكن في الامكان الاشارة الى جميع الاحوال والمقامات التي قال بها بعض اهل التصوف لأن بعضها، لا يمت الى التصوف، بل إلى حالات نفسية وعوامل عادية تحدث للانسان في مساق حياته الطبيعية.

١ - «جامع الاصول»، أحمد ضياء الدين الكمشخانوي. ص ٢١١.

الحقيقة المحمدية

قال رسول الله «واول ما خلق الله نوري»[١] ثم قال «كنت نبيًا وآدم بين الطين والتراب»[٢] وقال «صلعم» «خلقت وعلي من نور واحد قبل ان يخلق آدم باربعة عشر الف عام»[٣]

ويقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «ان كل نبي انما جاء ومعه نور اتاه من الكتاب الذي يحمله، ولكن نستطيع ان نقول عن آخر الانبياء، قد جاء وهو بذاته نور، وان كان برفقته كتاب، وان قلب هذا النبي هو الذي ينير الكتاب وان باطنه هذا هو الولاية.[٤]»

يقول الحلاّج: «ان نور محمد اشرق قبل ان يكون الخلق، ومنه استمد الانبياء هديهم والاولياء معارفهم لتجليه على مر الايام فيهم، وهذا النور القديم كما هو مصدر هداية هو مصدر خلق، فمنه كانت الاكوان ولولاه لما كان الوجود.» ثم يقول: «انوار النبوة من نوره برزت، وانوارهم من نوره ظهرت وليس في الانوار نور أَنور واظهر واقدم من القِدَم سوى نور صاحب الكرم همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لانه كان قبل الامم.[٥]

١- حديث رواه صاحب «بحار الانوار» الباب الثالث، الجزء الخامس وكتاب «في احقاق الحق» سهل بن عبد الله التستري ص ٢٤٦.

٢- المصدر نفسه.

٣- «فضائل الصحابة»، الحافظ أحمد بن حنبل الشيباني، مخطوط ص ٢٠٥. «المناقب»، الواسطي. مجلد ٤ ص ٩١.

٤- «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ١١٧.

٥- «الصوفية في نظر الاسلام»، سميح عاطف الزين ص ٣٢٤. كتاب «تذكر يا مروان» ص ٣٨٤.

الحقيقة المحمدية بدأ التعبير عنها في نهاية القرن الثاني هجري[1] وتجلت بصورة واضحة عند التستري* الذي يقول في خلق النبي: «ولما اراد الله ان يخلق محمدًا اظهر من نوره نورًا، فلما بلغ حجاب العظمة، سجد لله سجدة، فخلق الله من سجدته عمودًا عظيمًا كالزجاج من النور، اي باطنه وظاهره فيه عين محمد، فوقف بين يدي رب العالمين بالخدمة الف الف عام بطبائع الايمان وهي معاينة ومكاشفة اليقين ومشاهدة الرب.»[2]

يقول التستري: «ان نور النبي شامل وكلي، وان انوار جميع الأنبياء مشتقة منه. كذلك انوار الملكوت في الدنيا والآخرة، وان الله سبحانه خلق محمدًا لأجله وخلق آدم لأجل آدم ذاته وخلق المؤمنين لعبادته، وخلق الأشياء لأجل ابن آدم. إن هذه الحقيقة هي التي بدأت بها الأشياء وهي التي يختم بها»[3]. يستند التستري على الآية «قد جاءكم من الله نور وكتابٌ مبين»[4].

ابن عربي يعتبر الحقيقة المحمدية اكمل مجلى خلقي ظهر فيه الحق، بل يعتبره الانسان الكامل والخليفة الكامل بأعز معانيه لأنه، اذا كان لكل واحد من الموجودات مجلى خاص لبعض الاسماء الالهية التي هي ارباب له، فإن محمدًا قد انفرد بانه مجلى للاسم الجامع لجميع تلك الاسماء وهو الاسم الاعظم الذي هو «الله». ولهذا كانت له مرتبة الجمعية المطلقة، ومرتبة التعيين الاول الذي تعينت به الذات الأحدية، اذ ليس فوقه إلاّ هذه الذات المنزهة في نفسها عن كل تعين وكل صفة واسم ورسم[1].

١- «الطرق الصوفية في مصر»، ص ١١٣.

* هو الصوفي سهل بن عبد الله التستري صاحب كتاب «التراث الصوفي».

٢- «الطرق الصوفية في مصر» ص ١١٤.

٣- المصدر نفسه ص ١١٤.

٤- سورة المائدة، آية ١٥.

٥- «فصوص الحكم.» تحقيق ابو العلا عفيفي. ص ٣٢٠.

يقول الدكتور عفيفي: «ولهذه الحقيقة المحمدية التي هي اول التعينات – ان شئت فقل اول المخلوقات – وظائف اخرى ينسبها اليها ابن عربي. فهي من ناحية صلتها بالعالم مبدأ خلق العالم، اذ هي النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء. او هي العقل الالهي الذي تجلّى الحق فيه لنفسه في حالة الأحدية المطلقة، فكان هذا التجلي بمثابة اول مرحلة من مراحل التنزّل الالهي في صور الوجود.[1] ثم يقول: «من هذا الوصف الاجمالي لما يسميه ابن عربي، الكلمة المحمدية او الحقيقة المحمدية، عناصر مختلفة مستمدة من الفلسفة الافلاطونية الحديثة، والفلسفة المسيحية واليهودية، مضافًا الى ذلك، بعض الأفكار من مذهب الاسماعيلية الباطنية والقرامطة.[2] ويشير الدكتور عفيفي الى قول الاب كلمنت الاسكندري ويعتبره صدى من الغنوصية المسيحية: «ليس في الوجود إلاّ نبي واحد وهو الانسان الذي خلقه الله على صورته والذي يحل فيه روح القدس والذي يظهر منذ الأزل في كل زمان بصورة جديدة».[3]

ما يقصده ابن عربي بالكلمة المحمدية، «وهي شيء يختلف تمام الاختلاف عن شخصية النبي محمد، بل ليس بينهما من الصلة إلاّ ما بين الحقيقة المحمدية وأي نبيّ من الأنبياء أو رسول من الرسل او ولي من الأولياء. فالكلمة المحمدية اذن، شيء ميتافيزيقي محض خارج عن حدود الزمان والمكان. او قل ان شئت هي الحق ذاته ظاهرًا لنفسه في اول تعين من تعيناته في صورة العقل الحاوي لكل شيء المتجلي في كل كائن عاقل».[1]

١- المصدر نفسه ص ٣٢٠.
٢- المصدر نفسه ص ٣٢١.
٣- المصدر نفسه ص ٣١٩.
٤- «فصوص الحكم» ص ٣٢١.

الحقيقة المحمدية هي مبدأ خلق العالم واصله من حيث انها النور الذي خلقه الله قبل كل شيء وخلق منه كل شيء، وهي اول مرحلة من مراحل التنزل الالهي في صور الوجود، وهي من هذه الناحية صورة «حقيقة الحقائق، وهي منتهى غايات الكمال الانساني، فهي الصورة الكاملة للانسان الكامل الذي يجمع في نفسه حقائق الوجود.»[1]

يقول الدكتور ماجد فخري: «فقد نشأت مشكلة اشد وادهى في باب اعتباره (النبي محمد) حلقة الوصل الكبرى بين الانسان والله. على ان بعض المتصوفة الاولين، الذين لم يذهبوا الى هذا الحد من الغلوّ الذي ذهب اليه المتأخرون منهم، اعتبروا دور النبي، كوسيط بين الله والانسان، دورًا فرعيًا الى حد ما». ثم يقول: «لعل بعض المتصوفة المتأخرين، نظير ابن عربي، شعورًا منهم بهذا الاشكال، تحدثوا عن «حقيقة محمّد»، كماهية مجردة سابقة لوجود الزمان، لا كشخصية تاريخية تولت مهمة الهية في نطاق الزمان والمكان».[2]

١- «المعجم الصوفي» ، الدكتورة سعاد الحكيم. ص ٣٤٨.

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية»، ص ٣٣٢.

الانسان الكامل

الانسان الكامل، هو الحقيقة الأزلية المطلقة، نائب الله تعالى على الأرض، وهو الروح الكلي الكامل ومرآة الحق، تجلى في الانبياء من آدم الى محمد «صلعم». «فهو نور، محتواه نور ومظهره وجسمه نور، ما خلقه الله، عزّ وجل، الاّ يظهر به، وله في كل مكان علاقة تدل على انه ما عرف ربه إلاّ بربه في ظلال التوحد والتفرد.»[1] وهو كمال المعرفة بالنفس وبالله.

يقول الدكتور ماجد فخري: «مع ان ابن عربي يتحدث عن الجنس البشري عامة او سلالة آدم، بعبارات الثناء المفرط هذه، فقد اختص الانبياء والاولياء بفضل التقدم على سائر البشر، واعتبر محمدًا الانسان الكامل الحق. ولما كان «الانسان الكامل» التجلي الاكمل للذات الالهية، كان عبارة عن الكلمة النبوية التي تتجلّى في الحقيقة المحمدية.»[2]

ثم يتابع الدكتور فخري قوله: «هكذا فالانسان، في عرف ابن عربي، تجلٍ للعقل الكلي، والكائن الذي تنعكس فيه جميع صفات الله وكمالاته. فالملائكة لا تدركه إلاّ لذات روحانية منزهة وحسب، بينما يدركه الانسان في

١- «النصوص في مصطلحات التصوف». محمد غازي عرابي. ص ٣٢.

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». ص ٣٤٣.

طبيعته المزدوجة كذات جوهرية (اي الحق) من جهة، وتجلٍ لهذه الذات في عالم المخلوقات الظاهرة للعيان (اي الخلق) من جهة ثانية[١].

ابن عربي هو اول من استعمل تعبير «الانسان الكامل» في الفكر الصوفي والفلسفي الاسلامي، هذا من جهة اللفظ،[٢] أما المضمون فقد استقاه من ينابيع متعددة[٣] لم تؤثر في ابتكاره وفرديته.[٤]

يقول ابن عربي: «الانسان الكامل» هو العنوان في وجود الخليفة الذي هو ملك البدن واغراض الصوفية فيه وتعبيرهم عنه وهو الروح الكلي، وعبّر اهل الحقائق عن هذا الخليفة بعبارات مختلفة، لكل عبارة لها معنى، فمنهم من عبّر بالامام المبين، ومنهم عبّر عنه بالعرش ومنهم من عبّر عنه بمرآة الحق والحقيقة».[٥]

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون في الاصول التاريخية للانسان الكامل: «قد بدت في تاريخ مذاهب الانسانية في عهد موغل في القدم، وقد كتب المتون في الدين المقارن وقد جعلت نقطة ابتدائها من اساس سكونية آرية» انما ترى فيه خصوصًا «انه الانسان الكامل» و«الكيومرت» عند المزدكية، و«آدم قدمون» في كتب القبالة اليهودية، و«الانسان القديم» عند المانوية المستعربة»(٦).

١- المصدر نفسه ص ٣٤٤.

٢- لقد تغلغلت فكرة الانسان الكامل في التراث الصوفي بعد ابن عربي.

٣- يرى كامل مصطفى الشيبي ان ابن عربي استقاها من رسائل اخوان الصفا. أما هانزشيدر فيقول: ان «الانسان الكامل» من الاصول الايرانية القديمة وبخاصة الخطة النعسانية.

٤- «المعجم الصوفي»، الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١٦.

٥- المصدر نفسه ص ١٥٩.

٦- «الانسان الكامل في الاسلام». عبد الرحمن بدوي ص ١١٣.

أما الجرجاني فيقول: «الانسان الكامل هو الجامع لجميع العوالم الالهية والكونية الكلية والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الالهية فمن حيث روحه وعقله كتاب عقلي مسمّى بأم الكتاب، ومن حيث قلبه كتاب اللوح المحفوظ[١] ومن حيث نفسه كتاب المحو والاثبات، فهو الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة.»

«الانسان الكامل هو الحد الجامع الفاصل بين الحق والعالم فهو يجمع من ناحية بين الصورتين (صورة الحق وصورة الخلق) ويظهر بالاسماء الالهية فيكون حقًا ويظهر بحقيقة الامكان، فيكون خلقًا وهو يفصل من ناحية أخرى بين وجهي الحقيقة فيمنع الخلق من عودة الاندراج في الغيب الذي ظهر منه. انه حد بين الظاهر والباطن في اندراجه في البطون[٢] كما ان «الانسان الكامل هو علة وجود العالم والحافظ له».[٣]»

مرتبة الانسان الكامل هي باطن الاسم الظاهر. وهو برزخ بين الظاهر المطلق وبين الباطن المطلق. فالحضرة الكونية المسماة بالعالم هي صورة الاسم الظاهر، والحضرة الالهية هي مرتبة الاسم الباطن، وحضرة الانسان الكامل هي مظهر الاسم الجامع بين الاسم الظاهر والاسم الباطن. فالانسان الكامل برزخ بين الحضرة الالهية والكونية..

ويقول ابن عربي:[٤]

«أ. الانسان الكامل اقامه الحق برزخًا بين الحق والعالم، فيظهر بالاسماء الالهية فيكون حقًا ويظهر بحقيقة الامكان فيكون خلقًا.[٥]

١– الكتاب المبين وهو لوح من نور منقوش عليه جميع الحاجات والاعمال.
٢– (الأجوبة عن الانسان الكامل. مخطوط الظاهرية رقم ٦٨٣٤ ص ٢٢٠.) المعجم الصوفي. الدكتورة سعاد الحكيم ص ١٦٨.
٣– «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١٦١ – ١٦٢.
٤– المصدر نفسه. ص ١٦٢.
٥– «الفتوحات المكية» مجلّد ٢ ص ٣٩٤.

ب. الانسان الكامل الجامع حقائق العالم وصورة الحق لسبحانه[١].

ج. فما صحت الخلافة إلاّ للانسان الكامل، فأنشأ صورته الظاهرة من حقائق العالم وصوره، وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى ولذلك قال فيه. «كنت سمعه وبصره» ما قال كنت عينه واذنه، فغرق بين الصورتين.[٢]

د. في الانسان قوة كل موجود في العالم، فله المراتب ولهذا اختص وحده بالصورة، فجمع بين الحقائق الالهية وهي الاسماء وحقائق العالم، فكان الانسان اكمل الموجودات، فكل ما سوى الانسان خلق إلاّ الانسان فانه خلق وحق، فالانسان الكامل هو على الحقيقة الحق المخلوق به، اي المخلوق بسببه العالم».[٣]

هـ. ان الانسان الكامل لا يبقى له في الحضرة الالهية اسم إلاّ وهو حامل له.»[٤]

و. في خلقه على الصورة، الانسان الكامل، ولهذا سمّي كاملاً، وانه روح العالم، والعالم المسخر له علوه وسفله، وان الانسان الحيواني من جملة العالم المسخر له.[٥]»

ز. هو الانسان الكامل الكلمة الجامعة، واعطاه الله من القوة بحيث انه ينظر من النظرة الواحدة الى الحضرتين فيتلقى من الحق ويلقي الى الخلق.[٦]»

١- المصدر نفسه مجلد ٣ ص ٤٤٧.

٢- «فصوص الحكم». مجلد ١ ص ٥٥.

٣- «الفتوحات المكية». مجلد ٢ ص ٣٩٦.

٤- «حُلية الابدال». ص ٩.

٥- «الفتوحات المكية». مجلّد ٣ ص ٢٦٦.

٦- المصدر نفسه. مجلد ٢ ص ٤٤٦.

ح. فالانسان خفي فيه الأزل فجهل لأن الأزل ليس ظاهرًا في ذاته، وانما صح فيه الازل، لوجه من الوجوه، جهة وجوده على صورته التي وجد عليها في عينه من العلم القديم الازلي المتعلق به في حال ثبوته فهو موجود اولاً.[1] وفي الاصول التاريخية التي استمد منها ابن عربي نظرية الانسان الكامل يؤكد على ان الغنوص الاسلامي الذي نشأ في بابل متكونًا من عناصر مانوية وهيلينية قد نقل الى اسبانيا في عصر مبكر ووجد كماله عند ابن عربي.[2]»

يقول سيد حسين نصر: «الانسان الكامل هو الكلمة ايضًا، عبارة عن مجموع تجليات الاسماء الالهية، انه العالم في وحدته كما تراه الذات الالهية. وهو ايضًا النموذج الاصلي للعالم وللانسان، الذي يحتوي الانسان او العالم الصغير من خلاله جميع الامكانيات الموجودة في العالم. وكل من العالمين الصغير والكبير[3] يواجه الآخر كمرآتين تنعكس كل منهما في الأخرى، بينا يردد كلاهما «صدى» في ذاتيهما لنموذجهما المشترك الذي هو «الانسان الكامل». و«الانسان الكامل» ايضًا هو الروح اصلاً او العقل الأول الذي يحتوي على كل المثل الافلاطونية في باطنه على غرار الكلمة في عقائد «فيلون»، التي هي المولود الأول لله الذي اجتمعت فيه المثل جميعًا.[4] ثم يضيف على قوله: «فالانسان الكامل» يتمثل اولاً وقبل كل شيء في الأنبياء، وخاصة نبي الاسلام. وثانيًا في الأولياء العظام، وعلى وجه الخصوص «اقطاب» كل عصر، ممن تبدو حقيقتهم الظاهرة شبيهة بغيرهم من الناس، أما حقيقتهم الباطنة، فتشتمل على جميع الامكانيات الكامنة في مرتبة الانسان

١- المصدر نفسه مجلد ١ ص ٥٤.
٢- «الانسان الكامل في الاسلام» عبد الرحمن بدوي. ص ٦٣.
٣- العالم الصغير هو الانسان والعالم الكبير هو الكون.
٤- «ثلاثة حكماء مسلمين». ص ١٤٤.

باعتباره العالم الصغير المركز الذي يعكس جميع الصفات الكلية. فكل انسان، بالقوة، إنسان كامل، أما بالفعل، فالانبياء والأولياء فقط يمكن ان يطلق عليهم هذا اللقب، او يقتدى بهم كنماذج للحياة الروحية ومرشدين الى طريق الوصال.[1] »

قال الشيخ الصوفي عبد الكريم الجيلي عن الانسان الكامل:

عزّت مداركه، غابت عوالمـــه   جلّت مهالكه اصمت صوارمـه

لا العين تبصره، لا الحد يحصره   لا الوصف يحصره ومن ذا ينادمه

يقول الجيلي عن الذات الالهية وهي الباعث لتجلي الانسان الكامل: «هي الغيب بل غيب الغيب والسبيل الى هذا الغيب، ليس الادراك العقلي او الاستدلال بالاسماء والصفات او الغناء للحظات، ولكن يتجلى الله بذاته على العبد من فيض كرمه السابغ فيصرفه به. وهذه التجليات الالهية، لا يكون للعبد فيها من شيء إلاّ مقدار قبوله لتلك التجليات، حيث كونه تقبل الانطباع بما تعانيه من تجليات الحق التي يظهر بها على من يشاء من عباده. ولهذا التجلي او الظهور مرات كما ان له اهله، الذين هم اهل الغيب».[2]

يقول يوسف محمد طه زيدان: «الانسان الكامل» عند الجيلي واحد منذ كان الوجود الى ابد الأبدين، إلاّ ان له تنوعات وصورًا في كل زمان، «والانسان الكامل» هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام.»[3]

١- المصدر نفسه. ص ١٤٥.

٢- «الكهف والرقيم» مخطوط. ورقة ٢٣أ. «الفكر الصوفي عند الجيلي» يوسف محمد طه زيدان. ص ٧٣.

٣- «الانسان الكامل». مجلد ١ ص ٣.

يقول الجيلي: «الانسان هو صورة الله، اي نسخة الحق، فاذا كان الحق تعالى قد تقدّس بذاته وتعالى عن اوصاف الخلق وما هم عليه من الذلة والنقص، فإن ذلك ينسحب على مطلق الانسان. أما الانسان الكامل، فقد وصل الى المرتبة الاخيرة والمقام الاعلى الذي يتجلى فيه الله عليه بذاته، لذلك، فالانسان الكامل هو صورة كمال الذات الأزلي التخليد، وخليفة الله الذي اشارت اليه الآيات، فهو مقابل الحق ونسخه الله.»(١)

ويقول ابن عربي: «الانسان الكامل حاز على خلاصة الكون كله واصبح مقابلاً للذات الالهية، فصار وحده مرآة للذات الالهية، لأنه اذا كان كل واحد من الموجودات مجلى خاصًا لبعض الاسماء الالهية، التي هي ارباب له، فان محمدًا انفرد بانه مجلى للاسم الجامع لجميع تلك الاسماء، وهو الاسم الاعظم الذي هو «الله» ولهذا كانت له مرتبة الجمعية المطلقة، مرتبة التعين الاول الذي تعينت به الذات الاحدية اذ ليس فوقه إلاّ ذات الله سبحانه»(٢)

١- «الكهف والرقيم» مخطوط. ورقة ٢ أ. «الفكر الصوفي عند الجيلي». يوسف محمّد طه زيدان. ص ٨٥ - ٨٦.

٢- «اضواء على التصوف» طلعت غنام. ص ٢٠٩.

وحدة الوجود

قال ابن عربي:

يا خالق الاكـــــوان في نفسه .أنت لما خلقته جامـــــــــع

تخلق ما لا ينتهي كونـــــــه فيـــك، فانت الضيق الواسع

الوجود كله واحد، ووجود المخلوقات عين وجود الخالق، والعقل القاصر هو الذي لا يدرك ان لا فرق بين الوجودين، والحقيقة ان لا فرق بينهما.[١] وبذلك يريد ابن عربي ان يبين ان هناك «وحدة ثانية» تتجمع فيها «الأشياء». ثم يضيف على ذلك، «وجودنا وجوده، ونحن مفتقرون اليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر الينا من حيث ظهوره بنفسه، فأنت غذاؤه بالأحكام، وهو غذاؤك بالوجود، فتعين عليه ما تعين عليك، والذكر منه اليك ومنك اليه، غير انك تسمى مكلفًا، ولا يُسمى هو مكلفًا». ثم يقول: «ما في وجود إلاّ الله، ونحن وإن كنا موجودين، فانما كان وجودنا به، فمن كان وجوده بغيره، فهو في حكم العدم».[٢]

١– «رسائل ابن عربي» ص ٨.

٢– «رسائل ابن عربي» ص ٩.

ويسترسل ابن عربي في تفسيره «لوحدة الوجود» فيقول: «وحدة الوجود قديمة ازلية لا تتغير. وان تغيرت الصور الوجودية التي تظهر فيها، فاذا نظرت اليها من حيث ذاتها قلت هي الحق، ومن حيث صفاتها واسماؤها او ظهورها في اعيان الممكنات قلت هي الخلق، فهي الحق والخلق، الواحد والكثير، والقديم والحادث، والأول والآخر، والظاهر والباطن، فهو يقول فسبحانه من خلق الاشياءوهو عينها، ويا خالق الاشياء في نفسه، وانت لما تخلقه جامع، وتخلق ما لا ينتهي كونه فيك وانت الضيق الواسع»[١]. ثم يقول: «الله هو الحقيقة الأزلية، والوجود المطلق الواجب، الذي هو اصل كل ما كان وما هو كائن وما سيكون. الوجود الحقيقي هو وجود الله، وهو الوجود الجامع لكل وجود والظاهر لصورة كل موجود. الوجود كله واحد وان وجود المخلوقات عين وجود الخالق لا فرق بينهما من حيث الحقيقة»[٢]

يقول الدكتور ماجد فخري عن وحدة الوجود عند ابن عربي: «نقطة الانطلاق في تفكيره هي نظرية «الكلمة». وعنده انه ككل نبي من الانبياء حقيقة خاصة به يدعوها الكلمة، وهي مظهر من مظاهر الذات الالهية. ولولا تجليات هذه الذات في تلك الكلمات او – التجليات النبويّة – لبقيت طبيعة الوجود الحق مستترة الى الابد. وتلك الذات هي مصدر كل وجود، لذا كانت ازلية وغير متحولة وغير متجزئة».[٣]

١– «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني. ص ٨٧٧.

٢– المصدر نفسه ص ٢٨٧.

٣– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٣٤٢.

إن عبارة وحدة الوجود ابتدعها دارسو ابن عربي، او بالاحرى صنفوه في زمرة القائلين بها، اذ ان الباحث لا يلتقط معالم فكر مفكر إلاّ بتحليله الى عناصره البسيطة. ثم يقول الكاتب: «وبالتالي استدل الملتمس وجه ابن عربي من جمل امثال «الوجود كله واحد» «وما ثمة الاّ الله». «وما في الوجود الاّ الله» الى القول بانه «من انصار وحدة الوجود».[١]

وتقول الدكتورة الحكيم*: «ان عبارة وحدة الوجود لا تدخل ضمن مصطلحات ابن عربي، اذ انها من ناحية لم ترد عنده مطلقًا، ومن ناحية ثانية، هي تشكل تيارًا فكريًا له جذوره البعيدة في تاريخ النظريات الفلسفية.»[٢]

ثمّ تقول: «كثيرًا ما يتوقف الباحث امام نتائج ابن عربي متسائلاً: هل عنده وحدة وجود ام وحدة شهود؟ ثم لا يلبث ان يقرر انها وحدة وجود، من حيث انها لم تبرز في صيحة وجد، بل كانت نتيجة باردة لتفكير نظري». ثم تقول: «ويعود تردد الباحث بين الوحدتين الى انهما يتطابقان في النتيجة. فكلتاهما ترى ان الوجود الحقيقي واحد، هو الله. ولكن صاحب وحدة الشهود يقولها في غمرة الحال، على حين يدافع عنها ابن عربي في صحو العلماء وبرود النظريين.»[٣] ثم تقول: «وهنا نلاحظ ان ابن عربي من ناحية قد باين وحدة الشهود باثباته الكثرة المشهودة المرئية، ومن ناحية ثانية، وصل بالشهود الى تقرير الوحدة الوجودية».[٤]

١- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١١٤٥.

* الدكتورة سعاد الحكيم، مفكرة لبنانية، لا ريب في انها ثقة لا تضاهى في معرفة فلسفة ابن عربي، وقد اغنت في بحثها القيّم في هذا الموضوع، المكتبة العربية.

٢- «المعجم الصوفي». ص ١١٥٤.

٣- «المعجم الصوفي» الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١١٤٥.

٤- المصدر نفسه. ص ١١٤٦.

ومن اقوال ابن عربي: «انه ما في الوجود إلاّ الله، العين، وان تكثرت في الشهود فهي احدية في الوجود»(١) ثم يقول تأكيدًا لنظريته هذه:

دلالات لوجود على وجودي تعارضها دلالات الشهـــــود
فان العين ما شهدت ســـواه بعين شهودها عند الوجـــود

«فان الدليل يعطي وجودي، اذ ليس الدليل سوى عيني ولا عيني سوى امكاني، ومدلولي وجود الحق، والشهود ينفي وجودي، لا ينفي حكمي فيمن ظهر فيه، وما ينسب اليه انه عيني، وهو حكمي، ولوجود الله فاستفدت من الحق. ظهور حكمي بالصورة الظاهرة، لا حكم ظهور عيني، ويقال، وما ثم قائل غيري، ان هذه الصور الظاهرة في الوجود الحق التي هي عين حكمي انها عيني. هذا يعطيه الشهود، فالشهود يعارض الادلة النظرية»(٢)

«وحدة الوجود عند ابن عربي ان كانت ثمرة فكر نظري، ارجع الكثرة المشهودة الى حقيقتها الواحدة، فهي من اللحظة الثانية شهود لهذا النظر الفكري. ولكن تألف الفكر مع الشهود فدعم كل منهما الآخر حتى صعب التفريق بين حدود كل منهما. وان كنا نظن باسبقية الفكر على عينه. ولكن «علم اليقين» هذا ليس ثمرة التفكير الفلسفي الحر، فالواقع ان ابن عربي مفكر مقيد بالكتاب والسنة، ولا يمكن ان يقال عنه «مفكر حرّ»، فتكون وحدة الوجود عند ثمرة تفكره في الكتاب والسنة ليس إلاّ»(٣)

١- «الفتوحات المكية»، مجلد ٤ ص ٣٥٧.

٢- «الفتوحات المكية». مجلد ٤ ص ٣١.

٣- «المعجم الصوفي». الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١١٤٧.

ونظرية الدكتورة الحكيم تستند الى قول ابن عربي: «الوجود كله هو واحد في الحقيقة لا شيء معه، فما ثم إلاّ غيب ظهر، وظهور غاب، ثم ظهر ثمّ غاب، هكذا ما شئت، فلو تتبعت الكتاب والسنة ما وجدت سوى واحد ابدًا، وهو: الهو..»[1]

التوحيد عند ابن عربي مفتاح وحدة الوجود اذ يقول: «لو استقل الممكن بالوجود، ولو للحظة، لاستغنى في هذه اللحظة عن الخالق اي الحق، وشاركه من حيث الغنى بألوهية. اذن، توحيد الالوهية يقتضي توحيد الوجود».[2]

من اقوال ابن عربي في وحدة الوجود:

١. وهو من حيث الوجود عين الموجودات. فالمسمى محدثات هي العليّة لذاتها، وليست إلاّ هو، لأن الاعيان التي لها العدم الثابتة فيه ما شمّت رائحة من الموجودات[3].

٢. ولولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود[4].

٣. ما ثم إلاّ الله والممكنات، فالله موجود والممكنات ثابتة.[5]

٤. وما ثم إلاّ وجود واحد والأشياء موجودة به معدومة بنفسها[6]

١- الجلالة وهو كلمة الله. ص ٩.

٢- «المعجم الصوفي». الدكتورة سعاد الحكيم. ص ١١٤٩.

٣- «فصوص الحكم». مجلّد ١ ص ٧٦.

٤- المصدر نفسه مجلدا ص ٥٥.

٥- «الفتوحات المكية» مجلد ٤ ص ٤١٠.

٦- «مرآة العارفين». ورقة ٤٤٩.

٥. فالوجود كله خيال في خيال. والوجود الحق انما هو الله خاصة من حيث ذاته وعينه، لا من حيث اسمائه.[١]

يقول الدكتور ابو العلا عفيفي: «لم يكن مذهب وحدة الوجود في الاسلام في صورته الكاملة قبل ابن عربي، فهو الواضع الحقيقي لدعائمه والمؤسس لمدرسته والمفصل لمعانيه ومراميه، والمصور له بتلك الصورة النهائية التي اخذ بها كل من تكلم في هذا المذهب من المسلمين من بعده.» ثم يقول: «ذلك ان الاقوال المأثورة عن ابي يزيد البسطامي والحلاّج، بل عن ابن الفارض المعاصر لابن عربي، ليست في نظري دليلاً على اعتقادهم في وحدة الوجود، بل على انهم كانوا رجالاً فنوا في حبهم الله عن انفسهم وعن كل ما سوى الله فلم يشاهدوا في الوجود غيره، وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود.»[٢]

يقول سيد حسين نصر: «اما الاصطلاح القائل بان الله حل في جميع الأشياء، الذي استخدمه «نيكلسون» وعدد من العلماء الآخرين الذين كانوا يعلمون جيدًا ان «الحلولية» لا تنطبق على الصوفيين، فقد يبدو أقرب الى المعقول، صحيح ان الله يحل في الأشياء، ولكن العالم لا يحتوي الله. وكل اصطلاح يتضمن مثل هذا المعنى لا يصلح لأن يكون تعريفًا مناسبًا لعقيدة وحدة الوجود».[٣]

ويعرّف الدكتور جميل صليبا وحدة الوجود فيقول: «أما مذهب وحدة الوجود، فهو مذهب الذين يوحدون الله والعالم، ويزعمون ان الكون هو الله».[٤]

١- «فصوص الحكم» مجلدا ص ١٠٤.
٢- «مقدمة فصوص الحكم». ص ٢٥.
٣- «ثلاثة حكماء مسلمين». ص ١٣٩.
٤- «المعجم الفلسفي» مجلد ٢ ص ٥٧٩.

يعتبر بعض المفكرين ان مذهب وحدة الوجود قد ظهر بشكل واضح في العقيدة «الفيدية» الهندية، حيث تؤمن هذه العقيدة بان «براهما» هو الحقيقة اللانهاية التي ليس من الممكن تعريفها[١]. «وبراهما» يقول:، «الله هو الوجود، والكون الحقيقي كله والله شيء واحد».[٢]

أما بعض المستشرقين «كديدرا Diderat» «وهولباخ Holbach» يقولون بوحدة الوجود الفلسفية حيث يغلب عليها الطابع المادي اذ يقولون: «ان العالم وحده هو الموجود الحق، وليس الله سوى مجموع الأشياء الموجودة في العالم[٣]. وهكذا تغلب فكرة المادة على هذه الفلسفات، فلا تسلّم إلاّ بوجوده وترد كل شيء الى المادة التي عنها تنشأ الكائنات جميعها، فتكون وحدة الوجود لديهم وحدة مادية[٤]».

أما الفيلسوف الالماني «شوبنهور» فقال عن مذهب وحدة الوجود: «ان اصحاب هذا المذهب لم يضعوا شيئًا سوى انهم اضافوا مرادفًا آخر لاسم «الكون» فزادوا اللغة كلمة ولم يزيدوا العقل تفسيرًا ولا الفلسفة مذهبًا ولا الدين عقيدة»[٥].

يمكن حصر عقيدة وحدة الوجود في ثلاث نظريات:

١- وحدة الوجود الدينية التي تظهر في العقائد الهندية القديمة وتعطي «الفيدانتا» مثالاً لها.

٢. وحدة الوجود الفلسفية، ويغلب عليها الطابع المادي حيث تكون المادة هي الاصل وهي الكل. الصوفيون يرفضون هذه النظرية ويقولون ان الكون فيه تجليات الهية وليس مادة فقط.

١- Encyclopedia of Philosophy Vol. 6 page 32.

٢- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين. ص ٢٨٧.

٣- «المعجم الفلسفي». جميل صليبا. ص ٥٧٩.

٤- المصدر نفسه. ص ٢١٢. (بتصرف).

٥- «وحدة الوجود العقلية». الجابر الوائلي . ص ١٧٤.

٣. وحدة الوجود العقلية التي ترد الوجود الى عقل واحد.

أما وحدة الوجود في المفهوم الصوفي فقد اعتمدت على فكرة واحدة: بان الله هو كما تقول الآيات، الأول والآخر، والظاهر والباطن وحده هو الحق وما سواه باطل ووهم(١).

يؤكد ابن عربي نظرية «بان الله وحده هو الحق» يقول: «بان الله هو الموجود ولا موجود على الحقيقة سواه وما ثمة غيره تعالى فهو الوجود الحق والوجود المطلق.»(٢) ويقول: «قد ثبت عند المحققين انه ما من الوجود إلاّ الله، ونحن إن كنا موجودين فانما كان وجودنا به»(٣)

وابن سينا، تلميذ الفارابي ليثبت ان جميع الموجودات هي بالله ولله فيقول: «الأول – الله – يعقل ذاته ويعقل نظام الخير الموجود في الكل، وهو مستفيض كائن موجود، فالموجودات كلها انما وجودها عنه. هو فاعل الكل بمعنى انه الموجود الذي يفيض عنه كل وجود فيضًا تامًا مباينًا لذاته.(٤)»

الدكتور عبد الرحمن بدوي يفسر الاختلاف في نظرية وحدة الوجود عند المتصوفة وترتيب الكون عند الفلاسفة الالهيين فيقول. «المهم عند الصوفي في القول بوحدة الوجود، الاتحاد بالذات الالهية او بالواحد. اما عند الفيلسوف الالهي القائل بوحدة الوجود، فان المهم معرفة ترتيب الكون وكيفية تركيبه بصدوره عن الواحد في صدورات متوالية يتدفق بعضها من بعض في مراتب. فوحدة الوجود عند الفيلسوف الالهي، نظرية في الكون، وعند الصوفي، اساس يستند اليه في تجربة الاتحاد. الأول يعني لادراك الوحدة والثاني يفترضها مقدمًا ويسلك الطريق لتحقيقها بنفسه في تجربته الذاتية. الأول يضع النظرية، والثاني يعيشها في تجربة حية»(٥)

١- متفرقات اخذت بتصرف من كتاب «الفكر الصوفي»، عبد الكريم الجيلي. ص ١٨٠ – ١٨١.

٢-« الفكر الصوفي» عند عبد الكريم الجيلي. ص ٢٠٤.

٣- «الفتوحات المكية»، السفر الثاني فقرة ٩٠.

٤- «رسالة النجاة» – مقتطفات ص ٤٤٨ – ٤٥٠.

٥- «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ٢٢.

والفيلسوف الصوفي ابو حامد الغزالي يقول عن وحدة الوجود في كتابه «مشكاة الانوار»: «ليس هناك في الوجود موجود حقيقي إلاّ الله تعالى وكل ما سواه مستمد منه، وليس في الوجود إلاّ الله واثاره والكون كله من اثاره، وكل ما سوى الله عدم محض.» ثم يناقض هذا القول بقوله: «ان الله مع كل شيء، ومظهر لكل شيء»، هذا القول لا يتفق مع منطق وحدة الوجود.[1]

وابن تيمية هاجم بقسوة وعنف الصوفية خاصة من قال منهم بالحلول وبوحدة الوجود ومن اقواله: «مذهب صاحب الفصوص (ابن عربي) وامثاله كابن الفارض وابن سبعين والقونوي والتملساني يقولون ان الوجود واحد وان وجود المخلوق هو وجود الخالق، لا يثبتون موجودين خلف احدهما الآخر، بل يقولون، الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق». ثم يقول «اقوال هؤلاء، باطنها اعظم كفرًا والحادًا من ظاهرها، ومن كان اعرف بباطن المذهب كان اعظم كفرًا كالتلمساني وابن سبعين وهؤلاء من جنس الجهمية الذين يقولون ان الله بذاته حال في كل مكان».[2]

وينهي ابن تيمية هجومه على وحدة الوجود بقوله: «انه لو تنزل مع ابن سبعين على القول الضعيف الذي يرى، الكل المطلق موجودًا في العين، يكون الرب تعالى جزءًا من كل موجود مخلوق. فهم بين ان يجعلوه عدمًا محضًا لا وجود له إلاّ في الاذهان لا في الاعيان. كلهم مع التعطيل الصريح والإفك يتناقضون ولا يثبتون على مقام، ولهذا رأيت كلامهم مضطربًا لا ينضبط لما فيه من التناقض.[3]»

١- «الغزالي والتصوف الاسلامي». احمد الشرباصي. ص ٢٠٦.

٢- «اضواء على التصوف». طلعت غنام. ص ٣٦٤ و٣٦٥.

٣- «منهاج السنة» مجلد ١ ص ٣٣٥.

وحدة الشهود

اختلف المفكّرون المسلمون، هل ابن عربي قال بوحدة وجود ام بوحدة شهود؟

تقول الدكتورة سعاد الحكيم وعندها المعرفة والخبرة التامة في فلسفة ابن عربي: «ويعود تردد الباحث بين الوحدتين الى انهما يتطابقان في النتيجة، فكلتاهما ترى ان الوجود الحقيقي واحد هو الله. ولكن صاحب وحدة الشهود يقولها في غمرة الحال، على حين يدافع عنها ابن عربي من صحو العلماء وبرود النظريين.[1]»

ولكن الحقيقة ان وحدة ابن عربي تختلف عن وحدة شهود غيره بسبب جوهري، وهو ان الشيخ الاكبر لم يقطفها ثمرة فيض فناء في الحق. فناء افناه عن رؤية كل ما سوى الحق، فقال بعدم كل ما سواه. كلا ابن عربي يرى الكثرة عنده موجودة، وشهوده يعطيه الكثرة. وبصره يقع على كثرة، اذن الكثرة عنده موجودة. وهنا نستطيع ان نقول ان «وحدته» على النقيض من وحدة الشهود تعطي كثرة شهودية. فالنظر يقع على كثرة عنده وهذا ما لا يمكن ان ينطبق على وحدة الشهود. ثم تقول: «ان الذي يعطي الوحدة الوجودية هو: الشهود».[2]

١- «المعجم الصوفي». ص ١١٤٥.

٢- «المعجم الصوفي». ص ١١٤٥ - ١١٤٦.

يقول الدكتور ابو العلاء عفيفي: «ووحدة الشهود حال او تجربة يعانيها الصوفي، لا عقيدة ولا علم ولا دعوى فلسفية يحاول برهنتها او يطالب الغير بتصديقها».[١]

اما الدكتور بديع محمد جمعه فيقول ان فريد الدين العطار قال: «اما وحدة الشهود فمعناها الفناء عن شهود التكثر والتعدد، لا يفي هذا التكثر والتعدد في ذاته ذلك الذي يؤكده مذهب وحدة الوجود، فالمؤمن بوحدة الشهود لا يشهد في الوجود إلاّ الله، أما المؤمن بوحدة الوجود فهو يسقط التكثر والتعدد في الوجود العيني، ولا شك ان هناك فارقًا بين الغيبة عن شيء (التكثر) وبين نفي هذا الشيء. وهذا هو الفارق بين مذهب وحدة الوجود ووحدة الشهود.»[٢]

يقول المستشرق الالماني V.H. Ritter: «من الافكار المنسوبة خطأ الى العطار القول بوحدة الوجود، ولكن الحقيقة ان العطار يبتعد عن تأليه الصوفي ويبتعد كذلك عن الحلول والاتحاد، وهو يضيف الى هاتين الكلمتين كلمة اخرى وهي في رأيه «وحدة الاستغراق في الله»[٣]. ويقول الدكتور بديع جمعه: «وحدة الاستغراق بالله، في رأيي، مبدأ وسط بين وحدة الوجود ووحدة الشهود اراد به Ritter ان يخرج من ذلك التضارب البادي من كلام العطار.[٤]»

١- «التصوف والثورة الروحية في الاسلام». ص ١٨٥.

٢- منطق الطير فريد الدين العطار. ص ١١٤.

٣- Das meer der seele mench wela und Gott in den geschichten de fariduddin Attar p. 590.

٤- منطق الطير. ص ١١٦.

يقول الدكتور طلعت غانم: «ان المقابلة واضحة بين وحدة الشهود، التي هي مرادفة لنوع من انواع التوحيد، ووحدة الوجود التي لا يقصد بها وحدة الالوهية بل وحدة للحقيقة الوجودية.» ثم يقول: «والظاهر ان وحدة الشهود هي اخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية إطلاقًا بقطع النظر عمن يحصل له وعن موطنه، وجنسه، ودينه. فإن الوثائق لديهم تثبت انها حال عالمية جربها كبار الصوفية باسماء مختلفة. وهي الحال التي يسميها الصوفية بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع».(١)

يقول الدكتور عثمان يحيى: «ان فناء ارادة العبد في ارادة الله، معناه تسامي الارادة الانسانية الى قمة الارادة الالهية، كذلك الامر في التوحيد الشهودي، فإن فناء وجود العبد المعنوي في بحر الوجود المطلق، معناه تسامي الوجود الانساني المحدود الى سماء الوجود الالهي اللامحدود، بدون ان تحدث هذه العملية الغريبة الفائقة اي تغير في حقيقة الذات الالهية المطلقة وكمالها اللانهائي».(٢)

١- «اضواء على التصوف». ص ٢١٨.

٢- «نصوص تاريخية خاصة بنظرية التوحيد في التفكير الاسلامي». ص ٢٣٥.

الصوفية والفقه

الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العلمية من ادلتها التفصيلية وتفسير احكام الدين. «وهو بحر لا يدرك مداه، فمسألة واحدة يتفرع عنها فروع شتى كثيرًا ما تتعدد وتتضارب في فرع منها اقوال المذاهب».(١) ويقول: «كما ان مخالفة المذهب ليست مخالفة لواقع الاسلام وحقيقته.»(٢)

الفقهاء من المذاهب الخمسة: الحنفي في العراق، المالكيّ في الحجاز ثم انتشر في سوريا وشمال افريقيا، الحنبلي في العراق والآن في الجزيرة العربية، أما الشافعي الذي لم يكتب له النجاح في المدينة وهي موطن اسرته، حيث انتشر المذهب المالكي، ولا في العراق معقل المذهب الحنفي فقدم الى مصر حيث توفي فيها عام ٢٠٥هـ. أما المذهب الجعفري، نسبة الى الامام جعفر الصادق فقد انتشر بين الشيعة في العراق.

١- «الفقه على المذاهب الخمسة». الشيخ محمد جواد مغنية ص ١١.

٢- المصدر نفسه ص ٨.

تفرغ هؤلاء الأئمة لدراسة علوم الاسلام ونصوصه تمهيدًا لايضاح الغامض منها وترتيب الاحكام واصول الشرع واعتمدوا الكتاب والسنة والحديث والقياس والاجماع. ويقول السرّاج الطوسي «وضعوا كل شيء في مواضعه، ورتبوا كل حد في مراتبه، فبينوا المشكل وحلّوا العقد واوضحوا الطرق وازالوا الشبهات».(١)

يقول السراج الطوسي عن الصوفية والفقه: «اتفقوا مع الفقهاء واصحاب الحديث في معتقداتهم وقبلوا علومهم، و لم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم، اذا كان ذلك مجانبًا عن البدع واتباع الهوى وقنوطًا بالاسوة والاقتداء، وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم، فاذا اجتمعوا، فهم من جملتهم فيما اجتمعوا عليه، فاذا اختلفوا فاستجاب الصوفية في مذهبهم الاخذ بالاحسن والأولى والاتم احتياطًا للدين وتعظيمًا لما امر الله به عباده».(٢)

يقول الدكتور السحمراني: «والصوفي قبل ان يسلك في طريق لا بد من ان يحصل العلوم الفقهية بقدر، وإلاّ كان معرضًا، اذا ما تصوف عن جهل، للانحراف».(٣)

قال الجنيد ابن محمد: «سمعت سري السقطي يقول: «جعلك الله صاحب حديث صوفيًا ولا جعلك صوفيًا صاحب حديث».

يقول ابو طالب المكي: «اذا ابتدأت بعلم الحديث والأثر ومعرفة الاصول والسنن، ثم تعبدت وتزهدت، تقدمت في علم الصوفية وكنت صوفيًا عارفًا. واذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شغلت به عن علم السنن، فخرجت

١- «اللمع في التصوف». السرّاج الطوسي ص ٩.
٢- «اللمع في التصوف». ص ١٠.
٣- «التصوف» ص ٦٢.

إما شاطحًا او غالطًا لجهلك بالاصول والسنن، فاحسن احوالك ان ترجع الى علم الظاهر وكتب الحديث لأنه هو الأصل الذي تفرع عليه العبادة والعلم، وانت قد بودئت بالفرع قبل الاصل.»(١)

يقول اهل التصوف: «ان علماء الفقه هم اهل علم الظاهر، اما الصوفيون فهم اهل علم الباطن».

أما السرّاج الطوسي فيقول عن ربط الفقه (علم الظاهر) والتصوف (علم الباطن): «لا يجوز ان يجرد القول في العلم انه ظاهر او باطن، لأن العلم، متى ما كان في القلب فهو باطن فيه الى ان يجري ويظهر على اللسان، فاذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أنّا نقول ان العلم ظاهر وباطن وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو الى الاعمال الظاهرة والباطنة، والاعمال الظاهرة، كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والاحكام مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك فهذه عبادات»(٢)

يقول المستشرق الفرنسي «ماسينيون»: «وان القول الشائع بان التصوف هو ثورة الضمير على ما يصيب الانسان من مظالم، وتقترن هذه الثورة برغبة من الكشف عن الله بأي وسيلة، هذا القول لا يثبت عند التحليل العلمي، ليس لأنه يسلب التصوف الاسلامي ايجابيته الحيوية فحسب، ولكن لأنه يحول بينه وبين مصدره الاصيل وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة.»(٣)

وقال الصوفي ابو سليمان الداراني: «ربما تقع على قلبي النكتة من نكت القوم ايامًا فلا اقبل منه إلاّ بشاهد عدل، بالكتاب والسنّة».(٤)

١- «قوت القلوب في معاملة المحبوب» ص ٣٢٢.
٢- «اللمع في التصوف». ص ٢٣.
٣- «دائرة المعارف الاسلامية». مجلده ص ٢٦٩.
٤-تاريخ بغداد. مجلد ١٠ ص ٢٤٨.

وعن الجنيد ابن محمد: «مذهبنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.»[1] وقال: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلاّ على من اقتفى اثر الرسول عليه الصلاة والسلام[2]».

يقول المحاسبي: «الصوفية قد ربطوا حقيقة العبادة لله بحقيقة المعرفة به، اي ان العبادة له تتناسب مع درجة معرفته. والصوفية بعيدون عن العقل تمامًا، او على الاقل، متنقصون لقدره، ويعتبرون ان العقل في بدايته هبة من الله للانسان. وقالوا ان العقل غريزة وضعها الله في اكثر الناس، فهو نور وضعه الله في القلب بمعنى الجهاز الباطن المتكامل للانسان».[3] بما ان نور الله هو العرفان، فلا علاقة له بالعقل، فاذن العقل لا يدرك الالهيات.

يقول ابن سبعين عن الفقيه: «صالح الاصل (اي الشريعة التي يستند اليها لأنها صالحة بذاتها)، فاسد الفرع (اي الفتاوى التي يصدرها من نفسه وتكون مغايرة للشريعة وأحكامه)ا صادق الجنس، كاذب النوع يتكلم من عند نفسه، ويعيش اليوم بأمسه، ويُفتي السائل ويترك نفسه في رتبة المسؤول.»[4]

ويقول آدم ميتز: «لا يخفى ان الصوفية على العموم كانوا خصوصًا الداء لجميع الفقهاء. ومن المهم ان نشير الى ان الصوفية كانوا لا يتورعون عن محاربة الفقهاء بشكلين ظاهر وعلني.»[5] ثم يشير الى كتاب قوت القلوب ص ١٤١ حيث يقولون: «كان الصوفية يحتقرون الفقه بشكل ملحوظ.»

١- «الرسالة القشيرية» ص ٤٣١.

٢- المصدر نفسه ص ٤٣٠.

٣- «مائية العقل». ص ٢٠٥.

٤- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٥٠٨.

٥- «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري». مجلدا ص ٣١٣.

يقول الدكتور الاعسم: «ان الغزالي تابع المعتدلين من الصوفية العاملين بعلم الفقه، كالجنيد والمحاسبي والخراز الذين كانوا يرون ان «التقية استواء السر والعلانية»[١] بعد ان ادركوا ان خير الوسائل للتستر هو الفقه. فقد كان الجنيد يتستر بالفقه[٢] وكان يقيد مذهبه الصوفي باصول الكتاب والسنة.»[٣]

اهتم ابو حامد الغزالي بالفقه قبل ان يتصوف، ثم بعد تصوفه عمل جاهدًا لمزج الفقه بالتصوف فبعث في الاحكام الفقهية روحانية التصوف. ويقول الدكتور الشرباصي: «فخدم الشريعة بالحقيقة، كما ايد الحقيقة بالشريعة، فكان متصوفًا فقيهًا وفقيها متصوفا.[٤]

«صبغ الغزالي العلوم الاسلامية بالصبغة الصوفية الواضحة وحاول ان يصور الاسلام تصويرًا آخر غير تصوير الفقهاء، وأن يفلسف الاسلام فلسفة دينية روحية تصوفية.»[٥]

وكان الحسن البصري ينكر الفقهاء ولا يقيم لهم وزنًا. وكان يقول «الفقيه هو الزاهد في الدنيا، البصير بدينه المداوم على عبادة ربه عزّ وجل».[٦] «وكان ينكر على المترسّمين برسم الفقهاء لأنهم ليسوا فقهاء لأنهم ليسوا زاهدين، وليسوا على بصيرة من دينهم اذ هم شكليون لا يرعون باطن العبادات ولأنهم لا يداومون على عبادة الله، بل يكتفون باداء الفروض في اوقاتها وينسون العبادة فيما بين ذلك».[٧]

١- «اللمع في التصوف»، السرّاج الطوسي. ص ٢٣١.
٢- «الطبقات»، عبد الوهاب الشعراني مجلد ١ ص ١٠.
٣- «الرسالة القشيرية». ص ٢٢.
٤- «الغزالي والتصوف الاسلامي» ص ٥٨.
٥- المصدر نفسه ص ١٨٩.
٦- «الحلية». ابو نعيم. ص ٤٧٧.
٧- «قوت القلوب». مجلد ١ ص ١٥٣. ابو طالب المكي.

كان المسلمون الأوائل، وما زالوا حتّى يومنا هذا، يعتبرون كلمة اللّه، القرآن الكريم، أزلية كالله نفسه، فجاءت المعتزلة تقول بخلق القرآن وان اللّه وحده هو أزلي. فانبرى الحنابلة، بقيادة الفقيه احمد بن حنبل، والاشاعرة وبعض الخوارج الى محاربتهم، فتمكنوا في عهد الخليفة المتوكل على اللّه جعفر ابن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) من القضاء على نفوذهم واضطهادهم بقسوة حتى عُرف ذلك الوقت باسم «محنة خلق القرآن». خلال ذلك العهد وبعده، صار تطبيق سنة الرسول كما تنص عليه الاحاديث مصدر علم الفقه الذي سيطر على الفكر الديني الاسلامي.

وحدة الأديان

ما يهمنا من نظرية وحدة الأديان هو قول الفيلسوف ابن عربي والشاعرين الصوفّيين ابن الفارض وجلال الدين الرومي في هذه الدعوة، مع العلم ان اهل التصوف، باستثناء قلة منهم، لم يعيروا موضوع الاديان غير الاسلام أيّ اهتمام اذ كان هدفهم عبادة الله تعالى مباشرة ومن دون وسيط والفناء في حبه، حتى ان بعضهم تخلى عن الفروض الاسلامية وتنكر للأنبياء.

من الأوائل الذين اطلقوا نظرية الشريعة الواحدة للعالم كانت الاسماعيلية اذ نشر دعاتهم في البلاد الاسلامية عقيدة رجوع الامام الغائب محمد بن اسماعيل وقالوا إنّه «سيمنع الظلم والجور ويستتب السلام والأمن فيشرب الثور والاسد من وعاء واحد والذئب يرعى والغنم، وكما بظهوره ينتهي دور الامامة وينشئ شريعة تعم العالم وتنسخ ما قبلها من شرائع، وهو صاحب القيامة.»

اما في عقيدة الشيعة الاثني عشرية فالامام الغائب محمد بن حسن العسكري سوف، عند عودته، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلمًا وتنجلي جميع الأسرار وستكون سيطرة الدين النقي والحقيقة. فالشيعة الاثني عشرية لم يقولوا بانشاء شريعة جديدة او كتاب جديد كما قالت الاسماعيلية.

يقول الدكتور عرفان فتاح عن دعوة وحدة الاديان: «ترتد هذه الدعوة في اصولها الاولى الى فرق غلاة الشيعة ممن حاولوا المزج والتوفيق بين العقائد

الاسلامية، وانظار وافكار استمدوها من الاديان والفلسفات الاخرى كاليهودية والمسيحية والمجوسية والفلسفات اليونانية» ثم يقول: «فالتقوا في محاولتهم هذه مع ما عرف في الدوائر الغنوصية من ميل الى الجمع والتلفيق»(١)

اما حركة اخوان الصفا التي كانت تهدف في جوهرها الى جمع وتوحيد المذاهب، فقد نادت بوحدة الاديان. وتقول احدى رسائلهم «ينبغي لاخواننا ايدهم الله تعالى ألا يعادوا علمًا من العلوم، أو يهجروا كتابًا من الكتب، ولا يتعصبوا لمذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها(٢)»

تولدت لدى غلاة الصوفية نزعة نحو الغاء ومحو الحدود التي تفصل بين المذاهب والعقائد والأديان، وأنّ اهل كل دين انما يعبدون الله تعالى مهما توجهوا، وما الأديان سوى طرقٍ توصل الى غاية واحدة وهي عبادة الله عز وجل..

يقول ماسينيون: «زعم بعض الصوفية بأن الشوق الى الله يجب ان يمحو من نفوسنا الصور الخارجية للعبادة، كما نجد من أقامها. فأشكال الشعائر وضروبها ليست إلاّ وسائط يجب تجاوزها الى الحقيقة الالهية التي تنطوي عليها.(٣)»

ويقول الحلاّج: «واعلم ان اليهودية والنصرانية والاسلام ، وغير ذلك من الاديان، هي العاب مختلفة واسماء متغايرة والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف.(٤)»

١- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها». ص ٩٢.

٢-« الرسالة ٤٥ » مجلد ٤ ص ٤١.

٣-عبد الرحمن بدوي كتاب «شخصيات قلقة في الاسلام »ص ٦٧.

٤- «اخبار الحلاّج» ص ٧.

يقول ابن عربي: «فاياك ان تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولى لصور المعتقدات كلها، فإن الله تعالى، اوسع واعظم من ان يحصره عقد دون عقد فانه يقول: «فأينما تولون فثم وجه الله» وما ذكر أيّنا من اين. وذكر ان ثم وجه الله، ووجه الشيء حقيقته. ويقول:

عقد الخلائق للإله عقائــــــــدا وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه[١]

يقول بعض المفكرين ان ابن عربي تأثر بفلسفة المفكر الهندي «شانكارا» الذي قال: «اعبد الله في اي معبد شئت او اركع امام اي اله بغير تفريق»[٢]

ويقول ابن عربي شعرًا:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبــــان

وبيت لاوثان وكعبة طائـــــف والواح توراة ومصحف قــرآن

ادين بدين الحب انّى توجهـت ركائبه فالحب ديني وايماني.[٣]

أما الدكتور طلعت غنام فيقول: «ان نظرية وحدة الاديان هي احد متولّدات وحدة الوجود لدى ابن عربي. اما الجسر الذي وصل اليه او عبره ابن عربي الى نظريته، فهو ان الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات، اما الغاية الحقيقية من العبادة فهي التحقق من الوحدة الذاتية معه والتحقق بها. واذا كان هناك باطل في العبادة لدى نظرية ابن عربي، فالباطل عنده ان يقصر الانسان ربه على مجلى واحد دون غيره[٤]»

١- «فصوص الحكم» ص ١١٣.

٢- «قصة الحضارة والفلسفة الهندية». ديورانت. مجلد ٣ ص ٢٧٢.

٣- «ترجمان الأشواق». ص ٤٣.

٤- «اضواء على التصوف». ص ٢٦٢.

والشاعر الصوفي جلال الدين الرومي يقول: «مسلم أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزارادتشي، توكّلت عليك ايها الحق الاعلى، فلا تنأ عني ليس لي سوى معبد واحد او مسجد أو كنيسة او بيت اصنام، ووجهك الكريم فيه غاية نعمتي، فلا تنأ عني، لا تنأ عني.[1]»

ويقول عبد الكريم الجيلي: «فكل هذه الطوائف عابدون الله تعالى كما ينبغي ان يعبد لأنه خلقهم لنفسه لا لهم، فهم له كما يستحق. ثم ان سبحانه وتعالى، اظهر في هذه الامم حقائق اسمائه وصفاته فتجلى في جميعها بذاته فعبدته جميع الطوائف».[2]

وهاجم ابن تيمية دعوة وحدة الاديان وقال انهم مشركون عدلوا بالله كل مخلوق، وجوزوا ان يعبد كل شيء، ومع انهم يعبدون كل شيء، فانهم يقولون ما عبدنا إلاّ الله، وهذا مخالف لدين المرسلين واهل لكتاب والملل جميعًا ولدين المشركين ايضًا، ولما فطر الله عليه عباده مما يعقلونه بقلوبهم ويجدونه في نفوسهم.[3]

١- «المثنوي». ترجمة كفافي. الأبيات ٢٤٤٧. ص ٣٠٥.

٢- «الانسان الكامل». ص ٧٧.

٣- «الرسائل والمسائل». مجلدا ص ٨١.

العلم عند الصوفية

ويقصد الصوفية من العلم والمعرفة، معرفة الله والعلم به، وبين انه يمكن ملاحظة هذا الفرق بينهما في القرآن الكريم، وفي الاستعمال العربي، الأمر الذي جعل وصف الله بالعلم جائزًا، ولذلك الانسان، مع الفروق الملاحظة ولا يصح وصفه تعالى بالمعرفة، ولم يرد ذلك في القرآن، والفرق بينهما يظهر في وجود التخصص الضدي، إذ المعرفة ضد الانكار، والعلم ضد الجهل. ويقول ابن العريف في ايضاح الفرق بينهما: «المعرفة حجتي والعلم محجتي»[1] أي أن المعرفة هي الطريق بما يتضمنه من مجاهدات وتجارب، والعلم هو البرهان الثابت المتصل بالحقيقة[2]

يقول القشيري: «المعرفة على لسان العلماء هي العلم فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله عارف، وكل عارف عالم. وعند هؤلاء القوم – يقصد الصوفية – المعرفة: صفة من عرف الحق سبحانه باسمائه وصفاته.»[3]

يقول ابن القيم الجوزية عن العلم عند الصوفية: «قد عصمت وصية القوم بالعلم وحذروا من السلوك بلا علم وامروا بهجر من هجر العلم والاعراض عنه وعدم القبول به لمعرفتهم بمآل امره وسوء عاقبته في سيره، ولا يطغى من

١– «التصوف طريقًا وتجربة ومذهبًا». كمال جعفر. ص ١٨١.

٢–« الصوفية والعقل». محمد الشرقاوي. ص ١٨٨ – ١٨٩.

٣– «الرسالة القشيرية» ص ٣١١.

ذلك ما يُروى عن بعضهم من تزهيد في العلم او دعوة الاستغناء عنه، فان احسن هؤلاء ان يكونوا جهالاً او شاطحين.[1]»

قال سهل التستري لاحد مريديه : «اكتب فان استطعت ان تلقى الله وبيدك المحرة والكتاب فافعل. وما من طريق الى الله افضل من العلم.[2]»

ويقول ابو حامد الغزالي: «العلم ينقسم الى علم المعاملة وعلم المكاشفة، والمكاشفة كشف العلوم، والمعاملة كشف العمل به، وعلم المعاملة هو الطريق الى الكشف.[3]»

علم المعاملة ينقسم الى علم ظاهر، اي العلم باعمال الجوارح، والى علم الباطن، اي العلم بأعمال القلب. والجاري على الجوارح، اما عادة واما عبادة، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس في عالم الملكوت، اما محمود وإما مذموم. فبالواجب انقسم هذا العلم الى شطرين، ظاهر وباطن. والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح، انقسم الى عادة وعبادة، والشطر الباطن المتعلق باحوال القلب واخلاق النَّفس، انقسم الى مذموم ومحمود.[4]

ثم يقول ابو حامد: «العلم وسيلة الى دار الآخرة وسعادتها وذريعة الى القرب من الله تعالى ولا يتوصل اليه إلاّ بالعلم والعمل، ولا يتوصل الى العمل إلاّ بالعلم بكيفية العمل. فاصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو اذن افضل الاعمال.[5]»

وقال ابو طالب المكي: «هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الاسلام».

١- «مدارج السالكين». مجلد ١ ص ١٥٠.
٢- «تلبيس ابليس». ابن الجوزي. ٣ص ١٢.
٣- «احياء علوم الدين».
٤- «احياء علوم الدين». ص ١٠.
٥- المصدر نفسه.

التقشف والزهد التقليدي الاسلامي
في القرن الاول هجري

كان اكثر العرب قبل الاسلام اهل بادية يعيشون وسط الجزيرة العربية وشمالها وفي معظم بادية الشام التي قدموا اليها، إمّا طلبًا للمرعى، او بسبب الحروب التي كانت بين القبائل نتيجة غزو او نزاع على المراعي او مصادر المياه.

كانت الجزيرة العربية، عدا اليمن وحضرموت وعُمان، وديانًا صحراوية جرداء، إلاّ بعض الواحات، لا تهطل بها الامطار في فصول معينة، ولم يكن بها انهار جارية لتنظيم الزراعة، مما جعل قوام الحياة الاقتصادية تعتمد على النخيل، ومنه غذاؤهم الاول، والمواشي الصغيرة كالغنم والماعز، ثم الابل التي تشبع حاجاتها في سهولة فائقة. ومن الابل، خاصة الناقة، كان البدوي يتخذ طعامه ولباسه ووسيلة نقله واسفاره .

الجمل بالنسبة لسهولة سيره على الرمال واحتماله الجوع والعطش وقدرته على نقل الاحمال الثقيلة، كان العامل الاول في تكوين القوافل التي جعلت من الواحات المتفرقة، حيث الظل والماء العذب، محطات للراحة والتزود من الماء، ثم تطورت لتصبح اسواقًا تجارية يؤمها اهل البادية لشراء حاجاتهم من القمح والشعير والمصنوعات كالأقمشة والأواني، او لبيع ما لديهم من المنتوجات، معظمها الألبان والصوف والماشية.

قلة الامطار وانعدام الزراعة وندرة المواد الغذائية، أمور جعلت عيش البادية عيش شظف يبلغ الفاقة احيانًا، فساد التقشف بين اهل البادية الذي كان اضطرارًا وليس اختيارًا كما كان في القرن الاول في الاسلام عندما اختار بعض الصحابة الزهد والتقشف بالرغم من تدفق الفيء والعطاء اللذين يسّرا لهم متعة الحياة ولينها والترف.

بالرغم من اعتقاد بعض المفكرين المسلمين وقلة من المستشرقين، بان التصوف الاسلامي له من القواعد الفكرية والاصول الروحية ما يؤكد ان نشأته مبنية على اصله الاسلامي ومنبعه القرآن وسنة الرسول الكريم والحديث الشريف، ولكن نجد في القرآن الكريم آيات تثبت ان الله، سبحانه وتعالى، لم يحبذ او يشجّع التقشف والزهد وهما من اركان التصوف. يقول جلّت قدرته:

و«أنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيّبات ما رزقناكم»(١)

«فأَحسنَ صوَركم ورزقكم من الطّيبات ذلكم الله ربكم»(٢)

«يا أيها الرّسل كلوا من الطيّبات واعملوا صالحًا اني بما تعملون عليم»(٣)

«قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطّيبات من الرزق قل هي للّذين آمنوا في الحيوة الدّنيا».(٤)

«وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيّبًا واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون»(٥)

١- سورة البقرة، الآية ٥٧.

٢- سورة غافر، الآية ٦٤.

٣- سورة المؤمنون، الآية ٥١.

٤- سورة الاعراف، الآية ٣٢.

٥- سورة المائدة، آية ٨٨.

وعندما بالغ النبي في التقشف والزهد في المآكل والتهجد في العبادة، نهاه الله تعالى بقوله «ما انزلنا عليك القرآن لتشقى»[1]

وقال بعض الفقهاء: «ليس الدعوة في قول الله تعالى الى الزهد والتقشف وتجويع البدن ولبس الصوف واذلال النفس والجسد، بل بالعكس، دعوة الى اكل الطّيبات من رزق الله سبحانه والتمتع بزينة الله تعالى فيما اخرجه لعباده.» كان الرسول الكريم يقول: «اذا أتاك الله المال فليرى عليك، واذا انعم الله على عبد احب ان يرى نعمته عليه».

الزهد هو الكف عن المحارم، القناعة بما في اليد، والاكتفاء بالحاجة، والرضى بالقليل وصرف النظر عن بهرج الحياة وزينتها، وصفاء القلب وتخليته إلاّ من حب الله. قيل الزهادة في الدنيا والزهد في الدين وحياة الزاهد بعد موته.

قال الأديب الساخر احمد فارس الشدياق: «الزهد هو الكف عن الشراهة والسرف المهلكين، فان الذين يموتون من زيادة الأكل والشرب اكثر من الذين يموتون لقلّتهما. وان الحيوانية المطلقة اقوى من الحيوانية المقيدة».

قال الولي الصوفي الأمير السيد عبدالله جمال الدين التنوخي:

فمن رام ان يرقى الى ذروة العلـــى   في العلم او يرقى الى عالم اللطــف

يميت دواعي النفس عن كل شهوة   ويستعمل الصبر الجميل مع الضعف

كان النسّاك طلائع التصوف في القرن الأول من الاسلام وعُرفوا في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام وفارس، ومن الفضائل التي جعلوها ناموسًا لحياتهم، الزهد والتقشف وعبادة الله الدائمة.

١- سورة طه. الآية ٢.

يمكن تقسيم الزمن الذي انتشر به الزهد التقليدي الاسلامي والتصوف الى ثلاث مراحل، مع الأخذ بعين الاعتبار، التداخل بين هذه المراحل الزمنية لعدم وجود حد واضح يفصلها، لأن انتشار الفكر لا يحده وقت، بالاضافة الى ان العوامل الاجتماعية والمعتقدات الدينية والتطورات السياسية وحتى الاقتصادية تتحكم في نشوئه وانتشاره.

هذا التقسيم التاريخي الزمني يعطينا فكرة واضحة عن التطور الفكري الذي حصل بين الزهد التقليدي الاسلامي الذي كان مقدمة للتصوف الفلسفي حسب ما عرفه المفكرون المسلمون وغيرهم من المستشرقين:

١. مرحلة الزهد التقليدي الاسلامي في القرن الاول هجري.

٢. مرحلة الانتقال من الزهد التقليدي الاسلامي الى نشوء وانتشار التصوف الفلسفي اي، التحرك الصوفي على تخوم الزهد التقليدي، وذلك ابتداءً من اواخر القرن الثاني الهجري اي، اواخر الخلافة الاموية واوائل العهد العباسي.

٣. مرحلة انتشار التصوف الفلسفي الاسلامي وذلك ابتداءً من القرن الثالث هجري.

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الزهد التقليدي الاسلامي في القرن الأول هجري.

أخذ بعض المسلمين الأوائل فكرة ان الايمان المطلق بالله يقضي التخلي عن ملذات الدنيا وبهجتها عن طريق مجاهدة النفس الى حد القهر ويقوم ذلك على الفقر والحرمان والابتعاد عن الناس. يقال ان هذا الاعتقاد أُخذ عن طريق معيشة النسّاك والرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين في البلاد العربية، خصوصا بلاد الشام واليمن.

كان الزهّاد الأوائل يؤمنون بان الاسلام هو عبادات خاشعة يبتغى بها وجه الله ورضاه، وما عدا ذلك بهتان وعدم.

بدأت حركة الزهد الاسلامي التقليدي خلال القرن الأول هجري، وسلكت مسالك التقشف واعتزال مجالات النشاط الاجتماعي وحصره في عبادة الله تعالى والجهاد لأجل الاسلام. اتسم سلوك بعض كبار الصحابة على التزام العيش المتواضع والتخلي عن الترف، ولكن دون التعرض للشعائر الاسلامية، فالايمان كان مطلقًا، وما انزل الله تعالى هو الحق الذي لا جدل فيه.

من هؤلاء الصحابة الكبار كان، عمر بن الخطاب، عبدالله بن مسعود، عبدالله بن عمر بن الخطاب، ابو الدرداء عويمر بن زيد الانصاري، سلمان الفارسي، عمّار بن ياسر، صهيب الرومي، حذيفة بن اليمان، ابو ذر الغفاري، ابو عبيدة عامر بن الجرّاح، اويس القرني اليمني، ابو مسلم الخولاني اليماني وغيرهم ممن عُرف عنهم التخلي عن الترف ومباهج الحياة الدنيوية وانصرفوا الى الجهاد لأجل الاسلام وعبادة الله تعالى.

لم يطلق المؤرخون لقب التصوف على هؤلاء الصحابة، لأن لقب الصحابة، اي صحبة الرسول الكريم، كان اشرف لهم، هذا مع العلم ان لقب صوفي، الذي لم يكن معروفًا في ذلك الوقت، لا ينطبق على هؤلاء الزّهاد لأن من اركان التصوف، عبادة الله مباشرة من دون وسيط، وهؤلاء الزّهاد كانوا يؤمنون بأن رسول الله الواسطة بينهم وبين الله تعالى.

ووصف ابو نعيم الاصفهاني هؤلاء الصحابة الزّهاد بقوله: «هم قوم اخلاهم الحق من الركون الى شيء من العروض وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض. وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، كما جعل من تقدم ذكرهم اسوة للعارفين من الحكماء. لا يأوون الى اهل ولا مال. ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال. لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ولا يفرحون إلاّ بما ايّدوا من العقبى.»(١)

١- «حلية الأولياء». مجلد ١ ص ٣٣٨.

المرحلة الثانية: مرحلة الانتقال من الزهد التقليدي الاسلامي الى نشوء وانتشار التصوف الفلسفي.

اطلاق اسم التصوف على زهّاد القرن الثاني هجري، لا يعني تحولاً جذريًا او اساسيًا عن الزهد التقليدي الاسلامي، بالرغم من ان هؤلاء الزهّاد ابتعدوا عن مظاهر الترف والملذات الدنيوية واتخذوا الصوف لباسًا لهم.

يقول ابو نصر الطوسي: «نسبوا الى ظاهر اللباس و لم ينسبوا الى نوع من انواع العلوم والاحوال التي هم بها مترسمون، لان لبس الصوف كان دأب الانبياء، عليهم السلام، والصديقين وشعار المساكين المتنسكين.»(١)

اذن خلال القرن الثاني الهجري بقي الزهد التقليدي الاسلامي مسيطرًا على انتشار التصوف الفلسفي بمفهومه الحقيقي، ولكن بوادر الرفض الصريح للواقع الحياتي، ومجرى الاوضاع الاجتماعية والتبرّم من ظلم السلطة الاموية لاستبدادهم بالحكم وتبذير اموال المسلمين على ملذاتهم ومنحاهم التعسفي في الحكم ذر قرنه بين اصحاب الفكر وعامة الشعب.

الفكر المعتزلي الذي سلط العقل حتى على الايمان حيث قال: «نرفض الايمان اذا لم يقبله العقل»، اثار جدلاً كبيرًا مع اصحاب النص من الحنابلة والاشاعرة وبعض فرق الخوارج، لان الايمان ركن اساسي في العقيدة الاسلامية، اذ قال الامام الاول علي بن ابي طالب: «اذا اشكل عليك فهم بعض ما انزل في الكتاب الكريم عليك بالايمان فهو نعمة المولى تعالى.» انتشار الفكر العقلاني المعتزلي جعل بعض الزهّاد المخضرمين الواقعين على تخوم التصوف والزهد التقليدي الاسلامي، ينتابهم الشك في العقائد حول الشريعة والامامة والايمان المغلق، وينطلقون في ترويج افكار وعقائد روحانية لا تتفق مع عقيدة الاسلام، مما اثار قلق السلطة الحاكمة، فكان اضطهاد المعتزلة وملاحقة اصحاب البدع والعقائد الغريبة ومنهم اهل التصوف، خصوصًا من قال منهم بالاتحاد والحلول.

١- «اللمع الصوفية». ص ٤٢.

وخلال هذه المرحلة اي، قبل القرن الثالث هجري، برز البحث والتساؤل الصوفي عن فكرة الوصول الى «المعرفة» بطريق الكشف او المشاهدة او المجاهدة عن طريق احتمال الالام وكبح شهوات النفس، فاطلّت الصوفية بمعناها الجديد، الذي تجاوز الزهد التقليدي الاسلامي، فاصبح من جملة المقامات الصوفية المتبعة وليس اساس التصوف، او ركنًا تقليديًا يتبعه اهل التصوف لقهر النفس ودفعها الى التخلي عن ملذات الجسد.

من الزهّاد التقليديين في هذه المرحلة التي توسطت الزمن بين التصوف الفلسفي والزهد التقليدي، حيوة بن شريج التجيبي، وفضل بن فضالة المصري، ابو مسلم عبد الله بن ثواب الخولاني، ويزيد بن مراد الهمذاني الدمشقي والعالم الكبير عامر بن عبد قيس البصري.(١)

ومن الزهّاد المتقشفين في البصرة في العهد الاموي، كان العلاء بن زياد بن شريج العدوي الذي عرف بعلمه وعبادته المتواصلة(٢) وكذلك حطيطا الزيّات الكوفي الذي قتله الحجاج بن يوسف عام ٨٤هـ.

عبد الله بن ابي زكريا الخزاعي

قال الامام الاوزاعي: «لم يكن بالشام اعبد من عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي الذي كان يقول: ما عالجت من العبادة شيئًا اشد من السكوت، وكان يكاد لا يتكلم إلاّ ان يُسأل.» وكان يقول:

«ما مست يدي دينارًا ولا درهمًا قط، وما اشتريت شيئًا قط ولا بعته.» وكان له اخوة يكفونه. توفي عام ١١٧هـ في دمشق في خلافة هشام بن عبد الملك.(٣)

١- «صفوة الصفوة». ابن الجوزي ص ١٨٧.

٢-« النجوم الزاهرة». تغري بردي ص ٢٠٢.

٣-« الطبقات الكبرى». مجلد ٧ ص ٤٥٦.

الامام جمال الدين ابو الفرج ابن محمد الجوزي*

كان من الزهّاد المتقشفين العابدين وكان يلقب بشيخ الامة وسيد الفقهاء ومفتي الفرق. كان زاهدًا في الدنيا متقللاً منها لا اكل من جهة إلاّ تيقن حلّها وكان ينتقد الفقهاء الذين يأخذون اجرًا على فقهم.(١) كان ابن الجوزي يقول: «كنت في زمان الصبا اخذ معي ارغفة يابسة فاخرج في طلب الحديث واقعد على نهر «عيسى» فلا اقدر على اكلها إلاّ عند المساء، فكلما اكلت لقمة شربت عليها.»(٢)

الخليفة **عمر بن العزيز (٦٢ - ١٠١هـ)**

لقب بالخليفة الزاهد لتقشفه، هو ابن عبد العزيز بن مروان وامه «ام عاصم» زوجة عاصم بن عمر بن الخطاب.

ولد عمر بن العزيز في المدينة ونشأ فيها. كان جميل الوجه ممتلئ الجسم يحب اللهو ومباهج الدنيا وكان يبدو عليه مظاهر التكبر والترف ولا يسير الاّ في جماعة من غلمانه. تولى امارة اقليم خناصرة من اعمال حلب، ثم بعد موت عبد الملك عام ٨٦هـ ولاّه ابنه الوليد، وكان عمر تزوج اخته، إمرة المدينة. ويقول ابن عبد الحكم: «دخل عمر المدينة كما كان بها غلامًا يجر ذيله متبخترًا في مشيته العمرية و لم يترك مما كان عليه شيئًا.»(٣)

---

* هو عبد الرحمن ابن الجوزي جد المؤرخ سبط ابن الجوزي، يرجع نسبه الى محمد بن ابي بكر الصديق. ولد في بغداد عام ٥١٠هـ وتوفي عام ٥٩٧هـ ومن مؤلفاته: كتاب تلبيس ابليس. وصفوة الصفوة والمنتظم في تاريخ الملوك والامم وغيرها.

١- ابن عماد الحنبلي مجلد ٤ ص ٣٣٠.

٢- «الموسوعة الصوفية». ص ١١٠ - ١١٢ حياة الجوزي واعماله.

٣- «سيرة عمر بن عبد العزيز». ص ٢٠.

عزل عمر عن المدينة فسار الى مقاطعة السويداء حيث اعتكف في بيته بعيدًا عن الناس متعبدًا عله يجد سبيلاً الى الراحة واطمئنان النفس، فاصابته موجة من الحزن والندم عما فعله فراوحته التوبة فتخلى عن لبس الخز والحرير وعزف عن الاكل الطيب من الطعام فصار غذاؤه خبز الشعير، وتخلى عن جميع املاكه، بما فيها مزرعة «فدك» واحتفظ في السويداء بارض كان يؤجرها بقليل من الدراهم تكفيه لسد رمقه، وانتقل من حياة الترف الى الزهد والتقشف.

بعد موت الخليفة سليمان بن عبد الملك بويع لعمر بالخلافة فاشتهر بعدله وزهده. وقيل انه رفض عطاءَه من بيت المال واكتفى بدرهمين في اليوم لسد حاجاته. سار عمر في عدله وزهده على طريق جده عمر ابن الخطاب الذي قيل فيه «يوزع الثروات ويعيش على الفتات.»

ابو العباس احمد ابن الخليفة هارون الرشيد بن المهدي المعروف بالسبتي

كان زاهدًا متقشفًا ترك الدنيا في حياة ابيه مع المقدرة و لم يتعلق بشيء من امورها وآثر الانقطاع والعزلة والزهد، قيل له السبتي، لانه كان يكتسب بيده في يوم السبت شيئًا ينفقه في بقية الاسبوع ويتفرغ للاشتغال بالعبادة توفي عام ١٨٤هـ.

الخليفة العباسي المستنجد بالله

من الزهّاد المتقشفين الاتقياء كان يقول عنه الرحالة اليهودي بنيامين التطلي الانباري الاندلسي في رحلته الى بغداد عام ٥٦١ – ٥٦٩هـ. «وهو كذلك على جانب عظيم من الصلاح والتقوى يأكل من تعب كفيه اذ يصنع الشال المقصب ويدمغه بختمه فيبيعه رجال بطانته من السراة والنبلاء فيعود عليه بالاموال الوافرة، وهو موصوف بالتقوى والصدق والاستقامة وطلب الخير لجميع رعيته.»(١)

١– «رحلة بنيامين». ترجمه وحققه عزرا حذاء. ص ١٣٣.

وكان من الصحابة الزهّاد المتقشفين المقرّبين من الرسول الكريم، الشاعر والعالم عبد الله بن عبد الملك الغفاري، قتل في غزوة حنين[١]. وعثمان بن فطعون المسيحي وكان من النسّاك النصارى قرّبه اليه الرسول[٢]. وعكاشة بن محسن الاسدي ووكيع بن سلمة الايادي.

ثم برز في العهد الاموي العالم الكبير الحسن البصري الذي قال عنه ابن سعد: «كان الحسن جامعًا، عالمًا، عاليًا رفيعًا، فقيهًا، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، جميلاً ووسيمًا.»[٣]

ومن تلاميذ الحسن البصري كان الذين اخذوا عنه الزهد التقليدي الاسلامي المشبع بفلسفة التصوف، وكانوا المقدمة لانتقال التصوف الى مراحله الفلسفية المتقدمة الاخيرة التي اشتهر بها.

ايوب بن ابي تميمة السختياني

ولد عام ٦٨هـ وتوفي عام ١٣١هـ[٤] وكان مولى لقبيلة عنزة. كان ايوب عالمًا ورعًا زاهدًا كثير العلم. قال عنه الحسن البصري: «هذا سيد الفتيان»[٥]

ابو يعقوب فرقد السبخي

توفي في البصرة عام ١٣١هـ. روى عنه السمعاني في كتاب «الانساب». «السبخي من ثقات التابعين وحسبه شرفًا ان يروي عنه مالك بن انس وحفص بن عاصم.»

١– «الاصابة» مجلد ١ ص ٢٣.
٢– «مجمع البيان» مجلد ٣ ص ٢٣٦.
٣– «الطبقات الكبرى» ابن سعد مجلد ٧ ص ١٥٧.
٤– المصدر نفسه مجلد ١ ص ٢٥١.
٥– المصدر نفسه مجلد ٧ ص ٢٤٧.

ابو يحيى مالك بن دينار

توفي عام ١٣١هـ. قبل عام الطاعون. كان مولى لامرأة من بني لؤي. كان يكتسب عيشه من عمل الخوص ونسخ القرآن الكريم ولا يأخذ اجرًا عليه اكثر من عمل يده. كان يعيش من اكل خبز الشعير ولا يقرب اللحم إلاّ في يوم الاضحى. كان بيته خاليًا ليس فيه غير مصحف وابريق وحصير. تأثر مالك كثيرًا بالمسيحية وكان يقول: «لو ان يقول الناس جُن مالك للبست المسوح ووضعت الرماد على رأسي.» كانت معظم اقواله تنسب الى التوراة، وكان يغشى الاديرة ويقيم مع النسّاك النصارى ويأخذ عنهم علوم الدين المسيحي. كان زهد مالك بن دينار قريبًا من التصوف حتى قيل عنه: «يمكن ان يعد حلقة وسطى بين الزهد، كما يمثله الحسن البصري، وبين التصوف كما يظهر عند رابعة العدوية ومعروف الكرخي.»(١) كان مالك بن دينار يدعو الى عدم الزواج، ولما قيل له ألا تتزوج؟ قال: «لو استطعت لطلقت نفسي»(٢)

ويروي الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ان شخصية مالك بن دينار من الشخصيات الخطيرة في تطور التصوف الاسلامي. وهو يمثل حلقة الانتقال من مرحلة الزهد، التي بلغت اوجها عند الحسن البصري، الى مرحلة التصوف بالمعنى الدقيق التي ستبدأها رابعة العدوية.»(٣)

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ١٩٨.

٢- «حلية الاولياء». ابو نعيم الاصفهاني. ص ٢٦٠.

٣- «التصوف الاسلامي». ص ٢٠٦.

عبد الواحد بن زيد

توفي عام ١٧٧هـ في عبادان من بلاد فارس. اعتبره ابن تيمية «الصوفي الاول واعظم من لحق الحسن البصري.» كان تقشفه مضرب الامثال وكان يقول: «عليكم بالخبز والملح فانه يزيد اليقين.» ويقول: «من قوي على بطنه قوي على دينه، ومن قوي على بطنه قوي على الاخلاق الصالحة».كانت فلسفة عبد الواحد تقوم على الخوف من الله تعالى والصبر على ما حكم والرضا بما قسم. وكان يقول: «ما احب شيء من الاعمال يتقدم الصبر إلاّ الرضا، ولا اعلم درجة ارفع ولا اشرف من الرضا وهو رأس المحبة، ومحبة الله رأس كل حكمة وعبادة»(١)

تأثر عبد الواحد بن زيد بفلسفة مالك بن دينار وكان مثله يتردد على الاديرة ويدرس الكتاب المقدس ويستشهد بما ورد فيه حتى قيل: «كانت التوراة اقرب اليه من القرآن.»

محمد بن واسع

ابو بكر محمد بن واسع بن جابر الازدي، توفي عام ١٢٣هـ قال عنه الحسن البصري انه «زين القراء». اما مالك بن دينار فقال: «القراءون ثلاث طوائف. فقراءون للاغنيا وللدنيا، وقراءون للملوك، وقراءون للرحمن. ومحمد بن واسع من قرّاء الرحمن.(٢)»

كان محمد بن واسع يلبس الصوف، وعندما سؤل ما دعاه الى لبسه قال: «اكره ان اقول زاهد فأزكي نفسي، او فقير، فاشكو ربي سبحانه وتعالى.» وكان يردد «من زهد في الدنيا فهو مالك الدنيا والاخرة.»(٣)

١- «الموسوعة الصوفية». عبد المنعم الحفني. ص ١٩٥.

٢- المصدر نفسه ص ٤٠٧.

٣- «الموسوعة الصوفية». عبد المنعم الحفني. ص ٤٠٧.

كان محمد بن واسع من المتصوفة المخضرمين اي، بين الزهد التقليدي والتصوف وكان من ثقات اهل الحديث. واشتهر في البكاء حتى كانت تسيل دموعه على خده معظم الاوقات، وكان يقول يجب ان يكون البكاء متواصلاً دون توقف.

في منتصف القرن الثاني هجري برزت حركة جديدة من الزهد التقليدي تسببت في دفعه الى التصوف الفلسفي، وكان روّاد هذه الحركة داود بن نصير الطائي (توفي عام ١٦٥هـ) والفضيل بن عيّاض بن مسعود التميمي اليربوعي (توفي عام ١٠٥هـ)* اللذان اخذا يبتعدان عن الزهد بسلوكه وافكاره التقليدية ويتجهان الى التصوف الفلسفي في اظهار الشك في الشريعة والتحول الى عبادة الله تعالى مباشرة من دون وسيط، فنسخا الامامة وقالا برفض الايمان غير المنفتح على الجدل والبحث وبذلك اتهما بالاعتزال.

ثم انضم الى هؤلاء المتصوفة زهّاد اخرون من خراسان، منهم ابراهيم بن ادهم البلخي*وعبد الله بن مبارك اللذان ناديا بفكرة الابتعاد عن العبادة الدينية التي محورها الايمان المغلق اي، ما انزله الله تعالى، او ما قيل عن سيرة الرسول الكريم مما ادخل مسألة «المعرفة» الى مفهوم الزهد، وذلك التخلي عن التزمت في المعتقدات ورفض كل ما لا يقبله العقل مما ساعد على انتشار هذا التمرد على الايمان المغلق الى المناداة بالعقيدة القدرية، اي ان الانسان مخيّر في اقواله وافعاله، وهذا من اركان الاعتزال وبسببه اطلق على المعتزلة لقب «اهل العدل والتوحيد.»

---

* الفضيل بن عيّاض خراساني ولد بسمرقند واصله من الكوفة وتوفي بمكة. كان شيخ الحرم المكي. كان ثقة بالحديث واخذ عنه خلق كثير منهم الامام الشافعي وقال «وما ادرك في الاسلام من ادرك بكثرة الصلاة ولا الصيام ولا التصوف، وانما ادرك بسخاء الانفس وسلامة الصدور ونصح الامة والتوحيد.

* ابو اسحاق ابراهيم بن ادهم بن منصور من مدينة بلخ. كان ثريًا فاعتنق التصوف وعاش في مكة حيث صحب سفيان الثوري والفضيل بن عيّاض. توفي في دمشق عام ١٦١هـ.

من الواضح ان هذه المرحلة من الفكر الاسلامي التقليدي كانت مرحلة تمهيدية لنشوء وانتشار التصوف الفلسفي المتحرر اذ بدأ التساؤل والبحث عن «المعرفة» العقائدية بواسطة الكشف والمشاهدة واصبحت العلاقة بين الزهد والتصوف لا تقتصر على السلوك الزهدي وعبادة الله تعالى، بل اخذت في تفسير بعض نصوص الشريعة الاسلامية كي تتفق مع الاجتهادات لنظرتهم في الحياة الدينية والدنيوية حسب منهجهم الفكري العقلاني.

في هذه المرحلة التي امتدت بين الزهد التقليدي الاسلامي والتصوف، برز فيها العالم الكبير الحسن البصري ومالك بن دينار ومحمد بن سيرين بن محمد، وابراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد ومحمد بن واسع وغيرهم[١]. فهؤلاء كانوا من الزهّاد الورعين الصادقين ولكن لم يتعد سلوكهم في هذه المرحلة العبادة والتقشف.

الحسن البصري

قال عنه احمد بن يحيى المرتضى «هو سيد التابعين ومحله من الفضل والعلم ودعاء الناس الى الدين مشهور»[٢]. اما ابن سعد فيقول: «كان الحسن جامعًا، عالمًا، عاليًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقة مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، فصيحًا، جميلاً وسيمًا.»[٣]

يقول الدكتور ماجد فخري: «ولعل اهم شخصية في تاريخ الزهد الاسلامي الباكر هو الحسن البصري الذي عاش في حقبة من اهم الحقب من تاريخ الاسلام»[٤]

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي. (من المفيد مراجعة هذا الكتاب).
٢- «طبقات المعتزلة» ص ١٨.
٣- «الطبقات الكبرى» مجلد ٧ ص ١٥٧.
٤- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». ص ٣٢٤.

وابو حيّان التوحيدي قال: «ما احسد هذه الامة العربية إلاّ على ثلاثة انفس: اولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن بن ابي الحسن البصري، والثالث ابو عثمان الجاحظ. وكان الحسن البصري من دراري النجوم علمًا وتقوى وزهدًا وورعًا وعفة ورقة وفقهًا وفصاحة ونصاحة، لا تثنيه لائمة في الله ولا تذهله رائمة عن الله»[1]

كان ابوه فارسيًا من بلدة ميسان، سباه المسلمون لدى فتح العراق حيث سكن المدينة وصار مولى لعمة الامام مالك بن انس التي اعتقته. أما امه، وكان اسمها «خيّرة»، فكانت مولاة لام سلمى زوجة النبي*

ولد الحسن البصري في المدينة عام ٢٢هـ وغادرها الى البصرة عام ٣٨هـ[2] حيث توفي عام ١١٠هـ وله من العمر سبع وثمانون سنة.

كان لحسن البصري حلقة في مسجد البصرة يؤمها المريدون من طلاّب العلم والمعرفة منهم: واصل بن عطاء منشئ الاعتزال، وعمرو بن عبيد، ايوب السختياني وفرقد السبخي وغيرهم.

كان الحسن البصري يقول: «كل شيء بقضاء الله وقدره إلاّ المعاصي. وكان يحدد خصائص اهل التقوى بقول:ان لاهل التقوى علامات يعرفون بها. صدق الحديث، الوفاء للعهد، صلة الرحم، رحمة الضعفاء، قلة الفخر والخيلاء، بذل المعروف، قلة المباهاة للناس وحسن الخلق وسعة الخلق مما يقرب الى الله عزّ وجل»[3]

١- «الموسوعة الصوفية». عبد المنعم الحفني ص ٥٦.

* ام سلمة زوجة الرسول الكريم هي هند ابنة ابي امية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. بعد مقتل زوجها ابي سلمى بن عبد الاسد تزوجها النبي محمد. قيل لمّا ضرب عبيد عثمان بن عفان عمّار بن ياسر اخذت عمّار الى بيتها واهتمت به ثم قدمت الى عثمان وأنّبته واسمعته قوارص الكلام امام جمع كبير من الناس. انكر عثمان معرفته بالحادث.

٢-« الموسوعة الصوفية ص ٥٧».

٣- «حلية الأولياء»، أبو نعيم الأصفهاني. مجلد ٣ ص ١٤٣.

يقول الحسن البصري في اهل التصوف: «من لبس الصوف تواضعًا لله، عزّ وجل، زاده نورًا في بصره وقلبه. المتصوفة قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وانفسهم عفيفة وحوائجهم خفية، صبروا ايامًا قصارًا تُعقب راحة طويلة[١]»

وقيل لحسن البصري: «يا ابا سعيد انك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن اين اخذته؟ قال من صاحب الرسول حذيفة بن اليمان، وقيل لحذيفة: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن اين اخذته؟ قال خصني به رسول الله. كان الناس يسألونه عن الخير وكنت اسأله عن الشر مخافة ان اقع فيه، وعلمت ان الخير لا يسبقني علمه. ثم قال: من لا يعرف الشر لا يعرف الخير.[٢]»

ومن اقوال الحسن البصري: «ان الله تعالى لا يعبأ بذي علم ورواية، انما يعبأ بذي علم ودراية.»

وقيل عن الحسن البصري: «لقد كان رحمه الله، اشبه الناس كلامًا بكلام الانبياء، عليهم الصلاة والسلام، واقربهم هديًا من الصحابة، رضي الله عنهم. اتفقت الكلمة في حقه على ذلك. وكان اكثر كلامه في خواطر القلوب ومساد الاعمال ووساوس النفوس وصفات الخفية الغامضة.»

وكتب الحسن البصري الى الخليفة عمر بن عبد العزيز، الملقب الخليفة الزاهد: «الزهد من الدنيا وانما الزهد باليقين، واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار. فان انت تفكرت في الدنيا لم تجدها اهلاً ان تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك اهلاً ان تكرمها لهوان الدنيا، فانما الدنيا دار بلاء ومنزل غفلة.»[٣]

١- «الموسوعة الصوفية». عبد المنعم الحفني. ص ٥٨.
٢- «الموسوعة الصوفية» ص ٥٧ (بتصرف)
٣- المصدر نفسه ص ٥٩.

كان الحسن البصري متشائمًا يبدو عليه كانما هو في خوف دائم، وقال عنه ابو عثمان الجاحظ: «كان اذا اقبل فكأنما من دفن حميمه، واذا جلس، فكأنه اسير قد أُمر بضرب عنقه، وكان اذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلاّ له.»(١)

اطلق المعتزلة عقيدة القدرية اي، ان الانسان مخيّر في افعاله واقواله ممّا اثار غضب الامويين الذين نشروا عقيدة الجبرية بان الانسان لا خيار له على افعاله فهو مجبر عليها من الله تعالى، وذلك لتبرير اغتصابهم الحكم من آل البيت وتبذيرهم اموال المسلمين على ملذاتهم. ولدعم موقف السلطة الاموية في قولهم بالجبرية كان معاوية بن ابي سفيان يقول: «لو اراد الله غيرنا للحكم اعطاه لسوانا.» وكذلك: «نحن حرّاس على بيت المال ندفع ما يأمرنا الله به.»

اراد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ان يحصل على وثيقة من العالم الكبير الذي تثق الناس بقوله، تقول بان الجبرية هي العقيدة الصحيحة، واعتمد عبد الملك بن مروان على خوف الحسن البصري من بطشه اذا خالف رغبته. كان جواب الحسن البصري ان شدد على القول بان اعمال الانسان يفرضها الله تعالى إلاّ المعاصي، والمعاصي اغتصاب السلطة من اهلها وتبذير اموال المسلمين. وكذلك قال: «اذا كان لا اختيار للانسان فيما عمل، لما كان لمتقدم حمد ولا لمتأخر لوم، ولقال تعالى: جزاء بما عملت بهم و لم يقل جزاء «بما كانوا يعملون»(٢)

١- «البيان والتبيين »مجلد ٣ ص ١٥٤.

٢- سورة السجدة. الآية ١٧.

لم يكن حسن البصري في مسلكه ولا في تفكيره يزيد عن كونه احد زهّاد عصره من حيث زهده ومحتواه. كان من معتدلي هؤلاء الزهّاد مسلكيًا، لانه لم يبالغ في العزلة ولا في العبادة وهو القائل: «مثقال ذرة من الورع السالم خير من الف مثقال من الصوم والصلاة.»[١]

واشتهر الحسن البصري بالرسائل العديدة التي كتبها الى الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز والتي كانت تعد انموذجًا عاليًا في البلاغة والحكم وقد اورد قسمًا منها ابن الجوزي في كتابه، سيرة عمر بن عبد العزيز، كما توجد مع قسم من مواعظه في كتاب تاريخ التصوف الاسلامي للدكتور عبد الرحمن بدوي. صفحة ١٥٥ الى صفحة ١٥٦.

ويقول الدكتور بدوي عن موقف الحسن البصري السياسي: «فكان موقف المتباعد عن السياسة واضطراباتها، خصوصًا عاش في عصر الحجاج.بما عرف عنه من بطش شديد»[٢]

وعندما قام ابن الاشعث بثورته عام ٨١هـ وانبرى الحجاج بن يوسف لقتاله، نهى الحسن البصري الناس عن قتال الحجاج فقال: «ارى ان لا تقاتلوه. فإنها إن تكن عقوبة من الله فما انتم برادعي عقوبة الله بأسيافكم، وان يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»[٣]

بالرغم من دعوته اهل البصرة الى موالاة الامويين والطاعة لهم، نجده ينتقدهم بلا هوادة فيقول في معاوية بن ابي سفيان، اول خليفة اموي: «اربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلاّ واحدة لكانت موبقة[٤]»

١- «الرسالة القشيرية». ص ٥٤.

٢- «تاريخ التصوف الاسلامي». ص ١٥٤.

٣- المصدر نفسه ص ١٥٢.

٤- «تاريخ الامم والملوك». الطبري مجلد ٢ ص ١٤٦.

١. انتزاؤه على هذه الامة بالسفهاء حتى ابتزّها امرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة.

٢. استخلافه ابنه بعده سكيرًا خمّيرًا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

٣. وادعاؤه زيادًا، وقد قال رسول الله «صلعم» الولد للفراش وللعاهر الحجر.

٤. وقتله حجر بن عدي.(١)

وفي عام ١٠٣هـ ولي عمر بن هبيرة الغزاري على العراق وذلك في عهد يزيد بن عبد الملك، فاستدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين وعامر بن عبد الشعبي وطلب منهم اخذ الميثاق بطاعة يزيد على انه خليفة الله فقال الحسن البصري: «يا ابن هبيرة! خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله. إن الله يمنعك من يزيد، وإن يزيد لا يمنعك من الله. وأوشك ان يبعث اليك ملكًا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبر، ثم لا ينجيك إلاّ عملك يا ابن هبيرة! ان تعصَ الله فإنما جعل هذا السلطان ناصرًا لدين الله وعباده، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.»(٢)

ما يهمنا في هذه الدراسة هو قول الحسن البصري في الزهد موضوع هذه الرسالة. ومن اقواله: «يا ابن آدم! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا ولا تبع اخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا. الثواء هنا قليل والبقاء هناك طويل.»(٣)

١- حجر بن عدي، قتله معاوية سنة ٥١. الطبري مجلد ٢ ص ١٤٣.

٢- «حلية الاولياء» مجلد ٢ ص ١٤٩. «تاريخ التصوف الاسلامي». بدوي ص ١٥٨.

٣- «البيان والتبيين». الجاحظ. مجلد ٣ ص ٨٨.

ويقول: «احذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة التي قد تزينت بخدعها، وغرّت بغرورها، وقتلت أهلها بأملها، وتشوقت لخطّابها» ثم يقول: «فانظر اليها نظر الزاهد المفارق ولا تنظر نظر العاشق الوامق، فاحذرها فإن أمانيها كاذبة، وإن آمالها باطلة، عيشها نكد، وصفوها كدر، وانت منها على خطر، إما نعمة زائلة، وإما بلية نازلة واما مصيبة موجعة»[١]

وينادي الحسن البصري بذم الدنيا بالدعوة الى الفقر والزهد والتقشف فيقول: «فأما محمد «صلعم» فشد الحجر على بطنه من الجوع، وأما موسى عليه السلام فرؤيت خضرة البقل من صفاق بطنه من هُزاله، ما سأل الله تعالى، يوم أوى الى الظل، إلاّ طعامًا يأكله من جوعه. ولقد جاءت الروايات عنه أن الله تعالى اوصى اليه أن: يا موسى! إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحبًا بشعار الصالحين، واذا رأيت الغنى قد أقبل، فذنب عجّلت عقوبته»[٢]

اما اهل التقوى فيخصص البصري اخلاقهم بقوله: «إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها: صدق الحديث، الوفاء بالعهد، وصلة الرحم، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق مما يقرّب الى الله عزّ وجل.»[٣]

١- «حلية الاولياء» ابو نعيم الاصفهاني. مجلد ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦.

٢- «حلية الاولياء». ابو نعيم الاصفهاني. مجلد ٢ ص ١٣٧.

٣- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ١٤٣.

اويس بن عامر القرني

زاهد تقليدي عاش في عهد الرسول الكريم، قتل في معركة صفين عام ٣٧ وهو يحارب في صف جيش علي بن ابي طالب[١] كتب عنه ابو نعيم الاصفهاني[٢] وابن سعد،[٣] وابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي[٤]. وتحوك الاساطير سيرته واخبار زهده وتقشفه وفقره.

ينتسب اويس القرني الى بني مراد من اليمن، «وكان به برص فبريء منه إلاّ موضع صغير في سعة الدرهم، وكان شديد الفقر، والتقشف، اشعث اغبر وقد ظنه اهله انه مجنون فبنوا له بيتًا على باب دارهم. فكانت تأتي عليه السنة والسنون لا يرون له وجهًا.»[٥]

لم يكن اويس القرني صحابيًا لانه لم يلق رسول الله، «وقيل ان سبب عدم قدومه على النبي انه لم يشأ مفارقة امه وكان شديد البرّ بها.»[٦]

بالرغم من فقره وعوزه، كان يتصدق بثيابه وما يجود عليه الناس من المال القليل الى المحتاجين والفقراء، حتى يجلس عريانًا لا يجد ما يروح فيه الى الجمعة[٧]

١- «طبقات ابن سعد». مجلد ١ ص ١٦٣.

٢- «حلية الاولياء »مجلد ١ ص ٧٩.

٣- «الطبقات الكبرى». مجلد ٦ ص ١٦١.

٤- «صفوة الصفوة». مجلد ٣ ص ٢٢.

٥- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ١٤٤.

٦- المصدر نفسه ص ١٤٩.

٧- «صفوة الصفوة». ابن الجوزي مجلد ٣ ص ٢٨.

كان اذا امسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول: «اللهم من مات جوعًا فلا تؤاخذني به. ومن مات عريانًا فلا تؤاخذني به. اللهم اني اعتذر اليك اليوم من كل كبد جائعة، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلاّ ما في بطني. وليس في بيتي شيء من الرياش إلاّ ما على ظهري[١]»

ومن اقوال اويس القرني: «طلبت الرفعة فوجدتها في التواضع، وطلبت الرئاسة فوجدتها في نصيحة الخلق، وطلبت المروءة فوجدتها في الصدق وطلبت الفخر فوجدته في الفقر، وطلبت النسبة فوجدتها في التقوى، وطلبت الشرف فوجدته في القناعة، وطلبت الراحة فوجدتها في الزهد.[٢]»

مرّ رجل من مراد على اويس القرني فقال: «كيف اصبحت؟ قال: اصبحت احمد الله، عزّ وجل. قال كيف الزمان عليك؟ قال: كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن انه لا يمسي. وان امسى ظن ا نه لا يصبح: فمبشر بالجنة، او مبشر بالنار. يا اخا مراد: إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فرحًا، وان قيامه بالحق لم يترك له صديقًا، وان علمه بحقوق الله لم يترك له فضة ولا ذهبًا.[٣]

عامر بن عبد قيس

كان عامر من زهّاد البصرة الاولين، توفي عام ٦٠هـ. وكان من تابعي الامام الاول علي بن ابي طالب والمقربين منه. ومن اقواله: «اللهم في الدنيا الهموم والاحزان وفي الاخرة الحساب والعذاب، فاني الروح والفرح. وكان يقول: «احببت الله حبًا سهَّل علي كل مصيبة ورضاني بكل قضية.»[٤]

١- «صفوة الصفوة» مجلد ٣ ص ٢٨ و٢٩.

٢- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ١٥٠.

٣- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ١٤٥.

٤- «الكواكب الدرية من تراجم السادة الصوفية». المناوي مجلد ١ ص ١٢٩.

ابو هاشم عثمان بن شريك الكوفي

يقول القشيري: «كان ابو هاشم الكوفي اول من لقّب بالصوفي واول شخصية صوفية في بغداد، ويؤيده على ذلك المستشرق الانجليزي نيكلسون في كتابه «في التصوف الاسلامي».

انتقل ابو هاشم الكوفي من الكوفة الى بغداد عند ازدهار التصوف في الفترة الكلاسكية التي شهدت انتقال التصوف الى مذهب متكامل يعززه العلم والمعرفة، وليس تقشف وانفعالات نفسية فرضتها عوامل اقتصادية واجتماعية في اول حقبة من بناء بغداد حين اصبحت مركزًا لجذب العديد من العلماء والشعراء والفلاسفة الذين رأوا في بغداد كعبة العلم. وهذه الشهرة في العلوم كانت الاغراء الكبير للمتصوفة في القدوم الى بغداد، عاصمة الدولة الاسلامية الناشئة، حيث كان الدين المنفتح على الجميع مسيطرًا، وليست العنصرية العربية كما كانت في عهد الخلافة العربية الاموية.

كان ابو هاشم اول من خاض في الكلام عن الرياء وفصّل دقائقه واقترن اسمه بمحاربته. وقيل: «لولا ابو هاشم الكوفي ما عرفت دقائق الرياء»(١). وكان ابو هاشم اول من بنى «خانقاه» للمتصوفة في مدينة الرملة في فلسطين.

غموض المعلومات التاريخية في ذلك الوقت لم يسمح بالحصول على تاريخ ولادة ابي هاشم ولكن المعروف انه توفي نحو سنة ١٥٠هـ.

رويم بن احمد

ابو محمد رويم بن احمد بن يزيد من بغداد لم يعرف تاريخ مولده وقد توفي عام ٣٠٣هـ. وكان يعتبر من اعظم المشايخ وكان مقرئًا وفقيها.(٢)

١–«صفوة الصفوة»، ابن الجوزي مجلد ٢ «متصوفة بغداد». عزيز السيد جاسم ص ٧٧.

٢– «الرسالة القشيرية» ص ٣٩٠.

يقول رويم: «ان طالبي التصوف في وقته تحيروا والمريدين فتروا لما رأوا المنتسبين الى التصوف على طبقات مختلفة ومقامات متفاوتة، فاستصغروا اهله وتراخوا عن الاعمال وتطاولوا الى احوال يعجزون عن بلوغها»(١)

ومن اقوال رويم: «ان من الصوفية من قعد على الحقائق(٢) بينما غيرهم قعدوا على الرسوم وطالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق، بينما طالب غيرهم انفسهم بظواهر الشرع، والتصوف بهذا المعنى الحقيقي اقل ما فيه بذل الروح.»(٣) ثم يقول: «ممن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الايمان من قلبه(٤)

ويقول رويم: «اذا رزقك الله تعالى المقال والفعال، فأخذ منك المقال وابقى لك الفعال فانها نعمة، واذا اخذ منك الفعال وابقى لك المقال فانها مصيبة، واذا اخذ منك كليهما فهي نقمة.»(٥)

ابراهيم بن ادهم

ابراهيم بن ا دهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي العجلي وكنيته ابو اسحق، عربي من بني عجل بن بكر بن وائل. وكانت اسرته تسكن الكوفة ثم انتقلت الى بلخ في خراسان واستقرت هناك.(٦)

١- الموسوعة الصوفية ص ١٨٧.

٢- قعد على الحق أي غلبة الاحوال على القلب والنظر الى الله تعالى في كل عمل. (الرسالة القشيرية ص ٣٩٠ حاشية).

٣- «الموسوعة الصوفية» ص ١٨٧.

٤- «الرسالة القشيرية» ص ٣٩١.

٥- المصدر نفسه ص ٣٩١.

٦- «تاريخ التصوف الاسلامي»، عبد الرحمن بدوي ص ٣٢١.

قيل عن سيرة حياة ابراهيم بن أدهم روايات كثيرة بمختلف اللغات في بلاد الاسلام، وحيكت عن سيرته اساطير عديدة منها، انه كان من ابناء ملوك خراسان وان حياته تشبه حياة «جوثامابوذا» اي «بوذا» مؤسس الديانة البوذية الهندية،[1] وانه اشترك مرارًا في غزوات المسلمين ضد البيزنطيين[2] ثم كانت اسفاره العديدة في بلاد الشام حيث اقام اربعًا وعشرين سنة.

ثم الاسطورة الغريبة عن ارتحاله للصيد حيث جاءه نذير من الله تعالى، فترك حياة الترف والعز واللهو واتبع التقشف والزهد والمجاهدة، وهجر الراحة الى الجهاد في سبيل الله، عزّ وجل.[3]

كتب بعض المستشرقين عن سيرة ابراهيم بن ادهم منهم: غولد تسيهر – ت. دوكا – نيكلسون – وماسينيون الذي اطلق عليه لقب. «الامير الشحاذ من بلخ» كما كتب عنه العديد من مفكري الفرس والترك.

قال ابراهيم بن ادهم في الزهد: «الزهد ثلاثة اصناف، زهد فرض، وزهد فضل وزهد سلامة. فالفرض – الزهد في الحرام. والفضل – الزهد في الحلال. والسلامة – الزهد في الشبهات.»[4]

١ –ألبوذية في الاسلام» غولد تسيهر «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية» ص ١٣٢.)

٢– قال المؤرخ احمد بن بكار: غزا معنا ابراهيم بن ادهم غزوتين، كل واحدة اشد من الاخرى. غزوة «عباس الانطاكي» وغزوة «فحكاف»، فلم يأخذ سهمًا ولا نفلاً وكان لا يأكل من متاع الروم.

٣– يقول المؤرخ السلمي: هذا النذير كان من «الخضر» عليه السلام.

٤– «حلية الأولياء»، ابو نعيم الاصفهاني، مجلد ٨ ص ٢٠٦.

ومن قول ابراهيم بن ادهم: «اللهم اني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي، انه لا يغفر الذنوب إلاّ انت. واهدني لاحسن الأخلاق، فانه لا يهدي لأحسنها إلاّ انت. واصرف عني سيئها، فانه لا يعرف سيئها إلاّ انت»(١)

قال ابراهيم بن ادهم في تحديد اساليب التصوف في المجاهدة:

- ان تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة.
- ان تغلق باب العز وتفتح باب الذل.
- ان تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد.
- ان تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.
- ان تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر.
- ان تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

«اذن، فعند ابراهيم بن ادهم تقوم المجاهدة على ترك النعمة واعتماد الشدّة، والتخلي عن العز واتباع الذل، وهجر الراحة الى الجهد، والنوم الى السهر، ورذل الغنى والركض وراء الفقر، ونبذ الأمل والاستعداد للموت»(٢)

من الاقوال التي عرفت عن ابراهيمبن ادهم: «اللهم انك تعلم ان الجنة لاتزن عندي جناح بعوضة اذا انت أنستني بذكرك ورزقتني حبك وسهلت علي طاعتك، فاعط الجنة لمن شئت»(٣)

مات ابراهيم بن ادهم عام ١٦٢هـ في احدى الغزوات ضد البيزنطيين ودفن في بلدة «جبلة» بالقرب من مدينة اللاذقية في بلاد الشام.

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ٢٣٨.
٢- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ١٢٨.
٣- «حلية الاولياء»، ابو نعيم الأصفهاني مجلد ٨ ص ٣٥.

شقيق البلخي

ابو علي شقيق بن ابراهيم البلخي الأزدي ولد في مدينة بلخ في خراسان وقتل عام ١٩٤هـ في معركة «كولان» في بلاد الترك[١] تلقى العلم واخذ الزهد والتقشف عن ابراهيم بن ادهم وكان من تلاميذه الصوفي حاتم الاصم. كان شقيق موسرًا من الاغنياء يعيش حياة ترف ولهو، حتى سافر الى بلاد الترك للتجارة وتعرّف الى بعض الزهّاد فرجع الى بلخ وسلك طريق الزهد والتقشف.

كانت طريقة شقيق البلخي تقوم اولاً على التوحيد ومن ثم التوكل على الله تعالى والرضا لمشيئته والتسليم لامره، عزّ وجل.

من اقوال البلخي: «ان توحد الله تعالى بقلبك ولسانك وعملك. فاذا وحدته بقلبك كان لا اله غيره، ولا نافع ولا ضار غيره، فليس لك بد من ان تجعل عملك كله لله لا بغيره.[٢] ثم التوكل على الله هو ثاني اركان طريقة شقيق البلخي اذ يقول: «ومعنى التوكل على الله ان يطمئن قلبك بموعود الله، ومعناه ان ترضى بما قضى الله تعالى، فهو القادر والرازق وهو كل شيء، ومن لم يعرفه بذلك فهو لم يعرفه، ومن اراد أن يمتحن معرفته بالله فلينظر ما وعده الله ووعده الناس، بايهما قلبه اوثق.»[٣]

ثم يقول: «والتوكل على الناس والاعتماد عليهم في كل الحوائج، والتوكل على الله ان تعرف ان الله تعالى خلقك، وهو الذي ضمن رزقك وتكفّل برزقك ولم يحوجك الى احد، وانت تقوله بلسانك: «والذي هو

١– «الكامل في التاريخ». ابن الاثير مجلد ٦ ص ٩٥.

٢– «الموسوعة الصوفية»، عبد المنعم الحفني ص ٢٤٨.

٣– المصدر نفسه.

يطعمني ويسقيني»[1] فهذا هو التوكل على الله. وقال تعالى «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»[2] ويقول السلمي: «التوكل ان يطمئن قلبك بموعود الله[3]».

يقول شقيق البلخي: «واقرب الزهّاد من الله اشدهم خوفًا، واحبّ الزهّاد الى الله احسنهم له عملاً، واكرم الزهّاد عليه اتقاهم له، واكمل الزهّاد زهدًا اكثرهم يعينًا»[4]

ويقول شقيق البلخي: «عملت في القرآن عشرين سنة حتى ميّزت الدنيا من الاخرة، فأصبته في حرفين وهي قوله تعالى «وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها، وما عند الله خير وابقى.»[5] ثم يقول: «والزاهد هو المنقطع الى الزهد بقلبه، فيخاف على نفسه من حصول الغنى له كما كان يخاف عليها قبل توبته من حصول الفقر وعلامة صدقه في زهده ان يفرح بكل شيء فاته من الدنيا ويغتم لكل شيء حصله منها»[6] «ويقول: «اساس الطريقة هو المعرفة. المعرفة اولاً بالله. وثانيًا معرفة نفسه. والثالث معرفة امر الله ونهيه. والرابع معرفة عدو الله وعدو نفسه.»[7]

ومن اقوال شقيق البلخي:

«التوكل ان يطمئن قلبك بموعود الله.»[8]

١- سورة الشعراء آية ٧٩.

٢- سورة المائدة آية ٢٣.

٣- «طبقات الصوفية» ص ٦٣«وتاريخ التصوف» ص ٢٤٨.

٤- «صفات الصوفية» مجلد ٨ ص ٧.

٥- سورة القصص آية ٦٠.

٦- «الموسوعة الصوفية» الحفني ص ٢٤٨.

٧- المصدر نفسه ص ٢٤٩.

٨- «الصوفيون وارباب الاحوال». الشيخ عبد العزيز السيروان ص ٢٥.

«تُعرفُ تقوى الرجل، في اخذه، ومنعه وكلامه.»[1]

«سئل بأي شيء يعرف الفقير أنه اصاب القلة؟ قال: بأن كل شيء يأخذ من الدنيا، يأخذه في حالٍ، يخاف – ان لم يأخذه – ان يأثم.»[2]

«الزاهد الذي يقيم زهده بفعله. والمتزهد الذي يُقيم زهده بلسانه»[3]

«سئل: «بأي شيء يُعرف بأن العبد اختار الفقر على الغنى؟» قال: «يخاف ان يصير غنيًّا، فيحفظ الفقر بالخوف، كما كان من قبل يخاف ان يصير فقيرًا، فيحفظ الغنى بالخوف»[4]

«طهّر قلبك من حبّ عروض الدنيا، حتى يدخل فيه حبّ الاخرة، وثواب الله عزّ وجل.»[5]

«جعل الله اهل طاعته احياء في مماتهم، واهل المعاصي امواتًا في حياتهم»[6]

بشر الحافي

هو بشر بن علي بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن عبد الله المروزي، وكنية الحافي لانه كان يمشي حافيًا، لان نعله انقطع، فذهب به الى الاسكافي يصلحه، فقال له الاسكافي: ما اكثر كلفتكم على الناس (يقصد الصوفية)، فالقى بشر النعل من يده والاخر من رجله، وحلف لا يلبس نعلاً بعدها.»[7]

١- «الصوفيون وارباب الاحوال». ص ٢٥.
٢- المصدر نفسه ص ٢٥.
٣- المصدر نفسه ص ٢٥.
٤- المصدر نفسه ص ٢٥.
٥- المصدر نفسه ص ٢٧.
٦- المصدر نفسه ص ٢٧.
٧- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ١١٧.

ولد بشر بن الحارث عام ١٥٠هـ في مدينة «مرو» من فارس، وتوفي في بغداد عام ٢٢٧هـ، بعد ان عاش معظم حياته فيها، فاعتبر من الزهّاد التقليديين العراقيين.

قال ابو عبد الله احمد بن الجلاء: رأيت ذا النون المصري، وكانت له العبارة، ورأيت سهلاً وكانت له الاشارة، ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع، فقيل له: ما إلى من كنت تميل؟ فقال: «لأستاذنا بشر بن الحارث.»[١]

وقال الخليفة المأمون: «لم يبق في العراق من يستحى منه غير بشر بن الحارث.[٢]

وقال بشر عن زهده وتقشفه:

قالوا رضيت بذا، قلت القنوع غنى
ليس الغني كثرة المال الورق
رضيت بالله في عسري وفي يسري
قلت لا أسلك إلاّ واضح الطرق[٣]

كان بشر الحافي ينادي بالابتعاد عن الزواج، ويعلل عدم زواجه بشغله بالفرض دون السنة، لأن الزواج سنة وليس فرضًا[٤] والفرض مشيئة الله تعالى، وعلى الانسان ان يكتفي بعبادة الله، عزّ وجل، وايمانه المطلق له، وتوكله التام عليه. وكان من ورعه يأنف من لقاء الناس ويقول حب لقائهم من حب الدنيا، ويتحرج أن يسيء الظن بالناس، وأن يصاحب الأشرار لأن صحبتهم تورث

١- «الرسالة القشيرية» ص ٤٠٥.

٢ - «متصوفة بغداد» عزيز السيد جاسم ص ١١٢ و«طبقات الصوفية» لعبد الرحمن السلمي.

٣- «متصوفة بغداد». عزيز السيد جاسم ص ٩٩.

٤- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ١١٨.

سوء الظن بالأخيار ولا يجد بأسًا ان لا يعرفه الناس، ومن اجل ذلك كان يتحرج ان يتحدث عن رسول الله، يتحرج ان يطيل في صلاته في ركوعه وسجوده، ويسمي ذلك «سرائر الشرك»(١) وقيل انه كان ينهى الناس عن القول توكلنا على الله، لانهم لو كانوا صادقين في توكلهم، لرضوا بما يفعله بهم ربهم.(٢)

وكتب بشر في الزهد فقد ذكر ذلك صاحب الفهرست وتأثر به الامام ابن حنبل وضمّن كتابه ايضًا شذرات من كتاب بشر. وربما كان اسم الزهد هو الذي يفضله البعض للتصوف. وبشر كان من المحدثين ولكنه ترك رواية الحديث فقد تحرج ان يرويه بعد ان تصوف وتزهد، ويعدّه ابن حيّان من الثقات(٣)

قضى بشر الحافي معظم وقته في طلب العلم فزار مكة والمدينة والبصرة والكوفة، واخذ عن مالك بن انس، والفضيل بن عيّاض، وحماد بن زيد، وعيسى بن يونس وابن المبارك وغيرهم. وقال عنه الخطيب البغدادي: «كان بشر بن الحارث من اعقل الناس، ولو قسّم عقله على اهل بغداد صاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء.»(٤)

وفي رسالته الى ابي حسن علي بن خشرم، تأكيد واضح لزهده وتقواه، وهي مشبعة بالحكمة الصوفية والحث على التقوى ويقول: «ان محور الايمان والتضرع لله وعدم الابتلاء بالشهرة وباغوار الدنيا التي قد تنسي النور الالهي

١– الموسوعة الصوفية ص ١١٨، عبد المنعم الحفني.

٢– المصدر نفسه ص ١١٨.

٣– المصدر نفسه ص ١١٩.

٤– هذه الرسالة بكاملها في حاشية كتاب «متصوفة بغداد»، عزيز السيد جاسم ص ١٠٠ – ١٠٢.

واری الفضل اليوم ما هو إلاّ في العزلة ان اكثر عمرك فيما ارى قد انقضى، ومن يرضى حاله قد مضى، وانت اسير في يديه، وكل الخلق في كبريائه صغير وكلهم اليه فقير.»[١]

وكان بشر الحافي يؤمن بأن العلم اساس المعرفة، والمعرفة العقلانية نعمة المولى على عباده وبذلك يقول: «العلم اذا لم يعمل به فتركه افضل، العلم هو العمل، واذا اطعت الله علّمك، واذا عصيته لم يعلمك، والعلم اداة الانبياء الى اجتجابهم، وهو امكانات الانسان في التقوى والاتقاء من الشر والباطل. ولا يجوز استخدام العلم لفرض الدنيا وارضاء الملوك ونيل الجاه والثروة[٢] ومن اقواله: «يأتي على الناس زمان لا تقرّ فيه عين حكيم ويأتي زمان يكون الامر فيه للحمقى على الاكياس.»[٣]

الفضيل بن عياض

الفضيل بن عيّاض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي، وكنيته علي. اصله من الكوفة وقيل ولد في مدينة «سمرقند» عام ١٠٥هـ وتوفي في مكة عام ١٨٧هـ وكان له من العمر اثنان وثمانون سنة.

كان الفضيل من اصحاب المجون واللهو ولكن، كما حصل لابراهيم ابن ادهم، سمع نذيرًا: «ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله!»[٤] فتاب الفضيل الى ربه حتى قيل عنه: «ما بقي على ظهر الارض افضل من الفضيل بن عيّاض.»

كان الفضيل ثقة في الحديث وعلوم الدين، وكان له العديد من المريدين والتلاميذ منهم الامام الشافعي.

١- «متصوفة بغداد» عزيز السيد جاسم ص ١٠٥.

٢- المصدر نفسه ص ١٠١.

٣- المصدر نفسه ص ١١٣.

٤- الموسوعة الصوفية عبد المنعم الحفني ص ٣٠١ وسورة الحديد آية ١٦.

كانت طريقه في الزهد والعبادة قوامها الخوف من الله تعالى وكان كثير الحزن، وحزنه حزن العابد التائب وليس الاكتئاب. وقال ابن المبارك: «اذا مات الفضيل ارتفع الحزن.»[١]

ومن اقوال الفضيل: «ان رهبة العبد من الله على علمه به، «والتعبير كله باللسان لا بالعمل، واشد الورع في اللسان، فاحفظ لسانك، واخف زمانك واقبل على شأنك»[٢]

وطريق الفضيل قوامها الخوف من الله، وكان من خوفه نحيفًا بادي الحزن والغم، فاذا ذُكِّر بالله او ذكره او سمع القرآن استشعر الوجل وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من بحضرته[٣]

قال ابو علي الرازي: رأيت الفضيل مبتسمًا يوم مات ابنه علي، فلما سألته عن ذلك قال: «ان الله عزّ وجل، احب امرًا فأحببت ما احب الله.» وكان حزن الفضيل حزن التائب وليس المكتئب، «وبسبب خوفه وحزنه زهد الدنيا لعله بزهده ينصلح قلبه وعمله.»[٤]

وكان الفضيل يكره لبس الصوفية، ولما رأى جماعة منهم من الشبان وقد وضعوا الصوف قال لهم: وددت اني لم أركم ولم تروني حتى لا تحكون اني رأيتكم وانكم رأيتموني[٥]

١- «الرسالة القشيرية» ص ٤٢٤.

٢- المصدر نفسه ص ٣٠٢.

٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٠١.

٤- المصدر نفسه ص ٣٠٣.

٥- المصدر نفسه ص ٣٠٣.

قال الفضيل: اذا احب الله عبدًا أكثر غمّه، واذا ابغض عبدًا وسّع عليه دنياه.[1]

النخشبي ابو تراب

هو الصوفي عسكر بن حصين وكنيته أبو تراب عُرف بالنخشبي نسبة الى بلدة نخشب من خراسان. صحب حاتما الاصم وابا حاتم العطار المصري.

كان يقول الفقير (الصوفي) قُوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث نزل.[2] ومن اقواله لمريديه: «من لبس منكم مرقعة فقد سأل (اي يظهر حاله كأنه بها يتسول)، ومن قعد في خانقاه او مسجد فقد سأل، ومن قرأ القرآن من مصحف كيما يسمع الناس فقد سأل»[3]

وكان التصوف عند النخشبي التوكل والاستغناء عن الناس فكان يقول: «فلا يشكو الفقر إلاّ لله، وتوكله دائمًا بالله. وانفع العبادات التوكل، فالله هو خالقنا وعليه رزقنا وهو الذي يحيينا ويميتنا. ومفاتيح الاقدار هي الرضا بما يرد على العبد في كل وقت من اسباب الغيب. والتوكل هي طمأنينة القلب الى الله.[4] توفي عام ٢٤٥هـ.»

الواضح من سيرة هؤلاء الزهّاد التقليديين المسلمين الذين عاشوا في القرن الثاني الهجري، والمعروفين باسم «طلائع المتصوفة» ان التصوف لم يبرز كفكرة فلسفية، او نظريات عميقة في علاقة الله مع الانسان، إلاّ بعد نهاية هذا القرن. قبل ذلك الوقت، لا نجد عند اهل الزهد التقليدي مذاهب كاملة، ولا مراتب منتظمة للعالم الروحي، بل نظريات فكرية ومسالك حياتية وتقوى خالية من

١- «الرسالة القشيرية» ص ٤٢٤.
٢- المصدر نفسه ص ٤٣٦.
٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٨٧.
٤- المصدر نفسه ص ٣٨٧. (بتصرف)

التهاويل اللفظية التي انتشرت وسادت في القرن الثالث والرابع بعد انتشار التصوف الاسلامي الفلسفي.

انتشر الزهد التقليدي الاسلامي في القرن الثاني في الثالوث العراقي: البصرة والكوفة وبغداد. البصرة كانت تحت تأثير نظريات اصحاب الاعتزال، الكوفة كانت مصدر انتفاضات سياسية ودينية ومعقل آل البيت العلويين ومركز المعارضة الاساسي للامويين وثم العباسيين. وبغداد كانت المحج والمحط لكل عالم، واديب، وفقيه وسياسي، حتى اصبحت مؤهلة لان تكون العاصمة بالمنظور العربي والاسلامي.

عند نهاية القرن الثاني الهجري، اصبح الزهد التقليدي الاسلامي على تخوم التصوف واصبح اطلاق لقب «طلائع المتصوفة» على اهل الزهد حقيقة ظاهرة، اذ اخذ شكلها الديني ينحسر عن مضمونها الفلسفي العلمي، فبرز «الحب الالهي»، «المشاهدة»، «والمعرفة المباشرة»، ثم «وحدة الوجود» «والاتحاد والحلول» فنادى بهم اهل التصوف وقبل بهم العامة.

انتشار التصوف الفلسفي الاسلامي،
ابتداءً من القرن الثالث هجري

لكي يبلغ الحضور الصوفي القدر البارز ويصبح طائفة، اذ يتحول الزهد التقليدي من مفهومه البسيط الى التصوف بمفهومه الفلسفي، يجب ان يتخطى القرن الثاني هجري حيث يصبح قوة فاعلة وينتشر في البلاد الاسلامية من الاندلس حتى الهند.

قبل الخوض في تاريخ هذه المرحلة من التصوف الفلسفي والمنجزات الفكرية والتطورات الصوفية، يجب القاء نظرة مقتضبة على الجوانب الفكرية والروحية والدينية واهمها السياسية التي كانت تسود البلاد في هذا الزمن، خصوصًا ان العصر العباسي في تلك الحقبة اتسم بتضارب النزعات الفكرية، وتعدد الاتجاهات الدينية، وتصارع القوى الروحية مع التكالب على الترف والسعي وراء المادة. اما الوضع السياسي، فقد كانت الخلافة الاسلامية العربية والحكم العربي على مشارف الزوال، اذ كان للسلاجقة الاتراك نفوذ وتسلط كبير، وأحيانًا القول مطلق، على الحكم والسلطة الفعلية في يدهم واقتصر سلطان الخليفة العربي على السلطة الروحية بكونه الامام.

كانت الدولة العباسية عربية اللسان، فلغتها لغة القرآن الكريم، ولكن

كان للفرس ومن ثم الاتراك، القول الاول في سياستها وتدبير امورها الاجتماعية ومراقبة التيارات الفكرية.

كان في بغداد اخلاط ونزعات من الثقافات والاراء والمذاهب، منها ما هو عربي ومنها فارسي ويوناني وهندي. ثم كان الخلاف الدائم مستشريًا بين اهل السنة والشيعة والصراع العباسي العلوي. وفي هذا الوقت ظهرت عقيدة الاسماعيلية في قلعة «الموت» الفارسية، بمساعي الداعي الكبير حسن الصباح لتزيد الارتباك السياسي والفكري فبرز النضال العسكري الذي نتج عنه الاغتيالات السياسية، منها اغتيال الوزير الكبير «نظام الملك» ثم ابنه «فخر الملك»، وامير الموصل «مودود بن التون يكن.»

ويقول المؤرخ احمد الشرباصي: «وازدهرت في هذا العصر الدراسات الاسلامية القرآنية والحديثية والفقهية والاعتقادية، وتلاقت فيه حضارات الامم المختلفة، فاجتمع فيه هدى الايمان، ونزعات الكفران، وتلاقى فيه صفاء التعبد مع حيرة الشك، وكان هناك مزيج من فلسفة الاغريق، وزهد الهنود، وحكمة الصين وزندقة الفرس، وتقنين الرومان، وصار المجتمع الاسلامي موطنًا خصبًا لتفاعل هذه الافكار والاراء.»[١]

وظهر في هذا العصر الترف المادي والترف العلمي، فكما اقبلت الدنيا بترفها واسرافها على الناس، كان هناك اسراف في التفكير سببته الحرية العقلية الواسعة، حتى نشأ عن ذلك بلبلة فكرية واعتقادية اتاحت المجال لظهور كثير من الفرق والمذاهب الدينية والفلسفية والكلامية.[٢]

١- «الغزالي والتصوف الاسلامي» ص ٢٠.

٢- «حلية الاولياء» مجلد ٦ ص ٣٤٥.

برزت الصوفية الفلسفية بكل قوتها في اواخر القرن الثاني هجري حيث انعزل الزهد التقليدي عن المجتمع الاسلامي حتى صار مسلكًا دينيًا منقطع الصلة بالواقع الاجتماعي. يقول ابو نعيم الاصفهاني: «بلغ من عزلة هؤلاء الزهّاد عن مجتمعهم ان احدهم لا يخرج من بيته، او كان يتخذ لنفسه سردابًا ينعزل به عن اهل بيته.»[١]

يقوم التصوف الفلسفي على اساسين: الاول التجربة الباطنية المباشرة بين العبد والرب، والثاني، امكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله.[٢]

التجربة الباطنية، هي التجربة الصوفية، اذ يحس الصوفي بقوى تضطرم فيه كفيض من نور، وينغمس بها كأنّ قوى الهية غزته، فينطلق من المنطق العقلي ليغوص في تصورات وخواطر واصوات فيصاب بنوبات يحسها كامواج تغمره لا يتمكن من مقاومتها، وقد ينتج عنها تحريك اطراف ورجفة بدن ورقص.[٣]

اما امكان الاتحاد بين الصوفي والله فيصفه الدكتور عبد الرحمن بدوي: «أما الاساس الثاني فضروري جدًا في مفهوم التصوف، وإلاّ كان مجرد اخلاق دينية. ويقوم في توكيد المطلق، او الوجود الحق، او الموجود الواحد الاحد الذي يضم في حضنه كل الموجودات، وفي الامكان الاتصال به اتصالاً متفاوتًا في المراتب حتى يصل المرء الى الاتحاد التام، بحيث لا يبقى ثم إلاّ هو. ومن هنا كان طريق التصوف سُلّمًا صاعدًا ذا درجات نهايتها عند الذات العلية، وكان سفرًا يرقى في معارج حتى ذروة الاتحاد»[٤]

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ١٨.

٢- «الغزالي والتصوف الاسلامي». ص ٢١.

٣- «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ١٨.

٤- المصدر نفسه ١٨ و١٩.

ثم يضيف الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ذلك ان التصوف الاسلامي، منذ رابعة العدوية في الثلث الثاني من القرن الثاني للهجرة، قد قام على اساس منهج استقطاب كامل للنفس في علاقتها مع الله تعالى وعلى اساس محاولة الاتحاد بالمطلق او، على الاقل، اتحاد صلة خلة به، وعشق له، اذا ما تعالت، بالاتحاد مع الذات.»(١)

وفي ذلك الوقت، انطلقت الصوفية الى القول بالاتحاد والحلول والمشاهدة وفكرة العشق الالهي، وكانت المعرفة عندهم تسمى الوجدان او الذوق، وهي مباشرة بغير وسائط او براهين، انها معرفة تخطت العقل لا يحوزها إلاّ من سلك سبيل التصوف، وألهم المعرفة المباشرة، ورفضوا ربط علاقة الانسان بالله بالشريعة كما رفضوا وساطة الوحي وحتى النبوة، وقالوا انها الكشف بطريقة المشاهدة القلبية وليس بالنظر الجسماني، وبذلك أُلغيت فكرة الانفصال المطلق بين الله تعالى والانسان.

نجد هذا الاتجاه الروحي عند رابعة العدوية، المحاسبي، البسطامي، الجنيد والحلاّج، وقد طغى هذا الاتجاه الفكري المتحرر من قيود الشريعة حتى اصبح من الاسس الاولية والرئيسية في التصوف الفلسفي الاسلامي.

فتحت الدولة العباسية، بعد ان تخلت عن العنصرية العربية التي سادت في الدولة الأموية، الباب امام التيارات الفكرية والعقائدية، لا سيما الفارسية، فكانت الحصيلة المحتومة مواجهة بين الثقافة العربية، التي نمت وتطورت مع الاسلام، وبنيت على اساس تعاليمه في الشريعة والعقيدة ومفهومه الاجتماعي، وبين الثقافة الفارسية القديمة بما لها من عقائد ومذاهب وفلسفات لا تتوافق في معظمها مع العقيدة الاسلامية التوحيدية.

١- «تاريخ التصوف الاسلامي». عبد الرحمن بدوي ص ١٩.

الصوفيون الذين تركوا بصمات بارزة في الصوفية الاسلامية الفلسفية، مع التقيّد بالتسلسل التاريخي، هم:

١ . معروف الكرخي

هو معروف بن فيروز ابو محفوظ الكرخي يرجع نسبه الى قرية كرخ في العراق، وكان من موالي علي بن موسى الرضا. كان معروف استاذ الصوفي سري السقطي ومن رفقاء داود الطائي. كان نصرانيًا ثم اسلم.

كان معروف الكرخي من مشايخ متصوفة بغداد الذين عرفوا بالورع والتقوى والزهد، وكان يشجع على العمل وكسب الحلال من المال ويقول: «اذا اراد الله لعبد خيرًا فتح عليه باب العمل واغلق باب الجدل، واذا اراد شرًّا اغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل.»[١] ومن اقواله: «ما اكثر الصالحين، واقل الصادقين في الصالحين»[٢] ومن دعائه «ربي اجعلني ممن يؤمن بلقائك ويرضى بقضائك، ويقنع بعطائك ويخشاك حق خشيتك.»

اشتهر معروف الكرخي بكلامه في الوجود والمعرفة العقلية المعتمدة اسلوب المنطق كما هي عند اصحاب الاعتزال، كما نادى «بالقدرية» اي، ان الانسان مخيّر في افعاله واقواله. ويقول بعض المؤرخين، ان معروف الكرخي كان من اصحاب الزهد التقليدي الاسلامي الاوائل ولكن من طلائع اهل التصوف.

---

١ – «موسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني» ص ٣٦٦

٢ – المصدر نفسه ص ٣٦٦.

يقول المفكر عزيز السيد جاسم عن معروف الكرخي:

«لم يكن معروف الكرخي متشددًا في نظرته الى المال مثل بقية الزهاد المتصوفة. فقد غلبت عليه التساهلية دونما إخلال بمبدأ العدل والانصاف، فهو يرى ان العمل واجب وان طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذنوب»[١]

«ولقد اجتمعت لمعروف الكرخي خشيته من الله وشوقه لله في تأثير روحي ونفسي عميق، نجم عنه احساس شخصي بالزمن على غير ما هو احساس الناس، فلم يكن يتعامل مع الوقت كما يتعامل ابناء الدنيا ورجال العمل، بل كان يتعامل مع الوقت تعامل الحي الميت او تعامل الضيف المتعجل، فهو لا يدري متى اللحظة آتية، فيخرج من الدنيا لا يملك غير ايمانه وعمله الصالح.»[٢]

روى عنه ابو نعيم الاصفهاني: «كان معروف قاعدًا على شط دجلة، فيتيمّم فقيل له: الماء قريب منك فقال لعلي لا اعيش حتى ابلغه.»[٣]

«وكان سلوكه يُحال في تفسيره الى طبيعته وطبعه، لا الى مسندات القول وجدل الافكار، وتيارات ومؤشرات المذاهب الفقهية، وهو، بالنتيجة، مسؤول عن اي مسلك له، وعن اي رأي، بالبساطة نفسها، البساطة التي اطلق فيها ذلك الرأي والمسلك.»[٤]

وقيل انه عندما حضرته الوفاة قال: «اذا مت فتصدقوا بقميصي هذا، فإني احب ان اخرج من الدنيا عريانًا كما دخلت اليها عريانًا».

---

١ – «متصوفة بغداد» ص ٨٢.

٢– المصدر نفسه ص ٨٥.

٣– «حلية الاولياء » مجلد ٨.

٤– متصوفة بغداد ص ٨٨.

٢. رابعة العدوية

هي بنت اسماعيل العدوية وكنيتها «ام الخير» كانت مولاة آل عتيك بني عدوة ولذا تسمى بالعدوية. وآل عتيك من بطون قيس بن صعصعة من العدنانية[١] كانت منازلهم في البحرين. ولدت رابعة في مدينة البصرة حيث توفيت عام ١٨٥هـ، وكانت البنت الرابعة لابويها، ولذلك سميت رابعة.

ولدت رابعة في بيت فقير وتوفي ابوها وهي طفلة، فذاقت مرارة اليتم وشظف العيش والحرمان، لا معيل لها ولا نصير، وفي وقت القحط في البصرة، وقعت بين يدي تاجر رقيق باعها، قيل بستة دراهم، الى رجل غليظ القلب شديد القسوة، اثقل عليها العمل وسامها الوانًا من القهر والعذاب. «ثم اشتراها تاجر ثري فاغدق عليها المال والحب حتى بات مرتجى احلامها»[٢]

وان لم تكن رابعة العدوية من المفكرين او الفلاسفة ولكنها اشتهرت بحبها الازلي وتفانيها في محبة الله، وكانت اول من قال «بالعشق الالهي» الذي اقامته على نهج الشوق والوجد في علاقتها مع ربها وكانت اول من استعمل هذه اللفظة ونادى بها بقوة وصراحة حتى انها لقبت بها فاصبحت صاحبة «العشق الالهي.»

اتجهت رابعة العدوية اتجاهًا مغايرًا للعرف الديني الاسلامي الذي يذهب الى ان الانسان لا يقوى على الاقتراب من الله إلاّ بروح التعبد والرهبة والورع.[٣]

١- «نهاية الارب في معرفة انساب العرب». احمد القلقشندي ص ٤٠٣.

٢- «تذكرة الأولياء». فريد الدين العطار.

٣- «رابعة العدوية والحياة الروحية في الاسلام». عبد الباقي سرور. ص ١٣٥.

ويقول بعض المفكرين المسلمين: «الحب الالهي كما اعتقدته الصوفية هو ادعاء مغلوط عن حقيقة حب الله، لانه خرج من مفهوم التقديس والخشوع، لان وقوف مخلوق ندًا لند مع الخالق واتخاذه محبوبًا وعشيقًا له كما يحب ويعشق مخلوقًا مثله هو كفر والحاد وخروج على ابسط قواعد المحبة الالهية. الخالق فوق المخلوق والمخلوق عبد له وعليه تقديسه والخشوع له.»

واما الصوفية في وصفهم «للعشق الالهي» يدحضون قول المفكرين المسلمين بقولهم «لا عاشق ولا معشوق بل عشق واحد مطلق هو ذات الحق» فيقولون «العشق هو ان الجوهر الالهي في الانسان اذا صفا من كدرة المادة اشتاق الى شبهه، ورأى بعين عقله الخير الاول المحض فاسرع اليه، وحينئذ يفيض اليه نور الخير فيتحد به ويشعر بلذة لا تشبهها لذة، وهذه مرتبة هي اعلى مراتب الوصول ولا تقبل الزيادة او النقصان ولا ينكر العارف معروفه والعاشق معشوقه فلا يبقى هناك عارف ولا معروف، ولا عاشق ولا معشوق، بل عشق واحد مطلق هو الذات الحق الذي لا يدخل تحت اسم ولا رسم ولا نعت ولا وصف.»

يقول المفكر سميح عاطف الزين: «والمؤرخون لا يؤكدون المصدر الذي اخذت عنه رابعة الحب الالهي، وهل ان هذا المصدر كان محض شعور نبع من ذاتها لما عانته في حياتها من فقر وأسر وحيرة، ام هو عائد الى كونها من اصل مسيحي، وهم يعزون ذلك الى ان اهلها كانوا من المسيحيين الذين عاشوا في تلك الانحاء من بلاد العراق ثم اقبلوا على الاسلام واعتنقوه. ذلك ان فكرة الحب الالهي موجودة فعلاً في الدين المسيحي ولا شيء يمنع ان تكون رابعة قد تأثرت بها من خلال معرفتها بهذا الدين»(١)

١- «الصوفية في نظر الاسلام» ص ٢٤١، سميح عاطف الزين.

ومن اقوال رابعة في حب الله.

احبك حبين، حب الهوى   وحبًا لانك اهل لذاكـــــــــا
فاما الذي هو حب الهوى   فشغلي بذكراك عمن ســواكا
واما الذي انت اهل لـــــه   فكشفك للحجب حتى اراكا
فلا الحمد في ذا ولاذاك لي   ولكن لك الحمـد في ذا وذاكا

قيل رأت رابعة النبي في المنام فقال لها «اتحبينني يا رابعة؟ فقالت، من لا يحبك يا رسول الله ولكن قلبي مليء بحب الله فلا مكان لك فيه.»

قيل ان رابعة كانت تناجي ربها وتقول: «الهي ان عبدتك من خوف النار فاحرقني بها، او طمعًا بالجنة فحرمها علي، وان كنت اعبدك من اجلك فلا تحرمني مشاهدة وجهك.» انتقد هذا القول بعض المفكرين المسلمين اعتبارًا ان العبادة التي لا تقوم على الخوف من نار الله ولا على الطمع في جنته هي عبادة فاسدة لانها تنفي الثواب والعقاب بحيث يكون الكافر والمؤمن على المستوى نفسه في الاخرة.

كتب الكثير من المؤرخين المسلمين اساطير عن كرامات رابعة العدوية ونسبوا اليها اقوالاً ومواقف لا تتفق مع ظروف العصر الذي عاشت فيه ولهذا من الصعب على الباحث ان يقبل تفسير المؤرخين والصوفيين هذه الاساطير ولكن يكفي انها ادخلت العشق الالهي الى التصوف الاسلامي.

اختلط الامر على بعض المؤرخين فمزج بين رابعة العدوية البصرية ورابعة اسماعيل الشامية التي كانت زوجة الصوفي احمد ابن ابي الحواري تلميذأبي سليمان الداراني وقيل ان اسمها كان «رايعة» وليس رابعة وماتت في القدس عام ٢٢٩هـ حيث مدفنها، أما رابعة العدوية البصرية فقد توفيت عام ١٨٥هـ وقبرها في البصرة.

٣. منصور بن عمار

هو منصور بن عمار، كنيته ابو السرّي من اهل «مرو» من قرية يقال لها «دندا نقان»[١] وقيل من البصرة، سكن بغداد وتوفي فيها عام ٢٢٥هـ وقبره في محلة باب حرب.

كان منصور بن عمار من حكماء مشايخ الصوفية واحسن كلامًا في الموعظة والارشاد «فكان صاحب مجالس عظيمة. قيل ان الليث بن سعد سمع وعظ منصور بن عمار فتأثر به وقال له: «كأنك فتتّ عضوا من اعضائي.» اي ان مؤهلاته الفقهية والوعظية كانت واسعة، غنية بالعلم والمعرفة الاخلاقية وبالارشاد، وكان القاوه يشد الحاضرين اليه شدًا كبيرًا.[٢] ولكن بشر الحافي، الصوفي المعروف كان ينهاه عن الوعظ لانه كان يكتسب من حلقات وعظه. وكسب المال من العلم بلاء عند بشر الحافي، وضد التقوى والزهد.

كان منصور يقول: «سبحان من جعل قلوب العارفين اوعية الذكر، وقلوب اهل الدنيا اوعية الطمع، وقلوب الزاهدين اوعية التوكل، وقلوب الفقراء اوعية القناعة، وقلوب المتوكلين اوعية الرضا. ويقول عن النفس: سلامتها في مخالفتها، وبلاؤها في متابعاتها.»[٣]

ويقول منصور: «فالحكمة الصوفية هي حكمة قلبية استنادًا الى ما ذكره القرآن الكريم عن فقه القلوب «ولهم قلوب يفقهون بها»».[٤]

١– دندانقان بلدة في نواحي «مرو» بالقرب من سرخس.

٢– «متصوفة بغداد» ص ١١٥.

٣– «حلية الاولياء». ابو نعيم الاصفهاني مجلد ٩ «متصوفة بغداد» ص ١١٩.

٤– «متصوفة بغداد» ص ١١٨.

لم يكن بشر الحافي راضيًا عن سيرة منصور بن عمار الواعظ وذلك لاحتمالين: الاول، انه صاحب مجالس الوعظ والإرشاد، وهي مجالس شهرة، كان يربأ بالصوفية ان ينساقوا فيها، فقد كان بشر الحافي رافضًا للشهرة، فهي بلاء في نظره. اما الاحتمال الثاني، فهو اعتراض بشر الحافي على التكسب بالعلم والفقه.(١)

٤. حاتم الاصم

ابو عبد الرحمن حاتم بن علوان كنيته ابو عبد الرحمن وشهرته حاتم الاصم. كان مولى للمثنى بن يحي المحازبي ومن قدماء متصوفة خراسان وابرز تلاميذ شقيق البلخي، كما تتلمذ عليه احمد بن خضرويه.

ولد حاتم الاصم في بلدة بلخ من خراسان ثم قدم، كغيره من طلاب العلم، بغداد حيث رافق الامام احمد بن حنبل، مؤسس المذهب الحنبلي وعدو المعتزلة الذي حرض الخليفة المتوكل على الله بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) على اضطهادهم.

وحياة حاتم الاصم تزيل كثيرًا مما ألصق بالصوفية من تهم لا تمت الى الحقيقة بصلة. وأول هذه التهم المزيفة أن الصوفية لا يمارسون الجهاد في سبيل الله والواقع ان العكس هو الصواب. وها هو ذا حاتم واستاذه شقيق - وكلاهما من بلخ - قد ساهما في الجهاد بصورة ملحوظة، وقد استشهد استاذه شقيق في ساحة الجهاد.(٢)

١-«متصوّفة بغداد» ص ١١٧.

٢- «عوارف المعارف». شهاب الدين السهروردي ص ٧٢.

ويقول حاتم عن الجهاد:

«جهاد في سرّك مع الشيطان حتى تكسره.»

«جهاد في العلانية – في اداء الفرائض حتى تؤديها كما امر الله.»

«جهاد ضد اعداء الله لنصرة الإسلام.[1]»

كان لحاتم الاصم كلام كثير في الموت وكان يقول: «انه موت الصوفية: منه موت ابيض وهو الجوع، وموت اسود وهو احتمال اذى الناس، وموت احمر وهو مخالفة النفس، وموت اخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض. والصوفي المراقب لنفسه هو الذي يذكر نظر الله اليه إذا عمل، ويذكر سمع الله له إذا تكلم، وعلم الله فيه إذا سكت. وليس من يدعي حب الله من غير ورع عن محارمه، أو حب الجنة من غير انفاق ماله، أو حب النبي من غير محبة الفقراء إلاّ كذبًا. ورأس الأمر كله في الثقة بالله، ثم التوكل، ثم الاخلاص، ثم المعرفة، والاشياء كلها تتم بالمعرفة.»[2]

ويقول حاتم الاصم عن التوبة وهي اول طريق السالك: «التوبة ان تتنبه من الغفلة وتذكر الذنب، وتذكر لطف الله، وحكم الله، وستر الله. اذا اذنبت لم تأمن الارض والسماء ان تأخذاك على اية صورة من الصور الكثيرة، لتعجيل العذاب. فاذا رأيت حكمه سبحانه في وجوب التوبة، فعليك ان تقلع عن الذنوب، وأن ترجع من الذنوب مثل اللبن اذا خرج من الضرع لا يعود اليه. فلا تعد الى الذنب كما لا يعود اللبن في الضرع.»[3]

١-«عوارف المعارف» ص ٧٣.

٢- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٢٥.

٣- «عوارف المعارف». شهاب الدين السهروردي ص ٧٤.

٥. الحارث بن اسد المحاسبي

ابو عبد الله الحارث بن اسد وكنيته المحاسبي لشدة المحاسبة لنفسه، حتى اصبحت صفة ملازمة له فاطلقوا عليها اسم المحاسبية.

ولد في البصرة في القرن الثاني الهجري في خلافة المهدي ابن المنصور (١٥٨ – ١٦٩هـ) ثم قدم بغداد التي اصبحت موطن نشأته وتعلمه ومات فيها عام ٢٤٣هـ.

المحاسبي كان من عائلة عربية ثرية مثقفة، وكان ابوه، أسد العنزي، قدريًا عُرف بثرائه ومكانته المرموقة في البصرة، قيل انه قدم بغداد مع ابنه الحارث وقطن فيها.

ان انتقاله من البصرة، مدينة الثقافة والورع، الى بغداد مدينة العلم والنور التي كانت زاخرة في علوم الفقه والحديث وعلم الكلام والفلسفة، كان بدء حياته الفكرية «حيث اصبح صاحب مذهب نظري متكامل، اكبر من صاحب مدرسة تقليدية، لان كتبه وافكاره وكيفية تحاوره واسترساله في التثقيف بآرائه تشير الى انه جنّد نفسه لرسالة انسانية كبيرة.»[١]

في عصر المحاسبي انتهت بغداد الاولى التي كانت قائمة على اركان العلم والتقوى وذلك بعد تفشي شرب الخمر، وشيوع الترف والفسق وانتشار المباذل خاصة منذ ايام المهدي والفترات التي اعقبت خلافته.[٢]

١– «متصوفة بغداد». عزيز السيد جاسم ص ١٣٢ (بتصرف).

٢– المصدر نفسه ص ١٤٣ (بتصرف).

في كتابه «الوصايا» يصف المحاسبي الوضع الاجتماعي الذي ساد بغداد بقوله: «اني تدبرت احوالنا في دهرنا هذا فأطلت فيه التفكير، فرأيت زمانًا مستصعبًا قد تبدلت فيه شرائع الايمان، وانتقضت فيه عرى الاسلام، وتغيرت فيه معالم الدين، واندرست فيه الحدود، وذهب الحق وباد اهله، وعلا الباطل وكثر اتباعه، ورأيت فتنًا متراكمة يحار فيها اللبيب، ورأيت هوىً غالبًا وعدوًا مستكلبًا، وانفسًا والهة عن التفكير محجوبة قد جللها الرياء، فعميت عن الآخرة، فالضمائر والاحوال في دهرنا بخلاف احوال السلف وضمائرهم»(١)

بالاضافة الى الوضع الاخلاقي والاجتماعي الفاسد والتنكر لمبادئ الدين، كانت هناك صراعات مذهبية وعقائدية بين الجبرية والقائلين بالقدر، والعداء مستفحل بين المعتزلة والحنابلة والاشعرية.

الواقع ان الازمة السياسية والاضطراب المذهبي والصراع العقائدي وسيادة الترف والمجون والفساد على التقوى والورع خلق للمحاسبي ازمة روحية، فاتجه الى الزهد والتقشف والتصوف. وفي كتابه «الوصايا» يقول: «ولم اقصر في الاحتياط ولا في النصح، فقيض لي الرؤوف بعباده قومًا وجدت فيهم دلائل التقوى واعلام الورع، وإيثار الاخرة على الدنيا.»(٢)

اكتسب المحاسبي من الفقهاء امكاناتهم في الحديث، في التقوى وعلوم الدين، كما اكتسب عن المعتزلة الايمان بالعقل، بالرغم من تجاهل الصوفية للعقل، واستطاع استيعاب الافكار الايجابية التي تلاءمت مع اعتناقه التصوف، فجمع التصوف والفقه بالرغم من العداوة بين الصوفيين والفقهاء.

١- «متصوفة بغداد» ص ١٤٢ - ١٤٣. عزيز السيد جاسم.

٢- «متصوفة بغداد» ص ١٤٦.

اما في الزهد فربط المحاسبي الزهد بالعقل وبالقلب معًا فقال: «على قدر صحة العقول وطهارة القلوب، فافضلهم اعقلهم، واعقلهم افهمهم عن الله، واحسنهم قبولاً عن الله اسرعهم الى ما دعا الله، عزّ وجل، وأسرعهم الى ما دعا الله ازهدهم في الدنيا، وازهدهم في الدنيا وأرغبهم في الاخرة، فبهذا تفاوتوا في العقول، فلكلّ زاهد زهده على قدر معرفته ومعرفته على قدر عقله.»(١)

كان المحاسبي يدين التطرف حتى في العقل كعقيدة المعتزلة، بالرغم من كون والده اسد العنزي منهم، ويدين الزهد لدى بعض اهل التصوف، فكان يجمع بين العلم والتصوف مع ايمانه بالعقل والقدرية كأهل الاعتزال ولكن من دون تطرف.

ويقول المحاسبي ان على الانسان ان يكون معتدلاً في اقواله وافعاله «وهي موازنة في ثلاثة مواطن.. فيما بين الايمان والكفر، وفيما بين الصدق والكذب، وبين التوحيد والشرك.» ويقول ان المحاسبة والموازنة اساسها – ان الانسان ليس شيئًا بدون الله، وليس له إلاّ ما يناله من رضوان الله، وانه ان اتقى الله وقّاه شر من دونه، وان صالح صلح به الناس، وإن فسد فسد به الناس، وأن عدوه من نفسه طبائعه السيئة، واولياءه منها طبائعه الحسنة، وانه لذلك محل صراع نفساني بين الاثنين، والانسان الاخلاقي المتدين هو الذي يقاتل بعضه ببعضه، ويستخدم اولياءه ضد اعدائه، فيقاتل الغضب بالحلم، والغفلة بالتفكير والسهو بالتنبيه»(٢)

١– «حلية الاولياء». ابو نعيم الاصفهاني «متصوفة بغداد» ص ١٤٩ – ١٥٠.
٢– «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٣٥٣.

يعتبر الحارث المحاسبي من كبار المؤلفين، ويقول «السبكي»[1]: ان مؤلفاته بلغت مئتي كتاب في الزهد والتصوف وعلوم الدين، ولكن من المؤسف، ما زال معظمها في متاحف ومكتبات اسطمبول والقاهرة وباريس لم تنشر او تحقق بعد، إلاّ كتابي: «رسالة المسترشدين» «والرعاية لحقوق الله.»

كان المحاسبي استاذ الصوفي الكبير ابي القاسم الجنيد ابن محمد، كما ان ابا حامد الغزالي تأثر به كثيرًا ويظهر ذلك من كتابه «المنقذ من الضلال» الذي اعتمد على كتاب «الوصايا» للمحاسبي.

٦. عبد الرحمن الداراني

هو عبد الرحمن بن عطيه العبسي ينسب الى داريا وهي قرية من قرى دمشق، وكنيته ابو سليمان وكان من تلاميذه احمد بن ابي الحواري زوج رابعة الشامية ومن مريديه القاسم بن عثمان الجوعي، وعرف اخوه داود الداراني بالزهد والورع ويعتبر من المقدمين من صوفية دمشق.

كان الداراني ينتقد الصوفية لعدم اشتغالهم بالدنيا ويركنون الى الناس يطعمونهم، وكان يستشهد بقول لقمان الحكيم: «لا تدخل في الدنيا دخولاً بآخرتك ولا تتركها تركًا تكون عالة على الناس.» ومن اقواله «لا خير في قلب يتوقع قرع الباب ويتوقع انسانا يجيء يعطيه شيئًا.»[2] وكان يدعو الى ترك الزهد، لا تقليلا من شأن الدنيا ولكن لانه تصرف على الاشتغال بالله تعالى.

توفي الداراني عام ٢١٥ ومدفنه في قرية داريا قرب دمشق.

١- «طبقات الشافعية الكبرى»، تاج الدين السبكي.

٢- «الموسوعة الصوفية» ص ١٥٥، عبد المنعم الحفني.

٧. سهل التستري

هو سهل بن عبد الله التستري نسبة الى مدينة تستر من خوزستان من بلاد فارس. قدم البصرة حيث تعلم على يد خاله الصوفي محمد بن سوار، ثم سار الى عبادان من فارس حيث اخذ العلم عن ابي حبيب حمزة بن عبد الله العباداني. ثم رجع الى تستر وبقي حتى وفاته عام ٢٨٣هـ. ولد سهل التستري عام ٢٠٠هـ.

ومن اقواله «لا معين إلاّ الله، ولا دليل إلاّ رسول الله، ولا زاد إلاّ التقوى، ولا عمل إلاّ الصبر، وعلى الصوفي حفظ سره وملازمة التوبة، واداء فرضه، وصيانة فقره، وعليه التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسوله، واكل الحلال، وكف الاذى واجتناب الاثام والتوبة واداء الحقوق[١]»

وقال: «كل فعل يفعله العبد، بغير اقتداء، طاعة كان معصية، فهو عيش النفس. وكل فعل يفعله بالاقتداء، فهو عذاب على النفس.[٢]»

وكان التستري يقول: «التوكل حال رسول الله، والكسب سنته.» ثم يقول: «فمن أطاق التوكل فغير مباح له كسب يعتمد عليه، ومن ضعف عن التوكل ابيح له طلب المعاش في كسبه لئلا يسقط عن درجة سنته حيث سقط عن درجة حاله. ومن توكل على الله ملأ قلبه نور الحكمة وكفاه كل هم وأوصله الى كل محبوب فإنه، عزّ وجل، يقول: ومن يتوكل على الله فهو حسبه، اي هو القائم له بكل كفاية.[٣]»

١– «الموسوعة الصوفية» ص ٨٠، عبد المنعم الحفني.

٢–«الرسالة القشيرية» ص ٤٠١.

٣– «الموسوعة الصوفية» ص ٨١، عبد المنعم الحفني.

وكان التستري يقول: «شكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم. والعيش على اربعة اوجه: عيش الملائكة في الطاعة، وعيش الانبياء في العلم وانتظار الوحي، وعيش الصديقين من الاقتداء وعيش سائر الناس، عالمًا او جاهلاً، زاهدًا كان او عابدًا في الاكل والشرب[1]»

ومن مؤلفات التستري كتاب «تفسير القرآن العظيم»

٨. ذو النون المصري

ابو الفيض ثوبان بن ابراهيم المصري. وقيل كان مولى لقريش وكان ابوه نوبيًا من مصر. لم يعرف تاريخ مولده ولكن توفي عام ٢٤٥هـ.

قال عنه المستشرق الانجليزي رينولد نيكلسون: «هو احق رجال الصوفية على الاطلاق ان ينسب اليه انه واضع اسس التصوف.»[2]

كان كثير الاسفار، زار معظم بلاد الشام والعراق، وعرف عنه غرامه بالطبيعة وله فيها مقالات كثيرة.

من اقواله في توحيد الله تعالى «الهي ما اصغيت الى صوت حيوان ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوي ريح، ولا قعقعة رعد، إلاّ وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على انه ليس كمثلك شيء.[3]»

بالاضافة الى علمه الواسع والعميق في علوم الدين والفقه والفلسفة كان شاعرًا له ابيات رقيقة في حب الله تعالى:

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٨٠، عبد المنعم الحفني.

٢- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ١٦٥.

٣- المصدر نفسه ص ١٦٦.

حبّك قـــــــــد ارّقني وزاد قلبي سقمـــــــــا
كتمـــــــــــته في القلب والاحشاء حتى انكتمـــا
لا تهتك الستر الـــــذي البستني مكرّمـــــــا
ضيّعت نفس سيـــــدي فردّها مسلّمـــــــــا

ويقول.

اطلبـــــوا لانفسكـــــم مثل ما وجـــــــدت انا
قد وجدت لي سكـــــنا ليس في هواه عـــــــنا
ان بعَّـــــدت قرّبنـــــي او قرَّبت منه دنـــــــا

ويقول الدكتور عبد المنعم الحفني: «كان ذو النون اول من تكلم في مصر في الاحوال ومقامات اهل الولاية، واول من عرّف التوحيد لمعنى الصوفي، وكان له اكبر الاثر في تشكيل الفكرة الصوفية، واخذ علم الدين والتصوف عن اسرافيل المغربي.»(١)

ويقول الدكتور الحفني: «وقال ذو النون، وقد نظر الى السماء والماء على ساحل البحر عند صخرة موسى سبحان الله ما اعظم شأنكما، بل شأن خالقكما، واعظم منكما ومن شأنكما. و لم نعثر في كلام احد من الصوفية على مثل كل هذه التعاريف لألفاظ الصوفية.»(٢)

١-«الموسوعة الصوفية» ص ١٦٥.

٢- «الموسوعة الصوفية» ص ١٦٦.

«وكلام ذي النون أغلبه في المحبة، وشعره ينصرف في معظمه الى المحبة واشواقها ولواعجها والحبيب والغيبة والوصال، ويؤسس كل الذنوب على النظرة، ومن النظرة تكون الخطرة، فإن تداركتها ذهبت وإلاّ امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة ثم الطلب»(١)

ومن الاقوال التي نسبت اليه:

«إياك ان تكون بالمعرفة مدّعيًا، او تكون بالزهد محترفًا، او تكون بالعبادة متعلقًا.»(٢)

وعن المحبة قال: «أن تحب ما احب الله، وتبغض ما ابغض الله، وتفعل الخير كله، وترفض ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين، واتباع رسول الله في الدين.»(٣)

٩. ابو يزيد البسطامي

هو طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي من مواليد مدينة «بسطام» غربي خراسان من بلاد فارس، وينحدر من سلالة «مزدكية» فارسية، وكنيته أبو يزيد او بيازيد.

اخذ ابو يزيد علوم الدين والفلسفة عن يد رجل مسلم هندي اسمه «ابو علي السندي» وكذلك اخذ عنه التصوف ومذهب الفناء في حب الله.

١-«الموسوعة الصوفية» ص ١٦٦، عبد المنعم الحفني.

٢- «الصوفيون وارباب الاحوال». الشيخ عبد العفيف السيزوان. ص ١٣.

٣- المصدر نفسه ص ١٤.

يقول الدكتور ماجد فخري: «فهنالك حلقة واضحة تصله «بالفدنتا»* ليس في ما تعلمه البسطامي من استاذه السندي في «الحقائق الكبرى» فحسب، بل وفي تركيب نظامه الفكري، وما انطوى عليه من المعاني العدمية. فقد عاش البسطامي في زمن كان فيه (شنكرا)* ومدرسته يعملون جاهدين على احياء الفكر «الفاندي» وفي تنظيمه. ثم ان شطحاته[١] الصوفية نظير قوله «سبحاني ما اعظم شأني» او «انا انت» او «انا هو انا» لها نظائر كثيرة في «الاوبانيشاد» «والفدنتا»[٢]

لم يترك ابو يزيد البسطامي كتبًا او رسائل تتضمن افكاره، وجل ما تركه، كان حكمًا جمعها تلامذته عرفت باسم «الشطحات»، وهي تشمل على فلسفة الاتحاد بالله والحلول الى حد ادعاء الالوهية.

واغرب شطحات البسطامي، والغريب فيها ان يتلفظ بها مسلم في القرن الثالث هجري وينجو من العقاب لكفره[٣] وهي قوله: «لقد غصت في بحر الملكوت (عالم المثل) وفي حجب اللاهوت حتى بلغت الى العرش، فاذا هو

---

* كلمة Vedenta كلمة سنسكريتية وتعني كتب Vedas المقدسة عند الهندوس. واما «الفدنتا» فهي واحدة من شبه مذاهب فلسفية تعني بالخلاص. والمذهب الفيدانتي يقول بنوع من وحدة الوجود وان المعرفة هي طريق الخلاص والسعادة، ومعرفة ان براهما والذات الالهية المطلقة في كل شيء وكل شيء فيه .Religions of the world. page 91.Lewis M. Hopfe

* شنكرا مصلح ديني وصوفي، وُلد في الوقت الذي تمكن المسلمون فيه من اقناع ملك الاقليم الجنوبي في الهند بالدخول في الاسلام. نشأ شنكرا في مقربة من الميناء حيث ترسو السفن القادمة من بلاد الاسلام. نادى بالتوحيد ووحدة الوجود. توفي عام ٨٢٠م.

١. الشطح هو كلمات مستغربة تصدر عن الصوفي في حال وجده وذهوله بمشاهدة جلال الحق.

٢. «تاريخ الفلسفة الاسلامية». ص ٣٣٣.

٣. المصدر نفسه ص ٣٣٤. (بتصرف).

خال. وهكذا القيت بنفسي عليه وقلت «ربي اين اجدك؟» فارتفعت الحجب «فاذا انا هو انا.» نعم «انا هو انا» وعدت الى ما كنت انشد، فاذا هو انا الذي كنت انشد وليس اخر سواي»[١]

ومن شطحات البسطامي، ان احد الناس طرق باب ابي يزيد فقال ابو يزيد: «من تريد؟» فقال: «اريد ان اكلم ابا يزيد البسطامي» فاجاب ابو يزيد: «اذهب ليس في البيت إلاّ الله.»

ومن اقوال ابي يزيد: «رأيت رب العزة في المنام فقلت كيف الطريق اليك؟» فقال: «اترك نفسك وتعال» ويقول: «طلقت الدنيا ثلاثًا وصرت وحدي الى ربي فناديته بالاستغاثة، الهي ومولاي! ادعوك دعاء من لم يبق له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبي مع الاياس مني، كان اول ما اورد علي في الاجابة هذا الدعاء ان انساني نفسي بالكلية.»[٢]

ومن اقوال البسطامي التي تضاهي شطحاته في غموضها وتلقي الشك في صدق اقواله في المعرفة الصوفية، لانها تنميق كلام في التوحيد من خلال نشر الفاظ تخلق حيرة عند المريد لفهم غوامضها وسبر اغوارها. يقول ابو يزيد: «انه عرف الله بالله وعرف من دون الله بنور الله وانه توهم في بداية امره ان يذكر الله ويعرفه بحبه ويطلبه، فلما انتهى رأى ذكره تعالى انه اسبق من ذكر ابي يزيد له تعالى ومعرفته ومحبته اقدم وطلب الله له مكان الاسبق»

ومن اقواله: «ان الليسية[٣] هو مقام توحيد الله «بليس كمثله شيء» ولا اله إلاّ الله. ثم يتلوه مقام الايس بعد الليس، بتوحيد الله بدون لا وليس، والايجاب له من كل شيء، فلا يكون ثمة إلاّ الله، ويكون الفناء في الله، ولا يكون هناك إلاّ هو الواحد الاحد هو مقام الاحدية والديمومية والازلية.»

١- «تاريخ الفلسفة الاسلاميّة». ماجد فخري. ص ٣٣٤. «مناقب البسطامي». ابو علي السهلي ص ١١٦.

٢- «الموسوعة الصوفية». ص ٥٢.

٣- الايس والليس تعابير استعملتها الاسماعيلية. الايس تعني الموجود والليس تعني غير الموجود.

ويندفع لاثبات ربوبيته بقوله: «قولي بأنائيته كقولي بهويته توحيدًا، فصارت صفاتي صفات الربوبية، ولساني لسان التوحيد وصفاتي هي ان هو هو لا اله إلاّ هو، فكان ما كان بكونه مما قد كان، وما يكون بكونه يكون ما يكون. صفاتي صفات الربوبية، واشاراتي اشارات الازلية ولساني لسان التوحيد.»(١)

الواقع ان الحلول والفناء المطلق بحب الله، الذي يؤدي الى وحدة الوجود، هي عقيدة «براهمية» هندية احياها ونشرها الفيلسوف الهندي «شنكارا» الذي قال: «ان الله هو الوجود، والكون الحقيقي كله والله شيء واحد، وان «براهما» الذي يمثله يوجد في كل الاشياء وهو جوهر العالم الخفي الذي لا تحده قيود الزمان.»

وهكذا نجد في فلسفة البراهمية فكرة الاندماج في «براهما» وهو الله، وعنها اخذ الصوفية فلسفة الفناء المطلق الذي صبغ صوفية البسطامي، ثم الحلاّج بفكرة الحلول والفناء بالله تعالى.

وفي الاحوال التي قال بها اهل التصوف، ومنهم ابو يزيد، اثناء مقالتهم في الله تعالى ما يدعونه بالكشف ويعتبرونها الطريق الصحيح الى المعرفة عن طريق القلب، وبذلك يدعون الى معرفة الله مباشرة بدون وسائط لان المولى عزّ وجل، عرّفهم ذاته فهم يعرفون الله بالله وليس بالعقل.

ومن الاوائل الذين قالوا بالفناء والبقاء الصوفي ابو سعيد الخرّاز الذي يقول: «على الفاني ان يتخلى عن كل شيء سوى الله فيتحد فيه ويصير واياه شيئًا واحدًا، فيصح ان يدّعي بعده ان وجوده قد احتوى كل وجود، وانه اتحد بكل شيء، ولهذا يستوي عنده كل شيء في الوجود، وان الله هو الكل في الكل وهو كل شيء.»

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٥٥. نفذات من شطحات البسطامي.

يقول ابو بكر الكلاباذي عن الفناء: «الفناء هو ان تفنى الحظوظ – اي ذهاب الوعي والشعور والادراك – فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز – اي بين عالم الحق وعالم الخلق – وهو فناء عن الاشياء كلها، شغلاً بما فني به، والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محظوظًا فيما الله عليه، مأخوذًا عما له، وعن جميع المخالفات، فلا يكون له اليها سبيل هو العصمة، والبقاء الذي يعقبه، هو أن يفنى عما له ويبقى بالله[1] ويقصد الكلاباذي انه حينما يرتبط الفاني بالخالد، لا يبقى للفاني وجود، فلا يسمع او يرى سوى الله، ولما يبلغ هـذا المقام، يكون، كما يقـول الدكتور أبوالعلا عفيفي، زمانه «الديمومة» ومكانه «اللانهاية» وسماؤه «الهوية» وشجرة منتهاه «الاحدية»[2] ويضيف الدكتور عرفان فتاح: «وهو في هذه الحال أن عرف نفسه فهو هو، وهو متحد به، ولكنه اتحاد عيان ومشاهدة، لا اتحاد أعيان، فشرط الفناء: تلاشي شخصية الإنسان وانعدام شعوره بوجوده ومقتضاه، زوال الحجب المادية، المتمثلة في العالم الحسي، التي تفصل الصوفي السالك عن الله تعالى. فاذا زالت الحجب ودنا من الله تعالى ذهبت أنيته، وذلك هو البقاء الذي ينشده الصوفي بعد فناء وجوده المادي وتحرره من ظلمة الطبع، «المادي».[3]»

يقول البسطامي: للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لانه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره، وغُيِّبت اثاره بآثار غيره «خرجت عن الحق الى الحق حتى صاح مني فيّ: يا من انا انت! فقد تحققت بمقام الفناء في الله.» ثم يقول: «لانني لست الان من كُنته. وفي قولي «أنا» «والحق» إنكار لتوحيد الحق لانني عدم محض لأنه هو الذي يتكلم بلساني، اما انا فقد فنيت[4]»

١– «التصرف لمبدأ اهل التصوف» ص ٩٢.

٢– «اللمع الصوفية» السراج الطوسي ص ٣٨٤. «التصوف والثورة الروحية في الاسلام» ص ٢٢٥.

٣– «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها» عرفان فتاح ص ١٩٥.

٤–« تذكرة الاولياء» فريد الدين العطار ص ١٦٨.

توفي ابو يزيد البسطامي في بغداد عام ٢٦١ هجري.

١٠. سري السقطي

هو سري بن مغلّس السقطي، وكنيته ابو الحسن، وكان خال واستاذ الصوفي الشهير ابي القاسم الجنيد، واستاذ ابراهيم بن محمد النصراباذي شيخ متصوفة خراسان.

كان سري السقطي تلميذ معروف الكرخي وشيخ متصوفة بغداد، ولقّب بامام البغدادين.

ذكره ابو نعيم الاصفهاني في كتابه «حلية الاولياء» بقوله: «ومنهم العلم المنشور، والحكم المذكور، شديد الهوى، حميد السعي، والقلب التقي، والورع الخفي، عن نفسه راحل ولحكم ربه نازل.»(١)

كان سري السقطي تاجرًا له حانوت في سوق بغداد، هجره من تصرف الناس وغشهم وفسادهم والذين اشمأزت نفسه من العلاقة معهم ومن اقواله: «من اراد ان يسلم له دينه ويستريح بدنه ويقل غمه من سماع الكلام الذي يغمه، فليعتزل الناس لان هذا زمان عزلة ووحدة.»(٢) لزم السقطي بيته وكان لا يخرج إلاّ الى المسجد للصلاة.

كان سري السقطي اقرب الى علماء الشريعة والفقهاء من الصوفية. وقيل انه لمدة قصيرة، اعتنق الاعتزال وجاهر به، ولكنه تخلى عنه خوفًا من ا ضطهاد السلطة العباسية وذلك في عهد خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ – ٢٤٧هـ) الذي اضطهد المعتزلة لقولهم بخلق القرآن.

١– «متصوفة بغداد». عزيز السيد جاسم ص ١٥٩.

٢– «الطبقات الكبرى» عبد الوهاب الشعراني «متصوفة بغداد» ص ١٦٠.

عُرف السقطي بنقده الشديد للفقهاء والعلماء ويلومهم على فتنة «خلق القرآن» وكان يقول: «فيا غمّاه من فتنة العلماء واكرباه من حيلة الاولياء.»[١]

قال المؤرخ الصوفي عبد الرحمن السلمي: «كان سري السقطي يؤمن في خمسة اشياء. الخوف من الله وحده، والرجاء في الله وحده، والحق لله وحده، والحياء من الله وحده. وهذه الاشياء الخمسة هي برهان الايمان وحجة العبادة وصدق الطريقة.»[٢]

كان سري السقطي اول من تكلم في عقيدة التوحيد وتطرق الى حقائق الاحوال والمقامات الصوفية. وكان زاهدًا متقشفًا ومن اقواله: «خير الرزق ما سلم من الاثام في الاكتساب، والمذلة في الخضوع في السؤال، والغش في الصناعة ومعاملة الظلم».[٣] قال عنه الامام احمد بن حنبل: «انه الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء.»

«كانت عقيدة السقطي وايمانه بالتصوف مبنيّة على الاخلاق والعبادات وما جاء بالقرآن الكريم وسنة الرسول وبتحكيم العقل والوجدان وحب الله والفناء به، ويقول ان علم الباطن يجب ان يكون بحكم الشريعة الظاهرة، وكل باطن يخالف الظاهر باطل.»

توفي سري السقطي في بغداد عام ٢٥١هـ.

١-«متصوفة بغداد».

٢- «طبقات الصوفية» «متصوفة بغداد» ص ١٦٣.

٣-«الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٢٠٤.

١١. الجنيد بن محمد

هو الجنيد بن محمد الخزّاز وكانت كنيته ابو القاسم، فهو فارسي اصله من مدينة «نهاوند» ولكن ولد في بغداد وعاش فيها حتى توفي عام ٢٩٧هـ. ويقول ابن الجوزي - كتاب صفوة الصفوة - «ان من حضر مأتم الجنيد كانوا اكثر من ستين الف.»

تلقى الجنيد العلم الديني على اكبر علماء بغداد، فاخذ الفقه عن ابي ثور الكلبي، كما اخذ الصوفية عن خاله سري السقطي وعن يد محمد بن علي القصّاب، وصحب الصوفي الكبير الحارث بن اسد المحاسبي، كما سمع الحديث من الحسين بن عرفه. وكان الجنيد على المذهب الشافعي.

قال عن الجنيد، المؤرخ السبكي - كتاب طبقات الشافعية - «هو سيد الطائفة ومقدم الجماعة وامام اهل الخرقة، وشيخ طريقة التصوف، اعلم الاولياء في زمانه وبهلوان العارفين.» اما المؤرخ العراقي العزيز السيد جاسم فيقول: «وقد كان شيخ الطريقة، وامام مدرسة بغداد واستاذها بجدارة، المتصوف، الزاهد، العابد، الحليم، المطّلع، العالم. فكان تصوفه رياضة العقل، والروح والجسد واياسًا من كل شيء خلا الله»(١)

ويقول الدكتور محمد جلال شرف: «اصبح اسم الجنيد عنوانًا لمدرسة بغداد، فلم تحظ شخصية صوفية باهتمام المؤرخين كما حظيت شخصية الجنيد، فهو الجامع بين الحقيقة والشريعة، والواضع للمريدين اصول الطريقة ومعيار صدق هذا كله؛ اذا قيل مدرسة بغداد، فانما يقصد بها مدرسة الجنيد.»(٢)

١- «متصوفة بغداد». ص ٢٠١.

٢- «دراسات في التصوف الاسلامي».

ترك الجنيد تراثًا كبيرًا من مؤلفات ورسائل تشمل تفاسير وتحاليل للحياة الروحية في ذلك الوقت منها كتاب «التوحيد» وكتاب «الفناء» وكتاب «اداب المفتقر الى الله» وغيرها. ولكن لسوء الحظ، فقد معظمها في الاجتياح المغولي لبغداد عام ٦٥٦هـ، حيث احرقوا المكتبات، بما فيها، مكتبة الخليفة المأمون بن الرشيد المشهورة التي كانت مملوءَةً بكتب علوم الدين والفلسفة اليونانية، والمعتزلة.

ابرز نظريات ابي القاسم الجنيد، هي عقيدة التوحيد الروحاني باعتبارها اساس الاتحاد الصوفي. فالتوحيد، بالنسبة للجنيد، ليس برهانًا على وحدة الموجود الالهي بواسطة الجدل العقلي، كما يفهمه اصحاب فلسفة الكلام، انما هو احياء لوحدة الله التي هي روحانية صادقة.

عاش الجنيد في اواخر عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله (٢٢٢ - ٢٤٧هـ) اي في اواخر الفتنة بخلق القرآن واضطهاد المعتزلة، فواجه اقطاب الفتنة بالحكمة والروية، فتمكن من حماية الصوفيين من التنكيل ومضايقات الحنابلة والأشعرية واهل الحديث، بما أوتي من الرصانة والحلم واحترام العامة له، وان يصمت ثائرة المستنكرين والغوغاء للتصوف، وكذلك تمكن ان يدفع الصوفية الى صفوف الشعب واصبحت المساجد، لأول مرة، منابر للدعوة الصوفية، وصار للتصوف حضوره البارز في الحلقات والتجمعات في البيوت والشوارع.

كان الجنيد يتمسك بالقرآن والسنة روحًا ونصًا فنراه يقول: «ان من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيّد بالكتاب والسنة». وقال: «الطريق الى اللّه مسدود على خلق اللّه، عز وجل. إلاّ على المقتفين آثار رسول اللّه والتابعين لسنته.» كما قال جلّ قدره «لقد كان لكم في رسول اللّه اسوة حسنة».

يقول الدكتور عبد المنعم الحفني: من اقوال الجنيد «واعلم خلق اللّه اشدهم اقرارًا بالعجز عن ادراك عظمته او تكشف ذاته، لمعرفتهم عن عجزهم عن ادراك من لا شيء مثله، اذ هو القديم وسواه محدث، وهو الأزلي وغيره المبدأ، وهو الاله وغيره مألوه، فسبحانه الأول بغير بداية والباقي الى غير نهاية، ولا يستحق هذا الوصل غيره ولا يليق بسواه.»(١)

جعل الجنيد من التصوف علمًا، ودراسة، وتربية، وتأملاً وفي وقت كثر فيه حملة الخرقة، واصبح التصوف بدعة مستلذة، اعطى الجنيد علمه للتصوف فصار – على يديه – علمًا لم يجد اشرف منه.(٢)

وقال الجنيد: «ما اخرج اللّه الى الأرض علمًا وجعل للخلق اليه سبيلاً، إلاّ وقد جعل لي فيه حظًا ونصيبًا. ولو علمت ان للّه علمًا تحت اديم السماء أشرف من هذا العلم – التصوف – الذي نتكلم فيه مع اصحابنا واخواننا، لسعيت اليه وقصدته.(٣)»

ومن اقوال الجنيد: «ما اخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع اللّه تعالى وأصله التعزّف عن الدنيا.»(٤)

كان الجنيد يؤمن بوحدة الشهود ويستنكر وحدة الوجود فيقول: متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير؟ هيهات هذا ظن

١– «الموسوعة الصوفية» ص ١٠٨، عبد المنعم الحفني.

٢– «متصوفة بغداد». ص ٢٠١.

٣– «تاريخ بغداد». الخطيب البغدادي مجلد ٧.

٤– «متصوفة بغداد». ص ٢٠٢.

هيهات هذا ظن عجيب.[1]» من هذه العبارة نلمس استنكار الجنيد لفكرة الاتحاد بالله او الحلول، او حتى فكرة وحدة الوجود.

سئل الجنيد: من العارف؟ فقال: «من نطق عن سرّك وأنت ساكت.»[2]

ومن أقوال الجنيد: «الطرق كلّها مسدودة على الخلق، إلاّ من اقتضى أثر الرسول، «صلعم» واتبع سنته، ولزم طريقته، فإن طُرق الخيرات كلها مفتوحة عليه.»[3]

وقال: «الوقت إذا فات لا يُستدرك. وليس شيء اعزّ من الوقت»[4]

بدأ الجنيد حياته عابدًا تقيًا وفارق الحياة وهو غارق بالعبادة والزهد وقد توفي في شهر شوال عام ٢٩٧هـ.

١٢. ابن العربي

أبو سعيد أحمد بن محمد زياد ابن بشر المعروف باسم ابن العربي. ولد ابن العربي عام ٢٤٧ هـ في مدينة البصرة ومنها سار إلى مكّة حيث عاش فيها حتى توفي عام ٣٤١هـ، وكان تلميذ أبي القاسم الجنيد بن محمد والتحق عند زيارته بغداد بالصوفي عمر المكّي.

كان ابن العربي من أصحاب الحديث كما اشتهر في تضلعه في علم التصوّف. كان مجلسه في مكة يضمّ العديد من أهل التصوّف حيث أخذوا عنه الكثير من علوم الدين والفقه بالاضافة إلى التصوّف.

قال عمر المكي في كتابه «قوت القلوب» ان ما كتبه ابن العربي عن الجنيد بن محمد في كتابه «طبقات النسّاك» لا يمكن ان يضاهى وهو خير مَن كتب.

١- «دراسات في التصوف الاسلامي». د. محمد جلال شرف.
٢- «الرسالة القشيرية». ص ٤٣١.
٣- «الصوفيون وارباب الاحوال». ص ٦
٤- المصدر نفسه ص ٦٠.

١٣- الخلدي

أبو محمد جعفر بن نصير بن القاسم الخواص البغدادي الخلدي نسبة إلى محلة الخلد في بغداد.

وُلد الخلدي عام ٢٥٢ هـ في بغداد وتوفي فيها عام ٣٤٨ هـ، وكان من أصحاب الحديث، وأخذ التصوّف على يد الجنيد بن محمد وكتب عنه وعن السقطي في كتابه المعروف «حكايات الأولياء» الذي لم يصلنا منه إلاّ فقرات في كتب التصوّف والتاريخ الاسلامي، وقيل انه كان معتزليًا.

١٤. ابو سعيد الخراز

احمد بن عيسى الخرّاز وكنيته ابو سعيد وهو من متصوفة بغداد. قيل عنه: «كان من جلة المتصوفة، زاهدًا متقشفًا، يعيش من عمله في شغل الخرازة، صحب ذا النون المصري وسريًا السقطي وبشر ابن الحارث بن اسد المحاسبي.[١]

«كان الخرّاز اول من تكلم في علم الفناء والبقاء وبوحدة الباطن والظاهر، وان الشريعة ومبادئها اساس ايمان ومعرفة الصوفي. والمعرفة فيض من العلم والحكمة يفيضها الخالق الى المخلوق، كما انها كسبية تأتي ببذل المجهود والمثابرة على العلم وعبادة اللّه تعالى.»

ومن اقوال ابو سعيد الخرّاز: «العبد الذي يسلك لطريق وينجح في ان يفني جهله فانه يبقى بعلمه، والذي يفنى عن المعصية يبقى بالطاعة، والذي يفنى عن الغفلة يبقى بالذكر، وعلى الجملة فان الفناء هو فناء عن الأوصاف المذمومة، والبقاء هو بقاء بالصفات المحمودة، فلا بقاء بقاء تامًا خالصًا إلاّ باللّه وحده، حيث لا عارف ولا معروف، ولا مقامات ولا احوال، اوائل الطريق الى اللّه التوبة»[٢]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٣٧، عبد المنعم الحفني.

٢- ا«لموسوعة الصوفية». عبد المنعم الحفني ص ١٣٧.

ويقول: «كل ما فاتك من اللّه سوى اللّه يسير، وكل حظ لك سوى اللّه قليل. والمحب يتعلّل الى محبوبه بكل شيء ولا يتسلّى عنه بشيء، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره.»(١)

أما عن الباطن والظاهر فيقول: «الباطن يعرّفه صنع الصانع من المصنوع، ولسان الظاهر يكلم جسمه ولسان الباطن يناجي روحه، والله تعالى جعل العلم دليلاً عليه ليعرف، وجعل الحكمة رحمة منه عليهم ليؤلف، فالعلم دليل الى الله والمعرفة دالة على الله، وبالعلم تنال المعلومات، وبالمعرفة تنال المعروفات، والعلم بالتعلم والمعرفة بالتعرف، والمعرفة تقع بتعريف الحق، والعلم يدرك بتعريف الخلق.»(٢)

وفي وصفه للصوفي يقول: «ينبغي للصوفي ان يكون لطيف اللبسة، ملازمًا للخلوة، حسن الصيانة، فلا يطلب إلاّ عند وجود الفاقات، وإلاّ فهو والكذابون سواء»(٣)

توفي ابو سعيد الخرّاز في بغداد عام ٢٧٧ هجري.

١٥. عمرو المكي.

عمرو بن عثمان المكي وكنيته ابو عبد الله، كان شيخ المتصوفة وامامهم في بغداد، صحب ابا سعيد الخرّاز واخذ عنه علم التصوف الحسين بن منصور الحلاّج.

كان عمرو المكي زاهدًا متقشفًا عالمًا في اصول علوم الدين وثقة في علم الاصول والطريقة.

١- المصدر نفسه ص ١٣٨.
٢- «الموسوعة الصوفية» الدكتور عبد المنعم الحفني ص ١٣٨.
٣- المصدر نفسه ص ١٣٩.

من اقواله: «كل ما تخيله قلبك او سنح في مجاري فكرتك، او خطر في معارضات قلبك، من حسن او بهاء او انس او جمال او ضياء او شبح او نور او شخص او خيال، فالله تعالى بعيد من ذلك»(١)

هذا القول يطابق ما قاله اهل الاعتزال في ان التوحيد هو نفي الصفات عن الله تعالى، فسبحانه تعالى منزّه عن الشبيه والنظير، «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»(٢)

ومن اقوال المكي: «العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حرون بين ذلك، جموع خدّاعة روّاغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، واسقها بتهديد الخوف يتم لك ما تريد.»(٣)

توفي عمرو المكي في بغداد عام ٢٩١ هجري.

١٦. الحسين بن منصور الحلاّج

هو ابو مغيث الحسين بن منصور بن محمد البيضاوي، نسبة الى مدينة البيضاء من فارس، التي كانت معسكرًا على الطريق الممتد بين البصرة وخراسان. ولقّب بالحلاّج لانه عمل في حلج الصوف عند صاحب حانوت في مدينة واسط.

ولد الحلاّج، الحسين بن منصور عام ٢٤٤هـ في بلدة «الطور» في شمال مدينة البيضاء، التي ولد بها النحوي الكبير عمر بن عثمان الملقب بسيبويه، ثم انتقل الى واسط* وهي مدينة عربية. في ذلك الوقت، كان معظم أهلها من السنّة على مذهب الامام أحمد بن حنبل، مع وجود اقلية من غلاة الشيعة.

١- «الرسالة القشيرية» ص ٤٣٤.

٢- سورة الشورى الآية ١١.

٣- «الرسالة القشيرية» ص ٤٣٥.

كان الحسين بن منصور من اصل فارسي وكان جده زرادشتيا اعتنق الاسلام.

درس الحلاّج علوم الدين واللغة في مدرسة «واسط» وقيل انه حفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة. وفي واسط التحق بالصوفي سهل التستري واخذ عنه علم التصوف. ومن واسط سار الى البصرة حيث تلقى خرقة الصوفية عن يد الصوفي عمرو بن عثمان المكي، الذي صار امام المتصوفة في بغداد، ثم درس عن يد ابو بكر الشبلي، وابو القاسم الجنيد، بذلك يكون الحلاّج اخذ العلم عن اربعة من اشهر الاعلام اطلاقًا في تاريخ التصوف الاسلامي. المعروف ان الحلاّج بقي مرافقًا ابا قاسم الجنيد مدة عشرين عامًا، ثم انفصل الجنيد عنه خائفًا من غلّوه وغرابة اطواره.

وفي البصرة تزوج الحلاّج من ام الحسين بنت ابي يعقوب الاقطع البصري و لم يتزوج غيرها واستمر زواجهما موفقًا حتى النهاية واثمر ثلاثة ابناء، سليمان، حمد ومنصور وبنتًا واحدة. وكان يكفل لهؤلاء معاشهم صهره وهو كرنبائي، والكرنبائيون موالو بني مجاشع يدينون بالولاء للزيديين ويعتبرون من غلاة الشيعة، فالتحق بهم الحلاّج، بالرغم من كونه على مذهب السنة، فاتهم بالتشيع لآل البيت وسجن ولكن لمدة قصيرة.

كان زواج الحلاّج من ابنة ابي يعقوب الاقطع، الذي كان من اثرياء البصرة، سبب نفور وعداء استاذه عمرو بن عثمان المكي لعدم رضاه عن هذا الزواج. ولما استمرت الخصومة بين شيخه المكي ووالد زوجته ابن يعقوب الاقطع، ذهب الحلاّج الى استاذه الجنيد وطلب منه المساعدة لانهاء هذا الخلاف، فامره الجنيد بالسكون وترك الامور تجري على طبيعتها.

---

* قيل إن عامل البيضاء، عمرو بن الليث الصفّار قتل والد الحلاّج بسبب رفضه دفع ضرائب اعتبرها مجحفةً بحقه فنزحت عائلة الحلاّج الى واسط.

فتنة الزنج والقضاء عليها بقسوة متناهية اكدت للحلاج «ان وحدة الامة الاسلامية لا يمكن ان تتم عن طريق الحرب الدنيوية، ولكن عن طريق الصلوات والتضحيات في حياة الزهد والمجاهدة»(١)

من البصرة سار الى مكة في حجته الاولى، حيث مكث سنة في حالة صوم وصمت دائمين، مثلما فعلت مريم بنت عمران. «فقولي اني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم انسيًا»(٢)

يقول ابو يعقوب النهر جوري: «وجلس في صحن المسجد سنة لم يبرح عن موضعه إلاّ للطهارة والطواف، و لم يحترز من الشمس ولا من المطر، وكان يحمل اليه في كل عشية كوز ماء، وقرص من اقراص مكة، وكان عند الصباح يُرى القرص على رأس الكوز وقد عض منه ثلاث عضات او أربعًا فيحمل من عنده»(٣)

عندما رجع الحلاّج من مكة الى بغداد حيث لازم الجنيد بن محمد الذي وبخه على ادعائه بانه الله واغفاله الكتاب الكريم واداء الفرائض. لم يمكث الحلاّج مدة طويلة من بغداد بل سار الى الاهواز ونبذ الخرقة الصوفية(٤) التي كان البسه اياها استاذه عمرو المكي، وارتدى لبس الفقهاء كيما يتكلم بحرية مع المفكرين وعامة الشعب، واتبع خطة الوعظ والارشاد واختلط بشتى طبقات الناس وصار له اتباع ومريدون كثيرون مما اثار حسد وكراهية بعض شيوخ الصوفية والفقهاء ومنهم استاذه عمرو المكي.

١- «شخصيات قلقة في الاسلام»، عبد الرحمن بدوي ص ٦٥.
٢- سورة مريم الآية ٢٦.
٣- «تاريخ بغداد» مجلد ٨ ص ١٢٤.
٤- «الخرقة الصوفية» كانت رداء من الصوف الازرق او الابيض تعطى للصوفي عند اعتناقه التصوف.

يقول المستشرق ماسينيون: «كان الحلاّج يحرك الجماهير وينادي بالاصلاح، ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التي تقيم الشريعة على نغمات المحبة الخالصة لله»[١]

خلال وجوده في الاهواز واشمئزازه من عداء وتهجم بعض شيوخ الصوفية عليه قال مستهدفًا الاتهام والاحقاد: «اذا استولى الحق على قلب اخلاه عن غيره، واذا لازم احدًا افناه عن سواه، واذا احب عبدًا حث عباده بالعداوة عليه، حتى يتقرب العبد مقبلا عليه.»[٢]

يقول الدكتور ماجد فخري عن تصرف الحلاّج في هذه الحقبة من الزمن: «بدأ الحلاّج يتحول عن النظام الصوفي المعروف فقد فارق حياة العزلة التي غلبت على ابناء الطرق، ورسم لنفسه خطة من الوعظ والارشاد في المجتمع، كانت محفوفة بالمحاذير. فقد اختلط بشتى طبقات الناس، من فلاسفة نظير الرازي، الى امراء امثال امير «طالقان»، واقرّ بانواع من العقائد حيّرت معاصريه، وزادت في صفوف خصومه.»[٣]

عاد الى مكة حاجًا مرة ثانية مع جمع كبير من تلاميذه، قيل اربعمائة تلميذ، واتهم باعمال الشعوذة والسحر لخلوته في جبل ابي قبيس وانقطاعه عن الناس واطلاقه اقوالاً في الدين اعتبرت مخالفة للدين الاسلامي. اخذ بعض رجال الدين يحرضون الناس عليه لطرده من مكة.

عاد الحلاّج الى الاهواز ومنها سافر الى الهند وملتان من بلاد السند*وكشمير مع قوافل من الاهواز كانوا يحملون بضائع من النسيج «التستري» المشهور.

١- «اخبار الحلاّج». ماسينيون وباول كروس.

٢- المصدر نفسه ص ٣٦.

٣- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٣٣٥.

* ملتان مدينة بالسند، كانت تدعى مدينة الصنم، ارسل الداعي الاسماعيلي في اليمن، ابن حوش الكوفي، المعروف بمنصور اليمن، ابن اخيه «هيثم» الذي نشر بها الدعوة الاسماعيلية.

رجع من الهند وسار في عام ٢٩٠هـ، للمرة الثالثة والاخيرة الى مكة، وثم عاد الى بغداد حيث اقام في منزله مسجدًا صغيرًا دعاه «الكعبة» واخذ يذهب في الليل الى مدافن بغداد ويصلّي عند قبر الامام احمد بن حنبل، وفي النهار يجوب في طرقات بغداد إما واعظًا او مناديا باعلى صوته: «يا اهل الاسلام، اغيثوني فليس يتركني (اي الله) ونفسي فآنس بها، وليس يأخذني من نفسي فاستريح منها، وهذا دلال لا اطيقه.»[١]

وكان عندما يزور جامع المنصور ينادي: «اعلموا ان الله تعالى اباح لكم دمي، فاقتلوني تؤجروا واسترح، فتكونوا انتم مجاهدين وانا شهيد.»[٢]

هذا التصرف الشاذ والايمان في علاقته المباشرة بالله، والربط الشخصي بين «انا وانت» التي اطلق عليها الحلاّج اسم «عين الجمع» حيث يقرر ان الله في غضونها يتخلل جميع افعال المتصوف وافكاره وآماله. هذا التصرف برز بعد رجوعه من مكة اذ يبدو اعتقاده الراسخ في شعوره بالاتحاد بالله.

منذ حداثته كان الحلاّج يبحث عن المعنى والطريق الذي يرفع دعاء الروح الى الله، ولهذا نجد الاراء التي اعتنقها ونادى بها كانت العشق الالهي، عقيدة الحلول والاتحاد. المعروف ان هذه الاراء كان يقول بها ابو يزيد البسطامي الذي استقاها عن استاذه ابو علي السندي الذي بدوره اخذها عن البراهمة الهنود.

كما ورد سابقًا، اختلط الحلاّج في بغداد بشتى انواع البشر، فكان رفيق الفيلسوف محمد زكريا الرازي، والامام الاسماعيلي المستتر حسين بن عبد الله الملقب بالاهوازي، وهو والد الخليفة الفاطمي الاول، عبيد الله المهدي، وقيل انه عرف الزعيم القرمطي أبا طاهر سليمان الجنابي الذي هاجم مكة وقتل

١-«شخصيات قلقه في الاسلام» عبد الرحمن بدوي ص ٦٩.

٢- المصدر نفسه ص ٦٩.

الالاف من المسلمين، ويقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: «ان الحلاج انضم في بعض مراحل نشاطه، الى الدعوة الشيعية او العلوية مما اثار عليه نقمة غلاة السنة واصحاب السلطة العباسيين.»(١)

كان الحلاّج يقول: «ان غاية التصوف الروحي انما هي الفناء عن انفسهم والبقاء في الله، واتحاد العبد بالمعبود. وان الحقيقة الالهية هي الاصل وكل طرق الوصول اليها مشروعة وواجبة، وان فكر الصوفي ينطوي على سعة روحانية واحتضان لظواهر الايمان.»

وشطحات ابو الحسين الحلاّج كانت تعبيرًا عن الاتصال المطلق بالله والارتماء في الابدية، وكانت روحه مليئة بفيض العشق الالهي، ومن شطحاته قوله «انا الحق وانا الخلق»، «وما في الجبة إلاّ الله، اي انا الله.»(٢)

وفي احدى دعواته يقول: «انا بما وجدت من روائح نسيم حبك (الخطاب لله) وعواطر قربك، استحقر الراسيات، واستخف الارضين والسموات. وبحقك لو بعت في الجنة بلمحة من وقتي، او لطرفة من أحر أنفاسي لما اشتريتها. ولو عرضت عليّ النار بما فيها من الوان عذابك لاستهونتها في مقابلة ما انا فيه من حال استتارك مني، فأعف عن الخلق ولا تعف عني، وارحمهم ولا ترحمني، فلا اخاصمك لنفسي، ولا اسألك بحقي.»(٣)

ويقول في كتاب الطواسين:* «رأيت ربي بعين قلب، فقلت من أنت؟ فقال، أنت»(٤)

١- «La passion d'al - Halaj». p. 76.

٢- «شخصيات قلقة في الاسلام» ص ٧٠، عبد الرحمن بدوي.

٣- «شخصيات قلقة في الاسلام» ص ٧٠ (اخبار الحلاّج رقم ٤٤)

* الطواسين هو لقب اهل البيت. «السهروردي المقتول». يوسف الشيبي. حاشية رقم ٢ ص ٢١.

٤- ماسينيون «شخصيات قلقة في الاسلام». عبد الرحمن بدوي ص ٧٠.

وفي طاسين الفهم: «لا تصح هذه المعاني للمتواني ولا الفاني ولا الجاني ولا لمن يطلب الأماني. كأني كأني، او كأني هو او هو أني، لا يروعني أن كنت أني.»[1]

وفي طاسين الصفاء: «فالحقيقة حقيقة، والخليقة خليقة، دع الخليقة، لتكون أنت هو، وهو أنت، من حيث الحقيقة.»[2]

ويقول: «وقلت انا: ان لم تعرفوه، فاعرفوا أثره، وانا ذلك الاثر، وانا الحق، لاني ما زلت ابدًا بالحق حقًا.»[3]

ومن اشعاره في الحلول والاتحاد:

ذكـره ذكـري وذكـري ذكـره   هـل يكون الذاكران إلاّ معـا؟

ثم يقول:لي حبيب حبه وسط الحشا   لو يشا يمشي على قلبي مشا

روحه روحي وروحـي روحـــه   ان يشا شئت وان شئت يشا[4]

ويقول:

انا من اهـوى ومن اهـوى انا   نحن روحان حلـلنا بـدنا

فـاذا ابصرتنـي ابصرتـه   واذا ابصرتـه ابصرتنـا

روحه روحي وروحي روحه   من رأى روحين حلّت بدنا؟[5]

ومن اقواله:

عجبت منك ومني   يا منية المتمني

ادنيتني منك حتى   ظننت انك اني[6]

١- «ديوان الحلاج» تحقيق كامل مصطفى الشيبي ص ١١٢.
٢- المصدر نفسه ص ١٢٥.
٣ -المصدر نفسه ص ١٣٧.
٤- «ديوان الحلاج» كامل مصطفى الشيبي ص ٦٣.
٥ - المصدر نفسه ص٦٣.
٦- المصدر نفسه ص ٣٢.

وفي محاورة قلبية مع الله:

رأيت ربي بعين قلبي فقلت من أنت؟ قال: أنت
فليس لأني منك أين وليس أين بحيث أنت
ففي بقائي ولا بقائي وفي فنائي وجدت أنت
وفي محو اسمي ورسم جسمي
سألت عنّي فقلت أنت.[1]

ومن قوله:

مازجت روحك روحي في دُنوّي وبعادي
فانا انت كما انك اني ومرادي

اثارت اقوال ابو الحسين الحلاج غضب فقهاء وغلاة السنة، حتى المتصوفة منهم، واخذ بعضهم يطلب محاكمته بتهمة الالحاد ونبذ الفرائض والادعاء بالربوبية.

كان الفقيه القاضي محمد بن داود الاصفهاني يكره الحلاّج لادعائه الاتحاد بالله ونبذه الفرائض الاسلامية وانتقاده القاسي للفقهاء ورجال الدين وقوله «انا الحق وانا الخلق» الذي يعتبر كفرًا، فرفع امر الحلاّج الى المحكمة طالبًا الحكم عليه بالقتل. ولكن القاضي الشافعي ابن سريج، عارض ذلك بقوله «ان الاتهام الصوفي لا يدخل في اختصاص المحاكم الشرعية، مما انقذ الحلاج[2]

وفي عام ٢٩٦هـ قامت بين العلماء والفقهاء فكرة اقامة حكومة اسلامية تعتمد الشريعة للحكم بالعدل بين الناس، واشترك الحلاّج بهذه الحركة الاصلاحية بالرغم من غضب السلطة عليه واتهامه بالالحاد.

١- المصدر نفسه ص ٥٠.

٢- «ديوان الحلاّج» كامل مصطفى الشيبي ص ٥٠.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «انفجرت المؤامرات الاصلاحية، التي دبرها اهل السنة الداعون الى الاصلاح واقاموا خلافة «حنبلية بربهارية» استمرت يومًا واحدًا، هي خلافة ابن المعتز، لكنها اخفقت لانها لم تستطع الحصول على الاموال من الممولين اليهود في القصر اذا كانوا متواطئين مع عمّال الخراج الشيعة من خصوم الحكم الوراثي، فاعيدت الخلافة الى المقتدر،* وكان غلامًا صغيرًا، مع وزير جديد ماهر في الخراج ومن الشيعة هو ابن الفرات»[1]

هرب ابو الحسين الحلاّج وصهره الكرنبائي الى بلدة «سوس» في الاهواز، وبعد ثلاث سنوات قبض عليه حامد، عامل واسط وارسله الى بغداد حيث سجن لمدة تسع سنوات قبل إعدامه.

اجل الوزير ابن الفرات محاكمة الحلاّج خوفًا من الاميرة «شغب» والدة الخليفة المقتدر بالله التي كانت تكن المودة للحلاّج وتحميه من اعدائه وكانت صاحبة نفوذ واسع في القصر.

كانت التّهم المسوقة ضدّ الحلاّج ادعاء الالوهية، الحلول والاتحاد بالله، المناداة باعفاء المسلمين من الفرائض التي ينص عليها القرآن والتحريض على العصيان على السلطة الحاكمة والتهجم على رجال السلطة والدين.

خلال سجنه في بغداد كتب الحلاّج كتاب الطواسين الذي قام بنشره المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون في منتصف القرن الحالي، وهذا الكتاب يحتوي على اقوال في التصوف والمعرفة الدينية.

* المقتدر بالله ابو الفضل جعفر بن المعتضد (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)

١ - «شخصيات قلقة في الاسلام» ص ٧١، عبد الرحمن بدوي.

الطواسين هي: طسن الفهم، الصفاء، الدائرة، التنزيه، النقطة، السراج، المشيئة، التوحيد، وطسن الازل والالتباس، وهي كلها رموز، واشارات وتفسيرات عن معاني اقوال التصوف، وحقائق الايمان وحقيقة وجود الله تعالى.

تمكن الفقهاء ورجال الدين من حمل فقيه بغداد الكبير، ابن داود الاصفهاني على اباحة دم الحلاّج، «وشكلت المحكة من قاضي القضاة المالكي ابي عمر الحمّادي رئيسًا وابي جعفر البهلول وابي الحسين الاستاني، القاضيين الحنفيين بالرصافة والكرخ من بغداد، عضوين. ولم يحضر الجلسة احد من الشافعية ولا من الحنابلة الذين كانوا خصوم الدولة وانصار الحلاّج.»[١]

وفي الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٣٠٩هـ، بباب خراسان في بغداد، امام جمع غفير، ضرب الحلاّج الف سوط وقطعت يداه ورجلاه وعلق على الصليب ثم احرقت جثته ورمي رمادها في نهر دجلة. وكان آخر ما قاله: «إلهي! اذا تتود الى من يؤذيك فكيف لم تتود الى من يؤذي فيك.[٢] كما قيل انه قال: «حب الواجد افراد الواحد له.»[٣]

شهاب الدين السهروردي وابن سبعين نفيا الشبهات والتهم عن الحلاّج وقالا انه ولي وشفيع مؤمن بالتوحيد الكلي الذي يتجاوز نطاق الاسلام. وكثيرون من اهل الفكر والمعرفة كالغزالي، الشافعي، الاشعري، والشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي تأملوا من تضحيته في سبيل كل الناس فرأوا فيه قطبًا روحيا يجذب الاسلام الى الواحدة النهائية، فتحول الحلاّج الى قديس وشهيد وانتشر صيته في العالم الاسلامي.

١- الحلاج، «الديوان وكتاب الطواسين». كامل مصطفى الشيبي ص ١٨.
٢- «شهيد الصوفية في الاسلام» ماسينيون ص ٧٨.
٣- «الموسوعة الصوفية» ص ١٣١، عبد المنعم الحفني.

وقيل ان مؤلفاته بلغت ثمانية واربعين كتابًا ضاعت جميعها إلاّ كتاب «طاسين الازل والالتباس في صحة الدعاوى بعكس المعاني» الذي حفظه من الفناء صديق الحلاّج، ابن عطاء.

١٧. احمد الانطاكي

هو احمد بن عاصم الانطاكي وكنيته ابو عبد الله. كان الانطاكي من المتصوفة الذين تأثروا بافكار بشر الحافي وسري السقطي والحارث بن اسد المحاسبي، ولهذا يتناول في اقواله، المراقبة والمحاسبة ويطلق على اهل التصوف لقب اهل الصدق وعلى التصوف علم معاملات القلوب.

ومن اقوال الانطاكي: «الحكم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من اصحاب النفوس الحية الى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة اهل الذكر من اهل العقول ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون في مواطن الخلوات»(١)

وكان الانطاكي شديد التشاؤم في نظرته الى الناس فكان يقول: «ادركت من الازمنة زمانًا عاد الاسلام فيه غريبًا كما بدأ، وعاد وصف الحق فيه غريبًا كما بدأ، وان نزعت فيه الى غلام وجدته مفتونًا بالدنيا، يحب التعظيم والرئاسة، ويأكل الدنيا بعلمه ويقول، انا اولى بها من غيري. وان ترغب فيه الى عابد، تجده مفتونًا جاهلاً في عبادته مخدوعًا لنفسه ولإبليس»(٢)

ثم يقول: «كفى بالعبد عارًا ان يدعي دعوة ثم لا يحققها بفعله»(٣)
توفي احمد الإنطاكي عام ٢٣٩ هـ.

١- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٢٨.
٢- المصدر نفسه ص ٢٩.
٣- المصدر نفسه ص ٢٩.

١٨. ابو بكر الشبلي.

هو دلف بن جحدر الشبلي، ويقال جعفر بن يونس، وكنيته ابو بكر. وُلد الشبلي عام ٢٤٧هـ في مدينة سامرّاء (سرّ من رأى)، وكان اصله من قرية «شبلة» من خراسان ولهذا سمّي بالشبلي.

كان الشبلي من نبلاء الاتراك وعمل ابوه مساعدًا في بلاط الخليفة العباسي المتوكل على الله ابن المعتصم (٢٣٢ – ٢٤٧هـ) الذي اضطهد المعتزلة وتمكن، بمساعدة الامام احمد بن حنبل، من تحجيم وجودهم وانهاء نفوذهم، وكان خاله امير الاسكندرية حيث درس الشبلي الفقه المالكي.

ترك الاسكندرية وقدم الى مدينة «دنباوند» في رستاق الري، حيث عمل واليًا ولكنه تخلى عن عمله وقدم بغداد عام ٣٢٢هـ حيث اخذ التصوف عن يد الصوفي خير النسّاج. وصحب الجنيد بن محمد، شيخ متصوفة بغداد، وغيره من اهل التصوف.

كان الجنيد يقول: «لا تنظروا الى ابي بكر بالعين التي ينظر بعضكم الى بعض، فأنه عين من عيون الله عزّ وجل»[١]

كان الشبلي زاهدًا متقشفًا تخلى عمّا ملكت يداه من المتاع والمجد، وكان من عائلة ثرية ونبيلة، واخذ التصوف وتقشفه من ارفع غاياته وهو الحب والشوق الى الله والكشف عن المعرفة الحقيقية والفناء في حب المولى تعالى وتوحيده، عز وجل.

قال الشبلي عن التصوف: «هو ترويح القلوب، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلي بالسخاء والبشر في اللقاء، وهو العصمة عن رؤية الكون وذلك باستغراق التأمل في الله.»[٢] ومن اقواله: «التصوف بدوءه معرفة الله ونهايته

١– «متصوفة بغداد». عزيز السيد جاسم. ص ٢٧٦.

٢– «تاريخ بغداد» الخطيب البغدادي مجلد ١٤ (متصوفة بغداد، عزيز جاسم ص ٢٧٨)

توحيده. وهو ترويح للقلوب بمراوح الصفاء، وتحليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلق بالسخاء والبشر في اللقاء.»[١]

كان للشبلي شطحات كشطحات ابي يزيد البسطامي والحلاج كقوله: «انا الوقت ووقتي عزيز وليس في الوقت غيري وانا محق.» والمعنى الذي يقصده: «انه الدهر والدهر هو الله، فليس يوجد سواه، وهو الباقي يفنى فيه»[٢]

ومن شطحاته: «انا قطب الغوث، قائم الزمان، انا اقول وانا اسمع، فهل في الدارين غيري!.»[٣]

وقال: «اذا حل شهر رمضان هذا شهر عظّمه ربي، فانا اول من يعظّمه من الناس.»

وكان الشبلي شاعرًا له ديوان «ديوان ابي بكر شبلي» جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيبي. معظم شعر الشبلي في حب الله تعالى.

لقب الشبلي بالسكران، لانه كان يحث الناس على السكرة الروحية التي رأى فيها الخلاص من ربقة الدنيا والصعود الى سموات الانتماء.[٤] ويقول: «فالسكر هو طريق الى المعرفة بالله، والانتساب الى اللاهوتية، وهو زاد رحلة الوجد الكبرى التي تستغرق عمر الصوفي.[٥]

دخل مستشفى الامراض العقلية مرات عدّة وكان يقول لزائريه: «قوم اصحاء، جئتم الى مجنون، أي فائدة لكم؟ ادخلت المارستان واسقيت من الدواء فلم ازدد الا جنونًا».

١- «الموسوعة الصوفية ص ٢٣٧».
٢- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٢٤٠.
٣- الموسوعة الصوفية ص ٢٤٠.
٤- «متصوفة بغداد». عبد المنعم الحفني، عزيز جاسم ص ٢٨٠.
٥-« الموسوعة الصوفية ص ٢٤٠»، عبد المنعم الحفني.

وكان يردد، انه والحلاّج شيء واحد، فانقذه جنونه واهلك الحلاّج عقله. يرى بعض المؤرخين ان اصحاب ابي بكر الشبلي ادعوا بجنونه وادخاله المارستان لانقاذه من الاعدام مصير صاحبه الحلاّج.

توفي ابو بكر الشبلي في بغداد عام ٣٤٤هـ ودفن في مقبرة الخيزران.

١٩. ابو الحسين النوري.

هو احمد بن محمد النوري، كنيته ابو الحسين، ويلقب بابن البغوي، نسبة الى قرية يقال لها، «بغشور» من فارس. قال عنه ابو عبد الرحمن السّلمي*: «هو من اجلّ مشايخ القوم وعلمائهم، و لم يكن في بلده احسن طريقة منه، ولا الطف كلامًا.»(١)

وُلد ابو الحسين النوري ونشأ في بغداد، حيث صحب سري السقطي، وابن ابي الحواري وغيرهما من مشايخ الصوفية، وتوفي فيها عام ٢٩٥هـ. قال عنه الجنيد: «منذ مات النوري لم يخبر عن حقيقة الصدق احد.»(٢)

هاجم النوري بعض المتصوفة وقال فيهم: «كانت المراقع غطاء على الدر، فصارت اليوم مزابل على جيف»(٣) مشيرًا بذلك الى تفشي التصوف الشكلي حين لبس بعضهم الخرق والمرقّعات و لم يأخذوا بجوهر التصوف وعلومه الروحية ومسالكه.

---

* السّلمي هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الازدي، لقب بالسّلمي نسبة الى جده لامه ابي عمرو اسماعيل السلمي. ولد عام ٣٢٥هـ في بغداد وتوفي عام ٤١٢هـ. كان ابوه صوفيًا. ورث عن جده ثروة طائلة انفقها في شراء الكتب والف ما يزيد عن المائة كتاب في الصوفية، اهمها، «طبقات الصوفية» «تاريخ الصوفية». «سلوك العارفين» وغيرها. حوى كتابه طبقات الصوفية على تاريخ واقوال اكثر من خمسمائة متصوف. يمثل السلّمي مدرسة بارزة في التأليف الصوفي. بنى في نيسابور خانقاه كبيرة للمتصوفة ودفن فيها عام ٢٩٥هـ.

١- «متصوفة بغداد». ص ١٨٣.

٢- «تاريخ بغداد». الخطيب البغدادي. مجلّد ٥، «متصوفة بغداد». ص ١٨٦.

٣- «حلية الاولياء» مجلد ١٠. «متصوفة بغداد» ص ١٨٨.

في «محنة غلام الخليل» تعرض النوري وبعض المتصوفة للقتل بتهمة نشر الزندقة والالحاد. قبل تنفيذ الحكم تقدم النوري من السيّاف وطلب ضرب عنقه قبل قتل المتصوفة، وعندما سأله عن السبب قال: «افديهم بروحي لان الدنيا هي دار الخدمة والآخرة دار الغربة ولا تنال الغربة إلاّ بالعمل.» عندما علم قاضي القضاة، اسماعيل بن اسحاق، عن هذا السلوك طلب لهم البراءة من الخليفة فاخلي سبيلهم.[١]

تدور طريقة وافكار النوري في تصوفه حول «الود والانس بالله.» ومن اقواله: «من وصل الى وده انس بقربه، ومن توصل بالوداد اصطفاه من بين العباد»[٢]

وقال النوري: «ان ارباب القلوب، ومن كان قلبه حاضرًا بين يدي الله، يكون دائم الذكر لله، فيرى الاشياء كلها بالله، ولله، ومن الله الى الله. ولا يكون ذلك الحال إلاّ لعبد مجموع على الله في جميع ما يسمع وجميع ما يرى من الاشياء»[٣]

كان النوري عابدًا جليلا، فاق في عبادته اهل زمانه، قال عنه ابو احمد الغزالي «ما رأيت احدا قط اعبد من النوري، قيل: ولا الجنيد؟ قال ولا الجنيد»[٤]

ويقول النوري عن التصوف: «انه ترك كل حظوظ النفس، وإن التصوف ليس رسومًا ولا علويًا ولكنه قبل كل شيء أخلاق، وهو المعرفة بالله، ولكنها معرفة تكون في الدنيا قبل الآخرة، فمن لم يعرفه اولاً في الدنيا لن يعرفه في الاخرة[٥]

١- «متصوفة بغداد» ص ١٨٤ (بتصرف)، عزيز جاسم.

٢- «تاريخ بغداد» مجلد ٥ الخطيب البغدادي.

٣- «متصوفة بغداد». عزيز جاسم ص ١٨٦.

٤- «تاريخ بغداد». البغدادي مجلد ٥. متصوفة بغداد ص ١٨٩.

٥- «الموسوعة الصوفية»، ص ٣٩٨، عبد المنعم الحنفي.

٢٠. احمد بن محمد الغزالي

هو احمد محمد الغزالي، الاخ الاصغر للفيلسوف الصوفي واللاّهوتي الكبير، ابو حامد الغزالي. ولد في بلدة غزالة (تاريخ مولده غير معروف) من ضواحي مدينة «طوس» من خراسان في فارس، وهو من اصل فارسي، وتوفي عام ٥٢٠هـ في مدينة قزوين من فارس.

ولد احمد الغزالي في عهد انحلال السلطنة السلجوقية، حين استشرى الفساد وعمّت الفتن والاضطرابات، وكثرت الفرق المذهبية والبدع الدينية، وكثر النفور والتناحر بين اصحاب المذاهب والعلماء. في هذا العصر المضطرب، ولد الصوفي احمد بن محمد الغزالي من اب فقير، كان يعمل في غزل الصوف الذي، عند وفاته، طلب من صديق له صوفي، العناية بولديه احمد ومحمد الفيلسوف المعروف بابي حامد.

الف احمد الغزالي كتاب «سوانح العشاق»[١] باللغة الفارسية، الذي ترجمه المستشرق الالماني «هلموت ريتر» وقال عنه: «انه من الصعوبة بمكان ان نجد كتابًا يبلغ فيه التحليل النفساني مثل هذه الغزارة[٢]

يقول احمد الغزالي في «سوانح العشاق»: «حينما يوجد العشق، يصبح العاشق قوتًا لمعشوقه، لا لمعشوق لعاشقه.إذ يمكن ان يحتوي العاشق وجود المعشوق.» ثم يقول: «العشق له همة عالية لانه يطلب المعشوق ذا الصفات المتعالية، فكل معشوق يمكن الوصول اليه، لا يختاره العشق.» ويقصد الغزالي،

١- بالاضافة الى كتاب «سوانح العشاق» الف محمد الغزالي - «لباب الاحياء» - «الذخيرة في علم البصيرة» - «بحر الحقيقة».

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» هنري كوربان، ص ٣٠٠.

انه يعشق من الله تعزه الذي لا يمكن ان يصل اليه احد، ولا يكون في متناول احد. ولو كان ثمة شيء جدير بك لما كان لك الكمال والقوة.[1]

ويقول المستشرق هنري كوربان: «قد شرح هذا الكتاب بتطويل كبير، صوفي هندي في القرن الخامس عشر، هو السيد «محمد حسين جيزو دراز» فقال «ازدانت العظمة الاهيةً فحلّ الكلام واختفى الكاتب. والله متعال جدًا فلا يعرفه الانبياء، ناهيك بسواهم.»[2]

كان لاحمد الغزالي تلميذ تفوق بالعلم والمعرفة والفلسفة وعلوم الصوفية، هو القاضي، عين القضاة الهمذاني الذي قتل وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة (عام ٥٢٥هـ) وكتابه «التمهيدات» غني بالمعلومات عن العشق الصوفي وشروحات كاملة عن مذهب احمد الغزالي[3]

٢١. ابو حامد الغزالي

هو محمد بن محمد بن محمد بن احمد، يكنّى بابي حامد لولد له مات وهو صغير، وكنيته الغزالي[4]. كما يعرف بالطوسي نسبة الى بلدة طوس في خراسان، وكذلك بالفقيه الشافعي باعتباره اكبر فقهاء الشافعية في القرن الخامس هجري.[5]

١- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». هنري كوربان ص ٣٠٠ الحاشية رقم ١.

٢- المصدر نفسه ص ٣٠١.

٣- «تذكر يا مروان» سليمان علم الدين ص ٣٧٤.

٤- «معجم البلدان». ياقوت الحموي مجلد ٣ ص ٥٦١.

٥- «كشف الظنون عن اسامي الكتب والظنون» - حاجي خليفة مجلد ١ ص ٢٣.

وُلد الغزالي عام ٤٥٠هـ في بلدة «غزالة»، التي نسب اليها، فكانت شهرته الغزالي. وكانت غزالة تقع في جوار مدينة «طوس» التي كانت اعظم مدينة في خراسان بعد «نيسابور» وبهذا يمكن القول انه من اصل فارسي غلب عليه اسمه العربي، وليس عربيًا كما قال بعض المؤرخين، ولكن قد يجوز ان يكون من سلالة العرب الذين نزحوا الى بلاد فارس بعد الفتح الاسلامي، ونذكر منهم اليمنية، الذين تركوا الكوفة والبصرة ونزحوا الى خراسان بسبب اضطهاد الوالي الاموي زياد بن ابيه، ومن بعده ابنه عبيد الله بن زياد.

كان يشار الى ابي حامد الغزالي، بالاضافة الى «حجة الاسلام» على أنه كاتب الصوفية «الاول» وكرائد في علم الكلام ويعتبر احد اصوله بعد الحسن البصري، واصل بن عطاء منشئ الاعتزال، ابي الحسن الاشعري، ابي بكر الباقلاني، وامام الحرمين ابي المعالي عبد الملك الجويني رئيس مذهب الشافعية في نيسابور الذين، عدا عن الحسن البصري، وواصل بن عطاء، قالوا عن ابعاد العقل عن ادراك اصول المعرفة الدينية، وذلك لدحض عقيدة المعتزلة التي كانت تقول بالعقل المطلق. ومن اقوال المعتزلة: «نرفض الايمان اذا لم يقبله العقل» والايمان ركن اساسي في الاسلام.

كانت اسرة ابي حامد فقيرة الحال، ذلك أن اباه كان يعمل في غزل الصوف وبيعه في «طابران طوس»، ولم يكن قد خلف غيره وغير اخيه احمد[١] الذي كان يصغره سنًا. ويبدو أن اباه مال الى الصوفية إضافة لفقره والفقر منبع التصوف.[٢] وانه عندما اشرف على الوفاة اوصى بولديه صديقًا له من اهل التصوف ورجاه ان يعنى بهما وان يعلمهما اصول الدين. استجاب الصوفي الصالح لرجاء والد الصغيرين ورعاهما بعنايته، ولكن لمّا عجز على

١- «وفيات الاعيان» لابن خلكان. مجلد ١ ص ٤٩.

٢- «تلبيس ابليس». ابن الجوزي ص ١٧١.

المضي في الانفاق عليهما لقلة ماله[1] اشار عليهما بدخول المدرسة النظامية في نيسابور التي كانت من اعظم المراكز العلمية في العالم الاسلامي انذاك، ليتابعا علومهما دون دفع مقابل، كما كان الحال في الازهر الشريف ودار الحكمة في القاهرة واتبعته المدارس النظامية في العراق وفارس.

بعد مدرسة نيسابور، التحق ابو حامد بالفقيه الكبير احمد بن محمد الراذكاني في طوس[2] واخذ عنه علم الدين والفقه ثم سار الى مدينة جرجان حيث التحق بالامام ابي نصر الاسماعيلي وعلق عنه التعليقة[3]: قيل ان هذا الامام لا يكون ابا النصر لانه توفي عام ٤٢٧هـ بل الشيخ اسماعيل بن سعدة الاسماعيلي المتوفى عام ٤٨٧هـ[4]. هذه التعليقة سرقها اللصوص منه عند عودته من جرجان الى طوس ثم اعادوها اليه بعد توسله اليهم.[5] وعن الامام ابي نصر الاسماعيلي اخذ ابو حامد علم الفقه الشافعي.

«وفي عام ٤٧٣هـ سار ابو حامد الى نيسابور[6] احدى اهم مدن العلم والثقافة وفيها المدرسة النظامية، حيث التحق بامام الحرمين* ابي المعالي عبد الملك بن يوسف الجويني، مؤسس المدارس النظامية وامام المدرسة الاشعرية. فكان عالم عصره في علم التوحيد والفقه واصول الكلام وله مؤلفات عديدة في علوم الدين والفلسفة[7] وقيل ان الامام الجويني كان يظهر اعتزازه بابي حامد ويتبجح لتلاميذه عليه»[8]

١- «طبقات الشافعية». تاج الدين السبكي. مجلد ٤ ص ١٠٢.
٢- «وفيات الاعيان». ابن خلكان ص ٥٠٥.
٣- «طبقات الشافعية الكبرى». تاج الدين السبكي مجلد ٤ ص ١٠٢.
٤- «سيرة الغزالي واقوال المتقدمين فيه». عبد الكريم السبكي ص ١٧.
٥- المصدر نفسه ص ١٧.
٦- «المنقذ من الضلال» ص ٦٤، أبو حامد الغزالي.

* تلقى الجويني علم الدين والفقه على والده ثم خرج الى الحجاز حيث بقي في مكة والمدينة أربع سنوات يدرّس ويفتي، ولهذا أطلق عليه لقب «إمام الحرمين».

٧- «طبقات الشافعية الكبرى» تاج الدين السبكي. مجلد ٤ ص ١٠٣.
٨- المصدر نفسه مجلد ٤ ص ١٠٣.

درس ابو حامد على الجويني مختلف العلوم التي يعرفها عصره، من فقه، وفقه مقارن، وأصول وكلام ومبادئ من الفلسفة حتى اذا ظهرت بوادر النبوغ السريع على الغزالي، اظهر الجويني عناية خاصة به حتى قال عنه انه «بحر مغدق»*

في ذلك الوقت كتب ابو حامد كتابه «المنخول في علم الاصول.» ولما اطلع عليه الامام الجويني قال لابي حامد: «دفنتني وانا حي، هلاّ صبرت حتى اموت»(١)

بعد ان تخرج ابو حامد الغزالي من مدرسة نيسابور عمل مساعدًا للامام الجويني وكان ملازمًا له دائم الحضور بين يديه، ولكن في الوقت نفسه، اخذ يدرس اصول التصوف على يد الزاهد الصوفي ابي الفضل بن علي الفارمذي الذي كان يقول بصحة عقيدة الحلاّج وانه قال ما قال من فرط محبته وشدة وجده(٢) وانه مات شهيدًا في حبه الالهي الذي اخلص له.

تأثر ابو حامد بالفارمذي وعقيدة الحلاّج وانه اكثر في اتصاله بالارواح، على نحو ما فعله الحلاّج وحيث امره بعض الارواح المجددة من سكان الملأ الاعلى بالعودة الى وطنه وتأليف كتابه احياء علوم الدين.(٣)

---

* من مؤلفات الجويني.(١) نهاية المطلب في دراية المذهب(٢) الارشاد في اصول الاعتقاد(٣) الشامل في الدين(٤) غياث الامم في الامامة.(٥) العقيدة النظامية)(٦) البرهان في اصول الفقه.

١- « الفيلسوف الغزالي». عبد الامير الاعسم ص ٣٤.

٢- «المهدي والمهدية». احمد امين ص ٤٥.

٣- «دائرة المعارف القرن العشرين». محمد فريد.وجدي مجلد ٧ ص ٦٦.

وفي عام ٤٧٨هـ توفي الامام الجويني* وبوفاته خسر ابو حامد الغزالي استاذًا عالمًا وصديقًا مخلصًا وعطوفًا كان يساعده في دروسه واعماله ويشجعه على جهده المتواصل لتحصيل العلم ويحميه من بعض الفقهاء ورجال الدين الذين كانوا يحسدونه على المركز المرموق الذي احتله بالرغم من حداثة سنه.

وبعد وفاة الامام الجويني ترك ابو حامد نيسابور وسار الى «معسكر مكرم» وهو ميدان بالقرب من نيسابور وهو مقام الوزير السلجوقي نظام الملك مؤسس المدارس النظامية، والذي كان يشجع العلم ويعطف على العلماء ويغدق عليهم الصلات ويقدم لهم ما يحتاجون لمتابعة اعمالهم في حقل التدريس ونشر العلوم.

كان نظام الملك، الشافعي الاشعري، وزيرًا للأمير الحنفي «ألب ارسلان» السلجوقي(١) يقصد من تأسيس المدارس النظامية تقوية المذهب الشافعي والعقيدة الاشعرية(٢) بتغليبها على المذاهب الاخرى وعلى الاخص التيار الامامي العام في ذات الاسماعيلية(٣) الذين قتلوه لاحقًا.

اتصل ابو حامد بالوزير نظام الملك فلقي منه تكريمًا وعناية فائقة، وعيّنه مدرسًا في مدرسة بغداد النظامية(٤) وهذا ما كان يصبو اليه ابو حامد اذ في بغداد يتمكن من المشاركة في نشاطات العلوم الواسعة ويحتك بالائمة والعلماء الذين يحيطون بالوزير نظام الملك. «ويتلمس الوسائل العلمية التي يستطيع ان يسلك بها سبيله نحو المرتقى اللائق بمواهبه وطموحه خلال هذا الزحام البادي من مواكب العلماء والباحثين(٥)»

---

* جويني نسبة الى «جوين» ناحية من نواحي نيسابور.

١- «مختصر تاريخ العرب». مصطفى جواد ص ٥.

٢- «الفيلسوف الغزالي». عبد الامير الاعسم ص ٣٦.

٣-« الغزالي والتصوف الاسلامي». احمد الشرباصي ص ٣٣.

٤- المصدر نفسه ص ٣٣.

٥- المصدر السابق ص ٣٣.

يقول ابن عساكر: «وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتى كاد يغلب حشمة الأكابر والامراء ودار الخلافة، واستطاع الغزالي بهذا ان ينتزع لنفسه لقب «امام العراق» بعد ان انتزع وهو في نيسابور لقب «امام خراسان».[١]

كان الوزير نظام الملك اشعريًا على المذهب الشافعي، وكان همه الاول وهدفه ان يكتسح الشافعيون كل المذاهب الاخرى التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، وان لا مكان لعقيدة إلاّ للاشعرية، وبعد ذلك يمسك زمام كل الامور.[٢] قبل ابو حامد عرض نظام الملك بالتدريس في نظامية بغداد في جمادى الاولى عام ٤٨٤هـ ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره[٣]

في خلال التحاقه في نظامية بغداد عام ٤٨٤هـ كتب ابو حامد كتابه الشهير «مقاصد الفلاسفة» ثم بعد ذلك كتب كتابه «تهافت الفلاسفة» هاجم فيه بقسوة شديدة الفلاسفة واصحاب الفكر الفلسفي مما اثار غضبهم، فكان ان رد عليه الفيلسوف الاندلسي ابن رشد بكتاب «تهافت التهافت» ينتقد مسعى الغزالي للقضاء والحط من قيمة الفلسفة ودحض اقوال الغزالي مبينًا بوضوح وقوع ابي حامد في تناقض واضح، وذلك مستشهدًا باقواله في كتب له عن الفلسفة. والمعروف ان انتقاده وتهجمه على الفلسفة كان السبب في احراق كتبه في قرطبة في الاندلس.

كان الخليفة العباسي المقتدي بامر الله بن محمد (٤٦٧ – ٤٨٧هـ) متدينًا وشافعي المذهب، فقدم لابي حامد المساعدة الكاملة وساعده على عمله ولقبه بامام العراق وحثّه على مهاجمة الباطنية وغيرها من المذاهب والبدع التي ترفضها الشافعية.[٤]

---

١ – «الغزالي والتصوف الاسلامي»، أحمد الشرباصي ص ٣٣.
٢ – «الامام ابو حامد الغزالي» مصطفى جواد ص ٥٥.
٣ – «الفيلسوف الغزالي» عبد الامير الاعسم ص ٣٦.
٤ – مما يلفت الانتباه ان الغزالي رفض لقب «الفقيه» الذي عرضه عليه الخليفة لانه كان يقول «ان علم الفقه علم دنيوي لا ديني.»

وفي المدرسة النظامية من بغداد، بلغ ابو حامد اوج ذروته في النجاح والشهرة، وألّف كتبًا عديدة في شرح علم الكلام والفلسفة والدين، ودافع بضراوة عن الدين من آفة الفلسفة وجنوح اهل الاعتزال بقولهم عن العقل المطلق وهاجم الباطنية على اشكالها ومذاهبها وحذّر من خطرها على الحياة الفكرية الاسلامية.

استفحل خطر الدعوة الباطنية الاسماعيلية في عصر الغزالي وقام «الحشاشون» بالوان من الارهاب وسفك الدماء وانتشر خطرهم «وساعدهم على ذلك ما كان يمر به المجتمع الاسلامي حينئذ من زلازل وقلاقل[١]»

طلب الخليفة العباسي المستظهر بالله من الغزالي أن يؤلف كتابًا بالرد على هذه الفرقة. ويصرح الغزالي في أول كتابه «فضائح الباطنية» بأن الأوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية قد صدرت بالاشارة الى الخادم بتصنيف كتاب في الرد على الباطنية.[٢] وثم كتب كتاب «المستظهري» الذي هاجم به الباطنية بقسوة وذلك حسب طلب الخليفة المستظهر الذي كان يكره الباطنية واراد استئصالهم من البلاد الاسلامية التي كانت تحت الحكم العباسي.

في ذلك الوقت وجد ابو حامد الغزالي نفسه في خضم الصراعات المذهبية والعقائد الفكرية المختلفة، وتباين الملل والنحل وتعدد الاديان. ثم كان يخاف الباطنية، اي اسماعيلية «قلعة الموت» في فارس، الذين كانوا يترصدونه ويهددون بقتله بعد ظهور كتابه «المستظهري»، وقتلهم الوزير نظام الملك ومحاولتهم اغتيال الخليفة المستظهر بالله.

١-«الغزالي والتصوف الاسلامي» أحمد الشرباصي ص ٧١.

٢- المصدر نفسه ص ٧١.

امام هذا الخضم الهائل من الاضطراب السياسي، العقائدي والفكري، اصيب ابو حامد الغزالي بشك رهيب في مسلكه الفكري واضطراب نفسي، وتجاذبته جواذب الدنيا وجواذب الآخرة، ثم اصيب بمرض فسّره المفكر «ديوارنت»[1] على انه انهيار عصبي اصاب قواه العقلية، فوقع ابو حامد في قلق وشك من وضعه العقلي والصحي، خصوصًا خوفه على حياته من تهديد الباطنية الاسماعيلية، فانقطع عن التدريس ولقاء التلاميذ وتوقف عن افتاء السائلين واعتكف في داره وكان يصيبه ذهول وينعقد لسانه عن الكلام فقرر اعتزال العمل والحج الى مكة ثم زيارة البلاد الاسلامية.

ويصف ابو حامد حالته هذه بقوله: «فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبًا من ستة اشهر، اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار، اذ اقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي ان ادرس يومًا واحدًا تطييبًا لقلوب المختلفة اليّ (تلاميذه)، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا استطيعها البتة، حتى اورثت هذه العقلة في اللسان حزنًا في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعم والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الاطباء طمعهم في العلاج» وقالوا: «هذا امر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج.»[2]

يقول المستشرق الفرنسي هنري كوربان: «فاعتزل التدريس عام ٤٨٨هـ وترك عائلته مضحيًا بكل شيء في سبيل البحث عن الاطمئنان الداخلي الذي هو ضمان للحقيقة. ويمكننا ان نتصور الى اي حد اذهل هذا القرار الحاسم الذي اتخذه الغزالي، اهل الفكر في عصره، وهو رئيس المدرسة

١- «قصة الحضارة» مجلد ٤ ص ٣٦٣.

٢- «المنقذ من الضلال». تحقيق جميل صليبا وكامل عياد. ص ١٣٦.

النظامية والناطق بلسان المذهب الاشعري، المذهب الرسمي للدين الاسلامي الحنيف في ذلك الوقت، هذا الموقف يكشف عما يتمتع به الغزالي من شخصية خارقة.[١]»

ويقول ابن عساكر: «وأخذ في مجاهدة النفس، وتغير الاخلاق، وتحسين الشمائل، وتهذيب المعاش، فانقلب شيطان الرعونة وطلب الرياسة والجاه والتخلق بالاخلاق العظيمة الى السكون وكرم الاخلاق، والفراغ عن الرسوم والتزيينات، والتزيّي بزي الصالحين وقصر الامل.»[٢]

في عام ٤٨٨هـ انتهت المرحلة الاولى من حياة ابي حامد الغزالي، وهي مرحلة حياة الفيلسوف المسلم الشافعي، وابتدأت المرحلة الثانية والاخيرة من حياة ابي حامد الغزالي الصوفي، وهي المرحلة التي تهمنا في هذه الدراسة عن التصوف. ان جل ما كتبناه سابقًا كان عن حياة ابي حامد الغزالي كفيلسوف وعالم في الدين ومدرّس في المدرسة النظامية، وذلك لاعطاء القارئ صورة واضحة عن حياة الفيلسوف الذي اصبح في آخر حياته من كبار رجال التصوف.

يقول المستشرق (كارادي فو): «ونرى، أن روح التصوف المفاجئ الذي اعترى حياة الغزالي، كان نتيجة حتمية لسلوك ما تلقاه عن صوفية سابقة لعبت دورًا حاسمًا في حياته فيما بعد.»[٣]

وفي سبب رحلة الغزالي يقول ابو حامد: «ثم لاحظت احوالي، فاذا انا منغمس في العلائق، وقد احدقت بي من كل الجوانب، ولاحظت عملي، وأحسنها التدريس والتعليم، فاذا انا مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الأخرة، فلم أتردّد بين تجاذب الدنيا ودواعي الآخرة، قريبًا من تسعة

١- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٣٧٢.
٢- «الغزالي والتصوف الاسلامي» أحمد الشرباصي ص ٤١.
٣- «الفيلسوف الغزالي» عبد الامير الاعسم ص ٤١.

اشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة، ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فاجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، واظهرت عزم الخروج الى مكة وانا ادبر في نفسي سفر الشام حذرًا ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي على المقام في الشام.»[١]

بعد ان اشاع ابو حامد انه ذاهب الى مكة لاداء فريضة الحج، ترك بغداد في شهر ذي العقدة قاصدًا دمشق حيث بقي سنتين. ويقول عن اقامته بدمشق: «ثم دخلت الشام واقمت بها قريبًا من سنتين لا شغل لي إلاّ العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية وتهذيب الاخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، لما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق، اصعد منارة المسجد طول النهار واغلق بابها على نفسي.[٢]»

ومن دمشق سار الى بيت المقدس ويقول: «ثم رحلت منها الى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة واغلق بابها على نفسي[٣].» وفي بيت المقدس بدأ تأليف كتابه «إحياء علوم الدين» الذي اتمه في دمشق في الجامع الاموي. كما الّف في بيت المقدس رسالته «الرسالة القدسية في قواعد العقائد.» ومن بيت المقدس، ذهب الى مدينة الخليل لزيارة مقام النبي ابراهيم، ثم سار الى مكة وادّى فريضة الحج، وذلك في اواخر ذي العقدة عام ٤٨٩ هجري.

١- «المنقذ من الضلال» تحقيق جميل صليبا وكامل عياد. ص ١٣٦ – ١٣٧.
٢- «المنقذ من الضلال» ص ١٣٨، أبو حامد الغزالي.
٣- المصدر نفسه ص ١٣٨.

يقول بعض المؤرخين كالسبكي والعيني وابن خلكان، ان ابا حامد قد زار مصر حيث اراد السفر الى بلاد المغرب ليجتمع بعلي بن يوسف بن تاشفين امير «المرابطون» لما بلغه عن عدله وتفانيه في حب الدين الاسلامي. ولكن يشوب هذه الرواية الشك في صحتها، لان ابا حامد لم يشر اليها في كتبه او يُطلع عليها علماء جامع الازهر، اكبر جامعة اسلامية في مصر.

ويقول المؤرخ احمد الشرباصي: «والعجيب ان علي بن يوسف بن تاشفين، عادى الغزالي معاداة فكرية صارمة، دفعته الى احراق ما وجده من نسخ كتاب «الاحياء» للغزالي، الذي كان حينئذ على قيد الحياة، وقد تم احراق هذه النسخ في صحن جامع «قرطبة»، واصدر ابن يوسف الأمر بمنع كتب الغزالي ان تدخل بلاد المغرب لما زعموه فيها من زندقة والحاد.»[١]

رجع ابو حامد الى دمشق حيث اعتكف في الجامع الاموي في زاوية الشيخ الفقيه نصر بن ابراهيم المقدسي، وهي الزاوية التي عرفت، حتى يومنا هذا، باسم الزاوية الغزالية.[٢]

اختار ابو حامد الغزالي دمشق لانتشار التصوف بها ورعاية السلطة للمتصوفة وتقديم جميع المساعدات من مسكن وطعام لهم. لبس ابو حامد الثياب الغليظة وخرقة التصوف وعاش عيشة الفقراء الزاهدين، وطاف هذه البلاد على طريقة اهل التصوف وشوهد بيده عكازه وعليه ثياب رثة والخرقة الصوفية، صامتًا متأملاً لا يأكل إلاّ ما يسد رمقه.[٣]

١- «الغزالي والتصوف الاسلامي» ص ٤٥.

٢- المصدر نفسه ص ٤٣.

٣- «الطبقات الشافعية الكبرى» مجلد ٤ ص ١٠٥.

يقول محيي الدين ابن عربي، «ان ابا حامد الغزالي عاد الى بغداد عام ٤٩٠هـ فتكون رحلته استغرقت سنتين، ويؤكد ذلك ابن الاثير.»[١] اما تاج الدين السبكي وعبد الغافر الفارسي، المعاصر للغزالي، فيقولان ان مدة الرحلة كانت عشر سنين.[٢]

ورحل من دمشق الى خراسان عام ٤٩٠هـ، وفي طريقه مرّ ببغداد حيث اجتمع بابي بكر العربي صاحب كتاب «القواصم والعواصم» ونزل في زاوية ابي سعيد النيسابوري بحذاء المدرسة النظامية، ولكن لم يقم طويلاً في بغداد، بل استأنف رحلته الى مدينة «طوس» في خراسان حيث انصب على العبادة، واعتزل الناس ويصف ابو حامد ذلك الوقت بقوله: «كانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلاّ في اوقات متفرقة، ولكن ذلك لا اقطع طمعي منها فتدفعني عنها العوائق واعود اليها، ودمت على ذلك عشر سنين، وانكشف لي في انباء هذه الخلوات امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها.»[٣]

وخلال وجود ابي حامد في «طوس» تلقى رسالة من الوزير مؤيد الملك يدعوه فيها الى الرجوع الى بغداد لتولي رئاسة وادارة المدرسة النظامية ومعاودة التدريس فيها. فكان جواب ابي حامد: «الطريق من بغداد ومن طوس واحد، ولكن ما اعظم التفاوت بين اوج الانسانية وحضيض الحيوانية. أما عن صدور امركم بالتماس حضور هذا الفقير، فلا شك ان الوقت وقت فراق، لا وقت سفر الى العراق.»[٤]

١– «الكامل في التاريخ» مجلد ١ ص ٨٧.
٢– «الطبقات الشافعية الكبرى» مجلد ٤ ص ١٠٥.
٣– «الغزالي والتصوف الاسلامي». احمد الشرباصي. ص ٤٦.
٤– المصدر نفسه ص ٤٧.

بعد احدى عشرة سنة من العزلة في الزاوية تمكن الامير مؤيد الملك من اقناع أبي حامد برئاسة المدرسة النظامية في نيسابور والتدريس بها ويقول ابو حامد: «لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، اني لم اتحرك، ولكنه حركني، واني لم اعمل ولكنه استعملني، فأسأله ان يصلحني اولاً ثم يصلح بي، ويهديني ويهدي بي، وان يريني الحق حقًا، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه.»(١)

ترك ابو حامد الغزالي التدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور بعد مقتل الامير فخر الملك على يد فدائية اسماعيلية «قلعة الموت» وبنى قرب بيته زاوية للمتصوفة ومدرسة يدرس بها علوم الدين والتصوف، ووزع اوقاته في التدريس والعبادة حتى توفاه الله في الرابع عشر من شهر جمادى الاولى في سنة ٥٠٥ هجري ودفن في بلدة «الطابران» وهي ضاحية من مدينة طوس.(٢)

ابو حامد الغزالي عرف التصوف منذ نعومة اظافره عن طريق الشيخ الصوفي الذي قام على تربيته واخيه بعد وفاة ابيهما، أما المؤرخ احمد الشرباصي فيقول في هذا الموضوع: «ولا نَنْس ان الجو الذي احاط بالغزالي منذ صباه كان مفعمًا بعبير التصوف، فأبوه متصوف، والوصي عليه متصوف، واخوه متصوف، وعمه متصوف، واستاذه امام الحرمين متصوف، والوزير نظام الملك محب للصوفية، وهناك عاطفة الغزالي المتدفقة ونفسه المشرقة، ولعل شواغل من الهوى او الشهرة او الطموح شغلت الغزالي عن العناية البارزة بالجانب الصوفي في صدر حياته.»(٣)

١- المصدر نفسه ص ٥٣.

٢- «الغزالي والتصوف الاسلامي» ص ١٦٩.

٣- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٣٠٦.

الواقع ان التصوف عند الغزالي قبل عام ٤٨٨هـ، اي قبل رحلته في البلاد الاسلامية، كان جزءًا، غير مؤثر، من دراسته للفلسفة والعلوم الدينية، و لم يترك اثرًا بارزًا في حياته الروحية او تصرفه الدنيوي.

لجأ ابو حامد الى التصوف الحقيقي، كما قلنا سابقًا، بعد رحلته الى دمشق عام ٤٨٨هـ وعاونه على الانخراط الكلي في التصوف الشيخ ابو علي الفارمذي والصوفي يوسف النسّاج الذي قال عنه: «فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى خطيت بالواردات.»

بعد دراسات عميقة وتأمل واجتهاد فكري مضنٍ، اعتنق ابو حامد الغزالي الصوفية كالجواب الشافي للاطمئنان النفسي عن تساؤله الفكري والروحي، واعتمد في هذا المضمار افكار واقوال الجنيد بن محمد، وابو يزيد البسطامي وابو بكر الشبلي.

ويقول الغزالي: «وجدت الصوفية هم السالكون لطريق الله، خاصة ان سيرتهم احسن السير وطريقهم اصوب الطرق، واخلاقهم احس الاخلاق، بل انه لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرهم واخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا اليه سبيلاً، وذلك ان جميع حركات الصوفية وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض، نور يستضاء به. اول شروط الصوفية تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله، واخرها الفناء بالكلية في الله.»(١)

وفي كتابه «المنقذ من الضلال» يقول الغزالي: «ان طريقة الصوفية، انما تتم بعلم وعمل، وان جاهل علمهم، هي قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يوصل الى تحلية القلب من غير الله.»

١- تاريخ الفلسفة الاسلامية. ماجد فخري ص ٣٣٩.

ويذهب الغزالي الى القول: «ان لفظة النور تطلق على الله بالحقيقة، وعلى الاجسام المنيرة بالمجاز. فنحن نقول ان الباصرة او العقل نوران اذ هما يظهران الاشياء ويكشفان عنها، والعقل مع ذلك، اولى باسم النور من العين ما دام لا يظهر الاشياء المدركة وحسب، بل يظهر ذاته ايضًا ولا يخضع لقيود الزمان والمكان، وبالتالي فهو تجلي نور الله الذي خلق ادم، كما جاء في الحديث «على صورته ومثاله.»[١]

ومن اقوال ابي حامد: «تبدأ قوى الادراك البشرية بالحس وتنتهي بالعقل الذي يوسع نطاق المعرفة الى ما لا نهاية له عن طريق التأليف والتركيب[٢].الحس هو طريق المعرفة المادية، وان العقل هو طريق المعرفة العقلية، وان الالهام هو طريق المعرفة الصوفية. ان هذا الطريق الاخير هو نهاية المطاف وهو المرفأ الامين.»

«ويفرق ابو حامد الغزالي بين علم العلماء وعلم الصوفية الاولياء، على ان علم العلماء يأتي عن طريق الادراك الحسي، بينما علم الصوفية يأتي عن طريق اطلاع قلوبهم الصافية على علم الملكوت. واذا عقلت الحواس تعطل علم العلماء، واذا رانت المعاصي على مرآة القلب تعطل علم الاولياء»[٣]

في بداية انغماسه في الطريقة الصوفية، اعلن الغزالي اللجوء الى الزهد والتنسك بدلاً من الصوفية المتطرفة، وكان يقول، انه يجب معرفة الحقيقة والشرعية فهذه الثنائية تقود الى الطريقة الصوفية الصحيحة وهذا من صلب روحانية الاسلام، وكان يدعو بالعودة الى القرآن الكريم لانه العمود الهادي الى التوحيد.

١-« تاريخ الفلسفة الاسلامية» ماجد فخري ص ٣٣٩.

٢- المصدر نفسه ص ٣٤٠.

٣-« الغزالي والتصوف الاسلامي»، احمد الشرباصي ص ١٧٥.

ويقول المستشرق «كارل بروكلمان»: «ان اعتراف الغزالي باصالة العلم الصوفي واعتناقه اياه كمشرب جديد، لم يكن يعني ان يعترف بكل حقوق الصوفية، على مختلف اشكالهم ومسالكهم، بل اعترف بحقوق الصوفية المعتدلة لاعطاء اصول الدين وفروعه وفق الفقه وجعل القرآن والسنة العمود الهادي في الفقه.(١)»

رفض ابو حامد الاتحاد والحلول او فناء احدهما بالاخر (البسطامي والحلاّج) واعتبرهما هوسًا وهذيانًا وبدعة الحادية يرفضها العقل والايمان بوحدانية الله تعالى وقال في ذلك: «ان هذا الادعاء الباطل يرمي الى الخروج عن الشريعة وتعاليم الدين.»

اما اصحاب الشطحات فيقول عنهم: «ان كلامهم لا فائدة منه إلاّ تشويش القلوب وتحيير الاذهان وادهاش العقول ويعتبرهم من الصوفية الضالة.»

وننهي هذه الدراسة عن ابي حامد الغزالي بما قاله المستشرق «ونسنك» (A.J Wensinck) «ان الغزالي لا يرى في الوجود إلاّ الواحد الحق الذي تصور لسبب ما، وخلق في حقبة ما من حقب الازل، عالمًا لا يتصف بالوجود او القدرة على الفعل، وترى الحلولية ان الله لا يوجد إلاّ من خلال العالم، بينما يرى الغزالي ان العالم لا يوجد مطلقًا، ان مذهب الغزالي عبارة عن الوحدانية السامية كما تبدو من خلال منظار الافلاطونية المحدثة.(٢)»

٢٢. عبد الكريم القشيري

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري النيسابوري. قشير بطن من سعد العشيرة القحطانية وكانوا يقيمون بنواحي

١- «تاريخ الشعوب الاسلامية» ص ٣٢٤.

٢- Wensinck A.J. «La pensée de Ghazali » p. 9

حضرموت.[1] والنيسابوري نسبة الى نيسابور وهي عاصمة خراسان ومسقط رأس الشاعر عمر الخيام، والصوفي الشاعر فريد الدين العطار[2] اذن، عبد الكريم القشيري من اصول عربية وان كان ولد ونشأ في خراسان واهله من العرب الذين استوطنوا «أستوا».[3] كانت «استوا» بلدة كبيرة بناحية مدينة نيسابور.

ولد القشيري عام ٣٧٦هـ في بلدة «استوا» وتوفي عام ٤٦٥هـ في مدينة نيسابور ودفن الى جانب استاذه الشيخ ابو علي الدقاق.[4] وكان القشيري على المذهب الشافعي.

يقول الدكتور الحفني «حضر (القشيري) الى نيسابور ليتعلم الحساب لاجل قريته، فاتفق حضوره مجلس الدقاق (ابو علي الحسن بن علي النيسابوري) فاعجبه كلامه ووقع في قلبه فلازمه وسلك طريق الارادة وقبله الدقاق وقد تفرس فيه فجذبه، فاقبل عليه وزوّجه ابنته (فاطمة) رغم كثرة اقاربها الراغبين فيها.[5]

بالاضافة الى الشيخ ابي علي الدقاق، اخذ القشيري علوم الدين والفقه والتصوف عن شيوخ مرموقين منهم: ابو عبد الرحمن السلمي صاحب كتاب الطبقات الصوفية. ابو بكر السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع في التصوف. ابو بكر محمد بن الحسين الانصاري الاصبهاني، وكان اماماً في علم الاصول والكلام. ابو اسحاق ابراهيم الاسفراييني صاحب كتاب الجامع

١- «تاج العروس» مرتضى الزبيدي، مجلد ٣ ص ٤٩٣.
٢-« الرسالة القشيرية» ص ٥ (بتصرف).
٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٢٤، عبد المنعم الحفني.
٤- «الرسالة القشيرية». ص ٧ (بتصرف).
٥- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٢٤، عبد المنعم الحفني.

والرسالة. ابو العباس بن شريح درس عليه علم الفقه.[1] عبد القاهر التميمي الاسفراييني، اخذ عنه المذهب الشافعي.

كان القشيري صادقًا في تصوفه مخلصًا في دفاعه عن التصوف عامة، سجل دفاعه عن التصوف في كتابه الرسالة القشيرية[1] ويقول الدكتور الحفني عن «الرسالة القشيرية»: «كانت هذه الرسالة، وما تزال، مرجعًا من المراجع الكبرى في التصوف وعلوم الصوفية واخبارهم، وقد تصدى لها بالشرح والتفسير اعلام المسلمين من امثال زكريا الانصاري والعروسي. يقول ابن تيمية: «أن تأليف القشيري للرسالة كان ردًا على الحلولية والاتحاديين وليبيّن ان طريقة مشايخ الصوفية تخالف ما عليه هؤلاء.»[2]

كان القشيري يحبذ «السماع» بالاشعار والالحان الطيبة، ويقول لا خلاف في ذلك، ان الاشعار انشدت بين يدي الرسول وانه سمعها ولم ينكر عليهم من انشادها، واهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء والحداء، كلهم مجمعون على اجازته. وينتقد ابن تيمية رأي القشيري ويقول: «قد ثبت عن النبي ان في الشعر حكمة، فلا يتعين من حكمته ان يسمع بالالحان الطيبة، والسماع الحسن هو سماع القرآن وسماع شعر الحكمة والمواعظ بدون الحان.»[3]

يقول السبكي: «يظهر ان الشهرة الواسعة التي تمتع بها الاستاذ الامام في نيسابور، قد اثارت الحقد والحسد في نفوس فقهاء المدينة فشرعوا يعدّون العدة للحط من قدره والقضاء على شهرته بين الناس وذلك بتلفيق الاتهامات واذاعة الاكاذيب حوله، وقد نجحوا في مسعاهم، وحلّت بالقشيري محنة شديدة لقي فيها انواعًا من الالام والعنت والتشريد.»[4]

١- «الرسالة القشيرية» ص ١٠.
٢- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٢٣، عبد المنعم الحفني.
٣- المصدر نفسه ص ٣٢٥.
٤- «طبقات الشافعية الكبرى» مجلد ٢ ص ٢٦٠.

انفض الناس من حول القشيري، والغيت مجالس التذكير التي كان يقوم بها، وانتهى به الامر الى الخروج من نيسابور طريدًا مشردًا. دامت هذه المحنة من عام ٤٤٠هـ حتى عام ٤٥٥هـ ذهب خلالها الى بغداد حيث اكرم وفادته الخليفة القائم. بعد تولي عضد الدولة الحكم، رجع القشيري الى نيسابور حيث قضى عشر سنوات كانت اسعد فترة في حياته وكثر اتباعه ومريدوه.[١]

٢٣. ابو اسحاق الشيرازي

الشيخ الصوفي ابو اسحاق ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي وكنيته جمال الدين، ولد في مدينة «فيروزاباد» من فارس عام ٣٩٣هـ وتوفي عام ٤٧٦هـ ودفن في محلة باب ابرز في بغداد.[٢]

درس الشيرازي علوم الدين والفقه على يد ابو احمد عبد الوهاب بن رامين والشيخ محمد بن عبد الله البيضاوي في شيراز، ثم انضم الى حلقة منصور بن عمر الكرخي حيث عيّن شيخًا في حلقته، ثم درس في المدرسة النظامية في بغداد ولم يزل بها حتى مات.[٣]

عُرف الشيرازي بزهده اكثر من تصوفه وله مؤلفات عديدة في التصوف منها «المهذب في المذهب»، «واللمع» «والتبصرة» وكان له مريدون وتلاميذ يأخذون عنه علم التصوف والدين.

يقول ابن خلكان: «وكان من الورع والتشدد في الدين ومحاسنه اكثر من ان تحصر[٤] وذكره محب الدين بن النجار في تاريخ بغداد «انتشر فضله في البلاد وفاق اهل زمانه بالعلم والزهد، واكثر علماء الامصار من تلامذته.»

١- «الرسالة القشيرية» ص ١٢ (بتصرف)

٢- «وفيات الاعيان» ابن خلكان ص ٢٩.

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه ص ٣٠.

٢٤. ابن الرفاعي

ابو العباس احمد بن ابي الحسن علي بن احمد وكنيته ابن الرفاعي، وينسب الى جده رفاعة المغربي الحسيني، وابن الرفاعي مؤسس الطريقة الرفاعية او البطائحية[١]

ولد ابن الرفاعي عام ٥١٢هـ بقرية حسن من اعمال واسط، وتوفي عام ٥٧٨هـ في قرية ام عبيدة.[٢]

كان ابن الرفاعي يسكن بلدة ام عبيدة في البطائح وهي عدة قرى مجتمعة في المستنقعات بين واسط والبصرة[٣]

يقول المؤرّخ تغري بردي: «وعلم الشيخ احمد بن الرفاعي وفضله وورعه اشهر من ان يذكر وهو اكثر الفقراء اتباعًا شرقًا وغربًا والاعاجم يسمونه – سيدي احمد الكبير – وكان متواضعًا سليم الصدر متجردًا من الدنيا وما ادّخر شيئًا «قط».[٤]

ويقول الدكتور الحفني: «ونظرية التصوف عند الرفاعي اساسها احترام الشريعة اولاً وأخيرًا، والطرق الصوفية التي تخالف الشريعة زندقة، ما لم تشرق مناهجها بنور علم النبي وعمله فهي باطلة، فالطريق الحق هو طريق النبي، والصوفي المتبع هو الذي يعظم شأن النبي لانه الداعي الى الله المخبر عنه والاخذ منه، وهو باب الحضرة الرحمانية، ومن اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل، والنبوة باقية بعد وفاة النبي كبقائها حال حياته وجميع الخلق مخاطبون بشريعته، ومن رد اخباره الصادقة كمن رد كلام الله تعالى.»[٥]

١– «الموسوعة الصوفية» ص ١٧٨، عبد المنعم الحفني.
٢– «المصدر نفسه» ص ١٧٨.
٣– «وفيات الاعيان». ابن خلكان مجلد ٢ ص ١٧٢.
٤– «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، مجلد ٦ ص ٩٢.
٥– «الموسوعة الصوفية» ص ١٧٨، عبد المنعم الحفني.

٢٥. خير النسّاج

ابو الحسن خير بن عبد الله النسّاج الصوفي من اهل سامرّاء (سر من رأى) قدم بغداد وكان له حلقة يتكلم فيها.

اخذ النسّاج علم التصوف عن ابي حمزة محمد بن ابراهيم الصوفي، وصحب الجنيد بن محمد وابا بكر الشبلي وابا محمد الحريري.

كان خير النسّاج يقول: لا نسب اشرف من خلقه الله بيده فلم يعصمه، ولا أعلم ارفع ممن علمه الله الاسماء كلها فلم ينفعه في وقت جريان القضاء عليه. توفي النسّاج عام ٣٢٢هـ ومدفنه في بغداد[١]

٢٦. داود الطائي

داود بن نصير الطائي الكوفي وكان من الصوفيين الزاهدين العابدين. توفي عام ١٦٥هـ[٢]

اخذ علم التصوف والدين عن عبد الملك بن عمير ومحمد بن عبد الرحمن بن ابي ليلى. شغل نفسه بالعلم ثم اختار العزلة والخلوة والزهد. عاش فترة من الزمن في بغداد ثم رجع الى الكوفة حيث فيها كانت وفاته.

قيل عاش عشرين سنة لم يتعد مصروفه ثلاثمائة درهم، و لم يكن في بيته إلاّ حصير وصندوق فيه خبز ومطهرة يتوضأ منها ومنها يشرب. كما قيل انه صام اربعين سنة ما علم به احد من اهله، فكان يحمل غذاءه معه ويتصدق به في الطريق ويرجع الى اهله بفطر عشاء ولا يعلمون انه صائم.[٣]

١- «وفيّات الاعيان»، ابن خلكان مجلد ٢ ص ٢٥١.

٢- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٢٥٩.

٣- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٢٦٠.

كان الطائي يقول: بين مضغ الخبز وشرب الغتيت قراءة خمسين آية[1] ومن اقواله: «اذا كنت لا اشرب إلاّ باردًا، ولا اكل إلاّ طيبًا ولا البس إلاّ لينًا فما ابقيت لآخرتي.[2]»

٢٧. يحيى بن معاذ الواعظ

ابو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ نشأ في اسرة كلها صلاح وتقوى، وكانت الاسرة تتكون من ثلاثة اخوة: احدهم يحيى – وهو اوسطهم – أما أكبرهم فانه اسماعيل، وأما اصغرهم فانه ابراهيم – وكلهم زهّاد.[3]

قيل عن يحيى الرازي: «نسيح وحده في وقته له لسان في الرجاء خصوصًا، وكلام في المعرفة.» كان يقول: ثلاث خصال من صفة الاولياء. الثقة بالله في كل شيء. والغنى به عن كل شيء. والرجوع اليه في كل شيء. والواقع انه اذا التزم الانسان ذلك فقد استقام أمره فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين مجتمعه، وفيما بينه وبين الله.[4]

ولد يحيى بن معاذ في الري، ولما شب واكتمل خرج من الري الى بلخ واقام بها مدة ثم فارقها الى نيسابور ومكث بها الى آخر حياته،[5] وتوفي عام ٢٥٨هـ.

ومن اقواله: «الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة وللعارفين مكرمة. والوحدة جليسة الصديقين، والغوث اشد من الموت، لان الغوث انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق. الزهد ثلاثة اشياء: القلة والخلوة والجوع.[6]

١– «وفيات الاعيان» ابن خلكان، مجلد ٢ ص ٢٦١.

٢– المصدر نفسه.

٣– «عوارف المعارف»، السهروردي ص ٨٠.

٤– المصدر نفسه ص ٨٠.

٥– المصدر نفسه ص ٨٠.

٦– «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، تغري بردي مجلد ٦ ص ١٦٥.

وقال: زلة واحدة بعد التوبة اقبح من سبعين قبلها. وقال مسكين ابن ادم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.(١)

ويقول في نصيحته الى السالكين طريق الله تعالى: «ايها المريدون طرق الاخرة والصدق، والطالبون أسباب العبادة والزهد، اعلموا أنه من لم يحسّن عقله لم يحسن تعبد ربه، ومن لم يعرف آفة العمل، لم يحسن ان يحترز منه، ومن لم تصح عنايته في طلب الشيء لم ينتفع به اذا وجده. واعلموا انكم خلقتم لأمر عظيم، وخطر جسيم وأن العلم لم يرد ليعلم، انما أريد ليعلم ويعمل به، لان الثواب على العمل بالعلم يقع لاعلى العلم، ألا ترى ان العلم اذا لم يعمل به عاد وبالاً وحجة.(٢)»

ويقول يحيى الرازي: «فالعبادة للعارف سلوك مع الخلق والخالق، والتصوف أدب، وطريق العارفين يبدأ بالخوف فتكون التوبة فالزهد، والزهد يسلم للرضا ومحبة الحق، والمحبة تؤسسها المعرفة، فمن عرف ذاق، ومن ذاق اشتاق، وأوثق الرجاء للعارفين هو رجاؤهم لربهم، واصدق ظنونهم حسن ظنهم بالله.»(٣)

٢٨. الترمذي الحكيم

هو الامام محمد بن علي بن الحسن عبد الله الترمذي، والترمذي نسبة الى مسقط رأسه بلدة ترمذ في فارس، تسمّى طريقته الحكيمية والترمذية أيضًا

١- «عوارف المعارف» السهروردي ص ٨٠.
٢- المصدر نفسه ص ٨١.
٣- «الموسوعة الصوفية»، ص ١٦٩، عبد المنعم الحفني.

وتقوم على اعتبار الولاية هي الاساس وهي افضل من النبوة[1] توفي الترمذي في بلخ عام ٣٢٠هـ بعد ان طرده اهالي بلدته ترمذ لمّا خالفهم وفضّل الولاية على النبوة.

وضع لنفسه ترجمة ذاتية بعنوان «بذور الشأن» نشرها عثمان يحيى في مقدمة تحقيقه لكتاب «ختم الاولياء».

كان الترمذي شافعي المذهب، ولم يكن للفقهاء الشافعية في وقته ارأس منه ولا اورع ولا اكثر تقللاً، وكان يسكن بغداد وكان ثقة من العلم والفضل والزهد من الدنيا[2]. «الترمذي من كبار اهل التصوف الذين عنوا بتحديد مفهوم الولاية بكل دقة، وكان اول من فرّق بين اولياء حق الله واولياء الله، على الرُّغم من ان كليهما داخل في دائرة الولاية لله، إلاّ ان «ولي حق الله» هو القائم برعاية الحقوق وحفظ الجوارح وجهاد النفس. اما «ولي الله» فهو الذي فتح له الطريق، واشرق النور في قلبه بحكم «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.»[3]

الترمذي هو الذي وضع التقسيم الرباعي لطبقات الاولياء. طبقة الصادقين، طبقة الصديقين، طبقة المقربين، طبقة المنفردين.

٢٩. ابو حيان التوحيدي

علي بن محمد بن العباس التوحيدي، وكنيته ابو حيان. وقيل لُقب بالتوحيدي لان مذهبه في التصوف يقوم على التوحيد الخالص[4]، وبالرغم من ذلك اختلفوا في تقويم مذهبه، فجماعة قالوا في التوحيدي انه شيخ الصوفية

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٧٨، عبد المنعم الحفني.

٢- «وفيات الاعيان» ابن خلكان مجلد ٤ ص ١٩٥.

٣- سورة العنكبوت آية ٦٩.

٤- «الموسوعة الصوفية» ص ٨٦، عبد المنعم الحفني.

وفيلسوف الادباء، وجماعة اخرى اتهموه بالزندقة حتى قال فيه ابن الجوزي: «زنادقة الاسلام ثلاثة، ابن الراوندي، والمعري واشرّهم التوحيدي، لان المعري والراوندي صرحا بالزندقة وهو لم يصرح.»[١]

هل كان ابو حيان اديبًا فيلسوفًا ام متصوفًا؟ هل كان شيخًا بارزًا من شيوخ الادب واستاذًا في الفكر الفلسفي في القرن الرابع الهجري، ام عالمًا متميزًا في الحضارة العربية أم فيلسوفًا متصوفًا؟ قال عنه بعض المفكرين «ابو حيان التوحيدي، «اديب الفلاسفة وفيلسوف الادباء» وانه كان مؤرخًا لفلاسفة عصره و لم يكن فيلسوفًا بالمعنى الدقيق.

في كتاب التوحيدي، «المقابسات» يشير الدكتور الاعسم: «نعم ان من الصحيح كل الصحة ان نقول، أثر الصوفية في المقابسات واضح»[٢] والدكتور عبد الرزاق محي الدين يقول: «وحج التوحيدي ماشيًا من العراق الى الحجاز مع مجموعة من المتصوفة»[٣] وبالاضافة، يقول الدكتور الحفني: «ان له ستة كتب في التصوف هي «الاشارات الالهية»، و«رياض العارفين»، «والحج العقلي اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي»، «رسالة في اخبار الصوفية»، «والرسالة الصوفية» و«المحاضرات والمناظرات.» كان ابو حيان يلبس رث الثياب ويعيش في حالة فقر مدقع.

وما ينفي عنه التصوف هو حبه للمال وابتعاده عن الزهد. يقول الدكتور الاعسم: «ان عقدة (عند ابي حيان) انما تنبع من انحداره من الفقر وانه لم يفعل على تجاوز العوز والفاقة بالسعي المثمر بل آثر الشعور بالهوان. فانظروا اليه يقول: اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالاقتار، فنسترزق اهل رزقك،

١- «الموسوعة الصوفية»، عبد المنعم الحفني، ص ٨٦.
٢- «ابو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات» ص ١٤١.
٣-« ابو حيان التوحيدي»، سيرته ومؤلفاته ص ٢٨.

ونسأل شر خلقك، ونبتلي بحمد من اعطى وذمّ من منع وأنت من دونهم ولي العطاء وبيدك خزائن الارض والسماء.(1)

وُلد ابو حيان عام ٣١٢هـ في واسط، وتوفي في شيراز عام ٤١٤ هجري.

اخذ ابو حيان علوم الفقه والدين عن القاضي ابو حامد المروزي الشافعي الذي كان تلميذ ابي اسحاق المروزي.

٣٠. السهروردي عبد القاهر

عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي السهروردي وكنيته ابو نجيب، ويقال ان نسبه ينتهي الى محمد بن ابي بكر الصديق، والسهروردي نسبة الى بلدة السهرورد في فارس حيث كان مولده.

ولد ابو نجيب السهروردي عام ٤٩٠هـ في بلدة سهرورد وتوفي عام ٥٦٣هـ في بغداد، وقبره يزوره بعض الناس للشفعة والبركة.

كان ابو نجيب واعظًا وعالمًا بالدين والفقه. درس في نظامية بغداد واخذ علم الدين والصوفية عن الشيخ المهيني وبنى زاوية كان يؤمها العديد من المريدين وطلاّب العلم، منهم ابو حفص شهاب الدين صاحب كتاب «عوارف المعارف.»

١- «ابو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات» ص ٦٤.

من مؤلفات الشيخ ابي نجيب كتاب «اداب المريدين» وفيه يقول: «التصوف يقوم في اوله على العلم، فالعلم له الاساس، وفي أوسطه هو عمل، واما اخره فهو موهبة. والعلم يكشف مرادات التصوف، والعمل يعين على الطلب، والمواهبة تبلغ الغاية.» ثم يقول: «اهل التصوف ثلاثة: المريد الطالب، والمتوسط الطائر، والمنتهي الواصل. فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب يقين.»(١)

٣١. السهروردي ابو حفص شهاب الدين

شهاب الدين عمر بن عبد الله بن عمويه، وكنيته ابو حفص، ونسبه الى السهرورد من بلاد زنجان(٢)

قدم بغداد، قبلة اهل العلم والمعرفة، وصحب عمه الصوفي ابا نجيب عبد القاهر السهروردي واخذ عنه علوم الدين والتصوف، ثم انقطع الى العبادة والزهد وعمل واعظًا ومدرسًا في مدرسة عمه في بغداد وكان يحضر مجلسه خلق كثير والتف حوله اتباع ومريدون عديدون. «كان ابو حفص السهروردي مليح الخلق والخُلق، متواضعًا جامعًا للمكارم وما للمال عنده قدر. ولو حصل منه الالوف فرّقها.»(٣) «ومات و لم يخلف كفنًا ولا شيئًا من اسباب الدنيا.»(٤)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢١٦، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ٢١٣.
٣- المصدر نفسه ص ٢١٣
٤- «الموسوعة الصوفية» ص ٢١٣.-

ويقول ابو حفص في اسباب تأليفه كتابه «عوارف المعارف»: «انه كان يؤثر الصوفية ويحبهم لعلمه بشرف أحوالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة.»(١)

من مؤلفاته كتاب «رشف النصائح الايمانية وكشف الفضائح اليونانية»، هاجم الفلاسفة واتهمهم بنشر الكلام المضلل لتشويش عقول الناس وزعزعة الايمان بالله تعالى والقرآن الكريم.

وكتب كتاب «عوارف المعارف» ويحتوي على علوم الصوفية وفضيلة هذه العلوم، واحوال ومقامات الصوفيّة واخلاقهم وادابهم واطلق عليهم اسم المقربين لان ليس في القرآن اسم الصوفي وليس للانسان ان يعتمد على الالفاظ، ويقول: «فكل الصوفية الوارد ذكرهم في كتب الطبقات كانوا في طريق المقربين، وعلومهم هي علوم احوال المقربين، ومن يتطلع الى مقام المقربين من جملة الابرار فهو المتصوف ما لم يتحقق بمجالهم، فاذا تحقق بمجالهم صار صوفيًا.»(٢)

ويقول:«وعلامة العارف بالله، ان نور معرفته لا يطفئ نور ورعه ولا يعتقد باطنًا في العلم بنقضه عليه ظاهرًا في الحكم، ولا تحمله كثرة نعم الله وكراماته على هتك استار محارم الله»(٣)

١- المصدر نفسه ص ٢١٣.
٢- المصدر نفسه ص ٢١٤.
٣- المصدر نفسه ص ٢١٥.

٣٢. الامام النيسابوري

الامام ابو حفص النيسابوري شيخ صوفية خراسان، قال عنه صاحب الكواكب الدرية: «كان عظيم الشأن عالي المقام، واضح البرهان، مباركًا على صوفية الاسلام وتربيته عائدة عليهم بصلات المعارف التي لا تحصرها الأقلام. مشكور السيرة في السر والجهد، من نوادر العصر وافراد الدهر، له الفتوة الكاملة والمروءة الشاملة.»[١]

ويقول ابو عبد الرحمن السلمي، صاحب الطبقات الصوفية: «ابو حفص من اهل قرية يقال لها «كورداباذا» وهي قرية على باب مدينة نيسابور اذا خرجت الى بخارى»[٢] توفي ابو حفص النيسابوري عام ٢٦٧هـ.

كان الامام النيسابوري يعتمد في تصوفه على القرآن والسنة ويقول: «ان الانسان لا يرقى الى الدرجات العالية في التصوف إلاّ اذا التزم اصلاً صحيحًا، والاصل الصحيح، انما هو الكتاب والسنة.»

واهم موضوع تطرق اليه الامام ابو حفص، وهو من المواضيع الاساسية في التصوف، هو الزهد، اذ قال: «ان الزهد لا يتنافى مع الثراء، وليس من المحتم ان يكون الزاهد فقيرًا، لان الزهد في القلب لا شأن له بالمظهر الخارجي، اي ان الزهد لا يتصل في قليل ولا في كثير بالثراء او الفقر، فقد يكون الشخص من اصحاب الملايين وهو زاهد، وقد يكون من اصحاب الدراهم ومع ذلك فهو غير زاهد.» ثم يقول هي مسألة الفقر والغنى المادي. والزاهد حقًا لا يذم الدنيا ولا يمدحها ولا ينظر اليها ولا يفرح بها ولا يحزن عليها اذا ادبرت[٣] قال تعالى «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم.»[٤]

١- «عوارف المعارف»، الامام شهاب الدين عمر السهروردي ص ٨٣.

٢- المصدر نفسه، ص ٨٣.

٣- المصدر نفسه، ص ٨٥.

٤- سورة الحديد آية ٢٣.

٣٣. السلمي ابو عبد الرحمن

محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم بن راوية بن سعيد بن قبيضة بن سراقة[١] ابو عبد الرحمن الازدي السلمي. ونسبته السلمي الى سليم قبيلة امه، فهو حفيد ابي عمرو اسماعيل بن نجيد السلمي. اشتهر ابو عبد الرحمن بنسب امه اكثر من اشتهاره بنسب ابيه، خلافًا لعادة العرب، لان اسرة امه اعظم مكانًا وافضل جاهًا من اسرة ابيه. يقال ان قيس بن الهثم السلمي من اجداده لامه، كان واليًا على نيسابور* في عهد معاوية ابن ابي سفيان من سنة احدى واربعين الى خمس واربعين هجري[٢]

وُلد ابو عبد الرحمن السلمي عام ٣٢٥هـ في نيسابور وتوفي فيها عام ٤١٢هـ ودفن في خانقاه بناها في نيسابور للصوفية. وقال الخطيب البغدادي حين ذهب الى نيسابور «وبنيسابور له دويرة معروفة به يسكنها الصوفية، وقبره هناك يتبركون بزيارته وقد رأيته وزرته[٣]»

كان والد ابي عبد الرحمن السلمي شيخًا ورعًا زاهدًا دائم المجاهدة له القدم في علوم المعاملات، صحب ابن منازل وابا علي الثقفي من شيوخ الملامتية في خراسان ومن تلاميذ ابي عثمان الحريري، وكان صوفيًا لم يوسع عليه الرزق علوّ القدر. وكانت ام ابو عبد الرحمن بنت الشيخ ابي عمر اسماعيل بن نجيد، ذات ثروة واسعة، سيدة فاضلة عليها نزعة صوفية مثل ابيها وزوجها أبي[٤] ابي عبد الله بن الاخرم وسمع كثيرًا من جده لامه (ابو عمر اسماعيل بن نجيد

١- «سيرة اعلام النبلاء». مجلد ١٧ ص ٢٤٧.

*- أهم مدن خراسان وعاصمتها. اسمها بالفارسية نيشابوراي (نيد شاه بور). نسبةً الى الملك سابور الاول ابن اردشير بالكان (بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٢٣)

٢- «في اصول التصوف والزهد»، أبو عبد الرحمن السلمي، سليمان ابراهيم آتش ص ٥٦.

٣- «تاريخ بغداد» مجلد ٢ ص ٢٤٨.

٤- «من اصول التصوف والزهد»، ابو عبد الرحمن السلمي. سليمان ابراهيم آتش ص ٥٥.

السلمي)[١] وكان شيخه في التصوف ابو القاسم النصر آباذي الذي لبس الخرقة عن يده. ولكن المؤرخ الدوسي يقول: ان ابا عبد الرحمن اخذ الخرقة الصوفية عن يد ابي سهل الصعلوكي ويبدو ان ابا عبد الرحمن صحب الشيخين ولبس الخرقة عن يد كل منهما[٢] بالاضافة الى هؤلاء المشايخ، سمع السلمي كثيرًا من علماء وقته، وكان ابرزهم في التاريخ ابو الحسن علي الدارقطني، وسمع من ابي العباس الاصم، واحمد بن محمد بن عبدوسي ومحمد بن احمد سعيد الرازي والحافظ النيسابوري.[٣]

بلغت مؤلفاته ثلاثين كتابًا ورسالة في الحديث والتفسير وفي التصوف. وبسبب ثرائه تمكن من جمع العديد من الكتب. وقيل بلغ فهرس كتبه المئة واكثر.[٤] ويقول عبد الغافر اسماعيل: «ابو عبد الرحمن شيخ الطريقة في وقته، الموفق في جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف، وصاحب التصانيف المشهورة العجيبة، ورث التصوف من ابيه وجده. وجمع من الكتب ما لم يسبق الى ترتيبه حتى بلغ فهرس كتبه المئة واكثر. حدّث اكثر من اربعين سنة قراءة وإملاء، وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق والحجاز وانتخب عليه الحفاظ[٥]

وقال ابو الحسن الهجويري: «كتب السلمي طبقات المشايخ وسيرهم ونقل كلامهم وطرقهم وسلوكهم وآدابهم ومعاملاتهم وصحبتهم كما كتب تاريخ اهل الصفة[٦]

١- «سير اعلام النبلاء» مجلد ١٧ ص ٢٤٧. «في اصول التصوف والزهد» ص ٥٩.
٢- «في اصول التصوف والزهد» ص ٦١.
٣- «تذكرة الحفاظ» مجلد ٣ ص ١٠٤٦.
٤- «سير اعلام النبلاء». مجلد ١٧ ص ٢٤٥.
٥- «طبقات الشافعية» مجلد ٣ ص ١٦٠.
٦- «كشف المحجوب» ص ٨١.

وعندما بدأ الصراع بين الفقهاء والصوفية في اواخر القرن الثاني هجري، واشترك فيه الامام احمد بن حنبل، لم يسلم السلمي من تلك المعارضة للتصوف، فاخذ قسطه منها، فكانت انتقادات الفقهاء له انه ألف حقائق التفسير للصوفية ووضع الاحاديث لهم. وقال الشيخ ابو عبد الله الذهبي عن السلمي في ذلك الوقت: «الحافظ، العالم، الزاهد شيخ المشايخ.» ثم يقول: «ألف حقائق التفسير فأتى به بمصائب وتأويلات الباطنية نسأل الله العافية.[١]»

اما تلاميذ ابي عبد الرحمن فكانوا من الكثرة لا مجال لذكرهم كلهم في هذه الدراسة ولكن نذكر بعضهم: ابو بكر البيهقي الفقيه الشافعي. ابو نعيم احمد الاصبهاني صاحب كتاب حلية الاولياء. عبد الله ابو محمد الجويني. عبد الكريم القشيري صاحب الرسالة القشيرية. الفضل بن احمد المهيني الصوفي. ابو بكر التفلسي وغيرهم.[٢]

٣٤- أبو مدين التلمساني

شعيب بن الحسن الاندلسي التلمساني، لقّبه ابن عربي «شيخ الشيوخ» ولد عام ٥٢٠هـ في بلدة «قطنيانة» من اعمال اشبيلية وتوفي عام ٥٩٤هـ في تلمسان بعد ان استدعاه الخليفة ابو يوسف بن عبد المؤمن الذي اضطهد العلماء والفلاسفة واهل الفكر، فاتى به مكبلاً لمحاكمته، حتى اذا وصل تلمسان مرض ومات.[٣] دفن في قرية «العباد» بقرب تلمسان.

ابو مدين هو استاذ عبد الرازق الجزولي، والجزولي هو شيخ ومعلم عبد الرحيم القنائي، وابو الحجاج الاقصري، كما ان ابا مدين التلمساني استاذ وشيخ عبد السلام بن مشيش استاذ ومربي الحسن الشاذلي شيخ الطريقة الشاذلية،[٤] ومحيي الدين بن عربي[٥]

١- «تذكرة الحفاظ» مجلد ٣ ص ١٠٤٦.

٢- «في اصول التصوف والزهد» ص ١١٠ -١١٧ .

٣- «اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي». جمال الدين الشيال. ص ١٠٤.

٤- «الطرق الصوفية في مصر». عامر النجار ص ٨٢.

٥- «الطرق الصوفية في مصر». عامر النجار ص٨٣ .

نزح ابو مدين من الاندلس الى مدينة «فاس» بالمغرب ليأخذ العلم عن شيوخها وقد جذبته اليها شهرتهم، فالتحق بالشيخ الصوفي الكبير ابو يعزى، الذي كان يقصده المريدون وطلاّب العلم من جميع انحاء المغرب والاندلس، يأخذون عنه ويستمعون اليه، فلزمه ابو مدين سنين عديدة يأخذ عنه العلم والزهد والعبادة.

بعد ان قضى ابو مدين سنوات عدة في «فاس» انتقل الى مكة حيث قابل الشيخ عبد القادر الجيلاني فاخذ عن يده الخرقة الصوفية. ومن مكة رجع ابو مدين الى بلدة «بجاية» حيث اتجه لتعليم الطريقة الصوفية التي عُرفت بالطريقة «المدنية»

يقول المؤرخ التادفي عن ابي مدين: «له القدم الراسخ في التمكين، والباع الطويل في التعريف، واليد البيضاء في احكام الولاية، والقوة الشديدة في احوال النهاية. هو احد اوتاد المغرب واحد اركان هذا الشأن. هو احد من جمع له الله بين علم الشريعة والحقيقة، وافتى في بلاد المغرب على مذهب الامام مالك بن انس، رضي الله عنه، وتخرج بصحبة غير واحد من مشايخ الغرب مثل الشيخ عبد الرحمن بن حجون المغربي، والشيخ محمد بن احمد القرشي والشيخ عبد الله القشتاني الفاسي والشيخ صالح الزكالي.(١)

كان ابو مدين يقول: «حياتي قائمة بالوحدانية واشاراتي الى الفردانية، وروحي راسخ في علم الغيب. اذا ظهر الحق لم يبق معه غيره، والحق ما بان عنه احد من حيث العلم والقدرة، ولا اتصل به احد من حيث الذات والصفات،

١- «قلائد الجواهر» ص ١٣٥.

والاخلاص هو ان يغيب الحق في مشاهدة الحق، والتقوى ان ترى الله تعالى في كل اعمالك، والتوكل هو الاعتماد على الله فلا يغلب على ذكرك إلاّ الله، والتصوف هو التسليم لله وحقيقته الا تذكر ولا سواه.»[١]

وصل ابو مدين بأتباعه الى اقصى مراتب الصوفية فتجردت نفسه التجرد كله واتحد بالله الذي كان يدعوه الى آخر نسمة من حياته بقوله: الله الحق، اتحادًا كاملاً.[٢]

٣٥. ابن مشيش

عبد السلام بن مشيش قيل فيه، مقامه كمقام الشافعي في مصر. وكان عماد طريقته الاخلاص ويقول: «الصوفي يرى نفسه حسب ما هو في علم الله، لا يختار من الامر شيئًا، ويختار ان لا يختار، وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة. وكل مختارات الشرع وترتيباته فهي مختار الله ليس لك منه شيء فاسمع واطع وهذا موضع الفقه الرباني والعلم الالهي[٣]»

ومن اقواله: «فاعبد الله مخلصًا له الدين، ألا الله الدين الخالص»[٤]

كان الشيخ ابو الحسن الشاذلي، صاحب الطريقة الشاذلية، تلميذا لابن مشيش الذي يقول عن قصة اجتماعه وتعرفه بابن مشيش: انه لما دخل العراق اجتمع بالشيخ ابي الفتح الواسطي، فما رأى بالعراق مثله. وكان بالعراق شيوخ كثيرة. وقال كنت ابحث عن القطب، فقال لي الشيخ ابو الفتح أتطلب

١- «الموسوعة الصوفية»، عبد المنعم الحفني ص ٣٦٠.
٢- «دائرة المعارف الاسلامية» ص ٤٠١.
٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٦٥، عبد المنعم الحفني.
٤- المصدر نفسه ص ٣٦٤.

القطب بالعراق وهو في بلادك المغرب، فارجع فانك تجد القطب هناك. فلما رجع اجتمع باستاذه قطب الشيخ عبد السلام بن مشيش[١] وكان الشاذلي دائمًا يذكره: استاذي اوصاني او قال لي.

وقال ابن مشيش: «افضل الاعمال: اربعة بعد ا ربعة. المحبة لله، والرضا بقضاء الله، والزهد في الدنيا، والتوكل على الله هذه اربعة. اما الاربعة الاخرى فالقيام بفرائض الله. والاجتناب لمحارم الله، والصبر على ما لا يعني، والورع من كل شيء يلهي[٢]

ومن اقوال ابن مشيش التي قيل انها تتضمن مذهبه كله:

«حدد بصر الايمان تجد الله في كل شيء، وعند كل شيء ومع كل شيء، وفوق كل شيء، وقريبًا من كل شيء ومحيطًا بكل شيء. وامحق الكل بوصفه الاول والآخر والظاهر والباطن. كان الله ولا شيء معه.» ثم يقول: «فإن اردت الصدق من القول فاكثر من قراءة إنّا انزلناه في ليلة القدر، وان اردت الخلاص من جميع احوالك، فاكثر من قراءة هو الله احد. ومصدر ذلك كله صدق الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم. فإن اردت ان تكون مرتبطًا بالحق فتبرأ من نفسك واخرج من حولك وفوقك واسقط الخلق من قلبك ولا تسرف في ترك الدنيا.»[٣]

٣٦- ابو الفتح الواسطي

هو الذي قال للشاذلي في بغداد: «اتفتش عن القطب في بغداد وهو في بلدك في المغرب؟» فسار الشاذلي الى القطب عبد السلام بن مشيش.

١- «الطرق الصوفية في مصر» ص ٨٥.

٢- «ابو الحسن الشاذلي» علي سالم عمار مجلد ١ ص ٨١.

٣- «الموسوعة الصوفية»، عبد المنعم الحفني ص ٣٦٥ (بتصرف).

قدم للاسكندرية وبشر بالطريقة الرفاعية فالتف حوله العديد من الاتباع عُرف منهم الشيخ عبد السلام القليبي والشيخ عبد الله البلتاجي والشيخ بهرام الدميري وغيرهم.(١)

يقول الدكتور النجار كان للواسطي تأثير كبير للغاية في انتشار الطرق الصوفية في مصر. والجدير بالذكر ان السيدة فاطمة ام سيدي ابراهيم الدسوقي هي ابنة ابي الفتح، فيكون مؤسس الطريقة الدسوقية حفيده.

توفي الواسطي عام ٦٣٢هـ في مدينة الاسكندرية وخلفه على الطريقة الرفاعية في مصر الشيخ احمد البدوي مؤسس الطريقة البدوية.

٣٧. ابو نصر الفارابي

يقول بعض المؤرخين ان الفارابي لم يكن صوفيًا بالرغم من زهده وتقشفه وحبه للخلوة، بل كان فيلسوفًا ذا تصرف صوفي.

يقول هنري كوربان عن الفارابي: «كان هذا الفيلسوف شديد التدين ميّالاً الى الزهد والتقشف، عاش عيشة بسيطة بعيدة عن التكلف، حتى انه كان يتزيا بزي اهل التصوف، وكان من طبعه اعتزال الناس والخلوة الى نفسه زاهدًا بامور الدنيا.»(٢)

بالرغم من الشك القوي في تصوف الفارابي، الذي عاش مع الحمدانيين الشيعة الرافضة للتصوّف، فلا ضر من القاء نظرة مقتضبة على حياة هذا الفيلسوف الكبير، «فالمعرفة بالشيء فضيلة.»

١- «الطرق الصوفية في مصر» ص ٨٦.

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٢٤٣.

ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان المعروف بالفارابي نسبة الى مولده عام ٢٥٧هـ في قرية وسيج بالقرب من مدينة فاراب في تركيا. درس علم المنطق على يد متى بن يونس في بغداد ثم سار الى حرّان حيث درس على يد يوحنا بن حيلان، ثم سار الى مصر التي تركها وسار الى حلب حيث استقر في بلاط الامير سيف الدولة الحمداني. توفي الفارابي عام ٣٣٩هـ في طريقه الى عسقلان.(١)

كان الفارابي يزدري الحياة الدنيوية وكان له شغف في الطبيعة وبساطة العيش حيث كان يعقد دروسه في الحقول والبساتين. من مؤلفاته: «شرح كتاب البرهان»، «احصاء العلوم» «فلسفة ارسطوطاليس» وغيرها.

٣٨. ابو الغيث بن جميل

ابو الغيث كان من كبار صوفية اليمن وكان لقبه «شمس الشموس» ونسجوا في تصوفه حكاية قريبة الشبه من حكاية دخول ابراهيم بن أدهم طريق الصوفية، فقد خرج ابن جميل مع رفقة له لقطع الطريق، فوكله احدهم ان يراقب قافلة قادمة، فسمع هاتفًا يقول له: يا صاحب العين، عليك بالعين!! فوقع هذا الكلام في نفسه وكف عن قطع الطريق وسلك طريق الصوفية(٢)

نسبت لابن جميل عبارات كثيرة، جمعت في مجلد، ومنها العبارة التي كان يرددها عبد الكريم الجيلي «خضنا بحرًا وقف الانبياء على ساحله»(٣)

١- «وفيّات الأعيان» ابن خلكان مجلد ٤ ٢٤ص ٢ «وحكماء الاسلام» البيهقي ص ٢٤.

٢- «الصوفية والفقهاء في اليمن» عبد الله الحبشي ص ١٥.

٣- «الانسان الكامل». عبد الكريم الجيلي مجلد ١ ص ٧٤.

توفي ابو الغيث بن جميل عام ٦٥١هـ وقد ترك بعد وفاته تقليدًا اتبعه من بعده في مجالس السماع فقد كان من اوائل الصوفية الذين مارسوا الموسيقى في مجالس السماع ببلاد اليمن[١]

٣٩. شرف الدين الجبرتي

شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن ابي بكر الجبرتي نسبة الى «جبرت» بلدة صغيرة في اليمن.

يقول الحبشي: «وعندما حان وقت تولية الشيخ اسماعيل الجبرتي مشيخة الصوفية، وذلك بعد ان كثر اتباعه واشتهر أمره، اجتمع الصوفي الكبير رضي الدين ابو بكر المورعي بالشيخ ابي السراج – صاحب قرية السلامة – فاشار عليه بأن ينصب الجبرتي فقبل منه ذلك، وانتظر حتى جاء وقت السماع، فقام في تلامذته، والبس الجبرتي عمامته وقال لهم: قد نصبته عليكم شيخًا.[٢]

اما المستشرق «ترمنجهم» فيقول: ان الجبرتي اخذ الطريقة عن يد تاج الدين ابن زكريا من «زبيد» واصبح الخليفة النقشبندي في اليمن»[٣]

طوّر الجبرتي المراسم الصوفية، خاصة مجالس السماع، التي كانت تستغرق في بعض الاحيان الليلة باكملها ويحضرها جمع من الشيوخ وبعض الحكام. وكان الجبرتي اول من اقام السماع للأسر احتفالاً بمناسباتهم العائلية، واول من احتضن اتباع ابن عربي ودافع عنهم امام الفقهاء، كما كان اكثر صوفية اليمن حظوة لدى حكام بني رسول.[٤]

Trimingham «The Sufi Orders in Islam p. 95»

١– «الصوفية والفقهاء في اليمن» ص ٣٢.

٢– المصدر نفسه ص ٢٥.

٣– «خلاصة الاثار» الحجي ص ٣٤٦ و (الحاشية).

٤– «الفكر الصوفي عند الجيلي». يوسف محمّد طه زيدان ص ٤٢.

٤٠. احمد بن ابي بكر الرداد

كان من كبار صوفية اليمن واكبر تلامذة شرف الدين الجبرتي الذي ولاّه المشيخة على قيد حياته وذلك ليلة السبت من شعبان سنة ٨٠٢هـ في مسجده المعروف بزبيد بمحضر جمع من الشيوخ والفقراء والمريدين.[١]

تولى الرداد القضاء العام في اليمن، مما زاد من سطوة الصوفية ونصرتهم على الفقهاء وكان الرداد اقرب الى الجانب الفلسفي من التصوف وبذلك يقول السخاوي: «ان الرداد وان كانت لديه فضائل كثيرة، إلاّ انه قد غلب عليه حب الدنيا والميل الى تصوف الفلاسفة[٢]

وللرداد مؤلفات عديدة في التصوف منها: «الشهاب الثاقب في الرد على بعض اولي المناصب.» «تلخيص القواعد في اصل حكم خرقة الصوفية» وغيرهما.

توفي احمد الرداد عام ٨٢١ هجرية.

٤١. المقدسي، ابن القيسراني

محمد بن طاهر بن احمد بن ابي الحسن الشيباني، كنيته ابو الفضل والمعروف بابن القيسراني[٣] نسبة الى قيسرية من بلاد الشام، اما تسميته بالمقدسي فترجع الى بيت المقدس.

ولد المقدسي عام ٤٤٨هـ في بيت المقدس وتوفي عام ٥٠٧هـ في بغداد[٤] ودفن في المقبرة العتيقة بالجانب الغربي من بغداد.

١-« الفكر الصوفي عند الجيلي» ص ٤٥. وكتاب «الجزء اللطيف عن التحكيم الشريف»، العيدروس ص ٢٢.

٢- «الضوء اللامع بأعيان القرن التاسع»، السخاوي مجلد ١ ص ٢٦٠.

٣- «هدية العارفين». اسماعيل البغدادي ص ٨٢.

٤- «معجم البلدان» ياقوت الحموي ص ٢٣٠.

اخذ المقدسي العلوم الدينية عن عدد كبير من الشيوخ منهم الفقيه ابو الفتح نصر النابلسي شيخ الشافعية بدمشق (توفي عام ٤٩٠هـ) وأبو عثمان بن ورقاء وأبو محمد عبد الله الصرفيني في بغداد. وصحب في الموصل ابا الحسين احمد ابن النقور البزاز، وانتقل الى مكة فصحب الحسن الشافعي وسعد ابن علي الزنجاني، وفي مصر صحب ابا اسحق الحبال.(١) كما صحب العديد من الشيوخ في حلب، اصبهان، نيسابور، هراة وجرجان وغيرها من البلدان الاسلامية.(٢)

تقول المؤرخة غادة المقدم: «ان المقدسي الى جانب تصوفه حاول السعي وراء الاحاديث النبوية الشريفة وكان من طلاب العلم والمعرفة المتقشفين وهذا واضح لنا من وفرة أساتذته الذين عُرفوا باهميتهم وطول باعهم في الحديث والمعرفة.(٣)» كما تقول: «ان المقدسي اقام علمه الصوفي على علم الظاهر فكان داودي المذهب، سار على نهج الرسول، الى جانب زهده في الدنيا، ولكن هذا لم يمنعه من السعي وراء العلم، ونفي صفة المتصوفة الذين سموا بالكسالى المتواكلين وهم لا يعملون لعمارة الدنيا، ولا يريدون للناس ان يعملوا.(٤)

٤٢ . محمد عثمان المرغني

ولد محمد عثمان المرغني عام ١٢٠٨هـ في قرية «السلامة» بالقرب من مدينة الطائف من الجزيرة العربية. وعائلة المرغني من عائلات الشرفاء الذين يرجع نسبهم الى قريش.(٥)

١- «صفوة التصوف» ص ١٥ ، ١٦ (بتصرف) تحقيق غادة المقدم عدرة.

٢- المصدر نفسه ص ١٨ و١٩.

٣- «صفوة التصوف» ص ٢٠.

٤- المصدر نفسه ص ٩.

٥- «الأبانة النورية في شأن صاحب الطريقة الخاتمية». عرف لاحقاً باسم كتاب «الابانة». احمد بن ادريس محمد بن النصيح.

توفيت والدته، ولمّا يبلغ من العمر سبع سنين، ثم توفي والده محمد بن ابي بكر المرغني بعدها بثلاث سنين. كان والد محمد وجده عبد الله بن ابراهيم بن حسن المعروف بالمحجوب، من الصوفيين المرموقين في مكة.[١]

تولى تربية محمد عثمان المرغني عمه محمد ياسين بن عبد الله بن محجوب المرغني، وكان صوفيًا مشهورًا وعالمًا معروفًا في مكة[٢]، علّمه علوم الظاهر، واللغة والفقه والتفسير، وعند بلوغ محمد عثمان الخامسة عشرة من العمر صار متضلعًا بعلوم الظاهر. اتجه انذاك الى دراسة علوم الحقيقة، اي التصوف حتى اصبح يعتبر، بالرغم من صغر سنه، من الصوفية الكبار.

قبل ان يلتحق محمد بن عثمان بمدرسة احمد بن ادريس انضم الى النقشبندية، القادرية، الشاذلية والجنيدية، والمرغنية، طريقة جده عبد الله بن محجوب المرغني[٣]

كانت مدرسة احمد ابن ادريس دينية تبشيرية قوامها الكتاب والسنة تدعو الى الاخلاص الكامل للدين، ولهذا سار محمد عثمان الى الحبشة ثم الى السودان يدعو الى الدين الاسلامي وليس لطريقة صوفية معينة.

ثم كانت سفرته الثانية عام ١٢٢٨هـ الى اسيوط ومنفلوط في مصر، ولكن لم يكتب له النجاح، فطلب من شيخه احمد بن ادريس ارساله الى السودان.

وسار الى السودان عام ١٢٣٠هـ، حيث عيّن الصوفي المعروف ادريس بن محمد المحاسي خليفة الخلفاء كي يساعده في الدعوة الى مدرسة ابن ادريس.

١- «الطرق الصوفية في السودان» علي صالح كرار ص ٥٦.
٢- المصدر نفسه ص، ٥٦.
٣- «الطرق الصوفية في السودان» علي صالح كرار. ص ٥٦ و٥٧.

في المدة ما بين عام ١٢٣٠هـ و عام ١٢٤٣هـ. جال المرغني في السودان، فتارة نجده في «دنجولا» وتارة في منطقة «الدبّا» ثم نراه يجوب في منطقة «الشيقة» ويقول المؤرخ علي صالح كرار: «سار المرغني من «الدبّا» في قافلة كبيرة يقودها خليفته محمد صالح شدول الى «بارة» ثم قدم «كوردفان» في شوال عام ١٢٣١هـ حيث بقي ثلاث سنوات وثلاثة اشهر، وفي خلال ذلك، زار «سنّار»[١] وفي «بارة» تزوج رقية بنت جلاّب من عائلة جلابة حوّاري المعروفة في مدينة «بادي»[٢]

خلال رحلته ادخل في الطريقة الادريسية، الاصح العقيدة الادريسية، علماء معروفين، كمحمد خيري صالح العراقي، محمد خير النادف، ومحمد المعروف بالجكايدي، ثم الشيخ عربي الخطيب الذي عيّن لاحقًا قاضي منطقة «كوردفان» والشيخ بدوي ولد ابو صافيا، محمد بادي شقيق زوجته رقية وغيرهم من علماء الصوفية[٣] كما بنى العديد من الزوايا والمدارس.

في عام ١٢٤٣هـ رجع المرغني الى مكة والتحق بشيخه احمد بن ادريس، ثم سار معه عام ١٢٤٣ الى مدينة «زبيد» في اليمن ومنها انتقل برفقته الى قرية «صبيا» وبقي معه حتى مات في ٢١ رجب عام ١٢٥٣هـ.

بعد وفاة احمد بن ادريس، الذي لم يعيّن خليفة له، حصل خلاف بين تلاميذه على الخلافة التي انتهت الى ابراهيم الرشيد.[٤]

انقسمت المدرسة الادريسية الى طوائف عدّة: السنوسية، الختمية اوجدها المرغني، المدنيّة اوجدها محمد المدني، الرشيدية اوجدها ابراهيم الرشيد، ثم لاحقًا الادريسية اوجدها ابناء احمد بن ادريس.

رجع محمد عثمان المرغني الى مكة ونادى بطريقته الختمية إذ قال «انها خاتمة الطرق الصوفية» ومنذ ذلك الوقت انطلقت هذه الطريقة الجديدة.

١- كتاب «الاحد». الوالي ص ٦.
٢- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٦٠
٣- المصدر نفسه ص ٦٠.
٤- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٥٤.

بروز الفلسفة في التصوف الاسلامي

كان التصوف، حتى القرن الخامس هجري، يمثل اتجاهًا فرديًا ذاتيًا او فرقًا صغيرة تجتمع في المساجد او امكنة خاصة هربًا من الفوضى الفكرية والتشتت الايماني والشك العقائدي التي ابرزها تدفق معتقدات وفلسفات ومذاهب لاهوتية غريبة عن الاسلام، كالزرادشتية والمانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية وغيرهم كما كان المجتمع الفكري مزيجًا من فلسفة اليونان وزهد الهنود وزندقة الفرس والشك المسيحي، كما انتشر المفسرون والمتكلمون والفلاسفة والملاحدة، ثم كان هناك اسراف وبلبلة في التفكير الديني سببته الحرية التي اثارتها المعتزلة فاتاحت المجال لانتشار المجادلات العقلية والخلافات الفقهية والعصبيات المذهبية والنزعات الالحادية.(١)

الذين شجعوا على انتشار المذاهب الدينية والخلافات الفقهية ودفعوا رجال الدين الى الواجهة السياسية كان السلاجقة والفرس الذين لم يكونوا عربًا، فاعتمدوا على الدين كالرابط الذي يشدهم الى السلطة ويؤيد سلطتهم في الحكم وبواسطته احكموا قبضتهم على ادارة الدولة وتركوا للعنصرية العربية عظمة الاسم بدون السلطة.(٢)

١- «تذكر يا مزوان» سليمان علم الدين ص ٣٢٩.
٢- المصدر نفسه ص ٣٣٠.

في هذا الخضم من البلبلة الفكرية والخلافات الدينية والاهواء السياسية والعقائدية والتعصب المذهبي والعنصري لجأ بعض الناس، هربًا من هذه الفوضى الفكرية والشك العقائدي، يلوذون بالله تعالى كالامل الوحيد لانتشالهم من قلق روحي وعقائدي وشك مذهبي ويسبغ عليهم سكينة الايمان وهدوء الروح.

بقيت الصوفية منهجًا فرديًا ذاتيًا وتجمعات لا رابط بينها او قاعدة موحدة او غاية، إلاّ الزهد وعبادة الله، حتى ظهرت بعد الاحتلال الايوبي لمصر وبلاد الشام، الطرق الصوفية بعد تبدد العقيدة الاسماعيلية الشيعية التي كانت ترفض التصوف لاعتقادهم انه يلغي دور الامامة، وانتشار المذهب الشافعي السني الذي فتح الباب على مصراعيه امام الصوفية، وكانت للصوفية خانقاه، «سعيد السعداء» التي بناها السلطان صلاح الدين في القاهرة وكانت اول خانقاه بنيت في مصر.

خلال العهدين الايوبي والمملوكي، برزت الطرق الصوفية واهمها:[١]

١. الشاذلية: اسسها ابو مدين شعيب (توفي عام ٥٩٤هـ) ونسبت الى ابي الحسن علي الشاذلي (توفي عام ٦٥٧هـ).

٢. القادرية نسبت الى الشيخ عبد القادر الجيلاني، (٤٧٠ - ٥٦١هـ).

١- الطرق الصوفية في الاسلام «Trimingham» ص ١٤.

٣. القلندرية: نسبت الى قلندرة يوسف اسست عام ٦١٠هـ.

٤. العيسوية: اسسها الشيخ احمد بن عيسى.

٥. المولوية: نسبت الى مولانا جلال الدين الرومي، اسسها ابنه الاكبر «سلطان ولد» توفي الرومي عام ٦٧٢هـ.

٦. البكتاشية: اسسها الحاج بكتاش الصوفي توفي عام ٧٣٨هـ.

٧. البدوية: اسسها احمد البدوي (توفي عام ٦٧٥هـ).

٨. الرفاعية: اسسها احمد بن رفاعي (توفي عام ٥٧٨هـ)

٩. السهروردية: اسسها شهاب الدين ابو حفص السهروردي (توفي عام ٦٣٢هـ).

١٠. النقشبندية: نسبت الى محمد بهاء الدين النقشبندي (توفي عام ٧٩٢هـ).

١١. *الكبراوية: اسسها نجم الدين كبرى (توفي عام ٦١٨هـ). بعد بروز الطرق الصوفية تحولت الصوفية من حركة فردية ذاتية، يعمل كل حسب طريقته ومسلكه، الى نظم وفرق وتجمعات لها عقائد ومسالك وقيود اشبه بتجمعات كيفية منها من فرق دينية، همهما عبادة الله تعالى، كما اجمعوا على الخمول والاعتماد على الغير في معاشهم بدلاً من العمل لبناء وتحسين المجتمع الذي يعيشون فيه.

كان النبي «صلعم» يقول «اكلفوا من العمل ما تطيقون» وكان عليه السلام ينفر من كل تجرد عن الحياة ومتعها التي احل الله، وينهى عن الكسل والتماوت والعجز بدعوى التفرغ للعبادة، فكان مما يستعيذ به في دعواته قوله «اللهم اني اعوذ بك من العجز والكسل.»(١) وكان يقول «لكل امة رهبانية، ورهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله»(٢)

---

*. في الموسوعة الصوفية. عبد المنعم الحفني توجد لائحة تحتوي على اسماء ١٦٧ طريقة صوفية. ص ٢٦٤.

١- البخاري. «دعوات» ص ٣٨. «مسلم ذكر» ص ٤٩.

٢- «المسند» احمد بن حنبل مجلد ٣ ص ٢٦٦.

اذا نظرنا بواقعية الى التصوف الاسلامي الذي امتد على حقبة من الزمن تزيد على اثني عشر قرنًا، واستقطب الملايين من المسلمين، قيل ان في عهد السلطان العثماني مراد الثاني، فاق عدد الصوفيين البكتاشيين سبعة ملايين متصوف، كما بنيت لاهل التصوف الالوف من الخوانق والزوايا، وقدمت لهم الصلات واوقفت لهم الاوقاف الشاسعة[١] نجد، هذا اذا استثنيا بعض المفكرين الاوائل، كالمحاسبي، والتستري، والجنيد والحلاّج وطواسينه وبعض الفلاسفة المتأخرين، كالغزالي، وابن عربي والسهروردي (المقتول) وبعض الشعراء كابن الرومي، وعمر الفارض وغيرهم. ان ما قدمته الصوفية للفكر الاسلامي، لا يتناسب مع ما استهلكته من القدرات الانسانية الهائلة التي كان يمكن توظيفها لخدمة الاسلام. لا ريب ان بعض الطرق الصوفية ادخلت الاسلام الى بعض الدول الافريقية كنيجريا، والسنغال والسودان وغيرها. اما الهند فان الاسلام دخل اليها قبل التصوف وليس العكس.

في القرنين السادس والسابع ظهر فلاسفة ومفكرون صوفيون، ادخلوا على التصوف عقائد وتصورات فكرية، كوحدة الوجود والانسان الكامل ثم اشراق السهروردي، مما رفع التصوف من مقولات وجدانية وانفعالات نفسية، قاعدتها عبادة الله تعالى والفناء في حبه، الى الخوض في معرفة المولى، سبحانه وتعالى، والكشف عن اسرار علاقة الانسان بخالقه.

---

١. يقول ابن جبير ، «رحلة ابن جبير» ص ٢٣١ «اما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية وهي قصور مزخرفة. وهذه الطائفة من الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفراغ خواطرهم لعبادته عن الفكرة في اسباب المعايش واسكنهم في قصور يذكرهم قصور الجنان واحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشًا طيبًا هنيئًا والدولة تقوم بجميع مصاريفهم وتقدم لهم ما يحتاجونه. كانت رحلة ابن جبير في العهد الايوبي. كما يقول الدكتور نقولا زيادة – «دمشق في عهد المماليك»، كان في دمشق ثمان وسبعون زاوية للتصوف وزاويتان للنساء.

من المفكرين والفلاسفة الذين تصوفوا برز هؤلاء:

١- محي الدين بن عربي الاندلسي. (توفي عام ٥٤٣هـ.)

٢- شهاب الدين السهروردي - «المقتول» (توفي عام ٥٨٧هـ.)

٣-ابن سبعين (توفي عام ٦٦٩هـ.)

٤- ابن طفيل (توفي عام ٥٨٠ هـ.)

٥- عبد الكريم الجيلي (توفي عام ٨٢٦ هـ.)

٦- الشاعر فريد الدين العطّار (توفي عام ٦٠٥ هـ.)

٧- ابن الفارض (توفي عام ٦٣٢ هـ.)

٨- جلال الدين الرومي (توفي عام ٦٧٢ هـ.)

١- محيي الدين بن عربي

محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمي، من ولد عبد الله بن حاتم طي اخي عدي بن حاتم طي[١] وكان ابوه علي بن محمد من ائمة الفقه والحديث ومن اعلام الزهد والتقوى. وكان خاله ابو مسلم الخولاني الصوفي صاحب احوال وكرامات، وهكذا شب محي الدين في بيت جوه عامر بالعلم والتقوى والورع[٢]

ويصف الصوفي عبد الله الرومي البوسني ابن عربي بقوله: «الشيخ الكامل، والخير الفاضل، خاتم الولاية الخاصة المحمدية، كاشف الحجب العزّية عن وجه الاحدية، مرتب صفوف الارواح في العوالم الروحية، مكمل جسوم

١- «الصوفيّة في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ٤٤٥.

٢- «ابن عربي» الدكتور يوسف ايبش ص ٥.

الاولياء في العوالم الخلقية، اعني: الشيخ محيي الملّة والدين، العربي الطائي الحاتمي الاندلسي رضي الله عنه.»(١)

كان يطلق عليه في الاندلس «ابن العربي» بالالف واللام، اما في المشرق فكانوا يطلقون عليه «ابن عربي» من غير اداة التعريف، تميّزًا بينه وبين القاضي بن العربي قاضي قضاة اشبيلية المتوفى عام ٥٤٣هـ واحد علماء الفقه والتفسير المشهورين وصاحب احكام القرآن(٢)

وُلد محيي الدين ابن عربي في بلدة «مرسية» في جنوب الاندلس في شهر رمضان عام ٥٦٠هـ، ثم انتقل مع والديه، وهو في الثامنة من عمره، الى مدينة اشبيلية حيث اخذ علوم الدين والفقه عن يد الشيخ ابو محمد عبد الحق عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلي، وعن يد ابي بكر بن خلف كبير فقهاء اشبيلية، وابن زرقون، وابي الوليد الحضرمي وانتهى من تحصيل علمه وهو لم يتجاوز العشرين من عمره.(٣)

بقي ابن عربي في اشبيلية مدة طويلة زار خلالها عدة مدن اندلسية حيث التقى علماء وصوفيين واخذ عنهم علوم التصوف والفلسفة والدين.*

١- مخطوط كتب عام ١٠٣٢هـ. وهو شرح لقصيدة ابن عربي التائية ومطلعها:

شرفت عن اوصاف كون بنظرة فتى لمحت عين الحبيب بطرفـــة

مشاهد في الحق ووحدتـــه التي تعالت وضلت ان تعاني بوحدة

في هذا المخطوط الموجود عند الكاتب شرح مستفيض عن فلسفة ابن عربي الصوفية.

٢- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها». عرفان عبد الحميد فتاح ص ٢٤٩.

٣- «ابن عربي» الدكتورة سعاد الحكيم ص ١٣ (حاشية) (بتصرف).

*- كان والد ابن عربي علي بن محمد صديقاً لابن رشد فيلسوف قرطبة.

بعد رحلة قصيرة الى تونس، سار ابن عربي عام ٥٩١هـ الى المغرب العربي، حيث مكث بعض الوقت في مدينة «فاس» مدينة العلم والمدارس والربط الصوفية. ثم رجع من «فاس» الى اشبيلية، ومنها سار عام ٥٩٣هـ. مرة ثانية الى «فاس» ثم رجع الى اشبيلية عام ٥٩٥هـ. وفي عام ٥٩٧هـ نجده في «الموحادي» عاصمة مراكش، ومنها سار الى تونس، مع رفيقه محمد الهزار[١] حيث التقى ولد احمد بن قسي واخذ منه كتاب والده «خلع النعلين»[٢] وكذلك في تونس، تعرّف على الشيخ عبد العزيز المهدودي الذي نال اعجابه، كما ذكر في رسالته «مشاهدة الاسرار القدسية ومطالع الانوار الالهية» التي ارسلها له عام ٦٠٠هـ من مكة المكرمة.

وفي عام ٥٩٨هـ سار الى مكة حاجًّا، حيث اقام سنتين ثم انتقل منها عام ٦٠١هـ الى بغداد، ومن بغداد سار الى القاهرة عام ٦٠٣هـ ومنها انتقل مرة ثانية الى مكة عام ٦١١هـ حيث كتب كتابه المشهور «الفتوحات المكية» الذي قال عنه الدكتور ابو العلا عفيفي: «فان فتوحاته المكية الذي هو اعظم موسوعة في التصوف في اللغة العربية.»[٣] وفي مكة التقى بفتاة صوفية فارسية الاصل، كانت على درجة عظيمة من التقوى، وهي نظام ابنة الشيخ الصوفي الفارسي ابو شجى زاهد بن رستم الاصفهاني فتزوجها.

خلال زيارته الاولى لمكة التقى بجماعة من صوفية «قونية» مدينة في الاناضول، تحت إمرة الشيخ مجد الدين اسحق القونوي، فرافقهم ابن عربي الى قونية حيث اكرم وفادته سلطان قونية «كي خسرو» وخلع عليه العديد من الهدايا النفيسة.[٤]

١- Sufis of Andalusia. RUH-EL-QUDS.p. 34

٢- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ٤٤٦.

٣- «فصوص الحكم» ص ٧.

٤- «المقري» مجلد ٢ ص ٣٨٤. «الفتوحات المكية» مجلد ٣ ص ١٢٦ (بتصرف).

ومن الاناضول رجع ابن عربي عام ٦٢٧هـ الى دمشق حيث اصطدم بموجة من التهم والنقد والتجريح بل التكفير والزندقة اطلقها نحوه الفقهاء وبعض رجال الدين فلاذ باصدقائه من عائلة «ابن زكي» وافراد من الاسرة الايوبية الحاكمة، وانصرف الى القراءة والبحث والتدوين والتعليم(1)

توفي الشيخ الاكبر في دار القاضي محي الدين بن الزكي في ٢٨ ربيع الثاني عام ٦٣٨هـ ودفن في مقبرة العائلة على سفوح جبل قاسيون(2)

تزوج ابن عربي اربع نساء، مريم بنت محمد بن عبدون تزوجها في اشبيلية. فاطمة بنت يونس بن يوسف والي مكة والدة ابنه عماد الدين (توفي عام ٦٦٧هـ) والفتاة الفارسية نظام ابنة الصوفي ابو شجى زاهر بن رستم الاصفهاني. ثم تزوج في دمشق ابنة قاضٍ مالكي لم يعرف اسمه.

وكان لابن عربي صبيان، عماد الدين محمد، والشاعر الصوفي سعد الدين محمد صاحب كتاب «الديوان» وابنة اسمها زينب.

اختلف المؤرخون في تقدير عقيدة ابن عربي ومذهبه. فيقول ابن العماد الحنبلي: «وقد تفرق الناس في شأنه شيعًا وسلكوا في امره طرائق قددًا. فذهبت طائفة الى انه: زنديق لا صدّيق، وقال قوم انه: واسطة عقد الاولياء ورئيس الاصفياء»(3) وقيل انه ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات(4)

١- «نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها» عرفان فتاح ص ٢٥٣.
٢- «المصدر نفسه» ص ٢٥٣.
٣- «الشذرات» مجلد ٥ ص ١٥٢.
٤- «لسان الميزان». ابن حجر العسقلاني مجلد ٢ ص ٣٦٢.

يقول الدكتور عفيفي: «ان الشيخ الاكبر رغبةً في اخفاء مذهبه في وحدة الوجود وخوفًا من التصريح به في صورة واضحة متكاملة في كتاب، او جزء من كتاب، خشية اعتراض المعترضين وانكار المنكرين فقد اذاعه مشتًا بين ثنايا التفصيل، مختلطًا بمسائل الفقه والحديث والكلام والتفسير وغيرها، وليس من شك في انه تعمد هذا التشتيت لعناصر مذهبه إمعانًا في اخفاء حقيقته الكاملة وضنًا به على من ليس اهلاً له.[1]

اما ابن عربي فيقول في موضوع مذهبه: «فأَصل رياضتنا ومجاهدتنا، وجميع أعمالنا التي أعطتنا هذه العلوم والاثار الظاهرة علينا انما كان من عملنا بالكتاب والسنة، وفيضنا روحاني الهي لكوننا سلكنا عن طريقة الهيئة تسمى شريعة، فاوصلتنا الى المشرع، وهو الله تعالى، لانه جعله طريقًا اليه.[2]»

مزج ابن عربي الفلسفة بالرموز والاشارات الصوفية حتى اصبح فهم مذهبه متعسرًا على العامة وحتى على قسم كبير من العلماء والفقهاء ويقول الدكتور عفيفي: «اذا كان استعمال لغة الرموز والاشارات والتحدث بلسان الباطن من اسباب غموض لغة التصوف بوجه عام، فهي لذلك بوجه خاص في لغة ابن عربي، فإن غموض اسلوبه واستغلاق معانيه قد صارا مضرب المثل، واصبحا من الحقائق التي يعترف بها دارسو التصوف في كل زمان.» ثم يقول: «يغلب على ظني انه يعتمد تعقيد البسيط واخفاء الظاهر لاغراض في نفسه. فعباراته تحتمل في اغلب الاحيان معنيين على الاقل، احدهما ظاهر وهو ما يشير به الى ظاهر الشرع، والثاني باطن وهو ما يشير به الى مذهبه، ولو ان من يعمّق النظر في معانيه ويدرك مراميه، لا يسعه إلاّ القول بان الناحية الثانية هي الهدف الذي يرمي اليه.»[3]

١- «ابن عربي في دراستي» ص ١٦.
٢- «الفتوحات المكية». مجلد ٢ ص ٢١٤.
٣- «فصوص الحكم» ص ١٧.

اما الدكتورة سعاد الحكيم، وهي ثقة بارزة في معرفة فلسفة ابن عربي، تنتقد الدكتور عفيفي على تفسيره لمنهج ابن عربي في استعمال الرموز والاشارات الصوفية فتقول: «ويتناول لغة ابن عربي متوقفًا عند غموض اسلوبه، ويرى ان الصوفية عامة يتكلمون بلسان الرمز والاشارة ضنًا منهم بالمعاني ان يفهمها من ليس من اهلها، وكذلك ان لغة العموم لا تفي بالتعبير عن معانيهم.» ثم تقول: «ان عفيفي لم يول لغة ابن عربي وقفة كاملة، ولكن اليست اللغة هي المدخل شبه الوحيد لكل فلسفة وهي الشاهد شبه الوحيد على وجودها؟»[1]

ويقول الدكتور عفيفي عن منهج ابن عربي في الفلسفة: «وان وهب بسطة من الفكر والخيال وعمقًا في الحس الروحي يعوزه المنهج الفلسفي الدقيق والتحليل العلمي المنظم، فهو من غير شك، فيلسوف صاحب مذهب ومؤسس مدرسة، ولكنه فيلسوف آثر ان يهمل منهج العقل الذي هو منهج التحليل والتركيب ويأخذ بمنهج التصوير العاطفي والرمز والاشارة والاعتماد على اساليب الخيال في التعبير»[2]

وكانت قضيته الكبرى وحولها تدور كل فلسفته الصوفية وتتفرع عنها كل قضية اخرى والتي ملكت عليه زمام تفكيره فصدر عنها وعاد اليها في كل ما قاله وما احس به وحدة الوجود.[3] فيقول: «ان الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها متكثرة بصفاتها واسمائها لا تعدد فيها إلاّ بالاعتبارات والنّسب والاضافات، وهي قديمة ازلية ابدية لا تتغير، وان تغيرت الصور الوجودية التي تظهر فيها، فهي بحر الوجود الزاخر الذي لا ساحل له وليس الوجود المدرك المحسوس إلاّ امواج ذلك البحر الظاهرة فوق سطحه. فاذا نظرت اليها من حيث ذاتها قلت هي «الحق»، واذا نظرت اليها من حيث

١– «ابن عربي» ص ٢٤ – ٢٥.
٢– المصدر نفسه ص ٩.
٣– «فصوص الحكم». تحقيق أبو العلا عفيفي ص ٢٤.

صفاتها واسمائها، اي من حيث ظهورها من اعيان الممكنات، قلت هي «الخلق» او العالم فهي الحق والخلق، والواحد والكثير، والقديم والحادث والاول والاخر والظاهر والباطن، وغير ذلك من المتناقضات، وهذا المذهب، هو المذهب المعروف بوحدة الوجود.»(١)

ومن اقوال ابن عربي في وحدة الوجود: «الوجود الحقيقي هو وجود الله وحده، ولذا لم يحتج وجود الحق الى دليل، وكيف يصح الدليل في حق من هو على الدليل على نفسه.» ثم يقول: «ولكنه الله الجامع لكل شيء في نفسه، الحاوي لكل وجود، الظاهر بصورة كل موجود.» ويقول: «الحق والخلق حقيقة واحدة لا تمايز بينهما إلاّ في وجوب الوجود الذي هو للحق خاصة. فالمعبود هو الجوهر الازلي القديم المقوم لجميع صور الوجود، والعابد هو الصورة المتقومة بهذا الجوهر، فكل صورة من الصور ناطقة بالوهية الحق، وكل معبود من المعبودات وجه من وجوهه. «اينما تولوا فثم وجه الله، وأيما تعبدون لا تعبدون سواه.»(٢)

اختلف المؤرخون في عدد مؤلفات ابن عربي. يقول عفيفي: «فليس هناك من شك من ان هذا الرجل كان من اغزر كتاب المسلمين علمًا واوسعهم افقًا، ولا جدل في ان مؤلفاته تربو على المائتين على اقل تقدير.» ويقول عبد الرحمن جامي، صاحب كتاب نفحات الانس ان مؤلفات ابن عربي بلغت اربعماية كتاب.(٣)

«وصف كارل بروكلمان ابن عربي بانه مؤلف من اخصب المؤلفين عقلاً واوسعهم خيالاً وذكر له نحوًا من مائة وخمسين مؤلفًا، لا تزال باقية بين مخطوط ومطبوع»(٤)

١– «فصوص الحكم» تحقيق ابو العلا عفيفي ص ٢٤ و٢٥.
٢– سورة البقرة آية ١١٥.
٣– «فصوص الحكم» ص ٥.
٤– «تاريخ الشعوب الاسلامية» ص ٤٤١.

لا بد من الاشارة الى عقيدة «وحدة الاديان» عند ابن عربي فيقول: «بألاّ يتقيد الانسان بدين معيّن لان ذلك يجعله يكفر بالاديان الاخرى، فان الله اوسع واعظم من ان يحصر عقد دون عقد فسبحانه وتعالى يقول «ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثمّ وجه الله ان الله واسع عليم[١]»

وكذلك يقول شعرًا:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان وديــر لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائـــف والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب أنّى توجهـت ركائبه فالحـــب ديني وايماني

ويقول بالموضوع نفسه:

عقد الخلائق من الاله عقــائدًا وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

٢. السهروردي «المقتول»

في زمن شهاب الدين السهروردي تعرضت الفلسفة المشائية التي بلغت ذروة نموها على يد ابن سينا وانتشرت من بعده على يد تلامذته وأتباعه امثال «بهمنيار»، «وابي العباس اللوكري» منذ بداية عهده، للنقد من جانب بعض الفقهاء وبعض الصوفيين الذين عارضوا النزعة العقلية الكامنة في فلسفة ارسطوطاليس»[٢]

ثم كانت حملة ابي حامد الغزالي على الفلسفة التي تحد من قوة العقل، ولكن تمكنت من فرض وتقوية الصوفية، وذلك بموافقة رجال الدين، «فكان ان تلاشت القوة العقلية وفُتحت الطريق لانتشار العقائد الاشراقية السهروردية وعقائد مدرسة ابن العربي العرفانية»[٣]

١- سورة البقرة آية ١١٥.
٢- «ثلاثة حكماء مسلمين» سيد حسين نصر ص ٧١.
٣- المصدر نفسه ص ٧٣.

في هذا الوقت ولد شهاب الدين بن أميرك السهروردي عام ٥٤٩هـ في مدينة «ميديا» المعروفة باسم سهرورد وهي من اعمال «زنجان» في الشمال الغربي من فارس، ثم انتقل الى مدينة «مراغة» حيث درس علوم الدين على يد الصوفي مجد الدين الجيلي (توفي عام ٦٠٦هـ) استاذ الفيلسوف فخر الدين الرازي.

ومن مدينة «مراغة» بأذربيجان سار الى اصفهان حيث درس على يد الشيخ ظهير الدين القاري واطلع على كتب ورسائل الفيلسوف ابن سينا الذي كان اقام فلسفة مشرقية[١] ولكنها فشلت بسبب جهله منشأ هذه الفلسفة لدى حكماء فارس القديمة والذي هو الحكمة اللدنية الحقيقية.[٢]

يقول المستشرق هنري كوربان: «وقد ارتحل بعد ذلك الى اصفهان ومن ثم بدأت لديه حياة التنقل والاسفار مهتمًا بغشيان الجماعات الصوفية محبًا للوحدة التي هيأت لحياته الروحية التأملية السلوك في معارج اهل الطريق.»[٣]

ومن اصفهان سار الى بلاد الاناضول حيث عاش مع اهل التصوف واعتنق مذهبهم واخذ الخرقة الصوفية، ومن الاناضول ذهب الى حلب حيث تقرب من الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين الايوبي، وصار ملازمًا له يحضر جميع مجالسه، وقد عُرف الملك الظاهر في حبه لاهل التصوف والعلماء وكان قصره في حلب يزخر بهم.

ويروي عنه تلميذه شمس الدين الشهرورزي، الذي كان معجبًا به ووفيًا له، اذ بعد مقتل السهروردي، شن حملة شديدة في كتابه «نزهة الارواح وروضة الافراح» دفاعًا عنه وعن فلسفته: «ان السهروردي كان مستوي القامة، يغري شعره ولحيته الى الشقرة، وأنه كان يميل الى السماع، اعني الى الموسيقى. وكان يبدي احتقارًا لكل من يتقرب من السلطان او الابهة الدنيوية، وكان في بعض الأحيان يلبس ثوبًا واسعًا طويلاً وعمامة زاهية الالوان، واحيانًا اخرى

١- الحكمة المشرقية مبنية على الكشف والمشاهدة الصوفية اي ظهور الانوار العقلية للنفوس بعد تجردها (نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها. عرفان فتاح ص ٢٤٣).

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية». هنري كوربان ص ٣٠٦.

٣- «السهروردي المقتول» ص ٩٨.

كان يبدو على العكس من هذا في ثياب مهلهة، ومرارًا ثالثة كان يقنع بارتداء خرقة الصوفية.»[١] وكذلك قيل عنه انه كان سليط اللسان، متعجرفًا لا يحترم الفقهاء وشيوخ الدين ويعاملهم باحتقار واستهزاء.

وقال عن السهروردي الشيخ فخر الدين المارديني (توفي عام ٥٩٤هـ): «ما اذكى هذا الشاب وافصحه! لم اجد احدًا مثله في زماني، إلاّ اني اخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه، أن يكون سببًا لتلافه.»[٢] وقال ابن رقيقة: «لما بلغ شيخنا فخر الدين قتله قال لنا «اليس قلت لكم عنه هذا من قبل، وكنت اخشى عليه.»[٣]

الفيلسوف الذي فسّرت وحورت عقائده الفلسفة المشائية، كان شهاب الدين بن اميرك السهروردي الذي لُقب بشيخ الاشراق، وهو بلا ريب، بالرغم من ان العلماء يصرون على اعتبار ابن رشد خاتمة التاريخ العقلي الاسلامي، فالسهروردي باطلاقه عقيدة الاشراق ساهم فعليًا في تحوير وتقويض الفلسفة المشائية ذات النزعة العقلية.

ما يهمنا في هذه الدراسة عن الصوفية، هو صوفية شهاب الدين السهروردي وليس اراؤه الفلسفية، ولكن من الطبيعي ان نشير، ولو باقتضاب الى فلسفة الاشراق لانه عرف واشتهر بها اكثر ما عُرف بالتصوف، فهو شيخ الاشراق بدون منازع.

السهروردي، الشيخ المقتول، هو مبتدع فلسفة الاشراق وارتبطت باسمه وصار صاحبها وشرحها في كتابه «حكمة الاشراق». «وهي حكمة لدنية مشرقية سيتابعها بتصميم واضح كإحياء لحكمة فارس القديمة. والوجوه الكبيرة التي تتحكم في سير المذهب هي، هرمس وافلاطون وزرادشت»[٤]

١– «شخصيات قلقة في الاسلام». عبدالرحمن بدوي ص ٩٩.

٢– المصدر نفسه ص ١٠٠.

٣– «ابن ابي اصيبعة» مجلد ٢ ص ١٦٧.

٤– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» هنري كوربان ص ٣٠٤.

يقول هنري كوربان: «ان فكرة الاشراق، (وهو اسم يعني السنى والبهاء واشراق الشمس عند طلوعها) تبدو على نحو ثلاثي:

١- فنستطيع ان نفهم منها الحكمة او الحكمة اللدنية التي يشكل الاشراق اصلها باعتبار انه يمثل ظهور واشراق الكائن معًا، وفعل الوجدان الذي يكشف هذا الكائن، وعندما يكشفه يقوده الى الظهور (ويجعل منه ظاهرة خارقة. كما ان هذا المصطلح يعني في العالم الحسي سناء وبهاء الصباح واول بريق للنجم، كذلك فانه يعني في سماء الروح «المثالية» لحظة تجلي المعرفة

٢ - ونتيجة لذلك فإنا نفهم بالفلسفة المشرقية او بالحكمة اللدنية المشرقية، عقيدة تستند الى محاضرة الفيلسوف للظهور الصباحي للانوار المعقولة وانسكاب مطالعها على الارواح لدى مفارقة هذه الارواح للأجساد. فموضوع الكلام هنا اذًا، هو فلسفة تفترض رؤيا داخلية وتجربة صوفية، ومعرفة هي معرفة مشرقية بالنظر لانتسابها الى مشرق المعقولات الخالصة.
٣- ونستطيع ان نفهم بفلسفة الاشراق فلسفة تشير الى حكمة الاشراقيين اللدنية، اي حكمة حكماء فارس القديمة، وهذا ليس بسبب موقفهم على الارض فحسب، وانما لأن معرفتهم نفسها كانت مشرقية، بمعنى انها كانت مبنية على الكشف والمشاهدة الصوفية. فهكذا كانت فلسفة الحكماء اليونان القدماء في رأي الاشراقيين، نعني كل فلاسفة اليونان باستثناء تلاميذ ارسطو الذين كانوا يقتصرون على التفكير الاستدلالي والاحتجاج المنطقي.(١)

اختلف الفقهاء ورجال الدين مع السهروردي، خصوصًا قوله «ان الله قادر ان يخلق نبيًا بعد النبي محمد.» فاعتبروا هذا القول كفرًا، لان سبحانه وتعالى قال: «ان محمد هو خاتمة النبيين.» عند اجتماعه مع رجال الدين لبحث

١- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» هنري كوربان ص ٣٠٩ - ٣١٠.

هذه المقولة، وكانوا على عداء معه، بسبب تعجرفه وكلامه الخالي من الاحترام. اصر على قوله واغلظ لهم ونعتهم بعدم المعرفة، مما جعل الفقهاء يتهمونه بالالحاد والكفر وترويج عقائد تتنافى مع الدين، وطلبوا اعدامه. فلما رفض الملك الظاهر طلبهم، التمسوا ذلك من السلطان صلاح الدين الذي كان يعتبر تأييد العلماء امرًا ضروريًا لدعم السياسة الايوبية في سوريا بعد استعادتها من الصليبيين، فامر ابنه الظاهر باعدام السهروردي وكان ذلك في سنة ٥٨٧هـ، وكان عمر السهروردي ثمان وثلاثين سنة.

٣. ابن سبعين

قطب الدين عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بن سبعين، وكنيته ابو محمد، وطريقته تسمى السبعينية.

ولد ابن سبعين عام ٦١٢هـ في مدينة «مرسية» في الاندلس في بيت تحف فيه مظاهر النعمة والعلم والتقوى، وتوفي في مكة المكرمة عام ٦٦٩هـ، وكان قد عزم على الذهاب الي الهند بعد ان هاجمه فقهاء مكة واتهموه بالكفر لقوله بوحدة الوجود وان النبوة مكتسبة وانها فيض يفيض على العقل، كما كان يستهزئ بالفروض الاسلامية، «ويقول بسقوط التكاليف الشرعية عن كل من بلغ درجة العلماء يعني علماء الصوفية.»[١]

وقال عنه ابن تيمية: «فإن قول الاتحادية، ومنهم ابن سبعين، تجمع كل شرك في العالم، وهم لا يوحدون الله سبحانه وتعالى، بل يوحدون القدر المشترك بينه وبين المخلوقات.»[٢]

١- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٤٩٩.

٢- المصدر نفسه ص ٤٩٨.

عاش ابن سبعين في مدينة مرسية في الاندلس حتى نحو العشرين من عمره[١]، ثم سار الى المغرب العربيّ حيث سكن بلدة «بجاية» وألف معظم كتبه واشتهر بانه من فلاسفة الصوفية.[٢] وفي الوقت نفسه، يقول الدكتور الحفني: «لم يكن يفلت فرصة تسنح له إلاّ وينتقد الفلاسفة والصوفية ويخص منهم المشائين ورئيسهم «ارسطو» واتباعهم من غير ملة الاسلام» ثم يقول: «واتباعه من ملة الاسلام مثل الفارابي وابن سينا، وابن باجه، وابن رشد، والسهروردي، والغزالي والرازي، وعنده ان التصوف لم يصل له هؤلاء، وما كان من الممكن ان يصلوا لقصورهم.»[٣]

«ومن المغرب سار الى تونس حيث ظهرت نزعته الصوفية بشكل بارز، كما انتشرت عقيدته «بالوحدة المطلقة» التي اثارت عليه حفيظة فقهاء المغرب وتونس وخاصة منهم «السكوني» مما جعله لا يطيق البقاء في تلك الديار، فارتحل الى المشرق.»[٤]

ومن تونس ذهب الى مصر حيث جابه هجومًا شديدًا من رجال الدين وعلى رأسهم الشيخ قطب الدين القسطلاني (توفي عام ٦٨٦هـ) واتهم بالكفر لقوله بوحدة الوجود، وانه كالبسطامي يقول «انا هو وهو انا» مما اضطره ان يترك مصر ويذهب الى مكة.

وقيل انه خلال وجوده في مكة كان يتردد على غار حراء وهو يرتجي ان يأتيه الوحي كما اتى النبي، لاعتقاده ان النبوة مكتسبة وانها فيض على العقل. وفي مكة لم يمتد به العمر اذ مات عام ٦٦٩هـ.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٥٧، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ١٥٧.
٣- المصدر نفسه ص ١٩٧.
٤- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ٤٩٦.

اختلف المؤرخون في مذهب ابن سبعين. فمنهم من قال انه كافر ملحد، قال بسقوط التكاليف الشرعية والفرائض، ونادى بالحلول والاتحاد وبوحدة الوجود، كما تهجم على الفلاسفة والعلماء وحتى اهل التصوف، وسعى الى النبوة حتى انه اتهم بالقول «لقد تحجّر ابن آمنة (يقصد النبي محمد) واسعًا بقوله لا نبي من بعدي.»(١) وآخرون قالوا: «كان عالمًا صوفيًا يدعو الى التمسك بالشريعة والكتاب والسنة ويقول :ألا كل شيء ما خلا الله باطل.» ومن اقواله: «الفقر هو الذي يجعل الفقر يمسك بالشرع من يمينه والعقل من شماله وبينهما العلم ويحرك الكل بالادب والهمة والحقيقة، وهو علم التحقيق او العلم الالهي الذي مداره الله سبحانه الاصل في كل شيء، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله، ولا شك في الله، ولا شيء اعز من الله، ولا موجود على الاطلاق لا يفتقر الى الله.»(٢)

وفي رسالة الى تلاميذه يقول: «حفظكم الله حافظوا على الصلوات، وجاهدوا النفس في اجتناب الشهوات، وكونوا اوّابين توّابين واستعينوا على الخيرات بمكارم الاخلاق، واعملوا على نيل الدرجات العليَّة، ولا تغفلوا عن الاعمال السنية، وخلصوا مخصص الاعمال الالهية ومهملها. ذوقوا مفصل اللذات الروحانية ومجملها، ولازموا المودة في الله بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطريق، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة ولا تفرقوا بينهما لانهما من الاسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة في زمانكم هذا وقولوا عليها وعلى اهلها لعنة الله لانها حقيقة لما سمي اللديغ سليمًا، واهلها مهملون حد الحلال والحرام، مستخفون بشهر الصوم والحج وعاشوراء والاحرام قاتلهم الله انّى يؤفكون»(٣)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٩٧، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ١٩٨.

٣- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ٥٠٠.

ويبدو واضحًا مما ورد في هذه الرسالة تمسك ابن سبعين بالشريعة والفروض وهذا مما يتناقض ويتنافى مع اتهامه بالكفر والتخلي عن الشريعة.

وقال عنه الصوفي الشيخ ابو العباس احمد المقري (توفي عام ١٠٤١هـ): «وطار صيته وعظم امره وكثر اتباعه حتى انه تتلمذ له آمر مكة فبلغ من التعظيم الغاية»[١] أما ابن تيمية فيصف مؤلفات ابن سبعين بانها «لا يخرج احد منها بطائل وهي وساوس المخبولين وهذيان المحرورين، اقرب منها الى منازع العلم»[٢]

ومن مؤلفات ابن سبعين رسالة «الاحاطة»، ورسالة «يدُ العارف»، وكتاب «الحروف الوضعية في الصور الفلكية» وكتاب شرح كتاب «ادريس عليه السلام» والرسالة «القوسية» وكتاب «العقد».

٤- ابن طفيل

محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الاندلسي، وكنيته ابو بكر، ولد في اوائل القرن السادس هجري، اي حوالي ٤٩٠هـ و٥٠٥هـ في مدينة قادس من الاندلس، ولذلك لُقب بفيلسوف قادس، وتوفي عام ٥٨٠هـ في مدينة مراكش في المغرب.

لم يُعرف عنه الكثير في التفاصيل عن حياته، كالشيوخ الذين اخذ عنهم العلم، وهل كان له مريدون وتلامذة. المرجّح انه لم يكن شيخًا صوفيًا، بل كان فيلسوفًا عالمًا واسع الاطلاع، وطبيبًا اعتنق التصوف كعلم فكري وليس كمسلك حياتي، فهو فيلسوف تصوف.

١- المصدر نفسه ص ٥٢٥.

٢- المصدر نفسه ص ٥٢٦ و٥٢٧.

عمل ابن طفيل كاتبًا لحاكم غرناطه ثم انتقل الى مراكش حيث كان صديقًا ثم وزيرًا وطبيبًا لابي يعقوب يوسف ثاني الخلفاء الموحدين (٥٥٩ - ٥٨٠هـ)[١]، الذي عُرف برعايته للعلم وحبه للفلسفة.

قدّم ابن طفيل، يقال عام ٥٦٥هـ، الفيلسوف ابن رشد الى الامير ابي يعقوب يوسف، يقول ابن رشد: «لما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب وجدته وابا بكر بن طفيل ليس معهما غيره. فاخذ ابو بكر يثني علي ويذكر سلفي وبيتي ويضم الى ذلك اشياء لا يبلغها قدري»[٢]

وابن طفيل نفسه، اوعز الى ابن رشد بتلخيص «ارسطو» وشرحه. وبذلك يقول ابن رشد: «استدعاني ابو بكر بن طفيل يومًا وقال لي: سمعت اليوم امير المؤمنين يشتكي من قلة عبارة ارسطوطاليس او عبارة المترجمين له ويذكر غموض اغراضه، ويقول لو وقع لهذه الكتب من يلخّصها ويقرب اغراضها، بعد ان يفهمها فهمًا جيدًا، لقرب مأخذها على الناس، فان فيك فضل قوة لذلك فافعل. واني لارجو ان تفي به لما اعلمه من جودة ذهنك، وصفاء قريحتك وقوة نزوعك الى الصناعة. وما يمنعني من ذلك إلاّ ما تعلمه من كبرسنِّي واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الى ما هو عندي منه»[٣]

شهرة ابن طفيل تعود الى القصة الفلسفية «حي بن يقظان» «اشهر ما دبجته اليراع عن التصوف وطريق الصوفية، وقد ترجمت بمختلف اللغات. والنهاية او الدرس الذي نستخلصه منها هو درس صوفي خالص، وان كان الطريق الذي اتبعه في تعليمه هو طريق الفلسفة[٤]»

١- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» هنري كوربان ص ٣٥٢.
٢- «من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية». عبد الرحمن مرحبا. ص ٧٢١.
٣- المصدر السابق ص ٧٢٢. «العجب في تلخيص اخبار المغرب». ص ١٥٦.
٤- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٧١، عبد المنعم الحنفي.

في بداية قصة «حي بن يقظان» يمهد لها ابن طفيل بنقد شديد للفلسفة عند ائمتها ويعلن انه، الى جانب الحكمة المشرقية، اي التصوف وليس الى الحكمة المغربية اي الفلسفة. ثم يقول: «ان الفلسفة مرحلة على الطريق، وان العقل بوسعه ان يصل متحررًا من كل سلطة الى المعرفة التي تتهايأ له بالشريعة، والفلسفة اقل مرتبة من الدين، لأنها من تحصيل العقل، بينما الدين يعالج ما تعالجه الفلسفة، بالاضافة الى متطلبات الروح، غير ان رجل الدين تعلقه بالظاهر، والصوفي تعلقه بالباطن، وهو مشغوف ومشغول بالحق ومرتبته لذلك اعلى المراتب في الانسانية.»(١)

يذكر لابن طفيل عدد من المؤلفات في الطب والفلك والفلسفة، إلاّ ان مؤلفه الفلسفي الوحيد الذي وصلنا هو كتاب «حي بن يقظان»(٢)

٥- عبد الكريم الجيلي

عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم بن خليفة بن احمد بن محمود وكنيته قطب الدين ويلقبه البعض بالجيلي والبعض بالجيلاني نسبة الى جيلان التي تقع جنوب بحر الخرز وشمال جبال البرز.(٣)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٧١، عبد المنعم الحفني.

٢- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ماجد فخري ص ٣٦٣.

٣- «الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي»، يوسف محمّد طه زيدان ص ١٩.

ينتسب كثير من رجال العلم الى جيلان فيلقب بالجيلي او الجيلاني، ولكن هناك من يفرق بينهما على اساس انه اذا انتسب الشخص الى البلاد يسمى جيلاني - كما يفعل غالبية المؤرخين - واذا انتسب الى واحد من اهلها يقال له جيلي.[1]

ولد الجيلي عام ٧٦٧هـ في بغداد[2] ويؤكد ذلك الجيلي بقوله:

ففي اول الشهر المحرم حرمــــة ظهوري وبالسعد العطارد طالع

لستين من سبع على سبعمائـــــة من الهجرة الغرّا سقتني المراضع[3]

توفي عبد الكريم الجيلي في مدينة «زبيد» في اليمن. فيكون قد عاش حوالي ستين سنة.

تعرض الجيلي الى حملة من الفقهاء واتهموه بالحلول والاتحاد وانه من الرافضة، ويروّج لعقائد لا تتوافق مع الدين الاسلامي، كما قالوا انه عراقي غريب عن اليمن ومن عائلة الصوفي العلوي عبد القادر الجيلاني الذي جعل مشيخة الصوفية وراثية كالامامة لآل البيت. رفض معظم المؤرخين هذا الاتهام لان عبد القادر الجيلاني، بالرغم من ربط السلسلة القادرية بالامام الاول علي بن ابي طالب، لم يدَّعِ النسب العلوي وكذلك اولاده. بالاضافة، فإن نسبة الجيلي الى عبد القادر لم يذكرها الجيلي في كتبه او اقواله.

كان الجيلي دائم السفر فقد رحل من بغداد الى الهند، ومن الهند، حيث اقام فترة من الزمن وتعلم اللغة الهندية، سار الى فارس، كذلك تعلم اللغة الفارسية وكتب بها بعض رسائله، ثم قدم عام ٧٩٦هـ الى مدينة «زبيد» من اليمن، ومنها سار عام ٧٩٩هـ الى مكة، وفي عام ٨٠٠هـ رجع الجيلي الى مدينة

١- «فوات الوفيات». بن شاكر الكتبي مجلد ٤ ص ٢.

٢- «كشف الظنون». حاجي خليفة مجلد ١ ص ١٥٨.

٣- «النادرات العينية»، الجيلي ابيات ٣٣٢ - ٣٣٤.

«زبيد»، ثم في عام ٨٠٣ كان الجيلي في القاهرة حيث ألف اغنية (ارباب السماع) وفي السّنة نفسها كان بمدينة غزة، حيث بدأ تأليف (الكمالات الالهية) الذي أتمه اوائل ٨٠٥هـ بمدينة زبيد وفي اواخر عام ٨٠٥هـ كان الجيلي بصنعاء اليمن، وهناك كانت له بعض المواقف التي ذكرها في شرحه للفتوحات المكية، ثم يعود الجيلي مرة اخرى الى زبيد، حتى توفي بها سنة ٨٢٦ هجرية[١]

كان الجيلي كثير الاسفار وشديد القلق، فهو لا يستقر بارض وغير راض بما ناله او يمكن ان يناله، منشغلاً يفتش عن ذات الحق ويقول: «انه عصر فقدت فيه شموس الجذب من سماء قلوب المريدين، وأفلت بدور الكشف في سماء افلاك السائرين، وغربت نجوم العزائم عن همم القاصدين»[٢]

صحب الجيلي شيوخًا من كبار الصوفية واخذ عنهم علوم الدين والتصوف، وخصوصًا الفلسفة، اذ كان ميله للجانب الفلسفي اشد من ميله للجانب السني من التصوف.

من اوائل الشيوخ الذين التقى بهم الجيلي، كان الفقيه جمال الدين محمد بن اسماعيل المكدش (توفي عام ٧٩٠هـ) ثم صحب الشاعر الصوفي الشيخ ابا محمد الحكاك الذي وصفه «بلسان المعارف» «واعتبره من اهل الحظائر الذين اعطاهم الله حق الاذن بالدخول الى الحضرة الالهية وقتما يشاؤون.»[٣] ثم صحب ابا الغيث بن جميل وبعد وفاته عام ٦٥١هـ، التقى الجيلي بالشيخ الصوفي الكبير اسماعيل الجبرتي الذي قال فيه: «استاذ الدنيا، وشرف الدين، وسيد الاولياء المحققين، والقطب الكامل والمحقق الفاضل.»[٤]

١- «الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي» يوسف محمد طه زيدان ص ٢٤.
٢- «الانسان الكامل».الجيلي مجلد ١ ص ٤.
٣- «المناظر الالهية» الجيلي ص ٥٩.
٤- «الانسان الكامل» مجلد ٢ ص ٢٤.

بعد وفاة الجبرتي انتقلت الزعامة الصوفية الى صديق الجيلي وتلميذ الجبرتي، الشيخ احمد بن ابي الرداد وكان آخر شيخ صحبه الجيلي من الصوفية.

كان الجيلي يميل الى الغموض والرموز والاشارات في عباراته ويقول ان ذلك تنفيذ لامر الهي ويظهر ذلك جليًا في كتابه «الانسان الكامل» حيث يقول: «الشيء يقتضي الجمع، والنموذج يقتفي العزة، والرقيم يقتفي الذلة. وكل من هؤلاء مستقل في عالمه، سابح في فلكه، فمتى خلعت على الانموذج شيئًا من صفات الرقيم، انحزم قانون الانموذج عليك، ومتى كسوت الرقيم شيئًا من حلل الانموذج، لم تره فيه، لظهوره بما ليس له. ونعني بالرقيم هنا: العبد، وبالانموذج قطب العجائب»[1]

ومؤلفات الجيلي تزيد عن الثلاثين كتابا ورسالة اهمها كتاب: «الانسان الكامل» في معرفة وحب العجائب الذي يعتبر من اشهر الكتب الصوفية على الاطلاق.

يستند الجيلي في وصفه الانسان الكامل الى الحديث «بان الله خلق الانسان على صورته»[2] ليقول بأن الانسان هو صورة الله او هو نسخة الحق. فاذا كان الحق تعالى قد تقدس بذاته، وتعالى عن اوصاف الخلق، وما هم عليه من الذلة والنقص، فإن ذلك ينسحب على مطلق الانسان، اما الانسان الكامل، فقد وصل الى المرتبة الاخيرة والمقام الاعلى الذي يتجلى فيه الله عليه بذاته، لذلك فالانسان الكامل هو صورة كمال الذات الازلي التخليد، وخليفة الله الذي اشارت اليه الآيات، الذي يكون له الركوع والسجود، فهو مقابل الحق ونسخة الله[3]

١- «الانسان الكامل» مجلد ١ ص ١١.

٢- «المسند» ابن حنبل، الجزء الثاني ص ٣٤٤.

٣- «البادرات» ص ٤٨٥.

في مؤلفات الجيلي، خاصة كتابه «حقيقة الحقائق»، يبرز «حساب الجمّل» وهو احجية يصعب فهمها او الغاية منها، وضع اصولها ابو العباس بن علي البوني (توفي عام ٦٢٢هـ) في موسوعته «شمس المعارف الكبرى»، كما ظهرت في صفحة ٥١ من الرسالة الاولى - مجلد ١ - من رسائل اخوان الصفاء وتعتمد الحروف الهجائية العربية، ابجد، هوز الخ...

يعتبر بعض المؤرخين ان «حساب الجمّل» علم بابلي ابرزته علماء صابئة حرّان، والبعض الاخر يقول علم هندي، كذلك قيل ان الخطابية، عندما غضب عليهم الامام جعفر الصادق لتأليهه، استعملوا في مراسلاتهم حساب الجمل لتضليل اهل الحكم، ولكن الواقع انه لغز لا سبب له ولا فائدة منه او تأثير في الفكر الاسلامي.

٦- فريد الدين العطّار

يقولون ان اعلام التصوف الفارسي هم، فريد الدين العطار، جلال الدين الرومي وسنائي الغزنوي، والعطار شاعر الحب الالهي وهو سوط السالكين لانه يهديهم الى الحقيقة.[١]

فريد الدين محمد بن ابي بكر ابراهيم بن ابي يعقوب اسحق العطار[٢] النيسابوري، وكنيته ابو حامد، والنيسابوري نسبة الى نيسابور مسقط رأسه.[٣]

اختلف المؤرخون في تحديد عام معيّن لمولده ووفاته، ولكن المؤرخ الدكتور بديع محمد جمعة يقول: «ان اصح التواريخ لولادة العطار ما يقع بين عامي ٥٤٥هـ و ٥٥٠هـ[٤] وان وفاته كانت عام ٦٢٧هـ[٥] في مدينة نيسابور وقبره بها حتى الان.»

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٩٧، عبد المنعم الحفني.
٢- «منطق الطير» ص ١٢.
٣- المصدر نفسه ص ١٩.
٤- المصدر نفسه ص ٢٠.
٥- المصدر نفسه.

كان فريد الدين النيسابوري يعمل بالطب والعطاره ولذلك عُرف بالعطار. وفي مستهل شبابه تخلى عن هذه المهنة والتحق بالشيخ الصوفي ركن الدين الاكاف وشغل بالرياضة الروحية ودرس علوم الدين والتصوف، وقيل انه كان اويسي[1]، والاويسي تعبير صوفي للشخص الذي لا يأخذ بظاهر المشيخة انما يرتبط روحيًا بالرسول الكريم حيث يضيء قلبه بنور المعرفة، ولكن هذه المقولة تنفيها سيرة الزاهد اويس القرني الذي لم يكن صوفيًا بل زاهدًا وفي وقته، لم يكن للصوفية وجود اذ ظهرت في القرن الثالث هجري، واويس كان من رجال القرن الاول.

يقول «فروزا نفر» ان مدح العطار للشيخ ابي سعيد بن ابي الخير كمدح المريد لشيخه، دليل على ان العطار لم يكن اويسيا.[2]

صحب العطار الشيخ نجم الدين الكبري والشيخ مجد الدين البغدادي واخذ عنهما الفقه وعلوم الدين، ولكن اتصاله بابي حامد الغزالي ترك تأثيرًا كبيرًا عليه وكان ان اعلن الحرب على الفلاسفة، ويقال ان منظومته الشهيرة «منطق الطير» اخذها عن «رسالة الطير» للغزالي.

يقول الدكتور بديع جمعه: «وهكذا نرى ان العطار كان ناقلاً خالقًا لمنظومته «منطق الطير» فقد استعان اولاً برسالة الطير للغزالي،كما استعان ببعض افكار سنائي في «سير العباد الى المعاد» في وصف مدارك السالكين وإن كان تأثره بسنائي يقل كثيرًا عن تأثره بالغزالي، وأخيرًا لا شك انه كعادة المؤلفين المسلمين تأثر بالقرآن والحديث، فكثيرًا ما يشير الى معنى آية او معنى حديث.[3]

١- «نفحات الانس» تعريب النقشبندي ورقة ٣٦١.
٢- شرح ونقد وتحليل آثار الشيخ فريد الدين العطار النيسابوري ص ٣١.
٣- «منطق الطير» ص ٧٠ - ٧١.

بالرغم من ان العطار كان سنيًا وعلى مذهب الشافعي، كغيره من اهل التصوف وكان عالمًا باصول الفقه والحديث وثقة في التفسير، وبالرغم من حملته القاسية على الفلاسفة والفلسفة كان على علم واسع بالفلسفة وعلم الكلام.

يقول الدكتور بديع محمد جمعة: «تابع العطار الحملة الشعواء التي بدأها ابو حامد الغزالي ضدّ الفلسفة فحاول الاقلال من شأنها ومن شأن المشتغلين بها، وذلك لان الفلسفة تتصل بالعقل والعطار ينفر من العقل ويجعله قاصرًا امام ادراك الاسرار الالهية.[1]»

يقول المفكر فروزا نفر – بديع الزمان. «ربما ان السبب الاصلي الكافي وراء ذمه الحكمة والفلسفة (فريد الدين) يرجع الى ان اكثر المعلمين والمتعلمين لهذا الفن في تلك الايام، كانوا قد اصابهم الجمود على اقوال ومصنفات ابي نصر الفارابي، وابي علي بن سينا، وجمدوا على الاراء المنقولة عن حكماء اليونان، وان النظرة الحرة الطليقة كانت تعوزهم بعكس الادب والفقه، فقد كان الادباء والفقهاء يستندون في اقوالهم الى القرآن والحديث وكل ما يتعلق بالدين.[2]»

التصوف لا يتفق مع طبيعة الفلسفة، فالتصوف يعتمد على القلب، واما الفلسفة فتعتمد على العقل، والعقل مرفوض عند اهل التصوف.

وقد قيل الكثير عن مؤلفات العطار حتى قال سعيد نفيسي انها بلغت ستة وستين كتابًا[3]، اما الدكتور جمعة فيحدها بتسعة كتب،[4] وجميع هذه الكتب شعرية عدا كتاب، تذكرة الاولياء تناول فيه احوال عدد من مشايخ التصوف.

١– «منطق الطير» ص ٣٠.
٢– «شرح ونقد وتحليل اثار الشيخ فريد الدين محمد العطار النيسابوري» ص ٤٨.
٣– «أحوال وآثار فريد الدين العطار» سعيد نفيسي» ص ٩٨.
٤– «منطق الطير» ص ٥٠.

٧- ابن الفارض

الشيخ شرف الدين ابو حفص عمر بن ابي الحسن علي بن المرشد ابن علي المعروف بابن الفارض، وكنيته ابو القاسم، حموي الاصل مصريّ المولد والمنشأ والوفاة.

ولد ابن الفارض في ذي القعدة عام ٥٧٦هـ، وتوفي في جمادى الاولى عام ٦٣٢هـ، ودفن في مقبرة في سفح الاهرام وقبره معروف يقصد للزيارة[١]

كان والد ابن الفارض، الحسن بن مرشد الذي قدم من مدينة حماه من سورية الى مصر واستوطنها، زاهدًا متقشفًا موفور العلم، وسمي الفارض لانه كان يثبت الفروض على الرجال لصالح النساء. بين ايدي الحكام.[٢]

في عصر ابن الفارض توالت الحملات الصليبية على مصر وبلاد الشام وانتقل سلطان الحكم من يد الفاطميين الاسماعيليين الشيعة الى الايوبيين السنة، واستولى السلطان صلاح الدين الايوبي على الحكم، فابطل المذهب الشيعي وعزز المذهب الشافعي السني وفتح الباب، على مصراعيه، لاهل التصوف الذي ساهمت النكبات الاقتصادية في ازدهاره وانتشاره، وبُنيت لهم الربط والخوانق في جميع البلاد التي كانت تحت الحكم الايوبي.

نحا التصوف في ذلك العصر الى منحيين: منحى يتمشى مع اصول الدين ويتمسّك بالكتاب والسنة، وابرز ممثليه على الاطلاق ابن الفارض، ومنحى آخر خرج اصحابه على مقاييس الشريعة وادخلوا على مذهبهم عناصر غريبة من الفلسفة الافلوطنية المحدثة، ومن مبادئ الثنوية الفارسية، وكان على رأسهم السهروردي «المقتول» وابن عربي، وابن سبعين وغيرهم.[٣]

١- «اعلام الفلسفة العربية». كمال اليازجي وانطوان كرم. ص ٢٨٤.

٢- «الموسوعة الصوفية» ص ٣١٢، عبد المنعم الحفني.

٣- «اعلام الفلسفة العربية» ص ٢٨٣ (بتصرف).

اخذ ابن الفارض علوم الدين عن ابيه الحسن بن مرشد، والحديث عن ابن عساكر، والفقه عن الشيخ المنذري، وكان استاذه في التصوف الشيخ ابو الحسن البقّال الذي اشار عليه بالذهاب الى مكة لاخذ العلم من شيوخها. سار الى مكة عام ٦١٥هـ حيث مكث خمسة عشر عامًا متعبدًا يدرس العلم على شيوخها وعلمائها.

رجع عام ٦٣٠هـ الى مصر حيث قضى معظم وقته في الجامع الازهر يدرِّس علوم الدين ويعقد حلقات يفد عليها علماء وائمة لاستماع تعاليمه وتفسيره للكتاب الكريم والفقه. وعُرف عنه التقشف والزهد واعتكاف الصمت، وكان ورعًا تقيًا راضيًا.[١]

كل ما بقي من مؤلفاته ديوان شعر، هو ارث روحي غني باناشيد الحب الالهي ولكنه تأثر باسلوب الغزالين في الحب والهيام والوصال والتغني بحب النساء والشراب حتى اشكل على بعض الناس امره، فمنهم كابن تيمية، وابن خلدون وابن الجوزي رموه بالفسق والانحراف عن الشريعة، وقالوا ان غزله مأربه الوصال الجسماني والتمتع بالملذات، ومنهم كجلال الدين السيوطي، وعبد الوهاب الشعراني، وزكريا الانصاري ذادوا عنه وقالوا بتبرئته من تهمة الفسق وابرزوا في شعره حب الله والعشق الالهي.

يصف الشيخ مصطفى عبد الرزاق ابن الفارض بقوله: «الصوفي المصري الاول بلا منازع ورأس شعراء الصوفية[٢] ويقول الدكتور الحفني: «ولقبه سلطان العاشقين، فقد حفل ديوانه بأناشيد الحب الالهي فصار بها تحفة ادبية تزهو به العربية على اداب الامم، وتراثًا روحيًا فلسفيًا، ولم نعلم ديوانًا من الدواوين حظي بمثل الشروح التي حظي بها ديوان ابن الفارض.[٣]

١– «اعلام الفلسفة العربية» ص ٢٨١.

٢– «الموسوعة الصوفية» ص ٣١١، عبد المنعم الحفني.

٣– المصدر نفسه ص ٣١٢.

وعن تهمة وحدة الوجود التي الصقت بابن الفارض، يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: «ان اتحاد ابن الفارض ليس من نوع الاتحاد الفلسفي كالذي عند ابن عربي، ولكنه اتحاد نفسي املاه ان ابن الفارض شاعر يرى تجلي الله تعالى في كل الطبيعة.» ثم يقول: «والوحدة التي تنسب اليه لذلك هي وحدة شهود وليست وحدة وجود، بمعنى تجلي الله في مظاهر الكون وشهود السالك للذات الالهية شهودًا يرى فيه كل شيء على انه عدم في ذاته بالقياس الى الوجود الحق الواحد.»(١)

يقول ابن الفارض عن الحب: «ان الحب ينشأ عن مشاهدة النفس للجمال المحسوس الشائع في الكائنات المنظورة، ثم لا تلبث النفس حتى يبين لها ان هو الجمال المتعدد، وهذه الصور المتنوعة، على ما فيها من تفاوت وتضاد، انما هي منبثقة من مصدر واحد، وجوهر فرد، هو جوهر الذات الالهية ذات الجمال الأبهى المطلق، وعن هذه الذات يفيض الجمال على الكائنات. ولذا كانت الصور الكونية انعكاسًا لصفات الحق في ملكوته، والفتنة الشائعة في الموجودات ظلاً للجمال المطلق الاروع.» ثم يقول: «من تعشق لمظاهر الجمال المحسوس، الى سكرة روحية، بمرأى العالم العلوي، الى حب الحق الاوحد الذي هو ينبوع الجمال الاسمى.(٢)»

٨- جلال الدين الرومي*

محمد بن محمد بن الحسين البلخي، المعروف بالرومي. ولد عام ٦٠٤هـ في مدينة بلخ ثم سار الى قونية في الاناضول واقام فيها حتى توفي عام ٦٧٢هـ، وكانت كنيته «مولانا روم»، ولقب مولانا جاء بعد وفاته. الرومي ابوه بهاء

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣١٣، عبد المنعم الحفني.

٢- «اعلام الفلسفة العربية»، كمال اليازجي وانطوان كرم ص ٢٨٧.

* يطلق بعض المؤرخين على جلال الدين الرومي اسم «ابن الرومي» والبعض الآخر اسم «الرومي».

الدين محمد بن حسين البلخي، ويُعرف باسم «بهاء ولد» ولقبه سلطان العلماء وله كتاب «المعارف» وهو عبارة عن مواعظ شرح بها حقائق العرفان والدين وتأويل الآيات، وكان له تأثير كبير في توجهات ابنه الرومي.[١]

ينسبون الى الرومي طريقة الدراويش الصوفية المعروفة بالمولوية، اي الدراويش الراقصين. «وشعره الذي اشتهر به، ادب صوفي كامل له كل المقومات الادبية وليس عبارة عن فوران عاطفي يعبّر عن نفسه في بضعة ابيات كما عند رابعة العدوية.»[٢]

«كتب الرومي «المثنوي» الذي تُرجم الى لغات عديدة، في ستة مجلدات تضم اكثر من خمسة وعشرين الف بيت. وكتب ديوان «شمس تبريز» ويشمل على غزليات صوفية يبلغ عدد ابياتها ثلاثة الاف وخمسمائة بيت، وله كذلك الرباعيات وتشتمل على ١٦٥٩ رباعية وعدد ابياتها ٣٣١٨ بيتًا، ومن مؤلفاته كتاب «فيه ما فيه»، وكتاب «المجالس السبعة»»[٣]

كان جلال الدين الرومي يعمل في اول حياته مدرسًا للعلوم الدينية الى ان التقى بالصوفي شمس الدين التبريزي، فتأثر به، وكان علامة تحول كبرى وانقلابًا في حياته حيث انقطع الى الرياضة الصوفية وسماع الموسيقى ونظم الشعر. ويقول الرومي: «ان نور الشمس هو الذي اراني طريق الحقيقة، وهو الذي أدين له في إيماني ويقيني.»[٤] يمكن القول ان شمس الدين التبريزي كان الشيخ الذي اخذ الرومي عنه علم التصوف.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٨٦، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ١٨٣.
٣- المصدر نفسه.
٤- المصدر نفسه.

ويقول الرومي عن كتاب المثنوي: «هو اصول اصول اصول الدين، اي انه كتاب في علم الحقيقة الذي يعد اساسًا لمعرفة الكتاب والسنة وهما اصل الدين.»(١) ومن اقواله في ذلك: «بأن من يريد الوصول بالظاهر فهو مخطئ، إذ لوصول يُيتنى على الحقيقة وليس على الظاهر، ومن لا يعرف الحقيقة فإنه لا يدري ما الكتاب ولا الايمان.»(٢) «والمثنوي» هو فقه الله. وهو لذلك لخاصة الناس، وهم الداخلون في التصوف والغارقون في بحار المعرفة.

ويعبر الرومي عن العشق فيقول: «ان علاقة العبد بربه بالعشق لانه يعني المحبة الخالصة والعرفان الكامل والوجد الصوفي واستنارة انوار الحق. كل من تغيرت هيئته بسبب العشق، فإن العشق يطهره من العيوب. فيا مَن عشقه الجميل هو سر هيامنا. ويا من هو الطبيب لكل ما نشكو من علل. ويا من هو الدواء لغرورنا وكبريائنا، ان المعشوق هو الحي، والعاشق هو الميت»(٣)

كان الرومي يؤمن بالعقل فيقول: «افتح عينيك لترى بنور العقل، ان في كل ورقة شجر وكل حبة، آثار على انه واحد لا شريك له.» ثم يقول: «العقل اعز من كل شيء وهو مفتاح حريم الدولة ومصباح سرير الحشمة. العقل يهدي الى الرشد ويأتي في المعارك ويستدل به على وجود الله تعالى. ثم يرجع الى التفكير الصوفي بان العقل لا يحد الالهيات فيقول: «لو كان هذا العقل كافيًا لمعرفة الحقائق الدينية لكان فخر الدين الرازي اكبر العارفين.»(٤)

كان الرومي كابن عربي يقول بوحدة الاديان «مسلم انا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادتشي. توكلت عليك ايها الحق الاعلى فلا تنأَ عنّي ليس لي سوى معبد واحد، او مسجد، او كنيسة، او بيت اصنام، ووجهك الكريم منه غاية نعمتي. فلا تنأَ عنّي، لا تنأَ عنّي.»(١)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٨٤، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه ص ١٨٤ و١٨٥.

٤- المصدر نفسه ص ١٨٦.

١- «المثنوي». الابيات ٢٤٤٧ ص ٣٠٥.

الطبقة الثانية من شيوخ الصوفية

على مر السنين برز العديد من الشيوخ الصوفية الذين بالرغم من تبوّئهم مراكز مرموقة كمرشدين واصحاب طرق وطوائف وشيوخ خوانق والتفاف مريدين واتباع حولهم يأخذون عنهم علوم الدين والتصوف ويسلكون الطريق تحت ارشادهم، لم يتركوا اثارًا مهمة على الفكر او المنحى المسلكي الصوفي، مما يجعلنا نكتفي بذكر قلة منهم كي لا نترك فجوة في هرم التسلسل الصوفي.

١ – احمد بن ادريس

ابو العباس احمد بن ادريس بن محمد بن علي بن احمد، ويرجع نسبه الى الامام ادريس بن عبد الله العلوي وهو من نسل الامام الحسن بن علي بن ابي طالب.

وُلد احمد بن ادريس عام ١١٧٢هـ في بلدة «ميسور» بالقرب من مدينة «فاس» في المغرب، وتوفي عام ١٢٥٣هـ في قرية «صبيا» في اليمن وهو الذي اسس الطريقة المحمدية الاحمدية التي انتشرت في مصر، بلاد الشام، السودان والمغرب[1] كما انتشرت في الصومال وليبيا.

---

١ – «الموسوعة الصوفية» ص ١٤، عبد المنعم الحفني.

عندما بلغ احمد بن ادريس العشرين عامًا، سار الى «فاس» حيث اخذ علوم الدين عن محمد بن محمّد البادوي بن سودا، (توفي عام ١٢٠٩هـ)، عبد القادر بن احمد العربي (توفي عام ١٢١٦هـ) ثم اخذ علم التصوف عن الشيخ عبد الوهاب التازي، وبقي بصحبته اربع سنوات[١] واخذ عن يده الخرقة الصوفية، والتحق بالطائفة «الخضرية» التي يقال انها ترجع الى «الخضر».

وبعد وفاة الشيخ عبد الوهاب التازي التحق احمد بن ادريس بالشيخ ابي القاسم الوزير الذي ادخله الطريقة الناصرية – الشاذلية.

ابتدأ حياته الصوفية بالوعظ، خصوصًا ضد تأليه الاولياء والانتماء المطلق الى المذاهب الاربعة ثم رفض القياس والاجماع مما جعل علماء الدين يتهمونه بالكفر، بالرغم من إصراره على ان المريد يعتمد فقط على الكتاب والسنة.

عندما ترك احمد بن ادريس «فاس» عام ١٢١٢هـ. في رحلته الى مكة، كان يعتبر من شيوخ التصوف وعلماء الدين. في طريقه الى مكة، زار الجزائر وتونس ثم في عام ١٢١٣هـ وصل الى الاسكندرية ومنها سار الى القاهرة، ثم رحل الى مكة حيث وصلها عام ١٢١٣هـ.

بقي في مكة اربع عشرة سنة اوجد خلالها الطريقة المحمدية الاحمدية، التي يعتبرها بعض المؤرخين مدرسة دينية وليس طريقة صوفية، حيث، بالاضافة الى علوم التصوف، غلب عليها دراسة الدين والفقه.

كان من تلاميذه في مكة ظافر المدني الدرقوي، عبد الرحمن بن سليمان الاهدل، الذي صار مفتي مدينة «زبيد» في اليمن، وعبد الله الماورزي المعروف باسم ابو المعالي. وفي مكة، قدّم له اميرها غالب زين الزبيدي، قصر الجعفرية مركزًا لمدرسته الصوفية.[٢]

---

١. «الصوفية في السودان». علي صالح كرار ص ٥٠ (بتصرف).

٢. «الصوفية في السودان» ص ٥٢.

وفي عام ١٢٢٨هـ رحل احمد بن ادريس مع تلميذه محمد عثمان المرغني الى مصر واستوطن قرية «زينية» الواقعة بالقرب من «قنا». وفي عام ١٢٣١هـ ارسل ابن ادريس تلميذه المرغني الى السودان لنشر الدعوة للطريقة المحمدية – الاحمدية وفي عام ١٢٣٤هـ رجع احمد بن ادريس الى مكة حيث بقي فيها حتى سنة ١٢٤٣هـ. وثم رحل الى اليمن.[١] حيث استوطن قرية «صبيا» وكانت تحت الحكم الوهابي، وبقي يدرس علوم الدين والتصوف حتى توفي في ٢١ رجب عام ١٢٥٣هـ ودفن فيها.[٢]

الطريقة المحمدية الاحمدية تقوم على القرآن والسنة الشريفة ومن اقوال ابن ادريس: «التصوف هو تجريد القلب لله تعالى، وهو علم الوراثة الذي نتيجته العمل المشار اليه بحديث، فمن عمل بما علم اورثه الله علم ما لا يعلم»[٣]

ترك ابن ادريس ثلاثة اولاد، محمد توفي عام ١٣٠٧هـ. عبد العال (توفي عام ١٢٩٦هـ) ومصطفى الذي مات صغيرًا.

لابن ادريس مؤلفات عديدة منها «العقد النفيس في نظم جواهر التدريس» والصلوات المسماة «المحامد الثمانية»[٤]

بعد وفاة احمد بن ادريس، وبسبب عدم تعيين خليفة له، مما يثبت عدم تسلسل الطريقة وذلك برهان على انها كانت مدرسة وليس طريقة، وبسبب خلافٍ على رئاستها بين تلاميذه، السنوسي، المرغني، ابراهيم الرشيد وابناء ابن ادريس، حدثَ تقسيم المدرسة الى طوائف منها: السنوسية، الختمية، اوجدها المرغني، المدنية والراشيدية اوجدها ابراهيم الرشيد، ولاحقًا أَوجدها الادريسية اوجدها ابناء احمد بن ادريس.

١– «الصوفية في السودان» ص ٥٢ (بتصرف).

٢– «الموسوعة الصوفية» ص ١٤، عبد المنعم الحفني.

٣– المصدر نفسه ص ١٥.

٤– المصدر نفسه ص ١٤.

٢- ابن الاعرابي*

احمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي وكنيته ابو سعيد. ولد عام ٢٤٦هـ في مكة وتوفي فيها عام ٣٤١ هجرية.

صحب ابن الاعرابي الجنيد بن محمد وعمر المكي وابا الحسن النوري. وكان ابن الاعرابي شيخ حرم مكة.

من مؤلفات ابن الاعرابي، كتاب طبقات النسّاك، والاختصاص في ذكر الفقر والغنى، معاني علم الباطن، والمواعظ والفوائد، واقوال الناس في صفة الزاهدين.(١)

٣- البوصيري

محمد بن سعيد بن الصنهاجي ولد عام ٦٠٨هـ في بلدة «دلاص» ونشأ في «بوصير» من مصر وترجع نسبته اليها. توفي عام ٦٩٦هـ في الاسكندرية ودفن فيها.

اخذ علم التصوف عن يد ابي العباس المرسي.

اشتهر بقصيدته «البردة»، التي سميت البردة لقوله انه رأى الرسول في المنام فخلع عليه بردته. هي قصيدة في مدح الرسول ومطلعها:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذي سلم ... ام بارق لاح في الزوراء بالعلم

يقوم تصوف البوصيري على محبة الرسول الكريم، وشعره يشيد في القرآن ويدعو الى الزهد والندم والاستغفار.

---

* أثينا على ذكره في الصفحة ٣٣٠ من هذا الكتاب.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٥، عبد المنعم الحفني.

ينشد الصوفية قصيدة «البردة» في مجالسهم والاحتفالات الدينية تشفعًا بالنبي طالبين رحمة الله تعالى.[1]

٤- عبد الرحمن جامي

هو عبد الرحمن جامي وكنيته نور الدين. ولد عام ٨١٧هـ في بلدة جام من اعمال هراة، وتوفي فيها عام ٨٩٨هـ. نسبته جامي الى بلدة جام حيث كان مولده.

اخذ علم التصوف عن يد الشيخ سعد الدين الكاشغري وتزوج ابنته. ثم عند وفاة الشيخ بهاء الدين نقشبند خلفه على الطريقة النقشبندية.

عُرف بقصائده: ليلى والمجنون. يوسف وزليخا. وديوانه الاكاليل السبعة، وقيل عنه، انه آخر الشعراء الصوفية الكبار، وكان في كتاباته وحياته الصوفية أوحد زمانه.[2]

٥- سمنون بن حمزة

سمنون بن حمزة، وكنيته ابو الحسن، ولد عام ٢٩٨هـ في بغداد وتوفي بعد الجنيد بن محمد.

صحب سمنون الصوفي سري السقطي وابو محمد القلانسي ومحمد بن علي القصّاب.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٧٠، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٩٩.

عُرف سمنون باسم المحب لانه كان يتكلم في المحبة، ووصفوا كلامه فيها لانه «احسن الكلام» وكان لا يخاطب الناس إلاّ ويقول يا حبيبي.[1]

٦- الدسوقي

ابراهيم الدسوقي. ولد عام ٦٥٣هـ في بلدة «دسوق» من مصر، وهو صاحب الطريقة البرهامية التي انتشرت في مصر وسوريا والحجاز وتركيا واليمن ومنها فروع كالشرنوبية والشهاوية والسعيدية.[2]

كان ابراهيم الدسوقي شافعي المذهب ثم تصوف وصار من مرتبة الشيوخ الكبار. وكان يقول: «من عرف الله وعبده فقد ادرك الشريعة والحقيقة فاحكموا الحقيقة والشريعة ولا تفرطوا إن أردتم ان يُقتدى بكم، و لم يكن اسم الحقيقة إلاّ لانها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة، والشريعة اصل والحقيقة فرع. والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية.»[3]

وكان يقول: «التصوف ليس بلبس الصوف، انما الصوف من بعض شعاره.[4]

٧- الششتري

علي بن عبد الله النميري الششتري، وكنيته ابو الحسن. ولد الششتري عام ٦١٠ في ششتر احدى قرى وادي آش من الاندلس، ويرجع اليها في نسبه.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٤٠٧، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ١٥٧.
٣- المصدر نفسه ص ١٥٧.
٤- المصدر نفسه ص ١٥٧.

اخذ ابو الحسن التصوف عن يد محيي الدين بن سراقة تلميذ ابي فحص السهروردي صاحب كتاب «عوارف المعارف» وصحب الصوفي الكبير ابن مدين والفيلسوف الصوفي الاندلسي ابن سبعين.

سار الششتري الى مصر، وكان له طريقة تشعبت من السبعينية، وسكن في الجامع الازهر حيث التف حوله العديد من المريدين.

كان الششتري من دعاة وحدة الوجود وعلى مذهب الحلول والاتحاد، وقيل انه تبرأ من هذا المذهب في آخر حياته.(١)

اشتهرت الطريقة الششترية في اعتمادها على السماع والموشحات التي كان يؤلفها الششتري وقد اطلق عليه ابن تيمية لقب صاحب الازجال.(٢)

اعتبر الششتري نفسه من الشاذلية وكان يقول «شيوخي.. هم شاذلية» واورثهم رباطه من بعده(٣)

توفي الششتري عام ٦٦٨هـ في القاهرة.

٨- ابن الصبّاغ القوصي

علي بن احمد بن الصبّاغ وكنيته ابو الحسن. ولد عام ٥٤٦هـ في بلدة «قوص» ونسب اليها، وتوفي عام ٦١٢هـ في بلدة «قنا» ودفن فيها. لُقب ابن الصباغ «شيخ التصوف المصري في القرن السابع».

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٤٣، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٢٤٣.

٣- المصدر نفسه ص ٢٤٤.

اخذ الصبّاغ علم التصوف عن يد الشيخ عبد الرحيم القنائي، «ومذهبه يقوم على الحب الالهي ووحدة الوجود والاتحاد.»[١] وكان يقول عن طريقته في التصوف «ليس لاحد علي في هذا الطريق منّة إلاّ الله ورسوله»[٢]

ومن اقوال الصبّاغ لمريديه: «لن يصفو قلبك إلاّ بتصحيح النية من الله، عزّ وجل، ولن يصفو بدنك إلاّ بخدمة الاولياء وما بك الى حالة شريفة إلاّ بملازمة الموافقة ومعانقة الادب وأداء الفرائض وصحبة الصالحين وخدمة الصادقين. والذاكر لله تعالى لا يقوم له في ذكره عوض.» ثم يقول: «والسنّة التي لم يتنازع فيها احد من اهل العلم هي الزهد في الدنيا وسخاوة النفس ونصيحة الخلق.»[٣]

٩- ابن مسرة.

ابو عبد الله بن عبد الله بن مسرة. ولد عام ٢٦٩هـ في مدينة قرطبة من الاندلس. يقول هنري كوربان: «لم يكن من اصل عربي، ان سيماء والده عبد الله وبنيته الجسدية كانتا تسبغان عليه مظهر النورمانديين من سكان جزيرة صقلية بالرغم من اصله القرطبي»[٤] توفي ابن مسرة عام ٣١٩هـ في صومعته في جبال قرطبة.

يختلف المؤرخون على ما اذا كان ابن مسرة فيلسوفًا صوفيًا ام صوفيًا غلبت عليه الفلسفة؟ هنري كوربان يميل الى الاعتقاد ان ابن مسرة كان فيلسوفًا، ولكن كتابه «كتاب الحروف» مفعم بالعلم الصوفي»[٥]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٥١.
٢- المصدر نفسه ص ٢٥١.
٣- المصدر نفسه ص ٢٥٢.
٤- «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ٣٣٠.
٥- المصدر نفسه ص ٣٣٠.

يقول الدكتور الحفني: «ابن مسرة اندلسي صاحب طريقة وتعاليم في التصوف اساسها وحدة الوجود، وقيل انه اسماعيلي او اشراقي، وكانت مدرسته تخلط التعاليم الاشراقية بفلسفة «أنباذ وقليس» واتخذ لنفسه منعزلاً على مشارف قرطبة يجتمع فيه بمريديه ويمارس شعائر طريقته ويفرض على نفسه وعليهم القواعد التي ارادها لطريقته.[١]

والمستشرق الاسباني «أسين بلا ثيوس» يعتبر ابن مسرة من فلاسفة المتصوفة والاصل لكل المدارس التي تلته والتي قالت بوحدة الوجود وبتعاليم الاشراق[٢]

١٠- القصّار

حمدون بن احمد بن عمارة القصّار النيسابوري. توفي عام ٢٧١ في مدينة نيسابور ودفن فيها. صحب ابا تراب النخشبي وسلمان الباروسي.[٣]

القصّار، شيخ الطريقة الملامتية(*) التي نشرها في نيسابور وما حولها. عُرف القصّار بلوم نفسه ولأصحابه بدعوى أن سير السلف تشعره بالتقصير وتخلفه عن درك درجات الرجال، وهم الذين قال فيهم الله تعالى صدقوا وما عاهدوا الله عليه. ويقول «واتباع طريق الملامتية على العكس مراده الحق لا الخلق وان ينطلق السالك متحررًا لا يشغله عن الحق شاغل.[٤]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٦٣، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ٣٦٣.

٣- «الرسالة القشيرية» ص ٤٢٦.

*- الملامتي لا يظهر خيراً ولا يضمر شرًا ويتمسك بالاخلاص.

٤- الموسوعة الصوفية ص ٣٢٧، عبد المنعم الحفني.

١١- ابن منازل

عبد الله بن محمد بن منازل وكنيته ابو محمد. توفي عام ٣٢٩هـ. اخذ علم التصوف عن يد حمدون القصّار الذي بعد وفاته عام ٢٧١هـ استلم مشيخة الطريقة الملامتيّة.

كان ابن منازل يشتغل بعلوم الظاهر وكتب الحديث واشتغل بالتصوف من بعد على طريقة القصار ونشر طريقة الملامتيّة في التفكير والسلوك، وهو يؤكد فيما يقول على اجتناب الكبر والرياء ومجاهدة النفس والسلوك بالصدق.[١]

كان ابن منازل يقول: «لا تحكِ عن احوال غيرك وإنما تناول احوالك، والاولى ان لا تتكلم، واذا انتحلت الفقر فليكن ذلك عن حقيقة، فلا خير في الفقر ان لم يكن فضيلة، ويعني ان الصوفي المتحقق هو الذي يخرج عن الدنيا وعن الخلق ويكون بالله ولله.» ثم يقول: «والملامتي هو الذي يعاني ذل التكسب ويلزم نفسه ما يحتاج ولا بد منه.»[٢]

١٢- اليسوي

احمد ابراهيم اليسوي وُلد عام ٤٩٩هـ، في مدينة «يسي» من تركستان وتوفي فيها عام ٥٦٢هـ.

يقول الدكتور الحفني: «وهو اصلاً من مواليد «سيرام» ولكنه انتقل مع أسرته الى «يسي» بعد وفاة ابيه وهو في السابعة فتتلمذ على بابا ارسلان.»[٣]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٧٧، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٣٧٧.

٣- المصدر نفسه ص ٤١٧.

بعد وفاة الشيخ بابا ارسلان انتقل اليسوي الى مدينة «بخارى» وأصبح من مريدي الشيخ يوسف الهمذاني وخلفه على الطريقة سنة ٥٥٥هـ وعاد الى «يسي» وأقام فيها حتى مماته[١]

انتشرت الطريقة اليسوية في اسيا الوسطى ولاقت شعبية ورواجًا لدى جمهور الناس «حيث تعتمد محبة الله والاخلاص له والتوكل عليه، فهو الرزاق والشافي والمعافي والمعين والميسر وله الاسماء الحسنى والصفات الفضلى.»[٢]

١٣- محمد بن عيسى بن كور

الامام محمد بن عيسى بن كور الحنبلي ولد عام ٦٨١هـ في القاهرة. وقيل ان نسبه يرجع الى الخليفة الاموي مروان بن محمد الحمار.

كان الصوفي بن كور امام اهل الموسيقى وله فيها مؤلفات عديدة، وكان صوفيًا «فقيها» وله زاوية عند مشهد الحسين بالقاهرة. اخذ علم التصوف عن يد الشيخ علي بن يوسف بن حرزا الشطنوفي الشافعي. من مؤلفاته كتاب سماه «غاية المطلوب.»[٣]

١٤- بدر الدين حسن

بدر الدين حسن ابن الشيخ الصوفي الكبير نور الدين ابن الحسن الحريري شيخ الطائفة الحريرية التي انتشرت في بلاد الشام. تعين بدر الدين شيخًا للطائفة بعد وفاة ابيه.

١- المصدر نفسه ص ٤١٧.
٢- المصدر نفسه ص ٤١٧.
٣- «النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة» تغري بردي. مجلد ١ ص ٣٣.

وُلد بدر الدين في قرية «بسر» من اعمال ازرع في حوران وذلك عام ٦٢١هـ وتوفي عام ٦٩٧هـ وقبره يقال له قبر «اليسع».

١٥- ابو عبد الله محمد الجزولي

محمد بن سليمان بن ابي بكر الجزولي السملالي وكنيته ابو عبد الله، والجزولي نسبة الى جزولة احد بطون البربر من «سوس» المراكشية.

ولد ابو عبد الله عام ٨٠٧هـ في بلدة سوس، وتوفي عام ٨٧٣هـ، قيل مسمومًا، في بلدة افعال. وهو صاحب الكتاب المشهور «دلائل الخيرات وشوارق الانوار في ذكر الصلاة على النبي المختار.» وهو مجموعة صلوات على النبي «صلعم»[١]

في القرن التاسع هجري اخذ التصوف منحى ما عُرف «بالبركة»، واخذت الصوفية تلتف حول مشايخ الطوائف، كما كان في الهند، واطلقوا عليهم لقب الشرفاء وصار الانتماء للشيخ الذي دعي بالوالي، وليس للطائفة او الطريقة، وصارت قبورهم مزارات لطلب الشفاعة والبركة.

اشتهر من هؤلاء «الشرفاء» ابو عبد الله الجزولي، الذي اخذ الطريقة الشاذلية عن يد الشيخ ابو عبد الله محمد بن امغار الصغير[٢]، وغلب عليه لقب الولي، وكانت تؤمّه الناس للبركة واخذ علوم الدين. وقيل ان الجزولي مات عن ٢٦٦٥ مريدًا[٣]

١- الموسوعة الصوفية ص ١٠١، عبد المنعم الحفني.

٢- The Sufi Orders in Islam p. 84.

٣- «الموسوعة الصوفية»، ص ١٠٢.-

بالرغم من قول بعض المؤرخين ان الجزولي اوجد الطريقة الجزولية الشاذلية، التي تفرع عنها العديد من الطوائف، كالدرقاوة، الحمادشة، العيسوية، الشرقاوة، والطيبة(1) فالواقع انه لم يكن له طريقة او طائفة بل مدرسة تركت بصمات ملحوظة على التصوف الاسلامي، اعتمد في تعاليمه القرآن وسيرة الرسول الشريفة، فالتف حوله العديد من التلاميذ يأخذون عنه علوم الدين دون اي ممارسات صوفية، وحتى الذكر، «فكثر اتباعه فخاف والي المدينة (آسفي) من نفوذ الجزولي وتنامي قوته وطلب منه الخروج بهم»(*)

بالرغم من تخلي الجزولي عن اعتماد طريقة صوفية فقد نتج، كما قلنا سابقًا، من تعاليمه طوائف عديدة كان ابرزها الطائفة الطباعية اوجدها تلميذه ابو فارس عبد العزيز الطباع، الملقب بالهرّار (توفي عام ٩١٤هـ) في مدينة فاس(2) ثم اسس محمد بن عيسى (توفي عام ٩١٣هـ) وكان من اتباع احمد الحارثي تلميذ الجزولي، الطائفة العيسوية التي كان مركزها زاوية مكناسة الزيتون في فاس.

١٦ – نصر الدين اوران

لا نعرف بالتحديد تاريخ ميلاده او وفاته الاّ انه عاش في القرن التاسع هجري وقبره في استنبول.

وطريقته في التصوف تضم بين فئاتها طبقتين: الاولى من العمال الذين يعملون في الميادين الصناعية كالدباغة والبناء وما ينتشر في المدن، والثانية من الدراويش السالكين الذين لا يجيدون العمل ويعيشون في التكيات ويتعيشون مما يتصدق به عليهم اخوانهم من الدراويش العمال. اذن يمكن القول، ان الاخوة الصوفية لديهم قوامها فريقان: العمال العبّاد والعمال الحرفيون.

---

١ – «الطرق الصوفية في مصر» الدكتور عامر النجار ص ١٤١.

The Sufi Orders in Islam Appendix F page 276-277

* الموسوعة الصوفية ص ١٠٢.

٢ – The Sufi Orders in islam page 85

«وجميعهم على الاخلاق الصوفية العالية يضمهم علو الهمة والتقوى والورع، وهمة العابد في عبادته كما ان همة العامل في عمله.»[1]

كانت الاشارة التي يحملونها هي غطاء الصوف الابيض للرأس يتدلى طرفه بمقدار ذراع وعرض الاصبعين. دخول المريد في الطريقة له طقوس. فبالاضافة الى محفوظاتهم القرآنية واداعيهم وأذكارهم، فإن الغاية الاخيرة كانت تقليد الاخ المنطقة، التي هي العوض عن الخرقة الصوفية وتناسبه اكثر كعامل، ويقص شعره، ويعطى سكينًا يدخله منطقته، باعتبار شعارهم، ان من لا يزعه القرآن يزعه السلطان، اي القوة.[2]

ويقول ابن بطوطه، كتاب «رحلة ابن بطوطة»: «ان الاخوة او الاخوان اجتماعهم في المساء في الرباط، فيقدمون لشيخهم بعض مما ربحوه في يومهم ويتعاونون فيما بينهم، ويتكفل الشيخ بمن لا يستطيع العمال منهم او المتبطل ويعقد لهم المآدب ويدعو اليها الضيوف.»[3]

١٧. البخاري

جلال الدين حسين، ولقبه الشيخ جلال مخدوم جهانيان ولد عام ٧٠٧هـ في اججه وفيها مات عام ٧٨٥هـ. تلقى الخرقة الصوفية عن يد نصير الدين جراغ دلهي واقيم شيخًا للاسلام على يد محمد بن تغلق وكانت تتبعه اربعون خانقاه ويعتبر من المشايخ الصوفية الكبار.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٢. عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ٣٣.
٣- المصدر نفسه ص ٣٣.

كان جلال الدين من مشايخ السهروردية ثم انشأ الطائفة الجشتية ومريدوه يسمون انفسهم الجلالية، وهم كانوا فقراء لا يعرفون الاستقرار ولا يهتمون بالصلوات ويتعاطون القنب الهندي ويحلقون لحاهم وشواربهم وحواجبهم ويلبسون اساور من الزجاج ويضعون حول رقابهم حبلاً من الصوف.(١)

١٨- ابن ابي الحواري

كان من اهل التصوف يدعو الى المحبة ويقول: «انه ليس من أعلام الحب ان تحب ما يغضه حبيبك، وعلامة حب الله هو طاعته، وحب ذكره، ولا يستطيع العبد ان يحب الله حتى يكون الابتداء من الله له بالحب، وذلك حين يعرف منه الاجتهاد في مرضاته، ومرتبة الحب لله هي اعلى مراتب السلوك، وهي مرتبة المقربين، وحتى حبه للناس يحكمه الحب لله، فالرجل لا يحب أخاه إلاّ لأنه يراه يحسن خدمة ربه، والرضا بالله هو نواة الحب لله وهو ان لا تختار شيئًا الا ما يختاره الله لك.»(٢)

تزوج رابعة بنت اسماعيل وكانت من اهل التصوف، وكان الرواة يخلطون بينها وبين رابعة العدوية حتى ظنوا أنّ قبرها في دمشق هو قبر رابعة العدوية.

توفي ابن ابي الحواري عام ٢٣٠هـ عن اثنين وثمانين سنة.

١٩- ابن خفيف

محمد بن خفيف ابو عبد الله الضبّي الشرازي، ولد عام ٢٨٦هـ في شيراز ومات فيها عام ٣٧١هـ.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٤٢، عبد المنعم الحفني.

٢. المصدر نفسه ص ١٣٣.

صحب رويم بن محمد، وابا محمد الجريري وابا العباس بن عطاء وكان عالمًا بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق(١)

اخذ علوم الدين والتصوف عن الشيخ ابو العباس احمد بن يحي وصار شيخ المشايخ في وقته وكانت طريقته في التصوف تقوم على الحضور كمقابل للغيبة، فمن غاب عن نفسه فانما حضوره مع الحق، وإلاّ فالغيبة بلا حضور جنون.(٢)

وكان ابن خفيف يقول ان الحلولية والاتحاد كفر ومن قوله: «ومن زعم ان صفات الله تعالى بصفات العبد فهو حلولي قائل باللاهوتية والالتحام، فذلك كفر لا محالة، ومن قال إن شيئًا من صفات الله حال في العبد، او قال بالتبعيض على الله فقد كفر.» ويقول ابن خفيف: «ان الباري تعالى واحد، لا حال في الاشياء، ولا الأشياء حالة فيه، ولا يتجلى في شيء ولا استتر بالحدث»(٣)

٢٠- ابن عطاء الأدمي

احمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي وكنيته ابو العباس، (توفي عام ٣٠٩هـ) وصفه ابو سعيد الخراز «ان التصوف خُلُق وما رأيت من اهله إلاّ الجنيد وابن عطاء(٤)

١- «الصوفيون وارباب الاحوال» ص ١٩٩.

٢- «الموسوعة الصوفية» ص ١٤٣، عبد المنعم الحفني.

٣- المصدر نفسه ص ١٤٣.

٤- المصدر نفسه ص ٢٩٤.

عُرف ابن عطاء بتفسيراته لآيات القرآن الكريم ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى «او ألقى السمع وهو شهيد.» ان الله تعالى خلق الانبياء للمجاورة لقوله تعالى «عز جارك» وخلق الصالحين للملازمة لقوله تعالى «وألزمهم كلمة التقوى» وهي «لا إله إلاّ الله.» وخلق العوام للمجاهدة فقال تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا.»[١]

ويقول ابن عطاء عن الخلفاء الراشدين، ويطلق عليهم لقب السابقة اي من سبق في محبة الله تعالى فيقول: «فكان ابو بكر لم يشهد في الدارين غير الله فكان يقول «لا اله إلاّ الله.» وكان عمر يرى ما دون الله صغيرًا في جنب عظمة الله فيقول «الله أكبر» وكان عثمان لا يرى التنزيه إلاّ لله فكان يقول «سبحان الله» وكان علي يرى نعمة الله في الدفع والمنع والمحبوب والمكروه فكان يقول «الحمد لله.»[٢]

٢١- القاشاني

كمال الدين عبد الرزاق القاشاني، صاحب كتاب «اصطلاحات الصوفية». كان القاشاني من اقطاب الطريقة السهروردية. توفي عام ٧٣٠هـ بشيراز ودفن في خانقاه الصوفية.

كان القاشاني يقول في التصوف: «انه التخلق بالاخلاق الالهية وينبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، التحقق بالبذل والايثار وترك التعرض والاختبار[٣] ويقول القاشاني عن خرقة التصوف: «هي ما يلبسه المريد من يد شيخه إعلانًا للدخول في إرادته والتوبة على يده، وليتلبس باطنه بصفاته كما تلبس ظاهره بلباسه، وهي لباس التقوى ظاهرًا وباطنًا.»[٤]

من مؤلفات القاشاني: السراج الوهّاج - شرح منازل السائدين، اصطلاحات الصوفية - لطائف الاعلام وغيرها.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٩٤، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ٢٩٥.
٣- المصدر نفسه ص ٣٢٠.
٤- المصدر نفسه ص ٣٢١.

٢٢- الكلاباذي

محمد بن اسحق البخارى الكلاباذي وكنيته ابو بكر، اطلقوا عليه لقب تاج الاسلام لعلمه وفضله فقد كان موسوعة وكان من علماء الصوفية.

يختلف المؤرخون ويتساءَلون: هل كان الكلاباذي صوفيًا زاهدًا متقشفا عابدًا؟ ام كان مؤرخًا تأثر بالصوفية وكتب عنهم كتابه «التعرف الى اهل التصوف» الذي قيل فيه: لولا «التعرف لما عُرف التصوف.»

وقال الدكتور الحفني: «ولم يكتب ما كتب عن التصوف الا بعد أن عاشر الصوفية، واستمع الى اعلامهم، وحفظ عنهم.»[١]، يعني ان الكلاباذي لم يحتك بالصوفية إلاّ بعد ان تقدم في العمر. ثم بالاضافة، لم يُعرف الشيخ الذي اخذ عنه علوم التصوف وعمّن اخذ الخرقة الصوفية هذا اذا كان اخذها.

يظهر ان الكلاباذي كان مؤرخا يميل الى التصوف ولم يكن صوفيا ملتزمًا.

٢٣- النوري، ابو الحسين

محمد بن محمد النوري البغدادي، ويعرف بابن البغوي نسبة الى قرية بغشور بخراسان. ولد ونشأ في بغداد ومات فيها عام ٢٩٥هـ.

صحب النوري الجنيد بن محمد، وسري السقطي، وطريقته تسمى «النورية»، وكان يكره العزلة ويعلم مريديه الصحبة وحسن العشرة.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٣٨، عبد المنعم الحفني.

وروي عن النوري انه كان يحمل غداءه من بيته في الصباح متوجها الى حانوته فيتصدق به في الطريق، ويظل صائمًا بقية اليوم، فيظن اهل بيته انه يأكل في الحانوت، ويظن اهل السوق انه يأكل في بيته، وظل على هذه الحال عشرين سنة.

كان النوري يقول: ان التصوف ليس رسومًا ولا علومًا ولكنه قبل كل شيء أخلاق، وهو المعرفة بالله، ولكنها معرفة تكون في الدنيا قبل الاخرة، ومن لم يعرفه اولاً في الدنيا لن يعرفه في الاخرة.[١]

ذكر المؤرخ المملوكي الشهير تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة» اخباربعض شيوخ التصوف وتواريخ وفاتهم نذكر منها ما يلي:

- في عام ٧٩٢هـ توفي الشيخ المعتقد، الصوفي الصالح علي المغربل في خامس جمادى الاولى ودفن بزاويته خارج القاهرة بحكر الزرّاق وكان للناس فيه اعتقاد حسن ويقصد للزيارة. وكذلك توفي شيخ الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء شهاب الدين احمد بن الانصاري الشافعي.(مجلد ١٢ ص ١٢٢).

- وفي عام ٧٩٤هـ. توفي الشيخ المعتقد، الصوفي المجذوب طلحة المغربي في الرابع عشر من شوال بمدينة مصر، وكانت جنازته مشهودة، ودفن خارج باب النصر في القاهرة، وهو احد من اوصى الملك الظاهر برقوق ان يدفن تحت ارجلهم من الصالحين والعلماء فدفن هناك، وكان للناس فيه اعتقاد كبير، لا سيما الملك الظاهر برقوق (مجلد ١٢ ص ١٣٠).

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩٨، عبد المنعم الحفني.

– في عام ٧١٤هـ توفي الشيخ المعمّر بقبّة السلف محمد بن محمود بن الحسين بن الحسن الموصلي المعروف «بحيّاك الله» مات بزاويته بسويقة الريش خارج القاهرة ودفن بالقرافة. كان شيخًا صالحًا يقصد للزيارة للتبرك به كثير الذكر والعبادة وله محاضرة حسنة وشعر (مجلد ٩ ص ٢٢٧).

– وتوفي عام ٧١٩هـ الشيخ الصالح المعتقد ابو الفتح نصر بن سليمان بن عمر المنبجي، نسبة الى منبج بزاويته في القاهرة ودفن بجوار الزاوية. وكان عالمًا زاهدًا متقشفًا سمع الحديث وبرع في الفقه والتصوف (مجلد ٩ ص ٢٤٤)

– في عام ٤٤٢هـ توفي في هراة من فارس شيخ الصوفية احمد بن حمزة بن خزيمة ابو اسماعيل الهروي. زار بلاد الشام والعراق واخذ الكثير عن متصوفة العراق (مجلد ٥ ص ٤٨)

– في عام ٤٤٢هـ توفي الزاهد المتقشف علي بن عمر بن محمد بن الحسن ابو الحسن المعروف بابن القزويني. ولد في بغداد عام ٣٦٦هـ وكان عالمًا بالدين والفقه والنحو والحديث وكان صاحب كرامات يقصد قبره للزيارة.(مجلد ٥ ص ٤٩).

– في عام ٤٤٦هـ توفي مظفر بن محمد بن ابراهيم ابو عبد الله الصوفي الشيرازي احد اعيان مشايخ الصوفية. جاور مدينة النبي اربعين سنة ورحل الى بغداد ثم عاد الى دمشق ومات بها (مجلد ٥ ص ٥٦)

– في عام ٦٥٢هـ توفي في خراسان الشيخ الامام سعد الدين محمد بن المؤيد بن حمويه ابن عم شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن حمويه الجويني. كان زاهدًا عابدًا دينيًّا متكلمًا في الحقيقة وله مجاهدات ورياضات. (مجلد ٧ ص ٣١).

– وفي عام ٥٩٤هـ. توفي حاكم الموصل قيماز بن عبد الله مجاهد الدين الخادم الرومي وكان زاهدًا متقشفًا عابدًا عادلاً وكريمًا يميل الى التصوف وبنى

رباطًا عظيمًا في الموصل والجامع المجاهدي ووقف عليهما الاوقاف و لم يدع فقيرًا إلاّ تصدق عليه واغنى اهله.(مجلد ٦ ص ١٤٤).

- وفي عام ٦٠٣هـ توفي عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني وكان زاهدًا متقشفًا عابدًا مقتنعًا من الدنيا باليسير. مات في بغداد ودفن في محلة باب حرب (مجلد ٦ ص ١٩٣)

- وفي عام ٥٨١هـ توفيت عصمت الدين بنت معين الدين زوجة السلطان صلاح الدين الايوبي التي تزوجها بعد وفاة زوجها الملك العادل نور الدين زنكي وكانت من اعف الناس واكثرهم عبادة متصوفة لها صداقات كثيرة. بنت في محلة حجر الذهب رباطًا للمتصوفة وتربة في قاسيون. (مجلد ٦ ص ٩٥).

- وفي عام ٧٨٦هـ توفي العلامة امام عصره ووحيد دهره واعجوبة زمانه اكمل الدين محمد بن محمد الرومي البابرتي الحنفي شيخ خانقاه شيخون في يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان. وحضر السلطان الملك الظاهر الصلاة عليه ومشى امام نعشه من مصلاة المؤمنين الى ان وقف على دفنه بقبة الشيخونية، وكان واحد زمانه في المنقول والمعقول ونالته السعادة والجاه العريض. (مجلد ١١ ص ٣٠٢)

سنكتفي بهذا العدد ممن ذكرهم المؤرخ تغري بردي لان تعدادهم كلهم يتجاوز حد دراستنا هذه، فالمجال قصير والموضوع طويل.

الزهاد الذين عاشوا على تخوم التصوف

١. عبد الله بن زكريا الخزاعي
٢. جمال الدين ابو الفرج ابن محمد الجوزي
٣. الخليفة عمر بن عبد العزيز

٤ . ابو العباس احمد بن الخليفة هارون الرشيد
٥ . الخليفة العباسي المستنجد بالله
٦ . ايوب بن ابي تميمة السخياتي
٧ . ابو يعقوب فرقد السبخي
٨ . مالك ابن دينار
٩ . عبد الواحد بن زيد
١٠ . محمد بن واسع
١١ . الحسن البصري
١٢ . اويس القرني
١٣ . ابو هاشم عثمان الكوفي
١٤ . ابراهيم بن ادهم
١٥ . رويم ابن محمد
١٦ . شقيق البلخي
١٧ . بشر الحافي
١٨ . الفضيل بن عيّاض
١٩ . النخشبي ابو تراب

التصوف الفلسفي الاسلامي

١ . معروف الكرخي
٢ . رابعة العدوية
٣ . منصور بن عمار
٥ . حاتم الاصم
٦ . الحارث بن اسد المحاسبي
٧ . عبد الرحمن الداراني

٨. سهل التستري
٩. ذو النون المصري
١٠. ابو يزيد البسطامي
١١. سري السقطي
١٢. الجنيد بن محمد
١٣. ابو سعيد الخزار
١٤. عمرو المكي
١٥. ابو منصور الحلاّج
١٦. احمد الانطاكي
١٧. ابو بكر الشبلي
١٨. ابو الحسين النوري
١٩. احمد الغزالي
٢٠. ابو حامد الغزالي
٢١. عبد الكريم القشيري
٢٢. ابو اسحاق الشيرازي
٢٣. ابن الرفاعي
٢٤. خير النسّاج
٢٥. داود الطائي
٢٦. يحي بن معاذ الواعظ
٢٧. الترمذي
٢٨. ابو حيّان التوحيدي
٢٩. السهروردي ابو نجيب
٣٠. السهروردي ابو حفص
٣١. الامام ابو حفص النيسابوري

٣٢. السلمي ابو عبد الرحمن
٣٣. ابو مدين التلمساني
٣٤. ابن مشيش
٣٥. ابو الفتح الواسطي
٣٦. الفارابي
٣٧. ابو الغيث بن جميل
٣٨. الجبرتي
٣٩. الرداد
٤٠. المقدسي، ابن القيسراني
٤١. محمد عثمان المرغني

الفلسفة في التصوف

١. محي الدين بن عربي
٢. السهروردي «المقتول»
٣. ابن سبعين
٤. ابن طفيل
٥. ابو الحسن الشاذلي
٦. عبد القادر الجيلاني
٧. عبد الكريم الجيلي
٨. فريد الدين العطار
٩. ابن الفارض
١٠. ابن الرومي

الطبقة الثانية من شيوخ الصوفية

١. ابن ادريس

٢. ابن الاعرابي

٣. البوصيري

٤. عبد الرحمن جامي

٥. سمنون بن حمزة

٦. الدسوقي

٧. الششتري

٨. ابن الصباغ القوصي

٩. ابن مسرة

١٠. القصار

١١. ابن منازل

١٢. اليسوي

١٣. بدر الدين حسن

الطرق الصوفية

قال الله في كتابه الكريم:

«إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا.»[1]

«ويذهبا بطريقتكم المثلى»[2]

-«اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يومًا.»[3]

«مصدقًا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم»[4]

يقول السراج الطوسي عن اصحاب الطريقة «هم العلماء بالله وباحكام الله، العاملون بما علّمهم الله تعالى، المتحققون بما استعملهم عزّ وجل.»[5]

الطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين الى الله، فهي سفر الى الله تعالى والسالك او المريد هو المسافر، فعلى المسافر ان يسلك طريق القوم وان يجتازها مرحلة بعد مرحلة.»[6]

١- سورة النساء آية ص ١٦٨.

٢- سورة طه آية ٦٣.

٣- سورة طه آية ١٠٤.

٤- سورة الاحقاف آية ٣٠.

٥- «اللمع الصوفية» ص ٢٦.

٦- «ابو الحسن الشاذلي». علي سالم عمار. مجلد ٢ ص ٢٤.

يقول عبد الله العطاس: «والطريقة عند اهل الحقيقة عبارة عن مراسم الله تعالى واحكامه التكيفية التي لا رخصة فيها وهي المختصة بالسالكين الى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي والمقامات. والسير الى الله، سير حقيقي ومعنوي بتزكية النفس والجوارح عن منكرات الاخلاق والاعمال.»(١)

يطلق الصوفية اسم الطريقة على مجموعة القواعد والرسوم التي يفرضها الشيوخ على مريديهم، ولهذا لم يكن للطريقة صفات ثابتة محدودة، فإن تعاليم كل طريقة ترجع الى شيخها الخاص يدل على ذلك ما في الطرق الصوفية من تباين وخلاف.(٢)

لم تكن الطرق الصوفية طريقة واحدة بل طرقًا غايتها ادراك الله تعالى والفناء في حبه. بالرغم من تنوع مسالكها وتأثرها من عوامل مختلفة عقائدية او فلسفية، شأن كل حركة فكرية اساسها العلم والبحث عن الحقيقة الروحانية لكنها تصب في عبادة الله عزّ وجل.

يقول الدكتور التفتازاني: «الحق ان للطرق الصوفية اهمية بالغة في الاسلام وذلك لأنها تمثل الجانب العملي من التصوف، وهو جانب ارتبط بحياة المجتمعات الاسلامية، وجماهير الناس فيها عبر عصور التاريخ ارتباطًا مباشرًا. والتصوف في حقيقته ليس نظريات نفسية أو اخلاقية او ميتافيزيقية بقدر ما هو طريقة في الحياة، ورياضية عملية تمارس من اجل هدف معين هو تحقيق الكمال الاخلاقي الذي دعا اليه الاسلام.»(٣) ثم يقول: «ولعلك تدهش اذا علمت ان آراء كبار شيوخ التصوف لم يكتب لها البقاء في العالم الاسلامي قرونًا إلاّ من خلال الطرق العملية التي اسسوها والتي انتشرت فيها انتشارًا واسعًا.(٤)»

١- «ظهور الحقائق في بيان الطرائق». ص ١٧ و١٨.
٢- «التصوف الاسلامي» البير نادر ص ٣٣.
٣- «بحث الطرق الصوفية» مجلة الاداب مجلد ٢ ص ٥٥.
٤- المصدر نفسه ص ٥٦.

نشأت الطرق الصوفية في بلاد المغرب العربي ومنه انتقلت الى مصر وبلاد الشام ثم الى العراق وفارس، وذلك بعد ان قضى صلاح الدين الايوبي على المذهب الشيعي، الذي يرفض التصوف، وشجع المذهب الشافعي السني اذ عيّن قاضي القضاة الفقيه الشافعي السني صدر الدين الهذباني وانشأ مدرسة للشافعية، فانتهى المذهب الشيعي المعادي للتصوف وحلّ مكانه المذهب الشافعي، مما شجع قدوم الصوفية من بلاد المغرب الى مصر وانتشروا في بلاد الشام.

يقول المفكر اللبناني سميح عاطف الزين: «ومع اشتداد تيار الهجرة الى مصر وفد اليها جماعة من هؤلاء الاعلام في طليعتهم عبد الرحيم القنائي وابوالحسن الشاذلي وابو العباس المرسي وابن عطاء الله السكندري واحمد البدوي وغيرهم.»[١]

انشأ صلاح الدين الايوبي اول «خانقاه»* للصوفية في مصر وكانت تعرف باسم «سعيد السعداء.»

نشأت اول طريقة صوفية في مصر في مدينة «قنا»[٢] انشأها الشيخ عبد الرحيم القنائي الذي توفي بها عام ٥٩٢هـ.

١- «الصوفية في نظر الاسلام» ص ٥٤٢.

* الخانقاه كلمة فارسية تعني «دار اهل التصوف» ومكان سكنهم وتعبدهم وحيث يتلقون العلوم الدينية ويمارسون طقوسهم. كذلك عُرفت باسم زاوية، رباط وتكية.

٢- الملفت للانتباه ان مشايخ الصوفية الذين قدموا الى مصر حرصوا على الابتعاد عن القاهرة واتجهوا الى المدن الاخرى. فالشاذلي وابن عطاء الله ذهبا الى الاسكندرية، والقنائي اتجه الى «قنا» والبدوي اختار طنطا. والواسطي اختار الاسكندرية والدسوقي اختار دسوق.

في العهد المملوكي انتشرت وقويت الصوفية وكانت غاية السلطة المملوكية، وهي مؤلفة من قادة عسكرين لا يمتون الى عائلة الرسول، أنْ يفرضوا احترامهم على الناس بانتسابهم الى العائلة التي يقدسها المسلمون. حصروا عددًا كبيرًا من المسلمين في اعمال وممارسات بعيدة عن السياسة واعمال الدولة، فيأمنون بذلك انتفاضات دينية او معارضة سياسية تؤثر على حكمهم. ويقال كان عدد المتصوفة في عهد المماليك يزيد عن المائة الف متصوف قابعين في خوانقهم بعيدين عن السياسة والسلطة الحاكمة. قال الزعيم الشيوعي لينين «الدين افيون الشعوب» واعتنق المماليك فكرة «التصوف مقبرة السياسة.»

في القرنين الثالث والرابع، وحتى الخامس، كان الصوفية افرادًا ومجموعات صغيرة يجتمعون في المساجد لابداء ارائهم ومعتقداتهم الدينية على حلقات من التلاميذ، ولكن عند انتشار الطرق الصوفية في القرن السادس، تبدلت الاوضاع فاصبحت هذه التجمعات مؤسسات ينتسبون الى شيخ معين، ويخضعون لنظام دقيق ومسلك موحد ويحيون حياة جماعية في الزوايا والخوانق حيث يعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام دقيق تحت اشراف شيخ مطلق الصلاحية في تلقينهم العلوم الصوفية في سلوك الطريق الى الحق.

اهم الطرق الصوفية التي تطورت الى مؤسسات منظمة وتفرع عنها طرق ثانوية عديدة انتشرت لاحقًا في البلاد الاسلامية كانت الاتية:

١- الشاذلية

انشأها ابو مدين شعيب (توفي عام ٥٩٤هـ) ولكن نسبت الى ابي الحسن الشاذلي (توفي عام ٦٥٧هـ).

٢- القادرية

يعزى تأسيسها الى عبد القادر الجيلاني (توفي عام ٥٦٢هـ) ولكن بدأ صعودها وانتشارها في القرن الثامن هجري.

٣- السهروردية

اسسها عبد القاهر ابو نجيب السهروردي (توفي عام ٥٦٣هـ) ثم طورها ابن اخيه شهاب الدين ابو فحص السهروردي (توفي ٦٣٢هـ).

٤- الرفاعية

مؤسسها احمد الرفاعي (توفي عام ٥٢٢هـ)

٥- الخلواتية

اسسها الشيخ الكردي ابراهيم ابن روشان السنجاني الملقب بالزاهد الجيلاتي (توفي عام ٦٩٠هـ)

٦- البكتاشية

اسسها الحاج بكتاش الخراساني (توفي عام ٧٣٨هـ)

٧- البدوية

اسسها احمد البدوي. (توفي عام ٦٧٥هـ). انحصر نشاطها في مصر.

٨- الششتية

اسسها معين الدين ششتي (توفي عام ٦٣٤هـ). انحصر نشاطها في الهند.

٩- المولوية

مبعثها الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي (توفي عام ٦٧٢هـ). انحصر نشاطها في الاناضول من تركيا.

١٠- النقشبندية

كانت تعرف بالطريقة الخوجكانية. اسسها يوسف الحمداني (توفي عام ٥٣٥هـ) ثم عُرفت بالطريقة النقشبندية، وكان شيخها بهاء الدين النقشبندي (توفي عام ٧٩٢هـ)

الطرق الباقية، اما كانت فرعًا لهذه الطرق الاساسية او كانت محصورة في عائلات صوفية كالطريقة الكرزبانية التي انحصر نشاطها في شيراز من فارس وكان شيخها روزبان بقلي[١] (توفي عام ٦٠٦هـ) او الطريقة الكيزانية التي اسسها ابو عبد الله محمد ابن الكيزاني (توفي عام ٥٦٢هـ) في القاهرة[٢]

١- ابو محمد بن ابي نصر البقلي ويلقب بروز بان المصري اذ قضى في مصر خمس عشرة سنة وفيها اخذ الخرقة عن يد محمود بن محمود الصابوني. له اكثر من ثلاثين كتابًا عن الصوفية. عاد الى شيراز ولزم جامعها حتى توفي وكان له من العمر اربع وثمانون سنة.

٢- The Sufi Orders in Islam. Trimingham p. 14 15.

بعد ان قدّمنا الى القارئ شرحًا مختصرًا عن منشأ والتطور الفكري وتاريخ الصوفية كمدرسة للفكر الاسلامي ثم اوضحنا اسباب نشوئها وانتشارها في العالم الاسلامي ثم ذكرنا الطرق الاساسية، اصبح من الضرورة دراسة كل طريقة بمفردها، هذا اذا امكن، مع خصائصها الفكرية والروحية وما تركت من اثار علمية وفلسفية على الفكر والعقائد الاسلامية. ثم نقدم الى القارئ تاريخ حياة واعمال كل صوفي ترك بصمات من فكره على التاريخ الفكري الاسلامي.

المناطق التي نشأت فيها الطرق الصوفية، هي العراق، بلاد الشام، خراسان مع كامل بلاد فارس، بالاضافة الى الهند، ثم المغرب العربي والاندلس ومصر.

يقول المستشرق الانجليزي ترمنجهم (Trimingham): «الصوفية تمركزت في بغداد واحتضنت سورية ومصر وامتدت جذورها الى (ابي القاسم) الجنيد (توفي عام ٢٩٧هـ) ثم الى (ابي محفوظ) معروف الكرخي (توفي عام ٢٠٠هـ) والى سري السقطي (توفي عام ٢٥٣هـ) والذي ابرز دورهم ودل على الاثار التي تركوها في التصوف كان المؤرخ عبد الرحمن السلمي (توفي عام ٤١٢هـ) وكمال الدين القاشاني. *

اما خراسان، التي اعطت عالم التصوف اشهر رجاله، تأثرت بالتصوف العراقي نتيجة نزوح الصوفية من خراسان الى بغداد طلبًا للعلم الصوفي والديني، لان بغداد كانت منارة العلم والثقافة، يؤم مدارسها ومساجدها الطلاب من جميع الاصقاع ليأخذوا عن شيوخها وعلمائها العلوم الصوفية الدينية، منهم البسطامي، والحلاّج والفيلسوف ابو حامد الغزالي وغيرهم.(١)

---

* كمال الدين القاشاني توفي عام ٧٣٠هـ في شيراز ودفن في الخانقاه الصوفية. كان من اقطاب الطريقة السهروردية وشيخها لفترة. من مؤلفاته «مصطلحات الصوفية».« رشح الزلال في شرح الالفاظ المتداولة» وغيرها.

١ – متفرقات عن The Sufi Orders in Islam Trimingham

اما في المغرب العربي ومصر فقد انحصر التصوف داخل هذه المنطقة، ثم امتد لاحقًا الى افريقيا. ومما يلفت الانتباه ان معظم الطرق الصوفية التي انتشرت في مصر، تأسست خارج البلاد ثم انتقلت الى مصر لتحصر نشاطها بها.

اما في المغرب العربي والاندلس، فإن تعصب اهل النص الذي نتج عنه موجة من الاضطهاد لاهل التصوف، وذلك عقب حرق كتب الفيلسوف الصوفي ابو حامد الغزالي عام ٥٥٣هـ، كان عقبة لانتشار التصوف العلني، حتى اضطر الكثير من اهل التصوف لترك البلاد والهجرة الى بلاد المشرق العربي كمحيي الدين ابن عربي وقطب الدين ابن سبعين وغيرهما.

الدكتور عبد المنعم الحفني ذكر في كتابه القيم، الموسوعة الصوفية، (صفحة ٢٦٤ الى ٢٧٠) اسم مائة وإحدى وعشرين طريقة صوفية معظمها فروع عن الطرق الاساسية، ولهذا بالنسبة لكونها طرق فرعية ثانوية، فسنكتفي بذكر بعضها في هذه الدراسة.

من الضروري توضيح معنى كلمة السلسلة الصوفية التي ستظهر عند الاشارة الى اساس الطريقة الصوفية.

كان اول اهتمام مؤسس الطريقة الصوفية ان يؤكد نسبها الى مصدر هام، وذلك بارجاعه الى اسناد معترف به، كاحد الاولياء والشيوخ الكبار، ومن ثم يضفي على هذا النسب هالة دينية بربطه باحد الخلفاء الثلاثة، ابو بكر الصديق، عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب، وهم اقرب الناس من النبي «صلعم» ويطلق على هذا التسلسل اسم السلسلة.

ويقول علي الهجويري «ان لكلّ من هؤلاء الخلفاء وجهة صوفية، فابو بكر يمثل «المشاهدة». وعمر يمثل «المجاهدة» وعلي يمثل «الحقيقة». وكان أهمّهم علي وترجع اليه معظم الطرق الصوفية، كما ترجع الى سلسلة ابي بكر،

النقشبندية، اليوسية، والبكتاشية، والى عمر سلسلة الرفاعية والعقيلية والعمرية.»[١]

وتفرع من السلسلة فرعان، سلسلة «البركة» وهي تربط شيخ الطريقة بمؤسسها، وبسلسلة «الورد» وتربط مؤسس الطريقة باحد الخلفاء الثلاثة المشار اليهم سابقًا، وثم بالرسول الكريم. وقد يحدث ان السلسلة تعقب اكثر من خليفة، كالشاذلية التي ترجع الى ابي بكر (سلسلة البركة) والى الامام الاول علي بن ابي طالب (سلسلة الحقيقة)، كما يربطها ابو الفتح الواسطي بسلسلة عمر (المجاهدة).

يطلق النقشبندية اسم «سلسلة الذهب» على السلسلة التي تربط مؤسس الطريقة بالرسول الكريم، «وسلسلة التربية» على السلسلة التي تربط مؤسس الطريقة بالشيخ الذي يسمى شيخ التربية.

١ً: الشاذلية (أبو الحسن الشاذلي)

انشأها ابو مدين شعيب ولكنها نسبت الى ابي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم ويرجع نسبه الى الامام الحسن بن علي بن ابي طالب. ولد عام ٥٩٣هـ في قرية «غمارة» المغربية، وتوفي عام ٦٥٦هـ في طريقه الى الحج بالصحراء بين قنا والقصير ودفن حيث مات[٢] واستخلف على الطريقة من بعده الشيخ ابو العباس المرسي[٣]

لقب علي بن عبد الله بالشاذلي نسبة الى قرية «شاذلة» في تونس التي سكنها بعد ان غادر قريته غمارة التي كانت بالقرب من مدينة سبتة في المغرب.

١- «كشف المحجوب» ص ٧٠.
٢- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٢٩، عبد المنعم الحفني.
٣- المصدر نفسه ص ٢٢٩.

كان الشاذلي يتحلى دائمًا بالثياب الحسنة، ويعرض عن لبس زي ينادي على سر اللابس بالافشاء، ويفصح عن طريقه بالابداء، ومن لبس الزي متعمدًا فقد ادّعى، وكان يقول: إعرف الله وكن كيف شئت، ومن عرف الله فلا عليه أيضًا إن اكل هنيئًا مريئًا.(١)

رحل الشاذلي من قريته غمارة، بعد ان تعلّم بها القرآن والحديث، الى مدينة «فاس»، حيث المدارس والربط الصوفية، حيث التحق بالشيخ الصوفي عبد الله بن ابي الحسن حرازم(*) واخذ عنه علوم الدين والفقه والتصوف. اما الخرقة الصوفية فقد اخذها الشاذلي عن يد استاذه ومرشده الشيخ عبد السلام بن مشيش الذي كان مقامه في المغرب كمقام الامام الشافعي في مصر.

ومن مدينة فاس رحل الشاذلي الى «زويلة» ثم الى مدينة تونس، وتلقى على علمائها علوم الشريعة، وتفقه على مذهب مالك ودرس علوم الفقه والادب(٢)

ويقول الدكتور جمال الشيّال: «انه يبدو أن الجو في تونس كان أصلح منه في المغرب الاقصى، وحرية الفكر والدراسة مكفولة هناك الى حد ما، وفيها آنذاك كان يقيم عدد كبير من اعلام المتصوفة، من امثال الشيخ ابي محمد المهدوي(٣) والشيخ ابي سعيد الباجي(٤)، وقد عاصر الشاذلي اثناء تلقيه العلم في تونس هؤلاء الاعلام، ولا شك انه اتصل بهم، وتتلمذ عليهم واخذ منهم»(٥)

١- المصدر نفسه ص ٢٢٩.

* احد شيوخ المغرب المشهورين. كان والده شيخًا لابي مدين واخذ عن يده الخرقة الصوفية كان لابن حرازم مقام كبير في المغرب. توفي عام ٦٣٣هـ ودفن في فاس.

٢- «الطرق الصوفية في مصر» عامر النجار ص ١٢٥.

٣- هو ابو محمد المهدوي من شيوخ الصوفية الكبار وقد اشار الى علمه وفضله ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية. توفي عام ٦٢٨هـ في تونس.

٤- ابو سعيد الباجي من اهل باجه كان من اشهر متصوفة عصره بسلك الطريق عن يد أبي مدين الصوفي الكبير.

٥- «اعلام الاسكندرية» ص ١٦٥.

يقول الدكتور نجار: «وكان الجو في تونس كلها يضوع منه شذى تعاليم ابي مدين وروحانيته، والكل هناك من تلاميذه الذين يسلكون طريقته، وقد تأثر الشاذلي بهذا الجو تأثرًا شديدًا وعشق التصوف، وحياة المتصوفة منذ ذلك الحين.[١]»

خرج الشاذلي من بلدة عمارة في حدود عام ٦٢٠هـ قاصدًا مكة للحج ثمّ عاد الى بغداد واجتمع بالصوفية يسألهم عن القُطب فقال له أحدهـم وهو أبو الفتح الواسطي: في بلادك فارجع اليه تجده.»

وعاد الشاذلي الى بلاده «غمارة» حيث راح يسأل عن القطب فقيل له: انه يسكن برابطة في رأس جبل «العلم» فذهب اليه، فاذا هو ابو محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني الداني، فالتحق به ولازمه مدة طويلة[٢]»

سار الشاذلي الى بلدة الشاذلة في تونس حيث صحب الشيخ ابا حفص الجسوسي، والصوفي الزاهد ابا سعيد الباجي والشيخ علي الحطاب والعالم ابا محمد عبد الله الحبيبي.

«تأثر الشاذلي بابي سعيد الباجي لما كان له من علم الولاية وهو من أصحاب ابي مدين الغوث... «فلما توفي الباجي سنة ٦٢٨هـ تفرغ الشاذلي لتربية المريدين فالتف حوله عدد كبير منهم، وهذا ما جعل انظار رجال الدولة تتوجه اليه خوفًا من نفوذه، وكان على رأسهم العلاّمة ابو القاسم محمد بن البراء المهدوي الذي تصدى له، منكرًا عليه معتقداته، حتى امكن له جرّه الى المحاكمة في مجلس الملك ابي زكريا الحفصي، وانتهى به الامر الى السجن. فلما جاء اخو الملك ابو زكريا، وهو ابو عبد الله محمد اللحياني الذي كانت له عقيدة في الشاذلي، ذهب الى اخيه واستشفع به فخلصه من السجن، إلاّ ان هذه الحادثة جعلته يبيع مسكنه ويحمل عائلته مرتحلاً الى الشرق بصحبة عدد من الاتباع من بينهم الشاب ابوالعباس المرسي الذي تولى بعده القطبية في مصر.[٣]»

١- المصدر نفسه ص ١٦٥.

٢- ا«لصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٥٤٦.

٣- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٥٤٧.

بعد موت الملك ابو زكريا الحفصي عام ٦٤٧هـ رجع الشاذلي الى تونس ولكنه غادرها عام ٦٤٨هـ أثر مقتل صديقه ابو عبد الله محمد اللحياني أثر فتنة حصلت في تونس واستقر نهائيا في مصر حتى وفاته عام ٦٥٦هـ.

ويقول الدكتور محمد مكين، رئيس الجمعية الاسلامية بجامعة لندن: «ولقد لعبت الطريقة الشاذلية دورًا ايجابيا حاسمًا في تاريخ الشمال الافريقي، فشكلت عاداته واخلاقه وشؤون حياته. ولعبت دورها الكبير ايضًا في الانتفاضات القومية ضد الغزو الفكري والحربي لهذه المنطقة...»(١)

يُعتبر ابو الحسن الشاذلي متصوفًا متجولاً، والفضل في ارساء قواعد الطريقة الشاذلية يعود الى تلميذه ابو العباس احمد المرسي (توفي عام ٦٨٦هـ) الذي كان اندلسي الاصل وعاش في مدينة الاسكندرية في مصر. خلف ابو العباس المرسي ابا الحسن الشاذلي في رئاسه الطريقة الشاذلية. وبعد وفاة المرسي خلفه الشيخ تاج الدين عطا الله عباس (توفي عام ٧٠٩هـ) الذي ازدهرت وانتشرت الطريقة الشاذلية على يده.

في القرنين العاشر والحادي عشر هجري تردت اوضاع الطرق والطوائف الشاذلية بسبب الانتفاضات السياسية والقلاقل المذهبية التي سيطرت على شمال افريقيا، ولكن الشيخ الصوفي ابو حامد العربي الدرقاوي (توفي ١٢٣٩هـ) الذي عُرف بالزهد والتقوى، وكان تلميذًا للشيخ ابو الحسن علي بن عبد الرحمن الجمال الفاسي(٢) شرع في تحسين الاوضاع المتردية في الطرق الشاذلية بقوة واندفاع، فنتج عن تفانيه وجهده المتواصل، نهضة قوية في التصوف التقليدي في الفروع الشاذلية في شمال افريقيا وسورية الحجاز.

١- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٥٤٨.

٢- دراسة عن الاسلام في الجزائر لويس رن (Ren) ص ٢٥٢.

اشترك ابو حامد الدرقاوي عام ١٨٠٥م في الانتفاضة ضد مولاي سليمان العلوي الذي سجنه، ولكن عندما استلم مولاي عبد الرحمن الحكم (١٨٢٢ - ١٨٥٩م) اطلق سراحه، وكان ابو حامد تقدم بالسن. «فالتجأ الى قبيلته «بنو زروال» حيث توفي عام ١٨٢٣م في زاويته في قرية بيت بريح شمال مدينة فاس.[١]

وكان ابو الحسن الشاذلي يقول: «لا تختر مع الله شيئًا، وان اخترت، فاختر العبودية لله اقتداء برسول الله، حيث قال. «عبدًا رسولاً، وان كان ولا بد ان تختار، فاختر ان لا تختار، وفرّ من ذلك المختار الى اختيار الله تعالى.[٢]

وقال ابو الحسن الشاذلي: «اللهم وسع عليّ رزقي من دنياي ولا تحجبني عن أخراي، واجعل مقامي عندك دائمًا بين يديك، وناظرًا منك اليك، وارني وجهك، وارني عن الرؤية وعن كل شيء دونك، وارفع البين فيما بيني وبينك، يا من هو الاول والاخر، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»[٣]

امتد تأثير الطريقة الشاذلية الى جنوب شرقي وغرب افريقيا، وتركيا والبلاد العربية وتفرع عنها الطرق التالية: الطريقة الجزولية ومنها فروع: الحمادشة. العيسوية. والطيبة والحبيبة في تافيلات. والزرونية في ايران. والزيانية في المغرب. والسمانية في مصر. والهيلية في الجزائر كما كان لها فروع ثانوية في المغرب كالغازية والكرازية وغيرها. وكذلك في مصر كالبكرية والخواطرية والجوهرية وغيرها ولها كذلك فروع في تركيا والسودان ورومانيا.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٣٠ الدكتور عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٢٣٠.

٣- المصدر نفسه ص ٢٣٠.

اما في سوريا فقد انتقلت الشاذلية اليها في اوائل القرن العاشر هجري، والمسؤول عن انتقالها كان صوفيًا مغربيًا يدعى علي بن مأمون بن ابي بكر ولد عام ٨٥٤هـ وتوفي عام ٩١٧هـ وكان سابقًا ينتسب الى الطريقة الميذيانية في تونس. سافر الى القاهرة ومكة ثم قدم دمشق حيث نشر الدعوة الشاذلية.

بالرغم من انتسابه الى الشاذلية كان ملماتيّ المنحى يرفض الخلوة ولبس الخرقة. عند وجوده في دمشق اصيب بمرض فسافر الى قرية مجدل المعوش في لبنان حيث مات عام ٩١٧هـ.

اما الطوائف الثانوية التي انحصر نشاطها في زاوية واحدة وتنتسب الى الطريقة الشاذلية فهي:

١ – الوفائية

اوجدها محمد بن محمد بن احمد وفا (توفي عام ٧٦٠هـ) وكانت تميل الى الشاذلية السورية.

٢ – الاريوسية

اوجدها عام ٨٥٤هـ ابو العباس احمد بن اريوس من تونس (توفي عام ٨٦٥ هجرية)

٣ السلامية

اوجدها عبد السلام بن سليم الاسمر الفتوري عام ١٢١٠هـ في ليبيا.

٤ – الرزوقية

اوجدها ابو العباس احمد بن احمد بن عيسى البرنسي الفاسي من المغرب. وُلد ابو العباس عام ٨٤٥هـ في المغرب وتوفي عام ٨٩٩هـ في بلدة «تكرين». كان تلميذًا لاحمد بن اريوس ودرس علم التصوف عن يد احمد الحضرامي في مصر.

٥- اليوسفية

اوجدها احمد بن يوسف الرشيدي (توفي عام ٩٣١هـ) وكان تلميذًا لاحمد الرزوق.

٦ السهيلية

اوجدها عبد الرحمن السهيلي في ينبع على شاطئ البحر الاحمر وكان تلميذًا لاحمد الرشيدي.

٢: القادرية (عبد القادر الجيلاني)

اسسها محيي الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، وكنيته ابومحمد، ويرجع نسبه الى الامام حسن بن علي بن ابي طالب[١] وامه فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسيني المعروف بزهده[٢]. وينتسب عبد القادر الى جيلان من طبرستان.

ولد عبد القادر عام ٤٧٠هـ في جيلان، وجيلان اقليم فارسي يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين، اشتق اسمها من الجيالي بمعنى الوحل وذلك لكثرة المستنقعات التي تغمر الاقليم[٣] وتوفي عام ٥٦١هـ في بغداد وقد جاوز التسعين عامًا ودفن برواق مدرسته بباب الأزج ببغداد[٤]

١-« الفتح الرباني والفيض الرحماني». ص ٥.
٢- «الطبقات الكبرى» عبد الوهاب الشعراني مجلد ١ ص ١٢٦.
٣- «دائرة المعارف الاسلامية» مجلد ٧ ص ٢٢٢.
٤- «شذرات الذهب في اخبارٍ من ذهب» ابن العماد الحنبلي مجلد ٤ ص ٢٠٢.

بقي الشيخ عبد القادر الجيلاني في بلدته جيلان ثمانية عشر عامًا حيث تلقى بعض علوم الدين، «وفي عام ٤٧٧هـ سار الى بغداد التي كانت منارة للعلم والحضارة ومركزًا للعلماء والفلاسفة ومجمعًا للفقهاء والمحدثين والمفسرين ومنتدى للشعراء والكتاب وأصحاب التراجم والسير والتاريخ، ومحرابًا للزهاد والصوفية.»[١] وقد وصف بغداد المؤرخ المصري احمد امين. «مسجدًا وحانة وقارئًا ومزمارًا، ساهدًا في تهجد وساهدًا في طرب، تخمة في غنى، ومسكنة في املاق، شكًا في دين وايمانًا في يقين.»[٢]

تلقى عبد القادر علم التصوف عن الشيخ حماد بن مسلم الدباس (توفي عام ٥٢٥هـ) واخذ الخرقة عن يد القاضي الصوفي ابي سعيد المبارك المخرمي، نسبة الى محلة في بغداد، الذي كان حنبلي المذهب (توفي عام ٥٥١هـ)

حصل الشيخ عبد القادر علوم القرآن والاصول والفروع على عدة مشايخ منهم: علي بن عقيل الحنبلي، محفوظ الكلوذاني الحنبلي، محمد بن القاضي، محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء الحنبلي.[٣]

حبب اليه شيخه حماد الدباس المجاهدات والرياضات، وكان هذا الشيخ قدوة لمشايخ بغداد، فساح الشيخ عبد القادر في صحراء العراق، ملازمًا الخلوة والمجاهدة، متحملاً المشاق من مخالفة النفس ومحاربة الهوى، وملازمة السهر والجوع، والمقام في الاماكن المنعزلة، مقبلاً على الاشتغال بالعبادة وتلاوة الاذكار.[٤] وفي ذلك يقول الشيخ عبد القادر: «وقاسيت الاهوال في بدايتي، فما تركت هولاً إلاّ ركبته، وكان لباسي جبة صوف وعلى رأسي خريقة، وكنت امشي حافيًا في الشوك، وكنت أقتات بخرنوب الشوك وورق الخس من شاطئ النهر»[٥]

١- «الشيخ عبد القادر الجيلاني» .د. محمد درنيقة ص ٢٣ و٢٤.
٢- «حضارة بغداد»، نخبة من الباحثين، مجلد ٨ ص ٢٧٣.
٣- «الشيخ عبد القادر الجيلاني»، د. محمد درنيقه ص ٢٣ و٢٤.
٤- «جامع كرامات الاولياء». يوسف النبهاني مجلد ٢ ص ٢٠٢.
٥- «الطبقات الكبرى». عبد الوهاب الشعراني مجلد ١ ص ١٢٧.

برع الشيخ عبد القادر في الوعظ وتدريس علوم الدين، وكان على المذهب الحنبلي، فالتف حوله الكثير من المريدين والتلاميذ، وقيل انه فاق اهل زمانه في علوم الدين وعلم التصوف، وكان زاهدًا تقيًا، حتى قال عنه عبد الله بن قدامة (توفي عام ٦٢٠هـ) الفقيه الحنبلي الكبير صاحب رسالة «ذم ما عليه مدعو التصوف»، «لم اسمع عن احد يحكى عنه من الكرامات اكثر مما يحكى عنه، ولا رأيت احدا يعظمه الناس للدين اكثر منه.»[١] حتى أنّ ابن تيمية عدوالتصوف، قال عن طريقته «انها الطريقة الشرعية الصحيحة.»[٢]

ويقول الدكتور الحفني: «والتصوف عند الجيلاني ليس اقوالاً تقال ولكنه طريقة فيها الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات والخصال التي ينبغي ان يأخذ الصوفي بها، نفسه هي نفسها خصال الانبياء، عليهم السلام، كالصبر الذي تحلى به ايوب، وكل نبي له خصلة، والمتصوف يكون في الابتداء ويتكلف هذه الخصال. واما الصوفي، فهو الذي انطبع بها فزهد الدنيا وفنى عنها بحيث تأتيه الاشياء فلا يريدها ولا يبغضها، وانما هو المتمثل لله فيها، والمنتظر لفعل الله معه بشأنها.» ثم يقول: «وعنده ان كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، وان المتصوف لا ينبغي ان يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله عليه.» ويقول: «والصواب في التصوف كطريق للعبادة، ان يلتزم المتصوف الكتاب والسنة التزامًا حرفيًا.»[٣]

من الصعب ان نتجاهل اراء بعض المفكرين المسلمين وبعض المستشرقين عما اذا كان عبد القادر الجيلاني صوفيًا ام عالمًا في الدين، خصوصًا الفقه الحنبلي، وصاحب مدرسة فكرية تحلق حولها الالوف من طلاب المعرفة وانتشرت في البلاد الاسلامية.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١١٤، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ١١٤.

٣- المصدر نفسه ص ١١٤.

من المعروف ان الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يتقيد بروح التصوف او ممارساته، فهو لم يُعرف عنه الزهد، و لم يرتد الخرقة الصوفية، بالرغم من اخذها عن يد الفقيه الصوفي الحنبلي ابي سعيد المخرمي، بل عرف عن عبد القادر ارتداء احسن الملابس. وكعالم ديني كان يعقد مجالس لتعليم الدين والوعظ كفقيه حنبلي.[١]

يقول تقي الدين الواسطي: «اشتهر عبد القادر خلال حياته بالوعظ ولكن لم ينصح في لبس خرقة التصوف.»[٢]

يقول «ترمنجهم:» «اشتهر الجيلاني كواعظ كبير، ولكن شهرته لم تنبع من وعظه. اما كصوفي فلا يوجد أيّ اثبات على صوفيته.»[٣]

وكان الشيخ عبد القادر دائم التنبيه الى حدود الشريعة. ويقول: «لا يكون في الطريقة ولا في علم الحقيقة شيء يخالف اداب الشريعة، وهذه الشريعة تقتضي، عقيدة صحيحة قائمة على الكتاب والسنة، وعلم بحدود الشرع ثم العمل بالعلم.»[٤]

ومن اقوال الشيخ عبد القادر في البدعة في امور الاعتقاد:

يا عباد الله يا مريدين،
عليكم بسنة من تقدمكم،
إتبعوا ولا تبتدعوا،
اطيعوا ولا تمرُقوا،
وحّدو ولا تشركوا،[٥]

١- The Sufi Orders in islam. Trimingham p. 42

٢- «ترياق المحبّين في طبقات خرقة المشايخ العارفين» ص ٥٣.

٣- The Sufi Orders in Islam. Trimnigham p. 42

٤- «الغنية لطالبي طريق الحق». مجلد ٣ ص ٣١٧.

٥- «فتوح الغيب». البابي الحلبي ص ٧.

ويقول الشيخ عبد القادر عن الشيخ الصوفي: «الشيوخ هم الادلاء، وهم العارفون بمسالك القرب الى الله، لهم فراسة فيمن تهيأ للرقي، ولهم معرفة بالغارقين في بحر الغفلات، فما تخطئ نظرتهم فيمن اقبل عليهم او مرّ بهم وكيف تخطئ؟ وهم الناظرون بنور الله، المتنعمون بعنايته الازلية السابقة فيهم.»[١]

عُرف عن الفقيه تقي الدين بن تيمية (توفي عام ٧٢٨هـ) عداؤه الشديد لهم وهجومه القاسي عليهم «ولكنه نظر الى الامام الجيلاني نظرة اكبار وتقدير، وعني بشرح واحد من أشهر مؤلفات الجيلاني (فتوح الغيب) فكان شرحه ذوقًا طيبًا للمعاني الصوفية التي تعرض لها الإمام الجيلاني، وخلا شرح ابن تيمية من اي نقد او اعتراض على هذه المعاني الصوفية، بل نراه يدعو الامام الجيلاني بلقب: شيخ الاسلام.»[٢]

ويقول المفكر يوسف زيدان: «وبخصوص الطريقة القادرية، فقد كانت واحدة من اهم الطرق الصوفية واوسعها انتشارًا، خاصة ان هناك عوامل عديدة تضافرت لتؤدي في النهاية الى قيام هذه الطريقة واستمرارها قوية بعد وفاة مؤسسها، واهم هذه العوامل اربعة:

اولاً: اهتم الجيلاني بارساء قواعد طريقته على الاصول الواضحة في الكتاب والسنة، مما جنّب اراءه خطر الوقوع في مزالق التأويلات والخوض في الفرعيات، فظلت طريقته واضحة المعالم حميدة التناول بعد وفاته بقرون.

١- «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان ص ٤٣.

٢- المصدر نفسه ص ١٢.

ثانيًا: ترك الشيخ عبد القادر الجيلاني ذرية كثيرة، فقام اولاده واحفاده على احياء طريقته من بعده فخلفه في مشيخة الطريقة ابناؤه[١]: عبد الوهاب (توفي عام ٥٩٣هـ)[٢] وعبد الرزاق (توفي عام ٦٠٣هـ)[٣]

وقد كان ابناء الامام يجمعون بين التصوف والحديث وعلوم الدين الاخرى، وكان عبد الرزاق منهم حافظا ثقة[٤] ثم تولى امر الطريقة احفاد الامام، امثال عبد السلام بن عبد الوهاب (توفي عام ٦١١هـ)[٥] ونصر بن عبد الرزاق (توفي عام ٦٣٣هـ)[٦] وولده ابو نصر محمد بن نصر (توفي عام ٦٥٦هـ)[٧]

ثالثًا: تلقى العديد من الصوفية الوافدين من اقطار العالم الاسلامي الطريقة القادرية وخرقة الصوفية تلقينًا ومبايعة من الامام الجيلاني – سواء في مكة المكرمة او بغداد، وقد عمل هؤلاء على نشر الطريقة باقطارهم الدانية والقاصية في حياة الامام وبعد وفاته، ويضاف الى ذلك ايضًا، اثر القادرية التي قام بها بعض اولاد الامام واحفاده في سياحاتهم بديار المسلمين، سواء لطلب العلم او للسير على قدم التجريد.

رابعًا: ادت فاجعة القرن السابع الهجري – أعني سقوط بغداد على ايدي المغول الهمجية سنة ٦٥٦هـ. الى اضفاء لون اللامركزية على الطريقة القادرية– فلم تعد مدرسة الجيلاني وأسرته ببغداد محط انظار القادرية في العالم الاسلامي، وإنما اعتبرت فروع القادرية اصولاً للطريقة تستلهم قوتها من ذاتها ومن مؤلفات الامام الجيلاني التي كانت قد ملأت الارض آنذاك.[٨]

١– D.S. Margaliouth «Kadiriyah» in Ency. of Islam Vol. 4 p. 380

٢– الشيخ الفقيه الزاهد. ولد عام ٥٢٢ هـ. ببغداد وتوفي بها عام ٥٩٣ هـ. قام بالتدريس بالمدرسة القادرية ثم تولّى المدرسة بعد وفاة الامام الجيلاني. كان فقيهًا فاضلاً له لسان فصيح في الوعظ وقد جعله الامام الناصر الدين الله على دويان المظالم.

٣– الشيخ الامام الزاهد ولد عام ٥٢٨ هـ وتوفي في بغداد عام ٦٠٣ هـ وكان اشهر ابناء الامام الجيلاني، قيل انه مكث ثلاثين سنة لا يرفع رأسه الى السماء حياء من الله وله مؤلفات مطولة في كتب الطبقات.

٤– «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» ابن حجر العسقلاني ص ٣٩٥.

٥– تفقه على والده وجده وتولى عدة ولايات وكان حنبلي المذهب.

٦– اشهر احفاد (الشيخ عبد القادر) الجيلاني. قاضي القضاة عماد الدين نصر. تولى التدريس بمدرسة جده وبالمدرسة الشاطبية.

٧– تفقه على والده وغيره. تولى القضاء والحكم بدار الخلافة ثم عزل نفسه وتفرغ للتدريس بمدرسة الشيخ الجيلاني توفي في السنة التي سقطت بها بغداد بيد التتر وخرجت المدرسة القادرية وتوقفت سلسلة مشايخها في القرن السابع هجري.

٨– «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان ص ١٧٥ و١٧٦ و١٧٨.

يقول المستشرق «Margaliouth»: «ان بعض الصوفية كانوا يدعون للطريقة القادرية في حياة الامام الجيلاني منهم: علي بن الحداد الذي تمكن من جذب الاتباع للطريقة في اليمن ومنهم: محمد البطائحي الذي استوطن بعلبك والبلاد الشامية. ومنهم ايضًا محمد بن عبد الصمد الذي دعا الى الطريقة بمصر»[١]*

يقول ابو محمد عبد الله بن اسعد اليافعي اليمني (توفي عام ٧٦٨هـ): «ان شيوخ اليمن – الاكابر منهم والاصاغر – يرجع اكثرهم في لبس الخرقة الى الشيخ عبد القادر، بعضهم لبسها من يده راحلين اليه، كما قدمت اعلام فضائله عليهم، والاكثرون من الذين ارسلها اليهم.»[٢]

اصبحت الطريقة القادرية من اوسع الطرق الصوفية انتشارًا في العالم الاسلامي حتى قال ابن تيمية في القرن السابع للهجرة: انه كلما قابل واحدًا من عامة المسلمين وجده عضوًا في الطريقة القادرية.[٣]

ثم ان مدرسة صوفية كبيرة قامت في زبيد اليمن على يد الشيخ شرف الدين الجبرتي المتوفى سنة ٨٠٦ هجرية والذي كان قادريًا، يميل احيانًا الى مؤلفات ابن عربي، ومن هذه المدرسة تخرج احمد الرداد قاضي اليمن، والفيروز آبادي صاحب «القاموس» وتخرج ايضًا عبد الكريم الجيلي.[٤]

وفي فلسطين كانت المدرسة القادرية بالقدس وكان يقوم على شؤونها الشيخ ابو الوفا العلمي القادري واولاده[٥]

١– Kadiriyah, the Ency. of Islam (Margaliouth) p. 381.

* بعض المؤرخين يدعون الجيلاني (امام) والبعض الآخر الشيخ عبد القادر.

٢– «روض الرياحين »ص ٢٩٦.

٣– «بغية المرتاض» ص ١٢٤.

٤– «الطريق الصوفي». يوسف محمّد طه زيدان ص ١٧٩.

٥– المصدر نفسه ص ١٨٠.

وفي مكة المكرمة، ظل الرباط القادري – الذي انشئ في حياة الامام الجيلاني – قائمًا حتى اواخر القرن الثاني عشر الهجري، وذكره صالح بن مهدي المقبلي في كتابه «العلم الشامخ في ايثار الحق على الآباء والمشايخ.»[١]

ويقول المستشرق «مرغليوث» ان الطريقة القادرية قدمت الى اسيا الصغرى واستنبول على يد الشيخ اسماعيل الرومي الذي اسس الخانقاه المعروفة باسم «قادري خانة»، وقد لُقب هذا الشيخ بلقب «بير تيزني» اي الشيخ الثاني للقادرية، وكذلك اسس ما يقرب من اربعين تكية قادرية في هذه المناطق.[٢]

وانتشرت القادرية في افريقيا، فكانت اول طريقة تدخل الصومال حيث اسس الشيخ «حسن جبرو» عام ١٨١٩م. مركزًا لها في بلدة «برديرة» وكان شيخها عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي وهو مؤسس الزاوية القادرية في «مقديشيو»[٣] كذلك نشر الطريقة القادرية في جوبا العلياء وبنى زاوية ومسجدًا في «توجحلة» الشيخ عويس بن محمد البراوي القادري[٤]

ودخلت القادرية الى السودان ثم الى شمال نيجيريا في مدينة كانو حيث العديد من المسلمين معظمهم من القادرية.

اما في بغداد، كما سبق وقلنا، فدمرت المدرسة القادرية والزوايا عام ٦٥٦هـ عند الاجتياح المغولي، ولكن اعيد بناء المدرسة في ضاحية من ضواحي بغداد تُعرف باسم باب الشيخ عبد القادر وتضم مسجدًا كبيرًا ومكتبة تحوي آلافًا من كتب التراث الصوفي.

١– «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ» ص ٣٨١.

٢– Ency. of Islam Margaliouth. Vol 4 page 382.

٣– «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان ص ١٨١.

٤– «الطريق الصوفي» يوسف زيدان ص ١٨١.

ويقول المؤرخ النابلسي: «وفي بلاد الشام استقرت الطريقة القادرية منذ وقت مبكر، خاصة بعد نزول احد احفاد الامام الجيلاني، وهو السيد شرف الدين يحيى بن احمد بن محمد بن عبد الرزاق ابن الامام الجيلاني، الذي استوطن حماة سنة ٧٣٤هـ[١] وقد ظلت الزاوية القادرية ببلاد الشام عامرة حتى القرن الحادي عشر الهجري[٢]

انتشرت الطريقة القادرية في الاندلس قبل سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هجرية[٣] وكما انتشرت الطريقة في اقصى الغرب من العالم الاسلامي، ووصلت الى اقصى الشرق، حيث استقرت فروع القادرية بالهند منذ وقت مبكر، ولا تزال هذه الفروع عامرة حتى اليوم، واهم فروع القادرية بالهند فرعان هما: قادرية «بناوه Banawa» وقادرية «غرزمار Gurzmar»[٤]

وفي مصر انقسمت الطريقة القادرية الى اربعة فروع هي:

١ – الطريقة القادرية الفارضية

اسس هذا الفرع الشيخ محمد الفارضي (توفي عام ١٢٨٥هـ) الذي يتصل نسبه بالامام عبد القادر الجيلاني. يعتقد بعض المؤرخين ان القادرية الفارضية تنسب الى الشاعر الصوفي عمر ابن الفارض، وهذا الالتباس سببه تشابه الاسماء بين الشاعر ابن الفارض وبين الشيخ محمد الفارضي.

---

١ – «الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز». ص ٤٩.
٢ – «الطريق الصوفي» يوسف محمّد طه زيدان ص ١٧٩.
٣ – الزاوية القادرية ودورها الديني والاجتماعي ص ٤٨.
٤ – L. Massignon. Ency. of Islam vol. 4 page 670

الطريقة القادرية الفارضية اقدم فروع القادرية في مصر اذ ترجع جذورها الى القرن السابع هجري[١] ومقر هذه الطريقة هو جامع «السادة القادرية» وفيه يقوم الصوفية بعمل حلقات الذكر الاسبوعية.

٢- الطريقة القادرية القاسمية

تستمد هذه الطريقة اسمها «القاسمية» من الشيخ قاسم بن محمد الكبير احد كبار مشايخ الصوفية في عصره في مصر. ان سلسلة مشايخ هذه الطريقة تتصل بالامام الجيلاني عن طريق ولده الشيخ عيسى بن عبد القادر الذي تسميه العامة بمصر الشيخ عيسى «ابو رمّانة.»[٢]

اعتمدت الطريقة القاسمية تلاوة الاوراد كما ورد في كتاب الامام الجيلاني «الفيوضات الربانية» دونما تفسير او اضافات، «ولهذا يتضح اختفاء الفكر الصوفي الاصل من تعاليم هذه الطريقة وبقاؤها واحدة من الطرق الصوفية ذات الطابع العملي الشكلي المتوارث، ولعل ذلك ما جعل العامة يدخلون في هذه الطريقة بيسر وباعداد كبيرة.»[٣]

٣- الطريقة القادرية الشرعية

انشأ هذا الفرع من الطريقة القادرية الشيخ عبد المنعم النبي علي القادري المالكي الذي اخذ الصوفية عن يد الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي الذي كان تلميذ الشيخ ماء العينين القادري المغربي[*] الذي يقول ان نسبه يرجع الى الامام عبد القادر الجيلاني[٤]

١- «الطريق الصوفي» يوسف محمّد طه زيدان ص ١٨٥ في هذا الكتاب تفاصيل مطولة عن هذه الطريقة.

٢- المصدر نفسه ص ١٩٨ (بتصرف).

٣- «الطريق الصوفي» يوسف محمّد طه زيدان ص ٢٠٢.

*- الشيخ ماء العينين توفي عام ١٣٢٨هـ ودفن بزاويته بمدينة سمارة وكان له دور كبير في نشر الطريقة القادرية في افريقيا وعمل على توحيد الطرق القادرية في المغرب.

٤- «الطريق الصوفيّ» يوسف محمّد طه زيدان ص ٢٠٩.

وفي كتاب «الركائز الايمانية» يقول الشيخ عبد المنعم ان سبب تسمية طريقته بالقادرية الشرعية، مقتبس من الاوراد الشرعية التي الهم بجمعها عن الكتاب والسنة وما استخلصه منهما الامام عبد القادر ثم يقول: «وهكذا استمدت الطريقة اسمها من هذا الورد الشرعي الذي وضعه الشيخ في كتابه الدرر النورانية[١]»

توفي الشيخ عبد المنعم عام ١٤٠٦هـ فاندثرت الطريقة لانه لم يخلفه احد من مريديه و لم يخلف اولادًا كي يتابعوا اعماله ويديروا شؤون الطريقة فانتهت بموته.

٤- الطريقة القادرية النيازية.

هذا الفرع للطريقة القادرية، وهو من الصور المشرقة للتصوف المعاصر، متصل النسب بالشيخ عبد القادر الجيلاني عن طريق ولده الشيخ عبد الرزاق[٢]

قدمت الطريقة النيازية الى مصر من تركيا منذ قرابة خمسة قرون واستوطنوا الاسكندرية. نسبت هذه الطريقة الى الشيخ عبد الرحمن نيازي (توفي عام ١٣١١هـ) الذي اعطى لهذا الفرع القادري اسمه.[٣]

نشر المستشرق الانجليزي ترمنجهم «J.S Trimingham» لائحة بالفروع القادرية نذكر منها.

١- الاحدلية: انشأها ابو الحسن علي بن عمر الاحدل في اليمن.

٢- الأسدية: انشأها عفيف الدين عبد الله بن علي الاسدي في تركيا.

١- «الطريق الصوفي» يوسف محمّد طه زيدان ص ٢١١.

٢- المصدر نفسه ص ٢١٧.

٣- المصدر نفسه ص ٢١٨.

٣- البقاعية: انشأها احمد البقاعي القنتي (توفي عام ٩١٠هـ) في الصحراء الغربية والسودان.

٤- الداودية: انشأها ابو بكر ابن داود (توفي عام ٨٠٦هـ) في دمشق.

٥- الفريدية: انشأها عمر ابن الفريد (توفي عام ٦٣٢هـ) في مصر.

٦- الغوثية: انشأها محمد غوث ابن شاه مير ابن علي (توفي عام ٩٢٣هـ) ادعى ان نسبه يرجع الى عبد الوهاب ابن الامام عبد القادر الجيلاني.

٧- الهندية: انشأها محمد غريب الله الهندي في تركيا.

٨- الجنيدية: انشأها بهاء الدين الهندي في الهند.

٩- الكمالية: انشأها كمال الدين الكتهالي (توفي عام ٩٧١هـ) في الهند.

١٠- المنزلية: انشأها علي بن عمار المنزلي الشعيبي، في الجزائر وتونس.

١١- القوميسية: انشأها ابو الحياة ابن محمود (توفي عام ٩٩٢هـ) كان يدعي نسبه الى عبد الرحمن ابن الامام عبد القادر، في الهند.

١٢- الرومية: انشأها اسماعيل الرومي في تركيا.

١٣- الصمدية: انشأها محمد الصمدي (توفي عام ٩٩٧هـ) في سوريا.

١٤. العرابية: انشأها عمر بن محمد العربي في القرن السادس عشر ميلادي في اليمن.

١٥- اليافيعية: انشأها عفيف الدين عبد الله بن اسعد اليافعي في اليمن.

١٦- الزليعية: انشأها صفي الدين احمد بن عمر الزالعي في اليمن.

١٧- الزنجرية: انشأها علي بابا في البانيا.[١]

١- TRimingham The Sufi Orders in Islam Appendix D p. 271, 272, 273.

وكان للامام عبد القادر مؤلفات في التصوف منها، «الغنية لطالبي طريق الحق»، و«الفتح الرباني»، و«فتوح الغيب» و«الفيوضات الربانية.»

٣:- الطريقة السهروردية

يتفق المؤرخون على ان مؤسس الطريقة الصوفية السهروردية هو الشيخ ابو نجيب عبد القادر بن عبد الله بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي، ويقال ان نسبه يرجع الى محمد ابن الخليفة ابو بكر الصديق.

بنى الشيخ ابو نجيب السهروردي رباطًا على شاطئ نهر دجلة في بغداد وجعله مدرسة للتصوف.

المؤسس الفعلي للطريقة السهروردية، كان ابن شقيق ابي نجيب، الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر بن محمد السهروردي، الذي درس عن يد عمه علوم التصوف. في عهده كبرت وانتشرت الطريقة وصار لها اتباع ومريدون يؤمون الرباط لاخذ علم التصوف عن الشيخ شهاب الدين.

عندما ارسل الخليفة العباسي، الناصر لدين الله الشيخ شهاب الدين، ممثلاً له في بلاط الامير السلجوقي علاء الدين قيقاباد في «قونية» من تركيا، اسس الشيخ شهاب الدين فرعًا للسهروردية في «قونية» ولكن لم يدم إلاّ لمدة قصيرة، كما اسس لها فرعًا في مدينة «اربيل» في شمال العراق. ويقول المؤرخ عبد الرحمن الواسطي(*) كان للسهروردية فروعٌ اكثر من اية طريقة اخرى.

خلف الشيخ شهاب الدين على الطريقة السهروردية ابنه عماد الدين (توفي عام ٦٥٥هـ) الذي نقل المدرسة الصوفية الى رباط المأمونية في بغداد. من الشيوخ الصوفية الذين التحقوا بالطريقة السهروردية: نور الدين عبد الصمد

*- تقي الدين عبد الرحمن الواسطي صاحب كتاب «ترياق المحبّين في طبقات خرقة المشايخ العارفين».

التنزي، عبد الرزاق القاشاني (توفي عام ٧٣٠هـ) وسعيد ابن فضل الله الفرغاني (توفي عام ٧٠٠هـ)(١)

٤ : الطريقة الرفاعية، البطائحية او الحيدرية

اسس هذه الطريقة الصوفية الشيخ احمد بن السيد ابي الحسن علي الرفاعي الذي يُنسب الى جده رفاعة المغربي الحسيني. ولد الرفاعي عام ٥١٢هـ في قرية «حسن» من اعمال واسط العراق، وتوفي عام ٥٧٨هـ في قرية «ام عبيدة» بين واسط والبصرة. كان فقيها على المذهب الشافعي.

ولد الشيخ احمد الرفاعي من عائلة عربية كانت على مذهب الصابئة(*) وعاش حياته في البطائح وهي المستنقعات الموجودة في جنوب العراق ما بين مدينة البصرة وواسط. اخذ احمد الرفاعي الخرقة الصوفية عن يد شيخ الصحبة الشيخ علي بن الفضل القاري الواسطي. أما ابن خلكان فيقول إن احمد الرفاعي اخذ الرقعة عن يد عمه الشيخ منصور البطائحي (توفي عام ٥٤٠هـ) كما اخذ منه سجادة الارشاد والمشيخة.(٢)

١- Trimingham The Sufi Orders of Islam p. 36.

*- الصابئة **المندائيون** من اتباع يوحنا المعمدان - النبي يحيى بن زكريا - نزحوا من شرق الاردن بسبب اضطهاد اليهود لهم، وذلك في اوائل القرن الاول ميلادي وسكنوا مدينة «حرّان» في منطقة البطائح حيث يلتقي نهر دجلة ونهر الفرات. يقولون ان خالق الكون ومدبره هذه الكواكب السبعة والنجوم؛ فهم عبدة الكواكب.

٢- «وفيات الاعيان وانباء انبياء الزمان» ص ٩٦.

نسب الى صوفية الرفاعية انهم، في اقامة مواسم الذكر، يأكلون الافاعي ويمشون على النار دون ان يصيبهم ضرر منها. ويقول ابن بطوطة[1]*: «ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء (صوفية) في اعناقهم اطواق الحديد وفي ايديهم، وكبيرهم رجل اسود حالك اللون، وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية. فباتوا عندنا ليلة، وطلب مني كبيرهم ان آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم، فكلفت والي تلك الجهة، وهو عزيز المعروف بالحمّار ان يأتي بالحطب، فوجّه منه نحو عشرة احمال، فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صار جمرًا، واخذوا في السماع ثم دخلوا في تلك النار، فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها. وطلب مني كبيرهم قميصًا، فاعطيته قميصًا في النهاية من الرقة، فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضربها باكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت، وجاء الي بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيئًا البتة فطال عجبي[2]» ثم يقول: «وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه[3]»

انتشرت الطريقة الرفاعية في فارس وتركيا والهند. حيث انضمت الى الطريقة القلندرية. بنيت خانقاه رفاعية باسم الشيخ ابو بكر الطوسي على شاطئ نهر «الجمنة».

---

*– هو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة. ولد عام ٧٠٤ هـ في طنجة وكان يحب السفر فطاف في مصر وسورية وجزيرة العرب وافريقيا وروسيا والهند والصين وتوفي عام ٧٧٩ هـ. استغرقت رحلته تسعًا وعشرين سنة.

١– «رحلة ابن بطوطة» طبعة عام ١٩٨٥. ص ١٨٤.

٢– المصدر نفسه ص ١٨٤.

٣– المصدر نفسه.

يقول المستشرق «ترمنجهم» انتشرت الطريقة الرفاعية في مصر بواسطة الشيخ ابو الفتح الواسطي (توفي عام ٦٣٢هـ) وفي سوريا بواسطة ابو محمد علي الحريري (توفي في بصرى عاصمة حوران عام ٦٤٥هـ) حيث دعيت باسم الطريقة الحريرية. كان محمد علي الحريري من الملامتية فسجنه الملك الاشرف (٦٢٦ – ٦٣٥هـ) حتى اطلقه الصالح اسماعيل على ان لا يدخل مدينة دمشق. بنى طالب الرفاعي (توفي عام ٦٨٣هـ) الزاوية الطالبية في دمشق، كذلك بنى زاوية في القدس. ويقول ابن بطوطة انه زار زاوية رفاعية في الاحمدي فكان فيها سبعون صوفيًا من العرب، والفرس، والترك واليونانيين.(١)

يقول «ترمنجهم» كانت الطريقة الرفاعية، حتى القرن الخامس عشر ميلادي، اكثر الطرق الصوفية انتشارًا من جميع الطرق الاخرى حتى قويت القادرية فصارت اكبر منها(٢)

القاعدة في سلوك الطريقة الرفاعية، الادب وصحبة الصحبة، وعقبات الطريق، حب الشيخ بالانقطاع اليه من غيره، واستغراق القلب واللسان بمحبة النبي، والتمسك بشريعته واحكام سنته حتى يشهده معه دائمًا في كل مكان ووقت»(٣)

يقول الشيخ احمد الرفاعي: «الصوفي المتبع هو الذي يعظم شأن النبي لانه الداعي الى الله، والمخبر عنه، والآخذ منه. هو باب الحضرة الرحمانية، ومن اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل، والنبوة باقية بعد وفاة النبي كبقائها حال حياته، وجميع الخلق مخاطبون بشريعته، ومن رد اخباره الصادقة كمن رد كلام الله تعالى» ثم يقول: «فاقرب الناس الى الزندقة المتصوفة المشغولون عن العبادات بالخوض في الكلام على الذات والصفات.»

١– The Sufi Orders in Islam p. 39-40

٢– المصدر نفسه ص ٤٠.

٣– «الموسوعة الصوفية» ص ١٧٨ وص ١٨١، عبد المنعم الحفني.

ثم يؤيّد الرفاعي التزام الطريقة بالكتاب والسنة فيقول: «ان الطريق محجة بيضاء، وكل ما فيه من قول وفعل، بطن وظهر، لا يجاوز دائرة الشرع، وكل ما خالف الشرع فهو زندقة.»[١]

الخلوة عند الصوفي الرفاعي هي ان يختلي كل عام سبعة ايام تبدأ باليوم الثاني من عاشوراء، اي الحادي عشر من محرّم الحرام، الى مساء اليوم السابع عشر، فيكون للمختلي فراشه الذي لا تشاركه فيه زوجته ولا غيرها، ويكون على وضوئه باستمرار ويخلو طعامه من كل ذي روح، ويصلي على النبي الأميّ الطاهر الزكي وآله وصحبة مائة مرة.[٢] ولا يتقيد الرفاعية بزي مخصوص إلاّ العمامة السوداء عملاً بالسنة المحمدية.[٣]

يشير المستشرق «ترمنجهم» الى بعض الطرق والطوائف الرفاعية التي انتشرت في القرن الثاني عشر هجري منها*:

١- الطائفة العزّابية.

انشأها محي الدين ابراهيم ابو اسحق حفيد الشيخ الرفاعي.

٢- الطائفة الحريرية.

انشأها ابو محمد علي الحريري في بلدة بصرى، حوران سورية.

٣- الطائفة الجبرتية.

انشأها احمد ابو اسماعيل الجبرتي في اليمن.

١- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني، ص ١٧٨ و١٨٩ و١٨٠.
٢- المصدر نفسه ص ١٨١.
٣- المصدر نفسه ص ١٨١.
* اعتمد ترمنجهم كتاب «تنوير الابصار في طبقة السادات الرفاعية» للكاتب ابو الهدي الصيادي. طبع في القاهرة عام ١٨٨٨م. ص ٢٥.

٤- الطائفة الجندلية.

انشأها جندل بن علي الجندلي في حمص سوريا.

٥- الطائفة القطانانية.

انشأها حسن الراعي القطاناني الدمشقي.

٦- الطائفة السعدية او الجباوية.

انشأها سعد الدين الجباوي ابن يوسف الشيباني في دمشق (توفي عام ٧٣٦هـ)

٧- الطائفة الصيّادية.

انشأها عز الدين احمد الصياد، حفيد الرفاعي (توفي عام ٦٧٠هـ).

٨- الطائفة الطالبية.

انشأها طالب الرفاعي في دمشق (توفي عام ٦٨٣هـ).

٩- الطائفة الحيدرية.

انشأها في القرن السابع هجري التركي قطب الدين حيدر الزوجي (توفي عام ٦١٧هـ).

١٠- الطائفة العلوانية.

انشأها صفي الدين احمد علوان.

١١- الطائفة الحبيبية.

انشأها المصري محمد الحبيبي في القاهرة وبنى لها زاوية.

١٢- الطائفة الشنبكية - الوفائية.

انشأها ابو محمد عبد الله طلحة الشنبكي مع ابو الوفاء تاج العارفين. بنيت زاوية الشنبكي في القاهرة عام ٩٣٣هـ.

١٣- الطائفة العقيلية.

انشأها عقيل المنبجي العمري ابن شهاب الدين احمد البطائحي الحكري العمري. دمشق.

لا بد من توضيح الفرق بين الطريقة والطائفة. فالطريقة هي ا سلوب او منهج او سيرة وفي اللغة: طرقت الطريق اي سلكته. وردت الطريقة في القرآن الكريم «مصدقًا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم»[١] والمريد، في ارادته الوصول الى الحق، الحضرة الالهية، عليه ان يسلك الطريق التي يتولى فيها الشيخ - المرشد - مهمة توصيله، وهي عملية تخضع لعوامل عدة، منها الخضوع التام والتسليم الكلي الى شيخه، والتدرج في المقامات والذكر المتواصل، وهي التي عليه اعتمادها.

«اما الطائفة، التي قد تتفرع من الطريقة، فهي تنظيم او مؤسسة، ويحد العرب الطائفة اربعة وما فوقها. وفي القرآن الكريم وردت بمعنى الجماعة من الناس» «وكفرت طائفة فايّدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين.»[٢] اذن، الطائفة هي جماعة من الناس جمعتها عقيدة واحدة في امر ما.

يقول المستشرق «ترمنجهم»: ان الخوانق يعتبرون طوائف لانهم مؤسسات من جماعات متفرقة، وقد تبلور وضعهم كطوائف خلال القرن الخامس عشر ميلادي (التاسع هجري) بعد ان استتب الأمر للامبراطورية العثمانية. ولهذا يشير «ترمنجهم» الى فروع الطريقة الرفاعية كطوائف[٣]

١- سورة الاحقاف آية ٣٠.

٢- سورة الصف، آية ١٤.

٣- Trimingham The Sufi Orders in islam Appendix H. p. 280.

٥: الطريقة الخلواتية.

لم يُعرف مؤسس الطريقة الخلواتية، ولكن تضاربت الاقوال من ان اول من ترأسها الشيخ الكردي ابراهيم بن روشان السنجاني، الذي قيل من الصوفية المتجولة وكان يدعي انه يرجع الى السلسلة السهروردية(*). لُقِّب ابراهيم بالزاهد الجيلاني وتوفي عام ٦٩٠ هجري. بعد وفاة ابراهيم خلفه الشيخ محمد نور الخلواتي، المعروف باسم كريم الدين الذي، بعد وفاته، خلفه ظاهر الدين عمر الخلواتي (توفي عام ٨٠٠هـ) الذي يجمع عليه القول، انه المؤسس الحقيقي للطريقة الخلواتية بكونه اول من نادى بها كطريقة صوفية.(١)

بالرغم من اختلاف المؤرخين على مؤسس هذه الطريقة، فإنّ معظمهم يشير الى وجود خوانق في مدينة «أربيل» في شمال العراق كان يسكنها صوفية ينتسبون الى عائلة خلواتي، وكان لهم طائفة تدعى الخلواتية. المعروف ان معظم سكان مدينة «أربيل» وضواحيها كانوا من الاكراد، والخلواتية كان يغلب عليهم العنصر الكردي.

---

* يعني الصوفية بالسلسلة اي تسلسل علاقة الشيخ بالشيخ الذي قبله ويرجع بعضهم بهذا التسلسل الى الامام علي بن ابي طالب ولكن ليس كامام كما تنظر اليه الشيعة، بل النور الذي انطلق منه تصوف تلك الطريقة من شيخ الى خلفه حتى ينتهي عند الامام علي، وبعضهم يرجع بالسلسلة الى ابي بكر وعمر بن الخطاب والنبي «صلعم»، ولكن لا توجد اشارة الى عثمان بن عفّان. وردت السلسلة في الفكر الصوفي بعد القرن الثالث هجري، لان الصوفية الاوائل كانوا افرادا يحملون خارج نطاق الجماعات، كل منهم له طريقته الخاصة ينادي بها كفرد وليس كمجموعة. كان الخلواتية من الاوائل الذين قالوا بالسلسلة واعتمدوها في تروؤسهم، والخلافة من مشيخة الطريقة.

١ – Tableau General de l'Empire Ottoman. M. D'ohssom. vol 4 p. 624

ثم ظهرت فرقة صوفية في مدينة شروان، اسسها يحيى الشرواني (توفي عام ٨٦٥هـ)، اعتمدت الزهد والخلوة وانتشرت بين قبائل التركمان في ازربجيان، ودُعيت بالخلواتية، ثم امتدت الى الاناضول وسوريا ومصر والحجاز واليمن حيث عُرفت بالطريقة الخلواتية.(١)

واما في الاناضول فقد ادخل الطريقة الخلواتية الشيخ محمد شمس الدين المعروف بالامير سلطان (توفي عام ٥٣٤هـ) الذي قدم من مدينة «بخارى» وسكن مدينة «بورصة»، وكان مرشدًا للمؤلف التركي المعروف سليمان بن احمد بن محمود الشلبي (توفي عام ٨٢٥هـ) صاحب كتاب «المواليد» وهو عن الاوراد الصوفية.(٢)

يقول «ترمنجهم»: اشهر من نشر الطريقة الخلواتية في تركيا ثلاثة(٣):

١- الحاجي بيرم الأنصاري (توفي عام ٨٣٣ هـ) مؤسس الطائفة البيرامية وهي فرع من الطريقة الخلواتية ولها اصول ملامتية، وكان مركزها استنبول وأزمير.

٢- عمر رستني التبريزي (توفي عام ٨٩٣ هـ).

عندما نشأت الطريقة الخلواتية كانت متأثرة بالشيعة الاثني عشرية، حتى كان من تقاليدهم الصوم كل عام اثني عشر يومًا على عدد الائمة الاثني عشر

١- The Sufi Orders in Islam, Trimingham p. 75

٢- المصدر نفسه ص ٧٥.

٣- المصدر نفسه ص ٧٦.

الشيعة، ولكن امتعاض ونفور السنة من هذا التقليد، جعلا هذه الممارسة سرية ومحصورة بالمريدين الشيعة(1)

ويقدم «ترمنجهم» لائحة بالطوائف الخلواتية(*) المهمة وهي:(2)

١- احمدية.

اسسها الشيخ احمد شمس الدين مانيسا في قرية مرمرة في الاناضول (توفي عام ٩١٠هـ.)

٢- السنبولية.

اسسها الشيخ سنان يوسف الذي كان شيخ تكية «كوجا مصطفى باشا» في استنبول، وبعد وفاته خلفه مصلح الدين مركز موسى. (توفي عام ٩٥٩هـ.) وقبره في محلة ياني - كبو ويعتبر من اشهر مدافن استنبول.

٣- سنانية.

اسسها ابراهيم أُمّي سنان. (توفي عام ٩٥٨هـ.)

٤- إقهت - باشيا.

اسسها شمس الدين إقهت باشي. (توفي عام ٩٥١هـ)

٥- شعبانية.

اسسها شعبان والي. (توفي في بلدة «قسطموني» عام ٩٧٧هـ.)

٦- شمسية.

١- المصدر نفسه، ص ٧٥.

* اطلق «ترمنجهم» اسم طائفة على هذه الفرق وليس اسم طريقة لأنها تكونت من جماعات متقاربة في اهدافها وسلوكها وليس مؤسسات منظمة.

٢- The Sufi Orders in Islam Trimingham p. 75-76.

اسسها شمس الدين احمد سيواسي. (توفي عام ١٠١٠هـ.) وكذلك تدعى نورية – سيواسية على اسم عبد الاحد نوري سيواسي. توفي في استنبول عام ١٠٦١هـ.

٧- مصرية او نيازية.

اسسها محمد نيازي المصري من مدينة بورصة من تركيا. توفي بالمنفى في جزيرة «لمنوس» في عام ١١٠٥هـ، لها تكيات في تركيا، القاهرة واليونان.

٨- الجرّاحية.

اسسها نور الدين محمد الجرّاح. (توفي عام ١١٤٦هـ.)

وكذلك تدعى النورادني.

٩- الجمالية.

اسسها محمد جمالي ابن جمال الدين اقصري الدرنوي توفي في استنبول عام ١١٦٤هـ.

ويقول «ترمنجهم» عن انتشار الطريقة الخلواتية في مصر: اول زاوية خلواتية في مصر بناها التركي ابراهيم جولشني، وهو من مدينة آميد من ديار بكر، وكان تلميذاً لعمر روشيني من مدينة ايدن (توفي عام ٨٩٢هـ) والذي كان من المؤيدين لنظريات ابن عربي في فلسفة التصوف التي صدرت ضدها فتاوى عديدة.[١]

استلم ابراهيم جولشني رئاسة الطريقة الخلواتية، ولكن بعد الاحتلال الصفوي لمدينة تبريز اصبح ابراهيم جولشني لاجئًا، فقدم عام ٩١٣هـ الى مصر حيث لاقى حفاوة وترحيبًا من السلطان المملوكي قانصو غوري[*]

بعد معركة مرج دابق التي انتصر بها العثمانيون على المماليك واحتلالهم لمصر، ظهرت شعبية ابراهيم جولشني، التركي الاصل، بين الجنود الاتراك[٢]

١- Trimingham The Sufi Orders in Islam 76 .

* قانصو غوري كان قائد المماليك في معركة «مرج دابق» عام ١٥١٦ م ضدّ العثمانيين.

٢- «الطبقات الكبرى»، عبد الوهاب الشعراني، مجلد ٢ ص ١٣٣.

تآمر اعداء ابراهيم جولشني عليه في استنبول، فدعته السلطة لمحاكمته في تهمة الالحاد، ولكنه تمكن من تبرئة نفسه، بالاضافة، بنى ثلاث زوايا للصوفية. توفي عام ٩٤٥هـ ودفن في زاويته في محلة باب زويلة.

في القرن الحادي عشر هجري انتشر العديد من الطوائف الثانوية المحلية في مصر، ولكن، بالنسبة لضيق المجال في هذه الدراسة، لن ادرجهم في بحثنا هذا.(١)

الذين انتسبوا الى الطريقة الخلواتية في مصر كان معظمهم من الاتراك، ولكن بعد القرن الثاني عشر هجري، انتشرت الطريقة بين المصريين العرب، ثم امتدت الى الحجاز والمغرب وسوريا.

نشر الطريقة الخلواتية في سوريا الشيخ مصطفى بن كمال الدين البكري(٢) واطلق عليها اسم الطائفة البكرية(*). بعد وفاته تفرّع عنها الطائفة الحفنية وكان شيخها محمد ابن سليم الحفناوي (توفي عام ١١٨١هـ) والطائفة الشرقاوية، نسبة الى عبد الله الشرقاوي، والسمنانية اوجدها عبد الكريم السمناني (توفي عام ١١٣١هـ). ومن هذه الطوائف تفرعت الطائفة الرحمانية التي اسسها ابو عبد الله بن عبد الرحمن الجوشتلي الجرجوري، تلميذ الحفني (انتقلت هذه الطائفة الى تونس والجزائر)، والطائفة الدرديرية نسبة الى احمد ابن محمد العدوي الدردير، والطائفة الصاوية اوجدها احمد ابن الصاوي التي انتقلت الى الحجاز. والطيبية اسسها احمد الطيب ابن البشير (توفي عام ١٢٣٩هـ) وكان تلميذ السمّاني.

١–في كتاب «The Sufi Orders in Islam» دراسة مفصّلة عن هذه الطوائف ص ٧٧ – ٨٠.

* مصطفى بن كمال الدين بن علي الصديقي الحنفي الدمشقي البكري ولد عام ١٠٩٩ هـ. في القدس وكان شيخه عبد اللطيف الحلبي. وله مؤلفات تقارب المائتين. رحل من دمشق الى مصر وصحب الشيخ محمد الحفني.

٢– Trimingham The Sufi Orders in Islam p. 77

انتشرت الخلواتية بين عامة الشعب وعُرفت بفرضها النظام الصارم، واشتهرت بتفرعها المتواصل.

٦: البكتاشية.

اسس الطريقة البكتاشية الصوفي الحاجي بكتاش الخراساني، الذي قدم الى الاناضول في منتصف القرن السابع هجري بعد الاجتياح المغولي للعراق وفارس. وفي المخطوطات البكتاشية، «ولاية نامة»، «وولاية هاشم سلطان»[١] ورد ان الحاجي بكتاش قدم الى الاناضول عام ٦٨٠هـ، وانه ولد عام ٦٤٦هـ وتوفي عام ٧٣٨هـ[٢] وان نسبه يرجع الى الرسول الكريم، وان والده كان السيد سلطان ابراهيم امير خراسان، واسم بكتاش مرادف للقب امير.[٣]

يقول المؤرخ تشلبي ان الحاجي بكتاش وصل الى الاناضول، بعد ان استقر بها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي عام ٦٧١هـ، حيث اطلق عليه لقب، «خليفة بابا رسول الله». اما المؤرخ التركي شمس الدين احمد افلاكي فيقول: «كان بكتاش ذكي القلب ولكنه لم يتقيد بكتاب الله»[٤]

عُرفت الطريقة الخلواتية بالتفرع والاستقلال الفرعي، اذ كان لكل فرع او طائفة شيخ له الاستقلالية التامة في اعماله. اما البكتاشية فقد اعتمدت المركزية، وكانت فروعها في المدن والقرى مرتبطة بالمركز الرئيسي، والقرارات النهائية ترجع الى شيخ المشايخ، كما حصرت نشاطها في الاناضول والولايات العثمانية.

١- The Bektashi Order of Dervishes. J.K. Birge p. 35.

٢- يشير العلماء الاتراك الى مخطوطتين. «ولاية نامة الكبيرة» «وولاية نامة هاشم سلطان الصغيرة» التي ترجمها المؤرخ Gross عام ١٩٢٧ وموجودة في مكتبة «ليبزيغ» في المانيا وتحتوي هذه المخطوطات على تاريخ البكتاشية واقوال الحاجي بكتاش والي.

٣- قاموس «Redhouse»

٤- Narative of travels in Europe, Asia, Africa. E. Chelebi vol 2 p. 19.

الملفت للانتباه انه بالرغم من ان دين الدولة في تركيا كان الاسلام السني والتراث الديني في الدولة مبني على اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، فان البكتاشيين كانوا من التركمان لغتهم تركية وتراثهم تركي ويميلون الى المذهب الشيعي.

يقول المستشرق الاميركي «J.K. Birge»: «عندما زرت تركيا عام ١٩١٣م، كنت على اعتقاد ان معظم سكانها كانوا على مذهب السنة، ولكن فوجئت ان الكثير منهم ينتمون الى طرق صوفية عديدة كما ان، زيادة على ذلك، بعض المشايخ الذين يؤمون الصلاة في المساجد كانوا من الشيعة»[١] ثم يقول: «ان الكتب الدينية التي يعتمدها اهل التصوف، كانت باللغة العربية او الفارسية التي يتكلمها شيوخهم»[٢]

يقول الدكتور الحفني عن الطريقة البكتاشية: «وهي طريقة تقوم على التقشف والنظام الصارم، وتقول بالمساواة بين الأديان، ومن البكتاشية من هم على عقائد السنة، ومنهم علويون ينتصرون لآل البيت ويذمون أبا بكر وعمر وعثمان كما يفعل الشيعة، ويعترفون بالائمة الاثني عشر وينزلون الامام جعفر الصادق منهم منزلة خاصة وشعارهم «الله. محمد. علي[٣]»».

تلقى الحاجي بكتاش علومه الدينية على يد الشيخ الصوفي لقمان برندي تلميذ الشيخ الكبير احمد اليسوي (توفي عام ٥٦٢هـ) ويدّعي الحاجي بكتاش والي انه تلقى الكرامات واجتراح المعجزات عن جده علي بن ابي طالب، وفي مخطوطة «ولاية نامة» ورد العديد من معجزات الحاجي بكتاش.

١- The Bektashi Orders of Dervishes. p 14

٢- المصدر نفسه، ص ١٤.

٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٦٧.

يقول المؤرخ التركي حلمي ضياء بك في مجلة «المحراب»: «ان اول مرة ورد بها اسم الحاجي بكتاش والي كان في وقفية(*) تاريخ عام ٦٩٥هـ مع كلمة «المرحوم». كما ان المؤرخ علي اميري افندي يشير الى وقفية تاريخ عام ٦٩٧هـ ورد بها جملة «قدس الله سره» مما يؤكد ان الحاجي بكتاش توفي قبل هذا التاريخ[١]

عندما تغلب الجيش السلجوقي بقيادة السلطان ألب ارسلان عام ١٠٧١هـ في معركة «Malazgirt» على الجيش البيزنطي بقيادة «رومانوس ديوجنس» احتل السلجوقيون اسيا الصغرى من ارزوم حتى القسطنطينية، ثم لاحقًا، عندما استلم السلطان ركن الدين الحكم، احتل جميع اسيا الصغرى من البحر الاسود حتى سوريا، وجعل عاصمته مدينة «كوتاهيا.»[٢]

رافق الجيش السلجوقي في احتلاله اسيا الصغرى جموع كبيرة عن التركمان من سكان خوارزم وخراسان، ومعظمهم كان من الدراويش اتباع الصوفي احمد يسوي، صاحب الطريقة اليسوية، يرتدون ازياء خاصة بهم ويميلون الى آل البيت.

بعد الاجتياح المغولي للعراق وفارس عام ٦٥٤هـ. (دمّر المغول بغداد عام ٦٥٦هـ) حصلت هجرة ثانية من الدراويش والعائلات التركمانية من بخارى وخوارزم، التجأوا الى السلجوقيين خوفًا من المغول. ويقول المؤرخ التركي فؤاد كوبرولو، انهم كانوا من اتباع الطائفة القلندرية، الذين عُرفوا بالتجول وعدم الاستقرار في مكان واحد[٣]

---

* الوقفية صك تمليك عقار الى مؤسسة خيرية او دينية.

١ — The Biktashi Order of Dervishes. p. 40

٢ — Decline and Fall Gibson p. 246

٣ — .The Biktashi Order of Dervishes p. 32

يبدأ عهد الطريقة البكتاشية مع النزوح التركماني من وسط اسيا الصغرى، اذ رافق النزوح العديد من الشيوخ الصوفية من تلاميذ الشيخ الصوفي احمد يسوي صاحب الطريقة «اليسوية» الذين عُرفوا بالكرامات واجتراح المعجزات، وكان منهم الحاجي بكتاش والي الذي اوجد الطريقة البكتاشية.

قدم الحاجي بكتاش والي مع اخيه «منتش» من خراسان الى مدينة سيفا (Sivas) ثم رحل الى مدينة «بابا الياس» ومنها سار الى مدينة «كير شهير» ثم الى مدينة «قيصرية» حيث انتقل الى بلدة «كرايول» التي سميت لاحقًا، قرية حاجي بكتاش حيث سكن بها حتى وفاته.»[١]

وفي مخطوطة «ولاية نامة» ان الحاجي بكتاش تعرف على «الخاتون انا» وكانت اميرة من البيت العثماني، وبمساعدتها تمكن من نشر الطريقة البكتاشية، ويقال انها ساعدته على استقطاب الانكشارية الى طريقته الذين شكلوا القوة العسكرية الفاعلة في حمايتها ونشرها.[٢]

في منتصف القرن الثالث عشر هجري، اتهم علماء الحنفية الفرقة البكتاشية بالالحاد والزندقة والتشيع فدمرت تكياتهم وصودرت املاكهم واحتلت مكانها الطريقة النقشبندية، ولكن بقيت بعض الخلايا والتجمعات تعمل في انحاء الاناضول، ولكن عندما تحسنت الظروف استعادت مكانتها السابقة.

١- The Bektashi Order of Dervishes. P. 45.

٢- المصدر نفسه، ص ٤٦.

يصف بعض المفكرين المسلمين الطريقة البكتاشية انها كانت انطلاقة فكرية دينية مشوشة غير واضحة الاهداف، ووحدة غير متكاملة من تجمع عقائدي ينبع من مصادر مختلفة غير متجانسة فتأثرت من مذاهب معظمها فارسية، تركية وكردية، اعتمدت تكريم الاسم حتى تقديسه، قامت على اندفاع ونشاط مريديها وصارت قوة سياسية ومالية ضخمة، ويقول المؤرخ «F.W.Hasluck» ان تكية الحاجي بكتاش في مدينة «كير شهير» كان خراجها يأتيها من ٣٦٢ قرية.(١)

«وفي القرن العاشر هجري تمكن القطب «باليم سلطان» (توفي عام ٩٢٢هـ) وكان الرئيس الروحي الثاني للطريقة، ويرجع نسبه الى الحاجي بكتاش، من تنظيم الطريقة وجمعها في وحدة كاملة، بعد ان نقل نشاطها الى القرى دون المدن مما زاد في قوتها وانتشارها.»(٢)

كان في تركيا في القرن السابع عشر ميلادي (الحادي عشر هجري) ما يزيد عن سبعة ملايين من البكتاشيين، منهم مليون ونصف في الاناضول، مائتا الف في البانيا، وما يفوق المليون في استنبول والباقي موزع على القرى والمزارع. «ويقول المؤرخ «Rycut» يوجد في تركيا اليوم، اي القرن السابع عشر، ما لا يمكن القضاء عليهم، فقد بلغ عددهم الملايين.»(٣)

في القرن الثاني عشر هجري خلال حكم السلطان علاء الدين كيكوباد المشحون بالحروب، والانتفاضات الدينية والاختلاط الديني والعرقي بين شعوب اسيا الصغرى، ولدت حركتان كان لهما تأثير كبير على الحياة السياسية والدينية والاجتماعية في الدولة العثمانية، هما: الطريقة الصوفية المولوية

---

١ — Christianity and Islam under the Sultans. vol. 2 p. 503

٢ — The Biktashi Order of Dervishes, j.k Birge. 56

٣ — The Present State of the Ottoman Empire p. 149.

اوجدها الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي التي انحصرت في الطبقة الارستقراطية وكبار الموظفين وانتشرت في المدن التركية، والطريقة البكتاشية وهي تجمُّع صوفي كبير من عامة الشعب والفلاحين وحليف الجيش، خصوصًا الفرق الانكشارية التي قيل عنها، انها فرق بكتاشية اذ كان لكل وحدة من الانكشارية رائد من البكتاشيين مسؤول عن القضايا الدينية.

تختلف الطريقة البكتاشية عن الطريقة المولوية، اذ كانت السرية تسود ممارستها، فلا حلقات ذكر او تجمعات دينية يراها الناس، او شيوخ يتحلّق حولهم المريدون والاتباع، فكانت اعمالهم تحوطها السرية بالرغم من كثرة عددهم وانتشارهم في القرى التركية.

يقول الدكتور الحفني: «والبكتاشي الدرويش يقال له المريد، والملتحق بتكية البكتاشية يقال له منتسب، ولباسهم عباءَة بيضاء وطاقية يقال لها سكة، مثلثة واطرافها اثنا عشر بعدد الائمة، والبابا او الشيخ يلف حولها عمامة خضراء»[١]

وللبكتاشية مصطلحات ينفردون بها مثل، التولية والتبرية، ومعنى التولية مشايعتهم لآل البيت، وأما التبرية فهي التبرئة من غيرهم. والولاية عندهم اربع: وهي الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة، والمقامات اربعون لكل باب عشرة مقامات. وأئمتهم سبعة عشر، يسمونهم بالمتحزمين او الكمرسته، وهم اصحاب علي بن ابن طالب الذين خرجوا معه.[٢]

١- «الموسوعةالصوفية» ص ٦٩، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه، ص ٦٨.

بالرغم من ان الطريقة البكتاشية كانت تضم عامة الشعب واهل القرى والمزارع، فقد برز منها الكثير من الادباء والشعـــراء. يقـــول المستشرق J.K. Birge: «في عام ١٩٣٠ «اصدرت مديرية المعارف التركية كتابًا، طبع منه ثلاثمائة نسخة، اسمه الشعراء البكتاشيون، يضم اشعار مائة وثمانين شاعرًا بكتاشيًا». [١]

من التقاليد التي اوجدها الحاجي بكتاش هي شرب نوع من الخمر مستخرج من العسل ثم الغناء والرقص وارتداء قبعة من اللّباد بديلاً عن العمامة واضاءة الشموع الدائمة في مجالسهم. [٢]

وفي القرن السادس عشر ميلادي، بالتحديد عام ١٥٠٠م، استلم مشيخة البكتاشية «باليم سلطان» الذي كان مولده في تكية الشيخ علي سلطان في مدينة «ديموتيكا» بالقرب في مدينة «ادرينبول» والده الشيخ «مرسل» التركماني، ووالدته مسيحية ابنة امير بلغاري.

عندما بلغ بليم سلطان العشرين من عمره، عيّنه السلطان بيازيد الثاني (٨٨٦ – ٩١٨هـ) الشيخ الثاني للطريقة البكتاشية.

ادخل بليم سلطان تعديلات على الطريقة البكتاشية عُرفت بتعديلات بليم سلطان، اهمها: ارتداء العمامة ذات اثنتي عشرة زاوية، والاضاءة الدائمة في مجالسهم لاثنتي عشرة شمعة، وذلك دلالة على الائمة الاثني عشر الشيعة، وبذلك اعلن انتماء الطريقة البكتاشية الى العقيدة الشيعية الاثني عشرية والولاء لآل البيت.

١– The Bektashi order of Dervishes p. 17

٢– المصدر نفسه ص ٥٠.

برز في هذا الوقت ما عُرف بالجماعة «Kizibash» وهم من القرويين التركمان، وكان البكتاشيون ينظرون اليهم بتعالٍ ورفعة كونهم قرويين دونهم علمًا ونسبًا، بالرغم من انهم يعتمدون التقاليد البكتاشية، ولهم الكتب والاناشيد نفسها، وينتمون الى الامام الاول علي والائمة الاثني عشر ويعتمدون الشيخ الشلبي[١] في قيادتهم الدنيوية، والشيخ دي دي (De De)[٢] في ممارساتهم الدينية، فهو شيخهم الروحي.

في اوائل القرن الرابع عشر ميلادي ولدت فرقة الحروفيين[٣] وهي فرع من البكتاشية اوجدها عام ٨٠٠هـ الشيخ فضل الله في مدينة أسترا باد في خراسان، وقال ان الكلمة هي الله، وبما ان الله تعالى خلق الانسان على صورته، فمن عرف نفسه عرف ربه. اذن الانسان تجلي آلهي عن الله. وعندما ادعى فضل الله النبوة سجنه القائد المغولي تيمورلنك ثم قتله.[٤]

انتشرت الفرقة الحروفية في العراق، وتركيا، وفارس وقد اشتهر منهم الشاعر نسيم، الذي نسب الى قرية نسيم من ضواحي بغداد، الذي عندما قدم الى حلب، اتهم بالالحاد وقتل ضربًا بالسيّاط، لكن بعد ان ترك ديوانين من الشعر عن البكتاشية باللغة التركية واللغة الفارسية، كان لهما اثر كبير على الادب التركي[٥]

١- الشيخ الشلبي هو من نسل الحاجي بكتاش.

٢- دي دي هو الشيخ الذي لا يتزوج وعلاقته بالناس لا تتخطى الامور الدينية.

٣- كتاب «الطريقة البكتاشية» J.K. Birge ، دراسة كاملة عن الحروفية من صفحة ٥٨ حتى صفحة ٦٢ ومن صفحة ١٤٨ حتى صفحة ١٥٩.

٤- The Bektashi Order of Dervishes p. 59.

٥- المصدر نفسه.

تركت العقيدة الحروفية في تركيا اثرًا كبيرًا على الطرق الصوفية، خصوصًا البكتاشية، وكانت فلسفتها تدعو الى ان الله عبّر عن نفسه بواسطة الانبياء وزودهم «بكنز خفي»، وهو الكلام الملفوظ المحدود باعداد تشير الى الكون وموجوداته، ثم يقولون ان يسوع المسيح قال بقدوم نبي بعده يأتي من خراسان، كما ان النبي محمدًا قال ان شجرة المعرفة في مكة وثمارها في خراسان، وان الانسان هو وجه الحق وقمة المعرفة وتجب عبادته(١)

بالرغم من تباين في العقائد والاهداف، فالطريقة البكتاشية كانت تجمعات ومؤسسات دينية صوفية هدفها التقرب من الله تعالى بالعبادات والسلوك الصوفي مما يحد من نشاطها الدنيوي، اما النقابات الحرفية فكان نشاطها في الحقل التجاري والصناعي، ولكن ذلك لم يمنع التقارب والتعاون بينهما، فكان ان اعتنق العديد من الحرفيين التصوف، وعمل بعض الصوفية في حقل الصناعة والتجارة وقيل ان العديد من شيوخ الحرفة، اي زعماء النقابات، كان من الصوفية.

في سياق دراستنا الطريقة البكتاشية لا بد من ذكر، ولو باقتضاب، الفرقة الانكشارية التي عُرف اتباعها باسم «ابناء الحاجي بكتاش»، وكانوا الدرع والقوة العسكرية لهذه الطريقة، وبالوقت نفسه، كان القضاء عليها عام ١٢٤٢هـ. السبب الاساسي في شرذمة واضعاف الطريقة البكتاشية.

في عهد مراد خان (٧٦١ - ٧٩٢هـ) اقترح رجل من كرمان، اسمه «كرى رستم» على قاضي العسكر، «شندرلي خليل»، ان الشريعة تنص ان واحدًا من كل خمسة اسرى، أُخذوا في الحرب يكون للقائد. نقل قاضي

---

١ - Christianity and Islam .F.W. Hasluck. Das vilayet des hajji Bektash. E. Gross. Seyahtname. Evliyacelebri مقتطفات من

العسكر الخبر الى مراد خان الذي امر العمل بهذا الاقتراح. بعد اسرهم، كان الاسرى يرسلون الى القرى التركية لمدة ثلاث سنين حيث يعتنقون الاسلام ويتعلمون اللغة التركية ثم ينخرطون في الجيش التركي كوحدات من الحرس ومن لباسهم الخاص قبعة من اللباد الابيض.(١)

كان يلتحق بكل وحدة (اورطة) انكشارية، شيخ بكتاشي بصفة مرشد روحي، يؤمهم في الصلاة ويستمع الى شكواهم وكانت له صفة قائد عسكري.(٢)

كان الانكشارية تنظر الى شيوخ البكتاشية كأولياء تجب طاعتهم. قال الكونت الفرنسي «مارزقلي» وكان أسيرًا عند العثمانيين عند حصار ڤيينا عام ١٦٨٢م، إن القائد الانكشاري كان ينهض واقفًا باحترام عند ذكر اسم الحاجي بكتاش(٣) وكما قلنا سابقًا. كان لقب الانكشارية اولاد الحاجي بكتاش.

بالرغم من قلة عدد الانكشارية(٤) تمكنوا من ان يشكلوا خطرًا على الحكّام، ويتسلطوا على الوزراء، ونشروا الخوف بين الناس. ثاروا على السلطان سليمان الأول، والسلطان عثمان الثاني ومراد الرابع. وعندما حاول السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ - ١٢٢٢هـ) الحد من نفوذهم وفسادهم تمكنوا من تنحيته عن الحكم وقتله.(٥)

١- كتاب «تاريخ اشك باشا زاده» ص ٢٠٦.

٢- The Becktashi Order. Birge. p. 74

٣- Journal of the Royal Central Asian Society. p. 631

٤- كان عدد الانكشارية في عهد سليمان الاول (١٥٢٠ - ١٦٠٣م) ١٢٠٠٠ وفي عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥م) ٢٧٠٠٠ وفي عهد محمود الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣م) ٤٥٠٠٠ وفي عهد احمد الاول ١٦٠٣ - ١٦١٧م) ٤٧٠٠٠. Bektashi Order. ص ٧٥.

٥- The Becktashi Order, Birge. page 76.

بقي تسلط الانكشارية على أمور الحكم وترويع الناس حتى عهد السلطان محمود الثاني، الذي اراد كبح تسلطهم واجراء تحسينات في الادارة والجيش فأثار بذلك غضب الانكشارية فأعلنوا الثورة عليه، فارسل الجيش مع الفرقة الأشكنزيّة المعروفة بعدائها للانكشارية، فحاصرهم عام ١٢٤٢هـ. (١٨٢٦م) في مقرهم في ثكنات الميدان، وبعد معركة ضارية، استعملت فيها المدفعية، تمكن من هزيمتهم فقتل ما يفوق الخمسة آلاف انكشاري، واحرقت ثكناتهم، وامتد القتال الى جميع المراكز الانكشارية في البلاد حتى قضى نهائيا عليهم[١]

اغتنم العلماء وشيوخ الطرق الصوفية الاخرى المناهضين للبكتاشية، تدمير النفوذ الانكشاري الذي كان درع البكتاشية وقوتهم، فشنوا عليهم حملة من الاتهامات بالالحاد، والولاء لآل البيت والفساد، وطلبوا من السلطان محمود الثاني القضاء عليهم، فأمر باعتقال زعماء البكتاشية وتهديم تكياتهم ومنازلهم، فهرب معظمهم وصُودرت كتبهم وأحرقت. ثم امر السلطان بعقد اجتماع يضم العلماء على اختلاف مذاهبهم وشيوخ المولوية، النقشبندية، الخلواتية، السعدية والقادرية، حيث تقرر اعدام الشيوخ، كنسي بابا، اغاتي زادة بابا وصالح بابا.[٢]، كما صدر قرار بطرد معظم شيوخهم من البلاد، الذين لم يعدموا بسبب ادعائهم الانتماء الى المذهب السني[٣] واصبحت من ذلك التاريخ تهمة الانتماء الى البكتاشية تقود الى الاعدام.

١- The Bektashi Order of dervishes. p. 76-77

٢- Precis historique de la destruction du corps des Jansair par le Sultan Mahmud en 1826. Muhamad Assad effendie p. 298+329

٣- Ussu Zafer Izzat Efendi p. 210 - 213.

جميع املاك البكتاشية، بما فيها الاملاك الوقفية، والتكيات اعطيت للنقشبندية الذين استولوا على القرية البكتاشية وجعلوها مقرهم الرئيسي.(١)

تمكن السلطان محمد الثاني في محاولته عام ١٢٢٣هـ (١٨٠٨م) القضاء التام على الانكشارية، ولكن بالرغم من قتله ما يزيد عن سبعين الفًا من الكبتاشية، بقي العديد منهم، اما يدّعون الانتماء الى المذهب السني باللجوء الى التقية، او يمارسون شعائرهم بالخفاء. ويقول «J.K. Birge»(٢) : «لا شك انه حوالى عام ١٨٤٠م، بعد حوالي ثلاث وعشرين سنة من محاولة القضاء عليهم، اخذت الطريقة تستعيد وجودها بنشاط ملحوظ». كما يشير الرحالة الانجليزي تشالر مكفارلن(٣) انه خلال رحلته في تركيا عام ١٨٤٧م التقى زعماء والعديد من البكتاشيين في سهول الاناضول ومدينة بورصة. والكاتب التركي يعقوب قادري يقول: «ان السرية التي اكتنفت الطريقة البكتاشية، ابتدأت من وقت القضاء على الانكشارية فجعلتهم، خوفًا على حياتهم، يلتجئون الى السرية التامة.»(٤)

في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي، بتشجيع وحماية الخاتون بسمة سلطان، زوجة السلطان عبد المجيد(٥) (١٨٣٩ - ١٨٦١م) التي اعتنقت البكتاشية(٦) ابتدأ ظهور الكتب البكتاشية بكميات كبيرة(٧) مما يدل على تشجيع وحماية السلطة لهم.

١- The Bektashi Order. Birge. p. 78

٢- The Bektashi Order of dervishes. p. 79

٣- Turkey and its destiny p. 496

٤- Nur baba Istanbul 1923. p. 7

٥- Mysticism and Magic in Turkey Lucy Garnett. p. 73.

٦- يقول المؤلف Birge ان الذي شجع البكتاشيّة كانت والدة السلطان عزيز التي اشرفت على نشر الكتابين ولاية نامة واشكانامة. ص ٨١. The Bektashi Order of Derviches.

٧- كتاب تحميس **لعربي بابا**، ديوان اشرف اوغلو، كتاب **الاشكنازيّة**، فرشيت اوغلو وكاشف الاسرار.

في اواخر القرن التاسع عشر ميلادي ظهرت الطريقة البكتاشية الى الوجود العلني، فبُنيت التكيات والمدارس، وأُعيد بناء التكية الرئيسية في قرية الحاجي بكتاش، بعد اخراج النقشبندية منها. يقول «F.W. Hasluck» ان الخراج السنوي للتكية الرئيسية في قرية الحاجي بكتاش كان ستّين الف جنيه استرليني وتملك ثلاثمائة وستين قرية.[١] وفي هذا الوقت تألف مجلس وصاية من ثمانية شيوخ من البكتاشية للاشراف على ادارة التكية والاوقاف وكان مركزه قرية الحاجي بكتاش.

في عام ١٩٢٥م قررت الحكومة التركية وضع حد لتفشي ونشاط الطرق الصوفية في البلاد، التي اعتبرتها عائقًا للتطور للالتحاق بالغرب، فاصدرت قانون رقم ٦٧٧ الغت بموجبه جميع الطرق الصوفية، وعلى رأسها الطريقة البكتاشية، كما الغت الالقاب شيخ، بابا، سيد، مرشد، دي دي، شلبي، وخليفة، كما فرضت عقوبة السجن على من يخالف هذا القانون. واصدرت لاحقًا امرًا بمصادرة جميع الاثاث والاواني، كالاسلحة والشموع واودعوا في المتحف القومي التركي.[٢]

انتهت رسميًا الطريقة البكتاشية في تركيا، أما في البانيا، التي دخلتها البكتاشية مع جيش السلطان مراد الثاني ثم كان القدوم الكبير في عهد الوزير تندلي باشا (١٢٠٥ - ١٢٣٨هـ) فلا زالت تعتبر عقيدة رسمية وتكوّن اكثر من عشرين بالمائة من السكان، اي حوالي مائتي الف نسمة. كما لا يزال يوجد بعض التكيات البكتاشية في بلاد الشرق الادنى منها التكية المشهورة Kaygusuz في جبل المقطم في القاهرة.

١- Christianiity and Islam under the Sultans. p. 503

٢. The Bektashi Order of dervishes. p. 84-85 (بتصرّف)

لا بد من ان نشير الى الفرقة الانكشارية المعروفة باسم «Kizilbash» اي اصحاب الرأس الاحمر. كان الشاه حيدر والد الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية الايرانية يعتبر وليًا ومن اتباع آل البيت امر اتباعه التركمانيين بابدال قبعتهم التركمانية بعمامة حمراء، لهذا اطلق عليهم لقب الرؤوس ذات اثني عشر لفة التي تمثل الائمة الاثني عشرية الشيعية. اما في تركيا ففرقة «Kizilbash» فكانت من الانكشارية من سكان القرى والمزارعين، عُرف عنهم الشراسة والقسوة وعدم احترام الغير، وكانوا يعتمرون لبّادة(*) من الصوف الاحمر بدلاً من اللبادة البيضاء التي كانت لباس الانكشارية. وقيل ان المقولة «صوفته حمرا» انطلقت منهم اذ كان يُحذر الانسان من الاقتراب منهم او العمل معهم لشراستهم فيقال له «لا تقربه ان صوفته حمراء.»

سابعًا: الطريقة البدوية.

اسس هذه الطريقة احمد البدوي، وقيل ان نسبه ينتهي الى الامام الاول علي بن ابي طالب. يذكر المؤرخ المقريزي، انه شهد بصحة نسبه جماعة من ائمة المعاصرين، منهم القاضي عبد الوهاب بن التلميذ، والسيد عبيد بن محمد الشريف الحسني الحاكم بالمدينة المنورة، واودعت نسخة من هذا النسب بدار الرصاص بالمدينة المنورة.»(١)

---

*- اللبادة هي قبعة من اللباد (الصوف المضغوط) على شكل مخروطي، لا يزال بعض القرويين اللبنانيين يعتمرها حتى يومنا هذا.

١ - «الطرق الصوفية في مصر». عامر النجار ص ١٠٣.

وُلد احمد البدوي عام ٥٩٦هـ[١] في مدينة فاس من المغرب العربي، وكان سادس اخوته، وعُرف منذ صغره بصمته الطويل، وقد ذكروا انه كان يلزم الصمت ولا يكلم الناس إلاّ بالاشارات وانه كان اكثر اوقاته شاخصًا الى السماء.[٢] اخذ علوم الدين ولبس خرقة التصوف عن يد الشيخ عبد الجليل النيسابوري في فاس.[٣]

في عام ٦٠٣هـ هاجرت اسرة احمد البدوي الى مكة، وقد استغرقت هذه الرحلة من فاس الى مكة اربع سنوات، وقد مروا بمصر في طريقهم من فاس الى مكة وعاشوا بها فترة تقدر بحوالي ثلاث سنوات[٤]

ويقول حسن شقيق احمد البدوي: «فما زلنا ننزل على عرب ونرحل عن عرب فيتلقوننا بالترحاب والاكرام حتى وصلنا الى مكة المشرفة في اربع سنين.[٥]»

ويصف عبد الوهاب الشعراني احمد البدوي فيقول: «كان غليظ الساقين، طويل الذراعين، كبير الوجه، اكحل العينين، طويل القامة، قمحي اللون، وكان في وجهه ثلاث نقط من أثر جدري، في خده الايمن واحدة وفي الايسر اثنتان، اقنى الانف، على انفه شامتان في كل ناحية شامة سوداء اصغر من العدسة. وكان بين عينيه جرح موسى جرحه ولد اخيه الحسين بالأبطح حين كان بمكة[٦]».

١- «دائرة المعارف الاسلامية» ص ٤٦٥.

٢- «الادب الصوفي في مصر» في القرن السابع هجري. علي صافي ص ١٤٧.

٣- «الجواهر السنية في النسبة والكرامات الاحمدية». محمد زين الدين ص ٢٠.

٤. «الطرق الصوفية في مصر» ص ١٠٣.

٥- «الطبقات الكبرى». عبد الوهاب الشعراني ص ٥٨.

٦- «الطبقات الكبرى» ص ٥.

في عام ٦٢٧هـ توفي والده علي، وبعد ذلك بحوالي اربع سنوات اي عام ٦٣١هـ توفي اخوه محمد فلم يبق من اخوته الذكور سوى شقيقه الاكبر حسن الذي تولى رعايته.(١)

وفي عام ٦٣٤هـ سافر مع اخيه الحسن الى بغداد، بلد العلم والثقافة واهل التصوف وعلماء الدين، فصحب العلماء، خصوصاً اهل التصوف، وقيل انه خلال وجوده في بغداد التقى السيدة الجميلة المشهورة بثرائها، فاطمة بن بري التي ارادت الزواج به ووعدته بحياة ترف ورخاء ولكنه فضل العبادة والتقوى والزهد والسير في طريق الصلاح وارشاد طالبي الحق وحب الله، فتمكن من اقناعها ان تكف عن غوايتها وتتوب الى الله تعالى توبة صادقة فاصبحت امرأة متدينة اعتكفت للصلاة والقيام بالاعمال الحميدة والخير.

وفي عام ٦٣٥هـ عاد احمد البدوي الى مكة حيث اخذ في الزهد والعبادة بنشاط واندفاع حتى قيل ان اخته فاطمة قلقت عليه واخذت، بمساعدة شقيقه حسن، تسعى الى اقناعه بالتخفيف من هذه المجاهدة والغلو في الزهد وان يرجع الى حياته العادية كباقي الناس، ولكن من دون جدوى، فقد اصر على زهده وتقشفه وعباداته.

في عام ٦٣٥هـ سار من مكة الى بلدة «طنطا» في مصر حيث اكرمه واحسن وفادته الامير «بيبرس» المملوكي.(٢)

ويختلف المؤرخون في هذه الرحلة، فيقول عبد الصمد زين ان البدوي عاد الى مكة ثم ذهب الى مصر، اما الشعراني فيقول انه لم يعد الى مكة بل اتجه من العراق الى مصر مباشرة(٣) انتهى مطاف احمد البدوي الى طنطا حيث استقر بها حتى مات عام ٦٧٥ هجري. اذن يمكن القول ان احمد البدوي لم يكن مصريًا إلا بالانتماء فهو مغربي المولد سكن مكة، ثم عاش معظم حياته في مصر ومات فيها.

١- «الطرق الصوفية في مصر» ص ١٠٥ (بتصرف).

٢- «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» عبد الرؤوف المناوي. مخطوط بدار الكتب رقم ٢٦٠.

٣- «الادب الصوفي في مصر» في القرن السابع هجري. علي صافي ص ١٤٨.

وفي طنطا سكن احمد البدوي على سطح بيت التاجر ابن شحيط، ويقول الدكتور عامر النجار: «وعلل البعض تفضيل اقامة البدوي فوق سطح الدار لتفضيله العيش وسط الطبيعة، يرى بديع صنع الله في نجومه وسمائه وكواكبه وشجره وبرده وحره ورعده ومطره، فكان البدوي بهذا الرأي فضّل الاقامة فوق سطح الدار ليتأمل صنع القادر الحكيم ويسبحه اثناء الليل واطراف النهار، ولسكنه فوق السطح اطلق عليه لقب السطوحي».(١)

وكذلك لُقب احمد البدوي بالسيد الشريف الملثم، وذلك بالنسبة الى اللثام الذي كان يضعه على فمه وهذه عادة اخذها من الملثمين في شمال افريقيا، خاصة قبيلة «الطوارق».

يقول الشيخ احمد حجاب: «كان يحدق ببصره نحو السماء، لا ينظر في النجوم ولكن ليطالع تجليات الحق ويتابع انوار الذات، ومن كثرة هذه المطالعة، انطبعت على محيّاه هذه الانوار، وتركت أثرًا ظاهرًا يقرؤه كل واحد، فكان يستر وجهه باللثامين ليحجب عن الايمن اثار تلك الانوار.»(٢)

اما الدكتور عبد الحليم محمود فيقول: «ان كرامة السيد الكبرى هي انه ربى رجالاً وكوّن ابطالاً مجاهدين في سبيل الله. إن مدرسة السيد منذ انشأها فوق السطح، لا تزال تعمل وقد افتتحت لها فروع في جميع انحاء العالم، وفي كل جيل من الاجيال يهتدي بسبب دعوته الاف الاشخاص من مختلف المستويات.»(٣)

١- «الطرق الصوفية في مصر». عامر النجار ص ١٠٨.
٢- «العظمة والاعتبار». ص ٨٨.
٣- «السيد احمد البدوي». ص ٣٤.

اتهم بعض المؤرخين احمد البدوي على انه شيعي قدم مصر كداعية علوي يعمل للشيعة والفاطميين وانه جاء لهذه البلاد تحت ستار التصوف وتأسيس طريقة صوفية ولكن الحقيقة انه يعمل لارجاع الحكم الفاطمي الذي اغتصبه الايوبيون. اعتمدوا في اتهامهم احمد البدوي بالتشيع، على نسبه العلوي وتأثره بابي الفتح الواسطي تلميذ الشيخ احمد الرفاعي، الذي يُرجع سلسلة طريقته الرفاعية الى الامام علي بن ابي طالب، وقيل عنه انه كان يميل الى آل البيت.

يقول الدكتور مصطفى عبد الرزاق في مقال نُشر في مجلة «السياسة الاسبوعية»: «كان الشيخ ابو الفتح الواسطي داعيًا خطيرًا، تتلمذ على السيد احمد الرفاعي، وكان من نجباء تلك المدرسة التي أقامها ذلك الصوفي الكبير في بطائح العراق، وقد شام فيه العلويون ودعاة اهل البيت نجابة وفطنة وصبرا، يؤهله لحمل راية الطريق، فندبوه للسفر الى الديار المصرية، فوفد على الاسكندرية من واسط عام ٦٢٠هـ ليدعو القوم على الطريقة الرفاعية، واستطاع الواسطي ان يؤلف حشدًا من الاتباع والمريدين، ثم عاجلته المنية وهو في ريعان مجده. فأسف العلويون على الفجيعة في ذلك الداعية البارع الذي خدم دعوتهم بصدق واخلاص ومهد لها الطريق على ما يريدون في الديار المصرية، وكان عليهم ان يدبروا فيمن ينهض بهذا الامر من بعده، فندبوا السيد احمد البدوي لما توسموا فيه من براعة واقتدار وخبرة بمداخل الطريق.» ولكن الدكتور عامر النجار يقول: «لكن البدوي عاش في مصر قرابة اربعين عامًا، وخلال الاربعين عامًا لم يستطع احد ان يكتشف ان له اغراضًا علوية او انه من دعاة الشيعة في مصر.»[١]

١- «الطرق الصوفية في مصر» ص ١١٣.

ويقول الدكتور الحفني عن البدوي: «وكان في حالة وله دائم او كثير الغياب، كما يقول مريدوه من السطوحيين، وذلك ما جعل الناس في حيرة من امره، فالتبس عليهم، هل هو من الصوفية ام انه مجنون. إلاّ انه بفضل اصحابه ومجاهداتهم مع عامة الناس، صار للطريقة الاحمدية (البدوية) اتباع كثيرون، وكان لها اعمق الاثر في تاريخ مصر، دينيًا، واجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا وتحولت لها طنطا الى مدينة كبرى بعد ان كانت قرية صغيرة.»[١]

اشتهر الشيخ احمد البدوي بتخصيص الطريقة البدوية بالاوراد وترتبط الاوراد بالصلوات الخمس، ومن اثاره الوصايا، ويوصي خليفته عبد العال بتقوى الله في السر والعلانية، وملازمة الكتاب والسنة كل وقت، وان يقرأ اية الكرسي مرة، وسبحان الله ثلاثاً وثلاثين مرة، والصلاة على النبي مائة مرة، وتذكُّر الله ثلاثمائة مرة، وعليه تلاوة ذلك عقب كل فرض كان مفتاح كل خير، وإن لم تقدر فعقب الصبح والعشائين[٢]

ومن وصايا الشيخ البدوي «ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، اشفق على اليتيم، وأكسِ العريان، واطعم الجوعان، واكرم الغريب والضيفان، عسى ان تكون عند الله من المقبولين».[٣]

الطريقة البدوية تقسم الى اربعة بيوت: بيت الفقراء، اي الصوفية، والكناسية، وعليهم كنس الزاوية في يوم المولد الاحمدي، وكان شيخهم محمد السطوحي الكنّاسي وبيت المتصوفة «المنايفة» وشيخهم رمضان

١– «الموسوعة الصوفية» ص ٤، عبد المنعم الحفني.
٢– «الموسوعة الصوفية» ص ٤٤.
٣. المصدر نفسه ص ٤٥.

الاشعث السطوحي، وبيت «السلامية والمرازقة» وكان شيخهم عمر الشناوي الاشعث، وبيت الانبابية، وشيخهم يوسف الانبابي السطوحي، وكان لكل شيخ مجلسه ومرتبته وله نقباء ينوبون عنه ويساعدونه.[١] كان الشيخ البدوي يقول عن التوبة: «الندم على ما مضى من الذنب والاقلاع عن المعصية والاستغفار باللسان، والعزم على ان لا يعود الى المعصية، والصفا بالقلب ويقول عن الصبر هو الرضا بحكم الله تعالى والتسليم لامر الله تعالى، وأن يفرح العبد بالمصيبة كما يفرح بالنعمة».[٢]

وطريقة البدوية في الانتساب هي ان على المريد الراغب الاتصال بالشيخ الواصل الموصل فيتأكد هذا من حسن استعداده، ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويقول له: أنت اخترت لنفسك الدخول في رقعة سيدي احمد البدوي، رضي الله عنه. وكلهم من رسول الله ملتمس، ورضيت ان تكون سميعًا مطيعًا محبًا لي ولإخوانك ويأمره الشيخ بالوضوء وان يصلي ركعتين بنية التوبة، ثم يقرئه التوبة «تبت الى الله توبًا نصوحًا وندمت على ما فعلت وعزمت على ألاّ أعود ابدًا، واشهد الله وجميع خلقه علي بذلك واسأل الله الكريم بجاه سيدنا محمد «صلعم» وعلى آله وصحبه وذريتهم من الصالحين اجمعين.[٣] ويقول له الشيخ «انت الدخول من طريقة سيدي البدوي وان يكون شيخنا، شيخ الشيوخ أنس بن مالك صاحب رسول الله. ويأمره الشيخ بالصلاة ركعتين بنية التوبة، فيلبسه عندئذٍ الخرقة الصوفية البدوية وكان لونها احمر»[٤]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٤٧، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٤٦.

٣- «الجواهر السنية» ص ١٤٦ (بتصرف).

٤- «الفرق الصوفية في مصر» ص ١١٩.

لم يترك احمد البدوي مؤلفات او كتبًا مدونة، ولكن نسب اليه شعر ملحون وركيك. ويقول عبد الصمد الزين: «انها منسوبة اليه بلسان الحال والاخر بلسان المقال ولأن معظمها من الشعر الضعيف الذي لا نستطيع ان ننسبه الى حال او مقال فاننا نشك في نسبتها لسيدي احمد البدوي.[١]

ويشير المستشرق «ترمنجهم» الى فروع الطريقة البدوية كما يلي:

١-**الطريقة العنبابية**: انشأها اسماعيل العنبابي تلميذ الشيخ احمد البدوي قبره في قرية امبابا.

٢- **الطريقة البندارية**:

٣- **الطريقة البيومية**: انشأها علي بن الحجازي البيومي، تلميذ عبد الرحمن الحلبي. توفي البيومي عام ١١٨٣ هجري (١٧٦٩م)

٤- **الطريقة الحلبية**:انشأها ابو العباس احمد الحلبي في مصر.

٥- **الطريقة الحمودية**:انشأها محمد الحمودة تلميذ حبيب الحلبي.

٦- **الطريقة الهندوشية**: انشأها توفيق البكري في مصر.

٧- **الطريقة الكناسية**: انشأها محمد الكنّاس.

٨- **الطريقة الشناوية**: انشأها محمد بن عبد الله الشناوي. توفي عام ٩٣٢هـ ودفن في زاويته في محلة روح في الغربية.

٩- **الطريقة الشعيبية**: انشأها شمس الدين محمد بن شعيب الشعيبي. توفي عام ١٠٤٠ هجري.

١٠- **الطريقة التسقايطيّة**: انشأها محمد بن زهدان التسقايطي.

١- المصدر نفسه.

١١- الطريقة الدّسوقية: انشأها ابراهيم الدسوقي توفي عام ٦٨٧ هجري.

١٢- الطريقة الشرنبية او الشرنوبية: انشأها احمد بن عثمان الشرنوبي توفي عام ٩٩٤ هجري.

٨: الطريقة النقشبندية:

نسبت الطريقة الى الشيخ بهاء الدين محمد شاه نقشبند المتوفى عام ٧٩١هـ. وكلمة نقشبند تعني نقش القلب بالذكر وبقاءَه في روح الصوفي.

الواقع ان الطريقة النقشبندية كان اسمها «خواجكان» نسبة الى مؤسسها الشيخ يوسف الحمداني (توفي عام ٥٣٥هـ) وعبد الخالق خوجداني (توفي ٥٧٥هـ) ثم رُبط اسمها نهائيًا باسم بهاء الدين النقشبندي.

يعتبر المستشرق «ترمنجهم» ان سلسلة النقشبندية تتألف من هؤلاء الشيوخ البخاريين، اي سكان مدينة بخارى:

محمد عنجر مغناوي. توفي عام ٦٤٣هـ.

عارف ريجاري. توفي عام ٦٥٧هـ.

عزيزان علي الروطاني توفي عام ٧٠٥هـ.

محمد بابا السمّاسي. توفي عام ٧٤٠هـ.

امير سيد كولالي البخاري. توفي عام ٧٧٢هـ.

محمد بن محمد بهاء الدين النقشبندي توفي عام ٧٩١هـ. كان بهاء الدين النقشبندي تلميذًا للشيخ بابا السمّاسي وكذلك الشيخ امير سيد كولالي، ثم صحب الدرويش التركي خليل، الذي اصبح سلطان منطقة بخارى، لمدة ست سنوات، وعند اقالة السلطان خليل عام ٧٤٧هـ من الحكم، رجع بهاء الدين الى قريته «روارطون» في منطقة بخارى، واعتكف في زاويته للعبادة والتعليم حتى توفي عام ٧٩١هـ(١)

١- The Sufi Orders in Islam. Trimingham. p. 63

يقول المؤرخ فخر الدين علي بن الحسين في كتابه «رشحات عين الحياة» ان مؤسس هذه الطريقة هو ابو يعقوب يوسف الحمداني، وان خليفته عبد الخالق خوجداني[1] هو الذي نظم الطريقة وارسى الذكر قوامًا لها، واعلن رفضه للسماع واشار الى اعتماد الذكر الخفي وقال «ان الطريق الى الحق قد تبدو ظاهرة ولكنها توصل السالك باطنيًا الى الحق، اي الظاهر للخلق والباطن للحق.» وقيل ان النقشبندية افضل طرق الصوفية للمريد الذي يطمح في الوصول الى الحق[2]

وقال عبد الخالق خوجداني، ان الغاية من الذكر ان يبقى القلب مدركاً وواعياً للحق وان له ثماني حقائق، اضاف اليها لاحقًا بهاء الدين ثلاث قواعد فاصبحت احدى عشرة قاعدة:[3]

١. الذكر باللسان والقلب. على القلب ان يبقى واعيًا للحق.

٢. كبح النفس. على السالك ان يكرر مع الذكر بترديد القول – الله انت المنى وغايتي رضاك.

٣. اليقظة. التخلي عن كل الافكار عند ورود الذكر.

٤. التذكر. التركيز على الذكر والتخلي التام عما سواه.

٥. الوعي عند التنفس. على السالك ان يتحاشى الزفير والشهقة كي يمنع النسيان عند تنفسه.

٦. الشهادة. عليه بترديد الشهادة فهي الطريق الى الحق.

٧. الانتباه الى القدم. على السالك ان ينتبه في سيره في الطريق كي لا يرتكب الخطأ ويحوّل نظره عن الهدف.

٨. العزلة. ان السلوك هو الى الله، وعلى السالك ان لا يتخلى عن الذكر خاصة عند اجتماع الكل.

١– كان عبد الخالق خوجداني يميل الى الملامتية ومتأثراً بعقائدها ومنها الذكر والنهي عن السماع.

٢– «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩٤، عبد المنعم الحفني.

٣– The Sufi Orders in Islam. Trimingham. p 203-204.

القواعد الثلاث التي اضافها الشيخ بهاء الدين:

١. الوقوف الزماني: التركيز في تمضية الوقت في ذكر الله، وذلك لقرب السالك الى الحق.

٢. الوقوف العدادي: المراقبة على ان يكون الذكر بالقلب ملازمًا لحاجات السالك القلبية.

٣. الوقوف القلبي: ان يكون اسم الله منقوشاً بقلب السالك للتأكد ان ليس للقلب هدف غير الله.

اذن اساس الطريقة النقشبندية هو الذكر، ويقول بعضهم انها طريقة الصحابة وينسبونها الى ابي بكر الصديق[١] كما ينسبونها الى ابي يزيد البسطامي، وكان امامهم احمد السرهندي (توفي عام ١٠٣٤هـ) الذي اشتغل بالطرق الثلاث التي سادت في ايامه وهي:

القادرية والخشتية والسهروردية، وارتاح الى الطريقة النقشبندية واخذ بها بدعوى انها الايسر والاصلح[٢]

ومما يلفت الانتباه كثرة الكلمات الفارسية فيها، وذلك ان الطريقة ظهرت ونشأت في فارس وراجت بين المتحدثين باللغة الفارسية منها كلمة «ونظر برقدم» وتعني ان السالك لا يصعد نظره الى الافاق فيشغله عن الذكر والتفكر في الله تعالى. وكلمة «سفردر وطن» اي السفر او الانتقال الى الوطن او المقام، اي انتقال السالك عبر المقامات او ذهاب السالك عن عالم الحق الى جناب الحق. وكلمة «هوش دردم هوش» حيث هوش بالمعنى العقل ودر ظرف ودم النفس اي على السالك العاقل ان يحفظ نفسه عن الغفلة. وكلمة «ويادكرد» وهي تكرار الذكر بالقلب او باللسان، وكلمة «بازكشت» وهي رجوع الذاكر بذكره الى الله تعالى ليحصل له الوصول بالذكر الى الله تعالى، وغيرها من الكلمات الفارسية[٣]

١– لم ينسبوها الى الإمام علي، كمعظم الصوفية، لأنهم كانوا من غلاة السنّة.

٢– «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩٤، عبد المنعم الحفني.

٣– المصدر نفسه ص ٣٩٤.

وكما قلنا سابقًا، يُعتبر الذكر اساس النقشبندية، وبذلك يقولون: «ان يكون حال السالك هو حال الذكر على الدوام، وحال المتأدب بالذكر لله، فيتطهر قلبه من المنهيات والحرص والهوى واتباع الشهوات، والذكر منه ما يكون باللسان، وما يكون بالقلب – وفي ذكر اللسان يحرص على ان يوقف قلبه على الله وينسى به ما سواه، وهو يفعله بالحرص الشديد على الاداء الامثل.» ثم يقول: «ومع كل توحيدة يذكّر قلبه بان يذهب عقله مرددًا «اللهم انت مقصودي ورضاك مطلوبي، وذلك هو مناط الذكر، القصد الى الله وطلب رضاه والتحقق به عمن سواه»[١]

ويقول النقشبندية «ان الطريقة هي دوام العبودية لله تعالى ظاهرًا وباطنًا، بكمال الالتزام بالسنة، واجتناب البدعة والرخصة في جميع الحركات والسكنات، سواء في العبادات او العادات او المعاملات، مع دوام الحضور مع الله وبالله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك، ولها اصلان هما كمال اتباع النبي (صلعم) ومحبة الشيخ الكامل.»[٢]

عندما قضى السلطان محمود الثاني على البكتاشية، استولت النقشبندية على جميع املاكهم بما فيها الاملاك الوقفية، والمزارع والقرى والتكيات حتى علي القرية البكتاشية التي جعلوها مقرهم الرئيسي، كما نالوا حظوة وتشجيعاً من السلطة بسبب انهم على مذهب السنة، خاصة انه في ذلك الزمن، كان العداء العثماني الايراني على اشده والحروب بينهما شبه متواصلة.

بعد الاجتياح الوهابي لسوريا عام ١٨١٠م، سافر شيخ النقشبندية في سوريا، ضياء الدين خالد الى الهند[٣] حيث التقى الشيخ الصوفي الهندي المعروف عبد العزيز ابن والي الذي اشار عليه توحيد الفروع النقشبندية وادارتها كوحدة مركزية فيقضي على تشرذمها. تمكن ضياء الدين خالد من جمع الفروع النقشبندية التي كانت في سوريا والعراق وشرق تركيا تحت ادارة واحدة كان مركزها دمشق، ولكن بعد وفاته عام ١٨٢٦م تفرعت الطريقة الى طوائف في حلب ودمشق واستنبول وانتمت الى اسماء شيوخها.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩٥ – ٣٩٦، عبد المنعم الحفني.

٢- «الطريق الصوفي» يوسف محمد طه زيدان حاشية ص ١٨٠.

٣- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 124.

نتج عن محاولة الشيخ ضياء الدين خالد لتوحيد الفروع النقشبندية، ان تحول قسمٌ من الصوفية الاكراد في شمال العراق وشرق تركيا، من القادرية الى النقشبندية تحت رئاسة الشيخ عبد الله ابن الزعيم الكردي «الملاشاه» الذي تحول الى نقشبندي وجعل من مدينة «نهري» في شمال العراق مركزًا لطريقته التي اصبحت قوة كبيرة تهدد الزعامة البرازانية[١] التي كان مركزها مدينة «برازان» وشيخها تاج الدين حليف الشيخ ضياء الدين خالد، وزعيم اكبر تجمع كردي في المنطقة.

بعد قليل من الزمن، تحولت هذه الطائفة النقشبندية الكردية الى الطريقة البرازانية بقيادة الاغا عبد السلام تاج الدين البرازاني، ولا زالت العائلة البرازانية زعيمة الاكراد في سوريا والعراق.

في القرن التاسع هجري انتشرت الطريقة النقشبندية في الاناضول والهند وانقسمت الى ثلاثة فروع، آسيا الوسطى، آسيا الغربية (تركيا) والهند، ثم تفرّع عنها: المجدادية، الزبيرية، المطهرية، الايسانية، العلمية، وفي سوريا المرادية اسسها مراد بن علي.[٢]

٩- الطريقة المولوية

هي طريقة الدراويش الراقصين، اسسها الصوفي الخوارزمي بهاء الدين وُلْد الذي ولد عام ٥٤٣هـ في مدينة بلخ من فارس وتوفي عام ٦٢٩هـ في مدينة قونية من تركيا.

ترك بهاء الدين وُلْد عام ٦١٤هـ بلخ وسار الى مقاطعة روم التي كانت تحت الحكم السلجوقي وسكن بلدة لارندا، حتى دعاه السلطان كيكوباد الى قونية حيث بقي فيها حتى مات عام ٦٢٩هـ[٣] ترك بهاء الدين وُلْد كتاب «المعارف» شرح فيه حقائق العرفان وتأويلات الآيات القرآنية.

١- البرازانية كانت فرعًا من الطريقة القادرية.

٢- هذا ما يناقض قول «ترمنجهم» السابق ان النقشبندية لم تنتشر في البلاد العربية.

Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 95

٣- المصدر نفسه، ص ٦٠.

الشيخ بهاء الدين ولْد، واسمه الكامل بهاء الدين محمد بن حسين البلخي هو والد الشاعر المشهور محمد بن بن الحسين الملقب بالرومي او القوني ثم لُقب «مولانا» بعد وفاته.

اخذ جلال الدين علم التصوف عن الشيخ الصوفي شمس الدين التبريزي الذي تأثر به جلال الدين كثيرًا حتى قيل ان التبريزي تسلط عليه لدرجة ان احد مريدي الرومي، بموافقة احد ابنائه، قتله واخفى جثته.[١] كان جلال الدين الرومي يقول عن التبريزي: «ان شمس هو الذي اراني طريق الحقيقة، وهو الذي ادين له من اعماقي ويقيني[٢]

ترك اختفاء التبريزي أثرًا كبيرًا على جلال الدين وتحولاً في حياته الروحية حيث انقطع الى العبادة والزهد والرياضة الصوفية وسماع الموسيقى ونظم الشعر.[٣]

من دون ريب، انتشرت الطريقة المولوية عن يد جلال الدين الرومي وخلدها بشعره المعروف «بالمثنوي»[٤] الذي يضم ما يقرب من خمسة وعشرين الف بيت من الشعر الصوفي، ثم كتب «الرباعيات» وتشتمل على ١٦٥٩ رباعية وعدد ابياتها ٣٣١٨ بيتًا، ثم كتب ديوان «شمس تبريز» ويشتمل على غزليات صوفية، وكتاب «فيه ما فيه» «والمجالس السبعة» ويشتمل على مواعظ وخطب القاها اثناء اشتغاله بالتدريس[٥]

١- مقالة H. Ritter «دائرة المعارف الاسلامية» ص ٣٩٣.

٢- «الموسوعة الصوفية» ص ١٨٣، عبد المنعم الحفني.

٣- المصدر نفسه ص ١٨٣.

٤- اطلق الجابي على «المثنوي» اسم القرآن الفارسي.

٥- «الموسوعة الصوفية» ص ١٨٣، عبد المنعم الحفني.

ديوان «المثنوي» ادب صوفي له كل المقومات الادبية وليس عن فوران عاطفي يعبر عن نفسه في بضعة ابيات، كما عند رابعة العدوية والحلاج.

الطريقة المولوية تنسب الى الصوفية الخراسانية الفارسية وليس الى البغدادية العربية، ثم اشتهرت كصوفية تركية انحصرت في البلاد العثمانية وانتسب اليها الاتراك. الخوانق، او كما يدعوها الاتراك تكيات، التي انشئت في القاهرة، والقدس ودمشق كانت للاتراك الذين سكنوا تلك المدن[١]، ولهذا يمكن القول انها طريقة خراسانية فارسية نشأت وانتشرت في تركيا، واعتنقها الاتراك دون غيرهم.

كانت الطريقة المولوية من الطرق الصوفية القليلة التي تعتمد العقل لمعرفة الحق. يقول جلال الدين الرومي: «والعقل يهدي الى الرشد ويأتي بالنصر في المعارك، ويستدل به على وجود الله تعالى. ولكن العقل منه واصل ومنه ضال، وكلاهما يطلق عليه العقل، وعليك ان تعرف تفاوت العقول، ولو كان العقل كافيًا لمعرفة الحقائق الدينية، لكان فخر الدين الرازي اكبر العارفين.» ثم يقول: «ان انبياء الله وصلوا الى ما وصلوا، ونالوا الكرامات، لانهم سيطروا على نفوسهم بعقولهم، ووجهوا عقولهم الى الانوار فاخذوا منها».[٢]

---

١ – Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 60

٢ –«الموسوعة الصوفية» ص ١٨٦، عبد المنعم الحفني.

أُطلق على جلال الدين الرومي لقب «مولانا» بالنسبة لعلاقته الحميمة بالسلطة الحاكمة واختلاطه مع اهل كبار الحكم والطبقة الثرية، التي اتخذت الطريقة الارستقراطية ولعبت دورًا مهما في نشر الثقافة التركية.

اخذت الطريقة «المولوية» منحى السلسلة، اذ بعد وفاة جلال الدين الرومي خلفه ابنه بهاء الدين سلطان ولْد، الذي لذلك لُقب «بمولانا» وبعد وفاة بهاء الدين عام ٧١٢هـ خلفه جلال الدين عارف وكان من افراد العائلة (توفي عام ٧٢٠هـ) وبقيت الطريقة متماسكة ولم تتفرع كالطريقة الخلواتية حتى بعد عهد السلطان سليم الثالث، ولكن انحصر نشاطها في تركيا ولم يتفرع عنها طرق ثانويةاو طوائف.

اما الرقص الذي اشتهرت به هذه الطريقة والتي اطلق عليها اسم:

«The Whirling Dervishes» فيفسره الاستاذ روبسون بما يلي:

The whirling is a reference to the spirit's standing with Allah in its inner nature (سر) and being (وجود) , the circling of its look and thought, and its penetrating the ranks of existing things; and this is state of the assured one. And this leaping up is to his being drawn from the human station to the unitive station.(١) réference

وقوام الشعائر الدينية للطريقة السماع والذكر وبلغ شأنًا بعيدًا عندهم، وهم لا يعدون طريقتهم صوفية بالمعنى المتعارف عليه، ولها جذورها بالطريقة الملامتية التي كانت بدايتها في خراسان، حيث نشأت الطريقة المولوية.

---

١ — Tracts on listing to Music. J. Robson page 99

١٠- الطريقة التيجانية

فرع من الطريقة الخلواتية، اسسها الشيخ ابو العباس احمد بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني، الذي كان مولده عام ١١٥٠هـ في قرية «عين ماضي» في جنوب الجزائر.

سافر ابو العباس الى الحج عام ١١٨٦هـ حيث التقى بالشيخين، احمد بن عبد الله الهندي، ومحمد بن عبد الكريم السمان، فاخذ عنهما علوم الدين والفقه، وقيل انه سار الى مصر وصحب الشيخ محمود الكردي واخذ عنه علوم الصوفية.

المستشرق «ترمنجهم» وهو ثقة في علم التصوف، لا يذكر في كتابه «الطرق الصوفية في الاسلام» سفر التيجاني الى مكة ومصر وجلّ ما يقول:

«يظهر ان التيجاني تعرض الى مضايقة من السلطة التركية، دفعته الى الاستقرار في واحة ابي سمغون. وفي عام ١٢١٣هـ غادر مقره في الصحراء وسار الى مدينة فاس حيث لاقى حفاوة من مولاي سليمان وبقي في فاس حتى توفي عام ١٢٣١هـ(*)».

يقول التيجاني، ان في عام ١٢١٣هـ رأى رؤيا ان النبي «صلعم» كلفه بالدعوة فترك واحة ابي سمغون وسافر الى فارس واتخذها مقرًا لطريقته.[١]

---

* الواقع ان معظم المؤرخين المسلمين يقولون ان التيجاني سافر الى مكة والمدينة والتقى شيوخاً صوفية وكذلك زار القاهرة والتقى الشيخ محمود الكردي الذي اشار عليه توحيد فروع الشاذلية وانهاضها من تشرذمها.

١- Trimingham the Sufi Orders in Islam. p. 108

بالرغم من انتماء الشيخ التيجاني الى الطريقة الشاذلية، فقد اعتمد في طريقته التيجانية، التعاليم الخلواتية، وجعل نفسه المرجع الوحيد، ومنع المريدين الاتصال بغيره من الشيوخ وكان يقول «ان النبي، عندما كلفه بالدعوة، امره ان لا ينتمي في دعوته الى احد من الشيوخ فهو «صلعم» مرجعه الى الحقيقة».[1]

حرّم التيجاني زيارة الزوايا والاشتراك في المواسم الدينية او الاتصال بالحركات السياسية، فكانت التيجانية حركة دينية مستقلة جذورها متصلة بالطريقة الخلواتية ومرجعها الوحيد الشيخ التيجاني.

كان ظهور التيجانية اثناء ثورة الامير عبد القادر الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي الذي حاول الجزائري ان يستميلهم اليه، ولكن التيجاني رفض بحجّة عدم التورط في السياسة، وان طريقتهم هي لعبادة الله ولا دخل لهم بما يجري من حوادث وطنية هدفها السياسة، ولذلك أتهموا بمساعدة الفرنسيين على القائد الوطني عبد القادر مما اثار نقمة الوطنيين عليهم. وكان التيجاني يرد هذه التهمة بقوله «اننا نعبد الله تعالى، هكذا أُمرنا، ولا دخل لنا في الحوادث الوطنية وغيرها.»

كان التيجاني يقول: «لا بد من وسيط بين الانسان والله، وهو هذا الوسيط. ومنع مريديه من اظهار ولائهم الى اي شيخ غيره فهو الوالي الوحيد وقد ولاّه الرسول الكريم وامره ان يتخلى عن كل الطرق الاخرى[2]».

---

١ – The Sufi Orders in Islam. Trimingham. p. 108

٢ – Trimingham the Sufi Orders in Islam. p. 108

«وفي سجل «التحاق المقدم بالطريقة» يُطلب من المقدم كي يقبل التحاقه ان يكون مسلمًا يافعًا كي يحق له قبول الاوراد، فهي من الله. ان يؤمن رضا والديه وقبولهم كي ينخرط في الطريقة، لان الطريقة هي الوصول الى الله. ان لا يقبل وسيطًا للالتحاق بالطريقة لانه سيكون مرتبطًا بالله يجب ان يرفض جميع الاوراد إلاّ ما انعم بها عليه شيخه، لأن الله لم يخلق قلبين للانسان. يجب ان لا يزور ولياً، من الاحياء او الاموات، لان الانسان لا يمكن ان يخدم رئيسين. يجب ان يحب الشيخ وخليفته، كل حياته، لأن هذا الحب اساس الاتحاد.»[١]

ان كتاب «جواهر المعاني وبلوغ الاماني من فيض الشيخ التيجاني» الذي كتبه الشيخ علي الهرامزي بطلب من الشيخ التيجاني، وكتاب «الرماح» كتبه الحج عمر الجهادي من قبيلة «توكولور» في السودان، يحتويان على عقائد وتاريخ التيجانية.[٢]

من مشايخ الطريقة التيجانية المشهورين كان الشيخ ابراهيم الرياحين صاحب كتاب «مبرد الصوارم والاسّنة في الرد على من اخرج سيدي احمد التيجاني من دائرة اهل السنة.»

ومن اتباع الطريقة التيجانية المرموقين، كان الصوفي المعروف شيخ الشيوخ، الشيخ عمر السعيد من بلدة تلمسان من الجزائر. وكذلك الصوفي محمد الحافظ بن مختار المعروف باسم البدّي، الذي نشر الدعوة في الصحراء وفي افريقيا الفرنسية.

١- المصدر نفسه ص ١٩١. (مختصر بتصرف).

٢- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 107

بعد وفاة التيجاني في فاس توجهت الطريقة الى الجزائر وعين المقدم علي ابن عيسى شيخًا لها يعاونه في ادارتها، ابن التيجاني محمد الصغير. ومن الجزائر انتشرت جنوبًا الى السودان حيث اعتنق عقائدها قبائل «فولبا» «وتوكولور» بقيادة الحج عمر، حيث حلت محل الطريقة القادرية التي كانت في حالة ضعف وتشرذم.

١١- الطريقة القلندرية.

«تنسب الطريقة القلندرية الى «قلندرة يوسف»، وهو عربي اندلسي، ظهرت في دمشق عام ٦١٠هـ وكان اتباعها يحلقون لحاهم وحواجبهم، فمنعهم من ذلك السلطان الناصر حسن، حفيد قلاوون، وكان زيهم مزيجًا من الزي الفارسي والمزدكي، اما اخلاقهم فكانت في منتهى الانحلال بحيث انهم لا يتقيدون بشعائر الدين ولا بمقومات الاخلاق».(١)

«القلندرية فئة من الصوفية الملامتية، وحقيقة طريقتهم انهم تركوا العادات والاداب، واهملوا التقيد بتقاليد المجالسات والمعاملات، ويؤدون فرائض الشرع ولا يجيزون الزيادة عليها، ولا يحرمون أنفسهم من اللذات المباحة، ولا يتلزمون بالأحكام المتشددة، ولا يتخذون طريق الافراط في الزهد والتقشف وترك الدنيا. فانهم لا يبالغون في التعبد والتزهد والتقشف، وما يولونه عنايتهم حقًا هو صفاء القلب مع الله.»(٢)

١- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٥٥١.

٢- «الموسوعة الصوفية» عبد المنعم الحفني ص ٣٧٣.

القلندري لا يهتم باللباس والمظهر، ولا يهتم باطلاع الاخرين على باطن حاله، ولا يهمه شيء البتة إلاّ اخلاصه لربه وصفاء سره وباطنه، ويلبس كل ما يقع بيده، ولا يأبه بأية هيئة ظهر.(١)

يقول شهاب الدين السهروردي: «الملامتي حاله شريف ومقامه عزيز، فهو متمسك بالسنن والآثار، ومتحقق بالاخلاص والصدق وليس مما يزعم المفتونون بشيء. واما القلندري، فهو إشارة الى اقوام ملكَهم سُكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلت اعمالهم إلاّ من الفرائض، ولم يبالغوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحًا برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار والجمع والاستكثار، ولا يرتسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك، ولا يتطلعون الى المزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلب».(٢)

ويستطرد السهروردي بالقول «ان الملامتي يعمل في كتم العبادات والقلندري يعمل في تخريب العادات.»(٣)

يقول المقريزي انه عام ٦١٠هـ لاول مرة قدم القلندرية الى دمشق. اما نجم محمد بن اسرائيل وهو من طريقة الرفاعية – الحريرية (توفي عام ٦٦٧هـ) فيقول ان القلندرية قدموا دمشق عام ٦١٦هـ بواسطة محمد بن يونس السواجي (توفي عام ٦٣٠هـ) الذي اضطهده الملك الاشرف ونفى

١- المصدر نفسه ص ٣٧٤.

٢- المصدر نفسه ص ٣٢٩.

٣- «عوارف المعارف» السهروردي ص ١٥٧.

القلندرية لى قلعة الحسينية، ثم بعد ذلك، اندمجت القلندرية بالطريقة الحيدرية، وبني لهم عام ٦٥٥هـ زاوية في دمشق. اما في الهند فقد انشأ القلندرية خضر رومي التي تحولت الى طريقة. وفي مصر، في عهد الملك العادل، قدم عام ٦٩٤هـ الصوفي حسن الجواليقي وبنى زاوية ومدرسة ثم سار الى دمشق حيث توفي عام ٧٢٢هـ(١)

واسس الفرع القلندري في تركيا الاسباني يوسف الاندلسي الذي طُرد من البكتاشية لغطرستة ورفضته المولوية. وفي استنبول بُنيت زاوية ومدرسة قلندرية.(٢)

١٢- الطريقة الششتية.

في القرن السادس هجري ابتدأ انتشار التصوف بكثافة في الهند، خصوصًا الطريقة السهروردية والششتية، ثم تبعتهما الطريقة القادرية والنقشبندية.

كان محور الاسلام في الهند اشخاص رجال الدين الذين احاطوا أنفسهم بهالة من القدسية جذبت الناس اليهم، وليس الدين، وتطورت الصوفية في تيارين، الصوفية المتجولة (Wanderers) وصوفية الخوانق، التي كانت المركز البارز والمتوهج في الدين والزهد وتلقين الطريقة ودراسة علم التصوف. والخانقاه في الهند، تختلف عن الخوانق في البلاد العربية وفارس وتركيا، فهي كانت تنمو وتزدهر حول شخص له هالة التقديس وليست مؤسسة جامعة من الصوفية، كما عند العرب والفرس والاتراك.

١- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 267

٢- Histoire de l'Empire ottoman. J, Hammer p. 110

اوجد الطريقة الششتية الصوفي معين الدين الششتي المولود في شجستان من فارس، وكان تلميذًا للشيخ الهارفاني. بعد عشرين سنة من التجول استقر في مدينة «عجمر» عاصمة ولاية هندستان حيث التف حوله العديد من المريدين والتلاميذ، واصبح صوفيًا مستقرًا وشيخ خانقاه «عجمر» ومنه انبثقت السلسلة الششتية التي اصبحت الطريقة الاساسية في الهند.

عُرفت الطريقة الششتية بارتباطها الوثيق بالسهروردية حتى قيل انهم اخذوا عقيدتهم من كتاب «عوارف المعارف» للامام شهاب الدين ابي حفص السهروردي[١]

كان في ذلك الوقت، ما يدعى بالطريقة السهروردية الهندية، تجمعات متفرقة ساهمت في نشر الطريقة في بعض المدن الهندية، وبرز من شيوخها، نور الدين مبارك غزناوي، تلميذ الشيخ شهاب الدين السهروردي، وقطب الدين باختيار كاكي الذي انتقل الى الطريقة الششتية وخلف معين الدين ششتي.

وفي عام ٥٨٩هـ زار معين الدين مدينة دلهي ومنها سار الى مدينة «عجمر» حيث استقر فيها حتى توفي عام ٦٣٣هـ، وكان مولده عام ٥٣٧هـ فيكون عاش ستًا وتسعين سنة. وقبره في «عجمر» يعتبر مزارًا يزوره الناس للبركة.

قضى معين الدين عشرين عامًا صوفيًا متجولاً في صحبة شيخه عثمان حرواني قبل ان يستقر في خانقاه ويصبح صوفيًا مستقرًا[٢]

١- The Sufi Orders in Islam. Tirmingham. p. 64

٢- The Sufi Orders in Islam p. 64 (بتصرف)

خلف الشيخ فريد الدين مسعود (توفي عام ٦٦٤هـ) قطب الدين باختيار كاكي، وبالرغم من المصاعب المالية، تمكن من نشر الطريقة في بعض مدن الهند، كما بنى بعض الخوانق التي جعلها مؤسسات مستقلة والخلافة فيها وراثية.

يقول المستشرق «ترمنجهم»(١) ان اشهر الشيوخ الذين خلفوا فريد الدين مسعود هم:

نظام الدين اوليا. توفي عام ٧٢٥هـ.

ناصر الدين شيراغ دهلي. توفي عام ٧٥٧هـ.

علاء الدين بن احمد الصابر توفي عام ٦٩١هـ

اسس الشيخ علاء الدين الصابر الفرقة الصبرية وكانت فرقة صغيرة انحصر نشاطها في بعض المدن الهندية.(٢)

١٣- الطريقة الملامتية.

انشأ هذه الطريقة ابو صالح حمدون بن احمد، وكنيته القصار (توفي عام ٢٧١هـ) ثم بعد وفاته تولى نشر الطريقة ابو محمد عبد الله بن محمد منازل (توفي عام ٣٢٩هـ) اي بعد وفاة القصار بحوالي ستين سنة، اذن يُعتبر منازل من اتباع التابعين للقصار وليس تابعًا، كما يدّعي بعض المؤرخين.

١- المصدر نفسه ص ٦٥.

٢- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 65

يقول الدكتور ابو العلا عفيفي: «ما المراد بالملامة التي ينتسب اليها الملامتية؟ اهي لوم الملامتي نفسه؟ ام لوم الملامتي الدنيا وأهلها؟ أما لوم الدنيا فليس من نظام الملامتي في شيء، لان في تعاليمهم الصريحة النهي عن ذم الدنيا، أما المعنيان الآخران فيدخلان في جوهر الفكرة الملامتية، واليهما تشير تعريفاتهم».[1]

يقول الدكتور عفيفي عن الملامتية: «بانهم يدّعون انهم مع الله اشبه بمحمد «صلعم» لم يؤثر باطنه في ظاهره، بعد الذي ناله من القرب والدنّو، عندما رفع الى المحل الاعلى، فلما رجع الى الخلق تكلم معهم في امور دنياهم كما لو كان واحدًا منهم، وهذا اكمل العبودية، لذلك فهم قد قاموا مع الحق تعالى على حفظ اوقاتهم ومراعاة اسرارهم فلاموا انفسهم على جميع ما اظهروا من انواع القرب والعبادات واظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم، فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا انفسهم على ما يعرفونه من التمادي في الباطل. وبهذا يحصل الفرق بين الملامة على ما يحبه الله ورسوله، ولا يخافون لومة لائم في ذلك».[2]

«المعتقد الملامتي هو الاخلاص، والاخلاص في تعريفهم ان تكون صادقًا مع نفسك ومع الله دون الخلق. ويقول الدكتور عفيفي: «الملامتي يتمسك بالاخلاص ويعتد به، إلاّ ان هناك فرقًا بين اخلاص الملامتي واخلاص الصوفي، حيث الملامتي يريد ان يظهر من نفسه انه مخلص، بينما الصوفي من فرط اخلاصه في حاله وعمله ينسى نفسه فيهما ولا يدري عن اخلاصه شيئًا، ولذلك قيل ان الملامتي هو حقًا مخلص، ولكن الصوفي مخلص خالص».[3] وقيل ان الملامتي يحيط به اخلاصه غير مهتم في حقيقة خلاصه.

١- «الملامتية والصوفية واهل الفتوة». ص ١٥.

٢- «التحفة العراقية في الاعمال القلبية» ص ٤٥.

٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٧٢.

الملامتي هو الذي لا يظهر خيرًا ولا يضمر شرًا، وقد تحقق بالصدق فيجب ان لا يطلع احد على حاله واعماله، وقد يدعى الى السماع فيمتنع، لانه يعرف انه اذا حضر فسيظهر عليه وجد، وهو يؤثر ان لا يعلم احد بحاله.(١)

يقول الدكتور عفيفي: «ومن المبادئ الاساسية التي صدر عنها المذهب الملامتي ان العالم شر لا خير فيه، ولذلك يجب على الملامتي التزام الحزن والكمد ورؤية التقصير في جميع افعاله، وقد كان ذلك سببًا دعا بعض الصوفية كأبي بكر الواسطي (توفي عام ٢٩٠هـ) الى وصف مذهب ابي عثمان الحيري(*) بانه مجوسي ثم يقول: «وليس من المستبعد ان يكون التشاؤم الزرادشتي والهندي قد وجد طريقه الى بعض صوفية خراسان والى البيئة الثقافية التي عاش بها ابو عثمان الحيري، بل ليس هناك من شك، في ان نظرة ابي عثمان خاصة، والملامتية عامة، الى النفس الانسانية انما هي نظرة رجال متشائمين تحمل طابعًا غير اسلامي.»(٢)

ويقول الدكتور طلعت غنام في الرد على الملامتية: «اما الملام على ما فعل ما يكرهه الله او ترك ما احبه الله فهو لوم يحق بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام، بل الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل».(٣)

ويقول الدكتور عفيفي عن الاسس التي شكلت مذهب الملامتية: «ويخيل الي أن الاساس النظري العام الذي يقوم عليه المذهب الملامتي هذا، هو التشاؤم الذي نظر به شيوخ هذه الفرقة الى النفس الانسانية، وبنوا عليه مذهبًا كاملاً، في تذليلها وتحقيرها، ولومها واتهامها وحرمانها من كل ما

١- المصدر نفسه ص ٢١٤

*- ابو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيري كان من مدينة الري ويقيم في نيسابور صحب آبا حفص الحداد وتزوج ابنته وأخذ عنه علوم التصوف. كان ابو عثمان من مؤيدي المذهب الملامتي.

٢- «الملامتية والصوفية واهل الفتوة». ص ٤٣ و٤٤

٣- «اضواء على التصوف» ص ٤٢.

نسب اليها من علم وعمل، او حال او عبادة، وهي وجهة نظر قد يكون للبيئة الزرادشتية في فارس أثر فيها، ومن زعماء هذه الطائفة ابو عثمان الحيري، وهو من مؤسسي هذا المذهب(١)

وأما الامام شهاب الدين ابو حفص السهروردي فيقول: «فقوم من المفتونين سموا انفسهم «ملامتية» ولبسوا لبسة الصوفية، لينتسبوا بها الى الصوفية، وما هم من الصوفية بشيء، بل في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيًا تارة ودعوى تارة أخرى، وينتهجون مناهج اهل الإباحة، ويزعمون ان ضمائرهم خلصت الى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد.»(٢)

يقول محمد بن ابي الحسن الشيباني المقدسي، المعروف بابن القيسراني عن الملامتية: «زعمت أنها أصلحت بواطنها وافسدت ظواهرها وهذه طريقة مخوفة نهى الشرع عن سلوكها. فأقل ما تركت هذه الطائفة من طريقة اهل الصفة حفظ الآداب، وأجلّ ما تركت في سلوكها هذه الحجة ترك أوامر الشريعة ونواهيها»(٣)

وأما ابن عربي فيقول: «فحبس تعالى ظواهرهم في خيمات العادات والعبادات من الاعمال الظاهرة، والمثابرة على الفرائض منها، والنوافل، فلا يُعرفون بخرق عادة، فلا يُعظمون، ولا يشار اليهم بالصلاح الذي في عرف العامة، مع كونهم لا يكون منهم اليهم بالصلاح الذي في عرف العامة، مع كونهم لا يكون منهم فساد. فهم: الاخفياء الابرياء الامناء في العالم، الغامضون في الناس، ولا يدوم التجلي إلاّ لهذه الطائفة على الخصوص، فهم مع الحق في الدنيا والاخرة على ما ذكرناه من دوام التجلي.»(٤)

١- المصدر نفسه ص ٤٢

٢- «عوارف المعارف» ص ١٥٨ و١٥٩.

٣- «صفوة التصوف» ص ٩٧.

٤- «الفتوحات المكية» مجلد ١ ص ٢٨٦.

ثم يقول ابن عربي: «اعلم، أيَّدك الله، ان هذا الباب يتضمن ذكر عباد الله المسمّين بالملامتية، وهم الرجال الذين حلوا في الولاية في اقصى درجاتها، وما فوقهم إلاّ درجة النبوة، وهذا ما يسمى، مقام القربة في الولاية.[1]

١٤- الطريقة العيساوية.

اسسها محمد بن عيسى الذي ولد عام ٨٧٢هـ في مدينة فاس من المغرب وتوفي فيها عام ٩٣٣هـ واخذ علوم الدين والتصوف عن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي ولبس الخرقة الصوفية عن يده، كما صحب الشيخ الصوفي المعروف ابا العباس احمد بن عمر الحارثي المكناسي[2] صاحب محمد بن سليمان الجزولي.

وسار من مدينة فاس الى مدينة مراكش حيث صحب الشيخ عبد العزيز التباع واكمل دراسته على يده حتى اصبح من الشيوخ الكبار وصار له العديد من المريدين يأخذون علم التصوف عن يده، وفي مراكش اشتهر بالكرامات والتقوى والصرامة في تطبيق الشريعة والاصرار على حصر علوم التصوف بالكتاب والسنة.

«وفي كتابه، «اعلام الناس»، ينتقد عبد الرحمن بن زيدان اتباع الطريقة العيساوية لما يأتونه من البدع والمنكرات، وما كانوا عليه من وحشية الطباع ومخالفتهم لاصول الشريعة والطريقة معا، بحيث كانوا يأتون في قلب الزاوية باعمال مزرية للغاية.»[3]

١- المصدر نفسه مجلد ١ ص ١٨١.

٢- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ٥٥٢.

٣- «الصوفية في نظر الاسلام». سميح عاطف الزين ص ٥٥٢.

وفي مدينة تونس زاوية كبيرة من اكبر وافخم الزوايا تدعى زاوية شيحة بناها الشيخ علي شيحة بمساعدة الوزير مصطفى خزندار الذي كان من اتباعه.

١٥- الطريقة البيومية.

انشأ هذه الطريقة علي بن حجازي بن محمد الشافعي، ولقبه البيومي نسبة الى بلدة بيوم التي ولد فيها عام ١١٠٨هـ وتلقى علوم الدين عن يد الشيخ عبد الرحمن الحلبي حفيد الشيخ علي الحلبي (توفي عام ١٠٤٤هـ).

سكن علي الحجازي في الزاوية الخلواتية في سيدي دمرداش في القاهرة، وكان على الطريقة الاحمدية، حتى بلغ من العمر ثلاثين سنة، التحق بالفرع الحلبية من الطريقة البداوية التي كان يرأسها استاذه عبد الرحمن الحلبي.

كان هدف علي البيومي ان يرجع الطريقة البدوية الى نقائها العقائدي السابق ومسلكها القديم ولكن اتباعه، وكان لهم فيه اعتقاد عظيم، اعتبروه وليّا لطريقة جديدة، كما وجد انه من الانسب خلق طريقة جديدة بدلاً من احياء طريقة على شفا الاندثار، ولكنه احتفظ بالخرقة البدوية الحمراء والانتساب الى السلسلة البدوية نفسها كي تبقى الطريقة البدوية قاعدة لطريقته الجديدة.[١]

يقول المستشرق «Le Chatelier» ان البيومي احتفظ بالتقليد البدوي، ان على المريدين والاتباع ترديد «يا الله» مع احناء الرأس وضم اليدين والتصفيق باليدين.[٢]

١- The Sufi Orders in Islam . Trimingham. p. 80

٢- Le Chatelier. Les Confréries Musulmanes de Hedjaz p. 184

كان البيومي يعقد، كل يوم اربعاء، حفلات ذكر صاخبة في جامع سيدي حسين، فانكر العلماء ذلك وطلبوا طرده مع اتباعه، ولكنهم فشلوا لكونه كان على صلة حسنة مع شيخ الاسلام الشيخ الشبراوي الذي انتصر له بدعوى أن البيومي من كبار العلماء والاولياء وعرض عليه ان يعقد درسًا في جامع الازهر.(١)

كان علي البيومي كثير السفر، وخصوصًا الى مكة المكرمة، حيث اوجد فرعًا للطائفة البدوية، الذي بعد وفاته عام ١١٨٣هـ امتدت فروعه الى اليمن، حضرموت، الخليج الفارسي والهند، ولكن هذه الفروع ضعفت، حتى اندثر قسمٌ منها، بعد موت الشيخ محمد نافي، الشيخ الثالث للطائفة.

١٦ - الطريقة البيرامية(*)

انشأ الطريقة البيرامية الحاجي بيرم الانصاري الذي ينتسب الى سلسلة صافي الدين الاردبيلي، الذي ولد عام ٦٤٧هـ في مدينة اردبيل من اذربيجان (وتوفي فيها عام ٧٣٥هـ) وقيل كان يدّعي نسبته الى الامام السابع موسى الصدر ابن الامام الكبير جعفر الصادق. واوجد صفي الدين الطائفة الصفاوية الذي كان شيخها تاج الدين ابراهيم ابن روشان السنجاني، الملقب بالشيخ الزاهد الجيلاني، من ابناء مقاطعة خنبالي من الجولان من فارس (توفي عام ٦٩٠هـ) والذي كان ينتمي الى الطريقة السهروردية. وخلال انتماء الحاجي بيرم الى الطائفة الصفاوية، اخذ علوم الدين عن شيخها تاج الدين ابن روشان السنجاني.

---

١ - «الموسوعة الصوفية» ص ٧٣ و Trimingham the Sufi Oreders in islam p. 80

* هناك شكّ عند بعض المؤرّخين بنسبة البيرامية الى الطريقة الخلواتية لعلاقة مؤسسها حاجي بيرم بسلسلة صفي الدين الأردبيلي الذي ينتسب إلى السهروردية.

وقيل ان النبي عهد الى ابي بكر بالذكر الخفي الذي اختصت به البيرامية، وهو ما تأخذ به النقشبندية كذلك، وسبب ذلك هو الاصول الملامتية التي تقوم عليها الطريقتان. عندما توفي حاجي بيرم، انقسمت الطريقة الى بيرامية شمسية وشيخهم أق شمس الدين، وقد اخذ بالذكر الجلي، وهو ما عهد النبي به الى الامام الاول علي، وبيرامية ملامتية وشيخهم عمر دده البورسوي، وهؤلاء اتبعوا الطريقة الملامتية وهجروا الذكر والورد وتكيّاتهم ولم يعد لهم لباسهم المميز، وفلسفتهم تحريم إظهار التقوى وان تكون علاقة العبد بربه واخلاصه له في السر، وخافوا ان يكون تعبدهم نفاقًا او للمظهرية، فأخفوه عن الناس وظهروا بمظهر غير المتدينين او الذين لا اعتبار لهم للدين.(١)

ومن اقوال البيرامية، ان الافعال هي كشف لصفات الله، وان الصفات وقد فنيت في صفات الله، فلم يعد غير صفات الحق التي هي تجليات لذاته، فإن الوجود يبقى من حقيقته واحد، وكل الاعيان في الوجود موجودة في علم الله، وهي توحيد الذات، وفناء كل الذوات في ذات الله تعالى.(٢)

ويذكر المستشرق Trimingham الفروع الرئيسية للبيرامية حسب التسلسل التالي(٣):

١- الشمسية

اوجدها أق شمس الدين محمد ابن حمزة خليفة حاجي بيرم (من عام ٧٩٢ الى ٨٦٣هـ) ينتمي الى السلسلة السهروردية من زين الدّين الخافي (توفي عام ٨٣٨هـ) شيخ الطائفة الزينية. ابنه الشاعر حمد الله شلبي، صاحب القصيدة الصوفية المشهورة، يوسف وزليخة.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٧٢.

٢- المصدر نفسه ص ٧٢.

٣- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 18

٢- الاشرفية

اوجدها عبد الله بن اشرف بن محمد (توفي عام ٨٧٤هـ). كان شاعرًا مشهورًا عُرف باسم اشرف اوغلو رومي.

٣- الشقية

اوجدها حسن حسام الدين الشقي (توفي في استنبول عام ١٠٠١هـ)

٤- ملامية - بيرامية

اوجدها عمر سكيني من مدينة بورصة. (توفي عام ٩٦١هـ.)

٥- بيرامية - شطارية

٦- جلواتية

اوجدها عزيز محمد جلواتي (توفي عام ٩٨٨هـ) ونشرها محمد هودائي (٩٥٠ - ١٠٣٨هـ) وتدعى احيانًا الطائفة الهدائية.

نقل الطائفة البيرامية الى مصر ابراهيم أبي تيمور خان ابن حمزة الملقب بالقزار (توفي عام ١٠٢٦هـ) وهو من بوسينا والذي اخذ الطريقة عن محمد الرومي.

١٧- الطريقة الكبرية (الكبراوية)

اسس الطريقة الكبراوية الشيخ الصوفي الفارسي نجم الدين كبرى (توفي عام ٦١٨هـ) ولد الشيخ نجم الدين في بلدة خيفا، من خوارزم، ولكنه عاش معظم حياته في مصر. قُتل عام ٦١٨هـ في غارة للمغول في خوارزم.[١]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٣٦، عبد المنعم الحفني.

صحب نجم الدين الشيخ الفارسي المولد روزبهان الوزّان المصري (توفي عام ٥٨٤هـ) واخذ عنه علوم الدين ولبس عن يده الخرقة الصوفية. كان روزبهان تلميذ الشيخ الكبير ابو نجيب السهروردي، كما صحب الشيخ بابا فرج التبريزي.[١]

من اساتذة نجم الدين كبرى، كان الشيخ عمار ابن ياسر البدليسي (توفي عام ٥٩٧هـ) الذي البسه خرقة التبارك وجعله من تلاميذه المقربين.

في آخر حقبة من حياته، سار نجم الدين الى موطنه خوارزم حيث بنى خانقاه كانت ملاذاً لكثير من المريدين الذين تحلقوا حوله، بما فيهم الشيخ مجد الدين البغدادي (توفي عام ٦١٦هـ) الذي كان شيخ الشاعر الفارسي الصوفي فريد الدين العطار، وبهاء الدين ولد والد الشاعر جلال الدين الرومي ومؤسس الطريقة المولوية، وجمال الدين الجيلاني وغيرهم.

اشتُقّ من طريقة الكبراوية فروعٌ عديدة، معظمها ترجع الى تلميذه مجد الدين البغدادي، الذي عُرف بنشاطه واندفاعه في نشر الطريقة، ومن هذه الفروع:[٢]

١- الطريقة الفردوسية

نشر هذه الطريقة الهندية، الشيخ بدر الدين الفردوسي، وكان الذي ادخلها الى الهند، الشيخ نجيب الدين محمد (توفي عام ٧٠٠هـ)

٢- الطريقة النورية

انشأها في بغداد الشيخ نور الدين عبد الرحمن الاصفرائيني (توفي عام ٧١٧ هجري.)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٣٦.

٢- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 55

٣- الطريقة الركنية

انشأها في خراسان الشيخ ركن الدين ابو المكارم احمد ابن شرف الدين، المعروف باسم علاء الدولة السمناني[١] ولد عام ٦٥٩هـ في سمنان من فارس (وتوفي عام ٧٣٦هـ). عُرف بتكفيره ابن عربي. من مؤلفاته «الفلاح لاهل الصلاح» «العروة لاهل الخلوة» و«صفوة العروة» «وتحفة السالكين»

٤- الطريقة الحمدانية

هي فرع من الطريقة الركنية، تأسست في كشمير على يد الشيخ علي ابن شهاب الدين بن محمد الحمداني (توفي عام ٧٨٦هـ) وقبره في مدينة خوتان من تاجستان. وقيل ان الشيخ علي الحمداني قدم الى كشمير وبرفقته سبعمائة صوفي فرّوا خوفًا من جيش تيمورلنك المغولي، كما قدم لاحقًا ثلاثمائة صوفي برفقة ابنه الامير محمد الحمداني[٢]

٥- الطريقة الاغتشاشية

اسسها الشيخ اسحق الخطلاني في خراسان قيل انه قُتل عام ٨٢٦هـ بيد رجال الشاه روخ. كان الشيخ اسحق تلميذًا للشيخ علي الحمداني الذي اوجد تلميذه عبد الله برزيشيدي المشهدي الفرقة الشيعية المعروفة «بالذهبية» التي استوطنت مدينة شيراز من فارس.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٠٧، عبد المنعم الحفني.

٢- «تاريخ الرشيدين» ترجمة دنيسون روس. ليدن عام ١٨٩٥م. ص ٤٣٢.

٦- الطريقة النوربخشية

اوجدها الشيخ محمد ابن عبد الله الملقب نوربخش (توفي عام ٨٦٩هـ) وهو تلميذ الشيخ اسحق الخطلاني. كان محمد نوربخش شيعيًا يدعو لال البيت، فنتج من تعاليمه فرقتان، النوربخشية، وكان يرأسها قاسم فايد بخش ابن الشيخ محمد، والفرقة اللهجية التي كان يرأسها شمس الدين اللهجاني (توفي عام ٩١٢هـ)، وشمس الدين بنى خانقاه للصوفية في مدينة شيراز من فارس، ثم وجدت طريقة صغيرة عائلية سميت الايكانية اسسها الشيخ كمال ايكاني.

١٨- الطريقة الحكيمية او الترمزية

هي فرقة صغيرة تقوم على اعتبار الولاية هي الاساس، والولاية عند الشيعة هي تتمة النبوة، وهي كما ينظر مشايخ التصوف، رتبة ومصدر العرفان. اسس هذه الطريقة في مدينة بلخ من فارس الصوفي المشهور ابو عبد الله بن علي الحكيم الترمذي.

يقول الحكيم الترمذي عن الولاية: «لله تعالى اولياء اصطفاهم من بين الخلق، وقد انقطعت همتهم عن المتعلقات وتنصلوا من قبول دعاوي النفس والهوى، واقام كلاً على درجة، وفتح عليهم بابًا من المعاني».[١]

ثار عليه اهل بلده ترمذ واتهموه بالالحاد لقوله ان الولاية خير من النبوة، وطردوه من بلدهم، فسار الى مدينة بلخ، وكان بلغ التسعين من عمره، حيث استقبل بالترحاب لموافقة رأيه لعموم ارائهم في كتابه «ختم الولاية وعلل الشريعة» فاجتمع عليه اهلها وكثر اشياعه والتف حوله العديد من المريدين، ومن اقواله «للاولياء خاتم كما ان للانبياء خاتم وهو خاتم الاولياء.»

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٧٨، عبد المنعم الحفني.

١٩- الطريقة الجلواتية

طريقة صغيرة صوفية تركية اسسها الشيخ عزيز محمود هدائي الاسكوداري. الجلواتية مرحلة تأتي بعد الخلوة. فالخلواتي الذي ينزع عن نفسه الانانية ويصبح مع الله تتحقق له الخلوة، والجلواتي لا يبلغ هذه الدرجة إلاّ اذا صار خلواتيًا.(١)

ينسب بعض المؤرخين الطريقة الجلواتية الى الطريقة البيرامية بسبب تأثر عزيز هدائي بافكار حاجي بيرم.

ولد عزيز هدائي عام ٩٥٠هـ في مدينة قونية وتلقى علومه في مدينة ادرنه، ثم سافر الى دمشق ومنها سار الى القاهرة حيث صاحب الشيخ كريم الدين الخلواتي واخذ عنه علم التصوف. ومن القاهرة رجع الى تركيا واستقر في استنبول حيث اسس الطريقة الجلواتية.

والجلواتية طريقة تعتمد الذكر، ويكون بالاسماء السبعة من اسماء الله الحسنى، ويختار شيخ الطريقة للمريد الاسماء التي عليه ان تكون بها اذكاره، بالاضافة الى الصلوات والصيام من النوافل الخاصة بالطريقة.(٢)

٢٠- الطريقة الجشتية الهندية

قيل ان مؤسس الطريقة الجشتية هو الشيخ احمد ابدال الجشتي، ولد عام ٥٣٧هـ في بلدة جشت في خراسان من فارس، (وتوفي عام ٦٣٣هـ) في بلدة اجمير من الهند. كان لقبه «شمس مملكة الهند».

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٠٥.

٢- «الموسوعة الصوفية» ص ١٠٥.

كان الشيخ احمد كثير السفر حتى وصل بغداد حيث صاحب الصوفي الشيخ نجم كبرى، مؤسس الطريقة الكبراوية، وشهاب الدين السهروردي، المؤسس الفعلي للطريقة السهروردية، اذ كان عمه ابو نجيب بدأ بانشائها قبل وفاته عام ٥٦٣هـ. ومن بغداد سار عام ٥٨٩هـ الى مدينة دلهي في الهند، التي كانت في ذلك الزمن باسم دهلي[١] ومنها انتقل الى بلدة «اجمير» (وتوفي فيها عام ٦٣٣هـ[٢]) وقبره مزار يؤمه الناس للبركة.

بعد وفاة نجم الدين خلفه على الطريقة خواجه قطب الدين باختيار ثم بابا فريد سكر كنج، وكان لفريد مريدان احدهما علي احمد صابر واتباعه يعرفون باسم «صابر جشتي»، والاخر نظام الدين اولياء، ويسمى اتباعه باسم «نظامي» ومنهم نصير الدين محمود بن يحيى يزدي اودهي، الملقب جراغ دهلي، اي نور دهلي وكان من ابرز مريدي الشيخ نظام الدين.[٣]

والجشتية يركزون في الذكر على الشهادة ويؤكدون على – إلاّ الله – ويترنمون في صلاتهم، ويلبسون الثياب المصبوغة بلحاء شجر السنط، ومن شعائر الدخول في الطريقة ان المريد يصلي اولاً ركعتين، ثم تُؤخذ عليه التوبة، ويلقن معاني كلمات مثل الفقر والقناعة والرياضة، ويكشف له عن اسم من اسماء الله. ثم يحرم عليه من بعد ذلك تعاطي المسكرات او المخدرات.[٤]

خلع الشيخ نظام الدين على الشيخ جراغ دهلي الخرقة الصوفية، وكان نهج جراغ دهلي، الفقر والتسليم لله والرضا بامره، وقيل انه بقي عازبًا طول حياته، وعندما توفي عام ٧٥٧هـ لم يستخلف احدًا وبذلك انتهت الطريقة الجشتية في الهند بانتهاء ائمتها.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ١٠٣، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ١٠٣.
٣- المصدر نفسه ص ١٠٣
٤- المصدر نفسه ص ١٠٣ (بتصرف).

٢١- الطريقة اليونيسية

اسس الطريقة اليونيسية الشيخ يونس ابن يوسف ابن مساعيد الشيباني وكان لقبه المجذوب، اي المجذوب الى الله لزهده وتقشفه. توفي الشيخ يونس عام ٦١٩هـ في بلدة قنيعة من منطقة درعا من قضاء حوران ودفن بها.

بعد وفاة الشيخ يونس خلفه على الطريقة حفيده الشيخ سيف الدين راجحي بن سابق بن هلال بن يونس، الذي انتقل الى دمشق حيث جعل زاويته قصر الوزير امين الدولة في الغوطة واسس لها فرعًا في مدينة القدس[١]

٢٢- الطريقة الشابية

صاحب هذه الطريقة الشيخ احمد بن مخلوف، نشأ في بلدة الشابة في شمال افريقيا وانتقل الى تونس طلبًا للعلم فقضى فيها اعوامًا.[٢] توفي الشيخ احمد مخلوف عام ٨٠٣هـ فخلفه على المشيخة ابنه محمد الكبير، إلاّ انه توفي بعد ابيه بثلاث سنوات، فخلفه من بعده اخوه الشيخ عرفة.[٣] الذي توفي عام ٩٤٩ هجري.

صحب الشيخ احمد بن مخلوف احمد بن عروس ولما اختلف معه صحب الشيخ علي المحجوب، ثم انتقل الى مدينة القيروان، فاقام في جامع «الدوار» حيث التف حوله العديد من المريدين يتلقون عنه علوم الدين والصوفية.

١- The Sufi Orders in Islam Trimingham p. 15

٢- «الصوفية في نظر الاسلام» سميح عاطف الزين ص ٥٥٣

٣- المصدر نفسه ص ٥٥٤.

بعد وفاة الشيخ احمد وابنه محمد، ترأس الطريقة اخوه الشيخ عرفة الذي كان على عداوة مع سكان القيروان. فلما حاول اخوه استلام مقاليد الزعامة، هاجمه القائد التركي دارغوث باشا وقتله، وظلت جنود الاتراك تطارد الشابيين حتى تفرقوا في عدة بلدان، ثم عادوا واستقروا بضاحية من مدينة «توزر» حيث اشتهر كثيرون منهم بالعلم والادب[١]

٢٢- الطريقة السنوسية

اسس الطريقة السنوسية محمد بن علي السنوسي الخطبي الحسيني الادريسي. ولد السنوسي عام ١٢٠٢هـ في بلدة «مستغانم» في الجزائر وتوفي عام ١٢٧٢هـ في واحة جغبوب في الصحراء الجزائرية.

يقول الدكتور الحفني: «اسم السنوسي نسبة الى قبيلة بني سنوس من قبائل تلمسان التي نزل عليها جده فنسب اليها، وتعزى الى جبل هناك يسمى أسنوس. ولقبه الخطابي من جده خطاب بن يحيى، وكانت الاسرة تعرف باسم آل خطاب، ولقبه الادريسي من الادارسة الذين ينتسب اليهم والذي اسس جدهم ادريس الاكبر دولة في المغرب الاقصى.»[٢]

سار محمد بن علي السنوسي الى مدينة فاس طلبا للعلم، وكانت فاس مجمعًا للفرق الصوفية ومنارة لعلومهم، وكان بها الطرق القادرية، الشاذلية، الجازولية، والتيجانية، والدرقاوية والناصرية والجيبية وغيرها[٣]. ومن فاس رحل الى القاهرة لفترة قصيرة ثم غادرها الى مكة لنقص الدراسات الصوفية في الأَزهر[٤]. وفي مكة التقى بالشيخ احمد بن ادريس الملقب بابي العباس العرائشي واخذ عنه التصوف.

١- «الصوفية في نظر الاسلام» ص ٥٥٤.
٢- «الموسوعة الصوفية» ص ٢١٠، عبد المنعم الحفني.
٣- المصدر نفسه ص ٢١٠.
٤- المصدر نفسه ص ٢١٠.

بنى زاوية للصوفية في جبل ابي قبيس في مكّة والتف حوله المريدون الذين كان يفرض عليهم العبادة والنسك الشديدين والتمسك الصارم بالقرآن والسنة ويشجعهم على السفر في البلاد الاسلامية لينشروا الاسلام ويقيمون المجتمع الاسلامي ومحاربة البدع والافكار الغريبة التي انتشرت بتشجيع من القوى الاستعمارية في ذلك الزمن.

وفي مكة نجح في استقطاب المريدين، خصوصًا الوافدين من الاقطار الاسلامية، ولكن فشل في مقاومة العلماء التقليديين المتزمتين، بالاضافة الى عائلة الميرغني صاحبة النفوذ الواسع التي لم تنظر بعين الارتياح الى وجود ادريسي في مكة يزاحمهم على السلطة والنفوذ.

ترك السنوسي عام ١٢٥٦هـ مكة ورجع الى برقة حيث بنى الزاوية البيضاء في الجبل الاخضر، فكثر تلاميذه وانتشرت طريقته بسرعة، ولكن اضطر، لارتياب الحكومة من نواياه، الى الانتقال الى واحة جغبوب حيث بقي فيها حتى وفاته عام ١٢٧٦هـ «تحولت جغبوب بعد انتقاله اليها الى مركز تعليمي بسبب مسجدها ومدرستها ومكتبتها التي اسسها السنوسي، واصبحت مركزًا لتعليم مريدي الطريقة وتخريج الدعاة.»(١)

بعد وفاة محمد بن علي السنوسي خلفه ابنه محمد المهدي، ولد عام ١٢٦٠ وتوفي عام ١٣٢٠ هجري الذي اعتنى في بناء الزوايا وانتشرت على طريق مصر وطريق تونس والصحراء الليبية والتونسية. ولما خشي الغزو الاجنبي ترك واحة جغبوب وانتقل الى واحة الكفرة ثم الى قرو في الصحراء الافريقية.(٢)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢١١، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٢١١.

كانت السنوسية تعتمد في كل نشاطاتها على الزاوية حيث كان يجتمع الشيخ مع مريديه لتعليمهم القرآن وتدريس علوم التصوف. «وكان للزاوية بيوت للضيافة ومساكن للخدم ومخازن لحفظ المؤن، وفرن وغرفة خاصة للفقراء الذين لا مأوى لهم، ولها اراضي موقوفة عليها لاتباع ولا تشترى.»(١)

وكان السنوسي يقول: ان اعمال الصوفية موزونة بميزان الشريعة. وتجمع السنوسية بين الطريقتين البرهانية والاشراقية كأسلوب للوصول الى الكمال(٢). الاشراقية دأب متصوفوها على تصفية النفوس من الاكدار وتوجيهها نحو الحق لنهج المعارف والاسرار بدون تعلم ولا تعليم من باب اتقوا الله ويعلمكم الله. اما البرهانية فدأب متصوفوها على اتباع الاوامر واجتناب النواهي واقتباس العلوم الاربعة التي هي علوم الذات والصفات والفقه والحديث والدلات. والطريقة السنوسية جامعة بينهما.(٣)

عند وفاة محمد المهدي تولى المشيخة حفيده احمد الشريف بن محمد الذي عند وفاته انتقلت المشيخة الى اخيه الشريف الرضا. بعد الحرب العالمية الثانية استقلت ليبيا وعُيِّن الشيخ محمد ادريس ملكًا للقطر الليبي.

٢٤ــ الطريقة الاباحية

رفض اهل التصوف هذه الفرقة وقالوا بعدم اهليتها كي تدعى طريقة صوفية، فهي فئة من المندسين في الصوفية، قالوا ان لا موجب للخوف من عقاب الله ولا وجه لحرمان النفس مرادها، بل تترك على سجيتها، فالله مستغن عن اعمالنا وغير متأثر بها، سواء في المعصية والمحرمات ام الطاعة لفروضه وآياته.

١ــ المصدر نفسه ص ٢١٢.

٢ــ المصدر نفسه ص ٢١٢.

٣ــ«الموسوعة الصوفية» ص ٢١٢ و٢١٣.

يقول الدكتور الحفني: «وزعموا ان الله هو الرحمن الرحيم، والرحمة اليق به، فلا موجب للخوف من العقاب او العذاب، ولا وجه لحرمان النفوس والاجسام مراداتها.»[١] ثم يقول: «فقالوا اذن لا نبالي بما يصدر منا، سواء كان مع الشرع او ليس معه، لان الشرع للعوام، ولو قد بلغوا مبلغنا، وحققوا ما حققنا، وتجوهروا كما تجوهرنا، لسقطت عنهم الاوامر النهي»[٢]

كان شيخهم ابن خفيف البغدادي، شيخ الصوفية في شيراز ويحضر حلقته الالوف من الناس فيستغوي الضعفاء ويقودهم الى طريقته بتشجيعهم على الاباحية واقتراف الموبقات وما حرّمه الله تعالى.

٢٥ – الطريقة المحمدية الأحمدية

أوجد هذه الطريقة الشيخ ابو العباس احمد بن ادريس بن محمد بن علي[٣] وهو من الشرفاء يرجع نسبه الى الامام الحسن بن علي بن ابي طالب. وُلد ابو العباس عام ١١٧٢هـ. في بلدة «ميسور» قرب مدينة فاس بالمغرب العربي.

نشأ ابو العباس في بلدة «ميسور» ثم سار الى فاس، مدينة العلم والصوفية حيث اخذ علوم الدين عن الشيخ ابو المواهب التازي، شيخ الطريقة القادرية في المغرب كما اخذ علم التصوف ولبس الخرقة الصوفية عن يد الشيخ ابو قاسم الوزير.

قدم ابو العباس عام ١٢١٤هـ مصر وسكن القاهرة لمتابعة دراسته العلوم الدينية، ثم انتقل من القاهرة الى بلدة «زينية» في الصعيد حيث اعتزل الناس وامضى وقته من الدرس والعبادة.

---

١ – «الموسوعة الصوفية» ص ٨، عبد المنعم الحفني.
٢ – المصدر نفسه ص ٩
٣ – Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 114

سار أبو العباس عام ١٢٣٤هـ الى مكة حيث ا ستقر بها اربع عشرة سنة يدعو الناس الى التمسك بالقرآن والسنة الشريفة، ولكن في الوقت نفسه، اعتمد الباطنية ولكن بحذر شديد وتستر كامل بسبب الحضور الوهابي وسيطرة علماء الدين على الحكم.

التف حول ابي العباس الكثير من المريدين، جذبتهم طلاقته في الحديث وغزارة علمه ودعوته الى التمسك بالقرآن والسنة، وفي غضون وقت قصير صار لابي العباس شهرة واسعة في مكة اثارت غضب العلماء فاتهموه بالكفر، لقوله بالباطنية، وانه علوي يرجع نسبه الى آل البيت، مما اضطره لمغادرة مكة الى اليمن حيث استقر تسع سنوات في مدينة «زبيد» حتى توفي عام ١٢٥٣هـ ودفن في قرية «صبيا»[١]

اوجد ابو العباس احمد بن ادريس طريقته في مكة، واطلق عليها اسم الطريقة المحمدية، نسبة الى اسم الرسول الكريم.

نبذت الطريقة المحمدية – الاحمدية المتطورة الزهد والذكر وهجروا الزوايا، واصبحت علاقة المريد بالمرشد يشوبها التراخي، وعدم الانصياع الصارم لتعليمات الشيخ، وفقدان الانضباط السلوكي الصوفي، ولكن بالرغم من ذلك، وبالاضافة الى التشدد الوهابي فقد تمكنت الطريقة من استقطاب العديد من المريدين والتابعين.

يقول الدكتور الحفني: «واخذ عنه فضلاء وقته، مثل محمد السنوسي، صاحب الجبل الاخضر، ومحمد حسن المدني، والسيد عثمان المرغني، والشيخ المجدوب السواكني وابراهيم الرشيد، وله مؤلفات ومجالس علمية ككتاب «العقد النفيس في نظم جواهر التدريس.» «والصلوات المسماة بالمحامد الثمانية[٢]».

١– «الموسوعة الصوفية» ص ١٤، عبد المنعم الحفني.

٢– المصدر نفسه ص ١٤.

يقول الشيخ عثمان المرغني: «ان طريقة ابو العباس بن ادريس، تأخذ من الطريقة النقشبندية والطريقة الشاذلية، واطلق عليها اسم الاحمدية نسبة الى ذاته، ومبناها وسلوكها هو الاقبال بالكلية على تدبر معاني كتاب الله، والتعرض لنفحات اسرار علومه ولطائف رقائقه وفهومه، واتباع الكتاب والسنة.»[1]

ويقول ابو العباس: «ان التصوف هو تجريد القلب لله تعالى، هو علم الوراثة الذي نتيجته العمل المشار اليه بحديث. فمن عمل بما علم اورثه الله علم ما لم يعلم، وهذه الطريقة تسمى محمدية، ووجه اختصاصها بالانتساب الى النبي «صلعم»، فمع ان الكل يرجع اليه ومستمد منه، إلاّ أن صاحبها، بعد تصحيح بدايته وسلوكه على مناهج الاستقامة المبينة في الكتاب والسنة، يشتغل بالصلاة على النبي.»[2]

وما يتعلق بالانكار من طريقته ما يسميه «التهليل والعظيمية» وصيغته «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس، عدد ما وسعه علم الله.»[3]

انتشرت الطريقة المحمدية في اليمن، والحجاز، ومصر، والشام والهند وحضرموت والسودان وجيبوتي والحبشة، وجاوه، والمغرب وليبيا والصومال[4]

١- المصدر نفسه ص ١٥.
٢- «الموسوعة الصوفية» ص ١٥.
٣- المصدر نفسه ص ١٥.
٤- المصدر نفسه ص ١٤.

٢٦- الطريقة الاويسية

نسبت الشيعة الايرانية هذه الطريقة الى الزاهد اويس القرني، وهذه النسبة هي من تقاليد بعض اصحاب الطرق الصوفية في نسب طريقتهم الى احد الصحابة كابي بكر الصديق، وعمر ابن الخطّاب والامام الاول علي بن ابي طالب، فنسبت الشيعة الايرانية هذه الطريقة الصوفية الى اويس القرني وهو من اوائل الزهاد المسلمين، وبالرغم من انه لم يكن من الصحابة ولكن قال عنه الرسول الكريم «اويس القرني خير التابعين بإحسان.»

اسس هذه الطريقة الصغيرة الشيخ ابو الفتح سراج الدين محمود بن محمود الصابوني الذي قدم الى مصر ليتلقى علوم الدين عن الاسماعيلية ويلتحق بالدعاة ويكون من المرشدين[١]

وكان من مريدي أبي الفتح سراج حافظ الشيرازي، نجم الدين كبرى مؤسس الطريقة الكبراوية، وبهاء الدين ولد ابو الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي، والشاعر فريد الدين العطار صاحب ديوان منطق الطير، وابو حفص شهاب الدين السهروردي صاحب كتاب عوارف المعارف، وغيرهم من اهل التصوف.

ومن شيوخ الطريقة الاويسية المعروفين: السمناني (٦٥٠ - ٧٣٦هـ) ومن مؤلفاته: - الفوائد من التصوف - ختام المسك - سر السماع وبيان الاحسان لاهل العرفان وغيرها، والشيخ محمد نور الدين بخش (٧٩٥ - ٨٦٩هـ) الذي لُقب نوربخش، اي واهب النور، الذي الّف كتاب سلسلة الذهب وكتاب رسالة مكارم الاخلاق.[٢]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٣، عبد المنعم الحفني.
٢- المصدر نفسه ص ٣٤.

٢٧- الطريقة المرغانية

بعد وفاة الشيخ ابي العباس احمد الادريسي تفرعت الطريقة المحمدية - الاحمدية الى طريقتين:

١- الطريقة السنوسية،

كما قلنا سابقًا، اتبعت الطريقة السنوسية الطريقة التيجانية في منع الموسيقى والرقص، وفرضت انشاد الذكر بخشوع وتأمل وانزوى الاخوان في الزوايا للعبادة يعيشون من عمل ايديهم في الزراعة وتربية الماشية.(١) اما المراغنة فكانوا على عكس ذلك، يحبذون الموسيقى والرقص، لا يؤمون الزوايا، بل يعيشون متجولين يعرضون خدماتهم لمن يدفع اجرها.(٢)

الشيخ محمد ابن علي السنوسي بنى زاوية على جبل ابو قبيس على مقربة من الكعبة وارسل دعاته لنشر دعوته، ولكنه لم يتمكن من التغلب على نفوذ المرغانية في مكة وهم من ابنائها، او مقاومة العلماء، فغادر مكة الى اليمن حيث استقر فيها الى ان توفي عام ١٢٥٣هـ.

٢- الطريقة المرغانية

اما الطريقة المرغانية(٣) في مكة فقد ادعت ان نسبها يرجع الى الرسول الكريم، فانضموا الى عائلات الاشراف، وهي عائلات نبيلة ترجع في نسبها الى قريش عائلة الرسول الكريم، وانطلقوا في الدعاية الى طريقتهم.(٤)

١- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 116

٢- المصدر نفسه ص ١١٦.

٣- بعض المؤرخين يطلقون على السنوسية والمرغانية لقب طائفة وليس طريقة على انهما تجمعات من الصوفية وليس مؤسسات.

٤- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 117

كان الشيخ احمد بن ادريس ارسل الشيخ عبد الله العثمان المرغني الى مصر داعيًا للطريقة المحمدية، وذلك قبل استيلاء محمد علي الالباني على الحكم، فلم يوفق في عمله، ولكنه تزوج من سيدة سودانية ولدت له ابنه الحسن الذي تمكن لاحقًا من تأسيس الطائفة المرغانية في شرق السودان(١)

بعد وفاة احمد بن ا دريس في «صبيا» من اليمن، وكان برفقته عبد الله العثمان المرغني، الذي رجع الى مكة، وبالرغم من معارضة محمد السنوسي وابراهيم الرشيد، على من يستلم خلافة الطريقة المحمدية، وعندما استتب له الامر، ارسل اولاده الى مصر والسودان، وجنوبي الجزيرة العربية حيث اسسوا فروعًا ثانوية للطريقة، وذلك قبل وفاته عام ١٢٦٨هـ في مدينة الطائف.

٢٨- الطريقة الرحمانية

فرع من الطريقة الخلواتية المشرقية اوجدها الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجوشلي الجرجوري وكنيته ابو عبد الله. ولد الجرجوري عام ١١٢٨هـ وتوفي عام ١٢٠٨ هجري. اخذ علم التصوف ولبس الخرقة عن يد الشيخ الحفنيسي.(٢)

انتشرت هذه الطريقة الصغيرة في الجزائر وتونس وعُرفت بكثرة الزوايا ومن ابرزها الزاوية المركزية في الجزائر وشيخها البشير المغربي الذي كان صديقًا للامير عبد القادر الجزائري، وكذلك الزاوية التي بناها الشيخ محمد البشير (توفي عام ١٢٤٢هـ) الذي كان عالمًا بالحديث والفقه الذي انتحى في زاويته متجردًا للعبادة حتى عظم في قلوب الناس فكانوا يتبركون بثيابه وزيارة زاويته.

١- Trimingham the Sufi Orders in Islam p. 117

٢- المصدر نفسه ص ١١٧.

وكان للرحمانية زوايا عديدة في تونس منها زاوية عين الصابون المشهورة بناها الشيخ محمد الصالح العمراني، وزاوية الشيخ بن عيسى بمدينة «الكاف» وزاوية بن عزوز في بلدة «نفطة» بناها الشيخ مصطفى بن عزوز.

٢٩- الطريقة البابائية

اوجدها الشيخ الصوفي بابا اسحق الكفرسودي التركماني وكانت طريقة شيعية حيث كان شعارها «لا اله إلاّ الله البابا ولي الله» وقد زعم البابائية انهم يقتدون بالخلفاء الراشدين ولذلك فقد اطلق البابا على نفسه لقب امير المؤمنين[١]

يقول مؤرخو الطريقة، ان مؤسسها كان صوفيًا يتخذ المجاهدة والشعبذة، وأنه كان يتعاطى السياسة ويستولي على عقول اتباعه بأن يمنيهم بحياة افضل تحت زعامته الروحية، وقد اصطدمت الحركة بالسلطة، وأسر البابا وزميله وقيل قُتل أحدهما او قُتل الاثنان، او ان بابا اسحق اغتيل قبل المعركة الفاصلة، وقُتل اصحابه جميعًا عن بكرة ابيهم[٢]

ويقول الدكتور كامل الشيبي: «ان هذه الطريقة كانت ذات اتصال بالتشيع الغالي، وان بكتاش، مؤسس الطريقة البكتاشية، التي انتشرت في الاناضول كان من اتباع بابا اسحق، او أنه كان من اعوان بابا الياس وهاجر مثله من خراسان الى تركيا امام زحف التتار.»[٣] البابا الياس هو الذي اعاد وجود الطريقة بعد مقتل بابا اسحاق.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٦، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٣٦.

٣- «الحياة الروحية في الاسلام».

٣٠- الطريقة العلوية

اوجد هذه الطريقة في حضرموت الشيخ محمد بن محمد بن علي بن محمد العلوي وهو من عشيرة باعلوي المشهورة ومنها الكثيرون من الصوفية، خصوصًا في قرى «تريم» في حضرموت. وُلد الشيخ محمد العلوي عام ٥٧٤هـ وتوفي عام ٦٥٣ هجري.

يقول الدكتور الحفني عن محمد العلوي «ان نسبه يرجع الى الامام علي بن ابي طالب، وآل العلوي اشراف من آل البيت»[١]

كان الشيخ محمد العلوي من مشايخ صوفية الجزيرة العربية وله رسائل كثيرة منها: «بدائع علوم المكاشفات والتجليات» وكان اول من ادخل التحكم الصوفي في حضرموت[٢]

اخذ الشيخ محمد العلوي علوم الدين والتصوف عن يد الشيخ عبد الله صالح بن علي المغربي، والشيخ عبد الرحمن المقعد الحضرمي، اللذين تأثرا باقوال الشيخ الصوفي المعروف ابي مدين شعيب بن الحسين التلمساني.[٣]

اتى على ذكر آل علوي محمد ابن ابو بكر الشلبي في كتابه «المشرع» واورد اكثر من ٢٨٠ سيرة لافراد منهم، ووصفهم بالعلم والتقوى.[٤]

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩، عبد المنعم الحفني.

٢- Die Cufilen in Sud-ArabienF. Wustenfield p. 5

٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩، عبد المنعم الحفني.

٤- هناك لائحة مفصلة باسماء ومؤلفات آل علوي في الموسوعة الصوفية ص ٣٩، عبد المنعم الحفني.

٣١- الطريقة البراقية

طريقة الصوفي التركي برّاق بابا الذي اخذ التصوف عن الشيخ الصوفي صاري سلتوق. ولد براق بابا في تركيا ثم نزح الى ايران وفي عام ٧٠٦هـ قدم دمشق مع فريق من اتباعه حيث لفتوا الانظار بتصرفهم الغريب ولباسهم غير المألوف.

أُطلق على هذه الطريقة لقب البراقية، وتعني بالتركي، الكلاب الجرباء، وقد رفضهم الناس لتصرفاتهم المشينة واعمالهم غير المحمودة. قتل براق بابا في ايران عام ٧٠٧هـ، وبقتله انتهت هذه الطريقة المغولية.

٣٢- الطريقة الجعفرية

اوجدها الشيخ صالح الجعفري، ولد عام ١٣٢٨هـ وتوفي عام ١٣٩٩هـ الذي اخذ علم التصوف عن الشيخ احمد بن ادريس.

ولد الجعفري في بلدة «دنقلا» في مصر ودرس في الجامع الازهر وبعد تخرجه، عيّن اماما فيه حيث انكبَّ على عبادة الله تعالى. قيل كانت له خلوة لم يغادرها إلاّ للحج الى مكة. خلفه بعد وفاته ابنه عبد الغني صالح الجعفري.

من مؤلفات الشيخ صالح الجعفري في التصوف كتاب «فتح وفيض من الله» وكتاب «المنتقى النفيس» وكتاب «مفتاح كنوز الارض والسماء» و«لوامع البروق النورانية.»

٣٣- الطريقة العيدروسية

فرع من الطريقة العلوية كانت في حضرموت اوجدها الشيخ محمد بن علي بن علوي وكان له زاوية في بلدة «يبحُر» من حضرموت. ثم بعد وفاته خلفه الشيخ ابو بكر عبد الله الشاذلي العيدروس، ولد عام ٨٥١هـ وتوفي عام ٩١٤ هجري(١) وله كتاب عن التحكيم في الصوفية «الجزء اللطيف في علم التحكيم الشريف»، خلفه على الطريقة الشيخ عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس، ولد عام ٩١٩هـ من بلدة «تريم» من حضرموت وتوفي عام ٩٩٠هـ. في مدينة أحمد أباد من الهند، ومن مؤلفاته: «العقد النبوي» والسر المصطفوي.» «وحقائق التوحيد» «والمعراج» جميعها عن التصوف. ثم تولى مشيخة العيدروسية الشيخ جعفر بن علي بن عبد الله بن شيخ العيدروس، ولد عام ٩٩٧هـ في بلدة تريم وتوفي عام ١٠٦٤هـ في مدينة «سرت» من الهند.

كانت الطريقة العيدروسية صغيرة امتدت الى الهند ولكن بشكل محدود(٢)

٣٤- الطائفة الجازولية

الواقع ان الجازولية لم تكن طريقة بل مدرسة شاذلية اختصت بالتعليم الديني اكثر من التصوف، ولكن على مر الزمن اطلق عليها اسم طائفة.(٣)

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٠٣، عبد المنعم الحفني.

٢- المصدر نفسه ص ٣٠٣ و٣٠٤.

٣- The Sudi Orders in Islam. Appendix F. p. 276

اوجد هذه المدرسة التي سُميَّت طائفة لاحقًا، محمد بن سليمان الجازولي السملالي الشاذلي، وكنيته ابو عبد الله صاحب الكتاب المشهور «دلائل الخيرات وشوارق الانوار في ذكر الصلاة على النبي المختار» وهو مجموعة صلوات على النبي مع ذكر اسمائه الذي طبع مرات عدة[١] وانتشر في البلاد الاسلامية.

نشر هذه الطائفة في جنوب المغرب العربي الشيخ ابو عبد الله محمد بن امغار الصغير واعتبر منشئ الطريقة الجازولية – الشاذلية، وجعل الانتساب اليها سهلاً بالتخلي عن الكثير من الممارسات الصوفية واستعمل اللغة العامية، لغة القرويين في كتبه، حتى زاد اتباعه والتف العديد من المريدين حوله، حتى خاف والي «اصفي» من نفوذه وتنامي قوته، فطلب منه الخروج بهم. ولد الشيخ ابو عبد الله عام ٨٠٧هـ. وتوفي، قيل مسمومًا، عام ٨٧٠ هجري.

تفرع عن الطائفة الجازولية الفروع التالية

١– العيساوية

اوجدها محمد بن عيسى المختار (توفي عام ٩٣١هـ) وكان والي مدينة مكناس وشيخ زاوية مكناسة الزيتون، وكان يدين بالولاء الى احمد الحارثي تلميذ الشاذلي. وعُرفت هذه الطائفة بذكرها الذي كان يُتلى بتكرار كل صباح قبل الصلاة «سبحان الدائم»

٢– الزاوية الدلة

اوجدها في اواخر القرن العاشر هجري، ابو بكر محمد المجاتي السنجاني (توفي عام ١٠٢١هـ). بعد وفاته خلفه حفيده محمد الحاج (توفي عام ١٠٦٤هـ).

١– «الموسوعة الصوفية» ، عبد المنعم الحفني ص ١٠١.

في عام ١٠٧٩هـ استولى مولاي العلوي الرشيد على سلطنة فاس فهدم زاوية الدلة وبذلك انتهت هذه الطائفة.

٣- الوزانية او الطابئية او التهامية

اوجدها الشريف مولاي عبد الله بن ابراهيم (توفي عام ١٠٨٩هـ) اخذت اسم الطابئية من مولاي الطيب (توفي عام ١١٤٩هـ) ثم اسم التهامية من حفيد المؤسس مولاي عبد الله بن ابراهيم. لها زوايا عديدة في المغرب والجزائر وتونس.

٤- الشرقاوية

اوجدها محمد ابن ابي قاسم الشرقاوي (توفي عام ١٠١٠هـ) وكان مركزها بلدة «بوجاد» المغربية.

٥- الحمدشية

اوجدها علي بن حمدوش وهي فرع من الشرقاوية.

٦- الحنظلية

نقلها الى الجزائر سيدي سعدون ولها زاوية معروفة في بلدة «شظابا» الجزائرية.

٧- الامحوشية

اوجدها ابو بكر امحوش تلميذ احمد بن محمد الناصر (توفي عام ١١٣٠هـ) ثم انضمت الى الطائفة الدركاوية.

٩- الحبيبية

اوجدها احمد ابن الحبيب بن محمد بن اللمطي.

٣٥- الطائفة الحنظلية

يقول المستشرق «ترمنجهم» ان الذي ترك تأثيرًا ملحوظًا على عقيدة «البركة»(*) كانت الطائفة الحنظلية التي اوجدها الراعي الروحي لمدينة «صافي» ابو سعيد الحنظلي تلميذ ابو محمد صالح (توفي عام ٦٣٢ هجري)[١]

إنّ الذي احيا وابرز هذه الطائفة كان ابو أيمن سعيد ابن يوسف الحنظلي الذي اخذ التصوف عن يد الشيخ المصري الشاذلي عيسى الجنيدي الضمياطي الذي اعطاه القصيدة الضمياطية المشهورة عن اسماء الله التسعة والتسعين الحسنى، التي ألّفها ابو عبد الله شمس الدين الدريوتي الضمياطي (توفي عام ٩٢١هـ) فكانت اساس الاوراد الحنظلية[٢]

قال ابو سعيد الحنظلي، انه عندما كان يصلي عند قبر ابو العباس المرسي في مدينة الاسكندرية نزل عليه نداء الهي يؤكد اهليته لتوجيه الطريقة الى الطريقة الشاذلية وذلك بموافقة ورضا الشيخ علي ابن عبد الرحمن الثرموطي[٣] بنى ابو سعيد زاويته في بلدة عيط - مترف حيث توفي عام ١١١٤هـ ودفن فيها.

---

*- البركة هي ايمان الصوفي بقدسية الشيخ وقدرته الالهية، باضفاء بركة الله تعالى على من يرضى عنهم، ونتج عن ذلك ارتباط الصوفي بالشيخ بدلاً من الطريقة. يقول ابن بطوطه «من اصحاب البركة عثمان ابن العباس ابن عبد المطلب يزوره يومي الاربعاء والجمعة اهل سمرقند ويقدمون له النذور من الغنم والمال تبركًا به». (ابن بطوطه ص ٦٢).

١- Trimingham the Sufi Orders in Islam. p. 86

٢- المصدر نفسه ص ٨٦.

٣- المصدر السابق ص ٨٦.

أمّا الذي نشر الطائفة الحنظلية بين قبائل البربر في جبال الاطلس، فكان ابو عمران يوسف بن علي بن عبد الرحمن التزموطي، ولكن هذا الفرع ضعف بعد مقتل ابي عمران يوسف عام ١١٤٠هـ على يد مولاي اسماعيل.(١)

٣٦- الطريقة اليسوية

اوجد هذه الطريقة احمد ابن ابراهيم ابن علي التاسي(*) (توفي عام ٥٦٢هـ) وكان من اتباع الشيخ يوسف الحمداني.(٢)

الطريقة اليسوية طريقة دينية تركية متجولة اعتمدت القرآن والسنة مع بعض الممارسات الصوفية اهمها الذكر والخلوة.

كان لليسوية تأثير ملحوظ في الحياة الدينية والاجتماعية في تركيا، خصوصًا نشر الدين الاسلامي بين القبائل البدوية التركية واعتمدوا في لبسهم وممارستهم الصوفية الطريقة البكتاشية، كما استعملوا اللغة التركية في صلواتهم واذكارهم.

لم يكن للطريقة اليسوية مدارس او خوانق صوفية، فهي كانت حركة دينية اكثر من عقيدة صوفية، بل كان اتباعها شيوخًا عُرفوا بتمسكهم بالكتاب والسنة ثم في كثرة تجولهم حيث انتشروا في الاناضول وازربيجان حتى بخارى وكانوا يحاربون الممارسات المولوية، خصوصًا الرقص والغناء اذ ليسا من الدين بشيء بل بدع غريبة ادخلت على الاسلام.

١- المصدر نفسه ص ٨٦.

*- تاس مدينة في تركيا تدعى اليوم تركستان.

٢- The Sufi Orders in Islam p. 58

٣٧- الطريقة السمنانية

اوجد هذه الطريقة الصغيرة الشيخ محمد بن عبد الكريم السمناني الذي كان مولده عام ١١٣١هـ في مدينة سمنان في ايران وتوفي فيها عام ١١٨٩هـ، والسمنانية هي فرع من الطريقة الركنية.

الطريقة السمنانية التزمت الشريعة كما نُصت في القرآن الكريم واعتبرتها السلوك الوحيد الى الحق وقالت ان كل عقيدة او مقولة لا ترجع الى الكتاب او السنة الشريفة بدعة يجب محاربتها، كما شجعت على الذكر، وان على الصوفي ان يحصر تفكيره وسلوكه بها وان لا يذكر إلاّ الله تعالى، وإن لم يلتزم ذلك يكن من اصحاب البدع.

٣٨- الطريقة الدسوقية (البرهانية)

اوجد هذه الطريقة الامام الدسوقي وهو برهان الدين بن عبد العزيز ابو المجد بن علي قريش حتى يصل بنسبه الى الامام الاول علي بن ابي طالب. اما امه فكانت فاطمة بنت ابي الفتح الواسطي خليفة السيد احمد الرفاعي بمصر[١]

وُلد سيدي ابراهيم في الليلة التالية للتاسع والعشرين من شهر شعبان عام ٦٥٣هـ وتوفي عام ٦٩٦ هجري[٢]

يقول الدسوقي بانه عين الله وبذلك يقول مارجوليوث (Margoliouth) «ويذهب الدسوقي الى اكثر ما ذهب اليه الحلاج فهو يقول انه عين الله، في حين ان الحلاج قد سمى نفسه الحق».[٣]

١- «الطرق الصوفية» في مصر. عامر النجار ص ١٥٥.

٢- «الدسوقي». عبد العال كميل ص ١٨.

٣- «دائرة المعارف الاسلامية» ص ٢٣٨.

ويقول الدسوقي عن نفسه اكثر مما قال الحلاج «أنا موسى في مناجاته، انا علي في حملاته، انا كل ولي في الاراضي جميعهم بيدي، خلع الفقراء ألبسهم الله ربي وربهم ورب كل شيء، أنا في السماء شاهدته، وعلى الكرسي خاطبته، بيدي ابواب النار غلقتها، أنا بيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني او زاره، (يعني النبي «صلعم»)، بيدي جنة الفردوس اسكنته».[1]

يقول الدكتور عامر النجار عن كلام «منير» المنسوب الى الامام الدسوقي: «معظم مادته، ليست من فكر الامام البرهامي الكبير، لأنها تتعارض مع الخط العام لفكره وتصوفه فإننا سنلمس في حينه تيار التصوف الاسلامي السني في طريقة الدسوقي العملية، فلهذا ينبغي ان نأخذ من هذا الكتاب بحذر». ثم يقول: «مع ان هذا الكتاب يعد مرجعًا اساسيًا لكل الباحثين حول الدسوقي وطريقته[2]

إن الدسوقي، ببساطة، يمكننا ان نتصوره مسلمًا طيبًا مباركًا علمه والده، وعني بتربيته منذ كان صغيرًا، وكان نبوغه واضحًا ظاهرًا ملفتًا للنظر، وبعد ان حفظ القرآن الكريم وتفقه على المذهب الشافعي بُنيت له خلوة بدسوق»[3]

لا يذكر المؤرخون شيخًا اخذ عنه الدسوقي علوم الدين او التصوف او الخرقة الصوفية. لو حدث ذلك لكان اعلنه الدسوقي كغيره من مشايخ الصوفية، بل سُمع عنه القول «اذا كمل العارف على مقام العرفان اورثه الله علمًا بلا واسطة.»[4]

١- «كتاب منير»، الدسوقي ص ١٤٩.

٢- «الطرق الصوفية في مصر». ص ١٥٦.

٣- «من قادة الفكر الصوفي». احمد عز الدين ص ١٩.

٤- «الطرق الصوفية في مصر» ص ١٥٧.

وتقوم الطريقة الدسوقية على تحلي المريد بصفاء النفس، وتجريدها من كل الاوصاف الدنيئة، وان يتبع الاوامر المشروعة، ويمتثل بطاعة الله تعالى قولاً وفعلاً واعتقادًا، والتخلي عن زخارف الدنيا وحظوظها واعتماد الكتاب والسنة الشريفة. «فتصبح روحك لطيفة نورانية، جوالة تجول في الملكوت، وتشاهد الحي الذي لا يموت، وهي تنظر عجائب غرائب ما يكون من الامر المكنون»(١)

كان الدسوقي يقول لمن يطلب منه سلوك الطريق: «يا فلان: اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والامتثال لطاعة الله عز وجل قولاً وفعلاً واعتقادًا»(٢)

والحقيقة الواضحة هي ان الجانب العملي من الطريقة الدسوقية يتوافق تمامًا مع التصوف السني العملي، «اذ اقام الدسوقي كل وزن للشريعة حتى انه عد الطريقة او الحقيقة شيئًا ثانويًا بالنسبة للشريعة»(٣)

٣٩- الطريقة العلاوية

هي طريقة صغيرة اوجدها الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي الذي كان مولده عام ١٢٩٠هـ وتوفي عام ١٣٥٣هـ.

كان الشيخ احمد صوفيًا وفقيهًا. انتشرت طريقته التي كانت تقوم على الكتاب والسنة الشريفة، في الجزائر والمغرب وتونس حيث كان اكثر اتباعه. ظهرت تعاليم الطريقة العلاوية في الرسالة المسماة «القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف» حاول من خلالها ان يثبت أن للتصوف مرجعًا دينيًا في الاسلام هو الكتاب والسنة.

١- «من قادة الفكر الصوفي» ص ٦٨.
٢- «الطرق الصوفية في مصر» ص ١٥٩.
٣- «الادب الصوفي» ص ٤٥.

٤٠ – الطريقة الحمدانية

تفرعت الطريقة الحمدانية عن الطريقة الركنية، وهي فرع من الطريقة الكبراوية. اوجد الطريقة الحمدانية الشيخ علي بن شهاب الدين بن محمد الحمداني بن حمدان الذي توفي عام ٧٨٦هـ ودفن في «ختلان» من تجكستان.(١)

قيل ان تأسيس الاسلام في كشمير تحقق من ثلاث زيارات قام بها الشيخ علي ابن حمدان الى كشمير عام ٧٧٤هـ وعام ٧٨١هـ وعام ٧٨٥ هجري.(٢) وقيل انه قدم كشمير مع سبعمائة صوفي من اتباعه هربًا من الاجتياح المغولي(٣)

وكذلك اوجد الشيخ علي ابن حمدان الطائفة الاشرفية التي ترأسها لاحقًا الشيخ أشرف جهنجر سمناني (توفي عام ٨٠٨هـ) الذي في عهده انتقلت الى ايران وسورية، وقيل ان الذي نقلها الى سورية كان الشيخ شرف الدين يونس بن ادريس الحلبي (توفي عام ٩٢٣هـ) الذي خلف عبيد الله التستري الحمداني. اما في حلب فتأسست الطائفة الحمدانية وكان مركزها مدرسة الرواحية حيث التحق بها العديد من المريدين. ثم انتقلت الى دمشق الى دار الحديث قرب الجامع الاموي(٤)

ثم قدم حلب الشيخ عبد اللطيف بن عبد المؤمن الخراساني الجامي مع جمع كبير من المريدين والاتباع الحمدانيين، فمرّ في استنبول حيث استقبله السلطان سليمان، ثم قدم حلب وبقي زمنًا في المدرسة الحمدانية، ثم بعد ان حجّ الى مكة مع مريديه رجع الى بخارى حيث توفي عام ٩٥٦ هجري(٥)

١– Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 51

٢– المصدر نفسه ص ٥١.

٣– المصدر نفسه ص ٥١.

٤– «شذرات الذهب في اخبار من ذهب». ابن العماد الحنبلي مجلد ٨ ص ١٢٨.

٥– المصدر نفسه.

٤١ – الطريقة الدردرية السباعية

تنسب هذه الطريقة الصغيرة الى الشيخ احمد بن محمد البدوي المالكي، ولقبه ابو البركات الدردير، والى تلميذه احمد السباعي، وهي فرع من الطريقة الخلواتية بمصر. كان الشيخ ابو البركات الدردير من كبار الشيوخ الصوفية ومن المجددين في السلوك الصوفي، وله مؤلفات عديدة في الفقه والعقيدة الصوفية منها: تحفة الاخوان في اداب اهل العرفان – شرح على رسالة التوحيد للشيخ دمرداش الخلوتي – منظومة اسماء الله الحسنى – وغيرها، وجميعها في التصوف ويطغى عليها التراث الصوفي عند المتقدمين، كالغزالي، والسهروردي وغيرهما من السلف.

٤٢ – الطائفة السعدية

اوجد الطائفة السعدية الشيخ سعد الدين الجباوي ابن يونس الشعباني (توفي عام ٧٣٦هـ) ودفن في قرية الجبة بالقرب من مدينة دمشق. ويقول بعض المؤرخين الصوفية، ان الشيخ سعد الدين لم يؤسس الطائفة السعدية بل اخذها عن الطريقة الرفاعية، ويذكر ذلك الواسطي ويدعوها بالخرقة السعدية(١)

وفي عام ٩١٤هـ. قدم الشيخ محمد ابن سعد الدين (توفي عام ١٠٢٠هـ) إلى دمشق من مكة المكرمة واعلن عن اخذه الخرقة الصوفية في مكة، وانه صاحب بركة الهية وشيخ الطائفة السعدية.(٢)

١– «طرق المحبين في طبقات خرقة المشايخ العارفين». تقي الدين عبد الرحمن الواسطي ص ٤٩.

٢– «خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر». محمد المحبي. مجلد ٤ ص ١٦٠.

بعد موت الشيخ محمد خلفه ابنه سعد الدين (توفي عام ١٠٣٦هـ) والذي حدثت في ايامه فضيحة شيخ الطائفة في مدينة حلب، ابو الوفا ابن محمد، في بيت سيء السمعة[١] فكانت هذه الحادثة كارثة على الطائفة السعدية واثرت كثيرًا على انتشارها وسببت في انسحاب الكثير من الصوفية منها.

لم تنتشر الطائفة السعدية إلاّ في سوريا وتركيا، ولكنها انتقلت الى مصر بواسطة يونس ابن سعد الدين، حيث كان شيخها في الاعياد يقود جواده فيمشي على اجساد المريدين من المتصوفة. (امر الخديوي توفيق عام ١٨٨١م بمنع هذه العادة.[٢])

٤٣ - الطريقة الصفوية

طريقة صوفية ايرانية غلب عليها التشيع، وتنسب الى الشيخ صفي الدين الاردبيلي من اتباع الشيخ كمال الدين عربشاه الاردبيلي[٣]

ولد الشيخ صفي الدين عام ٦٤٧هـ في مدينة اردبيل من ازربيجان وتوفي عام ٧٣٥هـ[٤] وكان يدعي ان نسبه يرجع الى الامام السابع موسى الكاظم ابن الامام الكبير جعفر الصادق.

صحب الشيخ صفي الدين الشيخ تاج الدين ابراهيم ابن زوشان، الملقب بالزاهد لمدة خمسة وعشرين سنة حتى توفي عام ٦٩٤ هجري.

١- المصدر نفسه مجلد ١ ص ١٥٢. وكتاب Les confréries musulmanes du Hidjaz p. 215 (Le Chatlier)

٢- (الحاشية) The Sufi Orders in Islam p. 73

٣- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٥٦.

٤- Triningham, the Sufi Orders in Islam p. 100

الصفوية، وإن كانت صوفية اسمًا، إلاّ انها شيعية جوهرًا ومبنى[1] وكان معظم مريديهم من البكتاشية قدموا ايران وتحولوا الى صفوية، يميلون الى التشيع اكثر من التصوف والى ظواهر الملامتية ممّا جعلهم يستخفون بالتكاليف والشريعة فابطلوها وعاقروا الخمرة وانغمسوا في الاباحية وارتكاب المحرمات.

بعد وفاة الشيخ صفي الدين، خلفه ابنه صدر الدين موسى (توفي عام ٧٩٤هـ) فادخل الفتوة على الطريقة، ونظم فرقًا من المريدين كان هدفهم طرد العرب من بلاد فارس وتكوين دولة شيعية فارسية.

من اشهر شيوخ الطائفة الصفوية: صدر الدين توفي عام ٧٩٤هـ - الخواجه علي توفي عام ٨٣٣هـ - ابراهيم شاه توفي عام ٨٥١هـ - الشيخ جنيد قتل عام ٨٦٥هـ - الشيخ حيدر قتل عام ٨٩٤هـ. ثم الشاه اسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفوية توفي عام ٩٣٠ هجري[2]

بقيت الطريقة الصفوية منتشرة في ايران، ولُقب رئيسها خليفة الخلفاء، حتى انهارت نتيجة اضطهاد علماء الدين الفقهاء.

٤٤- الطائفة نعمة الله

طائفة صوفية شيعية اوجدها الشاه نعمة الله بن عبد الله والي كرماني واحد كبار اسياد الصوفية الشيعية،[3] الذي ادعى نسبه الى الامام الشيعي الخامس محمد الباقر.

ولد الشاه نعمة الله عام ٧٣٠هـ في حلب من عائلة فارسية.

١- «الموسوعة الصوفية» ص ٢٥٦، عبد المنعم الحفني.

٢- Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 100

٣-«الشيعة الاثنا عشرية» هنري كوربان ص ١٠٢.

عندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره، سافر الى مكة حيث اصبح تلميذًا، ثم خليفة للشيخ عبد الله اليافعي (توفي عام ٧٦٨هـ) الذي ينتسب الى الشيخ ابو مدين الصوفي المعروف. بعد وفاة الشيخ عبد الله اليافعي، سافر نعمة الله، متنقلا من خانقاه الى خانقاه، الى مدينة سمرقند، هرات ويزد حتى استقر في مدينة «ياهان» وتوفي عام ٨٣٤هـ.

يقول المستشرق الروسي ايفانوف، ان الطريقة نعمة الله، كانت مقصد الطبقة الارستقراطية، التي اعتنقها العديد منهم، كما اعتنقها موظفو الدولة، التجار وجمع كبير من عامة الشعب، وعُرفت بالطائفة ملاّ سلطاني، وهي فرع من نعمة الله، ومركزها كان مدينة بيدكت في فارس.

٤٥ – الطريقة النوربخشية

اوجدها الشيخ محمد بن عبد الله الملقب نور بخش (توفي عام ٨٦٩هـ) تلميذ الشيخ اسحق الخطلاني، وهي طريقة شيعية وفرع خراساني من الطريقة الكبراوية[١]

بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الله، انقسمت الطريقة الى فرعين: الاول يرأسه ابنه قاسم فيض – باش، والثاني يرأسه شمس الدين محمد بن لحجاني (توفي عام ٩١٢هـ) الذي بنى خانقاه في شيراز واستقل عن النوربخشية[٢]

يقول الدكتور ابو ريان، ان النوربخشتية قامت على دعامات الاشراقية عند السهروردي (المقتول)، وان اصحاب هذه الطريقة يستمدون تعاليمهم من مؤلفات الشيخ الاشراقي، وخاصة، هياكل النور[٣] وكلمة نور – بخش بالفارسية تعني عاشق النور.

١– Triningham, the Sufi Orders in Islam. p. 57

٢– المصدر نفسه ص ٥٧.

٣– «الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر» كامل مصطفى الشيبي ص ٣٣٩.

من تتابع الاحداث في تطور الطريقة الصوفية، نجد ان في اوائل القرن السادس هجري تغير التصوف من تجمع مريدين حول شيخ يأخذون عنه علوم الدين والتصوف الى طريقة لها سلسلة، اي تسلسل الرئاسة من شيخ الى ابنه او احد مريديه، وارتبط اسمها باسم الشيخ. ثم في العهد العثماني حصل تطور جذري عندما احتاجت الدولة الى موظفين لتسير امورها بعد ان اصبحت دولة مترامية الاطراف، فلجأت الى تشييد مدارس وتحويل بعض زوايا الصوفية الى معاهد لتخريج اداريين لملء المناصب الحكومية في ادارات الدولة، بالرغم من الوجود الصوفي، فالصوفي يميل الى الانزواء في التكيات للعبادة والذكر ولنشاطه، خصوصًا عدم احتياجه الى المادة فمعاشه كان يأتيه من الاملاك الموقوفة للتكيات.

قامت الدولة العثمانية بتشجيع المدارس التي نشرت علم الفقه والكلام، واستلم العلماء ادارة شؤونها وكانوا على غير وفاق مع اهل التصوف، فكانت النتيجة الحضور الكلي للعلماء وتراجع ملحوظ للصوفية في المجالات الرسمية والحكم. وبالرغم من ذلك، بقي اهل التصوف قوة في المجتمع الشعبي الديني مع تحول الى طوائف، حتى اصبحت التكية شبيهة بالكنيسة المحلية، لها طائفتها الخاصة وشيخها الذي يدعي البركة الالهية ويعيش من نعمتها، وبذلك انتهى دورها كملجأ لاهل التصوف مقيمين او متجولين.

الصوفية في اليمن

بلاد اليمن من اقدم بلدان العالم وتاريخها مفعم بالحوادث، كانت تضمّ دولتين هما: سبأ وحِمْير، ولما دخل اهل نجران في دين المسيح ارسل الملك اليهودي ذو نواس الى اليمن فاحتلها وقتل العديد من اهلها، فارسل ملك الحبشة، النجاشي النصراني، جيشه فهزم اليهود ولكنه دمّر البلد واذل اهلها.

ثم كان الغزو الفارسي، بقيادة الامير الحميري العربي سيف بن ذي يزن، وتبعه الفتح الاسلامي. وقال الرسول الكريم في اهل اليمن «اتاكم اهل اليمن، هم الين قلوبًا وأرق افئدة، الايمان يمان والحكمة يمانية»[١]

تقع اليمن في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية وتتصل من الغرب بالبحر الاحمر، والشرق ببحر العرب، كما تحدُ من الجهة الشمالية الشرقية ببلاد نجد، وبالحجاز في الشمال الغربي[٢]

وجل ما يهمنا في هذه الدراسة انتشار التصوف في اليمن في القرنين السابع والثامن خصوصًا في مدينة زبيد[٣] من حضرموت في مشارق اليمن.

١- روى هذا الحديث البخاري والترمذي عن ابي هريرة.

٢- «المقتطف من تارخ اليمن». القاضي عبد الله الجرافي اليمني. ص ٤١.

٣- تقع مدينة «زبيد» جنوب مدينة «بيت الفقيه» على بعد ست ساعات منها، وقد بنيت في واد كثير النخل واحيطت بسور مشيد من الاجر وفيه ابراج كثيرة، وهي مشهورة باهل العلم والفضل وقد خرج منها كثير من العلماء. وفيها المساجد والمدارس. «المقتطف من تاريخ اليمن»، القاضي عبد الله الجرافي اليمني. ص ٣١٨ (حاشية ٤).

وكانت زبيد مركزًا هامًا للصوفية وعلوم الدين، حتى قيل، ان كتب الصوفي ابن عربي كانت تباع في اسواق «زبيد» اكثر ممّا كانت تباع في اسواق دمشق.

من الصوفية الذين برزوا في اليمن كان:

١- الشيخ جمال الدين محمد بن اسماعيل المكدش، الذي عاش وتوفي عام ٧٩٨هـ في مدينة «الانفة».

٢- الشيخ ابو محمد الحكاك، شاعر صوفي اعتبره الشيخ عبد الكريم الجيلي انه من الذين اعطاهم الله الاذن بالدخول الى الحضرة الالهية وقتما يشاؤون.[١]

٣- ابو الغيث بن جميل، من كبار صوفية اليمن، لُقب بشمس الشموس وله المقولة المعروفة «خضنا بحرًا وقف الانبياء على ساحله.» وكان بن جميل من اوائل الصوفية الذين مارسوا الموسيقى في مجالس السماع ببلاد اليمن[٢] (توفي عام ٦٥١ هجري.)

٤- شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن ابي بكر الجبرتي، نسبة الى قرية «جبرت» في اليمن. (توفي عام ٨٠٦ هجري.)

كان الجبرتي شيخ صوفية اليمن واليه يرجع الفضل في رواج الفكر الصوفي في اليمن والاهتمام بمؤلفات ابن عربي، وكان له مدرسة للتصوف في مدينة «زبيد» من تلاميذها المعروفين الرداد، المزجاجي والمعبيدي[٣]

١- «المناظر الالهية». عبد الكريم الجيلي ص ٥٩.

٢- «الصوفية والفقهاء في اليمن». عبد الله الحبشي. ص ١٦.

٣- المصدر نفسه ص ٣٣.

٥- الشيخ احمد بن ابي بكر الرداد (توفي عام ٨٢١هـ) الذي، بالاضافة الى كونه من كبار الصوفية، كان قاضي القضاة.

٦- عبد الكريم بن ابراهيم الجيلي، ينسبه بعض المؤرخين الى المتصوّف الكبير عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة القادرية.(١) ولد عبد الكريم الجيلي عام ٧٦٧هـ في بغداد وتوفي فيها عام ٨٠٥هـ. وله قبريزار للبركة. أما المؤرخ عبد الله الحبشي فيقول إن الجيلي من الوافدين على اليمن، وانه توفي بمدينة «زبيد» سنة ٨٢٦ هجرية(٢)

ومن اتباع الشيخ اسماعيل الجبرتي كان الصوفي محمد بن شافع والشيخ قطب الدين مزاحم بن احمد بامزاحم من مدينة «بروم» اليمنية، والشيخ عبد الله بن عمر المسن(٣)

ويقول القاضي عبد الله الجرافي اليمني: «ولا يفوتنا ان نذكر بين اشراف اليمن سادات حضرموت وهم آل باعلوي من ذرية السيد احمد بن عيسى - يرجع بنسبه الى الامام علي بن ابي طالب - ويعرفون هناك باسم الاحباب آل باعلوي(٤) الشيخ محمد بن علي بن محمد العلوي كان من مشايخ الصوفية أوجد الطريقة الصوفية العلوية.(٥)

ثم يقول القاضي عبد الله الجرافي: «وفي هذه الايام نجم باليمن الاسفل الفقيه سعيدي صالح ياسين العنسي الصوفي من متصوفة بلد «شار» وتحصن «بالدّنوة» في بلاد «إب» وما زال حاله ينمو حتى استطاع ان يخرج قبائل ذي غيلان من الحصون»(٦)

١- جيلان اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان، ليس فيها مدينة كبيرة بل قرى بين الجبال ينسب اليها جيلاني وجيلي. الجيلاني هو الشخص الذي ينتسب الى البلاد واذا انتسب الى واحد من اهلها يقال له جيلي.

٢- «الصوفية والفقهاء في اليمن». ص ١٣١.

٣- «الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي» ص ٤٤.

٤- «المقتطف من تاريخ اليمن» ص ٦٥.

٥- «الموسوعة الصوفية» ص ٣٩، عبد المنعم الحفني.

٦- «المقتطف من تاريخ اليمن» ص ٢٦٥.

وكان يسكن في «صبيا» الادارسة وهم من ذرية الصوفي احمد بن محمد الادريسي الذي وصل الى بلاد اليمن من بلاد المغرب في القرن الثالث عشر وسكن «صبيا» بعد تنقله في «تهامة» وينتهي نسبه الى الامام ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن[1] ابن الامام علي بن ابي طالب. وفي مدينة «صبيا» توفي عام ١٢٥٣هـ الشيخ الصوفي المعروف احمد ابن ادريس الذي ترك مكة عام ١٢٤٣هـ الى «زبيد» بسبب اضطهاد العلماء ومنها سار الى مدينة «صبيا» في «عسير».

تميز التصوف في اليمن بالتزام الاسلوب الرمزي لما غلبت عليه النزعة الفلسفية الى تظهر بوضوح في مؤلفات الصوفي قاضي القضاة احمد بن ابي بكر الرداد، وقد يكون ذلك بسبب رواج كتب ابن عربي التي كانت تباع وتشترى باسواق «زبيد» وغيرها من المدن اليمنية.

---

١ - «المقتطف من تاريخ اليمن». القاضي عبد الله الجرافي اليمني. ص ٦٥.

الصوفية في ايران

قيل إنّ الشرارة الصوفية الاولى انطلقت في خراسان، حيث كان الفقر والحرمان والظلم مستشريًا، بالاضافة الى الإحباط الذي عم الفرس في ذلك الوقت.

خراسان بالفارسية معناها «البلاد الشرقية» وكان هذا الاسم في اوائل القرون الوسطى يطلق، بوجه عام، على جميع الاقاليم الاسلامية في شرق المفازة الكبرى حتى حد جبال الهند. فخراسان، من مدلولها الواسع هذا، كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر التي في الشمال الشرقي، ما خلا سجستان ومعها قوهستان في الجنوب. وكانت حدودها الخارجية صحراء الصين والبامير من ناحية آسيا الوسطى، وجبال هند - كوش من ناحية الهند. وكان اقليم خراسان في ايام العرب، اي في القرون الوسطى، ينقسم الى اربعة اقسام: نسب كل ربع الى احدى المدن الاربع الكبرى التي كانت في اوقات مختلفة، عواصم للاقاليم بصورة منفردة او مجتمعة، وهذه المدن هي: نيسابور، مرو وهراة وبلخ. وبعد الفتح الاسلامي كانت مدينتا مرْو وبلَخ عاصمتي خراسان[1].

١- «بلاد الخلافة الشرقية». ص ٤٢٣. و«في اصول التصوف والزهد». ابو عبد الرحمن السلمي ص ٥٢.

اما الاحباط الفارسي، الذي اشرنا اليه سابقًا، فكان نتيجة احتكار الخلافة والامامة من قِبل العرب وحرمان الفرس منهما. الحديث الشريف، وهو خلاصة العدل ومنتهى المساواة، «لافضل لعربي على اعجمي إلاّ بالتقوى» لم يطبق على الارض، باعتبار ان العرب استندوا الى الآية الكريمة التي تقول: «وكذلك انزلناه قرآنًا عربيًا»[١] وأن نبي الله عربي، والامامة والخلافة عربيتان، بالنسبة للسنة من قريش، وللشيعة من آل البيت، فاصبحت الشعوب غير العربية المسلمة، كالفرس، رغم حضارتها وتقدمها العلمي، في مرتبة دون العرب في عصر الاسلام، خصوصًا ان الاسلام لم يمنحها اي حق في الامامة او في الخلافة. باختصار كانت شعوب المنطقة سيدة نفسها، فاصبحت شقيقة للعرب في الدين ولكنها لا تقاسمها الحق في الحكم[٢]، فكان الاحباط الفارسي الذي عُرف لاحقًا بالشعوبية عند مطالبة الفرس بحقوقهم. هذا الاحباط، بالاضافة الى الفقر والحرمان والظلم، جعل الناس يميلون الي الزهد والتقشف والهروب من دنيا لا يجيدون فيها خيرًا ولا املاً في حياة يرجون منها سعادة او اطمئنانًا دينيًا او دنيويًا.

لن نأتي في هذا الفصل على ذكر الصوفية الاوائل من الفرس، كالجنيد ابن محمد الذي ولد في نهاوند، الترمذي الحكيم من اهل ترمذ، وسهل التستري من بلدة تستر من خوزستان، والبسطامي من بسطام من خراسان، والحلاج من اصطخر، وحتى عبد القادر الجيلاني الذي يدعي نسبه الى الامام الاول علي، هو من مواليد الجيلان، وغيرهم، لان ما يهمنا في هذه الدراسة، الصوفية الذين وُجدوا في عهد الحكم الصفوي، الذي جعل رسميًا المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة، وما قد يسبب ذلك من المتاعب للصوفية بسبب عداء علماء الشيعة لهم.

١- سورة طه اية ١١٣.

٢- «تذكر يا مروان». سليمان علم الدين ص ١٥١.

مؤسس السلالة الصفوية هو الشيخ اسماعيل، المعروف باسم الشيخ صافي، ولد عام ٦٤٧هـ في اردبيل، وتوفي عام ٧٣٥هـ وادعى نسبه الى الامام موسى الكاظم إبن الامام الكبير جعفر الصادق، وجعل تسلسل السلالة الصفوية في الحكم وراثيًا.

بعد وفاة الشيخ اسماعيل خلفه ابنه صدر الدين (توفي عام ٧٩٦هـ)، ثم كان خواجه علي (توفي عام ٨٣٣هـ) وبعد وفاته خلفه ابراهيم شاه (توفي عام ٨٥١هـ)، ثم جنيد الذي قتل عام ٨٦٥هـ، ثم تسلم الزعامة الشيخ صدر، الذي قتل عام ٨٩٤هـ، فخلفه الشاه اسماعيل (توفي عام ٩٣١هـ) مؤسس الدولة الصفوية.[١]

في عهد الشيخ حيدر والد الشاه اسماعيل، وكان يُعتبر وليًّا، تحولت قبائل التركمان من مذهب السنة الى مذهب الشيعة الاثني عشرية، اذ امر الشيخ حيدر جميع التركمانيين بلبس عمامة حمراء لها اثنتا عشرة لفّة تمثل الائمة الاثني عشر، وان يكون ولاؤهم لآل البيت[٢]

كان الشاه اسماعيل، ابن الشيخ حيدر، يقول ان الامام علي بن ابي طالب، كان صاحب الحق بالخلافة، ولكن اغتصبها منه ابو بكر، وعمر وعثمان، فيجب لعنهم في المساجد والاسواق ومن يرفض يقتل[٣]

يقول بعض المؤرخين ان الشاه اسماعيل اعتنق الصوفية، ولكن بالرغم من عطفه وحضنه اهل التصوف، ومساعدتهم له في حروبه مع السلطان سليم الاول العثماني، ولكن بتحفظ وسرية لوجودهم في تركيا، لم يجهر الشاه اسماعيل «اعتناقه التصوف».

١- Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 100

٢- ولدت الفرقة «كزلباخ» (kizelbach) اي اصحاب الرؤوس الحمراء منذ ذلك الوقت كما امتدت لاحقًا الى الاناضول في وقت البكتاشية.

٣- The Bektashi Order of dervishes. J.K. Berg p. 62

يقول المستشرق هنري كوربان وهو، من دون ريب، اعظم من كتب عن الشيعة: «فان وضع الشاه اسماعيل، (المولود عام ٨٩٣هـ والمتوفى عام ٩٣١هـ) مؤسس الاسرة الصفوية، لا يمكن ان يقارن بوضع الائمة الفاطميين. فإن شاه اسماعيل، بحمية شبابه، قد تصرف باسم الامام المحجوب (الامام المهدي المنتظر)* لقد اعاد الى الطائفة الشيعية حقها بالحياة، اي حقها بتأدية الشهادة في هذا العالم، ولكن لم يكن هو نفسه الامام، وكان الامر هكذا منذ ذلك الحين بالنسبة لكل عاهل ايراني كرئيس للدولة الشيعية. فالعاهل هو الذي يضمن للمؤمنين زمن انتظارهم، اي حتى رجعة الامام المهدي المنتظر من غيبته»[١]

ويستطرد هنري كوربان: «بمحاكمة الاشياء في ظواهرها، لا يمكن أن نتوقع من المرء ان يفرح لنجاح باهر بمثل مجيء الصفويين في ايران. لا شك ان هذا الخطر لم يتفتح مع الشاه اسماعيل، وهو نفسه صوفي محوط برفاق صوفيين، والذي كانت له الجرأة، كبطل شاب في الخامسة عشرة من عمره، أن يقيم الصلاة في جامع تبريز التي دخل اليها منتصرًا، باسم الائمة المقدسين، رغم عداوة سكان سنيين.[٢]

كانت اول انطلاقة صوفية شيعية في ايران، للصوفي الشيعي سعد الدين محمد بن هموية، المولود في خراسان، ومنها قدم الى سورية هربًا من الاجتياح المغولي، وسكن حلب حيث اخذ الخرقة عام ٦١٥هـ عن يد الشيخ رشيد الدين علي ابن خليفة[٣] وعرفت بالطريقة الهموية في فارس.

١- «الشيعة الاثنا عشرية» ص ٩٢ و٩٣.

*- الامام المهدي المنتظر - محمد ابن الامام الحادي عشر حسن العسكري.

٢- «الشيعة الاثنا عشرية» ص ١٠١ A Literary history of Peria E. Brown (Vol 4)

٣- «عيون الانباء في طبقات الاطباء». ابن عسيبي مجلد ٢ ص ٢٥٠.

كان الشيخ سعد الدين هموية تلميذ الشيخ المشهور نجم الدين كبرى، احد مشايخ الطريقة الكبراوية، الذي شهره تلميذه عزيز الدين ابن محمد النسفي (توفي عام ٦٦١هـ) في كتابه كشف الحقائق.

خلال العهد الصفوي في ايران برزت اسماء ثلاثة مشايخ صوفية شيعية: المير محمد باقر الداماد، توفي عام ١٠٤١هـ. القاضي سعيد القمي، توفي عام ١١٠٣هـ. الملا صدر الشيرازي، توفي عام ١٠٥٢هـ.

انتشر التصوف في فارس بين الحرفيين والمزارعين الذين كانوا في حالة فقر وحرمان وقلق من الاوضاع السائدة مما سبب التمرد والثورات على الحكم، فشجع الشاه اسماعيل التصوف املاً في خلق مناخ من الطمأنينة النفسية بتوجيه الناس الى العبادة والتوكل على الله تعالى بدلاً من العصيان والفوضى.

ثار الفقهاء وعلماء الدين على التصوف الذي انتشر بين العامة وادعوا انه يتناقض مع المذهب الشيعي ويدعو الى الغاء دور الامامة، وكان يتزعمهم محمد بهاء الدين العاملي (توفي عام ١٠٣٠هـ) الذي نشر رسالته «الاثنا عشرية» هاجم بها الصوفية واظهر فساد عقيدتهم وتناقضها مع الفكر الشيعي وقال انها بدعة ضد الاسلام يجب محاربتها والقضاء عليها.

تمكن شيخ الاسلام محمد باقر بن تقي الدين من اصدار امر من الشاه اسماعيل بطرد جميع الصوفية من اصفهان، ثم اصدر فتواه بتكفير الصوفية ووضع كتابه «عين الحياة» الذي اظهر فيه رأيه بالتصوف واصحابه واسباب حملته عليهم[١]

١- «الصلة بين التشيع والتصوف». الدكتور كامل مصطفى الشيبي ص ٢٤٤.

ثم اصدر آية الله شهاب الدين النجفي المرعشي في مدينة «قم»(*) كتابه «احقاق الحق» الذي اعتبر فيه ان مصيبة الصوفية من اعظم المصائب التي تهدمت بها اركان الاسلام(١)

«ثم كان الاجتياح المغولي عام ٦٥٤هـ لخراسان بما فيها «قلعة الموت» مركز الاسماعيلية. يقول هنري كوربان «ولقد دمرت «قلعة الموت» شأنها شأن بقية المعاقل الاسماعيلية في ايران بواسطة المغول سنة ٦٥٤هـ، ولكن هذا الحدث لا يعني ابدًا نهاية الاسماعيلية المتطورة في «الموت» اذ انها لم تفعل اكثر من الدخول في العمل السري لابسة الخرقة الصوفية.»(٢)

ثم يقول هنري كوربان: «فان الاسماعيليين ينظرون الى عدد كبير من اساتذة الصوفية على انهم جماعتهم مبتدئين بالسناني (توفي عام ٥٤٥هـ) والعطار (توفي عام ٦٣٧هـ) وجلال الدين الرومي (توفي عام ٦٧٢هـ) الذي كان شمس الدين التبريزي حجة له، وعزيز النسفي (القرن السابع) وقاسم انواري (توفي عام ٨٣٧هـ). وغالبًا ما يتردد المرء امام نص من النصوص، اهو صوفي ذي صبغة اسماعيلية، ام اسماعيلي ذي صبغة صوفية.»(٣)

عندما استقر المذهب الشيعي في ايران وانتهى عهد الدولة الصفوية، غادرت بقايا اهل التصوف ايران الى الهند مع مشايخهم ليعودوا صوفيين يمارسون معتقداتهم بحرية تامة.

---

*– قم، مدينة جنوبي طهران تعتبر اكبر مركز ديني وثقافي في ايران، وفيها مدارس تحوي الالاف من الطلبة المسلمين، معظمهم من الشيعة، يدرسون الشريعة الاسلامية، خصوصا المذهب الشيعي.

١– «العرفان الاسلامي بين نظريات البشر وبصائر اهل الوحي». محمد تقي المدرسي.

٢– «تاريخ الفلسفة الاسلامية» ص ١٥٨ – ١٥٩.

٣– المصدر نفسه ص ١٥٨.

الصوفية في الهند

في الهند لم تكن العقيدة محور التصوف، كما في البلاد العربية وتركيا وفارس، بل إنّ الشيخ الصوفي، ويطلق عليه اسم «Guru» اي المرشد، حيث احاط نفسه بهالة من القدسية وادعاء المعرفة الروحية، كان ملجأ للمريدين والاتباع يلتفون حوله، ليس فقط لاكتساب العلم، بل للبركة وارشادهم إلى سلوك طريق الحق بدون وسيط. كان الشيخ الصوفي الهندي المرشد والمعلم والقيم بدون منازع على الطريقة، ومن الشيخ الهندي بدأت السلسلة الصوفية وانتشار الطريقة في الهند.

بالرغم من سيطرة المذهب البوذي في الهند، شجعت السلطة اهل التصوف واغدقت عليهم المال وساعدتهم على بناء الخوانق في مدن عديدة، ولكن بدأ عهد الانحطاط منذ انتهاء عهد السلطان محمد طغلق (٧٢٦ – ٧٥٢هـ)[١] بسبب مقاومة علماء البوذية للدين الاسلامي واعتباره دخيلاً على الهند.

١– لم يكن السلطان محمد طغلق ضد التصوف، إذ اعطى الشيخ ركن الدين السهروردي من «ملتان» حفيد الشيخ محي الدين زكريا، مائة قرية لينفق على خوانق الصوفية.

(الحاشية) Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 23

يقول الشيخ ناصر الدين محمود (توفي عام ٧٥٧هـ)، وهو خليفة الشيخ الكبير نظام الدين اوليّا (Awliya):

In the days of the Shaykh (Nizam ad-din Awliya) dervishes used to come by twenties and thirties. Nowadays there are no dervishes, such soldiers, nor sush slaves, nor such armies, men have to wait in vain for the dervishes to come.(١)

رجع التصوف الى الهند بعد عهد الشيخ ناصر الدين محمود (توفي عام ٧٥٧هـ) وتعامل معه علماء البوذية كعقيدة فكرية روحانية وليس كمذهب ديني وتبوأ الشيخ المركز الاول وصار المحور الاساسي في الطريقة وليس العقيدة. ونسمع في يومنا هذا عن شيوخ متصوفة هنود، والاصح، شيوخ يدّعون الصوفية، ويطلقون على نفسهم لقب «بابا»، خصوصًا في الولايات المتحدة، حيث يتحلق حولهم المريدون والاتباع باندفاع اعمى، يخضعون لاوامرهم خضوعًا تامًا، يخدمونهم ويفرقون عليهم الاموال، ويتحدثون عن كراماتهم بقناعة مطلقة وخشوع ويتبارون في تقديسهم.

اما الطرق والطوائف التي انتشرت في الهند، فنشير الى الطوائف التي كان لها نشاط ملحوظ فقط وتركت اثارًا هامة على الفكر الهندي، او كما يقول بعضم الحكمة الهندية.

قدم معين الدين ششتي (توفي عام ٦٣٤هـ) من فارس ونزل في مدينة «اجمر» من الهند، ومنه ولدت الطريقة الششتية الصوفية الهندية، التي ترعرعت وانتشرت على يد خليفته الشيخ قطب الدين باختيار كاكي (توفي عام ٦٣٣هـ) واصبحت اكبر طريقة صوفية في الهند عدا الطريقة السهروردية(٢)

---

١ - Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 23

٢ - The Sufi Orders in Islam p 64-65

اما الطريقة الشطرية (شطارية) التي اوجدها الشيخ عبد الله الشطار، احد احفاد شهاب الدين السهروردي الذي ارسله شيخه محمد عارف الى الهند، فقدم اولاً الى مدينة «جنبور» عاصمة ابراهيم شاه شرقي، ثم انتقل الى «ماندو» عاصمة ولاية «ملتان» في السند حيث توفي عام ٨٢٩ هجري. أما الذي كان له اليد الطولى في نشر هذه الطريقة، فكان البنغالي محمد علاء المعروف باسم كازان شطري[١]

في القرن العاشر هجري تفوقت الطرق السهروردية والششتية على القادرية والنقشبندية، اذ تحوّل التفاف المريدين والاتباع الى الشيخ وليس الى الطريقة، وكانت السهروردية والششتية تتوافقان في هذا الاتجاه في الالتفاف حول الشخص وليس العقيدة، كاخلاص الهنود لبوذا. أما القادرية والنقشبندية فكانتا تحكمهما الجماعة وليس الاشخاص.

وكذلك انتشرت في الهند طائفة عُرفت بالمدارية، اوجدها الصوفي السوري بديع الدين مداري الذي قدم من سوريا الى مدينة «جنبور» في الهند حيث اوجد هذه الطائفة، التي اشتهر اتباعها في المشي على الجمر اللاهب[٢] توفي الشيخ مداري عام ٨٤٤ هجري وقبره في مدينة «فكانبور» في الهند تؤمّه الناس في الاعياد والحفلات الدينية.[٣]

١- Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 98

٢- Sufism. J.A. Subhan p. 305

٣- (الحاشية) Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 98

وكانت اليد الطولى في نشر الطريقة القادرية في الهند للشيخ محمد غوث، الذي يرجع نسبه الى الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي قدم عام ٨٨٧هـ من حلب الى مدينة «اوش» في الهند. بعد وفاة الشيخ محمد غوث عام ٩٢٣هـ، خلفه على الطريقة ابنه عبد القادر (توفي عام ٩٤٠هـ) في خلال عهد عبد القادر، قدم الى الهند العديد من عائلة القادري واتباعهم، واوجدوا طرقًا عديدة، وكان اشهر هؤلاء الشيوخ، الشاه ابو المعالي (توفي عام ١٠٢٤هـ) الشيخ ميان مير (توفي عام ١٠٤٥هـ)، الملاشاه بادخشي (توفي عام ١٠٧٢هـ) وقد تمكن شيوخ القادرية الهندية من جعل عقيدتهم تتوافق وتنسجم مع العقائد والممارسات الهندية[١]

يقول سميح عاطف الزين: «ومن اشهر الذين اتبعوا هذه الطرق (لنشر الاسلام في الهند): معين حبشي (توفي عام ٦٣٤هـ) في اجمير، وقطب كاكي في دلهي، وجلال التبريزي (توفي عام ٦٤٢هـ) في البنغال، وفريد شكر كنجي (توفي عام ٦٦٤هـ) في باكبتن وهو جد السادة الكيلانية، وجلال سرخيوش (توفي عام ٦٩٠هـ) في اوتش بهوليور، ومحمد جيسدارز في بلكوم، وأبو علي القلندري (توفي عام ٧٢٥هـ) في بنيت، وشاه جلال يماني في سيهلت بأسام (توفي عام ٧٨٦هـ) وعلي الهمذاني في كشمير (توفي عام ٧٩١هـ) وعبد الله الشطاوي الذي توفي سنة ٨١٨ هجرية».[٢]

ومن الشيوخ الصوفية الذين تركوا اثارًا بارزة على التصوف الهندي كان: الشيخ حميد الدين الناجوري (توفي عام ٦٧٣هـ)، ونور الدين مبارك الغزناوي (توفي عام ٦٣٢هـ) في دلهي، وبهاء الدين زكريا (توفي عام ٦٦١هـ) في ملتان.

١- Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 97

٢- «الصوفية في نظر الاسلام» ص ٥٤٠ - ٥٤١.

ان الطرق الصوفية في الهند التزمت الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة في تفكيرهم ومنهج عملهم واسهموا في الدعوة الى الاسلام، ويقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون: «ان الاسلام لم ينشر في الهند بواسطة الحروب، بل انتشر بفضل الطرق الصوفية.[١]

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «وقد كان للتصوف الاسلامي الفضل في المصالحة بين الطوائف، كما يتجلى ذلك في تصوف بابا كيور (توفي عام ٩٧٩هـ) في مدينة جواليور، وما قام به كبير (توفي عام ٩٢٤هـ) الذي تأثر به السيكه (السّيخ) فمزجوا بين تصوف كبير الاسلامي وبين الهندوكية، وأدمج مؤسس مذهبهم نانك (توفي عام ٩٤٦هـ) في كتابه الذي يقدسه السيكه «ادي جرنته» (Adi Granth)، قصائد صوفي مسلم هو فريد شكر كنجي.[٢]

.

١- قال عبد الرحمن بدوي عن ماسينيون «انه اعظم من كتب عن التصوف الاسلامي»

٢- «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ٢٥.

الصوفية في اندونيسيا وسيلان

إنّ الحج الى مكة جعل بعض الحجاج يأخذون بالتصوف، ويلبسون الخرقة الصوفية حتى قبل رجوعهم الى بلادهم. وهذا الاندونيسي مينانجكابو (Minangkabaw) لبس الخرقة الصوفية عام ١٢٥٦هـ في مكة ومنها رجع الى بلاده حيث استلم مشيخة الطريقة النقشبندية.(١)

انتشار الطرق الصوفية في شبه جزيرة ملايا (Malay)، خصوصًا في القرن التاسع عشر ميلادي، كان سببه الحج الى مكة. والطرق التي انتشرت في تلك البلاد كانت القادرية، النقشبندية والسمنانية. اما الطريقة الاحمدية – الادريسية فقد ازدهرت ولكن لوقت قصير(٢)

كان الحج، كما سبق وقلنا، الواسطة لنفوذ الصوفية الى اندونيسيا من القرن السادس عشر ميلادي وقد اكتشفت وثائق، في صورة اشعار وكتابات تثبت ذلك. ومن اوائل الصوفية في اندونيسيا كان حمزة الغنسوري (توفي عام ١٠١٩هـ)، وتلميذه شمس الدين السومطراني (توفي عام ١٠٤٠هـ) ولكنهم لم يؤسسوا طائفة صوفية. اما الشيخ عبد الرؤوف ابن علي السنكل (Singkel) ادخل عام ١٠٩٠هـ الطريقة الشطارية الى «اشه» ولكن ليس من

١– Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 122

٢– المصدر نفسه ص ١٣٠

الهند، بل من مكة حيث اخذ الخرقة عن يد الشيخ احمد كوشاشي(١) وعند انشاء علاقات تجارية وسياسية بين حضرموت واندونيسيا، جعل الكثير من اهل حضرموت ينزحون الى اندونيسيا حيث نشروا طرقهم الصوفية.(٢)

وفي اندونيسيا اعطي العلم الديني الاسلامي الاهمية الاولى، وكانت الصوفية المدلول الاساسي لذلك، وقد اعتمدتها الطريقة الشطارية التي دخلت الى اندونيسيا في اواخر القرن السادس عشر ميلادي. اما الطريقة النقشبندية، فقد دخلت الى سومطرة، كذلك من مكة حوالي عام ١٨٤٥ ميلادي، حيث اختلفت مع الشطارية على قضايا ثانوية تتعلق في الممارسات وليس على العقيدة. اما الطريقة السمنانية فادخلها تلميذ الشيخ سمنان، عبد الصمد بن عبد الله، من مواليد سومطره، (توفي عام ١٢١٥هـ)(٣)

الواضح ان الصوفية الذين قدموا الى اندونيسيا اعتمدوا على الفكر الصوفي الاسلامي اكثر من اعتمادهم على العمل او الممارسات الصوفية، مما جعل التصوف بين الطرق غير متجانس، خصوصًا عندما دخلت اللغة العربية وامتزجت باللغات المحلية التي كانت مختلفة.

«اما في سيلان فقد انتشر الاسلام عن طريق التصوف، ولهذا انطبعت الحياة العامة في تلك البلاد بطابعه، فكل مسلم لا بد ان ينتسب الى طريقة صوفية، وفي كل بلد من سيلان زاوية صوفية، وهناك في العاصمة زاوية تسمى «ام الزوايا» من خمسة طوابق وهي مركز القيادة الروحية الصوفية. وفي سيلان طرق صوفية متعددة اشهرها الشاذلية والقادرية والعلوية...»(٤)

١– Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 130

٢– المصدر نفسه ص ١٣٠

٣– المصدر نفسه ص ١٣٠

٤– الصوفية في نظر الاسلام سميح عاطف الزين ص ٥٤٩.

الصوفية في الاندلس

من مؤلفات محيي الدين ابن عربي، كتاب «روح القدس في محاسبة النفس» موجّه الى صديقه التونسي، ابو محمد عبد العزيز بن ابو بكر القرشي المهدوي. كُتب هذه المؤلف عام ٦٠٠هـ في مكة. كما له مؤلف، لا يزال مخطوطًا، باسم «الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به في طريق الاخرة.» قيل انه كُتب عام ٦٢٧هـ. ذكر ابن عربي في هذين المؤلفين حياة واعمال واحد وسبعين صوفيًا معظمهم من الاندلس.

ابن عربي خير من يعتمد عليه في معرفة اخبار واعمال هؤلاء الصوفية، فهو رئيسهم، عاصر بعضهم، وسمع عن اخبارهم، وبالاضافة لمعرفته علم التصوف، يمكن اعتباره، من دون تحفظ، ثقة في هذا الموضوع.

بالنسبة الى ضيق المجال وتجنبًا للملل، ساكتفي بذكر اخبار واعمال هؤلاء الصوفية، الذين تركوا اثارًا بارزة على التصوف الاسلامي.

١ - ابو جعفر العرياني[١]

قدم الى اشبيلية عام ٥٨٠هـ من بلدة «لولا» بالقرب من مدينة «سلفيس» في الغرب.[٢]

١-«صوفيَّة الأندلس». كتاب روح القدس ابن عربي ترجمة «اوستن» ص ٦٣.

٢- «الفتوحات المكية» مجلد ٣ ص ٥٣٩ تذكر كنيته بابي العباس.

يقول ابن عربي: «عندما اجتمعت به لاول مرة تيقنت انه من الصوفية الذين يعتمدون الدعاء والابتهال فسألني «هل انت معتمد على سلوك سبيل الله؟ قلت، الخادم يعتمد ولكن الله يقرر. فقال اعتزل العالم ولتكن نعمة الله رفيقك، ويكون اتصالك به تعالى دون وسيط. اتبعت هذا الطريق وبه كان نجاحي».

كان ابو جعفر لا يعرف الكتابة ولا يفقه الارقام، ولكن يكفي للانسان ان يسمع كشفه للتوحيد ليقدر مقامه الروحي(١) كان يشاهد دائمًا في حالة صفاء روحاني، وجهه الى القبلة ودائم الذكر.

روي عنه الكثير من الكرامات وتلبية الله تعالى لطلباته، كارسال المطر وهزيمة الاعداء.

عرف العرياني في تشدده في الذكر، صاحيًا كان ام نائمًا. يقول ابن عربي: «كنت اراقبه وهو نائم فارى لسانه يتحرك في فمه بالذكر.»(٢)

٢- ابو يعقوب يوسف بن يخلف القمي(٣)

تلميذ الصوفي الكبير شعيب بن حسين، المعروف بابي مدين الذي تأثر به كثيرًا ابن عربي. مات ابو يعقوب في مدينة «تلمسان» في الجزائر وقبره يزار للبركة.

عاش ابو يعقوب لمدة قصيرة في مصر حيث تزوج ابنة الشيخ الفارسي ابي طاهر السلامي، الذي كان قدم من اصفهان الى مصر ومات عام ١١٨٠هـ في الاسكندرية(٤)

١- «الفتوحات المكّية» مجلد ٢ ص ٤٢٥.
٢-«صوفيَّة الأندلس» ص ٦٨، ابن عربي.
٣-«صوفيَّة الأندلس» ص ٦٩. «الفتوحات المكّية» مجلد ١ ص ٢٥١.
٤- المصدر نفسه ص ٦٩.

يقول ابن عربي: كان ابو مدين شيخ طريقتنا التي نشرها في الغرب والذي قال عن ابي يعقوب القمي «انه مرساة الامان للسفينة»(١)

يقول ابن عربي: وكان ابو يعقوب عنوان التفاني واكرم الناس في اعطاء الحسنات المخفية. كان يكرّم ويوقر الفقير ويذل الغني. يهتم شخصيًا بحاجات المعوز. وعندما كنت تلميذه علّمني وغمرني بعطفه. عرفه جيدًا رفيقي الشيخ عبد الله بدر الحبشي، الذي مات ابو يعقوب في بيته، كان يقول فيه: اذا اراد الشيخ يمكنه في لحظة ان يرفع اليائس من ادنى درجات اليأس الى اعلى المراتب الروحية.

وابن عربي يقول: ان ابا يعقوب كان يميل الى الطريقة الملامتية، يسير في الطريق متجهم الوجه، لكن اذا رأى فقيرًا اشرق وجهه من الفرح، وقد رأيته مرارًا يحتضن الفقير ويحنو عليه. كنت اذا جلست اليه ارتعش ويختفي صوتي، فكان يخفف عني كي تطمئن نفسي، ولكن ذلك كان يزيدني خوفًا وجزعًا.(٢)

من عادات الشيخ ابي يعقوب، اذا طلب من مريد عمل شيء يعمله نفسه امامه، كي تطمئن نفس المريد.

يقول ابن عربي: كان للشيخ ابو يعقوب فضائل ومزايا ومهارات لا يمكنني احصاؤَها.

٣- صالح العدوي

كان العدوي متفانيًا في الدين لا يعمل إلاّ ما ينص عليه الكتاب الكريم، يقرأه ليلاً نهارًا، لم يملك بيتًا، واهمل صحته، بل كان جلّ همه، ان يُعتبر من اصحاب الجنة.

١- «صوفيَّة الأندلس» ص ٦٩.
٢- المصدر نفسه ص ٧٠.

لم يخزن البدوي شيئا لغده، لم يقبل إلاّ ما يسد رمقه، وكان يذهب كل مساء الى مسجد ابو امير روتندلي[١]

يقول ابن عربي: «بقيت بصحبة صالح العدوي ما يقارب ثلاث عشرة سنة، لم يكلمني إلاّ نادرًا، ويمكنني احصاء عدد الكلمات التي قالها لي».[٢]

يقول ابن عربي: «لقد حافظ العدوي على علاقة خاصة بنا، وكان يوجه لنا افكاره وتأملاته التي افادتنا كثيرًا. اما بالنسبة لي، فقد انبأني عن اشياء ستحدث لي، وكانت جميعها صحيحة».[٣]

في مرضه الاخير في اشبيلية اهتم به وخدمه ابو علي حسن الشكاز، وعند وفاته حملناه ليلاً على اكتافنا الى قبره. الواقع يمكن القول ان حياة العدوي تشبه الى حد كبير حياة اويس القرني.

يقول ابن عربي: قال لي الشيخ العدوي «يا ولدي، عندما تذوق العسل لا تقرب الخل.» وأتلو دائمًا. «وأمر اهلك بالصلوة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى.»[٤] لا تفعل اكثر من ذلك ان الله هيأ لك السبيل للخلاص[*]

وقال ابن عربي: «عندما ارسل لي امير المؤمنين (ابو يعقوب يوسف) قاضي القضاة يعقوب ابو القاسم بن تقي يدعوني ان ادخل في خدمة الامير، رفضت الطلب اذ كانت كلمات الشيخ العدوي لا زالت ترن في اذني».

١- «التكميلية». ابن اعبار ص ٤٢٧.

٢- «صوفيَّة الأندلس» ص ٧٣ (بتصرف).

٣- «صوفيَّة الأندلس» ص ٧٤.

٤- سورة طه اية ١٣٢.

* مخطوط الدرة الفاخرة. «صوفيَّة الأندلس» ص ٧٥.

٤- ابو عبد الله محمد الجرافي

كان الجرافي يداوم على الصلوات في مسجد «عوديس» في اشبيلية، وقيل كان يصلي واقفًا حتى تتورم قدماه وتنهمر الدموع من عينيه حتى تبتل لحيته. كما ذكر بعضهم انه سكن بيته اربعين سنة دون نور او نار للتدفئة، مثابرًا على الصلاة والعبادة.

كان الجرافي يحب عمل الخير ويتبرع للفقراء بما يملك، كان زاهدًا متقشفًا عابدًا يرجو الخير لجميع الناس، خصوصًا الفقراء.

لم يصحبه ابن عربي اذ كان يعتبره صوفي عمل يهتم بالصلاة والممارسات الدينية فقط، وليس صوفي علم يقوده علمه الى الفكر والفلسفة.

٥- ابو الحجاج يوسف الشهربولي

يقول ابن عربي ان ابا الحجاج من قرية شوباربول، وهي قرية في منطقة الجراف بالقرب من اشبيلية، صرف معظم وقته في القفار وصحب الشيخ أبو عبد الله المجاهد.(١)

كان الشيخ ابو الحجاج يعمل لكسب عيشه وقد التحق بالطريقة في حداثته وبقي بها حتى مات عام ٥٨٧ هجري. وكان ابو عبد الله مجاهد، شيخ طريقتنا يحترمه وقال عنه: «اطلبوا التواضع والكمال من ابي الحجاج الشهربولي.» يقول ابن عربي هذا ما قاله لي ابو الحجاج(٢)

١- «مخطوط الدرر الفاخرة». ابن عربي «صوفيَّة الأندلس» ص ٧٩.

٢- «صوفيَّة الأندلس» ص ٨٠.

يقول ابن عربي: «بالرغم من ان ابا الحجاج كان من البارزين بيننا، فقد استمر يعمل لكسب معاشه، ولكن عند تقدمه في السن وبسبب مرضه قبل عطاء الاتقياء، وكان يقدم لمن يزوره ما لديه من الطعام، على قلته، ولا يترك لنفسه شيئًا. وكان يقول لي. «يا ولدي اراد الله ان يزورني الناس وكان احب الي ان ازورهم[١]». «عند زيارتنا له كنا نجده دائمًا يقرأ القرآن ولم يقرأ غيره من الكتب، وكان له الكثير من الكرامات». صحبه ابن عربي حوالي عشر سنوات.

٦- ابو عبد الله محمد بن قسّوم[٢]

يقول ابن عربي: كان الشيخ ابو عبد الله من تلاميذ ابي المجاهد وبقي برفقته حتى وفاته عام ٥٨٧هـ. ثم خلفه على الطريقة. كان ابو عبد الله على المذهب المالكي.

كان ابو عبد الله يعتمد الصرامة في تصرفه، ودقيقًا في ممارسته الطقوس والفروض الدينية، ويتبع نظامًا دقيقًا في تأدية اعماله وواجباته وتصرّفاته ويحاسب نفسه يوميًا على ما قام به من الاعمال، فان كانت خيرًا شكر الله تعالى، وان اخطأ يطلب المغفرة.

يقول ابن عربي: كان ابو عبد الله يكسب معاشه من صنع القبعات واغطية الرأس، سمع يومًا باب حانوته يفتح وثم يغلق فقام يستطلع الخبر فوجد بعض الدراهم، اخذها ورمى جميع أليات عمله في البئر قائلاً. «الله وانا علينا معاشي، فلماذا اقلق على ما يأتيني، ما تحتاجه يأتيك وانت لا تأتي اليه».[٣]

١- المصدر نفسه ص ٨٠.
٢- «الفتوحات المكية». مجلد ١ ص ٢١١. «صوفيَّة الأندلس» ص ٨٣.
٣-«صوفيَّة الأندلس» ص ٨٤ (بتصرف).

كان ابو عبد الله يطبق على نفسه وتصرفاته حياة صارمة دقيقة التنظيم، فلكل عمل وقت محدد، وقت لفتح واغلاق باب المسجد، تعليم التلاميذ، صلاته، في نفس المكان والزمن، مدة معينة محدودة لكل عمل، يرفض التغير، وقبل اللجوء الى فراشه عليه محاسبة نفسه على اعماله. كان ابو عبد الله ورعًا تقيًا عابدًا هدفه رضى الله وعبادته.

٧- ابو عمران موسى بن عمران المرتولي[١]

صوفي اندلسي عُرف بتشدده في الممارسات الصوفية الروحية، وكان يُعتبر اسير نهج الصوفي الحارث بن اسد المحاسبي، يرفض التعاون مع الغير ويتنكر لكل مساعدة تخرج عن مقتضيات الدين، شديد في محاسبة نفسه التي، كان يعتبرها، جزاء من فعاليات تعمل لخير الكل، وليس منفردة اسيرة اهوائها.

يقول ابن عربي: كان ابو عمران يتمتع بنفوذ كبير ومعرفة واسعة، لطيف المعشر حلو الحديث، دائم البسمة يتحلق تلامذته حوله فهو مرشدهم وهاديهم، هذا بالرغم من الاجهاد الروحي الذي كان يعانيه، ويمكن القول، انه كان لنا المنقذ من الضلال والمرشد الى طريق الحق.

يقول ابن عربي: قال لي ابو عبد الله «يا ولدي عليك بنفسك»، فقلت: كان شيخي احمد العوراني يقول لي، لك الله، فمن منكما مرشدي؟ قال: انا لي نفسي، وله الله، وكل منا له طريق يهديك اليها. بارك الله ابا العباس وهداني طريقه.[٢]

١- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٦ و٨١. «صوفيَّة الأندلس» ص ٨٧.

٢- «صوفيَّة الأندلس» ص ٨٨ و٨٩.

يقول ابن عربي: كان ابو عمران امام مسجد «الرضا» في اشبيلية، خدم ابن مجاهد وكتب الشعر الصوفي.

٨- ابو علي حسن الشكاز[١]

يقول ابن عربي: خدم ابو علي حسن الشكاز الشيخ العدوي حتى وفاته. عاش في اشبيلية وتوفي فيها وكان من طريقتنا.

ومن اقوال ابن عربي: كان ابو علي كثير البكاء لا تكاد الدمعة تفارق صحبته من وقت التحاقي بالطريقة حتى وفاته. وكان مستأثرًا بنعم روحانية استفدت منها في معاشرتي له. كان شجاعًا عاش من كسب يديه من عمله في دبغ الجلود، وكان دائم الصوم وصاحب عبادة، لم يعاشر من القوم إلاّ قلة من اصحاب الفضيلة. كان صاحب روح مرحة، صادقًا في كلامه ويكره الكذب[٢] عُرف عن ابي علي حبه لزوجته واولاده.

٩- ابو محمد عبد الله بن محمد بن العربي[٣]

يقول ابن عربي: «هذا الشيخ كان عمي من جهة والدي وقد التحق بالطريقة بعد ان تقدم في العمر، وكان بلغ انذاك الثمانين سنة. كان سبب انتمائه، بعد هذا العمر الطويل، قول ولد التقاه في حانوت جاره – ان معارضتك لله، بعد هذا العمر الطويل، سيثير غضب الله عليك، وما لك إلاّ رضاه تعالى. كان عمي مصابًا بمرض «الفتاق» وتوفي بعد ثلاث سنين من التحاقه بالطريقة».

١- المصدر نفسه ص ٩٦.

٢- «صوفية الاندليس» ص ٩٧.

٣- «الفتوحات المكية». مجلد ١ ص ١٨٥. «صوفية الاندلس» ص ٩٩.

١٠ – ابو محمد عبد الله ابن الاستاذ المورروري[١]

يقول ابن عربي ان أبا محمد عبد الله خدم الشيخ ابو مديان الذي كان يطلق عليه لقب «الحج التقي». حج ابو محمد الى مكة برفقة التونسي عبد الرزاق تلميذ ابو مديان، وصحب الشيخ عبد الله بن حسن[٢]

كان ابو محمد على خلاف دائم مع الفقهاء يتهمهم بالانانية والجهل وبذلك يردد الآية «يا اهل الكتاب لم تُحاجُّون في ابراهيم وما أُنزلت التوراة والانجيل إلاّ من بعده افلا تعقلون.»[٣] وكذلك كان يقول ان الفقهاء تسيطر عليهم انانيتهم وشهواتهم وهم في قبضة الشيطان يسيئون الى اصدقاء الله.

يقول ابن عربي: انه بالرغم من تقواه، لم يكن من اهل التصوف العارفين، بل شيخًا ورعًا عابدًا يكره الفقهاء ويحاربهم وتنسب اليه بعض الكرامات.

١١ – ابو محمد عبد الله الباغي الشكاز.[٤]

قدم عام ٥٩٩هـ من مدينة بريجو (Priego) الى غرناطة حيث اتخذها مسكنًا له.

يقول ابن عربي: اتيت بصحبة الحبشي لزيارته، وحسب العادة، اعطيته ما معي من المال وكان درهمًا واحدًا.[٥]

١– «الفتوحات المكية». مجلد ٤ ص ٧٦. «صوفية الاندلس» ص ١٠١.
٢– «صوفية الاندلس» ص ١٠١.
٣– سورة آل عمران اية ٦٥.
٤– «الفتوحات المكية». مجلد ٢ ص ١٨٧. «صوفية الاندلس». ص ١١٠.
٥– «صوفية الاندلس» ص ١١٠.

كان ابو محمد رجلاً جادًا في قوله وعمله، تطغى عليه الكآبة والحزن، يمقت الاثم صغيرًا كان ام كبيرًا، كما يكره الالحاد، يعيش وحيدًا يقضي ليله في الصلاة ونهاره في الصوم ويفرض ذلك على مريديه واتباعه حتى تخلى عنه العديد منهم. قيل له ان الصحابة الاوائل لم يفرضوا على انفسهم هذا الجهد. قال: يكفيهم صحبة الرسول. قال ابن عربي: لم اعرف احدًا بزهده وتقشفه وقسوته على نفسه غير ابو مسلم الخولاني.

يقول ابن عربي: كان ابو محمد يردد الآيات التالية: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً»(١)

وقوله تعالى «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والابصار.»(٢).(٣)

١٢- ابو محمد عبد الله القطّان.

يقول ابن عربي كان ابو محمد القطّان ثقة في معرفة القرآن، كان نقي السريرة زاهدًا شجاعًا يقول الحق دون خوف من سلطان او خشية حاكم. اعتمد القرآن دون غيره من الكتب ومن اقواله. «الا يكفي الناس الكتاب والسنة؟»(٤) كان يغشى المساجد ويندّد بكفر الحكام وظلمهم للرعية دون خوف او وجل. كان لا يقبل هداياهم، حتى من السلطان، بالرغم من فقره وعوزه. وكنت اصحبه واستفيد من علمه وتقواه.

١- سورة الاحزاب آية ٢٣.

٢- سورة النور. آية ٣٧.

٣- «صوفية الانداليس». ص ١١١. «الفتوحات المكية» مجلد ٤ ص ٩.

٤- المصدر نفسه ص ١١٢.

١٣- ابو عبد الله محمد بن اشرف الروندي.

يقول ابن عربي: عاش ابو عبد الله الروندي ثلاثين سنة معتكفًا في الجبال يتحاشى الاختلاط بالناس. كان يحب التأمل والعزلة وهو من عائلة نبيلة وثرية وكنت احب صحبته.

روي عن ابي عبد الله الكثير من الكرامات وقيل انه كان يجترح المعجزات.(١)

ضِيْقُ المجال وحصْر ابن عربي معلوماته واقواله في ذكر صفات، وما ذُكر عن كرامات الصوفي، دون الخوض في دراسة حياته، والاوضاع الاجتماعية والدينية التي عاش فيها، يجعلان من هذه الدراسة ترديدًا مملاً خاليًا من اية منفعة علمية تهم القارئ، مما يجعلنا نكتفي بما ذكرنا حتى الان.

١- «الفتوحات المكية» مجلد ٢ ص ٧. «صوفية الاندلس» ص ١١٦.

الصوفية في السودان

في القرون الوسطى كان الاقليم الشمالي من السودان مقسومًا الى ثلاث دول. الدولة «النوباطية» وتقع بين الشلال الاول والثالث. ودولة «ماكو» فوق الشلال الثالث ثم ضمت هاتان الدولتان في دولة واحدة سُميت «النوبا» وعاصمتها كانت «دنجولا» والدولة الثالثة «علوي» وكانت عاصمتها «صوبا» وتقع على النيل الازرق(١)

في القرن السادس كانت المسيحية الدين الرئيسي لهذه الدول ولم يكن للاسلام إلاّ حضور بسيط نتيجة لغزو المسلمين للسودان في عام ٣١ هـ. بقيادة الوالي العربي عبد الله بن سعد بن سرح. وفي القرن الرابع هجري قدمت الى شرق السودان قبيلة بنو كنز وهم بطن من ربيعة وبذلك نشأت مملكة «الكنز» المسلمة ولُقب اميرها كنز الدولة.(٢)

وفي عهد مملكة الفونج (Funj) الاسلامية، التي أنشئت حوالي عام ٩١٠هـ، قدم الى السودان علماء مسلمون عُرفوا بتبحرهم في علوم الشريعة والفقه، منهم غلام الله بن عائد، الذي ادعى نسبه الى الرسول الكريم، ثم الصوفي حمد ابو دنانة، وغيرهم من الصوفية كان معظمهم من مصر والحجاز واليمن ولاحقًا من المغرب العربي.

١- «الطرق الصوفية في السودان». علي صالح كرار ص ١٢.

٢- المصدر نفسه ص ١٣ (بتصرف).

ثم اشتهر في منطقة «الشيقية»، وكانت اكبر منطقة اسلامية في شمال السودان، اولاد جابر وهم من سلالة العالم غلام الله بن عائد، فبنوا مدارس لتعليم الشريعة والفقه وشجعوا طلاب العلم للذهاب الى مصر للدرس على يد شيوخها والجامع الازهر. وبرز منهم العالم عبد الرحمن ولد حمادتو ومحمد البنوفاري وغيرهم من الشيوخ الذين كان لهم الفضل في نشر علوم الدين وعلم التصوف في السودان.

اما الطرق الصوفية التي انتشرت في السودان فكانت:

١- القادرية

جلب الطريقة القادرية الى السودان الشيخ تاج الدين البهاري الذي كان خليفة لعبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية. تعرف الشيخ تاج الدين، وهو في طريقه الى مكة لاداء فريضة الحج، على داود بن عبد الجليل من مدينة «ارباجي» الذي دعاه لزيارة السودان، فقدم معه وسكن قرية «وادي شعار» من الجزيرة لمدة سبع سنين.[١]

يقول البهاري انه قدم من بغداد الى «تكالي» لادخال الشيخ عبد الله الحمّال جد الشيخ حمد النهلان بن محمد البداري، المعروف باسم واد - الترابي في الطريقة القادرية.[٢]

لم ينجح البهاري في استقطاب اتباع للطريقة بسبب قسوته على المريدين وشروطه الصعبة في ممارسة فروض الطريقة بالاضافة الى تعنته وكبريائه في معاملة الناس.

١- «الطرق الصوفية في السودان» علي صالح كرار. ص ٢٢.

٢- المصدر نفسه ص ٢٢.

اما الشيخ عبد الله بن ضيف الله العراقي، وهو من عائلة عراقية معروفة، اشتهر بعلمه وتقواه، وكان قاضيا في دولة الشيخ عجيب المنجليك، الذي عرف بزياراته العديدة لمكة حيث اخذ علوم الدين عن شيوخها وعلمائها، فتمكن من استقطاب العديد من الاتباع والمريدين وجعل مركز فرع طريقته قرية «ابو هزار» حيث ترعرعت واصبحت اقوى واكبر من فرع طريقة البهاري.

واما في منطقة «الشيقية»، وهي اكبر منطقة في شمال السودان، فقد انشأ الطريقة القادرية في عاصمتها مدينة «دنجولا» الشيخ محمد بن عيسى بن صالح المعروف باسم اسوار الذهب، وكان ذلك في القرن السابع عشر ميلادي[1]

اخذ محمد اسوار الذهب علوم الدين والتصوف عن يد محمد بن علي كرم المصري الشافعي الذي البسه الخرقة الصوفية[2] كما اخذ العلم عن يد الشيخ التلمساني المعري الذي ادخله في الطريقة القادرية[3]

لعبت عائلة اسوار الذهب دورًا كبيرًا في نشر الطريقة القادرية في السودان، ولكن في القرن التاسع عشر تحولت الى الطريقة الختامية، التي انتشرت في منطقة «الشيقية»، وكان مركزها في مدينة «دنجولا»[4]

١- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٢٥.

٢- «الطبقات في خصوص الاولياء الصالحين والعلماء في السودان». ابن ضيف الله محمد النور ص ٣٤٨.

٣- A. Biographical Dictionary of the Sudan. R.Hill p. 259

٤- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٢٥.

وتشعب من الطريقة القادرية فرع اوجده الشيخ ادريس بن محمد الارباب المحاسي من مدينة «ايلافون» جنوب مدينة الخرطوم، الذي ادعى انه اخذ الطريقة عن يد النبي «صلعم» الذي زوده، ما سمّاه، «بالعلم الرباني»[١]

ثم اسس الشيخ حسن الحسونه التونسي (توفي عام ١٠٧٥هـ)، الذي ادعى انه ادخل الى الطريقة بواسطة النبي[٢]، مركزًا للطريقة القادرية في قرية واد – حسونه. كان يعتبر الشيخ حسن حسونه من الاولياء له قداسة وكرامات، وكان له مريدون عديدون منهم الشيخ «منّور» من بلدة «مرياف»، الذي بالاضافة الى تصوفه، كان من كبار علماء الدين، اسس المركز القادري في جزيرة «بلنرتي»[٣]

واخذت الطريقة تقوى وتنتشر في منطقة «الشيقية» بفضل جهد ونشاط الشيخ محمد بن سرحان العودي المعروف باسم «صغيرون» الذي سار الى القاهرة واخذ علم التصوف عن يد الشيخ المعروف «البنغوري» وعند رجوعه الى الشيقية التحق بمدرسة اسلافه ابناء جابر يدرس علم الصوفية.

عرف «صغيرون» استاذًا لعلوم الدين والتصوف والفقه. خلفه بعد وفاته ابنه، المعروف باسم الزين، الذي قيل ان عند وفاته عام ١٠٨٦هـ بلغ عدد مريديه اكثر من الف تلميذ. نقل هذا الفرع لاحقًا الى تشاد، نذكر هنا مدرسة اولاد ام جديان فقط التي كان من تلاميذها سعد الكرساني وعبد الرحمن ولد حج الدويهي اللذان لعبا دورًا مهمًا وفاعلاً في انتشار القادرية في الشيقية، ثم الطائفة الكباشية، اذ صح تسميتها طائفة اذ كانت تجمعًا عائليًا اوجده ابراهيم بن علي الكباشي، ولد عام ١٢٠١هـ وتوفي عام ١٢٨٦هـ، في منطقة الجزيرة، وكان له العديد من التلاميذ والاتباع وكان مركزه يقصده اهل التصوف لاخذ علم الصوفية.

١– «الطبقات في خصوص الاولياء». ابن ضيف الله ص ٥٧.

٢– المصدر نفسه ص ٤٢.

٣– «الطرق الصوفية في السودان» ص ٢٧.

اوجد الشيخ احمد الجعالي، الذي اخذ الخرقة الصوفية عن يد صوفي فارسي اسمه عبد الرحمن الخراساني، مركزًا مهمًا للقادرية عرف باسم مركز كدباس لتعليم التصوف والدين.

نشأ عن الطريقة القادرية فروع في السودان، وبما انها كانت حركة لا مركزية لم يكن لها مركزً رئيسي يرجعون اليه، بل كانت فرقًا متعددة لكل فرقة شيخها ومريدوها تحت مظلة اسم القادرية، بلا ريب، فقد كانت متكاملة ومتجانسة اكثر من الطريقة الشاذلية.

٢- الشاذلية

يقول بعض المفكرين ان الصوفي قد ينتسب الى الطريقة الشاذلية ولكنه لا يلتزم بها وذلك لخلوها من طقوس وممارسات كطريقة منظمة لها قواعدها، ولهذا يمكن وصفها كطرق فردية مستقلة لا ترتبط بمركز رئيسي او نظام موحد.

دخلت الشاذلية الى السودان قبل الطريقة القادرية وقد ادخلها، حوالى عام ٨٤٩هـ، الشريف حمد ابو دونانا(*)

* الشريف محمد ابو دونانا هو صهر ابو عبد الله بن سليمان الجزولي صاحب الطريقة الجزولية في المغرب.

يقول بعض المؤرخين، ان وجود الشاذلية في السودان سببه قدوم الشيخ ابو الحسن الشاذلي الى بلدة، (Aydahab) ، في السودان في طريقه الى مكة لاداء فريضة الحج والقائه محاضرات عن الصوفية في جامعها، وكان يوجد دائمًا في عيد هاب العديد من اهل الشيقية قد يكونون تأثروا باقوال الشيخ ابي الحسن الشاذلي.

من الاوائل الذين نشروا الطريقة الشاذلية في السودان كان الشيخ خوجلي عبد الرحمن بن ابراهيم (توفي عام ١١٥٥هـ) الذي درس علوم الدين في مدرسة عائشة الصغيرة واخذ علوم التصوف عن يد الشيخ ارباب بن علي (توفي عام ١١٠٢هـ)

اخذ الشيخ خوجلي في نشر الطريقة الناصرية – الشاذلية، وكان يقول انه بالرغم من ان اساس طريقته هي القادرية ولكن الاوراد وقواعد السلوك هي شاذلية، وبالرغم من ذلك ثار عليه الشيخ القادري صالح بن بان – النقّا الضرير (توفي عام ١١٦٧هـ) واتهمه بالخروج عن الدين الاسلامي.

تمكن الشيخ خوجلي من استقطاب العديد من الاتباع ولكن بعد موته عام ١١٥٥هـ وخلافة ابنه الشيخ احمد خسرت الطريقة الكثير من الاتباع الذين التحقوا بالطريقة الختامية في شمال السودان.

برزت طائفة «الزبّالة» التي ادعت صلتها بالشاذلية، وهذه الطائفة، التي خرجت عن الاسلام ونبذت الفروض، اوجدها ابو جريد ادم بن عبد الله.

٣– السمنانية

انشقت الطريقة السمنانية عن الطريقة الخلواتية ونشرها محمد بن عبد الكريم السمنان (توفي عام ١١٨٩هـ) الذي كان تلميذ الشيخ الخلواتي السوري مصطفى كمال الدين البكري (توفي عام ١١٦٢هـ) الذي كان يسكن مدينة دمشق.

بعد وفاة مصطفى البكري انقسمت الطريقة الخلواتية الى فروع عدة منها السمنانية التي جلبها الى السودان، حوالي عام ١١٧٨ هجري، الشيخ احمد الطيب ابن البشير (توفي عام ١٢٣٩هـ) الذي كان عيّنه خليفة له، محمد عبد الكريم السمنان.[١]

ولد احمد الطيب عام ١١٥٥هـ في مدينة «ام مرح» شمال مدينة «ام درمان»، والده كان بشير بن مالك بن محمد سرور[٢] اخذ احمد الطيب علوم الدين عن يد الشيخ «ولد اناس الاودابي» تلميذ الشيخ خوجلي عبد الرحمن بن ابراهيم.

عندما بلغ احمد الطيب الثامنة عشرة من العمر، اي حوالى عام ١١٧٢هـ. سار الى الحجاز حيث تلقى علوم التصوف عن يد الشيخ عبد الله المحجوب المرغني صاحب الطريقة المرغنية.

ابان وجود الطيب في مكة انتسب الى الطريقة الخلواتية بواسطة الشيخ مصطفى كمال الدين البكري، ثم انتقل الى المدينة والتحق بالشيخ محمد عبد الكريم السمّان وبقي معه سبع سنين انتسب خلالها الى الطريقة السّمْنانية، «ومن المدينة ارسله الشيخ سمّان الى السودان لينشر الطريقة ويستقطب الاتباع والمريدين، قائلاً له: عليك اظهار معالم الدين»[٣]

تجول الطيب في السودان يدعو الى الطريقة السمنانية، وخلال زيارته لمدينة سنّار تمكن من ادخال الشيخ العالم احمد بن عيسى الانصاري والشيخ المعروف بدوي ابن ابو صافيا وعددًا كبيرًا من اتباعهم في الطريقة.

١- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٤٤.

٢- «الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين». ابن ضيف الله ص ٣٤٥.

٣- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٤٥.

وحوالى عام ١١٧٤هـ، اشتهرت الطريقة السمنانية، خصوصًا في منطقة الجزيرة وجذبت اليها الكثير من اتباع القادرية كان من اشهرهم الشيخ احمد البصير (توفي عام ١٢٤٥هـ)، والشيخ محمد البنّاقة وهما من كبار القادرية وزعماء قبيلة الحلاويين.(١)

وفي طريقه الى الحجاز مرّ بالقاهرة حيث زار الجامع الازهر وتعرف على العالم المالكي محمد الامير، ثم تابع سفره الى الحجاز وبقي بعض الوقت برفقة شيخه محمد السمان الذي سمح له بالرجوع الى السودان(٢)

توفي احمد الطيب عام ١٢٤٠هـ، وبسبب عدم تركه خليفة، انقسمت الطريقة السمنانية الى فرقتين، فرقة ايدت ابنه ابراهيم الدسوقي، والفرقة الثانية ايدت ابنه نور الدائم (توفي عام ١٢٦٨هـ) حتى قدم الشيخ احمد البصير، وكان محترمًا من اهل الطريقة، فقال بتولية الشيخ نور الدائم. بسبب الصراع بين الاشقاء ضعفت الطريقة السمنانية وتشعبت الى طوائف عديدة صغيرة.

٤- الخاتمية

بعد ما توفي عام ١٢٥٣هـ الشيخ احمد ادريس في «صبيا» في اليمن، اختلف تلامذته، احمد بن علي السنوسي، محمد عثمان المرغني، ابراهيم الرشيد، وابناء احمد بن ادريس، محمد وعبد العال، على رئاسة الطريقة، أي المدرسة الادريسية.

١- المصدر نفسه ص ٤٦.

٢- «ازاهر الرياض في مناقب العارف بالله احمد الطيب». عبد المحمود النور الدائم ص ٦٦.

رجع محمد عثمان المرغني الى مكة ونادى بالطريقة الخاتمية قائلاً: «محمد كان خاتم الانبياء وعلي خاتم الولاية وهذه خاتمة الطرق.» فسميت بالطريقة الخاتمية.

بسبب المكانة المرموقة لعائلة المرغني، وهي من قريش يرجع نسبها الى النبي «صلعم»[١]، واحترام الناس للشيخ الصوفي عبد الله المحجوب المرغني (توفي عام ١٢٠٧هـ) وهو الذي اوجد الطريقة المرغنية وهو جد محمد عثمان، لاقت الدعوة الخاتمية بعض النجاح في مكة واستقطبت بعض الاتباع والمريدين، ولكن نفور علماء الدين من التصوف جعله يوجه دعوته الى السودان واريتريا واليمن وحضرموت، فارسل ابنه محمد الى اليمن وحضرموت وابنه الحسن الى السودان، حيث لاقى نجاحًا ملحوظًا فجعل مركز الدعوة في بلدة كسّالا ثم بنى مدينة الخاتمية.

بالرغم من تحفظ الخاتمية على تقسيم الطريقة، فقد تفرع عنها الطائفة الاسماعيلية التي اوجدها عام ١٢٦٣هـ الشيخ اسماعيل ابن عبد الله (توفي عام ١٢٨٠هـ) في بلدة العبيد في مقاطعة كوردفان في شرق السودان، وبسبب ضغط العلماء ومحاربتهم للتصوف، ترك محمد عثمان المرغني مكة وذهب الى بلدته الطائف حيث توفي عام ١٢٦٨هـ[٢]

بعد وفاة محمد عثمان المرغني، خلفه على رئاسة الطريقة الخاتمية ابنه الاكبر «سر الختم» الذي، بعد وفاته، انقسمت الطريقة الى أربعة فروع، لكل فرع شيخه ومريدوه، فكان فرع السودان برئاسة محمد الحسن بن محمد عثمان المرغني، المعروف باسم السيد الحسن، او ابو جلاّبية[٣]

١– Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 117

٢– «الطرق الصوفية في السودان» ص ٦٦

٣– «الابانة النورية في شأن صاحب الطريقة الخاتمية». محمد النصيح. ص ٤٤.

وُلد محمد الحسن عام ١٢٣٥هـ في بلدة «بارا» من منطقة كوردفان من السودان(١)

اخذ الحسن علوم الدين والتصوف في المدينة في الحجاز عن يد محمد شيخ الدلائل وعن يد والده محمد عثمان المرغني.

يقول المستشرق J.Q.Voll.: «لا ريب ان الارساء الناجح للخاتمية، لاسيّما في شمال وشرق السودان، يرجع الى الحسن المرغني. بالرغم من وجود طرق عديدة في شمال السودان، لم تتمكن اية طريقة من استقطاب العدد الكبير من الاتباع كما اجتذبت الخاتمية.»(٢)

اعتمد الحسن التجول المكثف للتقرب من اتباع الطريقة ومعرفتهم شخصيًا، فنجده في بلدة «بربر» يعين احمد ادريس الروبطبي خليفة الخلفاء ويتزوج امرأة من عائلته، ثم يزور قبة خوجلي، حيث تخلى العديد من سكانها عن الشاذلية وانضم الى الخاتمية، فيتزوج فاطمة بنت محمد امين بن طه من عائلة الخوجلي، فتلد له ابنه محمد عثمان الثاني، ثم يتجول في قرى الشيقية، كوردفان، والجزيرة، يبني الزوايا والمدارس والمساجد ويؤسس مراكز للطريقة.

كان الحسن على علاقة حسنة مع القيمين على المدرسة الادريسية، خصوصًا الشيخ ابراهيم الرشيد، كما كان من انصار الحكومة، يكلف احيانا بالتدخل لفض نزاع او اختلاف بين العائلات والاحزاب، وقال المستشرق G. Dovin: «كان لحسن المرغني فضل كبير في تهدئة انتفاضة الفرقة الجهادية في كسّالا عام ١٢٨١هـ».(٣)

١- «الطرق الصوفية في السودان» ص ٧٣.

٢- «تاريخ الطريقة الخاتمية في السودان» ص ١٥٣.

٣- Histoire du Regne du Kheduie Ismail p. 175.

توفي الحسن المرغني عام ١٢٨٦هـ خلال زيارته لجبل «تاكوربا» في منطقة بني صخر ودفن في بلدة كسّالا وترك صبيين احمد ومحمد عثمان، وابنتين نفيسة وفاطمة.

خلف الشيخ الحسن على رئاسة الطريقة الخاتمية الشيخ محمد سر الختم الثاني (توفي عام ١٣٣٦هـ) وساعده في ادارة الطريقة ومقاومة الخطر المهدي، الذي كان بدأ يستفحل في المنطقة، الشيخان بكري المرغني زوج فاطمة بنت الحسن، وعبد الله المحجوب زوج اختها نفيسة.

ولد محمد عثمان الثاني عام ١٢٦٥هـ في قبة خوجلي[١] واخذ علوم الدين والتصوف عن يد والده الحسن المرغني.

واجهت، عهد محمد عثمان الثاني، صعوبات كبيرة، منها: الوضع الاقتصادي المتردي في البلاد، والغاء الحكومة مساعدتها المالية، ثم اندلاع الثورة المهدية عام ١٢٩٩هـ، التي توافقت مع تغلغل الطريقة التيجانية في مناطق الخاتمية مما حمل محمد عثمان الثاني الى أن يجعل من مركز الطريقة في بلدة «شندي» المركز الاساسي ومحور مقاومة المهدية، خصوصًا عندما انتشرت في شرق السودان بقيادة عثمان دكنا، الذي كان ينتمي الى الطريقة المجذوبية عدوة الخاتمية وحليفة المهدية.

رفضت الخاتمية دعوة المهدي للانضمام اليه وانضمت الى صفوف الحكومة وقامت بتوزيع منشورات تدعو حركته إلى فتنة ضد الاسلام، فكانت ان حاصرت قوات المهدي عام ١٣٠٣ بلدة كسّالا وعند استسلامها دمرتها تدميرًا كاملاً وبذلك انهت المقاومة العسكرية الخاتمية.

١- «المناهج العلية في تراجم السادة المرغنية». محمد السراج ص ٤٧.

توفي محمد عثمان الثاني عام ١٣٠٤هـ في القاهرة في مصر، وخلفه الشيخ محمد سر الختم الثاني الذي قال عنه القائد المهدي عثمان دكنا انه اخطر عدو للمهدية على وجه الارض، فقد ادعى ان النبي محمد أمر بالجهاد ضد المهدية وان على كل خاتمي ان يقسم يوميًا على القرآن ويقول: «ان ادعاء المهدية باطل ومن يقول بها مقامه جهنم»[١]

بعد انتهاء ثورة المهدي عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) واحتلال الجيش المصري – الانجيليزي السودان استلم رئاسة الطريقة الخاتمية علي المرغني واخوه محمد[٢] وعملا على انهاضها وجعلها طريقة قوية.

ثم برزت الطائفة الرشيدية التي اوجدها ابراهيم بن صالح الدويهي المعروف باسم ابراهيم الرشيد، المولود عام ١٢٢٨هـ في قرية «كورو» في منطقة الشيقية، والذي استلم رئاسة المدرسة الادريسية بعد وفاة احمد بن ادريس في قرية «صبيا» من اليمن. تمكن ابراهيم الرشيد من المحافظة على علاقة حسنة مع الخاتمية، خاصة في الشيقية المنطقة المتشابكة العقائد والاحزاب والعائلات.

ادخل الطريقة التيجانية(*) الى غرب السودان الشيخ عمر «جنبو» تلميذ الشيخ محمد الصغير علي، ولكن الذي نشرها في السودان كان عبد الرحمن الشنقيطي المعروف باسم ابو العليا ومن مواليد قرية تشيت في موريتانيا.[٣]

١- «الطرق الصوفية في السودان» على صالح كرار ص ١٠١.

٢- «مناقب السيد علي المرغني» ص ١٢.

* التيجانية طريقة مغربية اوجدها ابو العباس بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني عام ١١٥٠هـ وهي فرع من الطريقة الخلواتية، اتهمت بالتحالف مع الفرنسيين ضد الزعيم عبد القادر الجزائري.

٣- «الطرق الصوفية في السودان» ص ١٢١.

عاش ابو العليّا في بلدة «سواكن» في السودان ثم انتقل الى بلدة «بربر» حيث استقطب بعض الاتباع. وقبل وفاته عام ١٣٠٠هـ تمكن من نشر التيجانية في منطقة الشيقية بمساعدة تلميذه احمد المهدي، ولكن خلال الوجود المصري في السودان اتهم العلماء في المدينة، التيجانية بالكفر مما جعل اتباعها يتخلون عنها ويلتحقون باحمد المهدي، ومنذ ذلك الوقت انقطع خبر التيجانية في السودان.

في اوائل القرن الثامن عشر ميلادي، اوجد الطائفة المجذوبية، وهي فرع من الطريقة الناصرية – الشاذلية، حمد بن محمد المجذوب[١] الذي قيل ان نسبه يرجع الى العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم.[٢]

يقول الكرساني: ان اصل عائلة المجذوبين يرجع الى الحج عيسى بن قندل بن عبد العال الذي كان تاجرًا وفقيهًا وعاش في بلدة «دور» في السودان، وكان والده قندل بن عبد العال بن عرفان وهو من قبائل الجلاليين، وهم من نسل الاشراف، اي من قريش[٣] قدم قندل بن عبد العال من بغداد الى المدينة ثم قدم الى السودان وسكن بلدة «دور» حيث قبره حتى يومنا هذا يزار للبركة.

انتقل المجذوبون من بلدة «دور» الى مدينة «الدامر»، ويقول المؤرخ بركهرت (Burckhardt) «ان لمدينة «الدامر» شهرة كبيرة في هذه المنطقة، وسكانها لطفاء يرحبون بالغريب، وهم افضل من جيرانهم في مدينة (بربر).[٤]

١– المجذوب صفة من جُذب الى حب الله.

٢– المجذوبية والمكشافية طريقتان صوفيتان في السودان. عوّاد الكرساني ص ١٣. «بتصرف».

٣– المصدر نفسه ص ١٣. (بتصرف).

٤– Travels in Nubia p. 235

اشتهرت مدينة «الدامر» بسوق الثلثاء حيث كان يردها القبائل والمزارعون لبيع انتاجهم وشراء ما يحتاجون من السلع والبضائع وكانت عكس مدن شندي، كوز رجب، بربر ودنجولا سوقًا محلية لا علاقة لها بالاسواق الخارجية.(١)

اوجد بلدة «الدامر»، التي اصبحت مدينة كبيرة، حوالي عام ٨٧٣هـ، اي قبل دولة سلاطين الفنج التي وُجدت حوالى عام ٩١٠هـ، حمد بن عبد الله وبنى بها المساجد والمدارس فاصبحت، بالاضافة الى مكانتها التجارية، مدينة العلم وملجأ لاهل التصوف بسبب الأمن الذي كان سائدًا بها.

كان المجذوبون، الذين قدموا مدينة «الدامر» تجارًا اثرياء واصحاب املاك شاسعة، وفي الوقت نفسه، كانوا علماء دين وفقهاء لهم كرامات وقيل حتى معجزات، جعلت العامة تثق بهم وتلوذ اليهم طلبًا للمساعدة، مادية كانت ام روحانية.

اخذ الحج عيسى بن عبد العال الطريقة القادرية عن الشيخ القادري تاج الدين البهاري، وبقيت المجذوبية على الطريقة القادرية حتى عهد الشيخ حمد بن محمد المجذوب الكبير (توفي عام ١١٩٠هـ) الذي، بسبب اعتراضه على بعض المسالك القادرية التي وجدها تتعارض مع تعاليم الاسلام، تخلى عنها ودخل في الطريقة الشاذلية. وقيل انه اخذ الخرقة الشاذلية عن يد الشيخ احمد التميلتاوي الفولاني.

خلف حمد المجذوب الكبير ابنه الشيخ قمر الدين، الذي عُرف باسم محمد الصغير، الذي قيل انه كان تلميذًا لاحمد بن ادريس، وكان له الفضل الكبير في بناء المدارس ودور العلوم والمساجد. توفي محمد الصغير عام ١١٥٥هـ.

١- «المجذوبية المكاشفية»، «الطرق الصوفيّة في السودان» ص ٣٢.

في عام ١١٣٣هـ. حصل انقسام في عائلة المجذوبين، وذلك عندما حمل الشيخ عبد الله النكار ابن حمد بن محمد، وكان صوفيًا زاهدًا متقشفًا، على كبار المجذوبين واتهامهم بالاثراء غير المشروع بشراء الاراضي من الفقراء المعوزين باسعار بخسة وبيعها الى الاغنياء وجني ارباحًا طائلة، فانقسمت العائلة الى فريق العلماء الزهّاد اتباع عبد الله النكار، وفريق التجار الاغنياء.

عندما اندلعت الثورة المهدية ساند المجذوبون الثورة والتحقوا بالقوات المهدية. قيل انهم اشتركوا مع الجيش المهدي في تدمير المركز الرئيسي للخاتمية في مدينة كسّالا، كما عُرف عنهم لاحقًا، قتالهم المتواصل مع الاتراك في اوائل القرن التاسع عشر ميلادي مما جعل الاتراك يفرضون عليهم انظمة قاسية للحد من نفوذهم وتقليص وجودهم في المدن وتشتيتهم في القرى، مما جعلهم تجمعات صغيرة ينحصر نشاطها في نشر علوم الدين.

الصوفية في افريقيا

من المؤسف ان ضآلة المراجع التاريخية عن الصوفية في افريقيا، جعلت هذه الدراسة تشمل باختصار بعض بلدان غرب افريقيا فقط، وهذا الاختصار ليس متعمدًا، بل فُرض علينا، ولهذا سنكتفي بالقلة التي لدينا، والقلة خير من العدم لمعرفة ما كنا نتمنى ان نطلع عليه ونلمّ بحقيقته.

يقول بعض المؤرخين، ان اول من ادخل الاسلام الى غرب افريقيا كان القائد الاموي عقبة بن نافع، وذلك في القرن السابع ميلادي عندما قاد الجيش الاسلامي من قيروان الى جنوب المغرب وثم الى الصحراء الافريقية حتى حدود ما يُعرف اليوم بدولة النيجر[1]. ولكن يقول مؤرخون آخرون: ان التسرب الاسلامي الى افريقيا الغربية، حصل في القرن الثامن بعد الاحتلال العربي عندما ارسل الامويون جيوشهم الى جنوب المغرب حتى وصلوا الى حدود «غانا».[2]

واما المؤرخ توفيق البكري فيقول: «حوالى عام ٦٣٤هـ ارسل والي افريقيا عبيد الله بن حبيب جيشًا بامرة ابنه اسماعيل والقائد حبيب بن ابي عبيدة الى غرب افريقيا الذي رجع بكمية كبيرة من الذهب والعبيد مما شجّع الحاكم الاموي عبد الرحمن بن علي عام ٧٤٥هـ على انشاء الطرق التي ربطت المغرب بغرب افريقيا، كما حفر الأبار وذلك لانماء التجارة وجلب

١. «مجلة التاريخ الاسلامي» H. T. Norris ص ٢٥٦.

٢– Islam et Sociétés Soudanaises au Moyen Age. J. Triaud p 34

الذهب مما شجع التجار المسلمين على الذهاب الى افريقيا ومعهم قدم الاسلام. كانت قبيلة صنهاجه، التي زودت قوافل التجار المسلمين بالادلاّء والحراس، اول من اعتنق الاسلام[١]

نظرة عامة مبسطة لانتشار الطرق الصوفية، المرادية، والقادرية والتيجانية ونشرها الإِسلام في كل من النيجر ومالي، والسنغال، وموريتانيا، تشاد وغانا والصومال، تبيَّن أنّ من اسباب نجاحها كان التقوى والصلاح وايمان هؤلاء الصوفيين بالدين وعمل الخير وتوجيه الناس الى ما فيه صالحهم وصلاحهم، دون تزمت في فروض العقائد والمسالك التي لا يفهمها او يستسيغها الافريقيون. لا اكراه في الدين ولكن اقناعًا في منافعه.

إنّ الذي ادخل التصوف الى الصومال، كان الشيخ محمد ابن صالح ابن شقيقة الشيخ ابراهيم رشيد، صاحب الطائفة الرشيدية، وتدعى احيانا اليوسفية، بواسطة الشيخ الصومالي محمد «غولود» (توفي عام ١٣٣٤هـ) وكان لها اتباعٌ ومريدون.[٢]

وفي الصومال، كما في السودان، كان التصوف مربوطًا بالعائلة او القبيلة، وليس كطريقة دينية مستقلة، كما كانوا يربطونها بسلسلة ترجع الى ولي عربي. إنّ الذي ادخل الطريقة القادرية الى افريقيا الغربية، كان سيدي البقاعي من قبيلة «كونتا»[٣] وكان من العلماء الاتقياء، تزوج سيدي البقّاعي امرأة من قبيلة «تاجكنت» المشهورة بعلمائها والتي كان مركزها بلدة «تنيكي»، حيث بني فيها اربعة وعشرين مسجدًا والعديد من الزوايا والمدارس.[٤]

١- «بيت الصديق». محمد توفيق البكري ص ٦١. West Africa and Islam, Clerk p 8

٢- Trimingham, the Sufi Orders in Islam p. 121

٣- تدعي قبيلة «كونتا» ان نسبها يرجع الى عقبة بن نافع وان اصلهم كان من قيروان وجدهم محمد الكتني هاجر الى افريقيا الغربية واوجد قبيلة «الكونتا».

٤- «افريقيا الغربيّة والاسلام». ص ٣١ (بتصرف).

خلال سكن سيدي البقّاعي في بلدة «والاتا» ولد ابنه سيدي محمد، الذي كان صوفيًا قادريًا عمل على نشر الطريقة القادرية في غرب افريقيا.[١]

بعد وفاة سيدي البقّاعي عام ٩٢١هـ في بلدة «والاتا»، انقسمت قبيلة «الكونتا»، بسبب خلافات عائلية، الى فرق عديدة، فبرزت فرقة «كونتا الشرق» التي ضمت بعض قبائل عربية، ونشطت في الاعمال التجارية، بالاضافة الى نشر العلوم الدينية، وامتد نشاطها الى الجزائر وتمبكتو، بورنو، جوبير، كاتسينا وحوض الفولتا بحثًا عن الملح والحنطة وجوز الكولا.[٢]

انتشرت الزوايا الصوفية في غرب افريقيا، وكانوا يطلقون على الصوفية اسم «سكان الزوايا» تجمعهم اللغة العربية والطريقة القادرية، وكانوا رجال دين وعلم هدفهم العبادة ونشر الاسلام.

يقول المؤرخ H.T. Norris «في القرن التاسع عشر ميلادي، برز في موريتانيا ما عُرف «بنهضة الزاوية» وكان من روادها عدد من العلماء الذين اصبحت لغتهم العربية تراثًا للاجيال القادمة، كما استوحوا عقائدهم وافكارهم من المغرب والشرق العربي[٣] من هؤلاء العلماء الموريتانيين، كان سيدي عبد الله بن الحج ابراهيم من «تجيكا»، والشيخ سيديا الكبير مؤسس الجامعة الاسلامية في مدينة «بوتلميت» في جنوب موريتانيا، الذي روّج الطريقة القادرية، ومحمد الحافظ ابن المختار الذي أوجد الطريقة التيجانية في موريتانيا.[٤]

١- المصدر نفسه ص ٣١.

٢- «افريقيا الغربيّة والاسلام» ص ٣١.

٣- المصدر نفسه ص ١٥٣ وكتاب The Pilgrim of Ahmad

٤- «افريقيا الغربية والاسلام» ص ١٥٣.

يعتبر الشيخ سيديا الكبير (١٧٧٥ - ١٨٦٨م) من كبار الشخصيات الدينية والسياسية في تاريخ موريتانيا، وهو من قبيلة «ابري» التي، بعد وفاته سيطرت على سياسة موريتانيا.(١)

كان الشيخ سيديا من اكبر شيوخ «سكان الزاوية» اي الصوفية الذين ينتمون الى الطريقة القادرية، ويعتبر من الشيوخ الكبار الذين نشروا الطريقة القادرية في موريتانيا وجوارها. اخذ الشيخ سيديا علم التصوف عن يد الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير، الذي بعد وفاته عام ١٢٢٦هـ (١٨١١م) التحق الشيخ سيديا بابنه سيدي محمد الذي اكمل له علمه.(٢)

كانت جميع الطرق الصوفية في غرب افريقيا تتبع نظام الزاوية التي كانت تحت رعاية شيخ يرشد المريدين ويشرف على ادارة امورها وترتبط روحيا بالزاوية الام او مركز الطريقة الرئيسي. في القرن التاسع عشر ميلادي، كانت الزاوية القادرية في بلدة «توبا» في منطقة فونا - جالون؛ والزاويتان «كانكان» «ودياسان» في السنغال مرتبطتان روحيا بالزاوية «الكونتي» في «تمبكتو»(٣) وعند حدوث خلاف في بعض الزوايا ينتج عنه فروع، كالفرع «حماليّة» الذي انفصل عن الطريقة التيجانية.(٤)

اوجد الطريقة التيجانية الشيخ احمد التيجاني (١١٥٠ - ١٢٣١هـ) التي انتشرت في شمال افريقيا، وادخلها الى موريتانيا وغرب افريقيا الشيخ الموريتاني محمد الحافظ بن المختار (توفي عام ١٢٤٦هـ)(٥)

١- Islam and Social Orders in Mauritania. C. Stewart p. 10

٢- «افريقيا الغربية والاسلام» ص ١٥٥.

٣- المصدر نفسه ص ١٥٦.

٤- المصدر نفسه ص ١٥٧.

٥- «التيجانية». ابو النصر ص ١٠١.

التحق الشيخ محمد الحافظ بن المختار بالطريقة التيجانية خلال رحلته الى مكة لاداء فريضة الحج حيث التقى باحمد التيجاني الذي عيّنه مقدمًا للطريقة ووكيلاً له في غرب افريقيا. كان محمد الحافظ من قبيلة «عدوى علي» في موريتانيا، الذي، بعد وفاة الحافظ، دخل معظم افرادها في الطريقة التيجانية.

انتشرت الطريقة التيجانية في موريتانيا ومنها انتقلت الى السنغال وغانا، حيث عزّز وجودها وانتشارها في القرن التاسع عشر ميلادي، الشيخ السنغالي الحج عمر بن سعيد تَلّ.

اخذ الشيخ عمر بن سعيد علم التصوف عام ١٢٤٤هـ في مكة عن يد الشيخ عبد الكريم بن احمد النقيل الذي عيّنه شيخ الطريقة التيجانية من غرب افريقيا، وَقيل ان الحاجّ عمر بن سعيد تل اخذ علم التصوف عن يد الشيخ الصوفي المشهور محمد الغالي ابو طالب وليس عن يد احمد النقيل.[١]

تمكن الحاجّ من انشاء مركزٍ للطريقة التيجانية في «سوكوتو» بمعاونة الشيخ محمد بلو، الذي بعد ان تزوج ابنته مريم، تمكن من اقناعه على التخلي عن الطريقة القادرية والانتساب الى التيجانية، كما تمكن من انشاء مركز للتيجانية في «ماسينا» بمساعدة والي المدينة الشيخ ابو بكر.

اعلن الحاجّ عمر الجهاد ضد الفرنسيين، وبعد معارك عديدة، قتل عام ١٢٨١هـ وخلفه ابنه احمدو الذي تابع نضاله ضد الفرنسيين حتى عام ١٣١١ حين احتلّ الجيش الفرنسي السنغال فشتت اتباع الشيخ احمدو واجبرهم على التعاون مع السلطة الفرنسية.

١- «افريقيا الغربية والاسلام» ص ١٣١

اما الطريقة المرادية فقد اوجدها عام ١٣٠٤هـ احمد بامبا (١٢٦٧ – ١٣٤٦هـ) وكانت فرعًا من الطريقة القادرية ضمت الذين شردوا نتيجة الاحتلال الفرنسي للسنغال، وكان منهم اصحاب نفوذ وعلماء كما كان منهم عمّال ومزارعون[١]

بالرغم من توافق المرادية في العقيدة والمسلك الصوفي للطرق الاخرى كالقادرية والتيجانية، اختلفوا على اصرار الشيخ بامبا على مريديه واتباعه العمل والتقيد بالنظام حتى بدت الفروض الاسلامية ثانوية بالنسبة للعمل ومن اقواله: «العمل هو الصلاة اعملوا لي وانا اصلي لكم.»[٢]

عرف احمدو بامبا بعدائه ومقاومته للاستعمار الفرنسي، والتحق به العديد من الاتباع حتى قيل انه حوالي عام ١٩١٢ بلغ عدد اتباعه سبعين الفًا، معظمهم لم يكن من المسلمين الملتزمين بالدين، بل التحقوا بالطريقة استعاضة او بديلاً لخسارتهم مجتمعًا فقدوه بسبب الاحتلال الفرنسي[٣]

اعتقلت السلطة الفرنسية احمدو بامبا عام ١٨٩٥م ونفته الى «الغابون» عام ١٩٠٢تمّ نفته الى موريتانيا ثم اخلت سبيله عام ١٩٠٧ على ان لا يعود الى بلدة «توبا» ليعمل كعالم ديني او يتدخل بالسياسة. وفي عام ١٩١٠ سمح له الفرنسيون ان يسكن بلدة «ديوربل»[٤] ويعاود نشاطه كشيخ صوفي فالتف حوله الاتباع، حتى قيل انه في عام ١٩٤٥، بلغ عدد اتباع الطريقة المريدية نصف مليون عضو.[٥]

١- Towards an Islamic Policy in French West Africa. D. Cruise Obrien p.303.

٢- «افريقيا الغربية والاسلام» ص ٢٠٤.

٣- المصدر نفسه ص ٢٠٥.

٤- المصدر نفسه ص ٢٠٧.

٥- المصدر نفسه ص ٢٠٦

في اوائل القرن العشرين برزت طريقة، دُعيت التيجانية المتطورة اوجدها عام ١٩١٠م الشيخ عبد الله «نياسّ» (Niasse) بعد رجوعه من مكة واداء فريضة الحج. عند وفاته عام ١٩٢٢م اصبحت عائلة «نياسّ» زعيمة التيجانية في السنغال وغامبيا من دون منازع.

خلف عبد الله نياسّ على الطريقة ابنه محمد، ولكن شقيقه ابراهيم قرر عام ١٩٢٠م الانفصال عن اخيه محمد وانشأ فرعًا للتيجانية في مدينة «كولاك» حيث حصر علم الدين في دراسة العلوم الصوفية، كما الحّ على ان تكون السنة الشريفة انموذجًا لحياة المتصوف.

ادعى ابراهيم نياسّ ان الله منحه مواهب الهية وانه «مخلص العصر» وله كرامات وتقبل شفاعته.

في عام ١٩٣٧ زار ابراهيم نياسّ مدينة فاس حيث منحه زعيم التيجانية لقب خليفة التيجانية، وبهذه الصفة ارسل ابراهيم دعاته الى جميع بلدان افريقيا الغربية، فنجحت دعوته في نيجيريا، وخاصة في كانو وجوارها، كما اصابت بعض النجاح في غانا، غامبيا، ساحل العاج، موريتانيا، مالي وحوض الفولتا.[١]

يقول المؤرخ بادن (Padden). «ان من الذين قبلوا دعوة ابراهيم نياس – مخلص العصر – رأوا فيه شخصًا اسود منحه الله مواهب الهية. وحتى اتباع الشيخ محمد جمعه، الذي ادعى انه «المهدي» في افريقيا الغربية، قبلوا دعوته على انه نبي اسود وافريقي».[٢]

---

١ – «افريقيا الغربية والاسلام» ص ٢٠٧.

٢ – On the emergence of the reformed Tajaniyya. p. 69

بني ابراهيم للطريقة التيجانية المتطورة العديد من الزوايا والخلوات للعبادة وتعليم الصوفية، كما كانت نُزلاً لايواء المسافرين من اهل الطريقة او الحجاج.

اوجد الشيخ حام الله عام ١٩٠٩م الطريقة الحمّالية، وهي فرع من التيجانية عُرف اتباعها باسم التيجانية اصحاب «الاحد عشر خرزة» لان في صلاتهم كانوا يرددون الدعاء «جوهرات الكمال» احدى عشرة مرة بدلاً من اثنتي عشرة مرة، وقالوا ان هذا ما أمر به الشيخ احمد التيجاني، ولهذا لقّبوا باصحاب الاحدى عشرة خرزة.

انتشرت الطائفة التيجانية، ذات الاحدى عشرة خرزة، في حوض الفولتا، موريتانيا، السنغال، مالي، النيجر، وساحل العاج[١] وقيل ان في عام ١٩٣٠ بلغ عدد اعضائها حوالي ثمانية وستين الف عضو[٢] عُرفت هذه الطائفة بمقاومتها الاستعمار الفرنسي، فاعتقل الفرنسيون الشيخ حام الله ووضعوه تحت الحراسة في باريس حتى توفي عام ١٩٤٢.[٣]

اتهمت هذه الطائفة بالكفر، خصوصًا، اضافة اسم حام الله الى الشهادة فكانت شهادتهم، لا اله إلاّ الله ومحمد وشيخنا حام الله رسولا الله[٤]

انتشرت المهدية في غرب افريقيا، وكان اعتنقها العديد من المسلمين عند مرورهم في السودان في طريقهم الى مكة لاداء فريضة الحج.

١- «افريقيا الغربية والاسلام» ص ٢١٣.

٢- المصدر نفسه ص ٢١٣.

٣- المصدر نفسه ص ٢١٣.

٤- المصدر نفسه ص، ٢١٣.

وفي عام ١٨٨٣م سافر الشيخ حياتو بن سعيد، حفيد الزعيم المشهور عثمان دان فادو، والذي ولد عام ١٨٤٠ في مدينة سوكوتو، الى السودان حيث عيّنه محمد احمد المهدي نائبًا له على جميع سكان سوكوتو. عند رجوع الشيخ حياتو الى سوكوتو اعلن ان المهدي محمد احمد الموجود في السودان، هو المهدي الغائب المنتظر وعلى الجميع الاعتراف بسلطته واطاعة اوامره.(١)

نشبت معارك عديدة بين المهديين والانجليز والفرنسيين، لا مجال لذكرها لانها تتجاوز حد دراستنا وهو التصوف في افريقيا، ولكن لا بد من الاشارة الى ان معظم الطرق الصوفية تعاونت مع المهدية وشاركت في القتال الى جنبهم.

في عام ١٨٩٤ قتل الشيخ حياتو بن سعيد مع جميع ابنائه، عدا سعيد، الذي استلم قيادة المهدية حتى اعتقله الانجليز ونفوه عام ١٩٢٣ الى الكاميرون وفي عام ١٩٥٩ اخلوا سبيله حيث عاش في مدينة كانو في نيجيريا حتى توفي.

ننهي هذه الدراسة عن الصوفية في افريقيا بقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «وانتشار الاسلام في افريقية السوداء جنوبي الصحراء: السنغال، ومالي، والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا وتشاد – إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه الى الطرق الصوفية، خصوصًا التيجانية والسنوسية والشاذلية. فكانت الزوايا والرباطات التي اسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الاسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الافريقية وقلبها».

ومرد هذا خصوصًا الى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد وعيشهم بين العامة والفقراء، مما ابدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى والصلاح، الى جانب ما تقوم به هذه الطرق من خدمات اجتماعية وألوان من البر والاحسان والمواساة والمؤاخاة.(٢)

١– «افريقيا الغربية والاسلام» ص ١٢١.

٢– ت«اريخ التصوف الاسلاميّ» ص ٢٥ و٢٦.

الصوفية عند الموحدين الدروز

الصوفية عند الموحدين الدروز، تحديدًا عند مشايخ الدين، هي ممارسة حياتية روحانية مرتكزة على التقوى والايمان الخالص والمطلق بالله تعالى. فهم صوفيون في ملبسهم، زاهدون عن دنياهم متقشفون في حياتهم، يعبدون المولى تعالى مباشرة من دون وسيط كالأئمة والاحبار والكهنة، والفناء في عبادته تعالى في خلوات خالية من الزخارف ومظاهر الترف وبهارج الدنيا، يسودها الورع والتقوى والخشوع. هذا التعبد المباشر من دون وسيط، بالاضافة الى التقشف والزهد، هو مسلك التصوف الروحاني الذي ينشده ويسلكه المتصوفة للفناء بالله سبحانه وتعالى[١]

يختلف الموحدون والصوفية في العقل، فالعقل عند الموحدين مقدس واساس مذهبهم ومولاهم، هو ثاني الله الذي ابدعه من نوره، وارادته على الارض. والصوفية يتجاهلون العقل على انه لا يحد الالهيات، فهو للاستدلال على خالق الكون والبحث في كنه الله، وهو وسيلة واستعداد لتحصيل العلم ولا يجوز حصر نطاق المعرفة فيه.

١- «تذكر يا مروان». سليمان علم الدين ص ٥٧٦.

كان الوالي الموحد الامير السيد عبدالله جمال الدين التنوخي من كبار اهل التصوف ومن اقواله: «خلقت النفس للعبادة والتوحيد. وقبل ان يتسنى لها بلوغ هذه الغاية، عليها ان تتخلص من الظلمة التي فيها، والتي هي بمنزلة السباع الضارية اذا هاجت اهلكتها، وعليها ان تعلم ان الشر لا يأتيها إلاّ من ذاتها وفي النفس الجامعة للقوى الحيوانية قال النبي «اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» فينبغي على الانسان ان يبقى في كفاح مستمر معها، فيوبخها ويعاقبها، ولا يرمي سوط التأديب من يده ساعة واحدة. فمتى قهرت النفس الشهوات أصبحت خاشعة لله، مراقبة لباريها، سائرة الى معرفته، فيمنّ عليها الصفاء والاشراق».(١)

ويلتقي الموحدون الدروز والصوفية في المقامات والاحوال. فالمقامات عند الموحدين والصوفية تبدأ بالتوبة فهي المرحلة الاولى لطالب المريد السلوك في طريق الحق والانضمام الى سلك الشيوخ، اصحاب الزهد والعبادة الذين يؤمنون ان لا يوجد ذنب كبير، إلاّ والتوبة اكبر منه. ويقول الله في كتابه الكريم. «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم»(٢)

اما التوكل، وهو الاسترسال مع الله على ما يريد، فيقول الولي الامير السيد عبد الله: «توكل كل التوكل ولا عذر في التواني. وتوقّ كل التوقي ولا حارس من الاجل، واطلب كل الطلب ولا تسخط لما جلب القدر.» اما اهل التصوف فيقول الشيخ الدقاق: «التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الاولياء والتفويض صفة الموحدين.» ومن اقوال اهل التصوف: «التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه.»

١- «الدروز في التاريخ» ص ٢٣٦، الدكتورة نجلا ابو عز الدين.
٢- سورة التوبة آية ٢٧.

اما في كتاب المصحف المنفرد بذاته، وهو من الكتب الدينية الدرزية، توجد ايحاءات صوفية جلها عن العشق الالهي كما عرفته رابعة العدوية.

– مولاي، ان كنت ادعي لك حبًا، فانت الفرد اعلم بما ادعيه. وهذا القلب الذي بين اصبعيك يناديك لانك انت الصلاة.

مولاي، لقد انعمت علي فاذقتني رشفة من ثمالة كأس حبك. لقد طاب لي مذاقها. سبقنا يا مولاي، احباب اخلصوا لك الحب. فنعموا برضوانك الابدي، فالحقنا بهم وادخلنا في جنة عشاق جمالك.

مولاي، لقلوبنا في حبك لهفات وحسرات وتوسلات آناء الليل واطراف النّهار، في تلك الآناء تخلو قلوبنا فيها لك. (صفحة ٥٠).

– مولانا اجعلنا نسير بقدم الروح حتى تُطْوي بوادي البعد والهجر النائية. (صفحة ٥١).

– مولاي، انت الذي احببتني بأنت، واسعدتني بك لكونك قريبًا من قلبي دون المناجاة. فهو السعيد كلما شاقني الوجد اليك. (صفحة ٥٩).

– مولاي، لا استطيع جحود ما بي من اشواق تحِنُّ فيّ الى تقديسك والقربى اليك، وهل استطيع، يا مولاي، ان اخفي ما اذقتني من شعوري بأنسك. (صفحة ٦٠).

– سبحانك، انك تتنزه ان اعيش معذبًا اطلب القربى منك وانت القريب الرحمن الرحيم.

مولاي، ما ذقت وما ذاق محب نعيم حبك الاّ تملكته النشوة من نسمات علوية واشواق قدسية. (صفحة ٦١).

– مولاي، حبك، يا حبيب الارواح، يكمن فيها كُمُونَ ضيائك في عيون المستهدين بك.

– مولاي، انك تسمع وانا احاور نفسي في هواك، يا راح روحي وانت سماع تلك القالة. (صفحة ٦٢).

– مولاي، أَمِتني في منابع كوثر قربك، ثم احييني بتلك النسمات، نسمات فجر ليلة الوصول (ص ٨٨).

– ألمحُ مصباحيَ الزاهي المنير. فمن اين له هذا الضوء، فهل هو اقباس جذوة، ام هو العشق الدائم في اشراقه.

ايه يا مولاي، زدني فما أَسعدَ هذا القلبَ بحب من احبك، وهو اليف لمن رام وجهك. (صفحة ٩٣).

يا روح روحي، يا مبدعي فجر خلقتني، ويا مراشدي، يا حبيبي. (صفحة ١١٦).

يا حبيبي ومولاي المعبود، بعزة هواي الذي هوى من لَدُنْك، وبعزة ذلي في مقامي هذا، وبهذه الخدود التي تمرغتْ رقة وصبابة. (صفحة ٢٤٦).

يا حبيبي ومولاي المعبود، اما آن لهذه النفس ان تمن عليها مرة اخرى فتحيطَ عينها بذواتها (صفحة ٢٥٢).

وكتاب «سجل سرائر الأول والأُخر وأنباء الأدوار وتهاليج الأكوار» كذلك يحفل بايحاءات صوفية منها:

«وهل اثمرت شجرة القيد وتجلّت بجمالها وألقت غشاءها منذ فجر ابديتها، وتغنى على أفنانها الطير الخضر صبح الأزلية، وثم النجدان، وثم الذين شربوا لحن الوصال لدى غياب الحبيب ورجّعوا ذلك الحداء أمام تلك المجالي، والذي يفنى يشاهد كل اسرار الوجود». ص ٣٠.

«وكم جنى لسان طائري على ذواته بذاتي فلوّن صفائي، واشرك امثالي بأوقاتي، وكم مات ثم أحياه تعلّم الحان الحبيب، فغنّى وأطرب. وناجى

وأطنب. إليَّ واليَّ يا صفيَّ ويا موضع اسراري ومواقع وحي المحب المحبوب. وكم لعب بهذه الألحان فغيّرها وأضاء حجرات القلوب. ص ٣٤.

«فيا أيّها السائر المنادي الضال في كل واد، الجائل حول ذاته، او لم يأنْ لك أن تعلم أنّك أنت مجلى الحق ومرآة الحقيقة التي ران على قلبك فنسيتها، وهي التي طالما ناولتك ذاتها في خمرة كأسها، فسكرت ثم سكرت، فثملت ثم صحوت، ثم أعادت عليك الكرّة فطهرتك وألبستك دثارها، حتى محتك فأحيتك، فعلام هذا الوجد، وأنت أنت الوهم، وأنت الخيال وأنت الفكر والنظر، وأنت كل شيء مما ترى ومما لا ترى ظلال هذه الصور والحق هو المصدر». ص ٤٢ «وثم رتلت الحان الخلود، الحان داود وثمود، ألحان سيماهم في وجوههم من أثر السجود: أنا أنت، ولست أنا، ولست أنت، فلا أنا إلاّ بك ولا أنت إلاّ بي. هذه هي حقيقة صورة كمال «كن» في كل وجود بالذات قبل ابداع الذوات وغب انزال مزن الحكمة». ص ٥٩.

وكتاب «درر النحور في التوبة الى الملك الغفور»، للشيخ جمال الدين ابن علي الكفرقوقي، وهو من كتب الموحدين، يزخر باقوال واشعار واخبار اهل التصوف.

اما بالنسبة الى الخرقة الصوفية، اي رداء الصوف الازرق الذي يلبسه الصوفي، فان رداء العديد من الموحدين الاتقياء من الصوف الازرق.

مما لا يقبل الجدل ان الموحدين الدروز هم فرقة اسلامية، صوفية عقلانية، يمارسون الصوفية ويقدسون مولاهم العقل.

قال المعتزلة، ومنهم استوحى الموحدون الدروز تقديس العقل، «نرفض الايمان اذا لم يقبله العقل». والعقل ثاني الله تعالى ابدعه من نوره وجعله ارادته على الارض.

الصوفية في الاتحاد السوفياتي

في عام ١٩٦٨ كتب المؤرخ الروسي توتيف: «اليوم المتعصبون من طائفة «باتال حجي» الفرع الرئيسي للقادرية في تششينا، تحجم الى اقلية عديمة الشأن، وتأثيرهم على الاجيال القادمة صغر.»(١)

شهدت آسيا الوسطى، التي كانت تمثل حدود العالم الاسلامي، نشاطًا صوفيًا كبيرًا، حيث انتشرت بها الطرق الصوفية كالكبراوية، واليسوية في القرن الثاني عشر، والنقشبندية في القرن الرابع عشر التي كان لها دور مهمٌ في مقاومة الغزو المغولي.(٢)

في القرنين الثامن والتاسع عشر تطورت الصوفية في الاقاليم التي كانت تدعى الاتحاد السوفياتي، على ثلاثة نماذج.(٣)

الاول في امارة بخارى وخيفا حيث الطابع الاسلامي للمجتمع لم يكن في خطر، حتى في الغزو الروسي، فكانت الطرق الصوفية جزءًا من المؤسسة الحاكمة والطبقة النافذة، تنعم بالثراء وتُعتبر من علية القوم، وكان ولاؤها للسلطة الحاكمة.

١- Reakisionnaia Sekta Batal Haji Page 27

٢- «الصوفية في الاتحاد السوفياتي» الكسندر بنجسن ص ٣.

٣- المصدر نفسه ص ٣.

الثاني في اقليم فولغا الوسطى حيث كانت الجالية الاسلامية في الحقول، تواجه تحدي وتهديد الوجود الروسي. حصرت الجالية نشاطها في حقول العلم والثقافة.

الثالث في شمال اقليم القوقاز، ومرتفعات التركمان ووادي فرغانة في آسيا الوسطى حيث الغزو الروسي لقي مقاومة شديدة من السكان، وكان للطرق الصوفية دور كبير في تنظيم ومساعدة المقاومة ضد الروس[١].

خلافًا لما حدث في ايران، وافغنستان، وتركيا حيث كانت الاصولية والمؤسسات الاسلامية مستقلة، وغالبًا تقاوم نشاط الصوفية. أمّا في شمال القوقاز فكانت الصوفية تسيطر، ولا زالت حتى يومنا هذا، على سياسة ونشاط المقاومة.[٢]

برزت في القرن الثامن عشر الاصولية الاسلامية، التي كانت تهدف الى ارجاع الاسلام الى اصوله الجذرية في الدين، مما أكّد للسوفيات ان الصوفية الاسلامية لم تندثر نهائيًا نتيجة الممارسات القاسية والضغوط الشديدة التي شنّها السوفيات عام ١٩٢٨ ضد المعتقدات الاسلامية.[٣]

حسب المصادر السوفياتية يوجد اربع طرق صوفية تعمل حاليًا في الاتحاد السوفياتي سابقًا: النقشبندية، القادرية، اليسوية، والكبراوية.

١- الطريقة النقشبندية

اوجد الطريقة النقشبندية في بخارى الشيخ بهاء الدين نقشبند (توفي عام ١٣٨٩م) التي اصبحت اهم الطرق الصوفية في روسيا. انتقلت النقشبندية من بخارى الى منطقة الفولغا الوسطى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر حيث الفرقتان القادرية واليسوية[٤]، وثم امتدت الى تركستان الصينية

١- «الصوفية في الاتحاد السوفياتي» ص ٤.
٢- المصدر نفسه ص ٤.
٣- المصدر نفسه ص ٤ (بتصرف)
٤- المصدر نفسه ص ٧.

حيث أصبحت في القرن السادس عشر مدينة كشجار (Kashgar) اقوى مركز للنقشبندية. وفي القرن الثامن عشر ظهرت النقشبندية في وسط القبائل التركمانية حيث احتوت الطريقة اليسوية التي كانت تسيطر على تلك المنطقة. وفي القرن التاسع عشر اخترقت النقشبندية منطقة خوارزم وحلّت مكان الطريقة الكبراوية، ثم ظهرت، عن طريق شروان وكردستان، في داغستان. وفي القرن التاسع عشر انتشرت في منطقة تشثان والقوقاز الغربي[١]

تفوُّق الطريقة النقشبندية على الطرق الصوفية الاخرى سببه احتواؤها جميع الطبقات من علماء، واثرياء، وقادة عسكريين، واصحاب املاك، وفي الوقت نفسه، حرفيين وحتى مزارعين[٢]. بالاضافة الى ذلك اكتسبت شهرة واسعة بين الشعب نتيجة خوضها حروبًا مقدسةً ضد «البدهست - كالمكس» (Buddhist Kalmyks) في تركستان، «كما قاتلت الروس في القوقاز في ايام الامام منصور عام ١٧٨٣ الى ايام الامام نجم الدين «الهوتسو»[٣] عام ١٩٢٠، كما عُرف عن النقشبندية التحرر العقائدي والانفتاح الفكري والبعد عن التعصب والتطرف الديني.

٢- الطريقة القادرية

ادخل التجار العرب من بغداد الطريقة القادرية الى مملكة بلغار في الفولغا وتركستان، ولكن في القرن الثاني عشر والرابع عشر احتوتها الطريقة اليسوية من منطقة الفولغا، وفي القرن الرابع عشر حلت النقشبندية محلها في آسيا الوسطى، ولكنها لا زالت، حتى هذا اليوم، تعمل في وادي فرغانة[٤]

١- المصدر نفسه ص ٧و٨.
٢- المصدر نفسه ص ٨.
٣- المصدر نفسه ص ٨.
٤- المصدر نفسه ص ٩.

في عام ١٨٥٠ ادخل القادرية الى شمال القوقاز، كونتا حجي كيشيف، ولهذا أطلق عليها السوفيات اسم طريقة الحجي كونتا، مع تجاهل علاقتها بالطريقة الرئيسية.[١]

لعبت الطريقة القادرية دورًا مهمًا في نشر الاسلام بين الشاشان، ولكن لم يتعد نشاطها تلك المنطقة، فبقيت طريقة محلية.

بعد وفاة كونتا حجي، انقسمت الطريقة القادرية الى اربعة فروع:[٢]

١- الطائفة حجي كونتا التي انحصر نشاطها في تشاشينا والمنطقة الجبلية في دغستان.

٢- الطائفة بامات جيراي. مركزها في «افطور» ولا يتعدى نشاطها منطقة شاشان - انجوش.

٣- الطائفة باتال حجي. مركزها في «سرهوهي»، «ويندركا» «واكنر هيفو» في منطقة «نازاران». عُرف عن هذه الطائفة التعصب، وتنتشر حاليًا في معظم منطقة شاشان - انجوش وشمال الداغستان.

٤- الطائفة تشم ميرزا. مركزها في مدينة «ميرتب» في منطقة شالي في شاشان. هذه الطائفة لها اتباع في جميع شاشان - انجوش.

الطريقة القادرية في القوقاز تختلف عن النقشبندية بانها مؤسسة مركزية يربط اعضاءَها نظام موحد صارم واخلاص لشيخهم. اعتبر السوفيات الطريقة القادرية متطرفة ولها ميول عدوانية اكثر من الطريقة النقشبندية.

١- المصدر نفسه ص ٩.

٢- المصدر نفسه ص ١٠.

٣- الطريقة اليسوية

يقول المؤرخ دميدوف «ان بقاء الطريقة اليسوية حتى يومنا هذا (عام ١٩٧٨) سببه الاحترام الذي يكنه الناس لقبائل عطا، سيد، شيخ، خوجا ومجاوير التي ينتمي اليها اتباع هذه الطريقة، كما يعتبرون ان نسب هذه القبائل يرجع الى الخلفاء الاربعة الراشدين[١]

مركز الطريقة اليسوية مدينة تركستان في منطقة «شمكن» في «كزاخ» وهي مجهولة لا يعرفها إلاّ القليل من الناس وبعيدة عن الاجواء السياسة والاجتماعية.

اختفت الطريقة اليسوية من منطقة التتر حيث توجد قبائل التركمان اذ احتوتها الطريقة النقشبندية، والان توجد فقط في وادي فرغانة وجنوب كزخستان[٢]

يوجد الان للطريقة اليسوية فرعان: «لا شي» وهم من المزارعين يسكنون قرى في مناطق فرنز، باتكن و«ليلك» من اقليم «اوش»، والمناطق الشرقية في اوزبك ومعظمهم من قبائل «كرخز» والفرع الثاني «هري - ايشان» يقطنون المدن. مركز الطريقة اليسوية مدينة ارسلانبوب من منطقة «كرخز» وفي قرية «شلجازي» الواقعة بالقرب من مدينة «سلكتو» من مقاطعة اوش.[٣]

١- المصدر نفسه ص ١١ (الحاشية بتصرف).

٢- المصدر نفسه ص ١٢.

٣- Sufizm Zhana anyng Qyrgyz standagy Agymdary p. 45

٤- الطريقة الكبراوية

مركز الطريقة الكبراوية في مدينة كونيا – ارجنش في اقليم تركمنستان حيث يوجد قبر مؤسسها نجم الدين كبرى. هذه الطريقة محصورة في اقليم خوارزم. في عام ١٨٧٣ احتوت معظم اتباع هذه الطريقة، الطريقة النقشبندية من بخارى، واتباعها في يومنا الحاضر جلهم من المزارعين[١]

يوجد في الاتحاد السوفياتي (سابقًا) العديد من الصوفية لا ينتمون الى طريقة، بل مسلمون أُتلفت او هُدمت مساجدهم، خصوصًا في عهد خروتشيف فبقوا على تصوفهم دون الالتحاق بطريقة او مؤسسة. أطلق السوفيات على هؤلاء الصوفية اسم القلندرية التي كانت طريقة اوجدها الشيخ صفا في مدينة سمرقند.[٢]

منطقة شمال شرقي القوقاز، التي تضم اقليم تششن – انجوش وداغستان، كانت آخر منطقة انتشر بها التصوف، واصبحت، بالرغم من الضغط الروسي وسياسة القمع لتحجيم الاسلام، منطقة النضال والجهاد الصوفي.

عمل الروس على اقفال وحتى تدمير المساجد والمدارس الدينية الاسلامية فنجد، حسب احصاء عام ١٩١٣، انه كان في داغستان ٢٠٦٠ مسجدًا و ٨٠٠ مدرسة، ومن مقاطعة شاشان ٨٠٦ مسجدًا و٤٢٧ مدرسة، وفي عام ١٩١٧ كان عدد المساجد في ازربيجيان ٢٠٠٠ مسجدًا و٧٨٦ مدرسة. اما اليوم اي عام ١٩٧٦، بعد الثورة البولشفية بستّين سنة يوجد ٢٧ مسجدًا في داغستان، و٩ مساجد في شاشان و١٦ في ازربيجيان ولا يوجد اية مدرسة في المقاطعات الثلاث، ولا منشورات او جرائد عربية او دينية[٣] واصبح الدين ممارسة فردية لا علاقة له باماكن العبادة او المؤسسات الدينية.

١- المصدر نفسه ص ١٣. (بتصرف).

٢- «الصوفية في الاتحاد السوفياتي» ص ١٤.

٣- «الصوفية في الاتحاد السوفياتي» ص ١٨ و١٩.

واجه الروس عقبة صعبة في القضاء وحتى تحجيم الاسلام، فبالرغم من اقفال المساجد والمؤسسات الدينية، وجد الروس الاسلام هدفًا غير محدود بزمان او مكان، فاذا اقفلت المساجد، برز كقوة موازية في تجمعات سرية فاعلة، بالرغم من عدم تنظيمها وتفرقها، تجمعها العقيدة والايمان بالله. وهنا برزت القوة الصوفية بما عرف عنها من صلابة في الايمان، تقود هذه الجماعات في نضالها ضد الروس.

اول من اعلن الجهاد ضد الروس كان الشيخ النقشبندي منصور «اوشورما»، حيث انتصر عليهم عام ١٧٨٥م في معركة نهر «سنزها» (Sunzha). بعد هذه المعركة وحّد الشيخ منصور قبائل الشاشان والداغستان، ولكن لم يتمكن من ضم قبائل الشركس من سكان غرب القوقاز الى قواته. في عام ١٧٩١م اسره الروس في قلعة «انابا» وحكموا عليه بالسجن المؤبد. توفي الشيخ منصور عام ١٧٩٣م. وبعد وفاته تفرق اتباعه وغابت النقشبندية عن القوقاز لمدة ثلاثين سنة.(١)

ثم في عام ١٩٢٥م اعلن الجهاد ضد الروس الشيخ محمد افندي اليوكاري، تلميذ الشيخ النقشبندي البخاري خاز - محمود. امتدت هذه الثورات والمناوشات في عام ١٨٢٤م حتى عام ١٨٥٥م واشترك فيها العديد من شيوخ النقشبندية، وبالرغم من محاولات عديدة، لم يتمكن الروس من احراز انتصار حاسم على النقشبندية.

في عام ١٨٧٧م قاد الشيخ عبد الرحمن الثورة في داغستان وشاشان، فأسره الروس وارسلوه الى سيبيريا حيث مات في السجن.

١- «الصوفية في الاتحاد السوفياتي» ص ١٨ و ١٩.

بعد هذه الهزيمة وهجرة بعض شيوخ النقشبندية الى تركيا ومكة، وسجن البعض الاخر، واحتلال الجيش الروسي لكامل داغستان، التحق معظم النقشبندية بالطريقة القادرية.

ادخل الطريقة القادرية الى القوقاز في اوائل عام ١٨٥٠ الشيخ الداغستاني كونتا حجي «كيشيف» وكان من قرية «انخو» ولكن سكن بلدة «اليسفان يارت» في اقليم شاشنية. سافر كونتا حجي الى مكة لاداء فريضة الحج حيث دخل في الطريقة القادرية. ثم بعد انتهاء الحروب النقشبندية عام ١٨٦١ رجع الى القوقاز.[١]

كانت طريقة كونتا حجي القادرية تدعو الى السلام والتخلي عن العنف والقتال، كما ادخلوا السماع والرقص، ممارسات يرفضها النقشبندية. انتشرت القادرية في شمال داغستان، حيث كانت جرت الحروب النقشبندية مع الروس، فدخل بها الكثير من الاتباع الذين كانوا ملّوا الحروب والقتال وطلبوا السلام والطمأنينة.

في عام ١٨٦٤ حدثت بعض الاضطرابات في شاشان فتدخل الجيش الروسي فكانت النتيجة قتل مائتين من القادرية في بلدة شالي واعتقال الشيخ كونتا حجي الذي توفي في السجن عام ١٨٦٧[٢]. بعد هذه الحادثة شجع الروس اتباع القادرية على الهجرة الى تركيا فهاجر خمسة الاف عائلة قادرية من اقليم الشاشنية.

١- «الصوفية في الاتحاد السوفياتي» ص ٢٠

٢- المصدر نفسه ص ٢١.

في عام ١٨٧٧ اشترك القادرية والنقشبندية في ثورة ضد الروس في داغستان وشاشنية، وكان قائد الثورة الحاجّ محمود، ابن الشيخ المعروف، عبد الرحمن من «سوكرات» الذي كان نقشبنديًا، اما في شاشنية فكان الثوار من القادرية.(١)

انهزمت القوات القادرية والنقشبندية وأُعدم الكثير من شيوخهم وأُرسل الالاف من اتباعهم الى سيبيريا.(٢)

بعد ثورة ١٨٧٧ تخلت الطريقتان عن الجهاد ولزموا الهدوء إلاّ بعض المناوشات الصغيرة التي كان الروس يقضون عليها بسهولة.

انتشرت الطريقة النقشبندية في داغستان وكان اتباعها من الارستقراط والاثرياء والعلماء. اما اتباع الطريقة القادرية في الشاشنية فكانوا من الحرفيين والمزارعين.(٣)

في عام ١٩٢٩ اندلعت الثورة في شاشنية وكان القادرية والنقشبندية يقاتلون سويا تحت قيادة النقشبندي شيتا استامونوف والشيخ ارسانوكي خضرلزوف كذلك نقشبندي.

استمرت الثورة حتى ربيع عام ١٩٣٠ وانتهت بهدنة مع الروس وعفو عام. ولكن في صيف عام ١٩٣٠ قتل احد النقشبنديين القائد الروسي حاكم تشاشنية، فكانت ردة الفعل عند الروس اعدام جميع الشيوخ والعديد من النقشبندية الذين اشتركوا في ثورة ١٩٢٩.

امتدت الثورات والاضطرابات حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. ثم عام ١٩٥٠ اعتقلت السلطات الروسية العديد من شيوخ الصوفية وجرت محاكمتهم عام ١٩٥٩، ١٩٦٣ و١٩٦٤ بتهمة قطع الطرق وقتل الابرياء التي عقوبتها الاعدام.

١- المصدر نفسه ص ٢٢.

٢- المصدر نفسه ص ٢٢.

٣- المصدر نفسه ص ٢٣.

توحيد الطرق الصوفية في الامبراطورية العثمانية

كان السلطان عبد الحميد يولي اهتمامًا كبيرًا فكرة توحيد الطرق الصوفية في الامبراطورية العثمانية وجعلها نواة للوحدة الاسلامية الكاملة، على ان تكون تحت الحكم العثماني المباشر.

ابرز هذا المشروع الشيخ الصوفي محمد بن حمزة ظافر المدني في كتابه «النور الساطع»[٢] فلاقى استحسانًا في الولايات العثمانية، عدا المغرب العربي وبعض المفكرين المسلمين مثل الكواكبي، الامام محمد عبده، وجمال الدين الافغاني الذين حبذوا المشروع كتوحيد للصف الاسلامي، ولكن رفضوا بشدة ربط الوحدة الاسلامية بالدولة العثمانية وجعلها تحت الحكم العثماني المباشر.

قدم الشيخ محمد حمزة استنبول وسكن بيتًا قرب قصر يلدز، قدمه له السلطان عبد الحميد الذي شجعه على بناء بعض الزوايا للطائفة الميدانية في استنبول، ولكن موضوع الوحدة الصوفية الاسلامية بقي دون تقدم او تشجيع من السطان.

اما الصوفي الذي نشر الطريقة الميدانية في سورية كان رفيق علي ابن مأمون ابي بكر. ثم تمثلت الطائفة الميدانية بالطائفة اليشروطية التي اوجدها الشيخ الصوفي التونسي نور الدين علي اليشروطي، ثم انتقلت عام ١٨٥٠ الى عكا في فلسطين وبنت لها زوايا في طورسينا، القدس، حيفا، دمشق، بيروت ورودس[٣]

١- المصدر نفسه ص ٣١.

٢- طبع هذا الكتاب في استنبول عام ١٨٨٤ بعد ان ترجمه ولي الدين يكن. ص ١٦٩.

٣- The Sufi Orders in Islam p. 126

اقوال بعض مشايخ الصوفية الاوائل

المعرفة هي تجلي الله تعالى بالعقل.

الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس عن كل طرفة.

الورع ملاك الدين والطمع آفة الدين.

نعوذ بالله من صرعة الغافل وكبوة الجاهل. (الغزالي)

المشاهدة هي توالي انوار التجلي على قلب المؤمن من غير ان يتخللها ستر وانقطاع. (عمرو بن عثمان المكي)

احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم. (معروف الكرخي)

الزهد في اكرام واجب وفي الحلال فضيلة. (ابو حفص)

الزهد في الحرام لان الحلال مباح من قبل الله تعالى.

الزهد اختيار الفقر على الغنى اختيارا. (الطوسي).

الخشوع الانقياد للحق والتواضع استسلام للحق.

الخشوع بذل القلوب لعلّام الغيوب.

الشوق يسكن باللقاء والرؤية والاشتياق لا يزول باللقاء. (الدقاق)

التواضع نعمة لا يحسد عليها والكبر محنة لا يرحم عليها

العز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده .

الله هو المعروف قبل الحدود وقبل الحروف. (الشبلي)

العقل يدل، والحكمة تشير، والمعرفة تشهد ان صفاء العبادات لا ينال الاّ بصفاء التوحيد. (المرائمي).

العقل لم يوجده كان ولم يفقده ليس. (الجنيد)

القرب بالوجد جمع والغيبة بالبشرية تفرقة. (الجنيد)

التصوف ان تكون مع الله بلا علاقة. (الجنيد).

القلوب شواهد الحق.

المعرفة تنير السبيل الى الحقيقة التي هي برهان العقل.

الاحوال تأتي من الوجود نفسه والرضا من جملة الاحوال.

اصل التقوى اتقاء الشرك والمعاصي.

السفر توجه القلب الى الله تعالى.

الفناء عدم رؤية العبد لفعله.

التجلي ما ينكشف للقلب من انوار الغيوب. (الغزالي)

الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به الاّ اهله.

التسليم الرضا بقضاء الله تعالى والصبر على دوام المجاهدة. (الغزالي).

الورع ان يتورع الانسان عن كل ما سوى الله تعالى. (الشبلي).

الورع اول الزهد كما ان القناعة طرف الرضا. (الداراني)

القناعة بمنزلة الورع من الزهد، هذا اول الرضا وهذا اول الزهد. (عبد الواحد بن زيد).

القناعة ترك التشوق الى المفقود والاستغناء بالموجود.

القناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق.

اذا اراد الله بك شرًا سلبك القناعة وابتلاك بالطمع.

من تابعت عيناه ما في ايدي الناس طال حزنه.

التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

التوكل هو الاعتصام بالله تعالى.

التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه.

المتوكل يسكن الى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه. والتفويض يرضى بحكمه. التوكيل بداية، والتسليم واسطة والتفويض نهاية. (الدقاق)

الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. (الشبلي)

الشكر الكامل يكون بالقلب واللسان والافعال.

التوكيل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الاولياء، والتفويض صفة الموحدين. (الدقاق)

شكر العينين ان تستر عيبًا تراه وشكر الاذنين ان تستر عيبًا سمعته. (التستري)

اليقين اذا وصل الى القلب يملأ القلب نورًا وينفي عنه كل ريب ويمتلئ القلب به شكرًا ومن الله تعالى خوفًا. (الانطاكي)

اول مقامات اليقين المعرفة ثم التصديق ثم الاخلاص ثم الطاعة للمولى تعالى.

اول واجبات المؤمن المعرفة بالله تعالى ثم نفسه، والمعرفة هي النظر الصائب في الادلة وفي البرهان والايمان بالتوحيد.

اليقين النظر الى الله تعالى في كل شيء والرجوع اليه في كل شيء والاستعانة به في كل حال. (ذو النون المصري)

اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير في قلب المؤمن. (الجنيد)

على قدر مفارقة المؤمن للنفس يصل الى اليقين. (ابن عطا)

اليقين رؤية العيان بقوة الايمان. (التستري)

اليقين هو العلم بانه لا فاعل الاّ الله ولا معين الاّ الله تعالى.

الصبر هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

الصبر لله تعالى عناء والصبر بالله تعالى بقاء.

الرجاء يحركك الى الطاعات والخوف يبعدك عن المعاصي والعقل يؤدي بك الى طرق الحقائق.

الرضا هو نهاية التوكيل.

الراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره.

الرضا ان لا تعترض على الحكم والقضاء.

الفرض الدائم هو الصدف.

التصوف ان لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء. (سمنون)

التصوف هو الاخذ بالحقائق والاعراض مما في يد الخلائق. (الكرخي)

التصوف كف فارغ وقلب مليء بحب الله تعالى.

التصوف ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع وعمل مع اتباع. (الجنيد)

الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق. (شبلي)

الصوفي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب. (ذو النون)

الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء. (التخشيبي)

الصوفية حال تضمحل معها مطلبات الجسد. (المزابلي)

التصوف الاعراض عن الاعتراض. (الصعلوكي)

الصوفي قوته ما وجده. ولباسه ما يستره، ومسكنه حيث نزل وفناؤه في الله تعالى.

التصوف ترك ما لا يعني. (الطوسي)

التصوف ترك العلو والترفع وبذل الجاه. (الطوسي)

ألاّ يريد الصوفي إلاّ ما يريده الله.

التصوف القناعة بقليل الدنيا لا بكثيرها.

الصوفي لا يضطره الله التكوين الى الكلام. وكلامه اليه كيف شاء كان، خزائنه من كلمته. (المكّي)

الموحد يأخذ اعلى التوحيد من ادنى الخطاب وايسره. (الجنيد)

الصوفي يختار الشكر على الصبر لان الصبر حال اهل البلاء.

الصوفي لا يسأل من احد شيئا ولا يأخذ من احد شيئا.

النعمة العظمى هي الخروج من النفس والنفس اعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.

احسن لباس العبد التواضع والانكسار، واحسن الناس العارفين التقوى ولباس التقوى ذلك الخير.

الرضا هو محبة الله الله تعالى والتسليم والخضوع لمشيئته.

شجرة المعرفة تسقى بماء الفكر، وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وشجرة التوبة بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقى بماء الاتفاق والاخلاص.

التقوى هي الوقوف على الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها.

الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر وانقطع الى الله دون البشر واستوى عنده المال والمدَرْ. (التستري)

الوفي من يملك الأشياء اقتدارًا ولا يملكه شيء اقتهارًا. (المغربي)

الصوفية عبيد الظواهر احرار البواطن. (الكتاني)

الصدق صحة التوحيد مع القصد. (الواسطي)

الصدق عماد الامر وبه تمامه وفيه نظامه وهو ثاني النبوة. (الدقاق)

انا لا اعمل ولكني اسمع فافعل والله يأمر بالفعل. (الغزالي)

لا تعلقوا الجواهر في اعناق الخنازير. (الغزالي)

ان من الفساد ان يسارع احد الى تكفير احد لانه يخالفه في مذهبه.

الوقت ما بين، الماضي والمستقبل. (الغزالي)

التوحيد هو اقرار الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال احاديثه. (الجنيد)

كل وقت يمر يأخذ بعضي ويورث قلبي حسرة ثم يمضي. (الغزالي)

ان الله مع كل شيء وقبل كل شيء وفوق كل شيء ومظهر كل شيء.

ليس هناك في الوجود موجود حقيقي الاّ الله تعالى وكل ما سواه مستمد منه. (الغزالي)

الارادة هي التجرد لله في السلوك الى كمال التوحيد وهي ممدوحة ومطلوبة. (القشيري)

الجاهل يحزم قبل ان يعلم ويغضب قبل ان يفهم لا يمكن تمام الفهم إلاّ مع الاعين بالعقل.

يا ابن ادم انما انت عدد فاذا مضى يوم مضى بعضك سبحان المتصف وحده بالكمال.

الخوانق والربط والزوايا والتكيّات الصوفية

من الصعب تحديد الفروق بين هذه الاسماء الاربعة، فهي مرادفة وقد ترد ولكل منها معنى مختلف بالرغم من وجود تقارب في الهدف وطريقة عملها.

الخوانق كلمة فارسية تعني دار اهل التصوف ومكان سكنهم وتعبدهم وحيث يتلقون العلوم الدينية ويمارسون طقوسهم، كل حسب طريقته ومعتقده. ثم اخذت لاحقًا طابع نزل يؤمّه المسافرون وابناء السبيل. ويحق لزائر خانقاه، غير الصوفي، ان ينزل ضيفًا، ولكن لمدة محدودة وليس على الدوام، اذ لا يجوز لمن ليس صوفيًا السكن الدائم وأن يأكل زادهم، وليس لهم تغيير شرط صاحب الوقف في تقديم المعونة لغير اهل التصوف.

وكان لكل خانقاه شيخ يشرف على حسن سيرها، وهذه الشيوخ كانت ترتبط بسلطة شيخ الشيوخ، وكان مقره في دمشق، الخانقاه السمياطية، ويرجع في اموره وسلطته الى نائب السلطان.

اما الزوايا فكانت تطلق على مساجد صغيرة او امكنة في الجوامع الكبيرة، كالجامع الاموي حيث كان يوجد العديد من الزوايا منها: زاوية نصر المقدسي المعروفة بالزاوية الغزالية نسبة الى ابي حامد الغزالي، وقيل ان كتابه «احياء علوم الدين» كُتب فيها، والزاوية الاسدية، والمنجانية، والقوصية، والشيخية والمالكية.

الزاوية كانت مدرسة دينية، مكان تجمّع للصوفية، يقيم فيه احد الشيوخ

لتلقين التلاميذ والمريدين اصول علم الدين والفقه، كما ان هذه الزوايا في القرى وبعض المدن، اخذت طابع نزل يؤمّه المسافرون، فنرى الرحالة المشهور ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧م) ينتقل في تجواله في البلاد الاسلامية، من زاوية الى اخرى، حيث يقدم له كل ما يحتاج من الطعام. وفي جبل الدروز في سوريا، انتشرت «المضافات» في جميع القرى، حيث كان ينزل المسافرون ويقدم لهم ما يحتاجون من الطعام والمنامة فلا يسألون، حتى عن اسمائهم او غاية سفرهم، وهذه «المضافات» قد تكون زوايا تحولت على مرّ السنين الى مضافات يؤمّها الغريب في سفره.

يقول الدكتور نقولا زياده: «يبدو من الاطلاعات الكثيرة ان دمشق كان فيها في ايام المماليك ثمان وسبعون زاوية للرجال وزاويتان للنساء ولم يكن يكلف المقيمون، سواء في ذلك اهل البلد والغرباء او المقيمون دومًا والضيوف انفسهم اي مشقة، فقد كان رزقهم يأتيهم رغدًا، فكانوا من ثمة يصرفون وقتهم كله في العبادة والتعليم، اذ ان الزوايا كانت مراكز للتعليم، شأنها في ذلك شأن المدارس، إلاّ انها كانت اكثر انطواء حتى في الدروس الدينية. من المهم ان نتذكر انه ليس من السهل الفصل بين العلم والتقوى في الاسلام».[1]

ثم يقول الدكتور زيادة: «مع ان الزوايا كانت من مراكز العلم، بالاضافة الى امور اخرى، فان النظر فيها لم يكن لقاضي القضاة، فقد كانت مستقلة وكان لها مدبّروها. فكل زاوية، حتى ولو سميت خانقاه او رباط، كان لها شيخ يرجع اليه في امور جماعته او اتباعه. وكان هؤلاء الشيوخ جميعًا تحت امرة شيخ الشيوخ الذي كان في وقت واحد مدبرًا للجميع وحلقة اتصال بينهم وبين اصحاب السلطان ثم يقول: «إلاّ ان الزوايا كانت تحت رقابة شديدة

١- «دمشق في عهد المماليك» ص ١٢٦ و١٢٧.

خَشيةَ ان ينضم اليها شيعة او اسماعيلية، والواقع ان الكثيرين ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقيمون فيها، كانوا كثيري الحرص على تعقب هؤلاء[1]

من أسباب تشجيع المماليك، وهم سنَّة، على نشر التصوف كان لمحاربة الشيعة التي كانت انتشرت انتشارًا كبيرًا في بلاد الشام، فكانت المدارس والزوايا، وهي تحت اشراف الدولة، اداة لمكافحة الشيعة ودعم النفوذ الرسمي.

انتشرت الزوايا في البلاد الاسلامية إلاّ في بغداد حيث لم تشر كتب التاريخ إلاّ نادرًا الى وجودها، اذ ان الصوفيين في العراق لم ينجرفوا الى العزلة كمتصوفة مصر وفارس وبلاد الشام، «بل كانت اجتماعاتهم وحلقاتهم تقام في المساجد والمجالس الخاصة ومنازلهم حيث كان يجتمع المريدون والتلاميذ يستمعون الى شرح شيوخهم وتوجيهاتهم الدينية وتعاليمهم الروحية».

يقول الدكتور اسعد السّحمراني: «يؤكد ما ذهبنا اليه ان الزوايا سميت في البدء في المغرب العربي وبعض البلاد الافريقية الشمالية والوسطى، رباطات، وهي مشتقة من رباط الخيل التي وردت في الآية الكريمة. «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوكم واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم.»[2] ويقال رابط الجيش في الثغر، اي اقام فيه للحماية والمدافعة.[3]

١- «دمشق في عهد المماليك» ص ١٦٢ و١٦٣.

٢- سورة الانفال آية ٦٠.

٣- «التصوف» ص ١٦١، أسعد السحمراني.

ثم يقول الدكتور السّحمراني: «فالرباطات إذن لم تكن عملاً فرديًا، او بمبادرة لهدف خاص، وانما قامت بالتخطيط لها الدولة الاسلامية، وحددت مواقعها وصفاتها كي تنجح في تحقيق الغرض الذي بنيت من اجله. والمشهور في تاريخ المغرب أن أول الرباطات كان رباط المنستير في تونس، فهو اول رباط اقامه العرب بأفريقيا اسسه الوالي هرثمة بن أعين على غرار ما حصن به الرشيد العباسي ثغور البلاد الاسلامية في الشرق.»[١]

كما قلنا سابقًا، الربط في شمال افريقيا، خاصة في المغرب، كانت حصونًا للدفاع عن الدولة في وقت الاضطراب، وهذه الربط، اصبحت في القرن الخامس هجري ملتقى للصوفية يجتمعون فيها للعبادة وتلقين علوم الدين للمريدين والتلاميذ.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «ويتصل بهذا ايضًا دور الصوفية في الجهاد بالمرابطة في الثغور الاسلامية لحمايتها ضد المعتدين على حدود دار الاسلام. والتصوف الاسلامي نشأ وتطور واستمر الى عهد قريب مجاهدًا مرابطًا. والرباطات، وهي قلاع حربية حصينة، كانت في اصلها وتطورها خانقاهات للصوفية المرابطين فيها للجهاد ضد اعداء المسلمين. فعبادان كانت في الاصل اول رباط تجمع فيه متطوعة البصرة للدفاع عن هذا الثغر الاسلامي، وفيه رابط عدد كبير من كبار مشايخ الصوفية، مثل مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٨هـ)[٢]، وحمّاد بن سلمة (المتوفى سنة ١٦٧هـ)[٣]، وبشر الحافي[٤].[٥]

١- «التصوف» ص ١٦٢، أسعد السحمراني.

٢- «تاريخ بلخ»، مخطوط باريس رقم ١١٥ ورقة رقم ٥٢ أ.

٣- «الاعتدال». الذهبي مجلد ١ ص ٢٧٨.

٤- «كيمياء السعادة». الغزالي ص ١٧١.

٥- «تاريخ التصوف الاسلامي» ص ٢٦.

ثم يقول الدكتور بدوي: «وكثير من الرباطات مرتبط بشيوخ صوفية كبار. فرباط العباد بالقرب من تلمسان في الجزائر كان حول قبر سيدي ابي مدين، ورباط تافرطست على حدود وادي سبو في المغرب يحتوي على مسجد وقبر لأميرين من بني مرين، ورباط تسكيدلت في جنوب غربي وهران يضم قبر احد الأولياء من بني ازناس. وفي المشرق انشأ نور الدين زنكي في عام ٥٤٣هـ الخانقاه القديم في حلب[١]

ويصف ابن جبير حياة وزوايا الصوفية في دمشق بقوله: «اما الرباطات، التي يسمونها الخوانق، فكثيرة وهي برسم الصوفية وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على احسن منظر يصر. وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك لهذه البلاد، لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش، واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان. فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والاخرة. وهم على طريقة شريفة وسنة من المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوّق جميلة، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوّقًا. بالجملة فاحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشًا طيبا هنيئًا.»[٢]

١- المصدر نفسه ص ٢٧.

٢- «رحلة ابن جبير» ص ٢٣١.

ثم يقول ابن جبير: «ومن اعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في اعلاه مساكن لم يُر اجمل اشراقًا منها وهو من البلد بنصف ميل، له بستان عظيم يتصل به، وكان منتزهًا لاحد ملوك الاتراك وقد استوهبه نور الدين زنكي من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤبدًا لهم.»(1)

انتشرت الخوانق او الزوايا في البلاد الاسلامية باعداد كبيرة وكانت دورًا لاهل التصوف يؤمّونها للعبادة وتعليم الدين للمريدين والتلاميذ، وكما قلنا سابقًا، منازل للمسافرين وابناء السبيل، منها قصور فخمة، وفيها بيوت، كما فيها خلوات لنسّاك يبغون العزلة والانفراد لعبادة الله تعالى.

سنذكر بعض هذه الخوانق، إمّا لحسن بنائها او لاهمية بانيها الدينية او السياسية، فالمجال قصير والخوانق كثيرة فلا بدّ من الاختصار.

رباط عبادان في جنوب العراق والمنستير في تونس ورد ذكرهما سابقًا فلا فائدة من التكرار، فالخوانق التي قد تهم القارئ هي:

خانقاه سعيد السعداء في مصر

يقول المؤرخ المقريزي: «دار سعيد السعداء وكانت اول دار تعرف في الدولة الفاطمية. وسعيد هذا هو الاستاذ قنبر ولقبه سعيد السعداء، وكان من عتقاء المستنصر وقتل سنة ٥٤٤هـ. فسكن داره الوزير رزيك ثم شاور، فلما ولي صلاح الدين الايوبي جعلها برسم فقراء الصوفية والواردين من البلاد الشاسعة، ويقصد الاجانب عن مصر، ووقفها عليهم سنة ٥٦٩هـ. وولى عليها شيخًا، ووقف عليهم اوقافًا، وشرط ان من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها، تكون للفقراء، ومن اراد منهم السفر يعطى اجرة السفر.

١- المصدر السابق ص ٢٣١.

ورتب للصوفية في كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا، وبنى لهم حمامًا بجوارهم، فكانت اول خانقاه عملت بديار مصر وعُرفت بدويرة الصوفية ونُعت شيخها بشيخ الشيوخ» ثم يقول: «وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وترجى بركتهم، وولى مشيختها الاكابر والاعيان كاولاد شيخ الشيوخ بن حمويه، وذو الرياستين الوزير الصاحب، وقاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن، ونزل بها الاكابر من الصوفية وكان الناس يأتون من مصر الى القاهرة يوم الجمعة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون الى صلاة الجمعة بالجامع الحاكمي كي تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم».[١]

وقد عمل لاحقًا بهذه الخانقاه تغيرات في مبانيها فصارت بشكلها الحالي مسجدًا يُعرف اليوم بجامع سعيد السعداء بشارع الجمالية في القاهرة.

خانقاه الامير بيبرس الجاشنكير

هي الخانقاه الركنية التي ذكرها المقريزي باسم خانقاه ركن الدين بيبرس[٢] وقال: «ان هذه الخانقاه من جملة دار الوزارة الكبرى وهي اجل خانقاه بالقاهرة بنيانًا واوسعها مقدارًا واتقنها صنعة، بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير قبل ان يلي السلطنة وهو امير. فبدأ في بنائها في سنة ٧٠٦هـ وأتمها في سنة ٧.٩هـ، وبنى بجانبها رباطًا كبيرًا يوصل اليه من داخلها، وجعل بجانب الخانقاه قبة بها قبره. وقرر ان يقيم بالخانقاه اربعمائة صوفي، وبالرباط مائة من الجند وابناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخًا يفرق على كل منهم في كل يوم الخبز واللحم والحلوى، ورتب بالقبة درسًا للحديث النبوي.»[٣]

١- «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار».

٢- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٤١٦.

٣- المصدر نفسه. مجلد ٨ ص ١٧٤ (الحاشية).

هذه الخانقاه لا تزال الى اليوم موجودة بشارع الجمالية في القاهرة باسم جامع بيبرس او البيبرسية او خانقاه بيبرس، مكتوب على واجهتها اسم السلطان بيبرس والقابه وتاريخ انشاء الخانقاه، وعلى يسار الداخل من الباب العمومي قبة شاهقة بها قبر منشئها، وكانت مخصصة لاقامة الصوفية.

خانقاه سرياقوس

يقول المقريزي: «هذه الخانقاه خارج القاهرة من شمالها على نحو بريد منها باول تيه بني اسرائيل بسماسم قضاء سرياقوس، انشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون على بعد فرسخ في الشمال الشرقي من بلدة سرياقوس. بدأ في عمارتها في شهر ذي الحجة سنة ٧٢٣هـ وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى بجانبها مسجدًا تقام به صلاة الجمعة، وحمامًا ومطبخًا تحت هذه العمارة واحتفل بافتتاحها يوم ٧ جمادى الاخرة سنة ٧٢٥هـ بحضور الملك الناصر ورتب لها الاوقاف الكافية وقد اقبل الناس على البناء والسكن بجوار هذه الخانقاه وبنوا الدور والحوانيت والخانات والحمامات حتى صارت بلدة كبيرة باسم خانقاه سرياقوس نسبة الى هذه الخانقاه.»(١)

ان هذه الخانقاه اندثرت وكانت واقعة في الفضاء المجاور لجامع الملك الاشرف من الجهة الغربية، وهي اليوم احدى قرى مركز القناطر مديرية القلبونية بمصر في الشمال الشرقي من مدينة القاهرة. بعد وفاة شيخها مجد الدين موسى بن احمد بن محمد الاقصرائي، اصبحت سرياقوس في عهد الملك الناصر مدينة عظيمة بها القصور والبساتين والحوانيت.

ويقول المقريزي عن ترف الصوفية في خانقاه سرياقوس: «ويصرف فيها لكل صوفي رطل لحم من الضأن في طعم شهي، ومن الخبز النقي أربعة أرطال، ويصرف له في كل شهر مبلغ اربعين درهمًا فضة، ورطل حلوى،

١- «الخطط» المقريزي مجلد ٢. ص ٤٢٢.

ورطلان زيتًا من زيت الزيتون، ومثل هذا من الصابون، ويصرف له ثمن كسوة كل سنة، وتوسعة في كل رمضان وفي العيدين، وفي مواسم رجب وشعبان وعاشوراء، وكلما قدمت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها. وفي الخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والادوية، وبالخانقاه الجرائحي والكحّال ومصلح الشعر، وفي كل رمضان يغدق على الصوفية كيزان لشرب الماء، وتبيّض لهم قدورهم النحاس، ويعطون حتى الأشنان لغسل الايدي من وضر اللحم. وبالحمام حلاق لتدليك ابدانهم وحلق رؤوسهم، فكان المنقطع بها لا يحتاج لشيء غيرها ويتفرغ للعبادة.» ثم يقول: «واقول فأين ذلك كله من احوال الصوفية الاوائل الذين اشتهروا بالزهد وفلسفوا الجوع والسهر، فلا عجب ان يتوافد الصوفية على مصر من كل بلاد الشام ويعيشون في هذه الخانقاوات عيشة الترف.»

خانقاه ام آنوك

انشأتها الخاتون طغاي والدة الامير آنوك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون في الصحراء تجاه الامير طاشمر الساقي، فكانت من اجلّ المباني وجعلت بها الصوفية. في هذه الخانقاه، التي لا تزال موجودة، قبة تحتها تربة الخاتون طغاي التي بنتها. وهذه التربة كائنة على ناحية شارعي خوند طغاي والسلطان احمد المجاورني شرقي القاهرة[1]

الخانقاه الجاولية

هذه الخانقاه على جبل يشكر بجوار مناظر اللبش، انشأها الامير علم الدين سنجر الجاولي سنة ٧٠٣هـ، وهي موجودة اليوم باسم الجامع الجاولي بقرب جامع ابن طولون بشارع مراسينا. ومن ينظر الى الوجهة الفنية لهذا الجامع، يرى مجموعة فنية تلفت الانظار برونقها وحسن شكلها.[2]

١- «الخطط» المقريزي. مجلد ٩ ص ١٨٧ الحاشية.

٢- المصدر نفسه مجلد ٩ ص ٨٣.

رباط الاثار

هذا الرباط خارج مصر بالقرب من بركة الحبش مطل على النيل ومجاور للبستان المعروف بالمعشوق، عمّره الوزير الصاحب تاج الدين بهاء الدين علي بن حنا ومات قبل ان يكمله فاكمله الصاحب ناصر الدين محمد بن تاج الدين وقيل له رباط الاثار لان فيه قطعة خشب وحديد يقال انها من اثار رسول الله «صلعم» اشتراها تاج الدين المذكور وحفظها بهذا الرباط يتبرك الناس بها ويعتقدون النفع بها.[١]

الخانقاه الظاهرية

كانت بخط بين القصرين، بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية، انشأها الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٦هـ[٢]

خانقاه ابي العباس البصير

كانت بباب الحرق واصلها مسجد ابو الفتح يانس الارمني، وزير الخليفة الحافظ بالله الفاطمي انشأها سنة ٥١٦هـ بظاهر باب السعادة، ثم عُرف هذا المسجد فيما بعد بزاوية الشيخ ابي العباس البصير لانه اقام بها واتخذه زاوية لفقرائه. وكانت هذه الزاوية على الخليج المصري بجوار قنطرة الامير حسين. خربت هذه الزاوية وزالت اثارها.[٣]

١- «الخطط» المقريزي مجلد ١١ ص ٢٧٢ الحاشية.

٢- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٤١٨.

٣- «الخطط» المقريزي مجلد ١١ ص ١١٨. حاشية.

خانقاه النجمية

هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية بين قلعة الجبل وقبة النصر. انشأها الامير طغتر النجمي، فجاءت من المباني الجليلة، ورتب بها عدة من الصوفية وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدي، وبنى بجانبها حمامًا وغرس في قبليها بستانًا وعمل بجانب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ووقف على ذلك عدة اوقاف، فلما ماتت أزباي زوجة القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السر سنة ٨٠٨هـ دفنها خارج القصر ثم نقلها الى خانقاه طغتر ودفنها بالقبة التي فيها. رتب لفقراء هذه الخانقاه معلومًا وجددها فاتسعت في بنائها. الخانقاه غير موجودة الان[١]

خانقاه البرقوقية

كانت خانقاه كبيرة للصوفية وكان بها خلاوٍ عديدة لهم. انشأ هذه الخانقاه عام ٨٠١هـ الملك الناصر فرج ابن برقوق وكانت في جبانة المماليك بينها وبين جبانة العباسية المعروفة بجنانة الغفير في القاهرة[٢]

وفي كتاب العقود الفريدة يذكر المقريزي الخوانق التالية، الخانقاه الشيخونية انشأها عام ٧٥٦هـ الامير شيخونه، الخانقاه بشتاك أنشأها عام ٧٣٦ هـ الأمير بشتاك الناصري، الخانقاه البندقدارية أنشأها عام ٦٨٣ هـ الأمير علاء الدين البندقداري، الخانقاه قبة النصر، يسكنها صوفية العجم، جددها الملك الناصر محمد بن السلطان قلاوون.

١- المصدر نفسه مجلد ٢ ص ٤٢٥.

٢- «الخطط» المقريزي. مجلد ١٢ ص ١٠٣.

خانقاه شيخون

بُنِيت خانقاه الامير الكبير شيخون العمري بالصليبية وكان شيخها العلاّمة اكمل الدين محمد البابرتي الحنفي (توفي عام ٧٨٦هـ) وهذه الخانقاه اصبحت تُعرف بجامع شيخون القبلي لوقوعها تجاه جامع شيخون البحري، وكانت من اكبر واكمل الخوانق في القاهرة، وكان يعلوها مساكن للطلبة ذات دورين تشرف بشكلها الجميل على صحن الجامع. كملت هذه الخانقاه عام ٧٥٥هـ.(١)

اما في دمشق فكانت الخوانق عديدة سنذكر فقط اهمها لضيق المجال وتجنب الملل، ويعتمد على الكتاب القيم، خطط دمشق، للكاتب اكرم حسن العلبي الذي يسجل بدقة تامة معظم اسماء الخوانق.

خانقاه دويرة حمد التي بنيت عام ٤٠٠هـ في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله وكانت اول خانقاه بُنيت في دمشق.

الخانقاه السمساطية

اشهر الخوانق في دمشق، اوقفها ابو القاسم علي بن محمد بن يحيى السّلمي السمياطي، وكان من اكبر الرؤساء بدمشق، توفي عام ٤٥٣هـ. كانت من قبل دارًا لعبد العزيز بن مروان والد الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.

كان شيخ الخانقاه السمياطية يعد شيخ جميع الخوانق في دمشق ويلقب بشيخ الشيوخ ويرجع بسلطته الى نائب السلطان. في عام ٨٢٤هـ جعلها القاضي ابن حجي مدرسة لسماع القرّاء والمدّاح لا للاقامة والتصوف، وتسمى اليوم الزاوية الشميصاتية. يقول المؤرخ المملوكي تغري بردي، سميت بالسمساطية، نسبة الى سميساط مدينة على شاطئ الفرات في بلاد الروم.(٢)

١- «الخطط» المقريزي. مجلد ١٠ ص ٣٠٣.

٢- «النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة». ص ١٧٢.

الخانقاه السليمانية

بنيت عام ٩٧٤هـ وتقع الى جوار المتحف الوطني على ضفاف نهر بردى، وقد امر ببنائها السلطان سليمان القانوني وصمم بناءَها المهندس العثماني المشهور «سنان»، وهي عبارة عن مجموعة عمرانية فخمة تتميز بقبابها الكثيرة. تقسم الخانقاه الى قسمين: الكبرى وتتألف من مسجد ومدرسة، والصغرى الملاصقة لها وتتألف من حرم للصلاة وغرف عديدة للتعليم وباحة واسعة.

تعتبر هذه الخانقاه من اهم واعظم العمارات التي تركها العثمانيون في دمشق، وقد اوقف عليها تسع وثلاثون قرية منها الزبداني وصيدنايا ودوما وغيرها، كما عيّن فيها ما ينوف على مائة موظف بين مدرس وامام ومقرىء كما ان مساحتها حوالي احد عشر الف متر مربع.

الخانقاه الاسدية

كانت تقع هذه الخانقاه داخل باب الجابية بدرب الهاشميين. انشأها اسد الدين شيركوه الايوبي الذي كان الساعد الايمن لنور الدين زنكي في حدود عام ٥٦٠هـ ولا اثر لها اليوم.

الخانقاه الحسامية

اوقفتها الخاتون ست الشام، اخت السلطان صلاح الدين الايوبي، وذلك في حدود عام ٥٨٥هـ. وكانت تقع بالصالحية شمال المدرسة الشبلية الرانية.

الخانقاه الطواويسية

بنتها صفوة الملك لابنها دقاق بن تتش عام ٥٠٤هـ وهي من اقدم الاثار السلجوقية.

الخانقاه الارمورية

بنيت هذه الخانقاه عام ٦٠٠هـ فوق مرمى الروضة بقاسيون وتنسب الى الشيخ عبد الله بن يونس الارموري وكان صالحًا زاهدًا يعتبر من كبار مشايخ الصوفية.

الخانقاه القلندرية الدركزينية

تنسب الى عدد من الشيوخ برزمنهم الشيخ محمد بن يونس جمال الدين الشاوجي الذي عرف بزهده وتقشفه وكان شيخ الطريقة القلندرية. بنيت حوالى عام ٦١٦هـ قرب قبر السيدة سكينة.

خانقاه ستي رابعة

تحولت هذه الخانقاه الى مسجد عام ٦٣٦هـ. ورابعة هي رابعة الشامية الصوفية التي تزوجت الصوفي احمد ابن ابي الحوّاري. ورثت ثروة كبيرة عن ابيها انفقتها على الصوفية.

ثم كانت الخوانق: السلطان سليم، جعفر بن عبد الله العدوي، والربوة، واليونسية، والمولوية وغيرها.

اما في مدينة حلب فيقول المؤرخ كامل الغزي البالي الحلبي: «والخانقاه الناصرية، محلها تجاه المحلة الزينية، وهي خانقاه عظيمة واسعة مشتملة على بضع حجر يسكنها العتقاء السود، ونسبتها الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي، لانه هو الذي عمّرها. بنيت عام ٦٥٣هـ، كما يوجد خانقاه، تكتية بابا بيرم لاهل القلندرية. وخانقاه زين الدين الصوفي والتكية الصالحية وشيخ ابي بكر.»(١)

١- «كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب». مجلد ٢ ص ١١٥.

والخوانق التي انتشرت في حلب عديدة من اهمها: خانقاه القصر، انشأها الملك العادل نور الدين زنكي عام ٥٥٣هـ خانقاه القديم، انشأها ايضًا نور الدين زنكي واشرف على عمارتها شمس ابو قاسم الطرسوسي.

خانقاه الست ام الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي عمّرت عام ٥٧٨هـ. خانقاه البلاط انشأها شمسي الخواص لولو الخادم، وهي اول خانقاه بنيت في حلب عام ٥٠٩.

نكتفي بهذا العدد من الخوانق ومن يريد الاطلاع على الخوانق في حلب اقترح عليه قراءة كتاب «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب» ابن الشحنة.

اما في مكة المكرمة فيذكر المؤرخ محمد بن احمد الفاسي في كتابه «شفع الغرام في بلاد الحرام» حوالي خمسين رباطًا صوفيًا، منها رباط رامشت المشهور الذي بناه الشيخ ابو القاسم ابراهيم ابن الحسين الفارسي عام ٥٢٩هـ ورصد له الاوقاف وعيّن له الشيوخ وكان يؤمه العديد من الصوفية. ثم الرباط المعروف برباط السدرة، بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل الى المسجد الحرام من باب بني شيبة. ويقول الرحالة ابن بطوطة: «وفي مكة زاوية ربيع وهي من احسن الرباطات في مكة بداخلها بئر عذبة لا تماثلها بئر في مكة، وكان أهل مكة يعظمون هذه الزاوية تعظيمًا شديدًا وينذرون لها النذور، ومن عاداتهم ان كل من له بستان من النخيل والفواكه، يخرج منه العشر لهذه الزاوية.»

يصف الرحالة العربي المشهور محمد بن ابراهيم اللواتي، المعروف بابن بطوطة، الزوايا الصوفية التي كانت منتشرة في البلاد العربية خلال رحلته التي امتدت من عام ٧٠٤ – ٧٧٩هـ، فنجد انه كان ينتقل من قرية الى اخرى ويسكن في زوايا للصوفية حيث يقدم له الطعام وكل ما يحتاجه في سفره من معونة.

الزوايا التي يذكرها ابن بطوطة عديدة، منها ما كان فخمًا كبيرًا ومنها ما كان خلوات صغيرة ولكنها كانت تحت اشراف الصوفية يقومون بخدمتها وخدمة الواردين عليهم على ان يكونوا من اهل التصوف.

فهرس

المراجع والمصادر

أ- مخطوطات

-: مخطوطة شرح للأمير السيد عبدالله التنوخي.

-: المصحف المنفرد بذاته

-: سجل سرائر الأول والأخير ومعالم الاكوار والأدوار

-: الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية.

-: درر النحور في التوبة الى الملك الغفور للشيخ جمال الدين بن علي الكفرقوتي.

-: الصحيفة السجادية. دعاء الامام علي زين العابدين.

-: تنوير الابصار للامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت.

-: درة الغواص من اوهام الخواص. الامام القاسم بن علي الحريري.

-: شرح تائية محي الدين عربي. لعبدالله الرومي.

-: كتاب النقط والدوائر. زين الدين عبد الغفار تقي الدين.

-: كتاب مختصر البيان في مجرى الزمان. زين الدين عبد الغفار تقي الدين.

ب. مراجع عربية.

ابن الأثير.

١- الكامل في التاريخ.

٢- اسد الغابة في معرفة الصحابة.

ابن منظور. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

ابن القلانسي. تاريخ دمشق تحقيق الدكتور سهيل زكار.

ابن كثير. البداية والنهاية.

رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا. (٤ أجزاء مع الرسالة الجامعة)

التوحيدي ابو حيان. كتاب الامتناع والمؤانسة، تحقيق لويس معلوف

الكرماني احمد حميد الدين.

١- راحة العقل.

٢- الرسالة الواعظة.

٣- الرياض. تحقيق عارف تامر.

٤- المصابيح في اثبات النبوة.

المسعودي ابو الحسن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر.

بدوي عبد الرحمن

١- افلوطين عند العرب

٢- مذاهب الاسلاميين. الجزء الأول والثاني.

٣- شخصيات قلقة في الاسلام.

٤- تاريخ التصوف الاسلامي.

٥- افلاطون في الإسلام.

لويس ماسينيون

١- سلمان الفارسي.

٢- دراسة عن الحلاّج.

السهروردي المقتول

رسالة اجنحة اسرائيل

هنري كوربان

١- السهروردي مؤسس المذهب الاشراقي.
٢- تاريخ الفلسفة الاسلامية.
٣- الشيعة الاثناعشرية.
الشيرازي المؤيد في الدين
مذكرات داعي الدعاة.
ابن خلدون
المقدمة.
تاريخ ابن خلدون.
ابن رشد
١- تهافت التهافت.
٢- تلخيص كتاب النفس.
ابن سينا
١- الاشارات والتنبيهات.
٢- المبدأ والميعاد.
٣- منطق الشفاء.
٤- منطق المشرقيّين.
أبو الحسن الأشعري
مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين
البخاري محمد بن اسماعيل
صحيح البخاري.
خسرو ناصر
سفرنامه.

ابن تغري بردي

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

ابن تيمية

١. التصوف والفقراء.

٢. الرسائل الكبرى.

٣. الرد على المنطقيين.

٤- معارج الأصول.

محمد احمد درنيقة

ابن تيمية والصوفية.

الغزالي ابو حامد

١- تهافت الفلاسفة.

٢- احياء علوم الدين.

٣- مشكاة الأنوار.

٤- فضائح الباطنية. تحقيق عبد الرحمن بدوي.

٥- المنقذ من الضلال. تحقيق جميل صليبا وكامل عياد.

٦- مقاصد الفلاسفة. تحقيق سليمان دنيا.

فخري ماجد

١- تاريخ الفلسفة الاسلامية.

٢- دراسات في الفكر العربي.

الاعسم عبد الأمير

١- الفيلسوف الغزالي.

٢- أبو حيّان التوحيدي.

مرحبا، محمد عبد الرحمن.

من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية.

الزين سميح عاطف

١- الصوفية في نظر الاسلام.

٢- ابن سبعين.

تامر عارف

١- ابن سينا في رحاب اخوان الصفا.

٢- تاريخ الاسماعيلية (٤ أجزاء).

٣- معجم الفرق الاسلامية.

٤- اربع رسائل اسماعيلية.

الاهوائي، احمد فؤاد

١- رسالة الاتصال ابن الصائغ.

٢- رسالة النفس اسحق بن حنين.

٣- رسالة الاتصال ابن رشد.

٤- رسالة العقل يعقوب الكندي.

المرتضى احمد بن يحيى

طبقات المعتزلة.

النيسابوري

في التوحيد.

الشكعة مصطفى

١- اسلام بلا مذاهب.

٢- الأئمة الأربعة.

الامام مالك ابن انس
الموطّأ.
الامام احمد بن حنبل
المسند.
المقريزي تقي الدين
١- اتعاظ الحنفاء باخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.
٢- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار.
٣- درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة (جزءان)
٤- امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والأموال والحفدة والمتاع.
ابن بطوطة
رحلة ابن بطوطة، تحقيق كرم البستاني
ابن ابي الحديد
شرح نهج البلاغة.
علي بن ابي طالب
١- نهج البلاغة، تحقيق الامام محمد عبده. طبع عام ١٨٨٥م.
٢- الجفر الجامع والنور اللامع.
ابن خلكان
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان.
ابن كثير
البداية والنهاية.
الباقلاني محمد بن الطيب
التمهيد في الرد على المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة.

قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني

١- تبيت دلائل النبوة. تحقيق عبد السلام عثمان.

٢- شروح الاصول الخمسة. تحقيق عبد السلام عثمان.

٣- المفني في أبواب التوحيد والعدل (١٤ جزءًا).

البيروني ابو ريحان

تحقيق ما للهند من مقولة.

الجويني ابو المعالي عبد الملك

الارشاد الى قواطع الادلة في اصول الاعتقاد.

الرازي محمد بن عمر

المباحث الشرقية.

القاضي النعمان ابو حنيفة بن محمد بن حيّون المغربي

١- الأرجوزة المختارة.

٢- اختلاف اصول المذاهب.

البغدادي عبد القاهر

الفرق بين الفرق.

القلقشندي، ابو العباس احمد

نهاية الارب في معرفة انساب العرب.

العبادي احمد مختار

١- في التاريخ العباسي والفاطمي.

٢- من التاريخ العباسي والأندلسي.

عطوان حسين

الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي.

شلبي محمود

حياة سلمان الفارسي.

سيد الأهل، عبد العزيز

الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز.

الشيخ محمد آل الفقية

١- ابو ذر الغفاري.

٢- سلمان الفارسي.

٣- المقداد بن الأسود الكندي.

صدر الدين شرف الدين

عمّار بن ياسر حليف مخزوم.

المصري، حسين مجيب

سلمان الفارسي عند العرب والفرس.

معروف نايف

الخوارج في العصر الأموي.

السهروردي المقتول

مقامات الصوفية. تحقيق اميل المعلوف

يزبك، يوسف ابراهيم

١- اوراق لبنانية (٣ مجلدات).

٢- الجذور التاريخية لحرب لبنان.

٣- ولي من لبنان. حياة الأمير السيد عبدالله جمال الدين التنوخي .

ارسلان الأمير شكيب

بنو معروف اهل العروبة والاسلام.

السحمراني اسعد

التصوف منشأه ومصطلحاته.

الفارابي، ابو نصر

١- الواحد والوحدة.

٢- رسالتان فلسفيتان، تحقيق جعفر آل ياسين

غالب مصطفى

١- الحلاّج الحسين بن منصور.

٢- السهروردي.

٣- تاريخ الدعوة الاسماعيلية.

العوا، عادل

١- حقيقة اخوان الصفا.

٢- المعتزلة والفكر الحرّ.

المسبحي، محمد بن عبيد الله

اخبار مصر في سنتي ٤١٤ و٤١٥. تحقيق ميلورد.

الاغرناطي، علي بن بشرى.

عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس.

السجستاني، ابو يعقوب

١- اثبات النبوءات.

٢- رسالة تحفة المستجبين.

٣- كتاب المصاحف.

ايبش الدكتور يوسف.

١- الامام والامامة عند الشيعة.

٢– الخلافة وشروط الزعامة عند اهل السنة.
٣– السهروردي المقتول.
٤– الفلسفة السياسية الاسلامية.
٥– محي الدين ابن عربي.

نوح، علي
الخطاب الاسماعيلي في التحديد الفكري الاسلامي المعاصر.

القاضي عبدالله بن عبد الكريم اليمني
المقتطف من تاريخ اليمن.

احمد اسماعيل علي
١– تاريخ بلاد الشام منذ قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي.
٢– تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي.

الحريري ابو موسى
العلويون النصيريون.

العظمة، عبد العزيز
مرآة الشام.

الثعالبي النيسابوري
تتمة اليتيمة.

النيسابوري، احمد بن ابراهيم
كتاب اثبات الامامة.

غنّام طلعت
أضواء على التصوف.

الشرقاوي، محمد عبدالله
١– الصوفية والعقل.

٢– التصوف الاسلامي.
زيدان، يوسف محمد طَه
١– الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي.
٢– الطريق الصوفي.
الراوي، عبد الستار
العقل والحريّة.
بروكلمان كارل
تاريخ الشعوب الاسلامية.
الطبري محمد بن جرير
١– تفسير القرآن.
٢– تاريخ الرسل والملوك.
ارنولد توماس
الدعوة الى الاسلام.
ابو القاسم القشيري النيسابوري
الرسالة القشيرية في علم التصوف.
سبط ابن الجوزي
مرآة الاعيان.
ابن العبري
تاريخ مختصر الدول.
سالم عبد العزيز
تاريخ الصوفية وآثارهم في الاندلس.
السيوطي الامام جلال الدين

شرح شواهد المغني.

القزويني محمد كاظم

الامام علي من المهد الى اللحد.

المبرد

اخبار الخوارج في الكتاب الكامل.

ابن العديم

بغية الطلب من تاريخ حلب (١١ جزءًا).

زيادة نقولا

١- شاميات.

٢- دمشق في عصر المماليك.

الغزي، كامل البالي الحلبي

نهر الذهب في تاريخ حلب (٣ أجزاء).

الاصفهاني، القاضي عماد الدين

البرق الشامي. (الجزءان الثالث والخامس).

الصليبي، اكرم حسن

دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.

ايڤانوف نيقولاي

الفتح العثماني للاقطار العربية.

ابو علم، توفيق

الحسين بن علي.

خالد، محمد خالد

في رحاب علي.

المسعدي، محمود

حدث ابو هريرة قال... .

عبد الرحمن عائشة

قراءة وثائق في البهائية.

سيّد محمود القمني

١- النبي ابراهيم والتاريخ المجهول

٢- ربّ الزمان.

٣- الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الاسلامية.

زيّود، محمد احمد

العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والاخشيدي.

الشرباصي، أحمد

الغزالي والتصوف الاسلامي.

ابن جرير الطبري

دلائل الامامة.

دهمان، محمد

ولاة دمشق في عهد المماليك.

سباهي عزيز

اصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية.

عبد الفتاح امام

معجم ديانات واساطير العالم.

الحفني عبد المنعم

الموسوعة الصوفية.

قتيبة الشهابي

مشيدات دمشق ذوات الاطرحة وعناصرها الجمالية.

محمد غازي عرابي

مصطلحات التصوّف.

حماده محمد عمر

تاريخ الصابئة المندائيين.

السيوطي

تاريخ الخلفاء.

ابن جبير

رحلة ابن جبير.

ابو الفرج العبري

تاريخ الزمان.

ابن عربي محي الدين

١- الفتوحات المكية (٤ أجزاء).

٢- فصوص الحكم.

٣- رسائل ابن عربي.

٤- محاضرة الأَبرار ومسامرة الأخيار (أربعة أجزاء).

الانصاري عبد الرحمن

مشارق انوار القلب .

علي جواد

المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (عشرة أجزاء).

بهجت احمد

بحار الحب عند الصوفية.

جبر فريد

ترجمة وتحقيق تاسوعات افلوطين.

قاسم عبد الكريم عبد الغني
المذاهب الصوفية ومدارسها.
الشعراني الامام عبد الوهاب
الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية.
النجار عامر
الطرق الصوفية في مصر.
انعام احمد قدوم
التشيع والتصوف.
جمال نصار حسين
الطريق الى الطريقة.
فريد الدين العطّار
منطق الطير.
ابن الجوزي جمال الدين
تلبيس ابليس.
الدكتورة سعاد الحكيم
١- المعجم الصوفي.
٢- ابن عربي ومولد لغة جديدة. (١٤ جزءًا)
الجيلاني عبد القادر
الغنية لطالبي طريق الحق.
السواح فراس
الاسطورة والمعنى.
السهروردي ابو حفص
عوارف المعارف.

العزيز السيد جاسم
متصوفة بغداد.
عبد السلام السامرائي
الغلو والفرق الغالية.
الامام ابو محمد الدنيوي
المسائل والاجوبة في الحديث والتفسير.
عرابي محمد غازي
النصوص في مصطلحات التصوف.
الامام الشعراني
الانوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية.
الحسيني عبد المنعم
المعرفة عند الحكيم الترمذي.
الإمام النووي
الانكار.
محمد كردعلي
خطط الشام.
الطوسي ابو نصر السرّاج
اللمع في التصوف.
الشيبي، كامل مصطفى
الصلة بين التصوف والتشيع.
عفيفي، ابو العلاء
١- التصوف والثورة الروحية في الاسلام.
٢- الملامتية والصوفية واهل الفتوة.

فتاح عبد الحميد

نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها

ألن جونس

العدة الجالس.

برنارد لويس

اصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية.

سيد حسين نصر

ثلاثة حكماء مسلمين.

ناجي حسين جودة

المعرفة الصوفية.

ديسّو رنيه

العرب في سوريا قبل الاسلام.

عبد الرحمن ابن الجوزي

فضائل القدس.

محمد الحداد

الافغاني.

يحيى شامي

أروع ما قيل في الزهد.

عمر فروخ

اخوان الصفا.

محمد احمد خلف الله

الكواكبي.

الامام شرف الدين المقدسي

كتاب الاربعين على مذهب المتحققين من الصوفية.

عبد العزيز السيروان

الصوفيون وارباب الاحوال.

يورغن هابرماس

الفلسفة الالمانية والتصوف اليهودي.

ابو عبد الرحمن السلّمي

اصول التصوف والزهد.

المقدسي ابن القيسراني

صفوة التصوف.

الحلاّج الحسين بن منصور

ديوان الحلاج وكتاب الطواسين.

محي الدين الطعمي

طبقات الشاذلية.

محمد درنيقة

الشيخ عبد القادر الجيلاني واعلام القادرية.

عباس محمود العقّاد

ابن الرومي حياته من شعره.

عبد الرحمن الانصاري

مشارق انوار القلوب.

حسن الباشا

القاهرة، تاريخها، فنونها، آثارها.

هشام جعيط

١- الفتنة.

٢- الكوفة.

محمد أركون

١- الاستشراق - بين دعاته ومعارضيه.

٢- قضايا في نقد العقل الديني.

٣- تاريخية الفكر العربي الاسلامي.

كمال اليازجي وانطوان غطّاس كرم

اعلام الفلسفة العربية.

عمانوئيل كنت

نقد العقل المجرّد، ترجمة أحمد الشيباني.

مراجع أجنبية:

Julian Baldick

1- Imaginary Muslims.

2- Mystical Islam.

Bernard Lewis

1- The Arabs in history.

2- Islam.

Rafique Keshavjec

Mysticism and the Plurality of Meaning.

J. Spencer Trimingham

1- The Sufi Orders in Islam.

2- The Influence of Islam Upon Africa.

3- Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times.

Peter Smith

A Short History of the Baha'i Faith.

Gerhard Endress

The Ancient Tradition in Christian and Islamic Hellenism.

Hamid Hajj

Hamid al-Din al-Kirmani

Ali Hassan Abdel Kader

The Life, Personality and Writing of Al-Junayd.

Albert Hourani

1. Minorties in the Arab World.
2. A History of the Arab peoples.

Majid Fakhry. A History of Islamic Philosophy.

John Lewis Burkhard

1. Bedouins and Wahabys.
2. Travels in Syria and the Holy Land.

Vladimir Minorsky. Iran and Islam

Edward W. Said.

1. Orientalism.
2. Culture and Imperialism.
3. The Politics of Disposession.

Marwan Buheiry. The Formation and Perception of the Modern Arab World.

F.E. Peters. Aristotle and the Arabs.

Yusuf Al-Qaradawi. The Lawful and the Prohibited in Islam.

Sidi Ali Al-Jamal. The Meaning of Man.

John Richards. The Mughal Empire.

Heing Halm. Shiism.

Martin Lings. Sheikh Ahmad Al-Alawi: A Sufi Saint of the twentieth Century.

Noam Chomsky. Chronicles of Dissent.

Farhad Daftary. The Ismailis.

Engin Akarli. The Long Peace, Ottoman Lebanon.

Paul E. Walker. Early Philosophical Shiism.

Roger Stevens. The Land of the Great Sophy.

Silvestre de Sacy. Exposé de la Religion des Druses

Humphrey J. Fisher. Ahmadiyyah.

Ignaz Goldziher. Introduction to Islamic Theology and Law.
A.G. Ravan Farhadi. Abdullah Ansari of Herat.
Reynold A. Nicholson.
1. Tales of Mystic Meaning.
2. The mystics of Islam.
3. Studies in Islamic Mysticism.
William Stoddart. Sufism.
Javad Nurbakhshi 1. Seven Essays on Sufism.
2. In the Paradise of the Sufis.
3. Masters of the Path.
Yusuf Ibish. The Political Doctrine of al-Baqillani.
Carl W. Ernst. Ruzbihan Baqli.
Ian Richard Netton. Seek Knowledge.
Lucy M. Garnett. The Dervishes of Turkey.
Alexandre Bennigsen. Mystics and Commissars: Sufism in the Soviet Union.
Peter B. Clarke. West Africa and Islam.
Ali Salih Karrar. Sufi Brotherhoods in Sudan.
M.W. Daly. Al Majdhubiyya and al-Mikashfiyya: Two Sufi Orders in Sudan.
Ibn Arabi. Sufis of Andalusia.
E.H. Whinfield. Teachings of Rumi: The Mathnavi.
Abd al-Razzak al-Kashani. Sufi Technical Terms.
O.M Burke. Among the Dervishes.
J.K. Birge. The Bektashi Order of Dervishes.
Charles Taylor. Hegel.
Edward J. Jurji. The Great Religions of the Modern World.
Tarif Khalidi. Arabic Historical Thought in the Classical Period.
Bryan Magee. The Great Philosophers.